راما

جنة

جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة سمية ممدوح الشامي

جنة راما

تأليف
جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة
سمية ممدوح الشامي

مراجعة
إيمان جمال الدين الفرماوي



جنة راما

جنتري لي وآرثر كلارك

The Garden of Rama

Gentry Lee and Arthur C. Clarke

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٣ ٢٣ ٠٠٣٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٩١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لروكيت بابليشينج كومباني ليمتد عناية ديفيد هايام أسوشيتس ليمتد.

Copyright © Rocket Publishing Company Ltd. and Gentry Lee, 1991. To discover more about how the legacy of Sir Arthur is being honoured today, please visit http://www.clarkefoundation.org.

المحتويات

إهداء

إلى سريلانكا
حيث تسلَّقتُ سُلم الآلهة.

شكر وتقدير

قدَّم الكثيرون إسهاماتٍ جليلةً لهذه الرواية. وفي مقدمتهم — من حيث التأثير العام — المحرر لو أرونيكا. فقد شكلت التعليقات التي أدلى بها في البداية هيكل الرواية ككل، وأسهمت مراجعته النهائية التي تميزت ببعد النظر في تعزيز انسيابية العمل تعزيزًا كبيرًا.

وكان صديقنا العزيز والعلَّامة جيري سنايدر خير عونٍ مرةً أخرى؛ إذ تفضَّل بحل ما واجهنا من مشكلات فنية كبُرت أم صغُرت. وإن اتسمت الفقرات الطبية في الرواية بالدقة والمصداقية، فالفضل في هذا يعود إلى دكتور جيم ويلرسون. أما إن ورد أي خطأ فيها، فهو مسئولية المؤلفَين وحدهما.

ونحن في بداية كتابة هذا العمل، حمَّل جيهي أكيتا نفسه عناء مساعدتنا في إيجاد المواقع المناسبة لأن تكون خلفيةَ المشاهد اليابانية. ورحب أيضًا ترحيبًا بالغًا بمناقشة كل ما يتعلق بعادات وطنه وتاريخه نقاشًا مستفيضًا. وفي تايلاند كانت السيدة واتشاري مونفيبون مرشدًا ممتازًا أطلعنا على عجائب هذا البلد.

تتناول الرواية جوانب عديدة من حياة النساء بتفصيل شديد، خاصة مشاعرهن وطريقة تفكيرهن. على الدوام كانت بيبي باردن وستيسي كيدو لي على استعداد للحديث معنا بشأن طبيعة المرأة. وأمدتنا السيدة بيبي أيضًا بالأفكار المتعلقة بحياة وشعر بنيتا جارسيا.

وقدمت ستيسي إسهامات مباشرة كثيرة في «جنة راما»، لكن الأهم هو ما قدمته عن طيب خاطر من دعم لجهودنا. أثناء كتابة الرواية وضعت ستيسي ابنها الرابع ترافيس كلارك لي. نشكرك يا ستيسي كثيرًا على كل ما قدمتِه.

مذكرات نيكول

١

٢٩ ديسمبر ٢٢٠٠

أول من أمس، في الساعة العاشرة وأربع وأربعين دقيقة بتوقيت جرينتش، أطلت سيمون تياسو ويكفيلد على الكون. لقد كانت تجربة مذهلة. كنت أعتقد أنني شعرت بمشاعر جياشة من قبل، ولكن الأحاسيس التي اعتملت في نفسي على مدار حياتي لم يبلغ أيٌّ منها القوة التي بلغها إحساسي بالفرح والارتياح عندما سمعت أخيرًا أول صرخة تطلقها سيمون؛ ومن ذلك: مشاعري تجاه وفاة أمي، وفوزي بالميدالية الذهبية الأوليمبية في لوس أنجلوس، والست والثلاثون ساعةً التي قضيتها مع الأمير هنري، وحتى مولد جنيفياف على مرأى من والدي الذي ظل ساهرًا في المستشفى الواقع في مدينة تور.

كان مايكل قد توقع أن تولد الطفلة في يوم عيد الميلاد. وقال بأسلوبه المحبب المعهود إنه يؤمن بأن الله «سيجعل لنا آية» بأن يأتي بطفلنا المولود في الفضاء في اليوم الذي يؤمن أن المسيح قد وُلد فيه. هنا سخِر ريتشارد كما يفعل زوجي دائمًا عندما تتقد حماسة مايكل الدينية. ولكن بعد أن شعرتُ بأول موجة من الانقباضات القوية عشية عيد الميلاد أوشك ريتشارد نفسه أن يصبح مؤمنًا.

كان نومي في الليلة السابقة لعيد الميلاد متقطعًا. وقبل أن أستيقظ، رأيت حلمًا عميقًا واضحًا كفلق الصبح. رأيت فيه أنني كنت أسير بجوار بحيرتنا في بوفوا، ألعب مع بطتي دنوا ورفاقها من البط البري، عندما سمعتُ صوتًا يناديني. لم أستطع التعرف على الصوت، ولكنني كنت على يقين من أن المتحدث امرأة. أخبرتني أن الولادة ستكون صعبة للغاية، وأنني سأحتاج إلى كل ذرة من قوتي كي آتي بطفلتي الثانية إلى النور.

في يوم عيد الميلاد نفسه تبادلنا الهدايا البسيطة التي طلبها كلٌّ منا سرًّا من سكان راما، ثم بدأت أدرب مايكل وريتشارد على مواجهة سلسلة من الطوارئ المحتملة. أعتقد أن سيمون كانت ستولد بالفعل يوم عيد الميلاد لو لم يكن عقلي الواعي واعيًا إلى هذه الدرجة بأن كلا الرجلين غير مهيأين على الإطلاق لمساعدتي إذا ما حدثت مشكلة كبيرة. وربما تكون إرادتي وحدها هي التي تسببت في تأخير ميلاد الطفلة يومين.

ومن بين الطوارئ التي ناقشناها يوم عيد الميلاد احتمال أن يكون وضع الطفل مقلوبًا. منذ شهرين، عندما كان لطفلتي المنتظرة حرية الحركة في رحمي، كنت متأكدة تمامًا من أن رأسها إلى أسفل. ولكني أعتقد أنها انقلبت في الأسبوع الأخير. كان تفسيري صحيحًا نسبيًّا. فقد تمكنت من النزول إلى قناة الولادة برأسها، غير أن وجهها كان متجهًا إلى أعلى باتجاه معدتي، وبعد موجة الانقباضات الشديدة الأولى، عَلِقت مقدمةُ رأسِها الصغير بتجويف الحوض في وضع صعب.

لو كنا في مستشفى على كوكب الأرض، لكان الأرجح أن يجري الطبيب عملية قيصرية، ولأصبح بالتأكيد على استعداد لمواجهة إجهاد الجنين، ولشرع في التدخل بالأدوات الجراحية الآلية في وقت مبكر لمحاولة قلب رأس سيمون قبل أن تنحشر وتصبح في هذا الوضع المؤلم.

قرب النهاية، أصبح الألم شديدًا. حاولت أن أصرخ بالتوجيهات إلى مايكل وريتشارد في اللحظات التي تفصل بين الانقباضات الشديدة التي تدفعها باتجاه عظامي الصلبة. كان ريتشارد عديم النفع تقريبًا. إذ لم يستطع التعامل مع موقف المخاض (أو «الورطة»، كما أطلق عليها لاحقًا)، كما لم يستطع المساعدة في إجراء شق جراحي لتوسيع مخرج الولادة، أو في استخدام ملقط الولادة الذي أحضرناه من راما. أما مايكل — باركه الرب — فقد كافح بشهامة ليتبع تعليماتي التي كانت في بعض الأحيان غير واضحة وجبينه يتصبب عرقًا رغم برودة الغرفة. فالتقط المشرط من علبة أدواتي واستخدمه ليشق فتحةً أوسع في جسدي، وبعد لحظة من التردد بسبب رؤية ذلك القدر الهائل من الدماء، عثر على رأس سيمون باستخدام ملقط الولادة. ونجح بطريقة ما — في محاولته الثالثة — في أن يُعيدها إلى قناة الولادة وفي أن يقلبها حتى تصبح الولادة ممكنة.

أطلق الرجلان صيحةً عندما ظهرت سيمون في فتحة المهبل. ظللتُ أركز على نمط تنفسي، وكلي خوف من أن أفقد الوعي. ورغم مداهمة الألم الشديد لي، فقد أطلقتُ بدوري صرخةً عاليةً عندما اندفعت سيمون بفعل الانقباضة القوية التالية لتتلقفها يدا مايكل. كانت مهمة قطع الحبل السري من نصيب ريتشارد بصفته والد الطفلة. وعندما انتهى،

رفع مايكل سيمون لأراها. وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع: «إنها فتاة.» ثم وضعها برفق على بطني فاعتدلتُ قليلًا لأراها. كان أول انطباع أخذته هو أنها تشبه والدتي تمامًا.

أجبرت نفسي على أن أبقى يقظة حتى أُزيلَت المشيمة وحتى أنهَيتُ — بمساعدة مايكل — خياطة الجروح التي فتحها مايكل بالمشرط. ثم انهرت. لا أذكر الكثير من التفاصيل المتعلقة بالساعات الأربع والعشرين التي تلت ذلك. كنت متعبة جدًّا من المخاض والوضع (كانت الانقباضات تحدث كل خمس دقائق طيلة إحدى عشرة ساعة قبل أن تولد سيمون فعلًا) حتى إنني كنت أنام كلما أُتيحَت لي الفرصة. أقبلت ابنتي الجديدة على الرضاعة دون أن يستحثها أحد على ذلك، حتى إن مايكل يؤكد أنها رضعت مرة أو مرتين وأنا شبه نائمة. وأصبح اللبن يندفع في ثديي فور أن تبدأ سيمون في الرضاعة. وعندما تنتهي كان يبدو عليها الشبع. وسرَّني أن لبني كفاها؛ إذ إنني كنت خائفة من أن أواجه معها نفس المشكلة التي واجهتها مع جنيفياف.

كلما استيقظت وجدت أحد الرجلين بجواري. كانت ابتسامات ريتشارد دائمًا ما تبدو مفتعلة بعض الشيء، ولكنني كنت أقدرها على الرغم من هذا. أما مايكل فكان يسرع بوضع سيمون في يدي أو عند ثديي عندما أستيقظ. كان يمسكها بطريقة مريحة حتى وهي تبكي ويظل يتمتم: «إنها جميلة».

والآن، تنام سيمون بجواري ملفوفة بشيء يشبه البطانية صنعه سكان راما (إنه لفي غاية الصعوبة وصف الأقمشة، بخاصة، باستخدام كلمات تصف النوعية مثل «ناعم»، على نحو يمكن أن يفهمه مضيفونا كميًّا). إنها تشبه والدتي بالفعل. فلون بشرتها أسمر، ربما أشد سمرةً من بشرتي، وشعرها أسود فاحم. ولون عينيها بني داكن. ونظرًا إلى أن رأسها لا يزال مخروطيًّا مشوَّهًا بفعل الولادة الصعبة، ليس من السهل وصف سيمون بالجميلة. ولكن مايكل محق بالطبع. إنها فائقة الجمال. تستطيع عيناي أن تريا بسهولةٍ الجمال الكامن في أعماق هذا المخلوق الضعيف الذي يميل لونه إلى الحمرة ويتنفس بسرعة شديدة. مرحبًا بكِ في عالمنا يا سيمون ويكفيلد.

٢

٦ يناير ٢٢٠١

مر عليَّ يومان حتى الآن وأنا مكتئبة. وكذلك متعبة، أوه، متعبة جدًّا. ومع إدراكي أنني أمرُّ بحالة عادية من حالات اكتئاب ما بعد الولادة، فإنني عجزت عن التخفيف من شعوري بالاكتئاب.

كان هذا الصباح هو الأسوأ. استيقظت قبل ريتشارد واستلقيت في هدوء على الجزء الخاص بي من الفراش. وألقيت نظرة على سيمون التي كانت نائمة في سلام في مهدها الموضوع بمحاذاة الحائط. وعلى الرغم من إحساسي بالحب تجاهها، لم أستطع أن أتصور أفكارًا إيجابية عن مستقبلها. فقد انكسرت أجنحة النشوة التي رفرفت على مولدها واستمرت مدة اثنتين وسبعين ساعةً. وظل سيلٌ متصل من الأفكار اليائسة والأسئلة التي لا إجابة لها يجري في عقلي. تُرى، كيف ستكون حياتك يا صغيرتي سيمون؟ كيف يمكننا، أنا ووالدك، أن ننهض بعبء تأمين السعادة لك؟

ابنتي الحبيبة، إنك تعيشين مع والديك وصديقهما المخلص مايكل أوتول في ملجأ تحت الأرض على متن سفينة فضاء عملاقة لا تنتمي إلى كوكب الأرض. والثلاثة الراشدون الذين ستعرفينهم على مدار حياتك جميعهم رواد فضاء من كوكب الأرض، وهم من أفراد طاقم بعثة نيوتن التي أُرسلت منذ حوالي عام لاستكشاف عالَم أسطواني صغير اسمه راما. وكانت والدتك ووالدك والجنرال أوتول هم البشر الوحيدون الباقون على متن السفينة الفضائية عندما حولت راما مسارها فجأة لتتفادى الإبادة بفعل قاذفات فالنكس النووية التي أطلقتها الأرض المصابة بجنون الارتياب.

وفوق ملجئنا، تقع مدينة على جزيرة فيها ناطحات سحاب غريبة نسميها نيويورك. وهذه المدينة محاطة ببحر متجمد يطوق مركبة الفضاء الضخمة هذه تطويقًا كاملًا ويقسمها نصفين. في هذه اللحظة، نحن، وفقًا لحسابات والدك، في مدار كوكب المشتري (مع أن هذا الكوكب نفسه، والذي هو عبارة عن كرة غازية هائلة، يقع على الجانب الآخر من الشمس بمسافة شاسعة) سائرين في مدار قطع زائد سيلقي بنا في نهاية المطاف خارج المجموعة الشمسية بأسرها. نحن لا نعرف إلى أين نحن سائرون. ولا نعرف من صنع هذه السفينة أو لماذا صنعها. كل ما نعرفه هو أن هناك سكانًا آخرين على متنها، ولكن ليس لدينا فكرة عن المكان الذي جاءوا منه، ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نشك في أن بعضهم على الأقل قد يكونون معادين لنا.

ظلت أفكاري تسير على نفس الوتيرة مرارًا وتكرارًا على مدى اليومين الماضيين. وفي كل مرة أتوصل إلى نفس النتيجة المحبِطة، وهي أنه ليس من المُغتفر أننا — باعتبارنا بالغين ناضجين — جئنا بهذا المخلوق الضعيف البريء إلى بيئة لا نفهم عنها إلا أقل القليل وليس لنا عليها أية سيطرة.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم، فور أن أدركت أن اليوم هو عيد ميلادي السابع والثلاثين، بدأت أبكي. في البداية كنت أبكي في صمت، بلا صوت، ولكن عندما بدأت تتدفق

إلى عقلي ذكريات جميع أعياد ميلادي السابقة، حل النحيب محل البكاء الصامت. إذ كنت أشعر بحزن شديد يعتصر قلبي، لا على سيمون وحسب، وإنما على نفسي أيضًا. وعندما تذكرت الكوكب الأزرق الرائع الذي جئنا منه ولم أستطع أن أتخيل وجوده في مستقبل سيمون، ظللت أسأل نفسي نفس السؤال. لماذا أنجبت طفلةً ونحن في خضم هذه الورطة؟

ها هي تلك الكلمة ثانيةً. إنها إحدى الكلمات المفضلة لريتشارد. ففي المفردات التي عادةً ما يستخدمها، تأتي كلمة «ورطة» في استخدامات لا تحصى. فهو يشير بكلمة «ورطة» إلى كل ما هو فوضوي أو خارج عن السيطرة، سواء أكان مشكلة فنية أم أزمة عائلية (مثل زوجة تنتحب وهي تعاني من نوبة حادة من نوبات اكتئاب ما بعد الولادة).

لم يساعدني أيٌّ من الرجلين كثيرًا هذا الصباح. ولم تفلح محاولاتهما العقيمة للتسرية عني إلا في زيادة غمي. وإني لأسأل نفسي: لماذا يفترِض الرجل على الفور كلما واجه امرأةً حزينةً أن لحزنها صلة به على نحو ما؟ في الحقيقة، أنا لست عادلة في هذا. فمايكل رُزق ثلاثة أطفال وعلى دراية بعض الشيء بالشعور الذي أعايشه. فكان غالبًا ما يسألني عن نوع المساعدة التي يمكن أن يقدمها لي. أما ريتشارد، فقد تأثر بدموعي كل التأثر. وأصيب بالرعب عندما استيقظ على صوت نحيبي. وظن في بادئ الأمر أنني أعاني من ألم عضوي رهيب. لكنه اطمأن قليلًا عندما أوضحت له أنني فقط مكتئبة.

وبعد أن تيقن ريتشارد من أنه لا ذنب له في حالتي المزاجية، استمع في صمت إلى حديثي عن مخاوفي بشأن مستقبل سيمون. أقر بأنني كنت في حالة اهتياج إلى حدٍّ ما، ولكن لا يبدو أنه استوعب أيًّا مما قلت. وأخذ يردد نفس العبارة القائلة بأن مستقبل سيمون ليس أكثر غموضًا من مستقبلنا، معتقدًا أن اكتئابي ينبغي أن يزول على الفور، ما دام لا يوجد أي سبب منطقي لانزعاجي. وفي النهاية، وبعد أكثر من ساعة عجزنا فيها عن التواصل السليم، توصل ريتشارد إلى نتيجة صحيحة هي أنه غير ذي نفع، وقرر أن يتركني لحالي.

(بعد مرور ست ساعات.) أشعر بتحسن الآن. بقيت ثلاث ساعات على انقضاء عيد ميلادي. أقمنا حفلًا صغيرًا الليلة. انتهيت لتوِّي من إرضاع سيمون وها هي ترقد بجواري. تركنا مايكل منذ حوالي خمس عشرة دقيقةً؛ ليذهب إلى حجرته على الجانب المقابل من الردهة. استغرق ريتشارد في النوم في أقل من خمس دقائق بعد أن وضع رأسه على الوسادة. إذ قضى اليوم كله في العمل على تلبية طلبي بالحصول على حفاضات محسنة.

يستمتع ريتشارد بإمضاء وقته في الإشراف على تفاعلاتنا مع سكان راما أو مع أيٍّ ما كان يشغِّل أجهزة الكمبيوتر التي نُفعِّلها بالضغط على لوحة المفاتيح الموجودة في حجرتنا،

وفي عمل قوائم بتلك التفاعلات. لم نرَ قط أي شخص أو أي شيء في النفق المظلم الذي يقع خلف الشاشة السوداء مباشرة. ولذا لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت توجد هناك بالفعل مخلوقات تستجيب لمطالبنا وتأمر مصانعها بأن تصنع حاجياتنا الغريبة، غير أنه من المناسب أن نشير إلى مضيفينا المحسنين إلينا باعتبارهم سكان راما.

عملية التواصل معهم معقدة ومباشرة في آنٍ واحد. هي معقدة لأننا نتحدث معهم باستخدام صور تظهر على الشاشة السوداء، وصيغ كمية دقيقة بلغة الرياضيات والفيزياء والكيمياء. وهي مباشرة لأن الجمل الفعلية التي ندخلها باستخدام لوحة المفاتيح ذات تركيب بسيط بساطة مدهشة. وأكثر ما نستخدمه من الجمل هو: «نود أن نحصل على» أو «نريد»، يتبعها وصفٌ مفصل لما نود أن يزودونا به (بالطبع، لا نستطيع أن نعرف بأية حال الترجمة الدقيقة لطلباتنا، فنحن نفترض أننا نستخدم صيغة مهذبة، ولكن يُحتمل أن التعليمات التي نصدرها تظهر لهم في صورة أوامر وقحة تبدأ بـ «أعطني»).

الجزء الأكثر صعوبةً في هذه العملية هو الجزء المتعلق بالكيمياء. فالأشياء البسيطة التي نستخدمها يوميًّا كالصابون والورق والزجاج معقدة كيميائيًّا، ويصعب جدًّا وصفها من حيث العدد ونوع المركبات الكيميائية. وفي بعض الأحيان، يكون علينا أيضًا أن نصف عملية التصنيع بما فيها من أنظمة حرارية؛ وإلا فسنحصل على شيء لا يحمل أدنى شبهٍ بما طلبناه، وهذا ما اكتشفه ريتشارد في مرحلة مبكرة من عمله على لوحة المفاتيح والشاشة السوداء. وتتضمن عملية الطلب قدرًا كبيرًا من المحاولة والخطأ. ولم تكن مجدية على الإطلاق في البداية. وأخذنا نتمنى، نحن الثلاثة، لو أننا كنا نذكر المزيد من الكيمياء التي درسناها في الكلية. في الواقع، كان عجزنا عن تحقيق تقدم مرضٍ في تزويد أنفسنا بالضروريات اليومية أحدَ العوامل التي حفزت على القيام بـ «الرحلة العظيمة» — كما يحب ريتشارد أن يطلق عليها — التي قام بها الرجلان منذ أربعة أشهر.

في هذا الوقت كانت الحرارة المحيطة، في الجانب الأعلى من نيويورك وفيما تبقى من راما، قد وصلت بالفعل إلى خمس درجات تحت الصفر، وكان ريتشارد قد أكد أن البحر الأسطواني قد تجمد مرةً أخرى. بدأ يساورني القلق من أننا قد لا نصبح على استعداد كافٍ لمولد الطفل. كنا نستغرق وقتًا طويلًا أكثر مما ينبغي في القيام بكل شيء. فعلى سبيل المثال، استغرقت محاولة طلب وتركيب حمام صالح للاستخدام شهرًا كاملًا، ولم تفِ النتيجة إلا بالحد الأدنى من المراد حتى الآن. في أغلب الأحيان، كانت مشكلتنا الأساسية تتمثل في أننا نمد مضيفينا بمواصفات غير كاملة. غير أنه في بعض الأحيان تأتي المشكلة

من جانب سكان راما أنفسهم. فكثيرًا ما أخبرونا — باستخدام لغتنا المشتركة، لغة الرموز الحسابية والكيميائية — أنهم لن يستطيعوا إتمام تصنيع شيء معين في غضون الوقت الذي حددناه.

على أية حال، أعلن ريتشارد ذات صباح أنه سيترك ملجأنا ويحاول أن يصل إلى المركبة العسكرية التي شاركت في بعثة نيوتن والتي لم تتحرك من مكانها. كان هدفه المعلن هو استعادة العناصر الأساسية لقاعدة البيانات العلمية المخزنة في أجهزة الكمبيوتر بالمركبة (مما سيساعدنا مساعدةً كبيرةً في صياغة طلباتنا لسكان راما)، ولكنه أقر أيضًا بأنه يتحرق للحصول على بعض الطعام ذي الطعم المستساغ. لقد نجحنا في أن نبقى على قيد الحياة وبصحة جيدة بفضل الأطعمة المعدة من مكونات كيميائية التي وفرها لنا سكان راما. غير أن معظم الطعام كان إما لا طعم له أو كريه المذاق.

إحقاقًا للحق أقول إن مضيفينا كانوا يلبون طلباتنا كما يجب. ومع أننا كنا نعرف كيف نصف المحتويات الكيميائية الأساسية التي تحتاجها أجسادنا معرفةً عامةً، فإن أيًّا منا لم يدرس من قبل بالتفصيل العملية الحيوية الكيميائية المعقدة التي تحدث عندما نتذوق شيئًا ما. وفي تلك الأيام الأولى، كان الأكل ضرورة، لا متعة على الإطلاق. وغالبًا ما كان يصعب علينا، إن لم يكن يستحيل، بلع «المادة اللزجة». وحدث أكثر من مرة أن أصابنا الغثيان بعد تناول الوجبات.

أمضينا حوالي يوم في مناقشة الحجج التي تؤيد الرحلة العظيمة والحجج التي تعارضها. لقد وصل حملي إلى المرحلة التي تصاحبها الإصابة بالحموضة، وكنت أشعر بعدم الارتياح. ومع أنني لم أَمِل إلى فكرة البقاء بمفردي في ملجئنا بينما يشق الرجلان طريقهما في الثلج، ويحددان موقع مركبة استكشاف الأجسام الفضائية، ويعبران «السهل الرئيسي»، ثم يقطعان عدة كيلومترات وصولًا إلى محطة الترحيل الرئيسية؛ فقد سلمت بأنهما سيساعدان بعضهما من عدة نواحٍ. واتفقت معهما على أن قيام شخص واحد فقط بالرحلة يعد من قبيل التهور.

كان ريتشارد متأكدًا تمامًا من أن مركبة الاستكشاف ستكون صالحة للعمل ولكنه لم يكن متفائلًا بالقدر نفسه بشأن التلفريك. وناقشنا باستفاضةٍ الأضرار التي ربما تكون قد لحقت بسفينة نيوتن العسكرية بعد ما تعرضت له وهي خارج راما من انفجارات نووية وقعت خارج الدرع الواقي. خمن ريتشارد أنه ما دام لا توجد أضرار مرئية في الهيكل (فقد شاهدنا صور سفينة نيوتن العسكرية على الشاشة السوداء عدة مرات خلال الشهور التي مرت منذ الانفجارات وحتى وقتنا هذا، وذلك باستغلال قدرتنا على الوصول

إلى المعلومات التي جاءت بها المستشعرات التي صنعها سكان راما)؛ فإنه من المحتمل أن تكون راما نفسها قد حمت السفينة من كل الانفجارات النووية دون قصد، ونتيجةً لهذا قد لا يكون الجزء الداخلي من السفينة قد أصيب بأي ضرر ناتج عن الإشعاع.

لم أكن متفائلة بشأن الاحتمالات. فقد عملت مع المهندسين البيئيين في وضع تصميمات الدروع الواقية لسفن الفضاء وكنت على وعي بمدى قابلية كل نظام من أنظمة نيوتن الفرعية للتأثر بالإشعاع. ومع أنني كنت أعتقد أن هناك احتمالًا كبيرًا بأن تكون قاعدة البيانات العلمية سليمة (فمعالجها وذاكرتها مصنوعان من أجزاء معالجة لمقاومة الإشعاع)، كنت تقريبًا متأكدة من أن المخزون الغذائي سيكون ملوثًا. كنا دائمًا على علم بأن أغذيتنا المعلبة مخزنة في موقع غير محمي نسبيًّا. وقبل الانطلاق، في واقع الأمر، ثارت بعض المخاوف من أن حدوث توهج شمسي غير متوقع قد يُنتج إشعاعًا يكفي لجعل الطعام غير آمن.

لم أخَف من الإقامة بمفردي في المدة التي سيمضيها الرجلان في رحلة الذهاب والعودة إلى السفينة العسكرية، والتي قد تستغرق بضعة أيام أو أسبوعًا. وإنما أثار مخاوفي احتمال عدم عودة أحد الرجلين أو كليهما. وهذا الخوف لا يتعلق بالأوكتوسبايدر أو أي مخلوقات فضائية أخرى قد تكون على متن هذه السفينة الفضائية الضخمة معنا. إذ كانت هناك أمور بيئية نجهلها يجب أن تُؤخَذ أيضًا بعين الاعتبار. ماذا سيحدث لو بدأت راما مناورة فجأة؟ ماذا سيحدث لو وقع أي حدث مشئوم آخر منعهما من العودة إلى نيويورك؟

أكد ريتشارد ومايكل لي أنهما لن يقوما بأية مجازفات، وأنهما لن يقوما بأي عمل سوى الذهاب إلى السفينة العسكرية والعودة منها. ورحلا مباشرةً بعد فجر أحد أيام راما التي يبلغ طولها ثمانيًا وعشرين ساعة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أمكث فيها بمفردي منذ إقامتي الطويلة وحدي في نيويورك التي بدأت عندما سقطت في الحفرة. بالطبع، لم أكن وحيدة فعلًا. فقد كنت أشعر بحركات سيمون بداخلي. أن تحمل طفلًا بداخلك فذاك شعور مذهل. ففكرة أن بداخلك روحًا حية أخرى تبدو لي رائعة إلى حد لا يوصف. ولا سيما عندما تكون هذه الروح طفلًا ينشأ من جيناتك أنت بصفة أساسية. كم يؤسفني أن الرجال لا يستطيعون خوض تجربة الحمل! فلو أتيح لهم ذلك، لاستطاعوا فهم سبب قلقنا الكبير نحن معشر النساء بشأن المستقبل.

بحلول اليوم الأرضي الثالث بعد رحيل الرجلين، بدأت أمر بحالة سيئة من رهاب الاحتجاز. قررت أن أخرج من ملجئنا وأن أقوم بنزهة طويلة حول نيويورك. كان الظلام يخيم على راما، ولكنني كنت أشعر بضجر شديد، فبدأت المشي على أية حال. كان الجو

باردًا جدًّا. فأغلقت سترة الطيران الثقيلة حول بطني المنتفخة. لم يمضِ على سيري سوى دقائق قليلة عندما سمعت صوتًا يأتي من بعيد. سرت قشعريرة في بدني وتوقفت على الفور. ويبدو أن الأدرينالين اندفع إلى سيمون هي الأخرى إذ أخذت تركل بقوة وأنا أُرهف سمعي ترقبًا لسماع هذا الصوت. وبعد حوالي دقيقة، سمعته مرة أخرى، كان صوت فُرش تمرُّ على سطح معدني يصحبه طنين ذو تردد عالٍ. وكان الصوت لا تخطئه أذن؛ لا بد وأن الأوكتوسبايدر كان يتجول في نيويورك. رجعت بسرعة إلى الملجأ وانتظرت طلوع الفجر على راما.

عندما ظهر الضوء رجعت إلى نيويورك وتجولت فيها. وعندما كنت في جوار الورشة الغريبة حيث سبق أن وقعت في الحفرة، بدأت الشكوك تساورني بشأن استنتاجنا بأن الأوكتوسبايدر لا يظهر إلا ليلًا. كان ريتشارد قد أكد من البداية على أنها مخلوقات ليلية. وأثناء أول شهرين مرًّا بعد أن تجاوزنا الأرض، وقبل أن نبني الشبكة الواقية التي تمنع الزوار غير المرحب بهم من النزول إلى ملجئنا، نشر ريتشارد سلسلة من أجهزة الاستقبال البدائية (إذ لم يكن قد صقل بعدُ قدرته على وصف الأجزاء الإلكترونية لسكان راما وصفًا تفصيليًّا) حول غطاء ملجأ الأوكتوسبايدر وأكد أنه، هو على الأقل، مقتنع بأنهم لا يظهرون على السطح إلا ليلًا. وفي النهاية، اكتشف الأوكتوسبايدر كل أجهزة المراقبة التي نشرها وحطموها، غير أن هذا لم يحدث إلا بعد حصول ريتشارد على ما يعتقد أنه بيانات حاسمة تؤيد فرضيته.

ومع ذلك، لم يخفف استنتاج ريتشارد من قلقي عندما سمعت فجأة صوتًا عاليًا وغريبًا تمامًا يأتي من اتجاه ملجئنا. في هذا الوقت كنت واقفة في الورشة أحدق في الحفرة التي كدت أموت فيها منذ تسعة أشهر. زاد خفقان قلبي واقشعرَّ جلدي على الفور. وأكثر ما أزعجني هو أن الضجة كانت قادمة من مصدر يقع بيني وبين منزلي في راما. تسللت ببطء تجاه الصوت المتقطع في حذر وأنا أحدق حول المباني في كل خطوة قبل أن أتقدم. وبعد فترة طويلة، اكتشفت مصدر الصوت؛ إذ كان ريتشارد يقطع أجزاءً من شبكة باستخدام منشار كهربائي صغير أحضره من نيوتن.

في الواقع، كان يتجادل هو ومايكل عندما وجدتهما. كانت هناك شبكة صغيرة نسبيًّا — تتكون من حوالي خمسمائة عقدة لها أبعاد مربعة ويبلغ طول ضلعها حوالي ثلاثة أمتار — مثبتة على إحدى السقائف المنخفضة الغريبة الموجودة على بعد مائة متر شرقي فتحة ملجئنا. كان مايكل يشكك في الحكمة من الهجوم على الشبكة بمنشار كهربائي. وعندما رأياني، كان ريتشارد يبرر ما يفعله بسرد مزايا المادة المطاطية التي صُنعت منها الشبكة.

تعانقنا وتبادلنا القبل لعدة دقائق ثم بدآ يخبراني عن الرحلة العظيمة. لم تكن الرحلة شاقة. وعملت مركبة الاستكشاف والتلفريك بلا صعوبة. كشفت آلاتهما عن أن المركبة العسكرية كانت تحتوي على قدر هائل من الإشعاع؛ لذا لم يمكثا طويلًا هناك ولم يحضرا معهما أيًّا من الطعام. ولكن قاعدة البيانات العلمية كانت في حالة جيدة. كان ريتشارد قد استخدم روتينات ضغط البيانات الفرعية الخاصة به لاستخراج أغلب ما في قاعدة البيانات ووضعها في مكعبات متوافقة مع أجهزة الكمبيوتر المحمولة الخاصة بنا. كما أحضرا حقيبة ظهر كبيرة مليئة بالأدوات، مثل المنشار الكهربائي، التي كانا يريان أنها ستفيد في إتمام تجهيزات المعيشة الخاصة بنا.

عمل ريتشارد ومايكل بلا توقف منذ ذلك الحين وحتى مولد سيمون. أصبح طلب ما نحتاجه من سكان راما أكثر سهولة بعد استخدام المعلومات الكيميائية الإضافية الموجودة في قاعدة البيانات. وقد جربت رش بعض الإسترات غير المضرة وغيرها من المواد العضوية البسيطة على الطعام مما أدى إلى بعض التحسن في طعمه. أنهى مايكل إعداد حجرته الموجودة في الجانب المقابل من الممر، وجرى تركيب مهد سيمون، وتحسنت حماماتنا تحسنًا ملحوظًا. ومع أخذ كل القيود في الاعتبار، فإن ظروف معيشتنا الآن تعد مقبولة إلى حد بعيد. ربما في وقت قريب ... ما هذا؟ إنني أسمع صوت بكاءٍ رقيق بجواري. حان وقت إطعام ابنتي.

قبل أن تنقضي آخر ثلاثين دقيقة من عيد ميلادي، أريد أن أعود إلى ذكريات أعياد ميلادي السابقة التي أثارت اكتئابي هذا الصباح. لطالما كنت أرى أن عيد ميلادي هو أهم أحداث العام. صحيح أن فترة عيد الميلاد المجيد ورأس السنة تحتل مكانة خاصة، ولكن بطريقة مختلفة، فهي فترة احتفال يشارك فيها الجميع. أما عيد ميلاد شخص معين فيركز بطريقة مباشرة أكثر عليه. كنت دائمًا ما أستغل أعياد ميلادي للتأمل والتفكر في اتجاه حياتي.

إذا حاولتُ، سأتمكن على الأغلب من تذكر شيء خاص عن كل عيد ميلاد مر عليَّ منذ أن كنت في الخامسة من عمري. بالطبع، بعض الذكريات تكون مؤثرة أكثر من غيرها. هذا الصباح، أثار الكثير من صور الاحتفالات الماضية أحاسيس قويةً بالحنين إلى الماضي، والحنين إلى وطني وأسرتي. وفي ظل حالة الاكتئاب التي غمرتني، شكوت مرَّ الشكوى من عدم قدرتي على إضفاء النظام والأمان على حياة سيمون. ولكن حتى وأنا في خضم هذا الاكتئاب، وأنا أواجه كل هذا الغموض الذي يكتنف وجودنا هنا، لم أكن لأتمنى حقًّا

ألا تأتي سيمون للحياة لتكون بجانبي. لا، فنحن مسافرتان تربطنا أوثق رابطة، وهي الرابطة التي تجمع بين أم وابنتها ونشتركان في أعجوبة الوعي التي نسميها الحياة.

كنت طرفًا في علاقة مماثلة من قبل، ليس فقط مع والدتي ووالدي، وإنما أيضًا مع ابنتي الأولى جنيفياف. ممممم! من الرائع أن صور والدتي لا تزال تبدو واضحة بشدة في مخيلتي. ومع أنها ماتت منذ سبعة وعشرين عامًا، عندما كنت في العاشرة من عمري، فإنها تركتني مع باقة من الذكريات الرائعة. آخر عيد ميلاد قضيته معها كان مميزًا جدًّا. ذهب ثلاثتنا إلى باريس بالقطار. كان والدي يرتدي بذلته الإيطالية الجديدة ويبدو وسيمًا للغاية. اختارت والدتي أن ترتدي أحد فساتينها الزاهية ذات الألوان المتعددة التي يرتديها أهل بلدها. وعادت أمي، بشعرها المصفف في طبقات ملتفة حول رأسها، إلى هيئة الأميرة السينوفوية التي كانت عليها قبل أن تتزوج والدي.

تناولنا العشاء في أحد المطاعم الراقية التي تقع في شارع متفرع من الشانزلزيه مباشرةً. ثم توجهنا إلى أحد المسارح حيث شاهدنا فرقةً كل أعضائها زنوج تؤدي مجموعة من الرقصات التي يرقصها سكان المناطق الغربية لأفريقيا. وبعد العرض، سُمِح لنا بالدخول إلى حجرات المسرح حيث عرَّفتني أمي على إحدى الراقصات، وكانت امرأة طويلة وجميلة، تتسم بشرتها بسَمار غير عادي. كانت تعود أصولها إلى ساحل العاج، وتربطها بأمي صلة قرابة بعيدة.

استمعت إلى الحوار الذي دار بينهما بلغة سينوفو القبلية وأنا أتذكر مقتطفات من تدريبي أمام جمعية بورو السرية قبل ثلاث سنوات، وتعجبت مجددًا من أن وجه أمي يصبح دائمًا معبرًا بدرجة أكبر عندما تكون وسط أهلها. ومع أن الأمسية سحرتني، فإنني لم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري وكنت أفضل أن أحظى بحفلة عيد ميلاد عادية مع أصدقاء من المدرسة. ونحن نستقل القطار في رحلة العودة إلى بيتنا في ضاحية شيلي-مازارن، لاحظت أمي أن الإحباط يرتسم على وجهي. وقالت: «لا تحزني يا نيكول، ففي العام القادم سنقيم لك حفلًا. لقد أردنا أنا ووالدك أن نستغل هذه الفرصة ونذكرك مرة أخرى بالنصف الآخر من تراثك. أنت مواطنة فرنسية عاشت حياتها كلها في فرنسا، ولكن جزءًا منك سينوفوي خالص تضرب جذوره بعمق في التقاليد القبَلية لغرب أفريقيا.»

في وقت مبكر من هذا اليوم، وأنا أتذكر رقصات ساحل العاج التي أدتها قريبة والدتي وزملاؤها، تصورت بعين الخيال للحظة أنني أدلف إلى مسرح جميل وابنتي سيمون ذات العشر سنوات بجواري؛ ولكن هذا الوهم سرعان ما تبدد. فلا توجد مسارح فيما وراء مدار المشتري. في الواقع، لن تتفهم ابنتي أبدًا المقصود بمفهوم المسرح. فالأمر برمته مربك.

ومن بين الأسباب التي دفعتني للبكاء صباح اليوم فكرة أن سيمون لن تتعرف على جدَّيها أبدًا، والعكس صحيح. إذ سيكونان شخصيتين خياليتين في نسيج حياتها، ولن تعرفهما إلا عن طريق الصور ومقاطع الفيديو فحسب. لن تحظى أبدًا بمتعة سماع صوت أمي المذهل. ولن ترى رقة وحنان الحب في عينَي والدي أبدًا.

بعد وفاة والدتي، كان والدي حريصًا بشدة على أن يجعل كل عيد من أعياد ميلادي ذا مذاق خاص. ففي عيد ميلادي الثاني عشر، بعد أن انتقلنا إلى الفيلا في بوفوا مباشرةً، تمشينا معًا تحت الثلج المتساقط بين الحدائق المقلمة في قصر شاتو دي فيلاندري. في ذلك اليوم وعدني بأن يقف دائمًا إلى جواري عندما أحتاجه. شددت قبضتي على يده ونحن نسير بمحاذاة سياج الأشجار. وبكيت ذلك اليوم أيضًا وأنا أصرح له (ولنفسي) بمدى خوفي من أن يتركني هو الآخر. فضمني إلى صدره وطبع قبلة على جبيني. ولم يُخلف وعده قط.

في العام الماضي فقط، بدأ عيد ميلادي في قطار من القطارات المتوجهة إلى منتجعات التزلج على الثلج كان ينطلق بالقرب من الحدود الفرنسية، وهي الرحلة التي أراها الآن وكأنها عمر آخر. كنت لا أزال مستيقظة عند منتصف الليل وأنا أستعيد لحظات لقائي بهنري عند الظهيرة في الشاليه الذي يقع في طرف فايسفلويوخ. لم أخبره أنه أبو جنيفياف، عندما استفسر عن ذلك بطريقة غير مباشرة؛ إذ أبيت أن أريحه بإطلاعه على هذا.

ولكنني أتذكر أنني تساءلت وأنا في القطار: هل من العدل أن أخفي عن ابنتي أن والدها هو ملك إنجلترا؟ هل احترامي لذاتي وكبريائي بلغا من الأهمية ما يمنحني مبررًا لمنع ابنتي من معرفة أنها أميرة؟ كنت أدير هذين السؤالين في رأسي وأنا أحدق مشدوهة في الليل البادي من النافذة، وعندئذٍ ظهرت جنيفياف في مكان نومي في القطار، في اللحظة المناسبة. قالت بابتسامة عريضة: «كل عام وأنت بخير يا أمي.» وحضنتني. كدت أن أخبرها بشأن أبيها. أنا متأكدة من أنني كنت سأفعل هذا إذا ما علمت بما سيحدث لبعثة نيوتن. أفتقدك يا جنيفياف. كنت أتمنى لو حظيت بتوديعك وداعًا مناسبًا.

كم يحيرني أمر الذكريات! هذا الصباح، وأنا في حالة اكتئاب، أدى سيل صور أعياد الميلاد السابقة الذي تدفق في عقلي إلى زيادة إحساسي بالعزلة والضياع. الآن، وأنا في حالة نفسية أفضل، أجد نفسي أستمتع بنفس تلك الذكريات. في هذه اللحظة لم تعد تحزنني فكرة أن سيمون لن تستطيع أن تعايش ما عايشتُه أنا. فأعياد ميلادها ستكون مختلفة تمامًا عن أعياد ميلادي وستكون فريدة بالنسبة إلى حياتها. من واجبي ومن حقي أن أسعى لأن تكون أعياد ميلادها مميزة يرفرف عليها الحب، قدر المستطاع.

٣

٢٦ مايو ٢٢٠١

بدأت سلسلة من الأحداث الغريبة تقع في راما منذ خمس ساعات. كنا نجلس معًا في ذلك الوقت نتناول وجبة العشاء المكونة من اللحم البقري المشوي والبطاطس والسلطة (أطلقنا اسمًا كوديًّا على كلٍّ من المركبات الكيميائية التي نحصل عليها من سكان راما في إطار محاولة لإقناع أنفسنا بأن ما نأكله لذيذ، وهذه الأسماء مستقاة إلى حدٍّ ما من نوع التغذية الذي تمنحه لنا هذه المركبات؛ لذا فإن «اللحم البقري المشوي» غني بالبروتين، و«البطاطس» غنية بالكربوهيدرات بصفة أساسية ... إلخ) عندما سمعنا صفيرًا واضحًا يأتي من بعيد. توقفنا جميعًا عن الأكل، وارتدى الرجلان ملابس ثقيلة ليصعدا إلى أعلى. عندما استمر الصفير، أمسكت بسيمون وملابسي الثقيلة وغطيت الرضيعة بعدة بطانيات، وخرجت وراء مايكل وريتشارد في الجو البارد.

كان الصفير أعلى كثيرًا على السطح. كنا نظن أنه قادم من الجنوب، ولكن لأن الظلام كان يلف راما، انتابنا خوف من الابتعاد عن ملجئنا. ولكن بعد دقائق قليلة، بدأنا نرى ومضات من الضوء تنعكس على أسطح ناطحات السحاب المحيطة المغطاة بالزجاج، فلم نستطع أن نتمالك فضولنا. تسللنا بحذر تجاه الشاطئ الجنوبي للجزيرة حيث لا توجد مبانٍ تحجب عنا الأبراج المهيبة في التجويف الجنوبي من راما.

عندما وصلنا إلى شاطئ البحر الأسطواني، كان يُقدم عرض أضواء مدهش. ظلت أقواس النور المتعددة الألوان التي تتطاير حولنا وتضيء الأبراج العملاقة في التجويف الجنوبي لأكثر من ساعة. حتى الرضيعة سيمون سحرتها الأنوار الصفراء والزرقاء والحمراء وهي تتراقص بين الأبراج في الظلام على شكل قوس قزح. عندما انتهى العرض فجأة، أضأنا مصابيحنا اليدوية وعدنا ثانيةً إلى ملجئنا.

بعد دقائق قليلة من المشي قطعت حديثنا المتقد صرخة طويلة قادمة من بعيد، وأدركنا أنها بالتأكيد صادرة عن أحد المخلوقات الطائرة التي كانت قد ساعدتني أنا وريتشارد في الهرب من نيويورك العام الماضي. توقفنا فجأة وأنصتنا. انتابتنا أنا وريتشارد حالة من الإثارة الشديدة لأننا لم نرَ أو نسمع أيًّا من المخلوقات الطائرة منذ أن عدنا إلى نيويورك لنحذر سكان راما من الصواريخ النووية المهاجمة. وقد سبق لريتشارد التوجه إلى ملجئها عدة مرات، غير أنه لم يلقَ أية استجابة عندما أخذ ينادي وهو يقف في الممر الرأسي الكبير.

قال ريتشارد من شهر فقط إنه يعتقد أن المخلوقات الطائرة رحلت عن نيويورك بأسرها، ولكن الصرخة التي سمعناها في هذه الليلة تشير بوضوح إلى أن واحدًا على الأقل من أصدقائنا لا يزال موجودًا هنا.

في خلال ثوانٍ، وقبل أن تتاح لنا الفرصة لمناقشة ما إذا كان أحدنا سيسير في اتجاه الصرخة أم لا، سمعنا صوتًا آخر، صوتًا مألوفًا كالصوت الأول، وقد كان عاليًا بشدة بحيث أزعجنا جميعًا. لحسن الحظ لم يكن بيننا وبين ملجئنا. لففت ذراعَيَّ حول سيمون وعدوت بأقصى سرعة باتجاه البيت، وكدت أن أصطدم بالمباني مرتين على الأقل بسبب سرعتي وأنا أجري في الظلام. كان مايكل آخر من وصل. عندها كنت قد انتهيت من فتح الغطاء والشبكة. قال ريتشارد وهو يلهث وصوت الأوكتوسبايدر يرتفع شيئًا فشيئًا حتى عمَّ المكان: «يوجد الكثير منهم.» وسلط شعاع المصباح اليدوي على الممر الطويل الذي يؤدي إلى المنطقة التي تقع شرقيَّ ملجئنا، ورأينا جميعًا شيئين كبيرين داكنين يتجهان نحونا.

عادةً ما نخلد إلى النوم في غضون ساعتين أو ثلاث ساعات بعد تناول العشاء، ولكن الليلة كانت استثناء. فقد دب النشاط في ثلاثتنا بفعل عرض الضوء، وصرخة المخلوقات الطائرة، واللقاء غير المتوقع مع الأوكتوسبايدر الذي خرجنا منه سالمين. فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. كان ريتشارد مقتنعًا بأن هناك حدثًا جللًا على وشك الوقوع. وذكَّرنا بأن مناورة الاصطدام بالأرض التي قامت بها راما كان قد سبقها هي الأخرى عرض ضوئي صغير في التجويف الجنوبي. وأضاف ريتشارد أنه في ذلك الوقت أجمع طاقم نيوتن على أن الغرض من العرض هو الإعلان عن أمرٍ ما أو ربما التحذير من خطر ما. وتساءل عن دلالة العرض الباهر الذي أُقيم الليلة.

أما عن مايكل، الذي لم يمكث في راما طويلًا قبل مرورها العابر بكوكب الأرض ولم يكن له أي احتكاك مباشر مع المخلوقات الطائرة أو الأوكتوسبايدر، فكان لأحداث الليلة تأثير كبير عليه. فعندما لمح المخلوقات ذات المجسات لمحةً عابرةً وهي قادمة تجاهنا في الممر تفهَّم بعض الشيء الرعب الذي كنت قد شعرت به أنا وريتشارد عندما كنا نتسلق بسرعة تلك النتوءات الغريبة هاربين من ملجأ الأوكتوسبايدر العام الماضي.

سألَنا مايكل الليلة قائلًا: «هل الأوكتوسبايدر هم سكان راما؟» وأضاف قائلًا: «إن كان هذا صحيحًا، فلماذا نفر منهم؟ لقد تطورت التكنولوجيا لديهم أكثر من التكنولوجيا لدينا كثيرًا حتى إن بوسعهم أن يفعلوا بنا ما يحلو لهم.»

أسرع ريتشارد بالإجابة قائلًا: «الأوكتوسبايدر ركاب في هذه المركبة مثلنا بالضبط. ومثل المخلوقات الطائرة. وهم يظنون أننا قد نكون سكان راما، ولكنهم ليسوا متأكدين. أما المخلوقات الطائرة فهي بمثابة لغز. بالتأكيد لا يمكن أن تكون مجرد نوع من أنواع المخلوقات التي تجوب الفضاء. فكيف جاءت على متن السفينة في المقام الأول؟ هل هي جزء من النظام البيئي الأصلي في راما؟»

ضممت سيمون بشدة غريزيًّا. فالأسئلة كثيرة جدًّا. والإجابات قليلة جدًّا. مرت بذهني ذكرى دكتور تاكاجيشي المسكين وهو محنط كسمكة ضخمة أو نمر ضخم، ومعروض في متحف الأوكتوسبايدر، وجعلتني تلك الذكرى أرتجف. وقلت بهدوء: «إذا كنا ركابًا، فإلى أين نحن ذاهبون؟»

تنهد ريتشارد. وقال: «كنت أقوم ببعض الحسابات. والنتائج ليست مشجعة. فمع أننا نسافر بسرعة كبيرة قياسًا بالشمس، فإن سرعتنا تافهة قياسًا بمجموعة النجوم القريبة منا. إذا لم يتغير مسارنا، فسنخرج من النظام الشمسي في الاتجاه العام لنجم برنارد. سنصل إلى مجموعة برنارد خلال عدة آلاف من السنوات.»

بدأت سيمون تبكي. فقد تأخر الوقت وكانت متعبة جدًّا. استأذنت منهم ونزلت إلى حجرة مايكل لأرضعها بينما يحلل الرجلان المعلومات التي جاءت بها المستشعرات على الشاشة السوداء ليحددا ما يحدث. رضعت سيمون بعصبية حتى إنها آلمتني في أحد الأوقات. كان انزعاجها غير معتاد بالمرة. فهي بطبيعتها طفلة هادئة. قلت لها: «أنت تشعرين بخوفنا، أليس كذلك؟» قرأت أن الرضع يشعرون بأحاسيس البالغين الموجودين حولهم. ربما يكون هذا صحيحًا.

ظللت عاجزة عن النوم حتى بعد أن غطت سيمون في نوم مريح على بطانيتها على الأرض. كانت حاسة الإنذار بالخطر تنذرني بأن أحداث الليلة تشير إلى الدخول في طور جديد من أطوار حياتنا على متن راما. ولم تطمئني حسابات ريتشارد التي تقول إن راما قد تحلق في الفضاء الواقع بين النجوم لآلاف السنوات. حاولت أن أتخيل العيش في ظل الظروف الراهنة لما تبقَّى من حياتي، فأبى عقلي. لا بد أن هذه الحياة ستكون مملة لسيمون. وجدت نفسي أصلي إلى الله أو سكان راما أو أيٍّ من يملك القدرة على تغيير مستقبلنا. كانت صلاتي بسيطة. فقد طلبت أن تؤدي التغييرات المقبلة بطريقة ما إلى تحسين مستقبل طفلتي الرضيعة.

٢٨ مايو ٢٢٠١

للمرة الثانية سمعنا الليلة صفيرًا طويلًا أعقبه عرض ضوئي مبهر في التجويف الجنوبي من راما. ولكني لم أذهب لأراه. فقد مكثت في الملجأ مع سيمون. لم يقابل مايكل أو ريتشارد أيًّا من السكان الآخرين في نيويورك. قال ريتشارد إن العرض استغرق تقريبًا نفس الوقت الذي استغرقه العرض الأول، ولكن كل عرض كان مختلفًا عن الآخر اختلافًا كبيرًا. أما مايكل فكان انطباعه هو أن الفرق الملحوظ الوحيد في العرض كان في الألوان. ففي رأيه كان اللون المهيمن الليلة هو اللون الأزرق، بينما كان اللون الأصفر سائدًا منذ يومين.

كان ريتشارد متأكدًا من أن سكان راما يعشقون العدد ثلاثة، وأنه لذلك سيكون هناك عرض ضوئي آخر عند حلول الليل. سيبدأ العرض الثالث في خلال يومين من أيام الأرض، وذلك لأن الأيام والليالي في راما أصبحت متساوية الآن تقريبًا ومجموعها ثلاث وعشرون ساعةً، وهي المدة الزمنية التي يطلق عليها ريتشارد اعتدال راما، وقد تنبأ بها زوجي الذكي تنبؤًا صحيحًا في التقويم الذي أصدره لي ولمايكل منذ أربعة أشهر. نتوقع جميعًا حدوث شيء غير معتاد بعد العرض الثالث مباشرة. سأرى ما سيحدث إلا إذا كان في ذلك خطر على سلامة سيمون.

٣٠ مايو ٢٢٠١

بدأت سرعة بيتنا الأسطواني الضخم تزداد زيادةً كبيرةً منذ أربع ساعات. ريتشارد يشعر بحماسة بالغة حتى إنه لا يستطيع تمالك نفسه. فهو مقتنع أنه يوجد تحت نصف الأسطوانة الجنوبية المرتفعة نظام دفع يعمل وفقًا لمبادئ الفيزياء على نحو يفوق تصورات أوسع مهندسي الأرض وعلمائها خيالًا. وهو يحدق في البيانات التي جاءت بها المستشعرات الخارجية على الشاشة السوداء حاملًا الكمبيوتر المحمول الحبيب الخاص به في يده، ويدخل بعض البيانات الإضافية استنادًا إلى ما يراه على الشاشة، ومن وقت إلى آخر يتمتم محدِّثًا نفسه أو مخاطبًا إيانا برأيه عن تأثير مناورة راما على مسارنا.

كنت غائبة عن الوعي في قاع الحفرة في الوقت الذي قامت فيه راما بتصحيح مدارها في منتصف رحلتها لكي تدخل في مدار من الممكن أن يحدث معه اصطدام بالأرض؛ لذا لا أعرف كم اهتزت الأرض أثناء المناورة السابقة. ولكن ريتشارد يقول إن تلك الاهتزازات تافهة مقارنةً بما نمر به الآن. فقد بات مجرد المشي في الوقت الحاضر أمرًا صعبًا. فالأرض

تعلو وتهبط بسرعة كبيرة جدًّا وكأن هناك آلة لثقب الصخور تعمل على بعد أمتار قليلة منا. منذ أن بدأت عملية الإسراع ونحن نمسك بسيمون بين أذرعنا. فنحن لا نستطع أن نضعها على الأرض أو في مهدها لأن الاهتزاز يخيفها. أنا الوحيدة التي تتحرك حاملة سيمون، وأنا أتوخى كل الحذر. إذ يقلقني بشدةٍ احتمال فقدان توازني وسقوطي — لقد سقط ريتشارد ومايكل مرتين حتى الآن — وقد تصاب سيمون إصابة خطيرة إذا ما سقطتُ في وضع خاطئ.

إن قطع الأثاث البسيطة تقفز في أنحاء الغرفة. بل إن أحد الكراسي قفز خارج الغرفة إلى الممر واتجه نحو السلالم منذ نصف ساعة. في بادئ الأمر كنا نعيد قطع الأثاث إلى مكانها كل عشر دقائق أو نحوها، أما الآن فإننا نتجاهلها — إلا إذا خرجت من المدخل إلى الردهة.

وإجمالًا، فإن أحداث تلك المدة التي بدأت بالعرض الضوئي الثالث والأخير في الجنوب لا يصدقها عقل. كان ريتشارد أول من خرج بمفرده تلك الليلة قبل حلول الظلام مباشرة. وعاد بسرعة بعد دقائق قليلة وقد غلبه الحماس وسحب مايكل معه. عندما عادا بدا مايكل وكأنه رأى شبحًا. صرخ ريتشارد: «كائنات الأوكتوسبايدر! تتجمع العشرات منها بطول الشاطئ على بعد كيلومترين شرقًا.»

قال مايكل: «لا يمكنك أن تعرف عددها الحقيقي. فلم نرها سوى لعشر ثوانٍ على أقصى تقدير قبل أن تنطفئ الأنوار.»

تابع ريتشارد حديثه قائلًا: «شاهدتها فترةً أطول عندما كنت بمفردي. واستطعت أن أراها بوضوح شديد بالمنظار المقرب. في بادئ الأمر كانت هناك حفنة منها، ولكنها بدأت تتدفق بأعداد كبيرة فجأة. وما إن بدأتُ في عدِّها حتى انتظمت في شيء يشبه التشكيل. وكان هناك أوكتوسبايدر عملاق ذو رأس مخطط باللونين الأحمر والأزرق واقفًا بمفرده فيما يبدو في مقدمة التشكيل.»

أضاف مايكل، وأنا أحدق فيهما غير مصدقة: «لم أرَ العملاق ذا اللونين الأحمر والأزرق، ولا أي تشكيل. ولكنني بالتأكيد رأيت الكثير من المخلوقات ذات الرءوس السمراء والمجسات ذات اللونين الأسود والذهبي. أعتقد أنها كانت تنظر نحو الجنوب منتظرة بدء العرض الضوئي.»

قال لي ريتشارد: «شاهدنا المخلوقات الطائرة أيضًا.» والتفتَ إلى مايكل متسائلًا: «في اعتقادك، كم كان يضم هذا السرب؟»

أجاب مايكل: «خمسًا وعشرين، ربما ثلاثين.»

قال ريتشارد: «كانت تحلق عاليًا في الجو فوق نيويورك، وهي تطلق صرخاتٍ أثناء ارتفاعها، ثم طارت باتجاه الشمال عبر البحر الأسطواني.» توقف ريتشارد لحظة ثم تابع: «أعتقد أن هذه الطيور مرت بهذا من قبل. أعتقد أنها تعرف ما سيحدث.»

بدأت أدثِّر سيمون في أغطيتها. سأل ريتشارد: «ماذا تفعلين؟» أوضحت أنني لن يفوتني العرض الضوئي الأخير. وذكَّرت ريتشارد أيضًا بأنه حلف لي بأن كائنات الأوكتوسبايدر لا تغامر بالخروج إلا ليلًا. ولكنه أجاب بثقة، في اللحظة التي بدأ الصفير يدوي فيها: «هذه مناسبة خاصة.»

بدا لي عرض الليلة أكثر روعة. وربما يرجع ذلك إلى أنني كنت في حالة ترقب. كان اللون الأحمر هو السائد في تلك الليلة. ففي لحظة ما، رسم تدفق من النور لونه أحمر ناريٌّ شكلًا سداسيًّا كاملًا يوصل بين الأبراج الستة الأصغر. ولكن مع أن أنوار راما كانت رائعة للغاية، فلم تكن المشهد الأكثر الأهمية في تلك الأمسية. فبعد حوالي ثلاثين دقيقة من بدء العرض، صرخ مايكل فجأة: «انظرا»، وأشار باتجاه امتداد الشاطئ بالاتجاه الذي رأى فيه هو وريتشارد كائنات الأوكتوسبايدر في وقت سابق.

اشتعلت عدة كرات من النور معًا في السماء فوق البحر الأسطواني المتجمد. كانت تلك الأنوار الساطعة تبعد عن الأرض نحو خمسين مترًا وتنير مساحة من الثلج تحتها تبلغ حوالي كيلومتر مربع. خلال دقيقة أو نحو ذلك استطعنا فيها أن نرى بعض التفاصيل، رأينا كتلة سوداء ضخمة تتحرك إلى الجنوب فوق الثلج. ناولني ريتشارد منظاره في الوقت الذي بدأ فيه النور النابع من تلك الأنوار الساطعة يخبو، فرأيت بعض المخلوقات داخل ذلك القطيع. وكان عدد كبير جدًّا من كائنات الأوكتوسبايدر ذات رءوس ملونة، ولكن الغالبية كانت ذات لون رمادي داكن مثل ذاك الذي طاردنا في الملجأ. وحين رأينا المجسات ذات اللونين الأسود والذهبي وأشكال أجساد تلك المخلوقات، تأكدنا أنها من نفس فصيلة ذلك المخلوق الذي رأيناه يتسلق النتوءات العام الماضي. كان ريتشارد محقًّا. إذ كان هناك العشرات منها.

عندما بدأت المناورة، عدنا بسرعة إلى ملجئنا. إذ كان من الخطر البقاء في الخارج في راما في الوقت التي تحدث فيه الاهتزازات القوية. من وقت إلى آخر كانت تنفصل أجزاء صغيرة من ناطحات السحاب المحيطة بنا وتتحطم على الأرض. وبدأت سيمون تبكي فور أن بدأ الاهتزاز.

بعد رحلة نزولٍ شاقة إلى ملجئنا، بدأ ريتشارد يفحص المستشعرات الخارجية وصبَّ جل اهتمامه على تفقد أوضاع النجوم والكواكب (يمكن رؤية كوكب زحل بالتأكيد في بعض

الصور التي ترسلها مستشعرات راما) ثم أجرى بعض الحسابات استنادًا إلى البيانات التي حصل عليها من المشاهدة. تناوبت أنا ومايكل حمل سيمون — في النهاية جلسنا في ركن بالغرفة حيث أعطانا الحائطان المتجاوران إحساسًا بشيء من الاستقرار — وأخذنا نتحدث عن وقائع اليوم المدهش.

بعد ساعة تقريبًا أعلن ريتشارد نتائج التحديد الأوَّلي للمدار. بدأ بإعطائنا إحداثيات المدار — نسبة إلى الشمس — الخاصة بمسار القطع الزائد الذي كنا نسير فيه قبل أن تبدأ المناورة. ثم عرض علينا بطريقة درامية عناصر التماس (حسبما أطلق عليها) الجديدة لمسارنا الحالي. لا بد أنني خزنت في مكان ما في أعماق عقلي معلومات تقدم تعريفًا لمصطلح عناصر التماس، ولكن لحسن الحظ لم أكن في حاجة لاستعادتها. فقد استطعت أن أفهم من السياق أن ريتشارد كان يستخدم طريقة مختصرة ليخبرنا إلى أي حد تغير القطع الزائد خلال الساعات الثلاث الأولى من المناورة. ورغم هذا فاتني أن أفهم المعنى الضمني الكامل لحدوث تغير في لامركزية القطع الزائد.

كان مايكل يتذكر ما درسه من الميكانيكا السماوية أكثر مني. وسأل على الفور تقريبًا: «هل أنت متأكد؟»

أجاب ريتشارد: «للنتائج الكمية هامش خطأ كبير. ولكن لا شك في الطبيعة النوعية لتغير المسار.»

سأل مايكل: «إذن هل «تتزايد» سرعة خروجنا من النظام الشمسي؟»

أومأ ريتشارد برأسه وهو يقول: «هذا صحيح. زيادة سرعتنا تصب فعليًّا في اتجاه يزيد من سرعتنا قياسًا بالشمس. لقد أضافت المناورة بالفعل عدة كيلومترات في الثانية لسرعتنا المحسوبة قياسًا بالشمس.»

أجاب مايكل: «آه! هذا مذهل.»

فهمت لب ما كان يقوله مايكل. إذا كنا نحتفظ بأي أمل في إمكانية سفرنا في رحلة غير مباشرة ستعود بنا إلى الأرض على بساط سحري، فإن هذا الأمل كان يتبدد الآن. فراما كانت على وشك مغادرة النظام الشمسي بسرعة أكبر بكثير مما تخيل أيٌّ منا. بينما أخذ ريتشارد يتغنى بنظام الدفع الذي تمكَّن من إدخال كل هذا التغيير على سرعة هذه «السفينة العملاقة»، أرضعت سيمون ووجدت نفسي أفكر مرة أخرى في مستقبلها. إذن فنحن نغادر النظام الشمسي لا محالة، وفي طريقنا إلى مكان آخر. فهل سأرى عالمًا آخر؟ هل سترى سيمون عالمًا آخر؟ هل من المحتمل يا ابنتي أن تكون راما هي موطنك طوال حياتك؟

ظلت الأرض تهتز بقوة، ولكن هذا يواسيني. يقول ريتشارد إن سرعة خروجنا لا تزال تتزايد بسرعة. هذا حسن. ما دمنا ذاهبين إلى مكان جديد فأنا أريد السفر إلى هناك بأسرع ما يكون.

٤

٥ يونيو ٢٢٠١

استيقظت في منتصف الليلة الماضية بعد سماع صوت دقات متواصلة يأتي من اتجاه الممر الرأسي في ملجئنا. ومع أن المستوى الطبيعي للضوضاء الصادرة عن الاهتزاز المستمر مرتفعٌ، فقد استطعت أنا وريتشارد أن نسمع الطَّرْق بوضوح وبلا أية صعوبة. سرنا بحذر إلى الممر الرأسي بعد أن ألقيت نظرة على سيمون، وتحققت من أنها نائمة نومًا مريحًا في مهدها الجديد الذي صنعه ريتشارد بحيث يحد من الاهتزازات.

اشتد صوت الطَّرَقات تدريجيًّا ونحن نصعد السلم تجاه الشبكة التي تحمينا من الزوار غير المرغوب فيهم. وعند إحدى بسطات السلم مال ريتشارد إليَّ وهمس لي قائلًا: «لا بد أن مكدف يدق على البوابة» وأن «فعلتنا الشريرة» سرعان ما ستُفتضح. كنت متوترة توترًا يجعلني عاجزة عن الضحك. عندما كنا على بعد عدة أمتار أسفل الشبكة، رأينا ظلًّا ضخمًا متحركًا يظهر على الحائط أمامنا. فتوقفنا لنتفحصه. أدركت أنا وريتشارد على الفور أن غطاءَ ملجئنا الخارجي مفتوحٌ — إذ كان ضوء الشمس يغمر الجانب الأعلى من راما في هذا الوقت — وأن المخلوق أو الكائن الآلي الراميَّ الذي كان يطرق هو صاحب الظل الغريب الذي يظهر على الحائط.

أمسكت بيد ريتشارد تلقائيًّا. وتساءلت بصوت مرتفع قائلة: «ترى ماذا يكون ذلك؟»

قال ريتشارد بهدوء شديد: «لا بد أنه شيء جديد.»

أخبرته أن الظل يشبه مضخة بترول قديمة الطراز تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل وسط حقل إنتاج. فابتسم ابتسامة عريضة والقلق يعلو وجهه ووافقني الرأي.

بعد أن ظللنا ننتظر نحو خمس دقائق دون أن نرى أو نسمع أي تغير في إيقاع الطَّرَقات التي يسببها الزائر، أخبرني ريتشارد أنه سيصعد إلى الشبكة حتى يتاح له رؤية شيء له ملامح محددة أكثر من مجرد ظل. بالطبع هذا معناه أن الكائن الذي يدق بابنا في الخارج سيستطيع أيضًا أن يراه، على افتراض أن له عينين أو ما يقوم مقامهما. لسبب ما

تذكرت دكتور تاكاجيشي في هذه اللحظة واجتاحتني موجة من الخوف. فقبَّلْتُ ريتشارد وطلبت منه ألا يجازف.

عندما وصل ريتشارد إلى البسطة الأخيرة من السلم، أعلى المكان الذي كنت أنتظر فيه مباشرةً، أصبح الضوء يغمر معظم جسده، وحجب الظلَّ المتحرك. توقف الطَّرْق فجأة. صاح ريتشارد: «إنه كائن آلي، بلا ريب. ويبدو أشبه بحشرة فرس النبي وله يد إضافية في وسط وجهه.»

اتسعت عيناه فجأة. ثم أضاف وهو يقفز من على بسطة السلم: «وهو الآن يفتح الشبكة.»

وصار بجواري في لحظة. ثم خطف يدي وهرعنا نطوي درجات السلم طيًّا. ولم نتوقف إلا بعد أن عدنا إلى الطابق الذي نقيم فيه، والذي يقع أسفل المدخل بعدة درجات.

كان صوت الحركة فوقنا يصل إلى مسامعنا. وقال ريتشارد وهو يلهث: «هناك فرس نبي آخر وكائن جرَّاف واحد على الأقل خلف فرس النبي الأول. وما إن رأوني حتى بدءوا في رفع الشبكة ... يبدو أنهم كانوا يدقون لينبهونا إلى وجودهم.»

طرحتُ عليه سؤالًا بلاغيًّا: «ولكن ماذا يريدون؟» وأخذت الضجة التي تأتي من فوقنا تزداد. علقت قائلةً: «يبدو وكأنه جيش.»

في خلال ثوانٍ سمعناهم ينزلون الدَّرَج. قال ريتشارد باهتياج شديد: «يجب أن نستعد للهرب. أحضري سيمون وأنا سأوقظ مايكل.»

تحركنا بسرعة في الممر متوجهين إلى المنطقة التي نقيم فيها. كان مايكل قد استيقظ بالفعل بسبب كل تلك الضوضاء، وبدأت سيمون تستيقظ هي الأخرى. تجمعنا في حجرتنا الرئيسية وجلسنا على الأرض المهتزة أمام الشاشة السوداء في انتظار الغزاة الفضائيين. استخدم ريتشارد لوحة المفاتيح لإعداد طلب لسكان راما تقوم الشاشة السوداء بمقتضاه بالارتفاع عقب إدخال أمرين إضافيين مثلما ترتفع عندما يكون مضيفونا الذين لم نرهم على وشك إمدادنا بمنتج جديد. قال ريتشارد: «إذا تعرضنا لهجوم، سنجازف بالدخول في الأنفاق التي تقع خلف الشاشة.»

مرت نصف ساعة. وأدركنا من الضوضاء القادمة من اتجاه السلم أن الدخلاء وصلوا بالفعل إلى الطابق الذي نقيم فيه، ولكن لم يدخل أيٌّ منهم بعد الممر الذي يؤدي إلى المنطقة التي نقيم فيها. بعد خمس عشرة دقيقة أخرى استبد الفضول بزوجي. قال ريتشارد: «سأتفقد الموقف»، وترك مايكل معي أنا وسيمون.

عاد في أقل من خمس دقائق. وقال وقد قطب جبينه حيرةً: «يوجد منها خمسة عشر، ربما عشرون. ثلاثة من الكائنات الشبيهة بفرس النبي ونوعان مختلفان من الكائنات الجرَّافة. يبدو أنها تبني شيئًا في الجانب المقابل من الملجأ.»

نامت سيمون مرة أخرى. فوضعتها في المهد وسرت خلف الرجلين في اتجاه الضوضاء. عندما وصلنا إلى المنطقة المستديرة التي يقع فيها السلم الذي يصعد إلى الفتحة المؤدية إلى نيويورك، وجدنا المكان يموج بالحركة. وكان يستحيل الإلمام بكل العمل الذي تقوم به في الجانب المقابل من الحجرة. وكان يبدو أن الكائنات الشبيهة بفرس النبي كانت تشرف على الكائنات الآلية الضخمة وهي تقوم بتوسيع ممر أفقي على الجانب الآخر من الحجرة المستديرة.

تساءل مايكل هامسًا: «هل لدى أيٍّ منكما فكرة عما يفعلون؟»

أجاب ريتشارد: «ولا أدنى فكرة.»

مر حوالي أربع وعشرين ساعة حتى الآن وما زلنا لا نعلم على وجه اليقين ما الذي تبنيه الكائنات الآلية. يعتقد ريتشارد أن توسعة الممر تتم لاستيعاب نوع ما من التجهيزات الجديدة. وقال أيضًا إن كل هذه الأنشطة لها علاقة بنا في الأغلب لأنها في النهاية تتم في ملجئنا.

تعمل الكائنات الآلية دون أن تتوقف لأخذ قسط من الراحة أو لتناول الطعام أو للنوم. يبدو أنها تتبع خطة أو مجموعة خطوات رئيسية سبق إبلاغها بها بدقة؛ لأنها لا تتناقش أبدًا في أي شيء. إنه لمشهد مهيب أن يشاهد المرء عملها المتواصل. ولم تُبدِ الكائنات الآلية قط أي إشارة توحي بإدراكها أننا نقف ونشاهدها.

منذ ساعة تحدَّث ثلاثتنا قليلًا عن الإحباط الذي نشعر به بسبب عدم معرفتنا بما يجري حولنا. عند نقطة ما من الحديث، ابتسم ريتشارد. وقال والغموض يغلف حديثه: «في الواقع لا يختلف الوضع هنا عن الوضع على الأرض اختلافًا كبيرًا.» عندما ضغطنا عليه أنا ومايكل ليوضح ما يعنيه، لوَّح بيده بحركة دائرية. وأجاب وهو شارد الذهن: «حتى في كوكبنا، معرفتنا محدودة إلى درجة خطيرة. فدائمًا ما يكون البحث عن الحقيقة تجربة محبطة.»

٨ يونيو ٢٢٠١

لا أصدق أن الكائنات الآلية أنهت التجهيزات بهذه السرعة. منذ ساعتين تدحرج آخرها صاعدًا السلم واختفى، وهو كبير العمال من بين الكائنات الشبيهة بفرس النبي، بعد أن

أبلغنا بالإشارة (مستخدمًا «يده» التي في وسط «وجهه») أن نعاين الحجرة الجديدة بعد الظهر مباشرةً. قال ريتشارد إنه ظل في ملجئنا حتى تأكد أننا فهمنا كل شيء.

الشيء الوحيد الموجود في الحجرة الجديدة هو حوض ضيق مستطيل الشكل من الواضح أنه صُمم لنا. وهو ذو جوانب معدنية لامعة ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار. وكان هناك سلم معدني عند كل طرف من طرفيه يرتفع من الأرضية ويصل إلى حافته. ويحيط ممشًى قوي بالمحيط الخارجي للحوض أسفل حافته بسنتيمترات قليلة.

وبداخل البناء المستطيل أربعة أسِرَّة شبكية مثبتة في الجدران. وكل واحد من تلك الأسرة المبتكرة الرائعة صنع خصوصًا لفرد محدد من أفراد أسرتنا. فسريرا مايكل وريتشارد يقعان عند طرفَي الحوض، أما سيمون وأنا فلنا سريران في المنتصف، وسريرها الصغير يقع بجوار سريري مباشرةً.

بالطبع، حرص ريتشارد على فحص البناء بأكمله فحصًا تفصيليًّا. واستنتج أن الحوض سيغلق وسيملأ على الأغلب بسائل، وذلك لأن له غطاء ولأن الأسِرَّة ثبتت في تجويف الحوض على بعد يتراوح ما بين متر ونصف متر من الجزء العلوي. ولكن ما سبب بنائه؟ هل سنخضع لمجموعة ما من التجارب؟ ريتشارد متأكد من أننا سنخضع للتجارب بطريقة أو بأخرى، ولكن مايكل يقول إن استخدامنا كفئران تجارب «لا يتوافق مع شخصية سكان راما» كما عرفناها حتى الآن. فوجدت نفسي أضحك على تعليقه. ها هو ذا مايكل يمد حدود تفاؤله الديني الذي لا يُرجى له الخلاص منه لتستوعب سكان راما أيضًا. إنه دائمًا ما يعتقد — مثل شخصية دكتور بانجلوس التي رسمها فولتير — أننا نحيا في أفضل كون على الإطلاق.

انتظر كبير العمال على الممشى الملحق بالحوض وشاهدنا وكلٌّ واحد منا نحن الأربعة يرقد على سريره. أشار ريتشارد إلى أنه مع أن الأسِرة مثبَتة على أعماق متباينة على طول الجدران، فإننا «سنغوص» جميعًا لنفس المستوى تقريبًا عندما ننام في هذه الأسِرة الشبكيَّة. والنسيج الشبكي الذي تتكون منه الأسرة مطاطي بعض الشيء، وهو يذكرني بالنسيج الشبكي الذي رأيناه من قبل في راما. وعندما كنت «أجرب» سريري بعد الظهيرة، ذكرني ارتداده بالرهبة والابتهاج اللذين شعرت بهما أثناء الرحلة الرائعة التي قمت بها عبر البحر الأسطواني وأنا مثبتة داخل شبكة. عندما أغمضت عينيَّ كان من السهل أن أرى نفسي مرة أخرى فوق الماء مباشرةً، معلقةً أسفل ثلاثة من المخلوقات الطائرة الهائلة التي كانت تحملني إلى الحرية.

هناك مجموعة من الأنابيب السميكة معلقة على طول حائط الملجأ خلف الحوض من جهة المنطقة التي نعيش فيها، وهي تتصل بالحوض مباشرة. نشك في أن الهدف منها هو حمل سائل من نوعٍ ما يُملأ الحوض به. أعتقد أننا سنكتشف هذا قريبًا جدًّا.

إذن ما العمل الآن؟ نتفق جميعًا على أن علينا الانتظار وحسب. لا شك في أنهم يتوقعون منا أن نمضي بعض الوقت في هذا الحوض في نهاية الأمر. ولكن لا يبقى أمامنا سوى افتراض أنهم سيخطروننا بهذا عندما يحين الوقت المناسب.

١٠ يونيو ٢٢٠١

كان ريتشارد محقًّا. كان على يقين من أن الصفير المتقطع منخفض التردد الذي سمعناه في وقت مبكر أمس يعلن عن حدوث تحول آخر في مراحل المهمة. بل إنه اقترح علينا أن نتوجه إلى الحوض الجديد وأن نستعد لاحتلال أماكننا كلٌّ في سريره الخاص. تجادلنا أنا ومايكل معه، وأصررنا على أنه لا يوجد «ما يكفي من معلومات» تبرر استباق هذا الاستنتاج.

كان علينا أن نستمع إلى نصيحة ريتشارد. لقد تجاهلنا الصفير تقريبًا ومضينا في حياتنا العادية (إذا كان يمكن استخدام هذا المصطلح لوصف وجودنا داخل سفينة الفضاء غير الأرضية هذه). بعد حوالي ثلاث ساعات، ظهر كبير العمال فجأة في مدخل حجرتنا الرئيسية ففزعت فزعًا شديدًا. أشار بأصابعه الغريبة على امتداد الممر ففهمنا منه أنه يريدنا أن نتحرك في الاتجاه الذي أشار إليه بشيء من السرعة.

كانت سيمون لا تزال نائمة وانزعجت بشدة عندما أيقظتها. كما أنها كانت جائعة، ولكن فرس النبي الآلي لم يتح لي الفرصة لإطعامها. وأخذت سيمون تبكي بكاءً متقطعًا ونحن نُساق كالقطيع من ملجئنا إلى الحوض.

كان هناك مخلوق آخر من المخلوقات الشبيهة بفرس النبي ينتظر على الممشى الذي يطوق حافة الحوض. وكان يمسك بخوذاتنا الشفافة في أيديه الغريبة. لا بد أنه المفتش؛ لأنه لم يدعنا ننزل إلى أسرتنا إلا بعد أن تحقق من أن الخوذات موضوعة كما ينبغي على رءوسنا. المركب البلاستيكي أو الزجاجي الذي صنع منه الجزء الأمامي من خوذاتنا رائع؛ إذ يمكننا أن نرى من خلاله رؤيةً واضحةً. قاعدة الخوذات رائعة أيضًا؛ فهي مصنوعة من مركب لزج يشبه المطاط ويلتصق بالجلد بشدة مما يمكِّنه من إغلاق الخوذة إغلاقًا محكمًا يمنع تسرب أي شيء إليها.

لم يمضِ على رقودنا على أسِرَّتنا سوى ثلاثين ثانية حتى شعرنا بموجة قوية تضغطنا إلى أسفل نحو الأجزاء الشبكية، وقد بلغت قوتها حدًّا جعلنا نهبط حتى كدنا نصل إلى قاع الحوض الفارغ. بعد لحظات، التفَّت حول أجسادنا خيوط صغيرة (وكان يبدو أنها تخرج من المادة المصنوعة منها أسِرَّتنا)، تاركةً أذرعنا ورقابنا حرة. فالتفتُّ إلى سيمون لأرى ما إذا كانت تبكي؛ فرأيت ابتسامةً عريضة مرتسمة على وجهها.

كان الحوض قد بدأ يمتلئ بالفعل بسائل لونه أخضر فاتح. وفي أقل من دقيقة أحاط بنا السائل. كانت كثافته قريبة جدًّا من كثافتنا؛ فقد طفونا جزئيًّا على سطحه، وسرعان ما انغلق غطاء الحوض وملأ السائل الحوض بالكامل. ومع أنني استبعدت احتمال تعرُّضنا لأي خطر حقيقي من البداية، فقد اعتراني الخوف عندما انغلق غطاء السائل فوق رءوسنا. فقد كان كلٌّ منا يعاني من قدرٍ قليل من رُهاب الاحتجاز.

ظلت السرعة تشتد طوال كل هذا الوقت. ولحسن الحظ لم يكن الظلام دامسًا بداخل الحوض. فقد ظهرت أضواء خافتة مبعثرة حول غطائه. ورأيت سيمون بجواري، وجسدها يقفز كطوق النجاة، وأيضًا، رأيت ريتشارد عن بعد.

مكثنا في الحوض لما يزيد قليلًا عن ساعتين. عندما انتهينا، كان ريتشارد قد تملَّكه حماس شديد. وأخبرني أنا ومايكل أنه متأكد من أننا انتهينا لتوِّنا من «اختبار» يكشف عن مدى تحملنا للقوى «الزائدة».

وقال بحماس: «إن الزيادات التافهة في السرعة التي مررنا بها حتى الآن لا ترضي سكان راما. فهم يريدون زيادة السرعة زيادةً حقيقية. ولتحقيق هذا، لا بد أن تتعرض السفينة لزيادة كبيرة في سرعتها تستمر مدة طويلة. لقد صُمم هذا الحوض ليقوم بدور ممتص الصدمات حتى يتكيف تكويننا البيولوجي مع الظروف البيئية غير المعتادة.»

أمضى ريتشارد اليوم بأكمله في إجراء حسابات وأطلعنا منذ ساعات قليلة على تحليله الأولي لـ «حدث زيادة السرعة» الذي وقع أمس. وصاح وهو لا يكاد يتمالك نفسه: «انتبها إلى هذا! لقد قمنا بتغيير في السرعة مكافئ لمعدل «سبعين» كيلومترًا في الثانية خلال هذه المدة القصيرة التي بلغت ساعتين. وهذا هائل للغاية عندما يتعلق الأمر بسفينة فضاء بحجم راما! كانت سرعتنا تزيد بمعدل يصل إلى ٤٩م/ث^{٢} طوال الوقت.» ثم ابتسم لنا ابتسامة عريضة. وقال: «هذه السفينة تستطيع العمل بنمط السرعة القصوى بامتياز.»

عندما انتهينا من الاختبار، وضعتُ مجموعة جديدة من مجسات مراقبة الظواهر البيومترية على أجسادنا، بما فينا سيمون. لم أرَ أية استجابات غريبة، على الأقل لم أرَ

شيئًا يدعو إلى الحذر، ولكن يجب أن أعترف أنني ما زلت قلقة قليلًا بشأن مدى تفاعل أجسادنا مع الضغط. وبَّخني ريتشارد منذ دقائق قليلة. وقال، مشيرًا إلى أن ما أقوم به غير ضروري: «لا بد أن سكان راما لا يغفلون عن ذلك.» وتابع: «أنا متأكد أنهم يحصلون على معلوماتهم عن طريق هذه الخيوط.»

٥

١٩ يونيو ٢٢٠١

لن تكفي حصيلتي اللغوية لوصف التجارب التي عشتها على مدى الأيام العديدة الماضية. فكلمة «مدهش»، على سبيل المثال، تعجز كثيرًا عن التعبير عن المعنى الحقيقي لمدى تفرُّد هذه الساعات الطويلة التي قضيتها في الحوض. التجربتان الوحيدتان في حياتي اللتان تشبهان من بعيد هذه التجربة كانتا وليدتَي تناول مواد كيميائية محفزة: الأولى، أثناء احتفال جمعية بورو السرية في ساحل العاج وأنا في السابعة من عمري، والثانية — حدثت في وقت أقرب — بعد شرب زجاجة أومه عندما كنت في قاع الحفرة في راما. ولكنَّ هاتين التجربتين المثيرتين أو الرؤيتين أو أيًّا كان اسمهما، كانتا حدثين منفصلين استغرقا وقتًا قصيرًا نسبيًّا. أما ما عايشته في الحوض فاستمر ساعات.

قبل أن أنهمك في وصف ما يموج به عقلي، ينبغي أولًا أن ألخص الأحداث «الفعلية» التي مررنا بها على مدار الأسبوع الماضي، وذلك حتى يمكن فهم الأحداث الشبيهة بالهلاوس في سياقها. أصبحت حياتنا اليومية الآن تمضي على نسق متكرر. وتواصل سفينة الفضاء القيام بالمناورات ولكن وفقًا لنمطين مختلفين: الأول: «منتظم» تهتز فيه الأرض ويتحرك كل شيء ولكن يمكن أن نحيا في ظله حياة شبه طبيعية، والثاني: «ذو سرعة قصوى» تزيد فيه راما من سرعتها بمعدل كبير جدًّا يُقدِّر ريتشارد أنه يزيد الآن عن ١٠٧٫٨م/ث^{٢}.

عندما تكون السفينة في وضع السرعة القصوى، يصبح علينا نحن الأربعة أن ندخل الحوض. تستمر فترات السرعة القصوى لما يقل قليلًا عن ثماني ساعات في كل دورة من الدورات التي تستغرق سبعًا وعشرين ساعة وست دقائق في النمط المتكرر. من الواضح أنه من المفترض أن ننام خلال فترات السرعة القصوى. فالأضواء الخافتة فوق رءوسنا في الحوض المغلق تخبو بعد أول عشرين دقيقة من كل فترة، ونظل راقدين في ظلام دامس حتى خمس دقائق قبل نهاية فترة الساعات الثماني.

يرى ريتشارد أن هذا التغير في السرعة القصوى يعجل بإفلاتنا من مدار الشمس. إذا ظلت المناورة الحالية ثابتة من حيث القوة والاتجاه واستمرت مدة شهر، فستصل السرعة التي نتحرك بها إلى نصف سرعة الضوء قياسًا بنظامنا الشمسي.

سأل مايكل أمس: «إلى أين نحن ذاهبون؟»

أجاب ريتشارد: «الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا للإجابة عن هذا السؤال. فكل ما نعرفه هو أننا ننطلق بمعدل هائل.»

عُدلت حرارة وكثافة السائل داخل الحوض بدقة كل فترة، حتى أصبحتا مساويتين تمامًا لحرارة وكثافة أجسادنا. ولذلك، عندما أرقد هناك في الظلام لا أشعر بشيء سوى وجود قوة دفع لأسفل تكاد تكون غير محسوسة. دائمًا ما يدلني عقلي على أنني بداخل حوض مخصص لمواكبة زيادة السرعة، يحيطني سائل من نوع ما يقوم مقام ممتص الصدمات حتى يتحمل جسدي الدفع القوي الذي يتعرض له، ولكن انعدام الإحساس بما حولي يجعلني في النهاية أفقد إحساسي بجسدي كله. وهنا بدأ ينتابني الهذيان. يبدو وكأنه من الضروري أن يحصل عقلي على مدخلات حسيَّة طبيعية حتى يستمر جسدي في تأدية وظائفه على ما يرام. فإذا لم يصل إلى عقلي أي صوت أو منظر أو طعم أو رائحة أو إحساس بالألم، تطرأ الفوضى على نشاطه.

حاولت أن أناقش هذه الظاهرة مع ريتشارد منذ يومين ولكنه نظر إليَّ نظرةً تنم عن شكه في جنوني. إذ لم تنتَبْه أيُّ نوبات هذيان على الإطلاق. فهو يقضي وقته أثناء «حالة السبات» (وهو الاسم الذي يطلقه على المدة التي لا نتلقى فيها أي معلومات حسية قبل أن نستغرق في نوم عميق) في القيام بحسابات رياضية أو استحضار مجموعة كبيرة من خرائط الأرض أو حتى السباحة بخياله في أفضل لحظاته الجنسية. فهو بالتأكيد «يسيطر» على عقله حتى في غياب المدخلات الحسيَّة. لهذا نحن مختلفان اختلافًا كبيرًا. فعقلي يبحث عن اتجاه خاص به عندما لا أستخدمه في مهام مثل معالجة مليارات أجزاء البيانات الواردة من كل خلايا جسدي الأخرى.

عادةً ما يبدأ الهذيان بظهور بقعة ملونة حمراء أو خضراء في الظلام الدامس المحيط بي. وحين تتسع البقعة تظهر ألوان أخرى، هي غالبًا: الأصفر والأزرق والأرجواني. وبسرعة يتخذ كل لون من الألوان صورة شكل غير منتظم ويمتد أمام مجال رؤيتي. وأجد أمامي ما يشبه مشكالًا من الألوان الزاهية. تزداد سرعة الحركة في مجال رؤيتي حتى تندمج مئات الخيوط والبقع في انفجار هائل.

وسط زحام الألوان هذا، دائمًا ما تتكون صورة متناسقة. في البداية لا أتمكن من تحديد ماهية تلك الصورة بالتحديد لأن الشكل أو الأشكال التي تظهر تكون متناهية الصغر، كما لو أن الصورة بعيدة، بعيدة للغاية. وأثناء اقتراب الصورة، تتغير ألوانها عدة مرات مما يزيد من الطابع السريالي لما أراه ومن الرعب الداخلي الذي أشعر به. وغالبًا ما كنت أجد الصورة تظهر فيها أمي أو حيوان كالفهد أو اللبؤة أدرك تلقائيًّا أنه أمي، متخفيةً. ما دمت أراقب وحسب، دون أن أقوم بأي محاولة إرادية للتفاعل مع أمي، فإنها تظل عنصرًا من عناصر الصورة المتغيرة. ولكن لو حاولت أن أتواصل معها بأي طريقة تختفي على الفور، هي أو الحيوان الذي يمثلها، وتتركني لإحساس جارف بأنها قد تخلت عني.

أثناء إحدى نوبات الهذيان التي انتابتني في الآونة الأخيرة، تحولت الموجات اللونية إلى أشكال هندسية تحولت بدورها إلى صور ظلِّيَّة لبشر يمشون في طابور واحد أمام مجال رؤيتي. كان أومه في مقدمة الموكب مرتديًا ثوبًا لونه أخضر زاهٍ. الشخصيتان الظاهرتان في آخر المجموعة كانتا امرأتين، وهما بطلتا مراهقتي: جان دارك وإليانور الأكويتينية. عندما سمعت صوتهما لأول مرة، انفضَّ الموكب وتغير المشهد على الفور. فجأة وجدت نفسي في زورق صغير وسط ضباب الصباح الباكر الذي يغلف بركة البط الصغيرة قرب فيلتنا في بوفوا. فارتعدت خوفًا وبدأت أبكي بكاءً عجزت عن التحكم فيه. ظهرت جان وإليانور وسط الضباب والسديم ليطمئناني على أن والدي لن يتزوج هيلينا، الدوقة الإنجليزية التي سافر معها لقضاء إجازة في تركيا.

في ليلة أخرى تبع افتتاحيةَ الألوان عرضٌ مسرحي غريب في مكان ما في اليابان. كانت المسرحية القائمة على الهذيان تقتصر على شخصيتين فقط ترتديان قناعين مبهرين معبرين. ألقى الرجل الذي يرتدي بذلة ورابطة عنق على النسق الغربي أبياتًا من الشِّعر وكانت له عينان صافيتان صريحتان إلى حد كبير، تطلان من قناعه الذي يحمل تعبيرًا ودودًا. بدا الرجل الآخر أشبه بمحارب ساموراي من القرن السابع عشر. وكان قناعه يحمل تعبيرًا عابسًا ثابتًا. بدأ يهددني أنا وزميله الذي ينتمي إلى عصر أحدث من عصره. صرخت في آخر هذا المشهد لأن الرجلين تقابلا في وسط المسرح واندمجا في شخصية واحدة.

بعض أزهى الصور النابعة من الهذيان لم تستمر سوى ثوانٍ قليلة. في الليلة الثانية أو الثالثة، ظهر الأمير هنري عاريًا، وشهوته مشتعلة، وجسده يلمع بلون أرجواني زاهٍ، وذلك مدة ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ في وسط مشهد آخر كنت فيه ممتطيةً أوكتوسبايدر أخضر عملاقًا.

أثناء المدة التي نِمتها أمس لم تظهر أي ألوان مدة ساعات. ثم عندما أدركت أن الجوع يمزق أحشائي، ظهرت بطيخة مَنٍّ وردية عملاقة في الظلام. عندما حاولت أن آكل البطيخة التي تراءت لي، ظهرت لها أرجلٌ وفرَّت بعيدًا، وتلاشت بعد أن تحولت إلى ألوان مبهمة.

هل لأيٍّ من هذا مدلول معين؟ هل يمكن أن أعرف شيئًا عن نفسي أو عن حياتي عن طريق هذه الدفقات التي تبدو عشوائية والتي يأتي بها عقلي غير الخاضع للتوجيه؟

ظل الخلاف حول دلالة الأحلام محتدمًا نحو ثلاثة قرون حتى الآن ولم يُفصل فيه بعد. ويبدو لي أن هذا الهذيان الذي ينتابني أكثر بعدًا عن الواقع من الأحلام العادية. إذ إنه يحمل شيئًا من الشبه البعيد للتجربتين اللتين مررت بهما في وقت مبكر من حياتي بعد تناول مواد مخدرة، وأي محاولة لتفسيرها تفسيرًا منطقيًّا ستكون سخيفة. ومع هذا، ولسبب ما، لا أزال أعتقد أن شطحات عقلي الجامحة التي تبدو مفككة تنطوي على شيء من الحقيقة. وربما يرجع هذا إلى عدم تقبلي فكرة أن العقل البشري يمكن أن يعمل على نحو عشوائيٍّ بحت.

٢٢ يوليو ٢٢٠١

أمس، توقفت الأرض عن الاهتزاز أخيرًا. كان ريتشارد قد تنبأ بهذا. عندما لم نعد إلى الحوض منذ يومين في الوقت المعتاد توقع ريتشارد أن المناورة قد انتهت تقريبًا، وكان مصيبًا في توقعه.

وبهذا نبدأ مرحلة جديدة من مراحل رحلتنا المدهشة. أخبرنا زوجي أننا ننتقل الآن بسرعة تزيد عن نصف سرعة الضوء. وهذا يعني أننا نقطع مسافة تساوي المسافة ما بين الأرض والقمر كل «ثانيتين» تقريبًا. نحن نسير، تقريبًا، باتجاه الشِّعرى اليَمانية، أسطع نجم حقيقي يظهر ليلًا في سماء كوكبنا الأصلي. إذا لم تحدث مناورات أخرى فسنصل إلى جوار الشعرى اليمانية في غضون اثني عشر عامًا.

أشعر بالارتياح لأن حياتنا الآن يمكن أن يعود إليها شيء من التوازن الداخلي. يبدو أن سيمون اجتازت المدد الطويلة التي قضيناها في الحوض دون صعوبات تذكر، ولكنني أعتقد أن أي طفلة رضيعة لن تخرج من هذه التجربة دون أن تصاب بأذى. ولا بد أنها الآن في حاجة إلى أن نعود إلى نظام حياتنا اليومية المعتاد.

عندما أكون بمفردي، كثيرًا ما أفكر في نوبات الهذيان القوية هذه التي انتابتني في أول عشرة أيام من المدة التي قضيناها في الحوض. يجب أن أعترف أنني سعدت عندما مررت

في النهاية بـ «حالات سبات» عدة انقطعت فيها صلتي تمامًا بحواسي دون أن يغمر ذهني سيل من الأشكال الملونة والصور التي لا يمت بعضها بصلة إلى بعض. في ذلك الوقت كان القلق قد بدأ يساورني على سلامة عقلي، وبصراحة تملكتني هذه الفكرة، بل إنني تجاوزت هذه المرحلة بكثير. ومع أن نوبات الهذيان توقفت فجأة، كنت أتذكر قوة تلك الرؤى، مما كان يثير توجسي كلما خبت الأضواء المثبتة عند حافة الحوض على مدار الأسابيع العديدة الماضية.

بعد الأيام العشرة الأولى هذه، لم أرَ سوى رؤية واحدة أخرى، وربما كانت مجرد حلم شديد الوضوح رأيته أثناء نومي العادي. ومع أن هذه الصورة بالذات لم تكن في نفس وضوح الصور السابقة، فإنني تذكرت كل تفاصيلها لأنها تشبه ما رأيته في إحدى نوبات الهذيان التي انتابتني وأنا في قاع الحفرة العام الماضي.

في الحلم أو الرؤية الأخيرة كنت جالسة مع والدي في حفلة موسيقية مقامة في الهواء الطلق في مكان مجهول. وكان هناك رجل شرقي كهل ذو لحية بيضاء طويلة بمفرده على خشبة المسرح يعزف على آلة وترية غريبة. ولكن، على عكس ما رأيته وأنا في قاع الحفرة، لم أتحول أنا ووالدي إلى طائرين صغيرين ولم نحلق بعيدًا إلى شينون في فرنسا. وإنما اختفى جسد والدي تمامًا ولم يبقَ منه سوى عينيه. وفي غضون ثوانٍ قليلة، ظهرت خمسة أزواج أخرى من العيون واتخذت شكلًا سداسيًّا في الهواء فوقي. تعرفتُ على عينَي أومه على الفور وعلى عينَي أمي، أما أزواج الأعين الثلاثة الأخرى فلم أتعرف عليها. حدقت فيَّ العيونُ التي تحتل رأس الشكل السداسي دون أن تطرف، وكأنها تحاول أن تخبرني بشيء ما. وقبل أن يتوقف عزف الموسيقى مباشرةً سمعت صوتًا واحدًا محددًا. سمعت عدة أصوات في نفس الوقت تنطق كلمة «خطر».

ما سبب نوبات الهذيان التي تنتابني، ولماذا يحدث هذا لي وحدي دونًا عن الرجلين الآخرين؟ مر ريتشارد ومايكل أيضًا بفترة انقطاع عن الحواس وأقر كلٌّ منهما بأنه رأى «أشكالًا ملونة غريبة»، ولكن الصور التي رأياها لم تكن مترابطة على الإطلاق. إذا كان تخميننا صحيحًا وكان سكان راما قد حقنونا بواحدة أو اثنتين من المواد الكيميائية مستخدمين الخيوط الصغيرة التي كانت تلتف حول أجسادنا ليساعدونا على النوم في تلك البيئة غير المعتادة، فلماذا كنت أنا الوحيدة التي رأت رؤى في منتهى الغرابة؟

يعتقد ريتشارد ومايكل أن الإجابة بسيطة وهي أنني «شخص تجعله الأدوية في حالة غير مستقرة يتمتع فيها بخيال جامح.» وهذا هو التفسير الوافي في رأيهما. ولم يتابعا

الموضوع أكثر من هذا، ومع أنهما يتصرفان بأسلوب مهذب عندما أطرح كل ما يتعلق بـ «التجارب التي مررت بها»، يبدو عليهما عدم الاهتمام. كنت أتوقع رد الفعل هذا من ريتشارد، ولكن بالتأكيد لم أكن أتوقعه من مايكل.

حتى الجنرال أوتول الممل لم يعد يتصرف كما ألفناه منذ أن بدأنا جلساتنا في الحوض. فمن الواضح أنه كان منشغلًا بأمور أخرى. لم أطلع على شيء مما يشغله سوى هذا الصباح.

بعد أن أخذت أحاصر مايكل بأسئلة ودودة لعدة دقائق، أخيرًا تحدث ببطء قائلًا: «كنت دائمًا ما أعيد تشكيل تصوري لله وأعيد التفكير في حدود قدراته مع كل إنجاز جديد يشهده العلم، ولكن دون أن أعترف بهذا على مستوى الوعي. ونجحت في تقبل تصور عن سكان راما في إطار إيماني الكاثوليكي، ولكن هذا أدى إلى التوسع في تصوري المحدود عن الله. الآن، حين أجد نفسي على متن سفينة آلية تجوب الفضاء بسرعات نسبية، أرى أنني يجب أن أحرر فكرتي عن الله من كل القيود تمامًا. حينها فقط، يصبح الله، من وجهة نظري، هو القوة العليا التي تُسَيِّر جميع جسيمات الكون والعمليات التي تتم فيه.»

التحدي الذي سأواجهه في المستقبل القريب يكمن في الاتجاه المعاكس لهذا. إذ ينصبُّ تفكير ريتشارد ومايكل على أفكار عميقة: فريتشارد يركز على عالم العلوم والهندسة، ومايكل على عالم الروح. ومع أنني أستمتع للغاية بالأفكار المثيرة التي تخطر لكل منهما أثناء رحلة بحثه المنفرد عن الحقيقة، ينبغي أن يهتم أحدنا بمهام المعيشة اليومية. وفي النهاية، تبقى على ثلاثتنا مسئولية إعداد الفرد الوحيد الذي ينتمي للجيل الجديد لحياة البالغين. يبدو وكأن مهمة الإرشاد الأبوي ستقع دائمًا على عاتقي.

إنها مسئولية أتقبلها بسرور. فعندما تبتسم سيمون في وجهي ابتسامةً متألقةً وهي تأخذ فترة راحة من الرضاعة، لا أفكر في نوبات الهذيان التي تنتابني، ولا تعنيني كثيرًا فكرة وجود الله، ولا أرى أهمية كبيرة في أن سكان راما طوروا طريقةً لاستخدام المياه كوقود نووي. في تلك اللحظة، يصبح الشيء الوحيد المهم هو أنني أم سيمون.

٣١ يوليو ٢٢٠١

حلَّ الربيع على راما بلا ريب. وبدأ الثلج يذوب فور انتهاء المناورة. ففي ذلك الوقت، كانت الحرارة في الخارج قد وصلت إلى درجة قارسة البرودة هي خمس وعشرون تحت الصفر، وبدأ القلق يساورنا بشأن الحد الذي يحتمل أن يصل إليه انخفاض درجة الحرارة

في الخارج ومدى نجاح النظام الذي ينظم البيئة الحرارية في ملجئنا في العمل بطاقته القصوى لمواجهة ذلك الانخفاض. كانت الحرارة ترتفع ارتفاعًا ثابتًا بمعدل درجة يوميًّا تقريبًا منذ ذلك الوقت، وبذلك المعدل، كنا سنتجاوز حد التجمد خلال أسبوعين آخرين.

نحن الآن خارج النظام الشمسي في الفراغ شبه التام الذي يملأ الفراغات الهائلة بين النجوم المجاورة. شمسنا لا تزال الجرم المهيمن في السماء ولكن لا يمكننا رؤية أيٍّ من الكواكب. وريتشارد يبحث مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًّا في البيانات التي يأتي بها من التلسكوب عن علامة تدل على وجود المذنبات في سحابة أورت ولكنه حتى الآن لم يرَ شيئًا.

من أين تأتي الحرارة التي تدفئ الجزء الداخلي من مركبتنا؟ كان لدى المهندس البارع ورائد الفضاء الوسيم، ريتشارد ويكفيلد، تفسير سريع عندما سأله مايكل هذا السؤال أمس. فقال: «إن النظام النووي نفسه الذي كان يوفر التغير الرهيب في السرعة هو الذي يقوم بتوليد الحرارة الآن على الأرجح. لا بد أن لراما نظامَي تشغيل مختلفين. عندما تكون في جوار مصدر حرارة، مثل نجم، توقف عمل كل الأنظمة الرئيسية الخاصة بها ومنها نظاما الدفع والتحكم الحراري.»

وجهت له أنا ومايكل تحية على هذا التفسير الذي يبدو معقولًا إلى حد بعيد. ثم سألته بعد يومين قائلةً: «ولكن، لا يزال هناك الكثير من الأسئلة. «لماذا»، على سبيل المثال، تمتلك راما نظامين هندسيين مختلفين؟ ولماذا توقف عمل النظام الرئيسي من الأساس؟»

أجاب ريتشارد بابتسامته المعتادة: «هنا، لا يمكنني إلا أن أخمن. ربما تحتاج النظم الرئيسية إلى إصلاحات دورية لا يمكن القيام بها إلا إذا كان هناك مصدر حرارة وطاقة خارجي. لقد رأيتِ كيف تقوم الكائنات الآلية المختلفة بصيانة سطح راما. ربما كانت هناك مجموعة أخرى من الكائنات الآلية تقوم بصيانة النظم الرئيسية.»

قال مايكل ببطء: «لديَّ فكرة أخرى. هل تعتقد أنهم تعمدوا أن يأتوا بنا على متن سفينة الفضاء هذه؟»

سأل ريتشارد عاقدًا جبينه: «ماذا تعني؟»

«هل تعتقد أن وجودنا هنا جاء بمحض الصدفة؟ أم أن وجود بعض أفراد الجنس البشري في راما في هذه اللحظة حدث مرجح الحدوث نظرًا إلى كل الاحتمالات ولطبيعة نوعنا؟»

أعجبتني طريقة تفكير مايكل. فرغم أنه لم يكن يفهم هذا الأمر تمامًا، فكان يشير إلى أن سكان راما قد لا يكونون مجرد عباقرة في العلوم البحتة والهندسة فحسب. بل ربما يعرفون شيئًا عن السيكولوجية العامة للبشر أيضًا. لم يفهم ريتشارد حديث مايكل.

سألت: «هل تلمح إلى أن سكان راما تعمَّدوا تشغيل النظم الثانوية وهم في جوار الأرض، متوقعين أنهم بهذا سيستدرجوننا لمقابلتهم؟»

قال ريتشارد على الفور: «هذا هراء.»

رد مايكل: «لكن، يا ريتشارد، فكر في هذا. ما احتمال حدوث أي لقاء بيننا لو أن سكان راما قد اندفعوا إلى نظامنا بسرعة تقترب كثيرًا من سرعة الضوء وداروا حول الشمس ورحلوا في رحلتهم السعيدة؟ صفر بالطبع. وكما أشرت أنت، ربما يوجد على هذه السفينة «أغراب» غيرنا، إذا كان من الممكن أن نسمي أنفسنا أغرابًا. وأشك أن يكون هناك الكثير من الأنواع التي تستطيع ...»

أثناء أحد التوقفات في الحوار، ذكَّرتُ الرجلين بأن البحر الأسطواني سرعان ما سيذوب من أسفل وبأن ذلك ستتبعه على الفور أعاصير وموجات مد. اتفقنا جميعًا بعد ذلك على أننا يجب أن نحضر المركب الاحتياطي من الموقع بيتا.

استغرق الرجلان ما يربو قليلًا على اثنتي عشرة ساعة ليشقا طريقهما عبر الثلج ذهابًا وإيابًا. كان الليل قد أرخى سدوله بالفعل حين عادا. عندما وصل ريتشارد ومايكل إلى ملجئنا مدت سيمون ذراعيها لمايكل؛ إذ أصبحت تعي ما حولها جيدًا.

قال مايكل مازحًا: «أرى أن هناك من سُر بعودتي.»

قال ريتشارد: «لا حرج، ما دام من تتحدث عنه هو سيمون فقط.» وبدا أن أسلوبه يغلب عليه البرود والتوتر على نحو غريب.

استمر مزاجه الغريب طوال الليلة الماضية. فسألته ونحن بمفردنا على فراشنا: «ما بك يا حبيبي؟» لم يُجب على الفور؛ لذا قبَّلته على خده وانتظرت.

قال ريتشارد أخيرًا: «إنه مايكل. لقد أدركت اليوم ونحن نحمل المركب عبر الثلج أنه يحبك. ليتك سمعته. إنه لا يتحدث إلا عنك. أنت الأم المثالية، والزوجة المثالية، والصديقة المثالية. وصل الأمر لدرجة أنه اعترف أنه يحسدني.»

لاطفتُ ريتشارد ثواني قليلة محاولةً أن أفكر كيف أجيب. قلت في النهاية: «أعتقد أنك تبالغ في رد فعلك على عبارات غير مقصودة يا حبيبي. إن مايكل كان يعبر ببساطة عن عاطفته الصادقة. أنا أيضًا مولعة بشدة به ...»

قاطعني مايكل فجأة: «أعرف ... وهذا ما يزعجني. إنه يعتني بسيمون معظم الوقت الذي تكونين فيه مشغولة، وتتحدثان معًا لساعات وأنا أعمل في مشاريعي ...»

توقف وحدق فيَّ بنظرة غريبة حزينة. كانت نظرته مخيفة. ليس هذا ريتشارد ويكفيلد الذي عرفته عن قرب لأكثر من سنة. سرت قشعريرة في جسدي وبعد ذلك لانت نظراته ومال ليقبلني.

بعد أن تطارحنا الغرام ونام، تقلَّبت سيمون فقررت أن أرضعها. وأنا أرضعها فكرت في المدة التي مضت منذ أن وجدنا مايكل في الجزء الأدنى من التلفريك. لا يوجد شيء أذكره من الممكن أن يكون قد أثار أدنى قدرٍ من غيرة ريتشارد. حتى علاقتنا الجسدية الحميمة ظلت منتظمة ومشبعة، مع أنني أعترف أنها لم تعد متميزة منذ مولد سيمون.

ظلت النظرة المجنونة التي رأيتها في عينَي ريتشارد تطاردني حتى بعد أن انتهيت من إرضاع سيمون. أخذت على نفسي عهدًا بتخصيص المزيد من الوقت لأختلي بريتشارد خلال الأسابيع المقبلة.

٦

٢٠ يونيو ٢٢٠٢

تأكد لي اليوم أنني حامل مرة أخرى. فسُرَّ مايكل، أما ريتشارد فلم يبال. وهو ما أدهشني. عندما تحدثت مع ريتشارد بمفردنا اعترف بأنه تعتريه مشاعر متضاربة لأن سيمون وصلت أخيرًا إلى مرحلة لم تعد تحتاج فيها إلى «عناية دائمة». ذكرته بأننا عندما تحدثنا منذ شهرين حول إنجاب طفل آخر، أبدى موافقته متحمسًا. فأشار إلى أن شغفه بأن يصبح أبًا لطفل ثانٍ جاء نتيجةً لـ «حماسي الواضح» في ذلك الوقت.

سيأتي طفلنا الجديد إلى الوجود في منتصف مارس. بحلول هذا الوقت، سنكون قد انتهينا من إعداد غرفة نوم الأطفال، وسيكون قد صار لدينا مكان كافٍ لاستيعاب جميع أفراد الأسرة. يؤسفني أن ريتشارد ليس مسرورًا بأنه سيصبح أبًا ثانية، ولكنني سعيدة لأن سيمون ستحظى برفيق يلعب معها.

١٥ مارس ٢٢٠٣

ولدت كاثرين كولين ويكفيلد (التي نطلق عليها كيتي) في الساعة السادسة وست عشرة دقيقةً من صباح يوم الثالث عشر من شهر مارس في الصباح. كانت الولادة يسيرة؛ فلم تستغرق المدة ما بين أولى الانقباضات القوية والولادة سوى أربع ساعات. ولم أشعر بألم

شديد قط. ولدتُ وأنا جالسة القرفصاء وكنت في حالة جيدة جدًّا، حتى إنني قطعت الحبل السري بنفسي.

إن كيتي تبكي كثيرًا. فجنيفياف وسيمون كانتا طفلتين لطيفتين رقيقتين، أما كيتي فمن الواضح أنها ستكون مصدر إزعاج. سُرَّ ريتشارد برغبتي في تسميتها على اسم والدته. وكنت آمل أن يصبح أكثر اهتمامًا بدوره كأب في هذه المرة، ولكنه في الوقت الحاضر مشغول للغاية بـ «قاعدة البيانات الرائعة» الخاصة به (التي ستفهرس معلوماتنا كلها وتجعل الوصول إليها سهلًا) مما كان يحول دون اهتمامه بكيتي.

بلغ وزن ابنتي الثالثة عند ميلادها أقل من أربعة كيلوجرامات بقليل وبلغ طولها خمسة وأربعين سنتيمترًا. لم يكن وزن سيمون بالتأكيد ثقيلًا هكذا حين وُلدت، ولكن لم يكن لدينا ميزان دقيق حينها لأعرف على وجه اليقين. ولون بشرة كيتي مائل إلى البياض، بل يكاد يكون أبيض في واقع الأمر، وشعرها أفتح كثيرًا من شعر أختها الفاحم السواد. وعيناها زرقاوان، وقد أدهشني هذا. أعرف أنه ليس من الغريب أن يولد الأطفال بعينين زرقاوين، وأن لون عيونهم يتحول إلى لون داكن على نحو ملحوظ في السنة الأولى. ولكنني لم أتوقع ولو للحظة أن يُولد لي طفل بعينين زرقاوين.

١٨ مايو ٢٢٠٣

من العسير عليَّ أن أصدق أن سن كيتي تجاوز شهرين بالفعل. ويا لها من طفلة متعِبة! في هذه السن كان من المفترض أن أنجح في أن أعلمها ألا تنهش حلمتَي ثدييَّ، ولكنني لا أستطيع أن أدربها على الكف عن هذه العادة. وهي تكون صعبة المراس أكثر ما تكون عند وجود أحد آخر وأنا أرضعها. وإن التفتُّ مجرد التفاتة لأكلم مايكل أو ريتشارد أو حاولت الإجابة عن أحد أسئلة سيمون، فإنها تشد حلمتي بعنف.

كان ريتشارد متقلب المزاج جدًّا في الفترة الأخيرة. في بعض الأحيان يكون ريتشارد الذي نعرفه، ريتشارد الذكي البارع الذي يُضحكنا أنا ومايكل بقفشاته التي تنم عن سعة معرفته، ولكن مزاجه قد ينقلب في لحظة. إذ إن أي ملاحظة أبديها أنا أو مايكل ظانين أنها بريئة كفيلة بإصابته بالاكتئاب أو حتى الغضب.

أظن أن المشكلة الحقيقية التي يواجهها ريتشارد هذه الأيام هي الملل. فقد أنهى مشروع قاعدة البيانات الخاص به ولم يبدأ بعدُ في عمل كبير آخر. كما أن الكمبيوتر الرائع الذي صنعه العام الماضي يحتوي على روتينات فرعية تجعل عملية تواصلنا مع الشاشة

السوداء عملًا روتينيًّا. كان يمكن لريتشارد أن يضفي بعض التنويع على أيامه بأن ينهض بدور أكبر في تهذيب سيمون وتعليمها، ولكنني أعتقد أن هذا ليس من طبعه. وهو لا يبدو مأخوذًا مثلي ومثل مايكل بأنماط النمو المعقدة التي تظهر على سيمون.

عندما كنت حاملًا في كيتي، كنت قلقة جدًّا بسبب عدم اهتمام ريتشارد الواضح بالأطفال. وقررت أن أواجه المشكلة مباشرةً بأن أطلب منه أن يساعدني في بناء معمل صغير يمكِّنني من تحليل جزء من جينوم كيتي من عينة من السائل الأمنيوسي من رحمي. وكان المشروع يتضمن كيمياء معقدة، ومستوًى من التعاون مع راما أعمق من أي مستوى حاولنا الوصول إليه من قبل، وكذلك صناعة بعض الأدوات الطبية المعقدة ومعايرتها.

نالت هذه المهمة إعجاب ريتشارد. وأنا أيضًا أحببتها لأنها ذكَّرتني بفترة دراستي في كلية الطب. كنا نعمل معًا مدة اثنتي عشرة ساعةً يوميًّا وأحيانًا مدة أربع عشرة ساعة حتى أنهينا عملنا (وكنا نترك مايكل يعتني بسيمون؛ لا شك أن كلًّا منهما مولع بالآخر). وكثيرًا ما كنا نتحدث عن عملنا حتى وقت متأخر من الليل، بل حتى أثناء مطارحتنا الغرام.

ولكن عندما جاء اليوم الذي أنهينا فيه تحليل جينوم ابنتنا القادمة اكتشفت أمرًا أثار دهشتي، وهو مدى تحمس ريتشارد لمطابقة المعدات والتحاليل لجميع مواصفاتنا أكثر من تحمسه بخصوص صفات ثانية بناتنا. اندهشت لذلك. عندما أخبرته أنني حامل في أنثى، وأن جيناتها لا تحمل متلازمة داون ولا متلازمة ويتينجهام، وأن ما يظهر عليها مبدئيًّا من احتمالات الإصابة بالسرطان لا يتجاوز الحدود المقبولة؛ رد ردًّا باهتًا. ولكن عندما أثنيت على السرعة والدقة اللتين أتمَّ بهما النظامُ الاختبارَ، ابتسم ريتشارد ابتسامة تنم عن الفخر. ما أغرب زوجي! إنه يستمد سعادته من عالم الرياضيات والهندسة أكثر مما يستمدها من الآخرين.

لاحظ مايكل أيضًا القلق الذي ظهر على ريتشارد مؤخرًا. فشجعه على ابتكار مزيد من اللعب لسيمون على نمط الدمى الرائعة التي صنعها عندما كنتُ في الأشهر الأخيرة من حملي بكيتي. وتلك الدمى لا تزال لعب سيمون المفضلة. فهي تسير بمفردها وتستجيب حتى للكثير من الأوامر الشفهية. في إحدى الليالي، عندما كان ريتشارد في إحدى حالاته المزاجية التي تتسم بالحيوية النابضة، برمج شين بحيث يتواصل مع الدمى. انفجرت سيمون في ضحك متواصل عندما طارد الآليُّ ويليام شكسبير (يصر مايكل على تسمية الرجل الآلي الذي صنعه ريتشارد والذي يلقي أشعار شكسبير باسمه الكامل) الدمى الثلاث وحبسهن في ركن، ثم أخذ يلقي وصلةً من سونيتات الحب لشكسبير.

لم يستطع شين نفسه أن يدخل البهجة على نفس ريتشارد في هذين الأسبوعين. إنه لا ينام جيدًا — وهذا غريب عليه — ولا يظهر حماسًا لأي شيء. حتى علاقتنا الجنسية المنتظمة والمتنوعة توقفت؛ لذا لا بد أن ريتشارد يعاني من هموم تقضُّ مضجعه. قبل ثلاثة أيام، خرج في الصباح الباكر (كان الوقت في راما أيضًا لم يتجاوز الفجر بكثير؛ كل مدة يصبح لساعة الأرض في ملجئنا وساعة راما في الخارج نفس التوقيت) وظل في نيويورك أكثر من عشر ساعات. وعندما سألته عما كان يفعل أجاب بأنه جلس على السور وظل يحدق في البحر الأسطواني. ثم غيَّر الموضوع.

مايكل وريتشارد مقتنعان بأننا الآن بمفردنا على جزيرتنا. فقد دخل ريتشارد ملجأ المخلوقات الطائرة مرتين مؤخرًا، وفي كل مرة كان يجلس على جانب الممر الرأسي بعيدًا عن الحراس المخصصين لمراقبة الحوض. كما أنه نزل ذات مرة في الممر الأفقي الثاني، الذي كنت تخطيته قفزًا من قبل، ولكنه لم يرَ أي علامة تدل على وجود حياة. ملجأ الأوكتوسبايدر الآن يغطيه زوج من الشبكات المعقدة بين الغطاء والبسطة الأولى من الدَّرَج. طوال الأشهر الأربعة الماضية، كان ريتشارد يراقب المنطقة المحيطة بملجأ الأوكتوسبايدر إلكترونيًّا، ومع أنه أقر بأن بعض الغموض يشوب البيانات التي جمعها أثناء مراقبته، فإنه يصر على أنه متأكد من أن الشبكات لم تفتح منذ وقت طويل، استنادًا إلى المعاينة البصرية فقط.

جمَّع الرجلان المركب الشراعي منذ شهرين، ثم قضيا ساعتين يختبرانه في البحر الأسطواني. لوحت لهما أنا وسيمون من على الشاطئ. وبعد هذا، فككا المركب ثانية وأدخلوه إلى ملجئنا لحمايته خوفًا من أن تصنفه السرطانات الآلية على أنه «مهملات» (كما فعلت فيما يبدو مع المركب الشراعي الآخر؛ فنحن لم نعرف قط ما الذي حل به، فبعد هروبنا من قاذفات فالنكس النووية بيومين عدنا إلى حيث تركناه ولكننا لم نجده).

أعرب ريتشارد عدة مرات عن رغبته في ركوب البحر إلى الجنوب ومحاولة البحث عن مكان يمكن أن يتسلق فيه المنحدر الصخري الذي يبلغ ارتفاعه خمسمائة مترٍ. فمعلوماتنا عن نصف الأسطوانة الجنوبية من راما محدودة للغاية. وباستثناء الأيام القليلة التي قضيناها في مطاردة الآليين مع طاقم رواد فضاء نيوتن الأصلي، فإن معرفتنا بالمنطقة تظل قاصرة على الصور البسيطة التي جمعناها من الصور الأولية التي التقطتها الوحدات التي من دون ربان التابعة لسفينة نيوتن. لا شك أن استكشاف الجنوب سيكون أمرًا مبهرًا، وربما يمكِّننا ذلك من اكتشاف المكان الذي ذهبت إليه كل كائنات الأوكتوسبايدر تلك. ولكننا لا نستطيع تحمُّل مغبة المخاطرة في هذه المرحلة. فأسرتنا تعتمد على كلٍّ من الثلاثة البالغين اعتمادًا حيويًّا بحيث إن فقد أي واحد منا سيكون ضربة قاضية.

أومن بأن مايكل أوتول راضٍ بالحياة التي صنعناها لأنفسنا على راما، ولا سيما أن حصولنا على الكمبيوتر الكبير الذي صنعه ريتشارد أتاح لنا الاطلاع على المزيد من المعلومات بلا صعوبة تذكر. فنحن الآن نصل إلى كل البيانات الموسوعية التي كانت مخزنة على متن مركبة نيوتن العسكرية. ومايكل منشغل حاليًّا بـ «وحدة دراسية» — كما يطلق على وسيلة تسليته المنظمة — هي تاريخ الفن. فعلى مدى الشهر الماضي، كان حديثه يسيطر عليه آل ميديتشي، والباباوات الكاثوليكيون في عصر النهضة، ومايكل أنجلو، ورفائيل، وغيرهم من الرسامين العظماء الذين عاشوا في تلك المدة. وهو الآن يبحر في القرن التاسع عشر، وهذه المدة من تاريخ الفن — في رأيي — شائقة أكثر. ودارت بيننا مؤخرًا حوارات كثيرة حول «الثورة» الانطباعية، ولكن مايكل لم يقتنع بما قلته بأن المدرسة الانطباعية كانت مجرد نتيجة طبيعية لظهور الكاميرا.

يقضي مايكل ساعات طويلة مع سيمون. وهو صبور وحنون ويهتم بها. وهو يراقب نموها باهتمام، ويسجل المحطات الرئيسية التي تمر بها في الكمبيوتر المحمول الإلكتروني الخاص به. في الوقت الحالي تعرف سيمون واحدًا وعشرين حرفًا من حروف الأبجدية الإنجليزية الستة والعشرين بالنظر (ولكنها لا تميز بين السي والإس وكذلك الواي والفي، ولا تستطيع أن تتعلم حرف الكيه لسبب ما)، وتستطيع أن تعد حتى عشرين حين يكون مزاجها صافيًا. كما تنجح في التعرف على رسومات المخلوقات الطائرة وكائنات الأوكتوسبايدر والكائنات الآلية الأربعة الأوسع انتشارًا. كما أنها تعرف أسماء الحواريين الاثني عشر، وهذا لم يسعد ريتشارد. لقد عقدنا من قبل «اجتماع قمة» حول التربية الدينية لبناتنا، ولم يسفر إلا عن اختلاف مهذب في الرأي.

بهذا لا يبقى سوى الحديث عني. فأنا أشعر بالسعادة في أغلب الأوقات، مع أنني أمر بأيام تجتمع فيها عليَّ عدة عوامل مثل: قلق ريتشارد، وبكاء كيتي، وسخافة حياتنا الغريبة على سفينة الفضاء هذه التي بنتها كائنات من خارج الأرض؛ فتفت من عضدي. أنا دائمًا مشغولة. فأنا أخطط لمعظم نشاطات الأسرة وأقرر ماذا نأكل ومتى، وأنظم البرامج اليومية للأطفال بما فيها أوقات نومهم. ولا أكف أبدًا عن طرح السؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟ ولكن عدم معرفتي الإجابة لم يعد يصيبني بالإحباط.

لو كان خياري بيدي، لما كان نشاطي الفكري الشخصي محدودًا هكذا، ولكنني أعود وأقول لنفسي إن اليوم به ساعات قليلة. ومشكلتي لا تكمن في أنني أفتقر إلى الحافز؛ فأنا وريتشارد ومايكل كثيرًا ما ندخل في حوارات مثيرة. ولكن كلًّا منهما لا يهتم كثيرًا

بالمجالات الفكرية التي طالما ظلت جزءًا من حياتي. فعلى سبيل المثال، ظللت أعتز كل الاعتزاز بالمهارات التي أتمتع بها في اللغات واللغويات منذ بواكير أيام دراستي. وحلمت منذ عدة أسابيع حلمًا مخيفًا بأنني نسيت الكتابة أو التحدث بأي لغة غير الإنجليزية. فظللت بعدها أمضي ساعتين بمفردي يوميًّا مدة أسبوعين في مراجعة اللغة الفرنسية المحببة إليَّ، وفي استذكار الإيطالية واليابانية أيضًا.

بعد ظهر أحد أيام الشهر الماضي عرض ريتشارد على الشاشة السوداء صورًا جاء بها تلسكوبٌ راميٌّ خارجي، تظهر فيها شمسنا وآلاف النجوم الأخرى على مرمى البصر. كانت الشمس هي أكثر الأجرام السماوية لمعانًا، وإن كان ذلك على نحو طفيف. ذكرني ريتشارد أنا ومايكل بأننا نبعد عن كوكبنا الأزرق الأصلي أكثر من اثني عشر ألف مليار كيلومترٍ، والذي يتحرك في مدار حول ذلك النجم البعيد الصغير.

بعد ذلك، في مساء نفس اليوم شاهدنا فيلم «الملكة إليانور»، وهو أحد الأفلام الثلاثين — أو نحوها — الموجودة على متن نيوتن من البداية لتسلية طاقم رواد الفضاء. كان الفيلم مقتبسًا — في خطوطه العريضة — من الروايات الناجحة التي كتبها والدي عن إليانور الأكويتينية وصُوِّر في كثير من المواقع التي زرتها مع والدي وأنا في مرحلة المراهقة. تدور أحداث المشاهد الأخيرة من الفيلم في دير فونفرو، وهي تتناول السنوات السابقة لوفاة إليانور. أذكر نفسي وأنا في الرابعة عشرة من عمري واقفةً في الدير بجوار والدي أمام التمثال المنحوت لإليانور ويداي ترتعشان من فرط الانفعال وأنا أتشبث بيديه. قلتُ ذات مرة لروح الملكة التي هيمنت على تاريخ القرن الثاني عشر في فرنسا وإنجلترا: «كنتِ امرأة عظيمة، وأنتِ قدوة لي. لذا لن أخذلك.»

في تلك الليلة، بعد أن نام ريتشارد، وبينما كانت كيتي هادئة مؤقتًا، فكرت في ذلك اليوم ثانية فملأني حزن عميق، إحساس بالضياع لا أستطيع أن أصفه. عندما ظهر في مخيلتي مشهد الشمس وهي تغرب بجوار صورتي وأنا مراهقة أقطع الوعود الشجاعة للملكة التي كان قد مضى على وفاتها نحو ألف عام، تذكرتُ أن كل شيء عرفته قبل راما ذهب بلا رجعة. ابنتاي الأخيرتان لن تريا أبدًا أيًّا من الأماكن التي أعتز بها بشدة أنا وجنيفياف. لن تعرفا أبدًا رائحة الحشائش بعد جزها مباشرةً في الربيع، أو جمالَ الزهورِ البهيَّ، أو تغريد العصافير، أو تألُّق البدر وهو يرتفع فوق المحيط. لن تعرفا كوكب الأرض على الإطلاق، ولا أيًّا من ساكنيه فيما عدا هذا الطاقم الصغير المؤلف من أفراد مختلفين، سيكونون في مرتبة عائلتهما، وهو تمثيل غير وافٍ للحياة الزاخرة على كوكبنا السعيد.

في تلك الليلة بكيتُ بهدوء عدة دقائق، وكنت على علم وأنا أبكي بأنني سأرتدي قناع التفاؤل ثانيةً في الصباح. فرغم كل ذلك، كان من الممكن أن يئُول الوضع إلى أسوأ مما هو عليه. فنحن نتمتع بضروريات الحياة من غذاء وماء ومأوى وملبس، وصحة جيدة وصحبة، وبالطبع الحب. فالحب هو أهم عناصر سعادة البشر، سواء على الأرض أو على راما. لو لم تتعلم سيمون وكيتي من العالم الذي تركناه خلفنا سوى الحب، فإن هذا يكفي.

٧

١ أبريل ٢٢٠٤

كان اليوم غير عادي بكل ما فيه. بدايةً، ما إن استيقظ الجميع حتى أعلنت أننا سنخصص هذا اليوم لإحياء ذكرى إليانور الأكويتينية التي ماتت في مثل هذا اليوم من ألف عام مضت بالضبط، هذا إذا كان المؤرخون على صواب وإذا كنا اتبعنا التقويم بدقة. وكان من دواعي سروري أن الأسرة كلها أيدت الفكرة وتطوع ريتشارد ومايكل على الفور للمساعدة في إعداد مظاهر الاحتفال. اقترح مايكل؛ إذ استبدل بوحدة تاريخ الفن التي كان يطالعها أخرى عن الطهي، أن يعد وجبة سريعة خاصة على طريقة العصور الوسطى على شرف الملكة. أما ريتشارد، فخرج مسرعًا ومعه شين هامسًا لي أن الروبوت الصغير سيعود في صورة الملك هنري الثاني.

أعددت درس تاريخ قصيرًا لسيمون لأعرفها بالملكة إليانور وبأحوال عالم القرن الثاني عشر. وكانت منتبهة انتباهًا شديدًا. حتى كيتي التي لا تجلس أبدًا في هدوء لأكثر من خمس دقائق كانت متعاونة ولم تقاطعنا. وقضت معظم الصباح في لعب هادئ بعرائسها الصغيرة. سألتني سيمون في نهاية الدرس عن سبب موت الملكة إليانور. وعندما أجبت بأنها ماتت بسبب تقدم العمر، سألتني ابنتي ذات السنوات الثلاث عما إذا كانت الملكة إليانور قد «دخلت الجنة».

سألتُ سيمون: «من أين أتيتِ بهذه الفكرة؟»

أجابت: «من العم مايكل. قال لي إن الطيبين يدخلون الجنة عندما يموتون، وإن الأشرار يدخلون النار.»

قلت لها بعد هنيهة من التأمل: «بعض الناس يعتقدون أن هناك جنة. والبعض الآخر يعتقدون في فكرة تسمى التناسخ، بمعنى أن الناس تعود وتحيا أرواحهم مرة أخرى في

صورة شخص آخر أو حتى في صورة حيوان آخر. وهناك آخرون يعتقدون أن كل مخلوق هو معجزة فريدة، يصحو منذ الحمل حتى الولادة ثم ينام للأبد عندما يموت.» ثم ابتسمتُ وبعثرت شعرها.

سألتني ابنتي بعد هذا: «وأنت يا أمي، ما الذي تؤمنين به؟»

شعرت بشعور يشبه الذعر يتملكني. حاولت أن أكسب وقتًا أرتب فيه ما أقوله فراوغتها ببعض التعليقات. تردد في عقلي وقتها تعبير من قصيدتي المفضلة للشاعر تي إس إليوت نصه: «ليؤدي بك إلى سؤال مربك.» لحسن الحظ وصلت النجدة.

«وداعًا يا صغيرتي.» دلف الروبوت الصغير شين إلى الحجرة مرتديًا زيًّا يفترض أنه يشبه ملابس ركوب الخيل في القرون الوسطى، وأخبر سيمون بأنه هنري الثاني ملك إنجلترا وزوج الملكة إليانور. تألقت ابتسامة سيمون. ونظرت كيتي إلى أعلى واتسعت ابتسامتها.

قال الروبوت وهو يحرك ذراعيه الصغيرتين حركة توحي بالعظمة: «لقد بنيت أنا والملكة مملكة عظيمة ضمَّت في النهاية إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا وويلز بالكامل ونصف ما يسمى الآن بفرنسا.» ومضى يلقي محاضرة مُعدة سلفًا بحيوية، وأخذ يسلي سيمون وكيتي بغمزاته وحركات يديه، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج سكينًا وشوكة صغيرتين مدعيًا أنه هو من عَرَّف «الشعب الإنجليزي البربري» بمفهوم أدوات الطعام.

سألته سيمون بعد أن أنهى حديثه: «ولمَ سجنت الملكة إليانور؟» وابتسمت. لقد كانت منتبهة بالفعل في درس التاريخ. دارت رأس الروبوت ونظر باتجاه ريتشارد. فرفع ريتشارد إصبعه طالبًا الانتظار قليلًا، واندفع خارجًا إلى الممر هو وشين. وبعد ما لا يزيد على دقيقة عاد شين، المعروف أيضًا بهنري الثاني. ومشى إلى سيمون. وقال: «وقعت في حب امرأة أخرى فغضبت الملكة إليانور. ولتنتقم مني حرضت أبنائي ضدي ...»

بعد هذا بقليل كنت منهمكة مع ريتشارد في جدال طفيف حول الأسباب الحقيقية التي من أجلها حبس هنري إليانور (كثيرًا ما كنا نكتشف أننا اطلعنا على روايات مختلفة عن التاريخ الأنجلو فرنسي) حين سمعنا صرخة تأتي من بعيد، وإن كانت واضحة. في لحظات صعدنا نحن الخمسة إلى أعلى. وانطلقت الصرخة مرة ثانية.

نظرنا إلى السماء من فوقنا. فرأينا أحد المخلوقات الطائرة يطير وحيدًا باسطًا جناحيه فوق ناطحات السحاب ببضع مئات من الأمتار. أسرعنا إلى الأسوار المجاورة للبحر الأسطواني حتى نحظى برؤية أفضل. وأخذ المخلوق الهائل يحلِّق حول محيط

الجزيرة مرة ومرتين وثلاثة. وفي نهاية كل دورة كان يطلق صرخة واحدة طويلة. لوَّح ريتشارد بذراعيه وصرخ أثناء طيرانه ولكن لم تظهر أي إشارة بأن المخلوق قد لاحظ وجوده.

بعد حوالي ساعة، بدأ الاضطراب ينتاب الطفلتين. اتفقنا على أن يعود بهما مايكل إلى الملجأ وأن أبقى أنا وريتشارد ما دام هناك احتمال للتواصل. استمر الطائر في الطيران على نفس النمط. فسألت ريتشارد: «هل تعتقد أنه يبحث عن شيء ما؟»

أجاب قائلًا: «لا أعرف»، وعاد يصيح مرة أخرى ويلوح للطائر الذي وصل إلى النقطة التي أصبح فيها أقرب لنا. وفي هذه المرة غَيَّر الطائرُ مسارَه ورسم أقواسًا جميلة طويلة في الهواء وهو يهبط هبوطًا حلزونيًّا. وكلما زاد اقترابًا، صار بوسعي أنا وريتشارد أن نرى بطنه الرمادي الناعم والحلقتين الحمراوين الزاهيتين اللتين تحيطان برقبته.

همست لريتشارد: «إنه صديقنا»، فقد تذكرت الطائر القائد الذي وافق على نقلنا عبر البحر الأسطواني قبل أربع سنوات.

غير أن هذا الطائر لم يعد ذلك المخلوق القوي ذا الصحة الجيدة الذي كان يطير في وسط التشكيل عندما هربنا من نيويورك. وإنما صار نحيلًا هزيلًا متسخ الريش وأشعثه. قال ريتشارد والطائر يهبط على بعد حوالي عشرين مترًا منا: «إنه مريض.»

تمتم الطائر بشيء ما بهدوء وأدار رأسه بعنف كما لو كان ينتظر مجيء مزيد من الرفاق. أخذ ريتشارد خطوة باتجاهه فلوَّح الطائر بجناحيه ورفرف بهما مرة واحدة وتراجع عدة أمتار. قال ريتشارد بصوت منخفض: «ماذا لدينا من طعام يشبه بطيخ المنِّ في تركيبه الكيميائي؟»

هززت رأسي وأجبت: «ليس لدينا أي طعام على الإطلاق إلا دجاج الليلة الماضية.» ثم أضفت فجأة: «انتظر، لدينا الشراب الأخضر الذي يحبه الأطفال. إنه يشبه السائل الذي يكون في وسط بطيخ المنِّ.»

رحل ريتشارد قبل أن أنهي الجملة. وطوال الدقائق العشر التي مضت قبل عودته ظللت أنا والمخلوق الطائر يحدق كلٌّ منا في الآخر في صمت. حاولت أن أركز عقلي على أفكار ودودة على أمل أن تعكس له عيناي نواياي الحسنة بطريقة ما. شاهدت المخلوق الطائر يغير التعبير المرتسم على وجهه مرة ولكن بالطبع لم أعرف معنى أيٍّ من تعبيراته.

عاد ريتشارد حاملًا سلطانية سوداء ممتلئة بالشراب الأخضر. وضع السلطانية أمامنا وأشار إليها ونحن نرجع إلى الخلف ستة أو ثمانية أمتار. اقترب الطائر من السلطانية

في خطوات صغيرة مترددة حتى وقف في النهاية أمامها مباشرة. وضع منقاره في السائل ورشف رشفةً صغيرةً ثم أرجع رأسه للخلف ليبتلعها. من الواضح أن الشراب كان لذيذًا إذ إن الطائر شربه كله في أقل من دقيقة. عندما انتهى الطائر رجع إلى الخلف خطوتين وبسط جناحيه على اتساعهما ودار دورة كاملة.

قلت وأنا أمد يدي لريتشارد: «الآن علينا أن نقول «عفوًا».» قمنا بحركة دائرية كالتي قمنا بها ونحن نقول له وداعًا وشكرًا قبل أربع سنوات، وانحنينا انحناءة خفيفة في اتجاه الطائر بعد أن انتهينا.

اعتقدتُ أنا وريتشارد أن المخلوق ابتسم، ولكن سرعان ما أقررنا بعد ذلك بأن هذا قد يكون من وحي خيالنا. بسط الطائر ذو الريش الرمادي جناحيه وارتفع عن الأرض وحلق فوقنا في الجو.

سألت ريتشارد: «إلى أين تعتقد أنه ذاهب؟»

أجاب بصوت خفيض: «إنه يموت. إنه يلقي نظرة أخيرة على العالم الذي عرفه.»

٦ يناير ٢٢٠٥

اليوم عيد ميلادي. أنا الآن في الحادية والأربعين من عمري. في الليلة الماضية، رأيت حلمًا آخر من أحلامي ذات التفاصيل الواضحة. في هذا الحلم، كنت عجوزًا. وكان شعري كله رماديًّا ووجهي تغطيه التجاعيد. كنت أعيش في قصر — في مكان ما بالقرب من نهر لوار، لا يبعد كثيرًا عن بوفوا — مع ابنتين كبيرتين (كلتاهما لا تشبهان، في الحلم، سيمون أو كيتي أو جنيفياف) وثلاثة أحفاد. كان الأولاد كلهم في مرحلة المراهقة، وكانوا أصحاء جسديًّا ولكن كان هناك خطْب ما في كلٍّ منهم. كانوا كلهم أغبياء، بل ربما متخلفين عقليًّا. أتذكر أنني حاولت في الحلم أن أشرح لهم كيف يحمل جزيء الهيموجلوبين الأكسجين من الجهاز التنفسي إلى الأنسجة. ولكن لم يستطع أيٌّ منهم فهم ما كنت أقوله.

استيقظت من الحلم وقد أصابتني حالة من الاكتئاب. كنا في منتصف الليل وجميع أفراد الأسرة نائمون. وكعادتي دائمًا، سرت في الممر إلى حجرة الأطفال لأتأكد من أن الفتاتين لا تزالان مغطاتين ببطانيتيهما الخفيفتين. نادرًا ما تتقلب سيمون ليلًا أما كيتي، كالعادة، فقد أطاحت بالبطانية وهي تتقلب. أعدت الغطاء على كيتي وجلست على أحد الكراسي.

وأخذت أسأل نفسي: ما الذي يزعجني؟ لماذا أرى الكثير من الأحلام عن الأبناء والأحفاد؟ في أحد أيام الأسبوع الماضي أشرت مازحة إلى احتمال إنجاب طفل ثالث فكاد

ريتشارد يفقد صوابه؛ إذ إنه يمر الآن بنوبة أخرى من نوبات الاكتئاب المطولة التي تنتابه. أعتقد أنه لا يزال نادمًا على أنني أقنعته بإنجاب كيتي. أنهيت الموضوع على الفور حتى لا يلقي خطبة أخرى من خطبه المشحونة بفلسفة العدم.

هل أريد حقًّا إنجاب طفل آخر في هذه الظروف؟ بالنظر إلى الموقف الذي نحن فيه، هل تصبح هذه الفكرة معقولة؟ حتى وإن نحينا مؤقتًا الأسباب الشخصية التي تدفعني إلى إنجاب طفل ثالث، فإننا سنجد حجة بيولوجية قوية تؤيد استمرار الإنجاب. إن أفضل ما يمكننا أن نفترضه بشأن مصيرنا هو أننا لن نحظى بأي فرصة للتواصل مع فرد آخر من أفراد الجنس البشري. وإذا كنا آخر أفراد سلالتنا، فمن الحكمة أن ننتبه إلى أحد مبادئ التطور الأساسية، ألا وهو أنه كلما زاد التنوع الجيني، ارتفع احتمال البقاء في البيئات المتقلبة.

في الليلة الماضية، بعد أن أفقت تمامًا من حلمي، استرسل عقلي في هذا السيناريو. قلت لنفسي: فلنفترض أن راما ليست ذاهبة إلى مكان محدد، على الأقل على المدى القريب، وأننا سنمضي ما تبقى من حياتنا في مثل الظروف الراهنة. إذن فمن المحتمل بقاء سيمون وكيتي على قيد الحياة ووفاتنا نحن الثلاثة؟ ماذا سيحدث بعد هذا؟ إن لم نحتفظ بطريقة ما ببعض مَني مايكل أو ريتشارد (وهذا سيؤدي إلى مشاكل بيولوجية ونفسية جسيمة) لن تتمكن ابنتاي من الإنجاب. ربما تصلان إلى الجنة أو نرفانا أو أي عالم آخر، ولكنهما في النهاية ستموتان وستموت معهما الجينات التي تحملانها.

واصلت التفكير: ولكن لنفترض أنني أنجبت ذكرًا. في هذه الحالة سيكون للفتاتين رفيقٌ ذكر في مثل سنهما وستقل كثيرًا مشكلة الأجيال التالية.

عند هذه المرحلة من التفكير قفزت إلى عقلي فكرة مجنونة جدًّا. كان علم الوراثة، وخاصة ما يتعلق بالعيوب الوراثية، من مجالات تخصصي الرئيسية أثناء التدريب الطبي الذي حصلت عليه. تذكرت دراسات الحالة التي أجريتها على الأسر الملكية في أوروبا فيما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر وما ظهر على بعض أفرادها من تدهور نتيجة للإفراط في الزواج بين الأقارب. إذا أنجبت أنا وريتشارد ولدًا فستكون له نفس المكونات الجينية الموجودة في سيمون وكيتي. وستتضخم بشدة مخاطر أن يأتي أبناء هذا الولد من إحدى بناتي — وهم من سيكونون أحفادنا — مصابين بالعيوب. من ناحية أخرى، إذا أنجبت أنا ومايكل ابنًا لن يشترك مع الفتاتين إلا في نصف الجينات، وستقل مخاطر تعرض ذريته من سيمون أو كيتي للإصابة بالعيوب إلى حدٍّ كبير، على حد ما أذكر.

استبعدتُ هذه الفكرة الشائنة على الفور. ولكنها لم تبارح ذهني. في وقت متأخر من الليل، كان ينبغي أن أكون نائمة فيه، عاد ذهني إلى نفس الموضوع. ماذا لو حملت من ريتشارد مرة أخرى وأنجبت فتاة ثالثة؟ عندها سيكون لزامًا علينا أن نعيد العملية كلها. وأنا الآن في الحادية والأربعين. فكم عامًا أمامي قبل أن يبدأ سن انقطاع الطمث، حتى وإن أخرته كيميائيًّا؟ استنادًا إلى نقطتَي البيانات المتوافرتين لا يوجد دليل على أن ريتشارد يستطيع أن ينجب ولدًا. يمكننا أن نبني معملًا يمكِّننا من اختيار الحيوانات المنوية الذكرية من سائله المنوي، ولكن هذا سيتطلب جهدًا ضخمًا من جانبنا وشهورًا من التفاعل المفصل مع سكان راما. وستبقى أمامنا بعد هذا مشاكل حفظ الحيوانات المنوية ونقلها إلى المبايض.

أخذت أفكر في التقنيات المُثبتة المختلفة التي تؤثر في عملية الاختيار الطبيعي للجنس (مثل غذاء الرجل، ونوع الجماع وعدد مراته، والتوقيت قياسًا بالتبويض ... إلخ) وانتهيت إلى أنني وريتشارد ستكون أمامنا فرصة جيدة لإنجاب ولد بطريقة طبيعية إذا توخينا الحرص الشديد. ولكن في قرارة نفسي ظلَّتْ تُلح عليَّ فكرة أن الفائدة ستكون أكبر كثيرًا إذا كان مايكل هو الأب. فقد أنجب مايكل ولدين (من بين ثلاثة أطفال) دون تخطيط. فمهما استطعت تحسين احتمالات إنجاب ولد من ريتشارد باستخدام تقنيات معينة، فإن اتباع نفس هذه التقنيات مع مايكل سيجعل الاحتمالات مضمونة تمامًا.

قبل أن أعود للنوم مرة أخرى، فكرت قليلًا في مدى تعذر تنفيذ الفكرة بأكملها. إذ سيكون علينا أن نبتكر طريقة مضمونة للإخصاب الصناعي (وسيكون عليَّ أن أشرف عليها مع أنني سأكون خاضعة لها في نفس الوقت). هل سيمكننا أن نقوم بهذا في وضعنا الحالي مع ضمان جنس الجنين وسلامة صحته؟ فحتى في المستشفيات التي على الأرض بكل الموارد المتاحة لها، لا تكلل المحاولات بالنجاح دائمًا، فما بالك هنا؟ البديل الآخر هو أن أضاجع مايكل. مع أنني لم أستهجن الفكرة، بدت العواقب الاجتماعية وخيمة للغاية حتى إنني استبعدت الفكرة برمتها.

(بعد ست ساعات.) فاجأني الرجلان الليلة بعشاء مميز. فقدرات مايكل كطاهٍ محترف تتقدم. كان طعم الطعام يشبه طعم فطيرة اللحم البقري، كما أخبراني، مع أنه كان يبدو أشبه بالسبانخ بالكريمة. كما قدم ريتشارد ومايكل سائلًا أحمر اللون أطلقا عليه خمرًا. لم يكن شنيعًا؛ لذا شربته، واكتشفت أنه يحتوي بعض الكحول، وهو ما أدهشني، وشعرت أنني ثملت.

كنا نحن البالغين نترنح قليلًا في نهاية العشاء. وأثار سلوكنا حيرة الفتاتين، ولا سيما سيمون. أثناء تناولنا الحلوى المكونة من فطيرة جوز الهند أخبرني مايكل أن ٤١ «عدد مميز للغاية». ثم أوضح لي أنه أكبر عدد أولي يبدأ متتالية تربيعية من الأعداد الأولية الأخرى. وعندما سألته عن ماهية المتتالية التربيعية ضحك وقال لي إنه لا يعرف. ولكنه كتب المتتالية التي تتكون من أربعين عنصرًا التي كان يتحدث عنها: ٤١، ٤٣، ٤٧، ٥٣، ٦١، ٧١، ٨٣، ٩٧، ١١٣ ... وانتهى بالرقم ١٦٠١. وأكد لي أن كلًّا من الأربعين عددًا في المتتالية هو عدد أولي، وقال وهو يغمز: «لذا لا بد أن ٤١ عدد سحري».

بينما كنت أضحك، نظر رفيقنا العبقري ريتشارد إلى الأعداد وبعد ما لا يزيد عن دقيقة من العمل على الكمبيوتر شرح لي ولمايكل السبب في تسمية المتتالية «تربيعية». فقال موضحًا بمثال: «الاختلافات الثانية ثابتة. ولهذا يمكن تكوين المتتالية كلها من مقدار تربيعي بسيط. لنأخذ مثلًا $f(N) = N^2 - N + 41$، بحيث ترمز N إلى أي عدد صحيح من صفر حتى ٤٠. إن هذه الدالة ستنتج المتتالية بأكملها.»

ثم قال وهو يضحك: «وما سأذكره الآن أروع مما سبق: انظرا إلى المتتالية التالية $f(N) = N^2 - 81N + 1681$ حيث ترمز N إلى أي عدد صحيح من ١ إلى ٨٠. هذه الصيغة التربيعية تبدأ من نهاية سلسلة الأرقام، $f(1) = 1601$، وتستمر أولًا في متتالية ذات ترتيب متناقص. ثم تعكس نفسها بعد هذا عندما تصل إلى $f(400) = f(41) = 41$ ثم تبدأ في تكوين مجموعة الأرقام الكاملة من جديد في ترتيب متصاعد.»

ابتسم ريتشارد، وأخذت أتطلع إليه أنا ومايكل في رهبة.

٣١ مارس ٢٢٠٥

كان عيد ميلاد كيتي الثاني اليوم، والجميع في حالة مزاجية جيدة، وخاصة ريتشارد. إنه يحب ابنته الصغيرة حبًّا جمًّا، مع أنها تعامله بعنف. واحتفالًا بعيد ميلادها، أخذها إلى غطاء ملجأ الأوكتوسبايدر وخلخلا الشبكة معًا. أعربت أنا ومايكل عن استهجاننا، ولكن ريتشارد ضحك وغمز لكيتي.

أثناء الغداء، عزفت سيمون مقطوعة قصيرة على البيانو كان مايكل يعلِّمها إياها، وقدم ريتشارد خمرًا مميزًا — أطلق عليها الخمر الأبيض الرامي — مع السلمون المسلوق الذي اعتدنا عليه. في راما يبدو السلمون المسلوق مثل البيض المقلي المخفوق على الأرض،

وهذا محير بعض الشيء، ولكننا نلتزم بالعرف الذي نتبعه في تصنيف الطعام تبعًا لمحتواه الغذائي.

أشعر بسعادة غامرة مع أنني يجب أن أعترف أنني متوترة بعض الشيء بسبب النقاش القادم الذي سأجريه مع ريتشارد. إنه مبتهج جدًّا حاليًّا، والسبب الأساسي في هذا هو أنه منشغل بالعمل لا في مشروع واحد فقط وإنما في مشروعين. فهو لا يقوم فقط بإعداد مشروب ينافس بطعمه ومحتواه الكحولي أجود الخمور على كوكب الأرض، وإنما يقوم أيضًا بتصنيع مجموعة جديدة من الآليين الذين يبلغ طول الواحد منهم عشرين سنتيمترًا، استوحاهم من شخصيات مسرحيات الكاتب المسرحي صامويل بيكيت الحاصل على جائزة نوبل في القرن العشرين. ظللت أنا ومايكل سنواتٍ نحث ريتشارد على إعادة تجسيد أفراد فرقة شكسبير المسرحية ولكن ذكرى أصدقائه الذين فقدهم كانت دائمًا ما تمنعه. أما تناول شخصيات كاتب مسرحي جديد، فهذا أمر مختلف. لقد انتهى الآن من إعداد شخصياتِ مسرحيةِ «نهاية اللعبة» الأربع. ضحك الأطفال الليلة بمرح عندما ظهرت الشخصيتان العجوزتان «ناج» و«نل» من سلتي المهملات الصغيرتين صائحين: «عصيدتي. أعطني عصيدتي.»

بالتأكيد سأعرض على ريتشارد فكرتي عن إنجاب طفل من مايكل. فأنا متأكدة من أنه سيقدر المنطق والمنطلق العلمي اللذين يقوم عليهما الاقتراح، مع أنني لا أعتقد أنه سيتحمس كثيرًا لهذا الاقتراح. بالطبع لم أحدث مايكل بعدُ عن الفكرة على الإطلاق. ولكنه يدرك بالتأكيد أن ثمة أمرًا خطيرًا يدور في ذهني لأنني طلبت منه أن يعتني بالفتاتين هذا المساء بينما أذهب أنا وريتشارد لتناول الطعام في الهواء الطلق في الأعلى ونتحدث.

لعل الخوف الذي يعتريني من هذا الموضوع لا مبرر له. إنه بالتأكيد نابع من تعريف البشر للسلوك الملائم الذي لا ينطبق على وضعنا الحالي. ريتشارد على ما يرام هذه الأيام. سخريته أصبحت لاذعة جدًّا في الآونة الأخيرة. وربما يلقي عليَّ بعض الملاحظات التهكمية الحادة خلال نقاشنا، ولكنني متأكدة من أنه سيؤيد الفكرة في النهاية.

٨

٧ مايو ٢٢٠٥

كان هذا سبب شجارنا. أوه، يا إلهي، يا لغبائنا نحن البشر! ريتشارد، ريتشارد، أرجوك عُد.

من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ هل أجرؤ على أن أغامر؟ في الدقيقة الواحدة تنكشف أمامي حقائق كانت غائبة، وأعيد قراءة الموقف حتى تصير الدقيقة … يقطع مايكل وسيمون الحجرة المجاورة جيئةً وذهابًا وهما يتحدثان عن مايكل أنجلو.

كان والدي دائمًا ما يقول لي إن كل ابن آدم خطاء. ولكن لماذا جاء خطئي فادحًا إلى هذا الحد؟ بدت لي الفكرة منطقية. قال الجزء الأيسر من عقلي إنها منطقية. ولكن في أعماق النفس البشرية، لا تكون الغلبة دائمًا للعقل. فالمشاعر لا يحكمها منطق. والغيرة ليست من مخرجات برنامج من برامج الكمبيوتر.

كان هناك الكثير من المؤشرات التي تنبئ برد فعل ريتشارد. ففي المساء الأول الذي صارحته فيه بفكرتي عندما كنا نتناول الطعام في الهواء الطلق بجوار البحر الأسطواني، كنت أستطيع أن أقرأ في عينَي ريتشارد أن ثمة مشكلة ما. قلت لنفسي: آه، تراجعي يا نيكول.

ولكنه بدا منطقيًّا جدًّا فيما بعد. فقد قال في نفس ذلك المساء: «بالطبع ما تقترحينه هو الصواب من الناحية الجينية. سأذهب معك لأخبر مايكل. ودعينا ننتهي من هذا بأقصى سرعة ممكنة، ولنأمل ألا يتطلب الأمر أكثر من لقاء واحد.»

شعرت بالابتهاج في هذا الوقت. لم أتخيل أبدًا أن مايكل قد يعارض فكرتي. ولكنه قال في المساء — والطفلتان نائمتان — بعد أن فهم ما نقترحه بثوانٍ: «هذا إثم.»

بادره ريتشارد بالهجوم قائلًا إن مفهوم الإثم بأكمله مفهومٌ لا وجود له حتى على الأرض، وإن مايكل يتصرف بسخافة. في نهاية الحوار سأل مايكل ريتشارد مباشرةً: «هل تريدني حقًّا أن أفعل هذا؟»

أجاب ريتشارد بعد قليل من التردد: «لا، ولكن من الواضح أن هذا في مصلحة أبنائنا.» كان ينبغي عليَّ أن أولي كلمة «لا» مزيدًا من الاهتمام.

لم أتخيل أبدًا أن خطتي قد تبوء بالفشل. تابعت دورة التبويض بعناية. وعندما جاءت الليلة المحددة أخبرت ريتشارد فدلف خارجًا من الملجأ في واحدة من نزهاته الطويلة في راما. كان مايكل عصبيًّا وكان يصارع شعوره بالذنب، ولكن حتى في أسوأ كوابيسي لم أتخيل أنه سيعجز عن مضاجعتي.

عندما خلعنا ملابسنا (في الظلام، حتى لا ينزعج مايكل) ورقد كلٌّ منا بجوار الآخر على الفراش، اكتشفت أن جسده كان صلبًا ومشدودًا. قبلته على جبهته ووجنتيه. ثم حاولت أن أخفف من توتره بتدليك ظهره ورقبته. بعد حوالي ثلاثين دقيقة من الملامسة (لم يحدث

فيها شيء يمكن أن نطلق عليه مداعبة جنسية)، دنوت بجسدي من جسده على نحو مثير. ولكن كان من الواضح أن هناك مشكلة ما. فلم تظهر عليه أي استجابة.

لم أعرف كيف أتصرف. أول فكرة راودتني هي أن مايكل لا يعتبرني جذابة، وهذه بالطبع فكرة غير منطقية على الإطلاق. انتابني شعور بغيض وكأن شخصًا ما صفعني. وانفجرت بداخلي كل مشاعر النقص المكبوتة وشعرت بغضب عارم إلى حد أدهشني. لحسن الحظ لم أنبس ببنت شفة (لم يتحدث أيٌّ منا طوال هذه المدة بأكملها) ولم يرَ مايكل وجهي في الظلام. ولكن لا بد أن لغة جسدي أخبرته بخيبة أملي.

قال بصوت خفيض: «آسف.»

أجبت وأنا أحاول تصنُّع اللامبالاة: «لا عليك.»

استندت على مرفقي ولمست جبهته بيدي الأخرى. وأخذت أدلكه بخفة وأنا أمرر أصابعي برفق على وجهه وعنقه وكتفه. وظل مايكل سلبيًّا تمامًا. إذ كان يستلقي على ظهره دون حراك، وعيناه مغمضتان معظم الوقت. ومع أني كنت واثقة أنه كان يستمتع بالتدليك، لم يقل شيئًا أو تصدر عنه أي همسات تنم عن المتعة. وفي ذلك الوقت، بدأت أصاب بالقلق الشديد. ووجدت نفسي أرغب في أن يداعبني مايكل، وأن يؤكد لي أنني على ما يرام.

ففي آخر الأمر، انحنيت عليه حتى لمس جزء من جسدي جسده. أرخيت صدري على جسده وأخذت أداعب الشعر الذي يغطي صدره بيدي اليمنى. وانحنيت لأقبله على شفتيه، وأنا أنوي إثارته بيدي اليسرى، لكنه ابتعد عني بسرعة واعتدل جالسًا.

قال مايكل وهو يهز رأسه: «لا يمكنني أن أفعل هذا.»

سألت بهدوء، وجسدي الآن بحالة سيئة بجواره: «لمَ لا؟»

أجاب بوقار شديد: «لأنه خطأ.»

حاولت عدة مرات في الدقائق القليلة التالية أن أبدأ حوارًا ولكن مايكل كان غير راغب عن الحديث. وفي النهاية ارتديت ملابسي في صمت في الظلام لأنه لم يكن أمامي شيء آخر لأفعله. وحين غادرت المكان، قال لي مايكل بصوت واهن لا يكاد يسمع: «تصبحين على خير.»

لم أعد مباشرةً إلى حجرتي. فعندما خرجت إلى الممر أدركت أنني لست على استعداد بعد لمواجهة ريتشارد. اتكأت على الحائط وصارعت المشاعر القوية التي غمرتني. لماذا افترضت أن كل شيء سيكون بسيطًا للغاية؟ وماذا سأقول لريتشارد الآن؟

عندما دخلت حجرتنا، عرفت من صوت أنفاس ريتشارد أنه لم يكن نائمًا. لو كنت أتحلى بشجاعة أكبر لكنت أخبرته في التو بما حدث مع مايكل. ولكن كان من الأسهل أن أتجاهل هذا مؤقتًا. وكان هذا خطأً فادحًا.

كان اليومان التاليان مشحونَين بالتوتر. فلم يذكر أحد منا ما وصفه ريتشارد ذات مرة بـ «واقعة الإخصاب». حاول الرجلان أن يتصرفا وكأن كل شيء طبيعي. وبعد العشاء في الليلة الثانية أقنعت ريتشارد بأن يتمشى معي بينما يضع مايكل الفتاتين في فراشيهما.

كان ريتشارد يشرح التركيب الكيميائي لعملية التخمير الجديدة التي يقوم بها لصنع الخمور ونحن واقفان على السور الذي يطل على البحر الأسطواني. فقاطعته وأمسكت بيده. قلت وعيناي تبحثان عن الحب والطمأنينة في عينيه: «ريتشارد، هذا صعب جدًّا ...» ثم تهدَّج صوتي.

سأل وهو يتكلف الابتسام: «ما الأمر يا نيكي؟»

أجبت: «حسنًا، إنه مايكل.» ثم تكلمت دون أن أفكر: «لم يحدث بيننا شيء ... لم يستطع ...»

حدق ريتشارد فيَّ لوقت طويل. ثم سأل: «هل تقصدين أنه عاجز؟»

أومأت برأسي موافقةً في البداية ثم هززت رأسي نافيةً هذا مما أثار حيرته. ثم تمتمت: «ليس بالضبط في الغالب، ولكنه كان كذلك في تلك الليلة التي قضاها معي. أعتقد أنه متوتر جدًّا أو أنه يشعر بالذنب، أو أنه قد مر وقت طويل منذ أن ...» توقفت عندما أدركت أنني أفشي أكثر من اللازم.

أخذ ريتشارد يحدق في البحر برهة بدت لي دهرًا. ثم قال أخيرًا في صوت خال من أي تعبير: «هل تريدين أن تجربي مرة أخرى؟» لم يلتفت لينظر إليَّ.

أجبت: «أنا ... لا أدري.» ضغطت على يده. وهممت بأن أقول شيئًا آخر، هممت أن أسأله إن كان يستطيع أن يتعامل مع الموقف إذا جربت مرة أخرى، ولكنه ابتعد عني فجأة. وقال باقتضاب: «أخبريني عندما تقررين.»

طوال أسبوع أو أسبوعين كنت متأكدة من أنني سأتخلى عن الفكرة برمتها. وبدأ شيء من البهجة يعود إلى أسرتنا الصغيرة ببطء، ببطء شديد. في الليلة التي تلت انقضاء الطمث، تطارحنا الغرام أنا وريتشارد لأول مرة منذ عام. وكان سعيدًا للغاية وتحدث كثيرًا ونحن نتعانق.

قال: «يجب أن أقول إنني كنت قلقًا جدًّا لبعض الوقت. ففكرة مضاجعتك لمايكل كانت تدفعني إلى الجنون، وإن كان هذا لأسباب من المفترض أنها منطقية. كنت خائفًا

جدًّا من أن يعجبك هذا مع أني أعرف أن هذا ليس منطقيًّا — هل تفهمين ما أعنيه؟ — وكنت خائفًا من أن تتأثر علاقتنا على نحو ما.»

من الواضح أن ريتشارد كان يفترض أنني لن أحاول مرة أخرى أن أحمل من مايكل. لم أناقشه في هذه الليلة لأنني كنت سعيدة أنا الأخرى وقتها. ولكن بعد أيام قليلة، عندما بدأت أقرأ عن العجز الجنسي في كتب الطب، أدركت أنني لا أزال مصرةً على المضي قدمًا في خطتي.

في الأسبوع الذي سبق التبويض، كان ريتشارد مشغولًا بتخمير خمره (وربما بتذوقها أكثر من اللازم، فقد سكر قليلًا أكثر من مرة قبل الغداء)، وبصناعة آليين صغار الحجم استوحاهم من شخصيات صامويل بيكيت. أما أنا فكان كل انتباهي منصبًّا على العجز الجنسي. واكتشفت أن المنهج الذي درسته في كلية الطب قد تجاهل هذا الموضوع تمامًا. ولما كانت خبرتي الجنسية محدودة نسبيًّا، لم أتعرض لهذا الموقف بصفة شخصية من قبل. اندهشت عندما عرفت أن العجز الجنسي علة منتشرة جدًّا، وأنه له أسباب نفسية في الأساس، ولكن يصاحبه عادةً عامل عضوي يزيده تفاقمًا، وأن هناك الكثير من أساليب العلاج المحددة، وجميعها يركز على الحد من قلق الرجل أثناء العلاقة.

شاهدني ريتشارد وأنا أعد بولي لاختبار التبويض في صباح أحد الأيام. لم يقل شيئًا ولكنني قرأت في وجهه أنه يشعر بالانزعاج وخيبة الأمل. أردت أن أطمئنه ولكن البنتين كانتا في الحجرة وكنت خائفة من انفجار غضبه أمامهما.

لم أخبر مايكل أننا سنقوم بمحاولة ثانية. فقد اعتقدت أن قلقه سيقل إذا لم يتح له الوقت ليفكر. كادت خطتي أن تنجح. ذهبت مع مايكل إلى حجرته بعد أن وضعنا الطفلتين في الفراش وشرحت له ما يحدث ونحن نخلع ملابسنا. بدأ يستجيب جنسيًّا، وقد تحركت بسرعة لدعم تلك الاستجابة مع أنه أبدى بعض الاعتراضات الطفيفة. كنت متأكدة من أننا سننجح هذه المرة لولا أن كيتي قد بدأت تصرخ: «أمي، أمي.»

طبعًا تركت مايكل وقطعت الممر جريًا إلى حجرة نوم الطفلتين. كان ريتشارد هناك بالفعل. وكان يحمل كيتي بين ذراعيه. وكانت سيمون جالسةً على فراشها تدلك عينيها. أخذ الثلاثة يحدقون في جسدي العاري وأنا في المدخل. قالت كيتي وهي تتشبث بريتشارد بقوة: «رأيت حلمًا مخيفًا. أوكتوسبايدر كان يأكلني.»

دخلتُ الحجرة. وسألتُ كيتي وأنا أمد ذراعيَّ لآخذها: «هل تشعرين بتحسن الآن؟» ظل ريتشارد ممسكًا بها ولم تقم هي بأي محاولة لتأتي إليَّ. وبعد دقيقة مؤلمة ذهبت إلى سيمون ولففت ذراعي حول رقبتها.

سألتني ابنتي ذات الأعوام الأربعة: «أين رداء نومك يا أمي؟» في أغلب الأوقات أنام أنا وريتشارد ونحن نرتدي رداء النوم الذي صنعه سكان راما. الفتاتان معتادتان على رؤيتي عاريةً — فنحن الثلاثة نستحم معًا يوميًّا تقريبًا — ولكن في الليل، عندما أذهب إلى حجرة نومهما، دائمًا ما أرتدي رداء نومي.

كنت سأجيب على سيمون إجابةً مرحة عندما لاحظتُ أن ريتشارد كان يحدق فيَّ هو الآخر. كانت عيناه تفيضان بتعبير ينم عن العدوانية. وقال بلهجة قاسية: «أستطيع أن أتولى الأمور هنا. لماذا لا تذهبين وتنهين ما تفعلينه؟»

رجعت إلى مايكل لأحاول مرة أخرى. كان قرارًا سيئًا. قمت بمحاولات فاشلة لإثارة مايكل لدقيقتين، ثم دفع يدي. وقال: «لا فائدة. أنا في الثالثة والستين تقريبًا، ولم أضاجع أحدًا منذ خمس سنوات. ولا أمارس الاستمناء أبدًا، وأتعمد تجنب التفكير في الجنس. والاستجابة التي حدثت منذ قليل كانت مجرد ضربة حظ.» صمت نحو دقيقة. ثم أضاف: «آسف يا نيكول ولكن هذا لن ينجح.»

ظل كلٌّ منا راقدًا إلى جوار الآخر في صمتٍ دقائق. كنت أرتدي ملابسي وأستعد لمغادرة الغرفة عندما لاحظت أن أنفاس مايكل بدأت تتخذ إيقاعًا منتظمًا على النحو الذي يسبق النوم. تذكرت فجأة من قراءاتي أن الرجال الذين يعانون من العجز الجنسي لأسباب نفسية قد تنجح مضاجعتهم أثناء النوم، فقفزت في ذهني فكرة مجنونة أخرى. رقدت بجوار مايكل مستيقظة وقتًا طويلًا منتظرةً حتى أتيقن من أنه يغط في نوم عميق.

أخذت أمرر يدي عليه برفق في البداية. وسرني أنه استجاب بسرعة شديدة. وبعد برهة، زدت من قوة التدليك الذي كنت أقوم به، ولكنني حرصت بشدة على ألا أوقظه. وعندما أصبح مستعدًّا، تحركت لبدء العلاقة. ولكني، قبل لحظات من بدء العلاقة، دفعته دون قصد بخشونة فاستيقظ. حاولتُ الاستمرار، لكن لا بد أنني بسبب تسرعي قد آلمته، لأنه أطلق صيحة وتطلَّع إليَّ في ارتياع. كدت أنجح لولا أنني أيقظته ففشلت المحاولة.

انقلبت على ظهري وتنهدت تنهيدة عميقة. كنت محبطة بشدة. أخذ مايكل يطرح عليَّ الأسئلة ولكني كنت مضطربة إلى درجة جعلتني عاجزة عن الإجابة. فاغرورقت عيناي بالدموع. ارتديت ملابسي بسرعة، وقبلت مايكل برفق على جبينه، وخرجت بخطوات مضطربة إلى الممر. وظللت واقفة هناك خمس دقائق أخرى قبل أن أقوى على العودة إلى ريتشارد.

كان زوجي لا يزال يعمل. كان جاثيًا بجوار «بوزو» الآلي الذي استوحاه من شخصية بوزو في مسرحية «في انتظار جودو». كان الآلي الصغير منهمكًا في أحد أحاديثه الطويلة

غير المنظمة التي تدور حول عقم كل ما في الحياة. تجاهلني ريتشارد في البداية. ثم التفت بعد أن أسكت بوزو. وسألني بتهكم: «هل تعتقدين أنك استغرقت وقتًا طويلًا؟»

أجبت باكتئاب: «لم ننجح. أعتقد أن ...»

صرخ ريتشارد فجأة في غضب: «لا تجيبيني بهذا الهراء. لست بهذا الغباء. هل تتوقعين مني أن أُصدق أنك أمضيت معه ساعتين وأنت عارية دون أن يحدث بينكما شيء؟ أعرفكن يا معشر النساء. تعتقدين أن ...»

لا أذكر بقية ما قاله. ولكنني أذكر جيدًا الرعب الذي شعرت به وهو يتقدم نحوي، وعيناه تفيضان بالغضب. اعتقدت أنه سيضربني فاستعددت لذلك. انفجرت الدموع في عيني وانهمرت على وجنتيَّ. سبني ريتشارد بسباب فظيع وأهانني إهانة ذات طابع عنصري. وكان يتصرف بطريقة جنونية. عندما رفع ذراعه في عنف اندفعت خارجةً من الحجرة، وركضت في الممر باتجاه السلالم إلى نيويورك. كدت أن أصطدم بكيتي الصغيرة التي أيقظها صراخنا وكانت واقفة على باب حجرتها مصعوقةً.

كان الوقت نهارًا في راما. تمشيت وأنا أبكي بكاءً متقطعًا ما يقرب من ساعة. كنت ساخطةً على ريتشارد، ولكنني كنت مستاءة جدًّا من نفسي أيضًا. قال ريتشارد في سَورة غضبه إنني كنت «مهووسةً» بفكرتي، وإنها مجرد «مبرر ذكي» لمضاجعة مايكل لكي أصبح «ملكة النحل في الخلية». لم أجب على أيٍّ من العبارات التي ظل يصرخ بها في وجهي. تُرى هل تحمل اتهاماته شيئًا من الحقيقة؟ هل كان جزءًا من حماسي للمشروع يكمن في رغبتي في مضاجعة مايكل؟

أقنعت نفسي بأن دوافعي كانت كلها سليمة مهما كان المقصود بذلك، ولكنني كنت غبية بدرجة لا تصدق بشأن هذا الأمر بأسره من البداية. كان ينبغي أن أعرف — من بين الجميع — أن ما أقترحه مستحيل. بالتأكيد، كان ينبغي أن أترك على الفور هذه الفكرة بعد أن رأيت أول رد فعل لريتشارد (ولمايكل أيضًا، في هذا الصدد). ربما كان ريتشارد محقًّا في بعض ما قاله. ربما أكون عنيدة أو حتى مهووسة بفكرة ضمان أقصى درجة من التنوع الجيني لذريتنا. ولكنني متيقنة من أنني لم أدبر هذا الأمر برمته لمجرد أن أتمكن من مضاجعة مايكل.

عندما عدت، كانت حجرتنا مظلمة. ارتديت رداء النوم وارتميت على فراشي وأنا مجهدة. بعد ثوانٍ قليلة، تقلب ريتشارد واحتضنني بقوة وقال: «نيكول، حبيبتي، أنا آسف جدًّا. أرجوك سامحيني.»

لم أسمع صوته منذ ذلك الوقت. فاليوم يكون قد مر ستة أيام على رحيله. نمت نومًا عميقًا ذلك اليوم، دون أن أدري بأن ريتشارد كان يحزم متاعه ويكتب لي رسالة. في الساعة السابعة صباحًا رن المنبه. كانت هناك رسالة على الشاشة السوداء. جاء فيها: «إلى نيكول دي جاردان فقط، اضغطي الزر «كيه» عندما تريدين الاطلاع عليها.» لم تكن الطفلتان قد استيقظتا بعد؛ لذا ضغطت الزر «كيه» في لوحة المفاتيح.

«نيكول، يا أعز الناس، هذا أصعب خطاب أكتبه في حياتي. سأرحل عنك وعن الأسرة مؤقتًا. أعرف أن هذا سيسبب متاعب كبيرة لك ولمايكل وللبنتين، ولكن صدقيني، هذا هو الحل الوحيد. بعد ما حدث ليلة أمس، من الواضح أنه لا يوجد حل آخر.

عزيزتي، أحبك من كل قلبي، وأدرك — عندما يكون عقلي متحكمًا في مشاعري — أن ما تحاولين فعله في مصلحة الأسرة. وينتابني شعور فظيع بسبب الاتهامات التي قذفتك بها ليلة أمس. وما يسيئني أكثر هو سبابي لك، وخاصة الإهانة العنصرية واستخدامي المتكرر لكلمة «داعرة». آمل أن تسامحيني، وإن كنت غير متأكد من أنني سأستطيع أن أسامح نفسي، وأن تتذكري حبي لك بدلًا من غضبي المجنون الجامح.

الغيرة شعور رهيب. عندما نقول إنها «تأكل صاحبها» فإننا لا نعبر عنها التعبير الأمثل. الغيرة تستنزف كل طاقات المرء وتفتقر إلى أيِّ منطق، وهي مضنية حقًّا. يتحول أروع الناس في العالم إلى حيوانات هائجة حين يقعون في براثن الغيرة.

نيكول يا حبيبتي، في العام الماضي لم أخبرك الحقيقة كاملة بشأن نهاية زواجي من سارة. لقد شككت شهورًا في أنها على علاقة برجال آخرين في الليالي التي تقضيها في لندن. كان هناك الكثير من العلامات الكاشفة — عدم انتظام اهتمامها بالجنس، والملابس الجديدة التي لم ترتدها لي أبدًا، المكالمات التي لا يجيب الطرف الآخر حين أرد عليها، وغير ذلك — ولكنني كنت أحبها بجنون، وكنت متأكدًا تمامًا من أن زواجنا سينتهي إذا واجهتها، فلم أتخذ أي رد فعل إلا عندما أفقدتني الغيرة صوابي.

في الواقع، عندما كنت أرقد على سريري في كامبريدج وأتخيل سارة مع رجل آخر، كانت الغيرة تستبد بي إلى درجة تجعلني لا أنام إلا بعد أن أتخيل سارة وقد لقيت مصرعها. عندما اتصلت بي السيدة سينكلير في تلك الليلة وأدركت أنني لم أعد أستطيع أن أتظاهر بأن سارة مخلصة، ذهبت إلى لندن بنيَّة صريحة في قتل كلٍّ من زوجتي وعشيقها.

لحسن الحظ لم يكن بحوزتي مسدس، ومن فرط غضبي الذي انفجر حين رأيتهما معًا، نسيت السكين الذي وضعته في جيب معطفي. ولكنني كنت بالتأكيد سأقتلهما إذا لم يكن صوت الشجار قد أيقظ الجيران الذين كبحوا جماحي.

ربما تتساءلين عن علاقة كل هذا بك. تعلمين يا حبيبتي أن كلًّا منا يكوِّن أنماط سلوك مميزة في حياته. لقد نشأ نمط غيرتي العمياء بالفعل قبل أن أقابلك. ولم أستطع منع ذكريات سارة من العودة أثناء المرتين اللتين توجهتِ فيهما إلى مايكل لمضاجعته. أعرف أنك لست سارة، وأنك لا تخونينني، ولكن مشاعر الغيرة تعود وتثور بنفس الجنون. بطريقة غريبة جدًّا، لأنه يصعب عليَّ حقًّا تخيل خيانتك لي، فإنك عندما تكونين مع مايكل تنتابني مشاعر أسوأ من المشاعر التي كانت تنتابني وسارة مع هيو سينكلير أو مع أيٍّ من أصدقائها من الممثلين، وأشعر بخوف أكبر من الخوف الذي كنت أشعر به حينها.

آمل أن تقدِّري ما قلت. إني راحل لأنني لا أستطيع أن أتحكم في غيرتي، مع أنني أعترف أنها طائشة. لا أريد أن أصبح مثل والدي، أسكر لأتغلب على تعاستي وأحطم حياة كلِّ مَن حولي. أشعر بأنك ستحملين من مايكل بطريقة أو بأخرى، وأفضِّل أن أجنبك سوء تصرفاتي أثناء ذلك.

أتوقع أن أعود قريبًا، إلا لو قابلت مخاطر غير متوقعة أثناء رحلاتي الاستكشافية، ولكن لا أعرف متى بالتحديد. أحتاج فترة تداوٍ حتى أستطيع أن أصبح عنصرًا من العناصر الفعالة في أسرتنا. أخبري الفتاتين أنني مسافر. وارفقي بكيتي على وجه الخصوص؛ لأنها ستكون أشد من سيفتقدني منكم.

أحبك يا نيكول. أعرف أنه سيصعب عليك فهم سبب رحيلي، ولكن حاولي من فضلك.»

ريتشارد

١٣ مايو ٢٢٠٥

قضيت اليوم خمس ساعات على سطح نيويورك في البحث عن ريتشارد. ذهبت إلى الحفر وإلى النافذتين وإلى الساحات العامة الثلاث. ومسحت محيط الجزيرة بمحاذاة السور. هززت شبكة ملجأ الأوكتوسبايدر ونزلت برهة في أرض المخلوقات الطائرة. ناديت عليه في كل مكان. أتذكر أن ريتشارد عثر عليَّ منذ خمس سنوات بفضل المرشد الملاحي اللاسلكي الذي وضعه على الأمير هال، الإنسان الآلي الشكسبيري الذي صنعه. ولو كان معي المرشد اللاسلكي اليوم لاستخدمته.

لا يوجد أثر لريتشارد في أي مكان. أعتقد أنه غادر الجزيرة. فهو سباح ماهر، وبسهولة يمكنه العبور إلى نصف الأسطوانة الشمالي، ولكن ماذا عن المخلوقات الغريبة التي تسكن البحر الأسطواني؟ هل ستتركه يعبر بسلام؟

عد يا ريتشارد. إني أفتقدك. إني أحبك.

من الواضح أنه كان يفكر في الرحيل على مدى عدة أيام. فقد حدَّث ورتب الفهرس الذي نستخدمه في التعامل مع سكان راما ليجعل هذا أسهل ما يمكن عليَّ أنا ومايكل. أخذ أكبر حقائبنا وصديقه المفضل «شين»، ولكنه ترك الآليين الذين صنعهم على نمط شخصيات بيكيت المسرحية.

أصبحت أوقات الوجبات أوقاتًا رهيبة منذ رحيل ريتشارد. كيتي غاضبة في معظم الأوقات. تريد أن تعرف متى سيعود والدها وسبب سفره كل هذه المدة. مايكل وسيمون يتحملان حزنهما في صمت. وتزداد الرابطة التي تربط بينهما، ويبدو أن كلًّا منهما قادر على مواساة الآخر. أما أنا فقد حاولت أن أزيد من اهتمامي بكيتي، ولكنني لم أنجح في أن أكون بديلًا عن والدها الحبيب.

الليالي رهيبة. لا أستطيع أن أنام. أظل أستحضر كل تعاملاتي مع ريتشارد خلال الشهرين الماضيين وأتذكر ما ارتكبته من أخطاء. لقد استفاض في البوح في الخطاب الذي تركه قبل الرحيل. لم أكن لأفكر أبدًا في أن المشاكل التي واجهها مع سارة ستكون لها أدنى أثر على زواجنا، ولكنني فهمت الآن ما كان يقوله عن أنماط السلوك.

هناك أنماط في حياتي العاطفية أنا الأخرى. تعرفتُ على معنى الرعب الذي ينطوي عليه فقد الأحبة عند وفاة أمي وأنا في العاشرة من عمري. وساهم خوفي من فقدان أي علاقة قوية أدخل فيها في إضعاف إحساسي بالثقة مع الناس وعرقلة دخولي في علاقة حميمة معهم. بعد وفاة أمي، فقدت جنيفياف ووالدي والآن فقدت ريتشارد ولو مؤقتًا. في كل مرة

يحدث فيها هذا تستيقظ كل أشباح الماضي. عندما ظللت أبكي حتى غلبني النعاس منذ ليلتين، أدركت أنني لم أكن أفتقد ريتشارد فحسب وإنما أيضًا أفتقد والدتي وجنيفياف ووالدي الرائع. شعرت أنني أفقد كلًّا منهم من جديد. لذا أستطيع أن أفهم الآن كيف أثارت صحبتي لمايكل ذكريات ريتشارد المؤلمة مع سارة.

«يموت المعلم دون أن يتعلم». أنا في الحادية والأربعين من عمري واكتشفت لتوِّي وجهًا جديدًا من أوجه الحقائق المتعلقة بالعلاقات الإنسانية. فمن الواضح أنني جرحت ريتشارد جرحًا لا يندمل. لا يهم أنه ليس هناك أسس منطقية لخوف ريتشارد من أن تؤدي علاقتي بمايكل إلى النَّيل من حبي له. فالمنطق لا ينطبق على هذا الموقف. الإدراك الحسي والشعور هما العنصران المهمان.

كنت قد نسيت كم أن الوحدة قاتلة. وقد مر على بداية علاقتي بريتشارد خمس سنوات. قد لا يحمل ريتشارد كل صفات فارس أحلامي، ولكنه كان رفيقًا رائعًا، وهو بلا شك أذكى إنسان التقيته في حياتي. وسيصيبني كرب عظيم إن كان من المقدر له ألا يعود. ينتابني الحزن عندما أفكر، ولو للحظة، أن تلك كانت آخر مرة أراه فيها.

في الليل عندما يحتدم شعوري بالوحدة، غالبًا ما أقرأ الشعر. كان بودلير وإليوت من الشعراء المفضلين لدي منذ فترة دراستي الجامعية، ولكن على مدى الليالي الأخيرة، وجدت سلواي في قصائد بنيتا جارسيا. عندما كانت طالبة في أكاديمية الفضاء في كولورادو، تسبب لها حبها الشديد للحياة في قدر هائل من الألم. رمت نفسها في أحضان دراسة الفضاء وفي أحضان الرجال بالقدر نفسه من الحماس. وعندما استُدعيت للمثول أمام لجنة تأديب الطلاب لا لجرم إلا نشاطها الجنسي الجامح، أدركت كم أن معايير الرجال في الحكم على الجنس مزدوجة.

معظم النقاد الأدبيين يعجبهم ديوانها الشعري الأول الذي جاء بعنوان «أحلام فتاة مكسيكية» الذي صنع شهرتها وهي لا تزال مراهقة، ويفضلونه عن الديوان الذي يضم قصائدها الأكثر حكمةً والأقل عاطفةً الذي نشرته في السنة الأخيرة لها في الأكاديمية. وفي ظل رحيل ريتشارد وانشغال عقلي بمحاولة فهم ما حدث بالفعل طوال الأشهر الأخيرة، فإنني أجد في نفسي صدى قصائد بنيتا التي تعبر عن حالات الكآبة والشك التي ميزت عهد مراهقتها. كان طريقها إلى النضج وعرًا للغاية. ومع أن كتابات بنيتا ظلت مفعمة بالصور، فإنها لم تعد تلك التي تغلب عليها روح التفاؤل حتى وهي تتجول بين الأطلال في أوشمال. الليلة قرأت عدة مرات إحدى القصائد التي أفضلها والتي كتبتها أثناء دراستها الجامعية.

فساتيني تضفي البهجة على غرفتي،
كورود في صحراء روتها السماء.
ستأتي الليلة، يا آخر أحبتي،
لكن بأي وجه تود رؤيتي؟
ثيابي ذات الألوان الشاحبة تناسب أمسية للحديث عن الكتب.
الثياب الزرقاء والخضراء تجعل المساء
يليق بلقاء صديقة أو حتى من تنوي الزواج بها.
أما إن كنت تفكر في الشهوة،
فالثياب الحمراء أو السوداء والعيون القاتمة
تناسب العاهرة التي سأتحول إليها.

* * *

لم تكن أحلام طفولتي هكذا،
ففيها جاء أميري من أجل قبلة فحسب،
وحملني بعيدًا عن الأحزان،
ألن أراه ثانية؟
الوجوه الزائفة تجرحني، يا زميل الدراسة،
فأرتدي فستاني دون أي ابتهاج.
وحتى أمسك يدك في يدي
أحقر نفسي كما تبتغي.

٩

١٤ ديسمبر ٢٢٠٥

أعتقد أنني يجب أن أحتفل بهذه المناسبة، ولكنني أشعر أن ثمن هذا النصر كان باهظًا جدًّا. أنا حامل أخيرًا بطفل مايكل. ولكن يا للثمن الذي دفعته! لم نسمع أي أخبار حتى الآن عن ريتشارد، وأخشى أن أكون قد تسببت في شعور مايكل بالاغتراب أيضًا.

اعترفت أنا ومايكل على نحو منفصل بمسئوليتنا الكاملة عن رحيل ريتشارد. واجهت إحساسي بالذنب على أفضل نحو ممكن؛ إذ أدركت أنني يجب أن أتناساه حتى أصبح أمًّا

جيدة لابنتيَّ. أما مايكل فكان رد فعله على رحيل ريتشارد وإحساسه بالذنب هو الاستغراق في العبادة. فهو لا يزال يقرأ الإنجيل مرتين يوميًّا على الأقل. ويصلي قبل كل وجبة وبعدها، وعادة ما يختار ألا يشارك في نشاطات الأسرة حتى يستطيع أن «يتواصل» مع الله. وأصبح لكلمة «الكفارة» مكانة كبيرة جدًّا في الحصيلة اللغوية التي يستخدمها مايكل.

لقد جرف سيمون في موجة حماسه المسيحي. ويضرب باعتراضاتي الخفيفة على هذا عرض الحائط. تحب سيمون قصة المسيح، مع أنها ليس لديها أدنى فكرة عن فحواها. وتسحرها المعجزات بصفة خاصة. فهي — مثلها مثل معظم الأطفال — لا تجد صعوبة في تصديق كل ما تسمعه. فعقلها لا يسأل أبدًا «كيف» عندما تسمع أن المسيح يمشي على الماء أو يحول الماء إلى خمر.

نيتي في قول هذه التعليقات ليست خالصة. فأنا على الأرجح، أشعر بالغيرة من الرابطة التي تجمع بين مايكل وسيمون. بصفتي أمها كان ينبغي أن أكون سعيدة لأنهما منسجمان إلى هذا الحد. على الأقل كلٌّ منهما لديه الآخر. أما أنا وكيتي المسكينة، فمهما حاولنا، فإننا نعجز عن تكوين مثل هذه العلاقة العميقة.

جزء من المشكلة يكمن في أن كلتينا عنيدة جدًّا. مع أن كيتي لم تتجاوز الثانية والنصف من عمرها، فإنها تريد أن تتحكم في حياتها بنفسها. لننظر إلى أمر بسيط مثل مجموعة الأنشطة اليومية التي نخطط لها، على سبيل المثال لا الحصر. منذ بداية وجودنا في راما وأنا أضع الجداول لكل أفراد الأسرة. ولم يتجادل معي أحد جدالًا شديدًا حول هذا، ولا حتى ريتشارد. مايكل وسيمون دائمًا ما يقبلان ما أنصح به، ما دمت أمنحهما وقتًا يكفي لكل نشاط ولا أقيدهما بالقيام بالأنشطة في أوقات محددة.

أما كيتي فحكايتها مختلفة. إذا وضعتُ التمشية أعلى نيويورك قبل درس الأبجدية، تسعى إلى تغيير الترتيب. إذا خططت لتناول الدجاج على الغداء، تريد هي لحم الخنزير أو اللحم البقري. إننا نبدأ كل أيامنا تقريبًا بالشجار حول الأنشطة التي سنقوم بها. عندما لا تعجبها قراراتي، تعبس أو تمد شفتيها في سخط أو تنادي: «أبي». إنني أتألم حقًّا حين أسمعها تنادي على ريتشارد.

يقول مايكل إنني ينبغي أن أذعن لرغباتها. ويؤكد أن هذه مجرد مرحلة من مراحل النمو. لكن عندما أشير إلى أن جنيفياف وسيمون لم تكونا أبدًا مثل كيتي، يبتسم ويهز كتفيه.

لا نتفق أنا ومايكل دائمًا على أساليب التربية. دارت بيننا عدة نقاشات شيقة حول الحياة الأسرية في ظروفنا الغريبة. قرب نهاية أحد الحوارات، كنت متكدرة قليلًا من تأكيد

مايكل على «صرامتي الزائدة عن الحد» مع الفتاتين؛ لذا قررت أن أطرح موضوع التدين. وسألت مايكل عن سبب اهتمامه الشديد بتعريف سيمون بتفاصيل حياة المسيح.

قال بغموض: «ينبغي أن يلم أحد منا بالتعاليم.»

«إذن فأنت تعتقد أنه سيبقى لنا تعاليم ينبغي الإلمام بها وأننا لن ننجرف في الفضاء إلى الأبد ونموت واحدًا تلو الآخر في وحدة قاتلة.»

أجابني: «أومن أن الله يدبر أمور جميع البشر.»

سألت: «وما تدبيره لنا؟»

أجاب مايكل: «لا أعرف تدبيره لنا. مثلما لا يعرف مليارات البشر الذين لا يزالون على الأرض تدبيره لهم. فالحياة ما هي إلا بحث عن ماهية تدبيره.»

هززت رأسي وتابع مايكل. فقال: «تعرفين يا نيكول، يجب أن يكون التدين أسهل كثيرًا علينا. فلا يوجد حولنا الكثير من الأشياء التي قد تشتتنا. لا يوجد مبرر لبعدنا عن الله. لذا يصعب جدًّا عليَّ أن أسامح نفسي على انشغالي السابق بالطعام وتاريخ الفن. في راما، يصبح على البشر أن يبذلوا مجهودًا جبارًا حتى يتمكنوا من أن يشغلوا وقتهم بشيء غير الصلاة والعبادة.»

أقر بأن يقينه يزعجني في بعض الأوقات. في ظروفنا الراهنة، يبدو أن حياة المسيح لا تحمل لنا أي أهمية تمامًا، مثل حياة أتيلا الهوني أو أي إنسان آخر عاش على الكوكب الذي يبعد عنا سنتين ضوئيتين. فنحن لم نعد جزءًا من الجنس البشري. فنحن إما هالكون، وإما أننا سنمثل بداية ما سيكون نوعًا جديدًا. هل مات المسيح من أجل آثامنا نحن أيضًا، نحن الذين لن نرى الأرض ثانية أبدًا؟

لم أكن لأستطيع أن أقنع مايكل بإنجاب طفل أبدًا إن لم يكن كاثوليكيًّا ونشأ منذ نعومة أظفاره على الإيمان بأهمية الإنجاب. لم أكن لأقنعه أبدًا بإنجاب طفل. إذ كانت لديه مئات الأسباب التي تثبت أن ذلك أمرٌ يجانبه الصواب. ولكنه في النهاية وافق، ربما لأنني كنت أفسد عبادته الليلية بمحاولاتي الملحة لإقناعه. ولكنه حذرني من أنه من المحتمل جدًّا «ألا ينجح هذا أبدًا»، وأنه «لن يتحمل مسئولية» الإحباط الذي سيصيبني.

استغرقنا ثلاثة أشهر حتى أحمل. أثناء دورتَي التبويض الأوليَين، عجزت عن إثارته. وجربت استخدام عدة وسائل مثل الضحك والتدليك والموسيقى والطعام؛ جربت كل شيء ورد في المقالات التي تتحدث عن العجز الجنسي. ولكن شعوره بالذنب وتوتره كانا دائمًا أقوى من رغبتي. وأخيرًا جاء الخيال ليكون الحل. فحين اقترحت على مايكل ذات ليلة أن

يتخيلني زوجته كاثلين طوال العلاقة، نجحت المحاولة أخيرًا. لا شك أن العقل مخلوق بديع حقًّا.

وحتى في ظل اللجوء إلى الخيال، لم تكن مضاجعة مايكل مهمة سهلة. ففي المقام الأول — ولعله من غير اللائق أن أقول ذلك — كانت الخطوات اللازمة لتحضيره وحدها كفيلة بإصابة أي امرأة بالضيق. وكان مايكل دائمًا ما يدعو الله، قبيل خلع ملابسه. ترى ما الذي كان يدعو به؟ ليتني أعرف الإجابة.

كان زوج إليانور الأكويتينية الأول، لويس السابع ملك فرنسا، قد نشأ ليكون راهبًا، ولم يصبح ملكًا إلا بسبب مصادفة تاريخية. وفي الرواية التي كتبها أبي عن إليانور، يأتي حوار داخلي طويل تشكو فيه من أن العلاقة الجسدية الحميمة كانت «تحفُّها أجواء من الوقار والتقوى وروح الزهد». وكانت تتوق إلى وجود المرح والضحك في علاقتها الزوجية، وتتوق للكلام البذيء والرغبة الجامحة. إنني أتفهَّم سبب طلاقها من لويس وزواجها من هنري الثاني.

وهكذا أنا حامل الآن بابن مايكل (الذي آمل أن يكون ولدًا) الذي سيمنح نسلنا التنوع الجيني. لقد كان الأمر في غاية الصعوبة، ولم يكن يستحق الثمن الذي بذلته فيه بالتأكيد. فبسبب رغبتي في أن أحمل بابن مايكل رحل ريتشارد، ولم يعد مايكل — على الأقل مؤقتًا — صديقي الحميم ورفيقي المقرب كما كان طوال سنواتنا الأولى في راما. دفعت ثمن نجاحي. الآن آمل أن تكون لهذه السفينة وجهة محددة تتجه إليها حقًّا.

١ مارس ٢٢٠٦

أعدت اختبار الجينوم الجزئي هذا الصباح لأتأكد من النتائج الأولية. لا يوجد شك بشأنها. ولدنا الذي لم يأتِ إلى الدنيا بعدُ مصاب بالتأكيد بمتلازمة ويتينجهام. ولحسن الحظ، لا توجد عيوب ملحوظة أخرى، لكن هذا المرض وحده كان سيئًا في حد ذاته.

أطلعت مايكل على البيانات عندما تسنَّى لنا الجلوس بمفردنا لدقائق بعد الإفطار. في البداية لم يفهم ما أخبرته به، ولكن عندما استخدمت كلمة «متأخر عقليًّا» ظهر رد فعله على الفور. وفهمت من رد الفعل هذا أنه تخيل أن طفلنا سيعجز تمامًا عن الاعتناء بنفسه. هدأت مخاوفه بعض الشيء عندما شرحت أن متلازمة ويتينجهام ما هي إلا شكل من أشكال العجز عن التعلم، وهو ناتج عن قصور بسيط في العمليات الكهروكيميائية للمخ يمنعه من العمل كما ينبغي.

عندما أجريت أول اختبار للجينوم الجزئي الأسبوع الماضي، شككت في إصابته بمتلازمة ويتينجهام ولكن لم أخبر مايكل لاحتمال وجود التباس في النتائج. أردت أن أراجع ما هو معروف عن هذه الحالة قبل أن آخذ عينة ثانية من السائل الأمنيوسي. ولسوء الحظ لم ترد معلومات كافية في الموسوعة الطبية المختصرة التي كانت معي.

بعد الظهر، بينما كانت كيتي تغفو، طلبت أنا ومايكل من سيمون أن تقرأ كتابًا في حجرة نومها لحوالي ساعة. ووافق ملاكنا الرائع بسرور. وأصبح مايكل الآن في حالة أهدأ من التي كان عليها في الصباح. أقرَّ بأن ما سمعه بشأن بينجي (يريد مايكل أن يسمي الطفل بينجامين ريان أوتول، على اسم جده) أصابه بالاكتئاب في البداية، لكن من الواضح أن قراءة سفر أيوب ساعدته بشدة على استعادة اتزانه.

شرحت لمايكل أن نمو بينجي العقلي سيكون بطيئًا ومملًّا. ولكنه شعر بالعزاء عندما أخبرته أن الكثيرين ممن يعانون من متلازمة ويتينجهام حققوا في النهاية نموًّا عقليًّا يوازي نمو من هم في الثانية عشرة من عمرهم بعد عشرين عامًا من التعليم. أكدت لمايكل أنه لن تظهر علامات جسدية لهذا المرض، كما هو الحال في متلازمة داون، وأن احتمال تأثر ذريته فيما بعد بهذا المرض قبل الجيل الثالث على الأقل ضئيل لأن متلازمة ويتينجهام هي صفة متنحية نافرة.

عندما اقتربنا من نهاية حديثنا، سألني مايكل: «هل هناك سبيل إلى معرفة من منا يحمل هذه المتلازمة في جيناته؟»

أجبت: «لا. من العسير جدًّا عزل هذا الاعتلال لأنه ينشأ فيما يبدو عن عدد من جينات مختلفة بها عيوب. ولا يكون التشخيص واضحًا إلا عندما تكون المتلازمة نشيطة. كما أن محاولات تحديد من يحملون المرض فشلت حتى على الأرض.»

بدأت أخبره أنه منذ تشخيص المرض لأول مرة عام ٢٠٦٨، لم تظهر تقريبًا أي حالات منه في أفريقيا وآسيا. فهو اعتلال يصيب المنحدرين من العرق القوقازي أساسًا، وجاءت أعلى نسبة للإصابة به في أيرلندا. أيقنت أن مايكل سرعان ما سيعرف هذه المعلومة (فهي واردة في المقال الرئيسي في الموسوعة الطبية التي يقرؤها الآن)، ولم أرد أن ينتابه شعور سيء.

سألني بعد هذا: «ألا يوجد علاج؟»

أجبت وأنا أهز رأسي: «ليس في حالتنا. ظهرت دلائل في العقد الأخير تدل على أن الإجراءات الجينية المضادة قد تكون فعالة إذا استخدمت في المدة من الشهر الرابع إلى

الشهر السادس من الحمل، غير أن هذا الإجراء معقد حتى على الأرض، وقد يؤدي إلى فقدان الجنين نهائيًّا.»

كان هذا هو الوقت المناسب في النقاش ليذكر مايكل كلمة «إجهاض». لكنه لم يفعل. فمجموعة معتقداته ثابتة جدًّا ولا تتزعزع، ثباتًا يجعلني متأكدة من أنه لم يفكر في هذا مجرد التفكير. هو يعتقد أن الإجهاض إثم عظيم، سواء في راما أو على الأرض. وجدت نفسي أتساءل عن احتمال وجود أي ظروف قد تجعل مايكل يفكر في الإجهاض. ماذا يكون قراره لو كان الطفل يعاني من متلازمة داون وكان أيضًا أعمى؟ أو لو كان يعاني من مشاكل خلقية متعددة ترجح أنه سيموت في سن مبكرة؟

لو كان ريتشارد هنا، كنا سنتناقش مناقشة منطقية حول مزايا وعيوب الإجهاض. كنا سنفتح إحدى صفحات برنامج بينجامين فرانكلين الذي صممه، ونسجل الحجج المؤيدة على أحد جانبَي الشاشة الكبيرة والحجج المعارضة على الجانب الآخر. كنت سأضيف قائمة طويلة من الأسباب العاطفية المعارضة للإجهاض (التي كان ريتشارد سيحذفها من قائمته الأساسية)، وفي النهاية كنا سنتفق جميعًا على الأرجح على إتاحة الفرصة أمام بينجي للمجيء إلى راما. كان القرار سيكون قرارًا مشتركًا يقوم على التفكير المنطقي.

أريد هذا الطفل. ولكنني أريد من مايكل أن يعيد تأكيد التزامه بالواجبات التي تمليها عليه أبوَّته لبينجي. كان يمكنني دفع مايكل إلى تجديد هذا الالتزام عن طريق الدخول في مناقشة حول احتمال الإجهاض. أحيانًا قد يؤدي التقبل الأعمى لأحكام الله أو الكنيسة أو العقائد الراسخة إلى دفع المرء لكتم تأييده لقرار محدد. آمل ألا يكون مايكل من هذا النوع من الأشخاص.

١٠

٣٠ أغسطس ٢٢٠٦

ولد بينجي مبكرًا. بدا الارتياح على مايكل عندما ولد الطفل منذ ثلاثة أيام بلا أي عيوب جسدية، مع أنني كنت قد أكدت له مرارًا وتكرارًا أن الطفل سيبدو بأتم صحة. كانت هذه الولادة سهلة كالسابقة. وكانت سيمون متعاونة لدرجة مدهشة طوال مرحلتَي المخاض والولادة. إنها شديدة النضج قياسًا بسنها التي لم تبلغ السادسة بعد.

بينجي أيضًا له عينان زرقاوان، ولكن زرقتهما ليست ذات درجة فاتحة كزرقة عينَي كيتي، ولا أظن أنهما ستبقيان زرقاوين. بشرته بنية فاتحة؛ أغمق قليلًا من بشرة كيتي

وأفتح من بشرتي أو بشرة سيمون. كان وزنه عند ولادته ثلاثة كيلوات ونصفًا، وبلغ طوله اثنين وخمسين سنتيمترًا.

لم يطرأ أي تغيير على عالمنا. لقد يئسنا جميعًا — فيما عدا كيتي — من احتمال عودة ريتشارد، مع أننا لا نتحدث عن ذلك كثيرًا. نحن مقبلون على الشتاء الراميِّ مرة أخرى، بلياليه الطويلة وأيامه القصيرة. أذهب أنا أو مايكل إلى أعلى على فترات منتظمة للبحث عن علامة ترشدنا إلى ريتشارد ولكن هذا مجرد طقس روتيني. فنحن لا نتوقع حقًّا أن نجد شيئًا. واليوم يكون قد مر على رحيله ستة عشر شهرًا.

أتناوب مع مايكل حساب مسارنا باستخدام برنامج تحديد المسار الذي صممه ريتشارد. في البداية استغرق الأمر منا عدة أسابيع لنفهم كيفية استخدامه مع أن ريتشارد ترك التعليمات المفصلة معنا. نتحقق مرة كل أسبوع من أننا لا نزال نسير باتجاه الشعرى اليمانية، دون أن يأتي في طريقنا نظام شمسي آخر.

رغم وجود بينجي، بدأ الوقت الذي أخصصه لنفسي يزداد أكثر من ذي قبل. أقرأ بنهم، وعدت لاهتمامي بالبطلتين اللتين هيمنتا على عقلي وخيالي في مرحلة المراهقة مرة أخرى. لماذا كانتا جان دارك وإليانور الأكويتينية دائمًا ما تجذبانني كثيرًا؟ لأنهما أظهرتا قوةً داخلية واكتفاء ذاتيًّا كما أن كلًّا منهما نجحت في مجتمع يهيمن عليه الرجال عن طريق الاعتماد على قدراتها اعتمادًا تامًّا.

كنت أعاني من وحدة رهيبة في مرحلة المراهقة. البيئة الطبيعية المحيطة بي في بوفوا كانت خلابة وكان والدي يغمرني بحبه، ولكنني في الواقع أمضيت فترة المراهقة كلها في حالة من الوحدة. ففي قرارة نفسي، لطالما كنت أشعر بالرعب من أن يأخذ الموت أو الزواج والدي الغالي مني. وأردت أن أكون أكثر استقلالًا لأتجنب الألم الذي سأشعر به إذا ما انفصل والدي عني. جان وإليانور كانتا قدوتين رائعتين لي. حتى اليوم، أجد الطمأنينة في القراءة عن حياتيهما. لم تسمح أيٌّ من المرأتين للعالم من حولها أن يحدد ما هو مهم فعلًا في حياتها.

لا تزال صحتنا جميعًا بخير. في الربيع الماضي قمت بتركيب مجموعة مما تبقى من مجسات المراقبة البيومترية على جسد كلٍّ منا، وراقبت البيانات لأسابيع قليلة، لا لشيء إلا لأشغل نفسي. ذكَّرتني عملية المراقبة بأيام بعثة نيوتن؛ هل من الممكن حقًّا ألا يكون قد مر على رحيلنا نحن — الاثني عشر — عن الأرض لنقابل راما سوى ست سنوات؟

على أي حال، انبهرت كيتي بهذه العملية. فكانت تجلس بجواري وأنا أفحص سيمون أو مايكل وتسأل عشرات الأسئلة عن البيانات التي تظهر. وسرعان ما فهمت كيفية عمل

النظام وماهية كل ملفات التحذير. وعلق مايكل على هذا قائلًا إنها فائقة الذكاء. إنها تشبه والدها. لا تزال كيتي تشتاق إلى ريتشارد بشدة.

مع أن مايكل يقول إنه يشعر أنه يتقدم في السن، فإن هيئته رائعة قياسًا برجل في الرابعة والستين من عمره. إنه مهتم للغاية بالحفاظ على لياقته البدنية اهتمامًا يكفي لتمكينه من القيام بواجباته تجاه الأطفال، وبدأ ممارسة الجري الوئيد مرتين أسبوعيًّا منذ بداية حملي. مرتين أسبوعيًّا! هذا مضحك. لقد ظللنا نتمسك بتقويمنا الأرضي بمنتهى الوفاء، مع أنه لا معنى له على الإطلاق هنا على راما. في إحدى الليالي سألت سيمون عن الأيام والشهور والسنين. وبينما كان مايكل يشرح دوران الأرض وفصول السنة ومدار الأرض حول الشمس، تراءى لي فجأةً مشهد الغروب الرائع في ولاية يوتا الذي شهدناه أنا وجنيفياف في رحلتنا إلى الغرب الأمريكي. فأردت أن أخبر سيمون عنه. ولكن كيف يمكنك أن تشرح معنى الغروب لمن لم يرَ الشمس؟

يذكِّرنا التقويم بماضينا. إذا وصلنا يومًا إلى كوكب جديد، بنهار وليل حقيقيين بدلًا من نهار راما وليلها الزائفين، سنترك التقويم الأرضي بالتأكيد. ولكن في الوقت الحالي، تذكِّرنا العطلات ومرور الشهور وأعياد الميلاد — خاصةً — بجذورنا على ذلك الكوكب الجميل الذي لم يعد يمكننا حتى العثور عليه وإن استخدمنا أفضل تليسكوبات راما.

بينجي الآن مستعد للرضاعة. قدراته العقلية قد لا تكون هي الأفضل، ولكنه بالتأكيد لا يواجه مشكلة في أن يخبرني بأنه جوعان. أنا ومايكل لم نخبر سيمون وكيتي عن حالة أخيهما، وقد اتفقنا على هذا سلفًا. إذ سيكون من الصعب عليهما تقبُّل حقيقة أنه سيستولي على الاهتمام الذي كان منصبًّا عليهما وهو رضيع. فكيف لنا أن نتوقع منهما، وهما في هذه السن الصغيرة، أن يتفهما أن حاجته للاهتمام ستستمر، بل ستكبر، حين يصل إلى مرحلة تعلُّم المشي، وعندما يصبح صبيًّا؟

١٣ مارس ٢٢٠٧

كيتي تبلغ الرابعة من عمرها اليوم. وعندما سألتها منذ أسبوعين عن الأمنية التي تريدها في عيد ميلادها، لم تتردد ثانية. وقالت: «أريد أن يعود والدي.»

إنها فتاة صغيرة منطوية وتميل إلى الوحدة. كما أنها سريعة التعلم، وهي أشد أبنائي تأثرًا بتقلب الحالة المزاجية. كان مزاج ريتشارد سريع التقلب كذلك. كان أحيانًا يشعر بابتهاج شديد وحماسة جارفة لدرجة يعجز معها عن تمالك نفسه، وغالبًا ما يحدث هذا

عقب مروره مباشرةً بتجربة تثير حماسه للمرة الأولى. ولكن نوبات الاكتئاب التي كان يمر بها مخيفة. ففي بعض الأحيان كان يمر عليه أسبوع أو أكثر دون أن يضحك، بل دون أن يبتسم.

ورثت كيتي موهبته في الرياضيات. بإمكانها القيام بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة في هذه السن الصغيرة، على الأقل مع الأعداد الصغيرة. يبدو أن سيمون، الموهوبة بالتأكيد أيضًا، لديها نطاق أكثر توازنًا من القدرات. وهي عمومًا أكثر اهتمامًا بمجموعة أكبر من المواد الدراسية. ولكن كيتي بالتأكيد تفُوقها في الرياضيات.

طوال المدة التي مرت منذ رحيل ريتشارد، والتي تبلغ نحو عامين، وأنا أحاول بلا جدوى أن أحتل مكانه في قلب كيتي. الحقيقة هي أنني أصطدم معها. فشخصيتانا لا تنسجمان مثلما تنسجم شخصية الأم مع شخصية ابنتها. إن التفرد والجموح اللذين أحببتهما في ريتشارد أجدهما مخيفين في كيتي. ورغم حسن نواياي، دائمًا ما ينتهي بنا الأمر إلى الخصام.

بالطبع، لم نتمكن من أن نشق الأرض ونحضر ريتشارد من أجل احتفال كيتي بعيد ميلادها. ولكنني حاولت أنا ومايكل بكل جد أن نقدم هديةً تنال اهتمامها. ومع أننا لا نتمتع بمهارة كبيرة في الإلكترونيات، فقد نجحنا في ابتكار لعبة فيديو صغيرة أسميناها «تائه في راما» (اضطررنا للتواصل مع أهل راما عدة مرات لإحضار المكونات المناسبة، واستغرق الأمر منا قضاء عدة ليالٍ من التعاون معًا لصناعة شيء كان يمكن أن ينتهي منه ريتشارد غالبًا في يوم). راعينا في تصميمنا للعبة أن تكون بسيطة للغاية؛ لأن كيتي لم تتجاوز الرابعة من العمر. وبعد اللعب بها ساعتين كانت قد استنفدت كل الخيارات وعرفت كيف تعود إلى البيت، إلى ملجئنا، من أي نقطة انطلاق في راما.

جاءت المفاجأة الكبرى الليلة، عندما سألناها عما تحب أن تفعله في ليلة عيد ميلادها (وهذا السؤال أصبح تقليدًا نتبعه في راما). قالت وعيناها تتألقان: «أريد الدخول إلى ملجأ الكائنات الطائرة.»

حاولنا أن نثنيها عن ذلك بأن أوضحنا لها أن المسافة بين درجات السلالم أكبر من ارتفاعها. ردًّا على ذلك، ذهبت كيتي إلى السلَّم المصنوع من الحبال المكون من الشرائح الخشبية الذي يتدلى على جانب حجرة نومها وأرتنا أنها تستطيع أن تتسلقه. ابتسم مايكل. وقال: «لقد ورثت شيئًا من أمها.»

قالت كيتي بصوتها الخافت الذي ينم عن نضج مبكر: «أرجوك يا أمي! كل الأشياء الأخرى مملة جدًّا. أريد أن أرى الحارس بنفسي من قرب.»

مع أنني انتابتني بعض المخاوف، مشيت مع كيتي إلى ملجأ الكائنات الطائرة، وطلبت منها أن تنتظرني بأعلى حتى أضع السلم المصنوع من الحبال في مكانه. وقفت لحظة على بسطة السلم الأولى المواجهة للحارس، ونظرت عبر الفجوة إلى الآلة التي لا تكف عن الحركة والتي تحمي مدخل النفق الأفقي. وتساءلت بيني وبين نفسي: تُرى أظللت في مكانك ذاك دائمًا؟ ألم يستبدلوك أو يصلحوك طوال هذه المدة؟

سمعتُ ابنتي تناديني من أعلى قائلة: «هل أنت مستعدة يا أمي؟» قبل أن أتسلق بسرعة لأقابل كيتي، وجدتها تنزل على السلم. وبَّختها حين لحقت بها عند السور الثاني، ولكنها لم تلقِ بالًا. وكان يتملكها حماس شديد. قالت: «أرأيت يا أمي؟ لقد نزلت بمفردي.»

هنأتها مع أن عقلي كان لا يزال مضطربًا من مجرد تصور كيتي تزل وتقع من على السلم وتصطدم بأحد الأسوار ثم تنقلب في الأعماق السحيقة للممر الرأسي. واصلنا نزول السلم وأنا أساعدها من أسفل حتى وصلنا إلى البسطة الأولى والنفقين الأفقيين. على الجانب الآخر من الفجوة، كان الحارس يواصل حركته المتكررة. وكانت كيتي في نشوة بالغة.

انهمرت أسئلتها: «ما الذي يقع وراء هذا الشيء؟ من صنعه؟ ماذا يفعل هناك؟ هل قفزت حقًّا عبر هذه الفتحة؟ ...»

إجابةً على أحد أسئلتها، استدرت وخطوت عدة خطوات في النفق الذي يقع خلفنا، متبعةً شعاع النور الصادر من مصباحي اليدوي وأنا أفترض أن كيتي تتبعني. بعد لحظات، تجمدت من الخوف عندما اكتشفت أنها كانت لا تزال واقفة على حافة الفجوة. شاهدتها تخرج شيئًا صغيرًا من جيب فستانها وتلقي به عبر الفجوة على الحارس.

صرخت في كيتي، ولكن بعد فوات الأوان. إذ اصطدم الشيء بمقدمة الحوض. على الفور صدر دوي كدويِّ الرصاص واصطدمت قذيفتان معدنيتان بحائط الملجأ فوق رأسها بما لا يزيد عن متر.

صرخت كيتي: «هيييييييه»، وأنا أدفعها بعيدًا عن الحفرة. كنت أستشيط غضبًا. بدأت ابنتي تبكي. وصارت الضوضاء في الملجأ صاخبة.

بعد مرور ثوانٍ توقفت عن البكاء فجأة. وسألتني: «أسمعتِ؟»

سألتها وقلبي لا يزال يخفق بشدة: «ماذا؟»

ردت قائلة: «هناك.» وأشارت عبر الممر الرأسي إلى الظلام الذي يغلف المنطقة الواقعة خلف الحارس. سلطتُ ضوء المصباح اليدوي على الخواء ولكننا لم نرَ شيئًا.

وقفنا في مكاننا دون حراك وشبكنا أيدينا. كان هناك صوت قادم من النفق خلف الحارس. ولكنني عجزت عن تمييزه بسبب بُعده، ولهذا لم أستطع التعرف عليه.

قالت كيتي بلهجة تنم عن يقين: «إنه مخلوق طائر. بإمكاني سماع رفرفة جناحيه.» وصرخت ثانيةً بأعلى صوت: «هيييييييه.»

توقف الصوت. ومع أننا انتظرنا خمس عشرة دقيقة قبل أن نتسلق الملجأ خارجين منه، لم نسمع أي صوت آخر. أخبرت كيتي مايكلَ وسيمون أننا سمعنا مخلوقًا طائرًا. لم أستطع أن أؤكد صحة قصتها ولكنني آثرت ألا أجادلها. كانت سعيدة. وهكذا كان عيد ميلادها زاخرًا بالأحداث.

٨ مارس ٢٢٠٨

ولد باتريك إيرين أوتول بعد ظهر أمس في الساعة الثانية والربع، وهو طفل سليم تمامًا من كل النواحي. ووالده يحمله في هذه اللحظة في فخر ويبتسم في حين تتحرك أصابعي على لوحة مفاتيح الكمبيوتر المحمول الخاص بي.

نحن في وقت متأخر من الليل الآن. وضعت سيمون بينجي في فراشه كما تفعل كل ليلة في الساعة التاسعة، ثم خلدت إلى النوم. كانت متعبة جدًّا. اعتنت ببينجي من دون مساعدة من أحد أثناء مدة المخاض التي جاءت طويلة على غير المتوقع. كلما كنت أصرخ، كان بينجي يبكي، وكانت سيمون تحاول أن تهدئه.

اعتبرت كيتي باتريك أخاها الصغير. إنها تفكر تفكيرًا منطقيًّا للغاية. إذا كان بينجي من نصيب سيمون، فإن باتريك يجب أن يكون من نصيبها. على الأقل، هي تُظهر اهتمامًا بفرد آخر من أفراد الأسرة.

لم أخطط أنا ومايكل لإنجاب باتريك ولكننا سررنا بمجيئه وانضمامه لأسرتنا. حملت به في وقت ما في آخر الربيع الماضي، على الأرجح في أول شهر يمر بعد أن بدأت أنا ومايكل في المبيت في غرفة نومه ليلًا. فكرة النوم معًا فكرتي، ولكنني متأكدة من أن مايكل فكر في هذا هو الآخر.

في الليلة التي كان قد مضى على رحيل ريتشارد فيها عامان، جافاني النوم تمامًا. وكان ينتابني الشعور بالوحدة كالمعتاد. حاولت أن أتخيل أنني أستطيع النوم ما تبقى من الليالي بمفردي فأصبت باكتئاب شديد. بعد منتصف الليل مباشرةً، قطعت الممر واتجهت إلى حجرة مايكل.

منذ البداية هذه المرة خلت علاقتنا أنا ومايكل من أي توتر أو تكلف. أظن أن كلينا كان مستعدًّا لهذا. بعد مولد بينجي انشغل مايكل انشغالًا كبيرًا بمساعدتي في رعاية

الأطفال. وفي هذه الأثناء، خفف مايكل قليلًا من نشاطاته الدينية وزاد اهتمامه بالتعامل معنا، وخصوصًا أنا. وفي النهاية، عاد توافقنا الطبيعي يؤكد نفسه. ولم يبقَ أمامنا سوى التسليم بأن ريتشارد لن يعود أبدًا.

مريحة. هذه أفضل كلمة تصف علاقتي بمايكل. مع هنري، كانت السمة المميزة لعلاقتنا هي النشوة. ومع ريتشارد كانت العاطفة المتقدة والإثارة هي السمة المميزة؛ إذ كانت علاقتي به أشبه بركوب لعبة القطار الأفعواني. مايكل يريحني، ننام ويدي في يديه، هذا أفضل رمز لعلاقتنا. نادرًا ما نقيم علاقة حميمة، ولكن هذا يكفي.

قدمت بعض التنازلات. حتى إنني أصلي، من وقت إلى آخر، لأن هذا يسعد مايكل. أما هو، فقد أصبح أكثر تساهلًا بشأن تعريف الأطفال بالأفكار ومنظومات القيم التي تقع خارج إطار مذهبه الكاثوليكي. اتفقنا على أن ما نهدف إليه هو تحقيق التوافق والثبات في أسلوب تربيتنا المشترك.

بلغ عددنا الآن ستة، نحن أسرة من البشر في مكان ما في الكون أقرب إلى العديد من النجوم الغريبة منه إلى كوكب الأرض وإلى الشمس. ما زلنا لا نعرف ما إذا كان الهيكل الأسطواني العملاق الذي يندفع في الفضاء ذاهبًا إلى وجهة محددة أم لا. وفي بعض الأحيان لا يبدو هذا مهمًّا. فقد صنعنا عالمًا خاصًّا بنا هنا في راما، ومع أن هذا العالم محدود، فإنني أعتقد أننا سعداء.

١١

٣٠ يناير ٢٢٠٩

كنت قد نسيت الشعور الذي ينتاب المرء عندما يسري الأدرينالين في الجسم. في الثلاثين ساعة الأخيرة نُسِفت حياتنا الهادئة الساكنة في راما نسفًا.

بدأ كل هذا بحلمين. ففي صباح أمس، قبل أن أستيقظ مباشرةً، حلمت بريتشارد، وكان الحلم واضحًا وضوحًا غريبًا. لم يظهر ريتشارد في حلمي بمعنى الكلمة؛ أعني أنه لم يظهر مع مايكل وسيمون وكيتي ومعي. ولكن وجهه ظل في الركن الأيسر العلوي لما يشبه شاشة الحلم، بينما كنا نحن الأربعة منهمكين في أحد الأنشطة اليومية العادية. وظل يناديني مرارًا وتكرارًا. وكان يناديني بصوتٍ عالٍ جدًّا حتى إنني ظللت أسمعه بعد أن استيقظت.

وما إن بدأت أخبر مايكل عن الحلم حتى ظهرت كيتي في المدخل في رداء نومها. وكانت ترتعد خوفًا. فسألتها وأنا أدعوها بذراعيَّ المفتوحتين لتقترب: «ما الأمر يا حبيبتي؟»

اتجهت إليَّ وألقت بنفسها بقوة في حضني. ثم قالت: «إنه والدي. لقد كان يناديني أمس في أحلامي.»

سرت قشعريرة في جسدي واعتدل مايكل جالسًا على الفراش. طمأنت كيتي ببضع كلمات، ولكن تلك الصدفة أربكتني. ترى هل سمعت حديثي مع مايكل؟ مستحيل. فقد رأيناها في اللحظة التي وصلت فيها إلى حجرتنا.

بعد أن عادت كيتي لتبدل ملابسها في حجرة نومها، أخبرت مايكل بأنني لا أستطيع تجاهل ما رأيته أنا وكيتي في منامنا. كثيرًا ما كنا نتحدث عن قدراتي النفسية الخارقة التي تظهر من حين لآخر. ومع أن مايكل عادةً ما يُسقط من حساباته فكرة تمتعي بالإدراك الفائق، فإنه دائمًا ما يقر بأنه من المستحيل الجزم بأن أحلامي ورؤاي لا تتنبأ بالمستقبل.

قلت له بعد الإفطار: «يجب أن أصعد إلى أعلى وأبحث عن ريتشارد.» كان مايكل يتوقع أن أقوم بهذه المحاولة فاستعد للاعتناء بالأطفال. لكن الظلام كان يخيم على راما. فاتفقنا على أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يحل مساؤنا ويظهر الضوء مرة أخرى في عالم سفينة الفضاء فوق ملجئنا.

أخذتُ سِنة طويلة من النوم حتى أستجمع ما يكفي من الطاقة للقيام ببحث شامل. غير أن نومي كان متقطعًا وظللت أحلم بأنني في خطر. وقبل أن أرحل، تحققت من أن جهاز الكمبيوتر المحمول به رسم لريتشارد يتسم بقدرٍ كافٍ من الدقة. إذ كنت أنوي إطلاع أيٍّ من المخلوقات الطائرة الذين قد أقابلهم على من أبحث عنه.

قبَّلتُ الأطفال وألقيت عليهم تحية قبل النوم، ثم توجهت مباشرة إلى ملجأ المخلوقات الطائرة. لم أندهش كثيرًا عندما وجدت أن الحارس رحل. فمنذ سنوات، عندما دعتني إحدى المخلوقات الطائرة لزيارة الملجأ، لم يكن الحارس موجودًا أيضًا. فهل من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى أنني أتلقى دعوة لزيارتها مرة أخرى؟ وما علاقة كل هذا بحلمي؟ أخذ قلبي يخفق بعنف وأنا أمر أمام الغرفة التي تحتوي على خزان المياه وأتوغل في النفق الذي يحرسه عادةً الحارس الغائب.

لم أسمع أي صوت. وقطعتُ نحو كيلومتر حتى وصلت إلى مدخل مرتفع إلى اليمين. فأدرت نظري بحذر عند المنعطف. كانت الغرفة مظلمة، مثلها في ذلك مثل باقي أنحاء الملجأ باستثناء الممر الرأسي. أضأت المصباح اليدوي. فرأيت أن الغرفة ليست سحيقة العمق؛ إذ لا يتجاوز عمقها خمسة عشر مترًا على الأكثر، ولكنها كانت شاهقة الارتفاع. ورأيت عدة صفوف من صناديق التخزين البيضاوية مستندةً إلى الحائط المقابل للباب.

وكشف شعاع النور الصادر من مصباحي عن أن الصفوف تمتد حتى السقف المرتفع الذي يقع على الأرجح أسفل أحد ميادين نيويورك مباشرةً.

لم أستغرق وقتًا طويلًا لأفهم الغرض من هذه الغرفة. إذ إنني وجدت أن كل صناديق التخزين تشبه بطيخ المنِّ من حيث الحجم والشكل. قلت في نفسي إن هذا واضح. لا بد أن يكون هذا هو المكان الذي يحتفظون فيه بالأغذية. ولا عجب إذن من أنهم يمنعون الدخول إلى هنا.

بعد أن تأكدت من أن كل الصناديق خاوية بالفعل، بدأت أسير عائدة إلى الممر الرأسي. ثم غيرت اتجاهي فجأة وتجاوزت غرفة التخزين وأخذت أسير في النفق. وهذا لأنني استنتجت أنه يؤدي حتمًا إلى مكان ما وإلا كان الملجأ انتهى عند غرفة البطيخ.

بعد نصف كيلومتر أخذ النفق يتسع تدريجيًّا حتى أفضى إلى غرفة دائرية كبيرة. وفي وسط الغرفة ذات السقف المرتفع، كان يوجد بناء كبير له قبة. وكانت الجدران بها نحو عشرين فجوةً محفورة على مسافات منتظمة. ولا يضيئها سوى الضوء الصادر من مصباحي، ولذا استغرق الأمر مني عدة دقائق حتى أكوِّن فكرة عامة عن الغرفة إضافةً إلى البناء ذي القبة الموجود في وسطها.

مشيت بمحاذاة الحائط وفحصت الفجوات واحدة تلو الأخرى. فوجدت أن معظمها فارغ. لكنني وجدت في واحدة منها ثلاثة حراس متطابقين مصطفِّين بنظام أمام الجدار الخلفي. أول إحساس انتابني هو ضرورة توخي الحذر منهم، لكن لم يكن ذلك ضروريًّا. إذ إنهم جميعًا كانوا في وضع الخمول.

غير أن الفجوة التي أثارت اهتمامي دون غيرها هي الفجوة الواقعة في منتصف الغرفة، وتحديدًا على بعد زاوية قدرها مائة وثمانون درجة بالضبط من مدخل النفق. إذ إن هذه الفجوة الخاصة كانت مرتبة بعناية وكان بها أرفف سميكة محفورة في حوائطها. وكان عدد الأرفف يبلغ خمسة عشر: خمسة أرفف على كل جانب وخمسة على الحائط المواجه لمدخل الفجوة. وكان يوجد على الأرفف التي تحتل الجانبين أشياء مرتبة (كان كل شيء مرتبًا للغاية)، أما الأرفف التي تغطي الحائط البعيد فكان في كلٍّ منها خمس حفر مستديرة.

وكانت محتويات كل حفرة من هذه الحفر، المقسمة إلى أقسام أخرى أصغر، بحيث بدت أشبه بقطع من فطيرة، ساحرة. إذ كان أحد أقسام كل حفرة يحتوي على مادة ناعمة جدًّا كالرماد. ويحتوي قسم ثانٍ على حلقة أو اثنتين أو ثلاث ذات لون أحمر زاهٍ أو ذهبي،

وقد تعرفت عليها على الفور لأنها تشبه الحلقات التي رأيناها حول رقبة صديقنا الطائر ذي الريش الرمادي. أما باقي الأشياء التي في الحفر فلم تكن تتسم بنمط محدد؛ في الواقع، كانت بعض الحفر خالية إلا من الرماد والحلقات.

في النهاية، استدرت واقتربت من البناء ذي القبة. وكان بابه الأمامي مواجهًا للفجوة المميزة. فتفحصت الباب على ضوء مصباحي. ورأيت تصميمًا معقدًا محفورًا على سطحه المستطيلي. وكان التصميم ينقسم إلى أربعة ألواح أو قطاعات منفصلة. رُسِم في القطاع الأيسر العلوي مخلوق طائر، والقطاع الملاصق الأيمن كان يحمل صورة ثمرة بطيخ المَن. أما القطاعان السفليان، فكانا يحتويان على صورٍ غير مألوفة. فعلى الجانب الأيسر رأيت نقشًا لمخلوق مخطط ذي مفاصل يجري على ست أرجل. ويظهر في القطاع السفلي الأخير الموجود إلى اليمين صندوقٌ كبير مملوء بشبكة أو نسيج شبكي رقيق للغاية.

بعد شيء من التردد دفعت الباب فانفتح. وكدت أموت فزعًا عندما شق السكونَ صوتُ إنذار مرتفع كصوت بوق السيارة. فتسمرت بالداخل وظل صوت الإنذار يدوي طوال دقيقة. وعندما توقف، لم أتحرك. وإنما حاولت أن أصغي لأعرف ما إذا كان ثمة استجابة من شخص (أو شيء) ما للإنذار أم لا.

لم يبدد الصمتَ أيُّ صوت آخر. فبدأت بعد دقائق قليلة أستكشف الجزء الداخلي من المبنى. ووجدت أن الغرفة الوحيدة في المكان يحتل وسطها مكعبٌ شفاف يبلغ كل بعد من أبعاده نحو مترين ونصف. وكانت حوائطه ملطخة ببقع مما شوش على رؤيتي بعض الشيء، ولكنني لاحظت أن القاع الذي تبلغ مساحته عشرة سنتيمترات كانت تغطيه مادة ناعمة داكنة. كما كانت حوائط وأرضيات وسقف الغرفة التي بها المكعب تزينها أشكال هندسية. وكان لأحد أوجه المكعب مدخل ضيق يسمح بالدخول إليه.

دخلت. واكتشفت أن المادة السوداء الخفيفة كانت فيما يبدو عبارة عن رماد، ولكن قوامها كان مختلفًا قليلًا عن قوام المادة المماثلة التي وجدتها في الحفر داخل الفجوات. تابعت عيناي الشعاع الصادر من مصباحي وهو يتفقد أنحاء المكعب بنظام. ووجدت قرب الوسط شيئًا مدفونًا جزئيًّا في الرماد. فاتجهت نحوه والتقطته ونفضت عنه الرماد، فكاد أن يغمى عليَّ. إذ إنني وجدت أن هذا الشيء هو شين، ذلك الآلي الذي صنعه ريتشارد.

تغير شين تغيرًا كبيرًا. فقد اسود الجزء الخارجي منه، وذابت لوحة التحكم الضئيلة الخاصة به، ولم يعد يعمل. ولكنه هو بالتأكيد. قربت الآلي الصغير من شفتيَّ وقبلته. وتخيلته وهو يلقي إحدى السونيتات التي كتبها شكسبير وريتشارد يستمتع بالاستماع إليه في نشوة.

من الواضح أن شين قد تعرض لحريق. ترى هل تعرض ريتشارد هو الآخر لحريق ما داخل المكعب؟ فتشتُ في الرماد تفتيشًا دقيقًا ولكنني لم أجد أي عظام. فتساءلت: ما الذي احترق وخلَّف كل هذا الرماد؟ وماذا كان شين يفعل بداخل المكعب أصلًا؟

كنت مقتنعة بأن ريتشارد كان في مكان ما داخل ملجأ المخلوقات الطائرة؛ لذا أمضيت ثماني ساعات أخرى وأنا أصعد وأهبط السلالم وأستكشف الأنفاق. وزرت كل الأماكن التي مررت بها من قبل أثناء إقامتي القصيرة السابقة، ووجدت عدة قاعات جديدة لم أعرف الغرض منها. غير أنني لم أجد أية علامة على وجود ريتشارد. بل لم أجد أي علامة على وجود حياة من أي نوع. وأدركت أن النهار الراميَّ القصير كاد أن ينقضي وأن الأطفال الأربعة سرعان ما سيستيقظون، فعدت إلى بيتي وأنا متعبة ومكتئبة.

وعندما وصلت، كان غطاء ملجئنا والشبكة التي تغطيه مفتوحين. ومع أنه كان بداخلي شيء من اليقين من أنني أغلقتهما قبل الرحيل، فإنني لم أستطع تذكر ما قمت به بالضبط لدى مغادرة البيت. وفي النهاية قلت لنفسي إنني ربما كنت منفعلة أكثر مما ينبغي وقتها مما منعني من غلق كل المداخل. وما إن بدأت أهبط السلم، حتى سمعت مايكل ينادي من خلفي: «نيكول».

التفتُّ. كان مايكل يأتي من الممر الشرقي. كان يسير مسرعًا على غير عادته ويحمل باتريك الرضيع بين ذراعيه. قال وهو يلهث بينما أنا أتجه نحوه: «ها أنتِ ذي. كنت قد بدأت أقلق ...»

توقف فجأة وحدق فيَّ للحظة ثم تلفت حوله بسرعة. وسأل بقلق: «لكن أين كيتي؟»

سألته وقد أفزعتني نظرته: «ماذا تعني بسؤالك؟»

سأل: «أليست معكِ؟»

هززت رأسي نفيًا وقلت إنني لم أرها، فانفجر مايكل باكيًا فجأة. فأسرعت لأهدئ باتريك الصغير إذ أرعبه بكاء مايكل فانفجر هو الآخر في البكاء.

قال مايكل: «أوه يا نيكول. أنا آسف، آسف جدًّا. كان باتريك يعاني من الأرق لذا أحضرته إلى غرفتي. وبعدها شعر بينجي بألم في المعدة واضطررت أنا وسيمون إلى أن نمرضه طيلة ساعتين. ثم نمنا جميعًا بينما كانت كيتي بمفردها في حجرة الأطفال. وعندما استيقظنا جميعًا منذ حوالي ساعتين اكتشفنا اختفاءها.»

لم أرَ مايكل في هذه الحالة من الاضطراب من قبل. فحاولت أن أهدئه وأن أقول له إن كيتي على الأغلب تلعب في مكان قريب (وأكملت في عقلي: وإنني سأوبخها توبيخًا لن تنساه أبدًا عندما نجدها) ولكن مايكل خالفني الرأي.

قال: «لا، لا، إنها ليست في مكان قريب. لقد بحثت عنها أنا وباتريك لأكثر من ساعة.»

نزلت أنا ومايكل وباتريك لنطمئن على سيمون وبينجي. فأخبرتنا سيمون أن كيتي استاءت جدًّا عندما قررت أن أبحث عن ريتشارد بمفردي. وقالت بهدوء: «كانت تأمل أن تأخذيها معك.»

سألت ابنتي ذات السنوات الثماني: «لمَ لم تخبريني بهذا الليلة الماضية؟»

أجابت: «لم يبدُ هذا مهمًّا حينها. كما أنني لم أتخيل أبدًا أن كيتي ستحاول أن تبحث عن والدي بنفسها.»

كنت أنا ومايكل مرهقين، ولكن كان على أحدنا أن يبحث عن كيتي. ورأيت أن الاختيار السليم هو أن أذهب أنا. فغسلت وجهي وطلبت إفطارًا للجميع من سكان راما وقصصت عليهم سريعًا رحلة نزولي ملجأ المخلوقات الطائرة. وأخذ مايكل وسيمون يقلبان شين المسود ببطء في أيديهما. وكان من الواضح أنهما كانا يتساءلان مثلي عما حل بريتشارد.

وقبل أن أرحل مباشرةً قالت سيمون: «قالت كيتي إن والدي ذهب ليقابل الأوكتوسبايدر. وقالت إن عالمهم شيق أكثر.»

اجتاحني الرعب وأنا أمشي بصعوبة إلى الساحة القريبة من ملجأ الأوكتوسبايدر. وبينما كنت أمشي انتهى النهار وعاد الليل يخيم على راما. فغمغمت لنفسي قائلةً: «رائع. لا يوجد ما هو أفضل من البحث عن طفلة تائهة في الظلام.»

كان غطاء ملجأ لأوكتوسبايدر مفتوحًا، وكذا شبكتَا الحماية. لم أرَ الشبكتين مفتوحتين من قبل. فخفق قلبي ذعرًا. ودلتني غريزتي على أن كيتي نزلت إلى الملجأ وعلى أنني سأتبعها بالرغم من خوفي. في البداية جثوت على ركبتَيَّ وناديت عليها مرتين باتجاه الظلمة التي تبدو أسفل قدمَي. فسمعت صدى اسمها يتردد في الأنفاق. وأصغيت لعل أذني تلتقط استجابة، ولكن لم أسمع أي صوت على الإطلاق. فقلت لنفسي: على الأقل لم أسمع صوت احتكاك فُرش على الأرض يصحبه طنين ذو تردد عالٍ.

نزلت المنحدر ووصلت إلى الكهف الكبير الذي به الأنفاق الأربعة التي أطلقنا عليها أنا وريتشارد أسماء «إيني ميني ومايني ومو». كان الأمر صعبًا، ولكنني أجبرت نفسي على دخول النفق الذي مشيت فيه أنا وريتشارد من قبل. ولكن بعد خطوات قليلة توقفت، ثم تراجعت ودخلت النفق المجاور. وكان هذا الممر الثاني يفضي أيضًا إلى الممر المنحدر ذي الشكل البرميلي الذي تغطي جدرانه النتوءات الشائكة، ولكنه كان يتخطى الغرفة التي أسميتها أنا وريتشارد متحف الأوكتوسبايدر. وتذكرت جيدًا الرعب الذي شعرت به منذ

تسع سنوات عندما وجدت د. تاكاجيشي معلقًا في ذلك المتحف وهو محنط مثل تذكار الصيد.

أردت زيارة متحف الأوكتوسبايدر لسبب لا يتعلق بالضرورة ببحثي عن كيتي. وهو أن الأوكتوسبايدر إذا كانوا قد قتلوا ريتشارد (كما قتلوا تاكاجيشي، حسب افتراضنا، مع أنني حتى الآن لست مقتنعة بأنه لم يصب بأزمة قلبية) أو إذا كانوا قد وجدوا جثته في مكان آخر في راما، فإنه ربما يكون في هذه الغرفة. إذا قلت إنني لم أكن متخوفة من أن أرى زوجي محنطًا على طريقة التحنيط المتبعة لدى سكان الكواكب الأخرى فإنني بهذا أخالف الحقيقة، ولكن أكثر ما كان يهمني هو أن أعرف ما الذي حل بريتشارد. خاصة بعد الحلم الذي رأيته.

أخذت نفسًا عميقًا عندما وصلت إلى مدخل المتحف. ودخلت متجهةً إلى اليسار ببطء. أُضيئت الأنوار فور أن عبرت العتبة، ولكن لحسن الحظ لم يكن د. تاكاجيشي يحدق في وجهي مباشرة. فقد نُقِل إلى الجانب الآخر من الغرفة. في الواقع لقد أعادوا ترتيب المتحف كله على مدى السنوات الماضية. فقد أزيلت كل الكائنات الآلية التي كانت تشغل معظم مساحة الغرفة عندما زرتها أنا وريتشارد من قبل لفترة وجيزة. وصارت «المعروضات» — إذا كان من الممكن أن نطلق عليهما هذه التسمية — تتألف من نوعين هما المخلوقات الطائرة والبشر.

كانت المعروضات من المخلوقات الطائرة أقرب إلى الباب. وكانت تضم ثلاثة مخلوقات طائرة معلقة في السقف وأجنحتها منبسطة. ومن بينها المخلوق الطائر ذو الريش الرمادي والعنق المزدان بحلقتين حمراوين الذي رأيته أنا وريتشارد قبيل موته. وكانت توجد في قسم المخلوقات الطائرة أشياء أخرى ساحرة بل وصور، ولكنني وجدت عينيَّ تنجذبان إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث المعروضات المحيطة بدكتور تاكاجيشي.

تنفست الصعداء عندما أدركت أن ريتشارد ليس في الغرفة. غير أن مركبنا الشراعي الذي عبرت فيه البحر الأسطواني مع ريتشارد ومايكل كان هناك. كان على الأرض بجوار دكتور تاكاجيشي مباشرة. كما كانت هناك تشكيلة من حاجياتنا التي حصلوا عليها بعدما خلفناها أثناء نزهاتنا في نيويورك وغيرها من الأنشطة التي قمنا بها هناك. أما وسط المعرض فيضم مجموعة صور ذات إطارات معلقة على الحوائط الخلفية والجانبية.

من موقعي عبر الغرفة، لم أستطع تمييز الكثير عن محتويات الصور. ولكنني شهقت عندما اقتربت منها. كانت الصور كلها صورًا فوتوغرافيةً موضوعةً في أطر مستطيلة، يصور الكثير منها الحياة «داخل» ملجئنا. رأيت صورًا لنا جميعًا وفيها الأطفال. وهي تصورنا

ونحن نأكل وننام بل ونحن في الحمام. شعرت بالخَدَر يسري في جسدي وأنا أتأمل المعروضات. وقلت في نفسي: «إنهم يراقبوننا حتى داخل بيتنا.» وسرت قشعريرة رهيبة في جسدي.

كانت هناك مجموعة خاصة من الصور معلقة على الحائط الجانبي أفزعتني وأخجلتني. ولو كنا على كوكب الأرض، لرُشِّحت هذه الصور للعرض في متحف للصور والمعروضات ذات الطابع الإباحي. فهي تصورني وأنا أضاجع ريتشارد. وتوجد صورة واحدة لي مع مايكل، ولكنها أقل وضوحًا لأن حجرتنا كانت مظلمة في تلك الليلة.

أما صف الصور المُعلَّقة أسفل المشاهد الجنسية فيصور كله ولادات الأطفال. وكانت كل ولادة ظاهرة في الصور، بما فيها ولادة باتريك، مما يؤكد أن عملية التجسس لم تتوقف. ويكشف وضعُ الصور الجنسية بجانب صور الولادة عن أن الأوكتوسبايدر (أو سكان راما) فهموا بالتأكيد عملية التكاثر عندنا.

استغرقت الصور انتباهي تمامًا ربما طوال خمس عشرة دقيقة. ثم انقطع تركيزي أخيرًا عندما سمعت صوتًا عاليًا جدًّا لفُرش تحتكُّ بمعدن، وكان الصوت يأتي من اتجاه باب المتحف. اجتاحني رعب شديد وتسمرت في مكاني وتلفتُّ حولي في ارتياع. لا يوجد مخرج آخر للحجرة.

بعد ثوانٍ دخلت كيتي من الباب وهي تقفز. وصاحت عندما رأتني: «أمي!» واندفعت تجري عبر المتحف حتى كادت تُسقِط دكتور تاكاجيشي وألقت بنفسها في أحضاني.

قالت وهي تحتضنني وتقبلني بقوة: «أمي، كنت أعرف أنك ستأتين.»

أغمضتُ عينيَّ وأمسكت بابنتي التائهة بكل قوتي. وانهمرت الدموع على وجنتيَّ. وأخذت أهدهد كيتي وحاولت أن أطمئنها وأنا أقول: «لا بأس يا حبيبتي، لا بأس.»

عندما كفكفت دموعي وفتحت عينيَّ، وجدت أوكتوسبايدر واقفًا عند مدخل المتحف. وظل ساكنًا لوهلة وكأنه يتأمل حدث لَمِّ شمل الأم وابنتها. فشُلَّت حركتي واجتاحتني موجة من المشاعر يمتزج فيها الفرح بالرعب الشديد.

أحست كيتي بخوفي. فقالت وهي تستدير نحو الأوكتوسبايدر: «لا تقلقي يا أمي. لن يؤذيك. إنه يريد أن يشاهد وحسب. لقد اقترب مني مرارًا.»

وصل مستوى الأدرينالين في جسدي إلى الحد الأقصى. ظل الأوكتوسبايدر واقفًا (أو جالسًا، أو أيًّا ما كان الأوكتوسبايدر يفعله وهو ساكن) عند الباب. كان رأسه الأسود الكبير شبه مستدير، وجسده يفترش الأرض وتنبثق منه ثمانية مجسات مخططة بخطوط سوداء

وذهبية، وكانت وسط رأسه فجوتان متوازيتان متماثلتان حول محور غير مرئي وتمتدان رأسيًّا. وبينهما، على ارتفاع نحو متر من الأرض، يوجد شكل مربع مدهش أشبه بعدسة يبلغ عرضه عشرة سنتيمترات، وكانت مزيجًا معقدًا من خطوط على شكل شبكة ومادة سائلة تتألف من اللونين الأبيض والأسود. وبينما كان الأوكتوسبايدر يحدق فينا، كانت العدسة تموج بالنشاط.

كان هناك أعضاء أخرى في جسده بين الفجوتين، فوق العدسة وأسفلها، ولكن لم يتح لي الوقت الكافي لإمعان النظر فيها. اتجه الأوكتوسبايدر نحونا في الغرفة، وعاد الخوف يداهمني بكل قوته رغم ما قالته كيتي لتطمئنني. واكتشفت أن صوت الفرشاة يصدر من الأعضاء الشبيهة بالأهداب الملحقة بالجانب السفلي من المجسات عندما تتحرك على الأرض. وأدركت أن الطنين ذا التردد العالي يصدر من فتحة صغيرة تقع في الجانب السفلي الأيمن من رأسه.

جمَّد الخوف قدرتي على التفكير عدة ثوانٍ. وبينما كان هذا الكائن يقترب، سيطرت عليَّ رغبة تلقائية في الهرب. ولكن للأسف لم يُجدِ ذلك نفعًا في هذا الموقف. إذ لم يكن هناك مهرب.

لم يتوقف الأوكتوسبايدر إلى أن صار لا يفصله عنا إلا خمسة أمتار. فأوقفت كيتي أمام الحائط ووقفت بينها وبين الأوكتوسبايدر. ثم رفعت يدي. مرة أخرى سرَت موجة من النشاط في عدسته الغريبة. وفجأة أتتني فكرة. دسست يدي في جيب بذلة الطيران التي أرتديها وأخرجت جهاز الكمبيوتر الخاص بي منها. وبأصابع مرتعشة، (هنا رفع الأوكتوسبايدر اثنين من المجسات أمام عدسته، والآن أجد نفسي أتساءل ما إذا كان يظن أنني سأُخرج سلاحًا) كتبت أمرًا يستدعي صورة ريتشارد على الشاشة ثم حركت الشاشة باتجاه الأوكتوسبايدر.

عندما لم تصدر مني أي حركة أخرى أعاد المخلوق المجسَّين الوقائيين إلى الأرض ببطء. وحدق في الشاشة تقريبًا دقيقة كاملة، ثم رأيت ما أدهشني بشدة؛ إذ اكتسى رأسه بالكامل بلون أرجواني زاهٍ ابتداءً من حافة الفجوة. وبعد ذلك بثوانٍ قليلة تلون رأسه بطيف من الألوان منها الأحمر والأزرق والأخضر — وكان كل شريط لوني له سمك مختلف — وانبثقت كلها من نفس الفجوة، وبعد أن طوق طيف الألوان رأسه، تراجع إلى الفجوة الموازية التي تبعد حوالي ثلاثمائة وستين درجة تقريبًا.

أخذت أنا وكيتي نحدق في انبهار. رفع الأوكتوسبايدر أحد مجساته وأشار إلى الشاشة وكرر إصدار الموجة الأرجوانية الواسعة. وبعد لحظات ظهر طيف الألوان نفسه كما حدث من قبل.

قالت كيتي بصوت منخفض: «إنه يكلمنا يا أمي.»

رددت عليها قائلةً: «أعتقد أنك محقة. ولكنني لا أفهم شيئًا مما يقول.»

بعد مدة انتظار بدت لنا طويلة كدهر، بدأ الأوكتوسبايدر يرجع إلى الخلف باتجاه المدخل وإحدى مجساته الممدودة تشير لنا بأن نتبعه. واختفت الأشرطة اللونية. فأمسكت بيد كيتي وتبعناه بحذر. وبدأت كيتي تنظر حولها، ولاحظت الصور المعلقة على الحائط لأول مرة. فقالت: «انظري يا أمي، عندهم صور لأسرتنا.»

طلبت منها أن تصمت وتنتبه إلى الأوكتوسبايدر. رجع الأوكتوسبايدر إلى النفق، وتوجه إلى حيث الأنفاق والممر الرأسي الذي تغطي جدرانه النتوءات. كانت تلك هي الفتحة التي نريدها. فحملتُ كيتي وأمرتها أن تتشبث بي بقوة، وجريت في النفق بأقصى سرعة. فلم أكد أمس الأرض بقدمَي حتى صعدت المنحدر وعدت إلى نيويورك.

كاد مايكل أن يطير فرحًا عندما رأى كيتي على ما يرام، ولكنه شعر بقلق شديد (وأنا أيضًا) بسبب وجود كاميرات مخبأة في حوائط وأسقف مخبئنا، أما أنا فقد عجزت عن توبيخ كيتي على الوجه الصحيح لخروجها بمفردها؛ إذ كنت أشعر بارتياح شديد للعثور عليها. قالت كيتي لسيمون إنها خاضت «مغامرة رائعة» وإن الأوكتوسبايدر كان «لطيفًا». هذا هو عالم الأطفال.

٤ فبراير ٢٢٠٩

أوه، يا لفرحتنا! وجدنا ريتشارد! إنه لا يزال حيًّا! أو بالكاد حيًّا، فهو في غيبوبة عميقة ويعاني من حمى شديدة، ولكنه حي.

وجدَته كيتي وسيمون هذا الصباح ممددًا على الأرض على بعد أقل من خمسين مترًا من فتحة ملجئنا. كنا قد خططنا نحن الثلاثة للعب كرة القدم في الساحة العامة وكنا نستعد لمغادرة الملجأ حين طلب مني مايكل العودة لسبب ما. فطلبت من الفتاتين أن تنتظراني في المنطقة القريبة من مدخل الملجأ. وبعد دقائق قليلة أخذتا تصرخان، فظننت أن مكروهًا قد وقع. فأسرعت أصعد السلم، فكان أول ما وقعت عليه عيناي عن بعد هو جسد ريتشارد الفاقد الوعي.

في البداية سيطر عليَّ خوف من أن يكون ريتشارد ميتًا. لكن سرعان ما بدأت الملكة الطبية داخلي تعمل فأخذت أفحص المؤشرات الحيوية.

تعلقت الفتاتان بي وأنا أفحصه. وخاصة كيتي. إذ ظلت تقول مرارًا وتكرارًا: «هل أبي حي؟ أوه، يا أمي، ساعدي أبي على الشفاء.»

ما إن أكَّدتُ لهم أن ريتشارد في غيبوبة حتى ساعدني مايكل وسيمون في حمله والنزول به. وعندها ركبت مجموعة من مجسات المراقبة البيومترية على جسده وظللت أراقب النتائج منذ تلك اللحظة.

خلعت عنه ملابسه وفحصته من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. فوجدت به بعض الجروح الطفيفة والكدمات التي لم أرها من قبل، وهذا متوقع بعد مرور كل هذا الوقت. ووجدت أن عدد خلايا دمه قريب من المعدل الطبيعي، وهذا غريب؛ فقد توقعت وجود اختلال في خلايا الدم البيضاء بعد أن بلغت حرارته أربعين درجة تقريبًا.

اكتشفنا مفاجأة كبيرة أخرى عندما فحصنا ملابس ريتشارد بالتفصيل. إذ وجدت في جيب سترته الآليين الشكسبيريين: الأمير هال وفولستاف اللذين اختفيا منذ تسع سنوات في العالم الغريب الموجود أسفل الممر الذي تغطي جدرانه النتوءات، والذي ظننا أنه ملجأ الأوكتوسبايدر. لا بد أن ريتشارد قد أقنع الأوكتوسبايدر بطريقة ما بأن يعيدوا رفيقَي لهوه إليه.

مرت سبع ساعات حتى الآن وأنا جالسة بجوار ريتشارد. طوال معظم ساعات هذا الصباح كان يصحبني أيضًا بعض من أفراد الأسرة، ولكنني ظللت معه بمفردي على مدى الساعة الأخيرة. فأخذت أتفرس في وجهه لدقائق متواصلة، وأخذت ألمس بيديَّ رقبته وكتفه وظهره. فأثارَ لمسي له فيضًا من الذكريات واغرورقت عيناي بالدموع مِرارًا. لم أظن أبدًا أنني سأتمكن من رؤيته أو لمسه مرة أخرى. آه يا ريتشارد مرحبًا بعودتك إلينا. مرحبًا بعودتك إلى زوجتك وأسرتك.

١٢

١٣ أبريل ٢٢٠٩

كان يومنا غير عادي. فبعد الغداء مباشرة كنت أجلس بجوار ريتشارد أفحص المؤشرات البيومترية كالعادة عندما سألتني كيتي عما إذا كان من الممكن أن تلعب مع الأمير هال

وفولستاف. فأجبتها دون أن أفكر: «بالطبع.» كنت متأكدة من أن الآليَّين الصغيرَين لا يعملان ولكنني، في الحقيقة، كنت أريد أن أخرجها من الحجرة حتى يتسنى لي أن أجرب طريقة أخرى لإنقاذ ريتشارد من الغيبوبة.

لم يسبق لي مواجهة غيبوبة تحمل أي وجه شبه بغيبوبة ريتشارد. فأغلب الوقت عيناه مفتوحتان، وأحيانا يخيل إليَّ أنهما تتبعان شيئًا ما في مجال رؤيته. ولكن لا تظهر عليه أي علامة أخرى تدل على الحياة أو الوعي. فلم تتحرك أيٌّ من عضلاته مطلقًا. وقد استخدمت عدة محفزات مختلفة، بعضها ميكانيكي، وأغلبها كيميائي لإفاقته من حالة الغيبوبة. ولكن أيًّا من هذه الوسائل لم تفلح. ولذا لم أكن لدي أي استعداد لما حدث اليوم.

بعد خروج كيتي بعشر دقائق تقريبًا، سمعت خليطًا غريبًا جدًّا من الأصوات يأتي من حجرة الأطفال. فتركت ريتشارد وتوجهت إلى الممر. لكن قبل أن أصل إلى الحجرة تحولت الضوضاء الغريبة إلى كلام موجز إيقاعه غريب جدًّا. إذ كان صوتًا بدا وكأنه صادر من قاع بئر يقول: «مرحبًا. نحن مسالمون. ها هو رجلكم.»

كان الصوت يصدر من الأمير هال الذي كان واقفًا وسط الحجرة عندما دخلت إليها. وكان الأطفال على الأرض يحيطون بالآلي في شيء من التردد، فيما عدا كيتي. إذ كان يبدو عليها الحماس.

وعندما رمقت كيتي بنظرة متسائلة قالت لي موضحةً ما حدث: «كنت ألعب بالأزرار فبدأ يتحدث فجأة.»

لم ألاحظ أن الأمير هال قد أتى بأي حركة وهو يتكلم. فاندهشت لذلك؛ لأنني أتذكر أن ريتشارد كان يتباهى بأن الآليين الذين يصنعهم دائمًا ما تأتي حركاتهم مواكبة لحديثهم. وسمعت صوتًا بداخلي يقول لي إن ريتشارد ليس هو من برمج الأمير هال. ولكنني صرفت الفكرة عن ذهني مبدئيًّا، وجلست على الأرض بجوار الأطفال.

قال الأمير هال ثانية بعد عدة ثوانٍ: «مرحبًا. نحن مسالمون. ها هو رجلكم.» في هذه المرة اجتاحني شعور مخيف. أما الفتاتان فكانتا تضحكان، ولكن سرعان ما كفَّتا عن الضحك عندما لاحظتا التعبير الغريب المرتسم على وجهي. وأخذ بينجي يحبو حتى صار بجانبي وأمسك يدي.

كنا جالسين على الأرض وظهورنا إلى الباب. وإذ بي أشعر بأن هناك من يقف خلفي. فالتفت ورأيت ريتشارد واقفًا عند المدخل. شهقت وأنا أهبُّ واقفةً، وفي نفس هذه اللحظة وقع فاقدًا الوعي.

صرخ الأطفال وأخذوا يبكون. فحاولت أن أهدئهم بعد أن فحصت ريتشارد بسرعة. ثم اضطررت إلى الاعتناء به وهو مُلقًى على الأرض خارج حجرة الأطفال طيلة ما يربو على ساعة؛ لأن مايكل كان على سطح نيويورك يقوم بتمشية العصر التي اعتاد عليها. وفي غضون ذلك راقبته عن كثب شديد. فوجدت أنه في نفس الحالة التي كان عليها عندما تركته في حجرة النوم من قبل. إذ لم تظهر أي علامات واضحة تشير إلى أنه أفاق ثلاثين أو أربعين ثانية.

عندما عاد مايكل، ساعدني في حمل ريتشارد إلى حجرة النوم. ثم ظللنا نتحدث أكثر من ساعة عن سبب إفاقة ريتشارد المفاجئة. وبعد هذا قرأت أكثر من مرة كل المقالات الواردة في الكتب الطبية عن الغيبوبة. أنا مقتنعة بأن سبب غيبوبة ريتشارد يعود إلى مزيج من المشكلات الجسدية والنفسية. وأرى أن هذا الصوت الغريب سبَّب له صدمة تغلبت مدةً مؤقتة على العوامل المتسببة في الغيبوبة.

ولكن لماذا انتكس بهذه السرعة بعد هذا؟ هذا هو السؤال الأصعب. قد يرجع هذا إلى أنه استنفد مخزون طاقته الضئيل في المشي في الردهة. ولا سبيل إلى معرفة السبب في ذلك على وجه اليقين. بل إننا في الواقع لا نستطيع أن نجيب عن أغلب الأسئلة المتعلقة بما حدث اليوم، بما فيها ذلك السؤال الذي تظل كيتي تطرحه: ««من» هم هؤلاء المسالمون؟»

١ مايو ٢٢٠٩

شهد هذا اليوم نجاح ريتشارد كولين ويكفيلد في التعرف على أسرته ونطق بأولى كلماته. ظل ريتشارد يستعد لهذه اللحظة طوال أسبوع تقريبًا، ففي البداية بدأ يعطي إشارات بوجهه وعينيه تدل على أنه يدرك ما يجري حوله ثم بدأ يحرك شفتيه وكأنه ينطق بكلمات. وابتسم في وجهي صباح اليوم وكاد أن ينطق باسمي، ولكن أول كلمة نطق بها بالفعل هي «كيتي»، وقد قالها عصر اليوم بعد أن عانقته ابنته المحببة بقوة.

أشعر بأن هناك جوًّا من الابتهاج يغمر الأسرة، ولا سيما البنتين. وهما الآن تحتفلان بعودة والدهما. أخبرتهما مرارًا وتكرارًا أن عملية إعادة تأهيل ريتشارد غالبًا ما ستكون طويلة ومتعبة، ولكن أعتقد أنهما أصغر من أن تتمكنا من فهم معنى ما قلته.

أنا سعيدة جدًّا. كان من المستحيل أن أحبس دموعي عندما همس ريتشارد باسمي في أذني بوضوح قبل العشاء مباشرة. ومع أنني أدرك أن زوجي لم يعد إلى حالته الطبيعية بعد، فإنني متأكدة الآن من أنه سيشفى في النهاية، وهذا يملأ قلبي فرحًا.

١٨ أغسطس ٢٢٠٩

استمر ريتشارد في التحسن ببطء ولكن بثبات. فهو لا ينام إلا اثنتي عشرة ساعة يوميًّا الآن، ويستطيع أن يمشي ما يقرب من ميل دون أن يشعر بالتعب، كما أنه يستطيع أحيانًا أن يركز في المسائل الرياضية إذا كانت شديدة التشويق. وهو لم يعد بعد إلى التواصل مع سكان راما عن طريق لوحة المفاتيح والشاشة. ولكنه فكك الأمير هال وحاول أن يحدد سبب الصوت الغريب الذي سمعناه في حجرة الأطفال، غير أن المحاولة باءت بالفشل.

ريتشارد هو أول من أقر بأنه لم يعد كسابق عهده. وعندما يكون بوسعه التحدث عن الأمر يقول إنه يشعر بأن الضباب يلفه وكأنه في حلم غير واضح. مر أكثر من ثلاثة أشهر على استعادته وعيه ولكنه لا يزال عاجزًا عن تذكُّر الكثير مما حدث له بعد أن تركنا. وهو يعتقد أنه في غيبوبة منذ حوالي عام. ويبني استنتاجه هذا على أحاسيس غامضة أكثر مما يبنيه على حقائق دقيقة.

يؤكد ريتشارد أنه عاش في ملجأ المخلوقات الطائرة عدة أشهر وأنه حضر مراسم مذهلة لإحراق الموتى. ولكنه لم يستطع أن يضيف أي تفاصيل أخرى. كما أكد مرتين أنه استكشف نصف الأسطوانة الجنوبية وأنه وجد مدينة الأوكتوسبايدر الرئيسية قرب التجويف الجنوبي، ولكن من الصعب أن نصدق أيًّا من ذكرياته لأنها تتغير من يوم إلى آخر.

بدَّلتُ مجموعة أجهزة المراقبة البيومترية مرتين، ولديَّ تقارير طويلة جدًّا عن كل العوامل المتغيرة الحرجة. وجميع الرسوم البيانية الخاصة به طبيعية إلا فيما يتعلق بنشاطه الذهني ودرجة حرارته. فالموجات الكهربائية التي يصدرها مُخُّه يوميًّا تفوق أي وصف. ولا يوجد في الموسوعة الطبية ما يمكِّنني من تفسير أي رسم بياني من هذه الرسوم، فما بالك بالمجموعة كاملة؟ أحيانًا يرتفع مستوى النشاط الذهني ارتفاعًا فلكيًّا، وأحيانًا يبدو وكأنه توقف تمامًا. كما أن القياسات الكهروكيميائية غريبة هي الأخرى. فقرن آمون الخاص به في سبات عميق، وهو ما يفسر سبب معاناة ريتشارد صعوبةً في التذكر.

ودرجة حرارته أيضًا غريبة. إذ ظلت ثابتة على ٣٧٫٨ درجة مئوية طوال شهرين حتى الآن، أي أعلى من الدرجة الطبيعية للبشر العاديين بثمانٍ من عشر درجات مئوية. راجعت كل الفحوصات التي أُجريت عليه قبل الطيران ووجدت أن درجة حرارته الطبيعية على الأرض كانت ثابتة على ٣٦٫٩. ولا أستطيع أن أفسر استمرار ارتفاع درجة حرارته. إذ يبدو الأمر وكأن جسده في حالة توازن تام مع عامل ممرض ما دون أن يستطيع

أحدهما أن يقهر الآخر. ولكن أي عامل ممرض هذا الذي عجزت عن الكشف عنه رغم كثرة المحاولات؟

أصيب الأطفال جميعًا بإحباط شديد بسبب تصرفات ريتشارد التي تفتقر إلى الحيوية. وقد زاد من هذا أننا حولناه إلى شخصية أسطورية بعض الشيء أثناء غيابه، ولكن اعترافي بهذه المبالغة لا ينفي أنه كان رجلًا مفعمًا بالطاقة من قبل. أما ريتشارد الجديد هذا فهو ليس إلا طيفًا لريتشارد السابق. تحلف كيتي أنها تتذكر أنها كانت تلعب وتتصارع بقوة مع والدها عندما كانت في الثانية من عمرها (بالتأكيد زادت قوة هذه الذكريات بفعل القصص التي رويتها لها أنا ومايكل وسيمون أثناء غياب ريتشارد)، وكثيرًا ما تشعر بالغضب لأنه لا يمضي الوقت معها الآن إلا نادرًا. من جانبي، أحاول أن أوضح لها أن «والدها لا يزال مريضًا» ولكنني أعتقد أن هذا لا يفلح في تهدئتها.

أعاد مايكل كل حاجياتي إلى هذه الغرفة بعد عودة ريتشارد بأربع وعشرين ساعة. يا له من رجل طيب! وبعد هذا، دخل في حالة تديُّن قوية أخرى عدةَ أسابيع (أعتقد أنه يشعر أنه بحاجة إلى المغفرة لوقوعه في خطايا تثقل عليه)، ولكنه خفف من هذا نظرًا إلى الأعباء التي تقع على كاهلي. وظل يعامل الأطفال معاملة رائعة.

تضطلع سيمون بدور الأم المساعدة. وبينجي يحبها حبًّا جمًّا، وهي تتعامل معه بصبر لا ينفد. أخبرتها أنا ومايكل عن متلازمة ويتينجهام التي يعاني منها لأنها قالت أكثر من مرة إنه «بطيء الفهم قليلًا». لكننا لم نخبر كيتي بعد. فهي الآن تمر بوقت عصيب. حتى إن باتريك نفسه، الذي يلازمها كظلها، يعجز عن التخفيف عنها.

نعرف جميعًا، وفينا الأطفال، أننا تحت المراقبة. فتشنا حوائط غرفة الأطفال تفتيشًا دقيقًا — وكأننا في مباراة للبحث عن أدوات المراقبة — ووجدنا عدة أشياء صغيرة غريبة في زخارف السقف اعتقدنا أنها الكاميرات. فحطمناها بأدواتنا، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأننا وجدنا أدوات المراقبة بالفعل. فلربما تكون صغيرة جدًّا بحيث نعجز عن رؤيتها من دون مجهر. لكن على الأقل، تذكر ريتشارد مقولته الأثيرة عن أن التكنولوجيا الفضائية المتقدمة تشبه السحر.

كانت كيتي هي أشدنا انزعاجًا بسبب كاميرات الأوكتوسبايدر المتطفلة. وأخذت تتحدث بصراحة وامتعاض عن اقتحامهم لـ «حياتها الخاصة». لا بد أن لها أسرارًا أكثر من أي منا. وعندما قالت سيمون لأختها الصغرى إن هذا لا يهم لأن «الله في النهاية يراقبنا على الدوام»، اندلع أول شجار حول الدين بين الأختين. إذ ردت كيتي قائلة: «هراء»، وهي كلمة

من غير اللائق أن تتفوه بها فتاة في السادسة من عمرها. ونبهتني الكلمة التي استخدمتها إلى أنه من الضروري أن أتوخى الحذر أكثر في اختيار ألفاظي.

وفي أحد أيام الشهر الماضي صحبتُ ريتشارد إلى ملجأ المخلوقات الطائرة لأرى هل وجوده هناك سينجح في تنشيط ذاكرته. فوجدت أنه أصيب بخوف شديد فور دخولنا النفق على مشارف الممر الرأسي. وسمعته يتمتم قائلًا: «الظلام. لا أرى في الظلام. أما هم فيستطيعون الرؤية في الظلام.» ثم تسمر في مكانه بعد أن تخطينا المياه والحوض، فلم أجد أمامي خيارًا سوى إعادته إلى ملجئنا.

يعرف ريتشارد أن بينجي وباتريك ابنا مايكل، وربما شك في أنني ومايكل عشنا زوجًا وزوجةً خلال جانب من مدة غيابه، ولكنه لم يعلق على هذا أبدًا. كنت أنا ومايكل على استعداد لطلب العفو من ريتشارد وللتأكيد له على أننا لم تنشأ بيننا علاقة جسدية حميمة (فيما عدا المرحلة التي حملت فيها ببينجي) إلا بعد مرور سنتين على رحيله. لكن في الوقت الحالي يبدو أن ريتشارد لا يعبأ بالأمر كثيرًا.

نمت أنا وريتشارد في فراشنا المشترك القديم منذ أن أفاق من غيبوبته. وتلامسنا كثيرًا وتعاملنا بود شديد، غير أننا لم نتطارح الغرام إلا منذ أسبوعين. في الحقيقة، كنت بدأت أعتقد أن الجنس من بين الأمور التي انمحت من ذاكرته؛ وذلك لعدم استجابته لقبلاتي المغرية التي كنت أمنحه إياها من آنٍ إلى آخر.

ثم جاءت ليلة عاد فيها ريتشارد إلى طبيعته القديمة في الفراش. ولاحظت أن هذا الأمر يتكرر في جوانب أخرى؛ فمن آنٍ إلى آخر كانت تعود إليه طباعه القديمة من خفة ظل وحيوية وذكاءٍ مدةً قصيرة. على أيةِ حال، كان ريتشارد القديم متوقد المشاعر وخفيف الظل ومبتكرًا. فشعرت وكأنني في الجنة. وتذكرت مستويات من المتعة كنت قد تناسيتها منذ وقت طويل.

استمر ولعه الجنسي ثلاث ليال متتابعة. ثم خبا فجأة مثلما اشتعل فجأة. في البداية أصابني الإحباط (أليست هذه الطبيعة البشرية؟ معظم الوقت نطمح إلى أن تتحسن الأمور، وعندما تصل الأمور إلى أفضل ما يمكن نطمح إلى أن يدوم الحال)، ولكنني الآن أصبحت أتقبل أن هذا الجانب من جوانب شخصيته يجب أن يخضع للعلاج هو الآخر.

في الليلة الماضية، حسبَ ريتشارد مسارنا لأول مرة منذ عودته. فسررت أنا ومايكل بهذا. وأعلن بفخر: «لا زلنا في نفس الاتجاه. نحن الآن نبعد عن الشعرى اليمانية بأقل من ثلاث سنوات ضوئية.»

٦ يناير ٢٢١٠

بلغتُ السادسة والأربعين. وخطَ الشيب في أغلب شعري من المقدمة والجانبين. لو كنت على الأرض لظللت أفكر أأصبغه أم لا. أما هنا في راما فالأمر لا يهم.

لقد كبرت على الحمل. يجب أن أخبر الفتاة الصغيرة التي تنمو في رحمي بهذا. في الواقع، اندهشت عندما أدركت أنني حامل مرة أخرى. فقد داهمني سن انقطاع الطمث بأعراضه الغريبة من سخونة الجزء العلوي من الجسم وتقلب المزاج وعدم انتظام الطمث. ولكني حملت من ريتشارد مرةً أخرى، ليزيد عدد أسرتنا الشريدة التائهة في الفضاء فردًا آخر.

إذا لم نقابل أي إنسان آخر (وأصبحت إليانور جان ويكفيلد طفلة سليمة، وهو ما يبدو مُرجحًا في الوقت الحالي) فسيصبح لدينا ستة أزواج من المحتمل أن يكونوا آباء لأحفادنا. غالبًا لن تحدث كل التباديل التي أفترضها، ولكنه أمر شيق أن نتخيل حدوثها. كنت أتصور أن سيمون ستتزوج بينجي وأن كيتي ستتزوج باتريك ولكن أين سيكون مكان إيلي في هذه المعادلة؟

هذا عاشر عيد ميلاد لي على متن راما. لا أستطيع أن أصدق أنني لم أقضِ سوى عشرين بالمائة فقط من حياتي في هذه الأسطوانة العملاقة. أحقًّا كانت لي حياة أخرى من قبل على الكوكب الأزرق الذي يبعد عنا تريليونات الكيلومترات؟ أحقًّا تعرفت براشدين بخلاف ريتشارد ويكفيلد ومايكل أوتول؟ أحقًّا كان والدي هو بيير دي جاردان كاتب الروايات التاريخية الشهير؟ أكانت لي علاقة سرية رائعة مع هنري أمير ويلز، أنجبت بعدها ابنتي الأولى الرائعة جنيفياف؟

لا يبدو أيٌّ من هذا ممكنًا. على الأقل ليس اليوم، ليس في عيد ميلادي السادس والأربعين. سألني كلٌّ من ريتشارد ومايكل مرة واحدة عن والد جنيفياف. لكنني لم أخبر أي شخص قط. أليس هذا سخيفًا؟ هل سيمثل الأمر فرقًا ونحن هنا على راما؟ كلا. لكن على الأرض، ظل هذا الأمر سرًّا (لم يشاركني فيه سوى والدي) منذ أن حملت بجنيفياف. فهي ابنتي أنا. أنا جئت بها إلى هذا العالم وربيتها. لطالما كنت أقول لنفسي إن والدها لم يفعل شيئًا سوى أنه أنجبها؛ لذا لا أهمية له.

هذا هراء بالطبع. هه! ها هي هذه الكلمة مرة أخرى. كان دكتور ديفيد براون كثيرًا ما يستخدمها. أوه! لم أفكر في رواد فضاء بعثة نيوتن الآخرين منذ سنواتٍ. ترى هل نجحت فرانشيسكا وأصدقاؤها في ربح الملايين من رحلة نيوتن؟ آمل أن يكون جانو قد

حصل على نصيبه. السيد تابوري العزيز، كم كان رجلًا لطيفًا! مممم! ترى كيف فسروا لسكان الأرض هروبَ راما من قاذفات فالنكس؟ آه، نعم، يا نيكول، هذا عيد ميلاد نمطي جدًّا. رحلة طويلة غير منظمة في سراديب الذاكرة.

كانت فرانشيسكا جميلة جدًّا. وكنت دائمًا ما أشعر بالغيرة من حسن تعاملها مع الناس. هل خدرت بورزوف وويلسون؟ محتمل. لم أظن للحظة أنها تعمدت قتل فاليري. ولكنها منحرفة الأخلاق حقًّا. شأنها في ذلك شأن معظم الطموحين.

أبتسم الآن عندما أتذكر حياتي الماضية وأرى كم كنت أمًّا مهووسة وأنا في العشرينيات. كان عليَّ أن أنجح في كل شيء. كان طموحي مختلفًا تمامًا عن طموح فرانشيسكا. فأنا كنت أريد أن أثبت للعالم أنني أستطيع تحقيق الفوز مع التزامي بكل القواعد، مثلما فعلت في رياضة الوثب الثلاثي في الأولمبياد. وهل يمكن أن يوجد شيء أكثر روعةً لأم غير متزوجة من اختيارها لتكون رائدةً للفضاء؟ لقد كنت بالتأكيد شديدة الغرور في تلك السنوات. ومن حسن حظي وحظ جنيفياف أن والدي كان معنا.

كلما نظرت إلى جنيفياف، عرفت بالطبع أن بصمة هنري واضحة. فوجهها يشبه وجهه تمامًا من المنطقة التي تعلو شفتيها وحتى أسفل الذقن. ولم أكن أريد أن أنكر نسبها إليه. وإنما كان كل ما يهمني أن أنجح في الاعتماد على نفسي، وأن أثبت لنفسي على الأقل أنني أم وامرأة رائعة، حتى إن كنت غير أهل لأن أكون الملكة.

حالت بشرتي السمراء دون أن أصبح ملكة إنجلترا، أو حتى أن ألعب دور جان دارك في أحد المهرجانات الفرنسية السنوية. ترى كم عامًا سيمر حتى يصبح لون البشرة لا يمثل مشكلةً للبشر على الأرض؟ خمسمائة عام؟ ألف؟ ما الذي قاله الكاتب الأمريكي ويليام فوكنر … لقد قال ما معناه إن سامبو لن يتحرر إلا عندما يستيقظ كل جيرانه صباحًا ويقولون لأنفسهم ولأصدقائهم إن سامبو حرٌّ. أعتقد أنه محقٌّ. فقد رأينا أنه لا يمكن القضاء على العنصرية عن طريق سن التشريعات. أو حتى عن طريق التعليم. وإنما يجب أن يمر كل إنسان في رحلته في الحياة بلحظة كشف، لحظة من الوعي الحقيقي، يدرك فيها إدراكًا تامًّا أن سامبو، وكل شخص آخر في العالم مختلف عنه بأي شكل من الأشكال، يجب أن يكون حرًّا إذا أردنا البقاء في الكون.

عندما كنت في قاع تلك الحفرة منذ عشر سنوات وكنت على يقين من أنني سأموت سألت نفسي عن اللحظات التي سأختار أن أعيشها مرة أخرى إذا ما أتيحت لي الفرصة. فتسللت إلى عقلي ذكرى تلك الساعات التي قضيتها مع هنري مع أنني تعذبت بهجره فيما

بعد. وأجد نفسي إلى اليوم مستعدة بكل سرور للعودة إليه. إن العيش في ظل السعادة القصوى — ولو دقائقَ أو ساعات قليلة — هو الحياة الحقة. وعندما تواجه الموت، لن يهمك ما إذا كان شريكك في تلك اللحظة الرائعة خذلك أو خانك بعدها. فكل ما سيهمك حقًّا هو الإحساس بهذه السعادة الخاطفة التي تشعر من فرط قوتها أنك تجاوزت كوكب الأرض بما عليه.

انتابني شيء من الخجل، وأنا في الحفرة، عندما أدركت أن ذكرياتي مع هنري تحتل نفس مكانة ذكرياتي مع والديَّ وابنتي. ثم أدركت أن تعلقي بذكريات تلك الساعات التي قضيتها مع هنري لا يجعلني حالة استثنائية. فلكل شخص لحظاته الخاصة أو أحداثه المميزة التي تحتل مكانة خاصة لديه ويعتز بها كل الاعتزاز.

أمضت جابرييل مورو، التي كانت صديقتي الحميمة الوحيدة في الجامعة، ليلةً معي أنا وجنيفياف في بوفوا العام السابق لإطلاق بعثة نيوتن. ولم نكن قد تلاقينا منذ سبع سنوات، فقضينا معظم الليل في حديث غلب عليه تناول الأحداث العاطفية الكبيرة في حياتنا. كانت جابرييل سعيدة جدًّا. فلديها زوج وسيم ورقيق وناجح، وثلاثة أطفال أصحاء وفائقو الجمال، وبيت تحيط به عزبة جميلة قرب شينون. ومع هذا فقد أسرَّت إليَّ بعد منتصف الليل وهي تبتسم ابتسامة فتاة صغيرة بأن أسعد لحظات حياتها عاشتها قبل أن تقابل زوجها. ففي صباها المبكر، وقعت في غرام ممثل شهير ثم اكتشفت أنه في موقع تصوير في تور. ونجحت بطريقة ما في مقابلته في غرفته بالفندق والتحدث إليه على انفراد حوالي ساعة. ثم طبعت على شفتيه قبلة واحدة قبل أن تنصرف. وكانت تلك الذكرى أغلى ذكرياتها.

أوه، يا أميري، بالأمس مرت عشر سنوات على آخر لقاء لنا. فهل أنت سعيد؟ هل أصبحت ملكًا صالحًا؟ هل تفكر في بطلة الأولمبياد السوداء التي أسلمت نفسها إليك بكل تهور، لتكون أول رجل في حياتها؟

لقد سألتَني سؤالًا غير مباشر ذلك اليوم على جبل التزلج عن والد ابنتي. فلم أُجبك، ولم أدرك أن امتناعي عن الإجابة يعني أنني لم أسامحك تمامًا بعد. إذا أتيح لك أن تسألني اليوم، يا أميري، فسأجيبك بكل سرور. نعم أيها الملك هنري، يا ملك إنجلترا، أنت والد جنيفياف دي جاردان. اذهب إليها، وتعرَّف عليها، واغمر أبناءها بحبك. فلن أستطيع أنا فعل هذا. إذ تفصلني عنها مسافة تزيد عن خمسين تريليون كيلومتر.

١٣

٣٠ يونيو ٢٢١٣

عجز الجميع عن النوم ليلة أمس من فرط الانفعال. إلا بينجي، بارك الله فيه؛ إذ لم يستطع أن يعي ما كنا نرويه له. أوضحت له سيمون أكثر من مرة أن بيتنا يقع داخل سفينة فضائية أسطوانية عملاقة — بل إنها أطلعته على المشاهد المختلفة لراما التي التقطتها المستشعرات الخارجية كما تظهر على الشاشة السوداء — ولكنه يعجز عن استيعاب الأمر.

عندما سمعنا الصفير أمس أخذنا أنا وريتشارد ومايكل يحدق بعضنا في بعض عدة ثوانٍ. إذ لم نسمع صفيرًا منذ وقت طويل جدًّا. ثم بدأنا نتحدث في نفس الوقت. وأخذ الأطفال، وفيهم إيلي الصغيرة، يمطروننا بوابل من الأسئلة، ولم يخفَ عليهم الانفعال الذي نشعر به. صعدنا نحن الثمانية إلى أعلى على الفور. فجرى ريتشارد وكيتي نحو البحر دون انتظار باقي أفراد الأسرة. وسارت سيمون مع بينجي، وسار مايكل مع باتريك. أما أنا فحملت إيلي لأن ساقيها الصغيرتين عجزتا عن مواكبة سرعتنا.

كانت كيتي تفيض بالحماس وهي تسرع نحونا لاستقبالنا. وقالت وهي تشدُّ يد سيمون: «تعالي، تعالي. يجب أن تشاهدي هذا. إنه مذهل. الألوان رائعة.»

وكانت كيتي على حق. إذ كانت أقواس الضوء الملونة بألوان قوس قزح تضيء فوق الأبراج مضفيةً على ليل راما مظهرًا خلابًا. حدق بينجي صوب الجنوب فاغرًا فاه. وبعد عدة ثوانٍ ابتسم والتفت إلى سيمون. وقال ببطء: «إنه جـ... جـ... جميل»، وهو يشعر بالفخر لقدرته على استخدام الكلمة.

أجابت سيمون: «أجل إنه كذلك، يا بينجي. جميل جدًّا.»

كرر بينجي ما قالته سيمون: «جـ... جـ... جميل جـ... جـ... جدًّا»، وهو يلتفت مرة أخرى لينظر إلى الأضواء.

لم يتكلم أيٌّ منا كثيرًا أثناء العرض. ولكن بعدما رجعنا إلى الملجأ لم ينقطع الحديث لساعات. بالطبع كان يجب أن يشرح أحدنا كل شيء للأطفال. إذ لم يكن أيٌّ منهم قد وُلد وقت المناورة الأخيرة إلا سيمون، وكانت لا تزال رضيعة. أخذ ريتشارد على عاتقه جُل مهمة شرح ما يحدث. لقد أعاد الصفير والأضواءُ الحيويةَ إليه، فعاد كسابق عهده في الليلة الماضية أكثر من أي وقت آخر، وكان أداؤه يجمع بين التسلية وغزارة المعلومات وهو يحكي كل ما نعرفه عن الصفارات والعروض الضوئية ومناورات راما.

سألت كيتي بلهجة تنم عن الترقب: «أتعتقد أن الأوكتوسبايدر ستعود إلى نيويورك؟»

أجاب ريتشارد: «لا أعرف. ولكن هذا الاحتمال وارد بالتأكيد.»

وعلى مدى الدقائق الخمس عشرة التالية، أخذت كيتي تحكي للجميع للمرة الألف لقاءنا مع الأوكتوسبايدر منذ أربع سنوات. وكالعادة أخذت تزيد بعض التفاصيل وتبالغ فيها خاصة في الجزء الذي يتناول المدة التي قضتها بمفردها قبل أن تراني في المتحف.

يحب باتريك هذه القصة. ويود لو ظلت كيتي تحكيها له طوال الوقت. وفي الليلة الماضية حكت كيتي القصة قائلةً: «كنت أرقد على بطني، وأنا أختلس النظر من وراء حافة أسطوانة دائرية عملاقة تمتد في الظلام. كانت جوانب الأسطوانة مكسوة بنتوءات فضية بارزة، ورأيتها وهي تلمع في الضوء الخافت. صحت: «مرحبًا، هل من أحد هناك؟»

ثم أضافت: «ثم سمعت صوتًا كصوت فُرش معدنية تحتكُّ بالأرض مصحوبًا بصوت طنين. وبدأت الأضواء تسطع من أسفل. فرأيت في قاع الأسطوانة شيئًا أسود له رأس مستدير وثمانية مجسات مخططة باللونين الأسود والذهبي، بدأ يتسلق النتوءات. كانت المجسات تلتف حول النتوءات وهو يصعد بسرعة باتجاهي ...»

هنا، قال بينجي: «أوك...ــتو...سباي...ــدر.»

عندما أنهت كيتي قصتها، أخبر ريتشارد الأطفال أنه في غضون أربعة أيام ستبدأ الأرض على الأرجح في الاهتزاز. وشدد على ضرورة تثبيت كل شيء إلى الأرض وأن كلًّا منا يجب أن يستعد لمجموعة أخرى من الجلسات في الحوض المصمم لمواكبة انخفاض السرعة. كما أشار مايكل إلى أننا نحتاج على الأقل إلى صندوق جديد للعب الأطفال وعدة صناديق قوية لأمتعتنا. فقد تراكم لدينا الكثير من «الكراكيب» على مدار السنوات حتى إن مهمة تثبيتها في الأيام القليلة القادمة ستكون شاقة.

عندما كنت أرقد بجوار ريتشارد بمفردنا على فراشنا، تحدثنا أكثر من ساعة ويدانا متشابكتان. في مرحلة ما من الحديث أخبرته أنني آمل أن تبشر المناورة القادمة بنهاية رحلتنا في راما.

أجاب: «تظل جذوة الأمل مشتعلة في النفس البشرية. إنها تسعى لنيل السعادة المفقودة، دون أن تحصل عليها.» وجلس دقيقة ثم نظر إليَّ وعيناه تلمعان في الظلام شبه الحالك. وقال: «إنه ألكسندر بوب.» ثم ضحك. وقال: «أراهن أنه لم يتخيل أبدًا أن أحدًا سيستشهد بأشعاره على بعد ستين تريليون كيلومترٍ من الأرض.»

قلت له وأنا أمر بيدي على ذراعه: «تبدو في حال أفضل يا حبيبي.»

فعقد حاجبيه. وقال: «حاليًّا يبدو كل شيء واضحًا. ولكنني لا أعلم متى سيعود الضباب. يمكن أن يحدث هذا في أي لحظة. وما زلت لا أستطيع تذكُّر مما حدث طوال السنوات الثلاث الماضية التي غبت فيها إلا أقل القليل.»

استلقى مرة أخرى. فسألته: «في رأيك، ما الذي سيحدث؟»

أجاب: «أظن أن هناك مناورة أخرى ستحدث. وآمل أن تكون مناورة كبيرة. فنحن نقترب من الشعرى اليمانية بسرعة كبيرة وسنضطر لتخفيض سرعتنا بشدة إن كانت وجهتنا تقع في أي مكان داخل مجموعة الشعرى اليمانية.» ثم مد يده وأمسك بيدي. وقال: «آمل ألا يكون هذا إنذارًا كاذبًا، لأجلك، ولأجل الأولاد خصوصًا.»

٨ يوليو ٢٢١٣

بدأت المناورة منذ أربعة أيام، في الموعد المحدد لها بالضبط، حالما انتهى العرض الضوئي الثالث والأخير. ولم نر أو نسمع أيًّا من المخلوقات الطائرة أو الأوكتوسبايدر، وهو ما نحن عليه منذ أربع سنوات. هذا أصاب كيتي بالإحباط الشديد. إذ كانت تتوق إلى عودة جميع مخلوقات الأوكتوسبايدر إلى نيويورك.

أمس، جاء اثنان من الكائنات الآلية الشبيهة بفرس النبي إلى ملجئنا وتوجها مباشرةً إلى حوض انخفاض السرعة. كانا يحملان وعاءً ضخمًا به خمسة أسرَّة شبكية جديدة (بالطبع تحتاج سيمون إلى سرير ذي حجم مختلف الآن) وجميع الخوذات اللازمة. راقبناهما من على بعد وهما يركبان الأسرَّة ويتحققان من سلامة أجهزة الحوض. ذهل الأطفال بمشاهدة ذلك. أكدت زيارة الآليَّين القصيرة هذه أنه سرعان ما سيحدث تغير جذري في السرعة.

من الواضح أن ريتشارد كان محقًّا في افتراضه بشأن العلاقة بين نظام الدفع الرئيسي والتحكم الشامل في حرارة راما. فقد بدأت الحرارة في الأعلى تنخفض بالفعل. فانشغلنا بطلب ملابس ثقيلة لجميع الأطفال باستخدام لوحة المفاتيح تحسبًا لحدوث مناورة طويلة.

عاد الاهتزاز المستمر يزعجنا. في البداية أعجب به الأطفال ولكنهم بدءوا يتذمرون منه بالفعل. أما عن نفسي فآمل أن نكون قد اقتربنا من وجهتنا النهائية. ومع أن مايكل كان

يصلي لتتحقق مشيئة الله، فإن صلواتي القليلة كانت تنصبُّ على أمور ذات طابع أناني ومحدد أكثر.

١ سبتمبر ٢٢١٣

لا شك أن هناك شيئًا جديدًا يحدث. فعلى مدار الأيام العشرة الماضية، ومنذ أن خرجنا من الحوض وانتهت المناورة، ونحن نقترب من مصدر ضوء منعزل يبعد عن نجم الشعرى اليمانية بحوالي ثلاثين وحدة فلكية. كيَّف ريتشارد ببراعة قائمة المستشعرات والشاشة السوداء بحيث يصبح مصدر الضوء في مركز جهاز المراقبة دائمًا بصرف النظر عن نوع التلسكوب الراميِّ الذي يراقبه.

منذ ليلتين بدأت بعض ملامح هذا الجسم تتضح لنا. افترضنا أنه قد يكون كوكبًا مأهولًا، وأسرع ريتشارد وأخذ يحسب مقدار الحرارة المنبعثة من الشعرى اليمانية إلى كوكب يبعد عنه مسافة مساوية تقريبًا لبُعد نبتون عن شمسنا. فوجد أن جنتنا — إذا كان هذا الجسم هو بالفعل وجهتنا — ستكون باردة جدًّا مع أن الشعرى اليمانية أكبر من الشمس وأشد منها سطوعًا وحرارةً.

ليلة أمس، رأينا هدفنا رؤيةً أكثر وضوحًا. فوجدنا أنه عبارة عن بنية ممدودة الشكل (لذا يقول ريتشارد إنه لا يمكن أن يكون كوكبًا؛ فأي شيء ب «هذا الحجم» وليس مستديرًا «لا بد أن يكون صناعيًّا») على هيئة سيجار، يميزه صفان من الأضواء من أعلى ومن أسفل. ونحن لا نعرف حجمه بالتحديد لأننا لا نعرف كم يبعد عنا بالضبط. ولكن ريتشارد كان يقوم ببعض «التخمينات» بناء على السرعة التي نقترب بها منه، ويعتقد أن طول السيجار يبلغ حوالي مائة وخمسين كيلومترًا وأن ارتفاعه يبلغ خمسين كيلومترًا.

كان كل أفراد الأسرة جالسين في الحجرة الرئيسية وهم يحدقون في الشاشة. هذا الصباح قابلتنا مفاجأة أخرى. فقد أرتنا كيتي أن هناك مركبتين أخريين بجوار هدفنا. كان ريتشارد قد علَّمها الأسبوع الماضي كيف تغير المستشعرات الراميَّة التي تمد الشاشة السوداء بالمعلومات، وبينما كنا جميعًا نتجاذب أطراف الحديث، استخدمت المستشعر الراداري البعيد الذي استخدمناه لأول مرة منذ ثلاثة عشر عامًا لتحديد موقع الصواريخ النووية التي أطلقتها الأرض. فظهر الجسم الذي على هيئة السيجار على طرف مجال رؤية الرادار. وظهر أمامه مباشرةً على شاشة الرادار جسمان آخران يكاد يكون من الصعب تمييزهما في هذا المجال الواسع. إذا كان السيجار العملاق هو وجهتنا، فمن المحتمل أن نكون على وشك لقاء آخرين غيرنا.

٨ سبتمبر ٢٢١٣

مهما حاولت، فلن يسعني أن أصف الأحداث المذهلة التي وقعت على مدار الأيام الخمسة الماضية وصفًا وافيًا. فاللغة تعجز عن توفير صيغ التفضيل المناسبة التي تستطيع أن تعبر عما رأيناه وعشناه. حتى إن مايكل نفسه علق بأن صورة الجنة قد تتضاءل مقارنة بالعجائب التي رأيناها.

في هذه اللحظة، تستقل أسرتنا مركبة فضائية صغيرة بلا قائد لا يزيد حجمها عن حجم الحافلات البسيطة على كوكب الأرض، انطلقت بنا من محطة الترانزيت متوجهةً إلى وجهة لا نعرفها. كنا نستطيع رؤية محطة الترانزيت التي على هيئة سيجار — وإن كان بصعوبة — من النافذة التي على هيئة قبة والتي تقع في مؤخرة المركبة. وعن يسارنا، رأينا السفينة الأسطوانية التي نسميها راما، والتي ظلت وطنًا لنا طوال ثلاثة عشر عامًا، وهي تسير في اتجاه مختلف قليلًا عن اتجاهنا. وقد غادرت محطة الترانزيت بعد أن غادرناها بساعات قليلة، وهي مضاءة من الخارج كشجرة عيد الميلاد، وهي يفصلها عنا الآن نحو مائتي كيلومترٍ.

منذ أربعة أيام وإحدى عشرة ساعة وصلت سفينتنا الراميَّة إلى محطة ملحقة بمحطة الترانزيت. كانت مركبتنا هي المركبة الثالثة في صف مذهل من السفن. فكانت أمامنا مركبة دوارة على شكل نجمة البحر يبلغ حجمها عُشر حجم راما، ومركبة أخرى أشبه بعجلة عملاقة لها محور وأسلاك دخلت إلى محطة الترانزيت بعد أن توقفنا بساعات.

أما محطة الترانزيت نفسها فقد اتضح أنها مجوفة. وعندما انتقلت العجلة العملاقة إلى وسطها اندفعت منها الرافعات المتنقلة وبعض العناصر القابلة للانتشار لتلتحم بالعجلة وتثبتها بإحكام. ثم تحركت من محطة الترانزيت مجموعة مركبات خاصة لها ثلاثة أشكال غريبة (إحداها تشبه البالون والأخرى تشبه المنطاد والثالثة تشبه كرة الأعماق المستخدمة على كوكب الأرض) ودخلت في العجلة. ومع أننا لم نستطع رؤية ما الذي يحدث بداخل العجلة فقد رأينا تلك المركبات الخاصة تخرج واحدة تلو الأخرى على فترات غير منتظمة على مدار اليومين التاليين. ثم التحمت كل مركبةٍ بمكوك كالذي نستقله الآن ولكن يكبره في الحجم. وكانت هذه المكوكات واقفة في الظلام على الجانب الأيمن من محطة الترانزيت ثم جرى تركيبها بإحكام قبل أن تلتحم بمركبتنا بثلاثين دقيقة أو نحو ذلك.

كانت المكوكات دائمًا ما تنطلق في اتجاه معاكس للصف الذي نحن فيه فور تحميلها. وبعد نحو ساعة من خروج المركبة الأخيرة من العجلة ومغادرة المكوك الأخير، تراجعت

أجزاء المعدات الميكانيكية التي كانت ملحقة بالعجلة وخرجت المركبة المستديرة الهائلة نفسها من محطة الترانزيت.

كانت نجمة البحر التي أمامنا قد دخلت بالفعل إلى محطة الترانزيت وبدأت مجموعة أخرى من الرافعات والأدوات الملحقة تتعامل معها عندما انطلق صوت صافرة مدوية لاستدعائنا للصعود إلى أعلى راما. وتبع الصفارة عرض ضوئي في التجويف الجنوبي. غير أن هذا العرض كان مختلفًا تمامًا عن العروض التي رأيناها من قبل. إذ كان البرج الكبير هو نجم العرض الجديد. فقد تكونت حلقات لونية دائرية قرب قمته ثم اتجهت ببطء نحو الشمال وتمركزت حول محور دوران راما. كانت الحلقات ضخمة إذ قدر ريتشارد أن قطرها يبلغ كيلومترًا على الأقل وأن سمكها يبلغ أربعين مترًا.

كانت ثمانٍ من تلك الحلقات تضيء ليل راما المظلم. وظل ترتيب الحلقات ثابتًا طوال ثلاث دورات: أحمر فبرتقالي فأصفر فأخضر فأزرق فبني فوردي فأرجواني. وكلما تبددت حلقة واختفت قرب محطة الترحيل الرئيسية في التجويف الشمالي لراما، تكونت حلقة جديدة من نفس اللون قرب قمة البرج الكبير.

تسمَّرنا في أماكننا وقد فغرنا أفواهنا ونحن نتأمل المشهد. وما إن تلاشت الحلقة الأخيرة من المجموعة الثالثة، حتى وقع حدث مدهش آخر. إذ أضاءت راما من الداخل بالكامل. هذا مع أن الليل كان قد حلَّ عليها منذ ثلاث ساعات فقط، ومبعث دهشتنا هو أن تتابع الليل والنهار ظل منتظمًا انتظامًا تامًّا طوال ثلاث عشرة سنة. والآن تغير كل هذا فجأة. ولم يقتصر الأمر على الأضواء وحسب. فقد سمعنا صوت موسيقى أيضًا، أو على الأقل هذا هو المسمى الذي أظن أنه يمكننا إطلاقه على ما سمعناه. فقد كان الصوت يشبه صوت رنين ملايين الأجراس الصغيرة وبدا أنه يصدر من كل الجهات.

لم يُحرِّك أيٌّ منا ساكنًا مدة ثوانٍ عديدة. ثم لمح ريتشارد — الذي كانت معه أفضل نظارة مكبرة — شيئًا يطير باتجاهنا. وصاح وهو يقفز مشيرًا إلى السماء قائلًا: «إنها المخلوقات الطائرة. تذكرت شيئًا لتوِّي. لقد زرتها في موطنها الجديد في الشمال أثناء رحلتي.»

ألقى كلٌّ منا نظرةً مستخدمًا نظارة ريتشارد المكبرة. في البداية لم نكن متأكدين من أن ريتشارد نجح في تحديد هوية تلك المخلوقات، ولكن حين اقتربت منا بدأت البقع الخمسون أو الستون تتحول إلى مخلوقات ضخمة شبيهة بالطيور المعروفة لدينا باسم المخلوقات الطائرة. وتوجهت مباشرةً إلى نيويورك. حلَّق نصف المخلوقات الطائرة في السماء فوق ملجئها ربما بثلاثمائة مترٍ، بينما هبط النصف الآخر على السطح.

هتفت كيتي: «هيا يا أبي. لنذهب.»

قبل أن أهم بالاعتراض، كان الأب وابنته قد انطلقا في لمح البصر. فراقبت كيتي وهي تركض. كانت سريعة جدًّا بالفعل. وبعينَي الخيال رأيت خطوة أمي الرشيقة على الحشائش في الحديقة في شيلي-مازارن؛ بالتأكيد ورثت كيتي بعض صفات عائلة والدتها مع أنها ابنة والدها في المقام الأول.

كان بينجي وسيمون قد بدآ بالفعل يتوجهان صوب ملجئنا. أما باتريك فكان متخوفًا من المخلوقات الطائرة. وتساءل: «هل ستؤذي العم ريتشارد وكيتي؟»

ابتسمت في وجه ولدي الوسيم ذي السنوات الخمس. وأجبته: «لا يا حبيبي، ما داموا حذرين.» ثم رجعت أنا ومايكل وباتريك وإيلي إلى ملجئنا لنشاهد العملية التي يخضع لها نجمة البحر في محطة الترانزيت.

لم نستطع أن نرى الكثير لأن كل منافذ دخول نجمة البحر كانت على الجانب الآخر الذي يبعد عن كاميرات راما. ولكننا خمَّنا أنه يجري تفريغ حمولة المركبة؛ لأن خمسة مكوكات رحلت في نهاية الأمر إلى وجهة جديدة. انتهت عملية تفريغ الحمولة من المركبة بسرعة بالغة. وكانت قد غادرت محطة الترانزيت بالفعل قبل أن يعود ريتشارد وكيتي.

وما إن وصل ريتشارد، حتى قال لاهثًا: «ابدءوا حزم أمتعتكم. سنرحل. جميعنا سنرحل.»

قالت كيتي لسيمون في نفس الوقت تقريبًا: «كان يجب أن تريها. إنها ضخمة. وقبيحة أيضًا. لقد نزلت في ملجئها ...»

قاطعها ريتشارد قائلًا: «عادت المخلوقات الطائرة لتحضر أشياء تهمها من ملجئها. ربما تود إحضار تذكارات من نوع ما. على أي حال، الصورة تتكامل. إننا راحلون من هنا.»

كنت ألملم حاجياتنا الأساسية في بعض الصناديق القوية، ووبخت نفسي لأنني لم أفهم كل شيء بسرعة. لقد رأينا العجلة ونجمة البحر يفرغان حمولتهما في محطة الترانزيت. ولكننا لم نفهم أننا قد نكون نحن الحمولة التي ستفرغها راما.

كان من العسير جدًّا اختيار الأمتعة التي علينا أن نحزمها. فقد ظللنا نعيش في هذه الحجرات الست (وفيها الحجرتان اللتان استخدمناهما للتخزين) طوال ثلاثة عشر عامًا. وكنا نطلب خمسةَ أشياء في المتوسط يوميًّا باستخدام لوحة المفاتيح. صحيح أن معظم هذه الحاجيات تخلصنا منها منذ وقت طويل ولكن ... إننا لم نعرف إلى أين نحن ذاهبون. فكيف لنا أن نعرف ماذا نأخذ معنا؟

سألت ريتشارد: «هل لديك أية فكرة عما سيحل بنا؟»

كان زوجي في حالة انفعال شديدة وهو يحاول التوصل لطريقة تتيح له اصطحاب جهاز الكمبيوتر الضخم الخاص به. وقال وهو يشير إلى الكمبيوتر في قلق: «تاريخنا وعلومنا وكل ما تبقى من معارفنا في هذا الكمبيوتر. ماذا لو فقدناه نهائيًّا؟»

كان وزن الكمبيوتر يبلغ ثمانية كيلوجرامات فقط. لذا أخبرته أننا يمكن أن نساعده في حمله بعد أن نحزم ملابسنا وحاجياتنا الخاصة وبعض الطعام والماء.

ثم سألت ريتشارد مرة أخرى: «هل لديك أية فكرة عن المكان الذي سنذهب إليه؟»

هز ريتشارد كتفيه. وأجاب: «ولا أدنى فكرة. ولكن أيًّا كان المكان الذي سنذهب إليه، أراهن أنه سيكون مذهلًا.»

جاءت كيتي إلى حجرتنا. وكانت ممسكة بحقيبة صغيرة وعيناها تلمعان من فرط الانفعال. وقالت: «لقد حزمت أمتعتي وأنا مستعدة. هل يمكنني أن أنتظركم في الأعلى؟»

لم يكد والدها يؤمئ برأسه موافقًا حتى انطلقت خارجةً من الباب. فهززت رأسي ونظرت إلى ريتشارد نظرة اعتراض، وذهبت إلى الردهة لأساعد سيمون في تولي أمور باقي الأطفال. تسببت عملية حزم حاجيات الولدين في معاناتنا. إذ كان بينجي قلقًا ومرتبكًا. بل إن باتريك نفسه كان نزقًا، وعندما عاد ريتشارد وكيتي من أعلى، كنت قد انتهيت أنا وسيمون لتوِّنا (فقد ظل إنجاز هذه المهمة مستحيلًا إلى أن أجبرنا الولدين على النوم).

قال ريتشارد بهدوء كابحًا انفعاله: «وصلت مركبتنا.»

أضافت كيتي وهي تخلع سترتها الثقيلة وفردتَي قفازها: «هي متوقفة على الجليد.»

سأل مايكل: «ومن أدراك أنها مركبتنا؟» وكان قد دخل الحجرة بعد ريتشارد وكيتي بدقائق قليلة.

أجابت ابنتي ذات الأعوام العشرة: «بها ثمانية مقاعد ومساحة لحقائبنا. فلما غيرنا ستكون إذن؟»

فقلت تلقائيًّا: «من»، محاولةً أن أستوعب هذه المعلومة الأخيرة الجديدة. فقد شعرت وكأنني كنت أدور كالثور في ساقية طوال الأيام الأربعة السابقة.

سأل باتريك: «هل رأيتما أيًّا من مخلوقات الأوكتوسبايدر؟»

فكرر بينجي بعناية: «أوك...تو...سبايـ...ـدر.»

أجابت كيتي: «لا، ولكننا رأينا أربع طائرات ضخمة، جانبها السفلي مسطح ولها أجنحة عريضة. وقد طارت من فوقنا وهي قادمة من الجنوب. ونعتقد أنها تحمل كائنات الأوكتوسبايدر، أليس كذلك يا أبي؟»

أومأ ريتشارد برأسه موافقًا.

تنفست نفسًا عميقًا. وقلت: «حسنٌ، إذن. هيا تجمعوا. ولنذهب. احملوا الحقائب أولًا. وبعد هذا سأعود أنا وريتشارد ومايكل لنأخذ الكمبيوتر.»

بعد ساعة كنا جميعًا بداخل المركبة. وكنا قد صعدنا سلم ملجئنا لآخر مرة. ضغط ريتشارد على زر أحمر مضيء فارتفعت المروحية الراميَّة عن الأرض (أسمي المركبة مروحية لأنها ارتفعت بنا لأعلى في خط عمودي، لا لأن لها ريَشًا دوارة).

في الدقائق الخمس الأولى، كانت رحلتنا بطيئةً وتتخذ طريقًا رأسيًّا. لكن ما إن اقتربنا من محور دوران راما حيث تنعدم الجاذبية وتقل كثافة الغلاف الجوي، حتى حلَّقت المركبة بثباتٍ دقيقتين أو ثلاث دقائق وهي تغير شكلها الخارجي.

كانت آخر صورة رأيناها لراما رائعة. فتحت مركبتنا بعدة كيلومترات بدت الجزيرة التي كانت موطننا مجرد بقعة صغيرة ذات لون بني ضارب إلى الرمادي، واقعةً في منتصف بحر مجمد يطوق الأسطوانة العملاقة. ورأيت الأبراج في الجنوب رؤيةً أوضح من ذي قبل. فوجدت أن هذه الأوتاد الشاهقة المدهشة تدعمها دعامات طائرة يفوق حجمها حجم المدن الصغيرة على الأرض، وهي تشير جميعها إلى الشمال مباشرةً.

جاشت مشاعري على نحو غريب عندما بدأت مركبتنا تتحرك مرة أخرى. فبالرغم من كل شيء، ظلت راما موطنًا لي طوال ثلاثة عشر عامًا. وفيها أنجبت أبنائي الخمسة. وأتذكر أيضًا أنني حدثت نفسي قائلةً إنني قد وصلت إلى النضج هنا، وربما أتحول إلى الشخصية التي طالما تمنيت أن أكون عليها هنا.»

لم يكن أمامي الكثير من الوقت لأطيل تأمل ما حصل. ففور الانتهاء من تغيير الشكل الخارجي، اندفعت مركبتنا عبر محور الدوران متوجهةً إلى المحور الشمالي في دقائق قليلة. وبعد هذا بأقل من ساعة كنا جميعًا في أمان على متن هذا المكوك. لقد رحلنا من راما. وكنت واثقة أننا لن نعود إليها أبدًا. فكفكفت دموعي والمكوك يخرج من محطة الترانزيت.

في النود

١

كانت نيكول ترقص. كان شريكها في رقصة الفالس هو هنري. كانا شابين وعاشقين متيمين. وكانت الموسيقى الجميلة تملأ قاعة الرقص الهائلة ويتحرك في جنباتها نحو عشرين راقصًا وراقصة في تناغم. كانت نيكول تبدو فاتنة في ثوبها الأبيض الطويل. ولم يرفع هنري عينيه عن عينيها. كان يمسك خصرها بقوة، ومع هذا كانت تشعر على نحو ما أنها تتمتع بحريتها كاملةً.

كان والدها أحد الواقفين حول حافة ساحة الرقص. وكان يتكئ على عمود ضخم يرتفع بمقدار عشرين قدمًا تقريبًا إلى السقف ذي القبة. وعندما اقتربت منه نيكول وهي ترقص بين ذراعي أميرها لوَّح لها وابتسم.

بدا أن رقصة الفالس لن تتوقف أبدًا. وعندما انتهت، أمسك هنري بيدَي نيكول وقال لها إنه يريد أن يطلب منها شيئًا مهمًّا جدًّا. لكن في هذه اللحظة لمس والدها ظهرها. وهمس لها قائلًا: «يجب أن نرحل يا نيكول. فقد تأخر الوقت كثيرًا.»

انحنت نيكول للأمير. فبدا عليه أنه لا يريد أن يترك يديها. وقال: «غدًا. سنتحدث غدًا.» وبعث إليها بقبلة في الهواء وهي تغادر ساحة الرقص.

عندما خرجت نيكول من القاعة كانت الشمس أوشكت أن تغيب. وكانت سيارة والدها تنتظرها. وبعد هذا بلحظات كانت ترتدي قميصًا وبنطال جينز وهي جالسة بجوار والدها في السيارة المنطلقة بسرعة في الطريق السريع الواقع على ضفة نهر لوار. كانت نيكول أصغر سنًّا الآن — في الرابعة عشرة تقريبًا — ووالدها كانت يقود السيارة بسرعة أكبر من المعتاد. قال والدها: «لا نريد أن نتأخر. فالمهرجان يبدأ في الثامنة.»

لاحت لهما قلعة أوسيه. كانت هذه القلعة بأبراجها وقممها المستدقة العديدة هي التي ألهمت شارل بيرو كتابة النسخة الأصلية من قصة «الجمال النائم». وتقع القلعة جنوب النهر على بعد كيلومترات قليلة من بوفوا، وتعد دائمًا أحد الأماكن المفضلة لوالدها.

في كل عام عشية المهرجان السنوي تُعرض قصة «الجمال النائم» أمام الجمهور. وتحضر نيكول العرض مع بيير كل عام. وفي كل مرة كانت نيكول تتمنى من أعماقها أن تنجو أورورا من المغزل المميت الذي يؤدي إلى إصابتها بغيبوبة. وفي كل عام كانت تسكب الدموع عندما تستيقظ الجميلة النائمة من نومها الشبيه بالموت نتيجة قبلة الأمير الوسيم.

انتهى المهرجان، ورحل الجمهور. فصعدت نيكول درجات السلم الدائري الذي يؤدي إلى البرج حيث من المفترض أن تكون الجميلة النائمة الحقيقية قد راحت في غيبوبة وهي داخله. كانت الصبيَّة تصعد السلم مسرعة وهي تضحك، ووالدها وراءها بمسافة كبيرة.

تقع غرفة أورورا على الجانب المقابل للنافذة الطويلة. شهقت نيكول وهي تحدق في الأثاث الفخم. فالسرير تعلوه ظُلة، ومناضد الزينة تكسوها زخارفُ أنيقةٌ. وكل ما في الغرفة مزدان بزينة بيضاء. كانت غرفة رائعة. عادت نيكول ببصرها إلى الفتاة النائمة وشهقت. لقد كانت الفتاة هي نيكول ترقد على السرير مرتديةً فستانًا أبيض!

خفق قلبها بقوة وهي تسمع صوت الباب يُفتح، وتسمع وقع الأقدام تتجه إليها في الغرفة. ظلت عيناها مغمضتين ورائحة أنفاسه المشبعة بالنعناع تتسلل إلى أنفها. وأحست بسعادة غامرة. طبع قبلة رقيقة على شفتيها. فشعرت وكأنها تطير فوق أرقِّ سحابة. وتعالت نغمات الموسيقى حولها. ففتحت عينيها ورأت هنري يبتسم في وجهها على بعد سنتيمترات قليلة. فمدت ذراعيها إليه فقبلها مرة أخرى، ولكن هذه المرة بحرارة جارفة.

قبلته نيكول، دون أدنى محاولة منها لإخفاء مشاعرها، وأخبرته بقبلتها أنها أصبحت له. ولكنه ابتعد. وقد عقد حاجبيه. وأشار إلى وجهها. ثم تراجع ببطء إلى الخلف وغادر الغرفة.

ما إن بدأت تبكي حتى اقتحم حلمها صوت قادم من بعيد. كان هناك باب ينفتح، وبدأ الضوء يدخل الغرفة. فأخذت تطرف بعينيها، ثم أغمضت عينيها لتحميهما من الضوء. عادت مجموعة الأسلاك الرفيعة جدًّا المصنوعة من مادة شبيهة بالبلاستيك التي كانت ملتصقة بجسدها تلقائيًّا إلى أماكنها على جانبَي فراشها المصنوع من الخيش.

استيقظت نيكول ببطء شديد. كان الحلم واضحًا كفلق الصبح. ولم يتلاشَ إحساسها بالحزن كما تلاشى الحلم. فحاولت أن تواجه حزنها بتذكير نفسها بأن هذا مجرد حلم.

«هل ستظلين نائمة إلى الأبد؟» هكذا قالت كيتي، التي كانت نائمة إلى يسارها، مستيقظة ومائلة فوقها.

ابتسمت نيكول. وقالت: «كلَّا، لكني أعترف أنني أشعر بالدوار بعض الشيء. كنت في منتصف حلم ... كم نمنا هذه المرة؟»

أجابت سيمون وهي في الجانب الآخر: «ما يقل عن خمسة أسابيع بيوم.» كانت ابنتها الكبرى جالسةً تسوي شعرها الطويل الذي تشابك أثناء الاختبار بلا مبالاة.

نظرت نيكول في ساعتها وجلست بعد أن تأكدت أن سيمون على صواب. ثم تثاءبت. وقالت للفتاتين: «بم تشعران؟»

أجابت كيتي ذات الأحد عشر عامًا بابتسامة عريضة قائلةً: «كلي طاقة. أريد أن أجري وأقفز وأتصارع مع باتريك ... أتمنى أن تكون هذه آخر مرة ننام فيها طويلًا.»

أجابت نيكول: «يقول الرجل النسر إن هذه ستكون آخر مرة. وهم يأملون أن يكونوا قد حصلوا على ما يكفي من البيانات.» ثم ابتسمت. وتابعت حديثها قائلة: «يقول الرجل النسر إن فهم النساء أصعب من فهم الرجال؛ بسبب التغيرات الشهرية الشديدة التي تطرأ على هرموناتنا.»

وقفت نيكول وتمطت وقبلت كيتي. ثم اتجهت نحو سيمون وعانقتها. ومع أن سيمون لم تبلغ الرابعة عشرة، فقد كانت في نفس طول نيكول تقريبًا. وكانت شابة رائعة ذات وجه بني غامق وعينين رقيقتين. ودائمًا ما كانت تبدو هادئةً رصينةً، وهي بذلك النقيض التام لكيتي الميالة دائمًا إلى الحركة والنشاط وسرعة السأم.

سألت كيتي متذمرةً قليلًا: «لماذا لم تخضع إيلي معنا لهذا الاختبار؟ إنها فتاة مثلنا، ولكن يبدو أنها غير ملزمة بالقيام بأي شيء.»

أحاطت نيكول كيتي بذراعها وهن الثلاث متوجهات نحو الباب والنور. وقالت: «إنها لم تتجاوز الرابعة من عمرها يا كيتي، وكما قال الرجل النسر، إنها صغيرة الحجم بدرجة تحول دون تمكنهم من الحصول على أي معلومات مهمة يحتاجونها.»

ارتدين بذلاتهن الضيقة، وخوذاتهن الشفافة، والأحذية التي تثبت أقدامهن على الأرض في الفناء الصغير المضاء الذي يتفرع مباشرة من الغرفة التي نمن فيها نحو خمسة أسابيع. تحققت نيكول بعناية من أن زي الفتاتين في موضعه قبل أن تضغط على الزر لتفتح باب المقصورة الخارجي. لم يكن هناك داعٍ للقلق. فالباب لم يكن ليُفتح في حالة عدم استعداد أيٍّ منهن لمواجهة التغيرات البيئية.

لو لم تكن نيكول قد رأت هي والفتيات الغرفة الكبيرة الواقعة خارج مقصورتهن عدة مرات من قبل، لتسمَّرن دهشةً وعجزن عن رفع أعينهن عنها قبل عدة دقائق. إذ كانت هناك غرفة طويلة تمتد أمامهن يبلغ طولها مائة مترٍ أو أكثر ويبلغ عرضها خمسين مترًا. ويصل ارتفاع السقف فوقهن إلى نحو خمسة أمتار ويعج بصفوف من المصابيح. وتجمع الغرفة بين خصائص غرف العمليات بالمستشفيات ومصانع أشباه الموصلات على كوكب الأرض. ولم تكن لها حوائط داخلية كبيرة أو صغيرة تقسمها إلى وحدات منفصلة، غير أنه من الواضح أن أجزاءها مستطيلة الشكل كانت مخصصة لمهام مختلفة. وكانت الغرفة تموج بالنشاط؛ فالآليون ما بين محلل للبيانات التي أظهرتها مجموعة من مجموعات الاختبار وقائم بالاستعدادات اللازمة للحصول على مجموعة أخرى. وتوجد بطول حافة الغرفة مقصورات تُجرى فيها «التجارب» وتشبه المقصورة التي نامت فيها نيكول وسيمون وكيتي نحو خمسة أسابيع.

ذهبت كيتي إلى أقرب مقصورة تقع إلى اليسار. وكانت غائرة في الركن ومعلقة على محورين عموديين يربطانها بالحائط والسقف. وإلى جوار بابها المعدني توجد شاشة عرض تظهر عليها مجموعة كبيرة مما يُعتقد أنه بيانات مكتوبة بحروف مسمارية غريبة.

سألت كيتي وهي تشير إلى المقصورة: «ألم نكن في هذه الغرفة المرة السابقة؟ أليس هذا هو المكان الذي نمنا فيه على ذلك الفوم الأبيض الغريب وشعرنا فيه بالضغط بأكمله؟»

انتقل سؤالها إلى خوذتَي والدتها وأختها. فأومأتا برأسيهما ثم أخذتا تحدقان معها في الشاشة التي تظهر بها كتابة غير مفهومة.

قالت نيكول: «يعتقد والدك أنهم يحاولون التوصل إلى وسيلة تجعلنا ننام أثناء مدة زيادة السرعة التي تستمر عدة أشهر. لكن الرجل النسر لن يؤكد هذا التخمين أو ينكره.»

مع أن النساء الثلاث مررن معًا بأربعة اختبارات منفصلة في هذا المعمل، فلم ترَ أيٌّ منهن أي شكل من أشكال الحياة أو الذكاء باستثناء الكائنات الفضائية الآلية التي يبلغ عددها اثني عشر أو نحو ذلك، ويبدو أنها مسئولة عن القيام بهذه المهمة. يطلق البشر على هذه الكائنات «المكعبات الآلية» لأنها كلها عبارة عن قطع مستطيلة مصمتة تشبه المكعبات التي يلعب بها الأطفال على كوكب الأرض، باستثناء «الأقدام» الأسطوانية التي تمكنها من التدحرج على الأرض.

سألت كيتي الآن: «في رأيك، لماذا لم نرَ قط أيًّا من الكائنات الآخرى؟ أعني هنا. إننا نراها لمدةِ ثانية أو ثانيتين في العربة الناقلة وحسب. ونحن ندري بوجودهم وأننا لسنا الوحيدين الذين يخضعون للاختبار.»

أجابت والدتها: «جدول هذه الغرفة منظم بعناية شديدة. من الواضح أنهم لا يريدوننا أن نرى الآخرين، اللهم إلا إذا كانت رؤية عابرة.»

واصلت كيتي أسئلتها بإصرار: «ولكن لماذا؟ كان يجب على الرجل النسر أن ...»

قاطعتها سيمون قائلة: «معذرة. ولكنني أعتقد أن المكعب الكبير قادم لرؤيتنا.»

عادةً ما يجلس أكبر المكعبات الآلية في منطقة التحكم المربعة الواقعة في وسط الغرفة ويراقب كل التجارب التي تُجرى. في تلك اللحظة كان يسير باتجاههن في أحد ممرات الغرفة التي تتخذ معًا شكل شبكة.

ذهبت كيتي إلى مقصورة أخرى على بعد حوالي عشرين مترًا. واستدلت من النشاط الظاهر في الشاشة المعلقة على حائطها الخارجي على أن هناك تجربة تجرى بالداخل.

وفجأة، أخذت تدق على المعدن دقًّا عنيفًا بيدها التي يغطيها القفاز.

صاحت نيكول: «كيتي.»

في نفس الوقت صدر صوت من المكعب الكبير. قال: «توقفي.» كان على بعد نحو خمسين مترًا وأخذ يقترب منهن بسرعة كبيرة. وقال بلغة إنجليزية سليمة ولكن بلهجة تخلو من أي تعبير: «يجب ألا تفعلي هذا.»

قالت كيتي بتحدٍّ والمكعب الكبير الذي يبلغ طوله خمسة أمتار يتجاهل نيكول وسيمون ويتوجه نحو الفتاة الصغيرة مباشرةً: «وما الذي ستفعله؟!» فأسرعت نيكول نحو ابنتها لتحميها.

قال المكعب الكبير وقد أصبح لا يفصله عن نيكول وكيتي سوى مترين: «يجب أن ترحلن الآن. لقد انتهى اختباركن. ستجدن المخرج هناك عند الأضواء التي تضيء وتنطفئ.»

شدت نيكول ذراع كيتي بحزم، فسارت معها الفتاة تجاه المخرج على مضض. فقالت كيتي في عناد: «ولكن ماذا سيفعلون لو قررنا أن نظل هنا حتى تنتهي تجربة أخرى؟ من يدري؟ ربما يكون واحد من كائنات الأوكتوسبايدر هنا الآن. لماذا لا يسمحون لنا أبدًا بأن نلتقي بأي كائن آخر؟»

أجابت نيكول وقد بدت في صوتها مسحة من الغضب: «لقد شرح الرجل النسر أكثر من مرة أنه في خلال «هذه المرحلة» لن يسمح لنا إلا برؤية المخلوقات الأخرى دون أي تواصل آخر معها. وقد سأل والدك عن السبب مرارًا وتكرارًا وكان الرجل النسر دائمًا ما يجيب بأننا سنكتشف في الوقت المناسب ... آمل أن تحاولي الكف عن العناد، أيتها الصغيرة.»

تذمرت كيتي قائلةً: «هذا لا يختلف كثيرًا عن السجن. نحن لا نتمتع إلا بأقل قدر من الحرية هنا. وهم لا يجيبون أبدًا عن الأسئلة المهمة.»

كن قد وصلن إلى الممر الطويل الذي يربط المعمل بمركز المواصلات. فوجدن مركبة صغيرة في انتظارهن بجانب رصيف متحرك. وعندما دخلن انغلق الجانب العلوي من السيارة عليهن وأُضيئت الأنوار الداخلية. قالت نيكول لكيتي وهي تخلع خوذتها بعد أن بدأت السيارة تتحرك: «قبل أن تسألي، أخبرك أنه غير مسموح لنا برؤية ما بالخارج أثناء هذه المرحلة من الانتقال لأننا نمر بأجزاء من الوحدة الهندسية غير مسموح لنا بالحصول على معلومات عنها. وقد طرح والدك والعم مايكل أسئلة حول هذا الموضوع بعد اختبار النوم الأول الذي مروا به.»

بعد دقائق من الصمت، سألت سيمون: «هل تتفقين مع والدي في أننا نمر بكل اختبارات النوم هذه تمهيدًا لرحلة فضائية ما؟»

أجابت نيكول: «يبدو هذا محتملًا. ولكننا لسنا متأكدين، بالطبع.»

سألت كيتي: «وإلى أين سيرسلوننا؟»

أجابت نيكول: «ليست لدي أدنى فكرة. فالرجل النسر يراوغنا بشدة عندما نطرح أي سؤال يتعلق بمستقبلنا.»

كانت السيارة تنطلق بسرعة نحو عشرين كيلومترًا في الساعة. وتوقفت بعد خمس عشرة دقيقة من السير. انحسر «غطاء» المركبة حالما ارتدين خوذاتهن جميعًا ثانيةً. وخرج النساء إلى مركز المواصلات الرئيسي التابع للوحدة الهندسية. كان تصميم المركز دائريًّا ويبلغ ارتفاعه عشرين مترًا. وكان يضم مبنيَين ضخمين متعددَي الطوابق تنطلق منهما عربات ناقلة أنيقة، بالإضافة إلى بضعة أرصفة متحركة تؤدي إلى أماكن تقع داخل الوحدة. تنقل هذه القطارات المعدات والآليين والكائنات الحية من وإلى وحدة الإسكان والوحدة الهندسية ووحدة الإدارة، وهي المجمعات الثلاثة الضخمة الكروية الشكل التي تمثل المكونات الرئيسية للنود.

ما إن دخلت نيكول وابنتاها إلى المحطة، حتى سمعن صوتًا في سماعات الاستقبال المركبة في خوذاتهن. كان يقول: «عربتكن في الطابق الثاني. اركبن المصعد الموجود إلى اليمين. ستغادر العربة في غضون أربع دقائق.»

أدارت كيتي عينيها في المكان متفحصةً مركز المواصلات. فرأت أرففًا عليها معدات، وسيارات تنتظر لكي تقل المسافرين إلى أماكن تقع داخل الوحدة الهندسية، كما رأت

أضواءً ومصاعد وأرصفة محطات. غير أن كل شيء كان ساكنًا، ولم يكن هناك آليون أو كائنات حية.

قالت لأختها ووالدتها: «ماذا سيحدث لو رفضنا الصعود إلى أعلى؟» ثم توقفت في منتصف المحطة. وصاحت وهي تنظر إلى السقف المرتفع قائلةً: «عندها لن يسير جدولكم كما خططتم.»

قالت نيكول بنفاد صبر: «كفى، يا كيتي، لقد سبق وناقشنا هذا الأمر منذ قليل في المعمل.»

عادت كيتي إلى السير. وقالت متذمرةً: «ولكنني أريد حقًّا أن أرى شيئًا مختلفًا. أعرف أن هذا المكان لا يكون خاليًا هكذا طوال الوقت. لماذا إذن يعزلوننا؟ وكأننا نفتقر إلى النظافة أو شيء من هذا القبيل؟»

قال الصوت الآلي: «ستغادر عربتكن خلال دقيقتين. توجهن إلى الطابق الثاني على اليمين.»

عندما وصلن إلى المصعد علَّقت سيمون قائلةً: «أليس من المدهش أن الآليين والمتحكمين في المكان يستطيعون التواصل مع كل نوع بلغته؟»

أجابت كيتي: «أعتقد أن هذا الأمر غريب. كم أود لو رأيت الكائن أو الشيء الذي يتحكم في هذا المكان يرتكب خطأً، ولو لمرة واحدة. كل شيء هنا متقن إلى حد مبالغ فيه. كم أود أن يتحدثوا إلينا بلغة المخلوقات الطائرة. أو أسمعهم وهم يكلمون المخلوقات الطائرة نفسها.»

في الطابق الثاني، مَشَين ببطء على رصيف مسافة أربعين مترًا تقريبًا حتى وصلن إلى مركبة شفافة على شكل رصاصة في نفس حجم سيارة كبيرة جدًّا من سيارات الأرض. كانت المركبة واقفة كالمعتاد في مسار يقع إلى يسار المنطقة الوسطى. هناك أربعة مسارات متوازية على الرصيف؛ اثنان على الجانب الأيمن من المنطقة الوسطى واثنان على الجانب الأيسر. وكانت جميع المسارات الأخرى شاغرة في الوقت الحالي.

استدارت نيكول ونظرت إلى الجانب الآخر من مركز المواصلات. ورأت بزاوية ستين درجة محطة عربات ناقلة مماثلة. تؤدي العربات الموجودة على الجانب الآخر إلى وحدة الإدارة. كانت سيمون تراقب والدتها. وسألتها: «هل ذهبت إلى هناك من قبل؟»

أجابت نيكول: «لا. ولكنني متأكدة أن هذا سيكون ممتعًا. فوالدك يقول إنها تبدو غريبة على نحو رائع عن قرب.»

قالت نيكول في نفسها: ما أشد ولع ريتشارد بالاستكشاف! وتذكرت تلك الليلة التي مر عليها عام والتي رحل فيها زوجها ليتطفل على إحدى المركبات المتوجهة إلى وحدة

الإدارة. فارتعدت. في تلك الليلة، خرجت إلى الردهة مع ريتشارد وحاولت أن تثنيه عن الخروج وهو يرتدي بذلة الفضاء. وكان قد توصل إلى طريقة يضلل بها مراقب الباب (في اليوم التالي ركب الراميُّون نظامًا جديدًا آمنًا) ولم يطق صبرًا على القيام بجولة «لا يشرف عليها أحد».

في تلك الليلة لم يغمض لنيكول جفن إلا قليلًا. وفي الصباح الباكر كشفت لوحة الأضواء عن وجود شخص ما أو شيء ما في الردهة. وعندما نظرت رأت على الشاشة رجلًا أشبه بطائر يقف هناك حاملًا بين ذراعيه زوجها المغشي عليه. وكان هذا أول لقاء لهما بالرجل النسر ...

ثبت اندفاع العربة أظهرهن للحظات في مساند مقاعدهن وأعاد نيكول إلى الحاضر. ثم انطلقت بهن خارجًا من الوحدة الهندسية. وفي أقل من دقيقة، كن يندفعن بأقصى سرعة في الأسطوانة الطويلة الشديدة الضيق التي تصل بين الوحدتين.

تقع المنطقة الوسطى ومسارات العربات الأربع في منتصف الأسطوانة الطويلة. وإلى اليمين على مدى البصر، كانت أضواء وحدة الإدارة المستديرة تلمع في الفضاء الأزرق. أخرجت كيتي نظارتها المكبرة الصغيرة. وقالت: «أريد أن أكون مستعدة. فهي دائمًا ما تمر بسرعة شديدة.»

وبعد دقائق أعلنت قائلةً: «إنها قادمة»، وتكدس الثلاثة في الجانب الأيمن من المركبة. ورأين في الأفق عربة تقترب على الجانب الآخر من المسار. وبعد ثوانٍ، صارت في جوارهن لكن لم يكن أمامهن سوى ثانية يحدقن خلالها في ركاب المركبة المتجهة إلى الوحدة الهندسية.

قالت كيتي والعربة تندفع بجوارهن: «مذهل!»

وقالت سيمون: «رأيت نوعين مختلفين من المخلوقات.»

قالت كيتي: «مجموع عددهما ثمانية أو عشرة مخلوقات.»

قالت سيمون: «مجموعة ذات لون وردي ومجموعة ذات لون ذهبي. والمجموعتان تضمان مخلوقات مستديرة الشكل في معظمها.»

«ولها مجسات طويلة نحيلة تشبه الخيوط التي تظهر في الهواء حين تكون السماء شديدة الصفاء. كم يبلغ حجمها برأيك يا أمي؟»

فأجابتها نيكول: «قد يصل قطر كلٍّ منها إلى خمسة أو ستة أمتار. إنها أكبر منَّا كثيرًا.»

قالت كيتي مرة أخرى: «مذهل! كان هذا مثيرًا حقًّا.» كان الانفعال يطل من عينيها. هذه الفتاة كانت تهوى الإحساس باندفاع الأدرينالين في جسدها.

حدثت نيكول نفسها قائلةً: «أنا أيضًا لم تتوقف دهشتي أبدًا. ولو مرة واحدة طوال الثلاثة عشر شهرًا الماضية. ولكن هل هذا هو كل شيء؟ هل أحضرونا كل هذه المسافة من الأرض لكي يُجروا علينا الاختبارات؟ ولكي يثيروا اهتمامنا بمعرفة أن هناك كائنات من عوالم أخرى؟ أم أن هناك هدفًا آخر أهم؟»

خيم الصمت دقائق على المركبة المسرعة. قربت نيكول ابنتيها منها؛ إذ كانت تجلس بينهما. وقالت: «تعرفان أني أحبكما، أليس كذلك؟»

أجابت سيمون: «بلى يا أمي. ونحن أيضًا نحبك.»

٢

كان حفل لَمِّ الشمل رائعًا. احتضن بينجي سيمون التي يعشقها حالما دخلت الشقة. وفي خلال أقل من دقيقة ألقت كيتي باتريك على الأرض وثبتته عليها.

وقالت: «انظر، لا يزال بإمكاني أن أغلبك.»

أجاب: «ولكن ليس بسهولة. فأنا أزداد قوةً. ومن الأفضل لك أن تأخذي حذرك بعد هذا.»

احتضنت نيكول ريتشارد ومايكل قبل أن تجري إيلي الصغيرة وتلقي بنفسها بين ذراعيها. وقعت هذه الأحداث في المساء، وتحديدًا بعد العشاء بساعتين وفقًا للساعة المقسمة إلى أربع وعشرين ساعة التي تستخدمها الأسرة، وكانت إيلي على استعداد للخلود إلى النوم عند وصول والدتها وأختيها. فتركتهم وتوجهت إلى غرفتها بعد أن تباهت أمام نيكول بقدرتها على قراءة كلمات «قطة» و«كلب» و«ولد».

ترك الكبار باتريك مستيقظًا إلى أن شعر بالإرهاق. ثم حمله مايكل إلى الفراش وغطته نيكول. فقال: «أنا سعيد بعودتك يا أمي. افتقدتك كثيرًا.»

أجابت نيكول: «وأنا أيضًا افتقدتك كثيرًا. لا أظن أنني سأتغيب طويلًا مرة أخرى.»

قال الطفل ذو السنوات الست: «آمل هذا. فأنا أحب وجودك هنا.»

في الساعة الواحدة صباحًا، كان الجميع نائمين ما عدا نيكول. لم تكن متعبة. ففي النهاية، لقد استيقظت للتو من نوم دام خمسة أسابيع. وبعد أن ظلت راقدة بجوار ريتشارد في ضجر طوال ثلاثين دقيقة قررت أن تتمشى.

ليست هناك نوافذ في شقتهم نفسها، ولكن الردهة الصغيرة التي تتفرع من المدخل لها نافذة تطل على مشهد رائع لرأسَي النود. مشت نيكول إلى الردهة وارتدت بذلة الفضاء ووقفت أمام الباب الخارجي. لم ينفتح الباب. فابتسمت لنفسها. وقالت: «ربما تكون كيتي محقة، ربما نكون مجرد سجناء هنا.» كان من الواضح منذ بداية إقامتهم أن الباب الخارجي كان يجري إغلاقه من وقت إلى آخر؛ إذ أوضح الرجل النسر أن هذا «ضروري» لحمايتهم من رؤية أشياء «لن يستطيعوا فهمها».

نظرت نيكول من النافذة. فرأت في هذه اللحظة مركبة مكوكية لها نفس شكل المركبة التي أقلتهم إلى النود منذ ثلاثة عشر شهرًا، تقترب من مركز المواصلات الملحق بوحدة الإسكان. تساءلت في نفسها: «ترى أي مخلوقات رائعة على متن هذا المكوك؟ وهل تشعر هذه المخلوقات بنفس الدهشة التي شعرنا بها في بداية وصولنا إلى هنا؟»

لن تنسى نيكول أبدًا أول مشهد للنود وقع عليه بصرها. بعد أن رحل جميع أفراد الأسرة من محطة الترانزيت ظنوا أنهم سيصلون إلى المحطة التالية في غضون عدة ساعات. ولكنهم كانوا مخطئين. إذ أخذوا ينفصلون عن مركبة راما المضيئة ببطء، وبعد مرور ست ساعات لم يعد بوسعهم رؤية أي أثر لها عن يسارهم. وبدأت أضواء محطة الترانزيت خلفهم تخفت. وكانوا جميعًا متعبين. وفي نهاية الأمر نام كل أفراد الأسرة.

وبعد هذا، كانت كيتي هي أول من أيقظتهم. إذ صاحت بانفعال جارف وبلهجة ملؤها الانتصار قائلةً: «أرى الوجهة التي نتجه إليها.» ثم أشارت إلى خارج نافذة المكوك الأمامية جهة اليمين قليلًا حيث كان هناك شعاع ضوء قوي ينقسم إلى ثلاثة أفرع. إذ أخذت صورة النود تزداد وضوحًا على مدى الساعات الأربع التالية. كان المشهد خلابًا من هذه المسافة؛ إذ ظهر أمامهم مثلث متساوي الأضلاع تحتل رءوسَه ثلاثُ كرات شفافة متوهجة. يا له من كيان هائل! إن تجربتهم في راما على ما تحويه من عجائب لم تهيئهم لمواجهة عظمة هذا التكوين الهندسي المبتكر. إذ يزيد طول كلٍّ من أضلاعه عن مائة وخمسين كيلومترًا وهذه الأضلاع تعد ممرات نقل طويلة تصل بين الوحدات الكروية. ويبلغ قطر الكرات الواقعة على رءوس المثلث خمسة وعشرين كيلومترًا. وبالرغم من المسافة الشاسعة التي تفصل البشر عن النود، كان بإمكانهم تمييز النشاط الدائر في عدة مستويات منفصلة داخل الوحدات.

عندما غير المكوك طريقه وبدأ يتوجه نحو أحد رءوس المثلث، سأل باتريك نيكول بقلق: «ماذا سيحدث الآن؟»

حملت نيكول باتريك وضمته بين ذراعيها. وقالت له بهدوء: «لا أدري يا حبيبي. ليس أمامنا إلا الانتظار.»

كان بينجي تتملكه الرهبة الشديدة. وأخذ يحدق ساعات في المثلث الهائل المضيء في الفضاء. وكثيرًا ما وقفت سيمون بجانبه وهي ممسكة بيده. وحين كان المكوك يقترب من إحدى الكرات شعرت أن عضلاته مشدودة. فقالت له محاولةً أن تطمئنه: «لا تقلق يا بينجي، كل شيء سيكون على ما يرام.»

دخل المكوك الذي يُقلُّهم ممرًّا ضيقًا محفورًا في الجسم الكروي، ثم دخل في رصيف يقع عند حافة مركز المواصلات. غادر أفراد الأسرة المكوك في حذر وهم يحملون حقائبهم وكمبيوتر ريتشارد. وبعدها على الفور رحل المكوك، فأثار خوف الجميع حتى الكبار منهم باختفائه السريع. وبعد أقل من دقيقة سمعوا أول صوت آلي غير محدد المصدر.

قال الصوت متحدثًا بوتيرة واحدة: «مرحبًا. لقد وصلتم إلى وحدة الإسكان. سيروا في خط مستقيم للأمام وتوقفوا أمام الحائط الرمادي.»

سألت كيتي: «من أين يأتي هذا الصوت؟» وظهر في صوتها الرعب الذي كان ينتابهم جميعًا.

أجاب ريتشارد: «من كل مكان. فهو فوقنا وحولنا وتحتنا.» ثم أخذوا يقلبون بصرهم في الحوائط والسقف.

تساءلت سيمون: «كيف تعلم الإنجليزية؟ هل هناك أناس آخرون في هذا المكان؟»

ضحك ريتشارد ضحكة تنم عن القلق. وأجاب: «هذا غير محتمل. الأرجح أن هذا المكان يتواصل مع راما على نحو ما، ولديه خوارزمية لغوية رئيسية. تُرى ...»

قاطعه الصوت قائلًا: «سيروا إلى الأمام من فضلكم. إنكم في محطة مواصلات. المركبة التي ستقلكم إلى المكان الخاص بكم من الوحدة منتظرة في طابق سفلي.»

استغرق الأمر منهم عدة دقائق حتى وصلوا إلى الحائط الرمادي. لم يمر الأطفال بحالة انعدام وزن تام كهذه من قبل. فما كان من كيتي وباتريك إلا أن قفزا من على الرصيف وتشقلبا في الهواء ودارا حول نفسيهما. عندما رأى بينجي أنهما يتسليان حاول أن يقلد حركاتهما الغريبة عليه. لكن لسوء الحظ، لم يستطع أن يفهم كيف يستخدم السقف والحوائط ليعود إلى الرصيف. وعندما أنقذته سيمون كان قد فقد إحساسه بالمكان تمامًا.

عندما أخذ أفراد الأسرة الوضع الصحيح أمام الحائط الرمادي ومعهم أمتعتهم، انفتح باب واسع فدخلوا حجرة صغيرة. وجدوا هناك بِذلًا ضيقة وخوذات وأحذية مرتبة

على مقعد. قال الصوت باللهجة الرتيبة نفسها: «ليس هناك غلاف جوي يناسب نوعكم في محطة المواصلات وفي معظم المناطق العامة في النود. لذا ستحتاجون إلى ارتداء هذه الملابس في كل مكان إلا شقتكم.»

عندما ارتدى الجميع الملابس انفتح باب على الجانب المقابل من الحجرة ودخلوا القاعة الرئيسية في مركز المواصلات الملحق بوحدة الإسكان. كانت المحطة مطابقة لمحطة الوحدة الهندسية التي سيدخلونها فيما بعد أثناء الاختبار. نزلت نيكول وأسرتها طابقين، حسب تعليمات الصوت، وداروا حول الحد الخارجي الدائري إلى حيث تنتظرهم «الحافلة» الخاصة بهم. كانت الحافلة مريحة وجيدة الإضاءة ولكنهم لم يستطيعوا أن يروا ما بالخارج طوال الساعة والنصف التي قضوها في التنقل عبر متاهة الممرات. أخيرًا، توقفت الحافلة وانفتح بابها العلوي.

ما إن وقفوا على الأرض المعدنية حتى أعطاهم صوت آخر شبيه بالأول التعليمات: «سيروا في القاعة التي تقع يسارًا. ستجدون أنها تنقسم إلى ممرين بعد أربعمائة مترٍ. اسلكوا الممر الأيمن وتوقفوا أمام ثالث علامة مربعة تقع إلى اليسار. هذا هو باب شقتكم.»

انطلق باتريك إلى داخل إحدى القاعات. فأعلن الصوت دون أي تغيير في طبقته: «دخلت قاعة خطأ. عد إلى مكان وقوف المركبات وادخل القاعة التالية التي تقع إلى يسارك.»

لم يروا أي شيء في الطريق من المحطة إلى شقتهم. وخلال الشهور التالية كانوا سيسلكون هذا الطريق مرارًا وتكرارًا إما ذهابًا إلى غرفة التمرينات أو إلى الغرفة التي يخضعون فيها لاختبارات من حين إلى آخر في أعلى الوحدة الهندسية، ولن يروا أي شيء سوى الجدران والأسقف والعلامات المربعة التي سيتضح لهم أنها أبواب. كان من الواضح أن المكان يخضع لمراقبة دقيقة. ومع هذا فقد كان كلٌّ من نيكول وريتشارد ينتابهما من البداية إحساس يقيني بأن بعض الشقق المجاورة لهم — أو ربما الكثير منها — يسكنها شخص أو شيء ما، ولكنهم لم يروا في الممرات أيًّا من الآخرين قط.

بعد أن وجدوا الباب المحدد ودخلوا منه إلى شقتهم، خلعت نيكول وأفراد أسرتها الملابس الخاصة في الردهة ووضعوها في خزانات صنعت لهذا الغرض. وأثناء انتظار انفتاح الباب الداخلي، تناوب الأطفال النظر عبر النافذة إلى الوحدتين الكرويتين الأخريين. وبعد بضع دقائق شاهدوا بيتهم الجديد من الداخل لأول مرة.

انتاب الجميعَ شعورٌ بالانبهار. فشقة هذه الأسرة في النود تعد جنةً مقارنة بظروف المعيشة البدائية نسبيًّا التي كانوا يعيشون في ظلها في راما. إذ كان لكلٍّ من الأطفال غرفته

الخاصة. وكان لمايكل جناح خاص به في أحد أطراف الشقة، وفي الطرف المقابل له تقع غرفة رائعة خاصة بريتشارد ونيكول، بها جميع التجهيزات وسرير كبير، وهي بالقرب من المدخل. كما تضم الشقة أربعة حمامات ومطبخًا وغرفة طعام وحتى غرفة لعب مخصصة للأطفال. بل إن كل قطعة أثاث كانت تناسب الغرفة التي صنعت لها تناسبًا يبعث على الدهشة وتتميز كلها بتصميم رفيع الذوق. وتزيد مساحة الشقة الداخلية عن أربعمائة مترٍ مربع.

وكانت الدهشة تسيطر على البالغين كذلك. ففي أول ليلة سألت نيكول ريتشارد بعيدًا عن مسامع الأطفال الذين كانوا يشعرون ببهجة عارمة: «بربك كيف استطاعوا فعل هذا؟»

ألقى ريتشارد نظرة مرتبكة في أنحاء المكان. وأجاب: «لا يسعني سوى أن أخمن أنهم كانوا يراقبون كل أفعالنا في راما ويرسلونها إلى هنا في النود. ومن المؤكد أنهم استطاعوا أيضًا الوصول إلى قواعد البيانات الخاصة بنا واستنتجوا طريقة حياتنا من تلك المعلومات.»

ابتسم ريتشارد ابتسامة عريضة. وتابع قائلًا: «وبالطبع إذا كانت لديهم أجهزة استقبال حساسة يمكنهم — من هنا ونحن على هذه المسافة الشاسعة من الأرض — التقاط الإشارات التليفزيونية التي تنطلق من كوكب الأرض. أليس من المخجل أن يمثلنا ...»

انطلق صوتٌ آخر مماثل ليقاطع سيل أفكار ريتشارد، قائلًا: «مرحبًا.» وكان يبدو أنه يصدر من كل الاتجاهات. وأضاف: «نأمل أن يكون كل ما في شقتكم قد نال رضاكم. إذا لم يكن كذلك، نرجو إبلاغنا. لا يمكننا الرد على كل ما يقوله كلٌّ منكم في جميع الأوقات. لذا وضعنا نظام اتصال بسيطًا. ستجدون على منضدة مطبخكم زرًّا أبيض. سنفترض أن كل ما يقوله أي شخص بعد الضغط على هذا الزر موجه لنا. عندما تنتهون اضغطوا على الزر مرة أخرى. بهذه الطريقة ...»

قاطعته كيتي. كانت قد أسرعت إلى المطبخ وضغطت الزر. وقالت: «لدي سؤال أولًا. من أنتم؟»

تأخرت الإجابة ثانية تقريبًا. ثم جاءت هكذا: «نحن الذكاء الجماعي الذي يحكم النود. نحن هنا لنساعدكم ونوفر لكم الراحة ونمدكم باحتياجاتكم الأساسية. وسنطلب منكم من حين إلى آخر أن تقوموا بمهام محددة تساعدنا على فهمكم فهمًا أفضل ...»

لم تعد نيكول ترى المكوك الذي كانت تراقبه عبر النافذة. في الواقع، كانت مستغرقة في ذكرى وصولهم إلى النود حتى نسيت الوافدين بعض الوقت. الآن، وقد عادت إلى الحاضر، أخذت تتخيل جمعًا من المخلوقات الغريبة ينزلون من مركبتهم إلى الرصيف ويفاجئون

عند سماعهم صوتًا يخاطبهم بلغتهم الأم. وقالت في نفسها: لا بد أن الإحساس بالدهشة إحساس عام، تشعر به كل المخلوقات العاقلة.

رفعت عينيها بعيدًا عن مجال الرؤية القريب وأخذت تتأمل وحدة الإدارة البعيدة. وسألت نفسها: «ما الذي يحدث هناك؟ نحن مخلوقات بائسة تقطع الطريق جيئةً وذهابًا بين وحدة الإسكان والوحدة الهندسية. ويبدو أن كل هذا يخضع لتخطيط منطقي. ولكن من هو المتحكم في كل هذا؟ ولماذا؟ ما المبرر الذي يدفع أحدًا ليأتي بكل هذه الكائنات إلى هذا العالم الصناعي؟»

لم تجد نيكول إجابة عن هذه الأسئلة اللانهائية. وكالمعتاد، جعلتها هذه الأسئلة تشعر بإحساس قوي بضآلتها. فشعرت برغبة تلقائية في الدخول واحتضان أحد أبنائها. وهذا الشعور جعلها تضحك على نفسها. وتقول في نفسها: هاتان الصورتان مؤشران صادقان على وضعنا في هذا الكون. إننا مهمون للغاية لأبنائنا ولكننا لا نمثل أي أهمية في النظام الهائل الذي يحكم الوجود. ويتطلب الأمر حكمة بالغة لإدراك أن وجهتَي النظر هاتين ليستا متناقضتين.

٣

كان الإفطار رائعًا. فقد طلب أفراد الأسرة من الطباخين المهرة الذين يطهون طعامهم إعداد مأدبة. وكان الذين صمموا شقتهم قد حرصوا على توفير أفران وثلاجة مليئة بالمواد الغذائية ليستخدموهما إذا ما احتاجوا إلى إعداد وجباتهم الخاصة من المواد الخام. غير أن الطباخين من المخلوقات الفضائية (أو من الآليين) كانوا بارعين جدًّا وتعلموا الطهي بسرعة كبيرة، وهو ما أغنى نيكول وأسرتها عن إعداد وجباتهم بأنفسهم معظم الوقت؛ إذ كانوا فقط يضغطون على الزر الأبيض ويطلبون ما يشاءون.

في المطبخ قالت كيتي: «اليوم أريد فطائر محلاة.»

وأضاف أخوها المقرب باتريك: «وأنا أيضًا، وأنا أيضًا.»

نطق الصوت بنبرة رتيبة: «أي نوع من أنواع الفطائر المحلاة؟ في ذاكرتنا أربعة أنواع مختلفة. هناك فطيرة الحنطة السوداء، وفطيرة اللبن المخيض …»

قاطعته كيتي قائلةً: «فطيرة اللبن المخيض. نريد ثلاث فطائر.» ثم نظرت إلى أخيها الصغير. وأضافت: «أربع أفضل.»

صاح باتريك: «بالزبد وشراب القيقب.»

قال الصوت: «أربع فطائر محلاة بالزبد وشراب القيقب. هل هذا كل شيء؟»

فردت كيتي بعد أن تشاورت قليلًا مع باتريك: «كوب عصير تفاح وآخر برتقال.»

قال الصوت: «سيكون الطعام جاهزًا بعد ست دقائق وثماني عشرة ثانية.»

عندما أُعد الطعام اجتمعت الأسرة حول المائدة في المطبخ. وحكى أصغر الأطفال لنيكول ما قاموا به أثناء غيابها. كان باتريك فخورًا للغاية بإنجازه الشخصي الجديد المتمثل في جري خمسين مترًا في قاعة التمرينات الرياضية. وعدَّ بينجي بصعوبة حتى وصل إلى عشرة فصفق الجميع له. كانوا قد انتهوا لتوِّهم من الإفطار وبدءوا نقل الأطباق من على المنضدة عندما دق جرس الباب.

نظر الكبار بعضهم إلى بعض، وذهب ريتشارد إلى لوحة التحكم حيث قام بتشغيل شاشة الفيديو. فرأى الرجل النسر واقفًا خارج الباب.

قال باتريك بتلقائية: «آمل ألا يكون هناك اختبار جديد.»

أجابت نيكول وهي تتجه نحو المدخل: «كلا ... كلا، أشك في هذا. لقد جاء على الأغلب ليعطينا نتائج الاختبارات الأخيرة.»

أخذت نيكول نفسًا عميقًا قبل أن تفتح الباب. دائمًا ما يرتفع مستوى الأدرينالين في جسدها عندما تلتقي بالرجل النسر، وإن كثر عدد مرات لقائها به. لماذا؟ هل ما يخيفها هو معرفته الواسعة؟ أم سلطته عليهم؟ أم كانت تخافه هو نفسه؟

حياها الرجل النسر بما اعتبرته ابتسامة. وقال بلطف: «هل تسمحين لي بالدخول؟ أود أن أتحدث معك ومع زوجك والسيد أوتول.»

حدقت نيكول كعادتها في الشخص («أو الشيء» كما خطر لها فجأة) الواقف أمامها. كان طويلًا، فطوله قد يصل إلى نحو مترين وربع تقريبًا، وهيئته من عنقه فما دون ذلك تشبه هيئة البشر. ولكن يغطي ذراعيه وجذعه ريش صغير كثيف لونه رمادي داكن، باستثناء الأصابع الأربعة في كل يد، فهي ذات لون قشدي ولا ريش لها. أما أسفل وسطه، فلونه كلون جلدنا، ولكن يتضح من اللمعة التي تكسو الطبقة الخارجية منه أن صانعه لم يحاول تقليد جلد البشر الحقيقي. وكان جسده من أسفل وسطه يخلو من الشعر أو أي مفاصل أو أعضاء تناسلية مرئية. كما أن قدميه كانتا بلا أصابع. وعندما يمشي الرجل النسر يتجعد الجلد المحيط بركبتيه، ولكن هذه التجاعيد تختفي عندما يقف ساكنًا.

وجْهُ الرجلِ النسر له تأثير التنويم المغناطيسي. إذ إن له عينين واسعتين لونهما أزرق فاتح، وتقعان على جانبَي منقاره البارز ذي اللون المائل إلى الرمادي. وعندما يتحدث ينفتح

المنقار ويصدر كلامه بلغة إنجليزية متقنة من حنجرة إلكترونية تقع في الركن الخلفي من عنقه. ولون الريش الذي يغطي أعلى رأسه أبيض، مما يتناقض تناقضًا صارخًا مع اللون الرمادي الداكن لوجهه ورقبته وظهره. والريش الذي يكسو وجهه خفيف ومتناثر.

عندما ظلت نيكول عدة ثوانٍ واقفة دون حراك، كرر الرجل النسر طلبه في أدب. فقال: «هل تسمحين لي بالدخول؟»

أجابت وهي تبتعد عن الباب: «طبعًا ... طبعًا ... آسفة ... ارتبكت لأنني لم أرَك منذ وقت طويل.»

قال الرجل النسر وهو يدخل غرفة المعيشة: «صباح الخير يا سيد ويكفيلد، ويا سيد أوتول. كيف حالكم يا أولاد؟»

ابتعد باتريك وبينجي عنه. وبدا الخوف على جميع الأطفال إلا كيتي والصغيرة إيلي.

رد ريتشارد: «صباح النور.» وسأل: «ترى ماذا تريد؟» لم يكن الرجل النسر معتادًا على القيام بزيارات اجتماعية لنا أبدًا. فدائمًا ما يكون هناك غرض ما من زيارته.

أجاب الرجل النسر: «كما أخبرت زوجتك على الباب، أريد أن أتحدث معكم أنتم الثلاثة البالغين. هل يمكن أن تعتني سيمون بباقي الأطفال بينما نتحدث ساعة أو نحوها؟»

كانت نيكول قد بدأت بالفعل تقود الأطفال إلى غرفة اللعب عندما أوقفها الرجل النسر. وقال: «هذا ليس ضروريًّا، يمكنهم أن يستخدموا الشقة بأكملها. سنذهب نحن الأربعة إلى غرفة المؤتمرات الموجودة في الجهة المقابلة للردهة.»

قالت نيكول لنفسها: «آه. هذا أمر مهم إذن ... لم نترك الأطفال بمفردهم في الشقة قط من قبل.»

فجأة، انتابها قلق شديد على سلامتهم. وقالت: «عذرًا أيها الرجل النسر. ولكن هل سيكون الأطفال بخير هنا؟ أعني، ألن يأتي إليهم أي زوار، أو شيء من هذا القبيل ...؟»

أجاب الرجل النسر ببرود قائلًا: «كلا يا سيدتي. أعدك بألا يمس أولادك سوء.»

عندما بدأ البشر الثلاثة يرتدون بذلاتهم في الردهة أوقفهم الرجل النسر. وقال: «هذا ليس ضروريًّا. فقد أعددنا الليلة السابقة تهيئة هذا القسم من القطاع. فقد سددنا الردهة التي تقع قبل ملتقى الطرق مباشرة وحولنا هذه المنطقة بأكملها بحيث تصبح مماثلة لبيئة الأرض. وبهذا سيكون في وسعكم استخدام قاعة المؤتمرات دون أن ترتدوا أي ملابس خاصة.»

بدأ الرجل النسر التحدث فور جلوسهم في قاعة المؤتمرات الكبيرة عبر الردهة. وقال: «منذ أول لقاء لنا استفسرتم مني مرارًا وتكرارًا عن سبب وجودكم هنا ولم أعطكم أي

إجابات مباشرة. وبعد انتهاء آخر مجموعة من اختبارات النوم — وأستطيع أن أقول إنها انتهت بنجاح — أُوكلتْ إليَّ مهمة إمدادكم بمعلومات عن المرحلة التالية لمهمتكم.

كما حصلت على إذن بأن أطلعكم على بعض المعلومات عن نفسي. فكما كنتم ترتابون جميعًا أنا لست كائنًا حيًّا — على الأقل وفقًا لتعريفكم.» ضحك. وتابع قائلًا: «لقد صنعني الذكاء الذي يحكم النود لأتواصل معكم حول ما يخص القضايا المهمة. فقد كَشفَت أولُ ملاحظاتنا لسلوككم عن أنكم لا تميلون إلى التعامل مع الأصوات التي لا ترون مصدرها. كان قد تقرر تصنيعي أو تصنيع شيء شبيه بي ليعمل مبعوثًا إلى أسرتكم حين كدت يا سيد ويكفيلد أن تتسبب في فوضى عارمة في هذا القطاع بمحاولة القيام بزيارة غير مقررة مسبقًا وغير معتمدة إلى وحدة الإدارة. وكان الهدف من ظهوري في هذا الوقت هو منع القيام بأي تصرفات غير ملائمة أخرى.»

وبعد دقيقة من التردد واصل الرجل النسر حديثه قائلًا: «لقد دخلنا الآن في أهم مرحلة من مراحل إقامتكم هنا. فالسفينة التي تسمونها راما موجودة في حظيرة المركبات تخضع لتجديدات شاملة وتغيير في تصميمها الهندسي. ومطلوب منكم أيها البشر المساهمة في عملية إعادة التصميم لأن بعضكم سيعود مع راما إلى النظام الشمسي الذي جئتم منه.»

بدأ ريتشارد ونيكول مقاطعته. فقال: «اصبرا حتى أنهي كلامي أولًا. فقد أُعد حديثي بعناية شديدة بحيث يتناول إجابة أسئلتكم المتوقعة.»

نظر الرجل الطائر إلى كلٍّ من البشر الثلاثة الجالسين حول الطاولة ثم تابع حديثه بوتيرة أبطأ. فقال: «لاحظوا أنني لم أقل إنكم ستعودون إلى الأرض. إذا نجحت الخطة التي وضعناها، فسيصبح بوسع من يذهب مع راما منكم أن يتواصل مع البشر الموجودين في نظامكم الشمسي، ولكن ليس في الأرض. ولن تعودوا إلى الأرض إلا إذا اضطررنا إلى الخروج عن الخطة الأساسية.»

وأضاف: «لاحظوا أيضًا أن «بعضكم» سيعود.» ثم وجه حديثه إلى نيكول مباشرة قائلًا: «سيدتي، ستسافرين قطعًا على متن راما ثانيةً. هذا أحد الشروط التي فرضناها على البعثة. لكننا سنترك لك ولأسرتك حرية اختيار من يرافقك في هذه الرحلة. يمكن أن ترحلي بمفردك إن أردت وتتركي الجميع هنا في النود أو أن ترافقي البعض. لكن لا يمكنكم أن تذهبوا جميعًا في هذه الرحلة. إذ يجب أن يبقى ثنائي تزاوجي واحد على الأقل هنا في النود لضمان إمدادنا ببعض البيانات التي تحتاجها موسوعتنا في حال فشل البعثة، مع أن احتمال الفشل غير وارد.

إن الهدف الرئيسي من صنع النود هو أن يمكننا من إنجاز مهمة وضع بيان بأشكال الحياة الموجودة في هذا الجزء من المجرة. ونعطي الدرجة الأولى من أولوياتنا للمخلوقات التي تتمتع بالقدرة على ارتياد الفضاء، والمواصفات التي وضعناها تتطلب جمع كمية هائلة من البيانات عن كل ما نقابله من هذه المخلوقات. وحتى يتسنى لنا القيام بهذه المهمة توصلنا — على مدار مئات الآلاف من السنوات وفقًا لتقويمكم — إلى نظام لتجميع هذه المعلومات يقلل من احتمال حدوث تدخل مدمر في نمط تطور هذه المخلوقات، لكنه في الوقت نفسه يزيد من إمكانية حصولنا على المعلومات الحيوية.

ويتضمن المنهجُ الأساسي الذي نتبعه لتحقيق هذا إرسالَ سفن فضائية مراقبة في مهام استطلاعية على أمل اجتذاب المخلوقات التي تجوب الفضاء، مما يمكننا من التعرف عليها وتحديد النمط الظاهري لها. وبعدها نرسل سفن فضاء مطابقة لتحقيق نفس الغاية التي أرسلت لها السفينة الأولى، وذلك لزيادة التواصل ولأسر عينات نموذجية حتى نتمكن من الحصول على ملاحظات مفصلة على مدى طويل في بيئة من اختيارنا.»

سكت الرجل النسر. كان عقل نيكول وقلبها يعملان بسرعة جنونية. إذ ثارت بداخلها عاصفة من الأسئلة. لماذا اختاروها هي على الأخص لتعود؟ هل ستتمكن من رؤية جنيفياف؟ وما الذي يعنيه الرجل النسر بكلمة «أسر»؛ ترى هل يعي أن هذه الكلمة عادة ما تحمل دلالة عدوانية؟ لماذا ...؟

كان ريتشارد أول من تكلم. وقال: «أعتقد أنني فهمت معظم ما قلت، ولكنك لم تخبرنا ببعض المعلومات المهمة. لماذا تجمعون كل تلك المعلومات عن المخلوقات التي تستطيع السفر في الفضاء؟»

ابتسم الرجل النسر. وقال: «يتألف التسلسل الهرمي الذي ننظم فيه معلوماتنا من ثلاثة مستويات أساسية. ويعتمد السماح لشخص ما أو نوع ما بالوصول إلى كل مستوًى أو منعه على مجموعة من المعايير الثابتة. وكما أوضحت من قبل، صنفناكم منذ البدء في المستوى الثاني بصفتكم ممثلين لنوعكم. لكن من دلائل ذكائك أن السؤال الذي طرحته ابتداءً إجابته مصنفة ضمن المستوى الثالث.»

سأل ريتشارد وهو يضحك ضحكةً يغلفها التوتر: «هل يعني هذا الهراء أنك لن تجيب؟»

أومأ الرجل النسر برأسه إيجابًا.

سألت نيكول: «أيمكنك أن تخبرنا عن سبب اختياري أنا على وجه الخصوص للقيام برحلة العودة؟»

أجاب الرجل النسر: «لأسباب عدة. أولًا، نؤمن بأنك الأنسب من حيث التأهيل الجسدي للقيام برحلة العودة. كما تشير معلوماتنا إلى أن مهارات الاتصال المتميزة التي تتمتعين بها ستكون مفيدة للغاية بعد أن تتم مرحلة الأسر في المهمة. وهناك اعتبارات أخرى، ولكن هذان هما الأكثر أهمية.»

سأل ريتشارد: «متى سنرحل؟»

«لم يتحدد الموعد النهائي. فجزء من البرنامج يعتمد عليكم. لكن سنخبركم عند تحديد موعد نهائي للمغادرة. وسيكون غالبًا في غضون أقل من أربعة أشهر من شهوركم.»

قالت نيكول بينها وبين نفسها: «سنرحل قريبًا جدًّا. ويجب أن يبقى اثنان منا على الأقل هنا. ولكن من ...»

وعندها، طرح مايكل سؤالًا يدور حول نفس الفكرة التي خطرت لنيكول. فقال: «يمكننا أن نترك أي ثنائي تزاوجي هنا في النود، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل النسر: «تقريبًا يا سيد مايكل. ولكن لن يكون من المقبول أن تكون أصغر البنات إيلي شريكة لك؛ فقد لا نستطيع أن نبقيك على قيد الحياة وأن نحافظ على خصوبتك حتى تصل هي إلى سن البلوغ، ولكن أي ثنائي آخر مقبول. ولا بد أن نضمن ارتفاع احتمال فرصة الحصول على ذرية سليمة صحيًّا.»

سألت نيكول: «لماذا؟»

فأجاب: «هناك احتمال ضئيل للغاية أن تفشل مهمتكم وأن يصبح الثنائي الباقي في النود البشر الوحيدين الذين نستطيع مراقبتهم. ونحن نهتم بكم اهتمامًا خاصًّا لأنكم وصلتم إلى هذه المرحلة دون الحصول على المساعدة المعتادة مع أنكم مبتدئون في مجال ارتياد الفضاء.»

كان يمكن أن يستمر الحوار إلى ما لا نهاية. ولكن بعد عدة أسئلة أخرى قام الرجل النسر فجأة وأعلن أن مشاركته في المؤتمر انتهت. وحثهم على الإسراع في البت في موضوع «التقسيم» كما أسماه، لأنه ينوي أن يبدأ العمل مع أفراد الأسرة الذين سيقومون برحلة العودة باتجاه الأرض على الفور. إذ يقع على عاتق هؤلاء الأفراد مهمة مساعدته في تصميم «وحدة الأرض بداخل راما». وغادر الغرفة دون أن يقدم أي توضيح إضافي.

اتفق الثلاثة الراشدون على عدم إطلاع الأطفال على أهم تفاصيل اجتماعهم مع الرجل النسر مدة يوم واحد على الأقل، حتى يتسنى لهم التفكير في الموضوع وتبادل الآراء حوله

على انفراد. وفي مساء ذلك اليوم، تحدث الثلاثة بهدوء في غرفة المعيشة في شقتهم بعد أن نام الأطفال.

بدأت نيكول الحديث بالإقرار بأنها تشعر بالغضب وبقلة الحيلة. قالت إنه مع أن الرجل النسر كان لطيفًا جدًّا وهو يطلعهم على موضوع المشاركة في رحلة العودة، فإن حديثه كان يشي بإصدار أمر لهم بالتنفيذ. فكيف يمكنهم أن يرفضوا؟ إن الأسرة كلها تعتمد اعتمادًا تامًّا على الرجل النسر — أو على الأقل على الذكاء الذي يمثله — للحفاظ على حياتها. صحيح أنه لم يوجه لهم أي تهديدات، لكنه لا يحتاج إلى هذا. فليس أمامهم أي خيار سوى الإذعان لتعليماته.

تساءلت نيكول بصوت مرتفع عمن ينبغي أن يبقوا في النود. فقال مايكل إنه من الضروري جدًّا أن يبقى واحد على الأقل من الراشدين في النود. وكانت حجته مقنعة. إذ قال إن أي ثنائي من الأطفال، وإن كان سيمون وباتريك، سيحتاج إلى خبرة أحد الراشدين وحكمته ليحظى بحياة سعيدة في ظل هذه الظروف. وتطوع بالبقاء في النود مشيرًا إلى أنه من غير المحتمل أن يظل على قيد الحياة أثناء رحلة العودة بأي حال من الأحوال.

كانوا جميعًا يرون أنه من الواضح أن الذكاء الذي يدير النود ينوي تنويم البشر خلال معظم طريق العودة إلى النظام الشمسي. وإلا فما الهدف من كل اختبارات النوم هذه؟ لم ترُق نيكول فكرة أن الأطفال ستفوتهم فرصة عيش مراحل النمو المهمة في حياتهم. لذا، اقترحت أن تقوم بالرحلة بمفردها وتترك جميع أفراد الأسرة في النود. وأيدت رأيها بأن قالت إن الأطفال إن قاموا بالرحلة فلن يحظوا بحياة «طبيعية» على كوكب الأرض.

قالت: «إذا كنا فهمنا الرجل النسر فهمًا صحيحًا، فإن أي شخص سيعود سينتهي به الحال مسافرًا على متن رامًا متوجهًا إلى مكان آخر في المجرة.»

جادلها ريتشارد قائلًا: «لسنا متيقنين من هذا. وعلى الجانب الآخر، من سيبقى هنا سيُحكم عليه قطعًا بألا يرى أي بشر غير أسرته إلى الأبد.»

وأضاف ريتشارد إنه ينوي القيام برحلة العودة مهما تكن الظروف، ليس فقط ليكون بصحبة نيكول، ولكن ليخوض المغامرة أيضًا.

أثناء النقاش الذي دار في أول ليلة، لم يتوصل الثلاثة إلى اتفاق نهائي بشأن توزيع الأطفال. ولكنهم اتخذوا قرارًا نهائيًّا بشأن ما سيفعله الراشدون. سيبقى مايكل أوتول في النود. وسيقوم ريتشارد ونيكول برحلة العودة إلى النظام الشمسي.

لم تستطع نيكول أن تنام بعد الاجتماع. فقد ظلت تقلب كل الخيارات في عقلها. كانت متأكدة من أن سيمون ستقوم بدور الأم على نحو أفضل من كيتي. كما أن سيمون ومايكل

متوافقان تمامًا، وكيتي لن ترضى أبدًا بالانفصال عن والدها. ولكن من سيبقى ليتزوج سيمون؟ هل سيكون بينجي الذي يحب أخته حبًّا جمًّا ولكنه لن يستطيع أبدًا أن يدخل في حوار عقلي معها؟

لم يغمض لنيكول جفن لساعات. ففي الواقع لم يعجبها أيٌّ من تلك الخيارات. وكانت تعرف مصدر انزعاجها جيدًا. غير أن الأمر قد حُسم، وستضطر مرة أخرى إلى مفارقة بعض أفراد أسرتها الذين تحبهم، ربما إلى الأبد. وبينما هي مستلقية في فراشها في وسط الليل عادت أشباح وآلام لحظات الفراق التي مرت بها في الماضي تطاردها. واعتصر الألم قلبها وهي تتخيل لحظة الفراق التي ستحين بعد أشهر قليلة. وحركت شغاف قلبها صور والدتها ووالدها وجنيفياف. فقالت لنفسها وهي تغالب نوبة الاكتئاب المؤقتة التي اجتاحتها: «ربما تكون هذه هي طبيعة الحياة. سلسلة لا تنتهي من لحظات الفراق المؤلمة.»

٤

«أمي، أبي، استيقظا. أريد أن أتحدث معكما.»

كانت نيكول تحلم. كانت ترى أنها تمشي في الغابة الواقعة خلف فيلا أسرتها في بوفوا. كان وقت الربيع وكانت الأزهار رائعة. لذا استغرق الأمر منها ثواني قليلة حتى أدركت أن سيمون تجلس على سريرهما.

مال ريتشارد على ابنته وطبع قبلة على جبينها. وسألها: «ما الأمر يا حبيبتي؟»

ردت قائلةً: «كنت أتلو صلاة الصبح مع العم مايكل ولاحظت أنه حزين.» وأخذت سيمون تنقل نظراتها الهادئة بين وجهَي والديها. ثم تابعت قائلةً: «وأخبرني بكل شيء عن الحوار الذي دار بينكم وبين الرجل النسر أمس.»

جلست نيكول بسرعة في سريرها وسيمون تواصل حديثها قائلة: «أخذت أفكر بعناية في كل شيء لما يزيد عن ساعة. أعرف أنني مجرد فتاة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها ولكنني أعتقد أني وصلت إلى حل لموضوع «التقسيم» هذا سيرضي كل أفراد أسرتنا.»

أجابت نيكول وهي تمد يديها نحو ابنتها: «حبيبتي سيمون، لستِ مسئولة عن حل ...»

قاطعتها سيمون برفق قائلةً: «كلا يا أمي. من فضلك اسمعيني. إن الحل الذي سأقترحه يقوم على شيء لن يخطر ببال أيٍّ منكم. فهو لا يمكن أن يصدر إلا مني. وهو بالتأكيد الأفضل للجميع.»

عقَّد ريتشارد جبينه. وقال: «ماذا تقصدين؟»

أخذت سيمون نفسًا عميقًا ثم قالت: «أريد أن أبقى في النود مع العم مايكل. سأصبح زوجته وسنكون نحن «الثنائي التزاوجي» الذي يريده الرجل النسر. لن يكون أي شخص آخر مضطرًّا إلى البقاء، ولكنني سأكون سعيدة أنا ومايكل إن ظل بينجي معنا.»

أفزعت الفكرة ريتشارد. فصاح قائلًا: «ماذا؟» وأضاف: «العم مايكل في الثانية والسبعين من عمره! وأنت لم تبلغي الرابعة عشرة بعد. هذا هراء وسخف لا يقبله عقل ...» وفجأة صمت.

ابتسمت الشابة الناضجة التي هي ابنته. وأجابت: «هل ما أقوله لا يقبله العقل وما يقوله الرجل النسر أمرًا يقبله العقل؟ هل هذا أسخف أم سفرنا ثماني سنوات ضوئية من الأرض لتلتحم مركبتنا بمثلث ذكي عملاق سيرسل بعضًا من أفراد أسرتنا في الاتجاه المعاكس؟»

تأملت نيكول سيمون في إكبار وإعجاب. ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، ولكنها مدت يديها إلى ابنتها وعانقتها بقوة، واغرورقت عيناها بالدموع.

قالت سيمون بعد العناق: «كل شيء سيكون على ما يرام يا أمي. بعد أن تتمالكي نفسك بعد سماع الفكرة للمرة الأولى ستدركين أن ما أقترحه هو أفضل الحلول. إذا قمت أنت وأبي برحلة العودة معًا — وهذا ما أعتقد أن عليكما القيام به — سيصبح عليَّ أنا أو كيتي أو إيلي البقاء هنا في النود والزواج من باتريك أو بينجي أو العم مايكل. والزواج الوحيد السليم من الناحية الجينية هو زواجي أنا أو كيتي بالعم مايكل. لقد فكرت في كل الاحتمالات. ووجدت أنني أنا ومايكل متقاربان جدًّا. فنحن نعتنق نفس الدين. فإذا بقينا هنا وتزوجنا فسيصبح لكلٍّ من الأطفال الآخرين حق الاختيار. فيمكنهم البقاء هنا معنا أو العودة إلى النظام الشمسي معك أنت وأبي.»

وضعت سيمون يدها على ساعِد أبيها. وقالت: «أبي، أعرف أن هذا سيكون صعبًا عليك أكثر مما هو صعب على أمي من نواحٍ كثيرة. وأنا لم أُطلِع العم مايكل على فكرتي بعد. وأؤكد لك أنه لم يقترحها. وهي لن يمكن أن تنجح إن لم أحصل على تأييدك أنت وأمي. وسيكون صعبًا على مايكل قبول هذا الزواج وإن لم تعترضا.»

هز ريتشارد رأسه. وقال: «أنت مذهلة يا سيمون.» ثم احتضنها. وتابع حديثه قائلًا: «أرجوك دعينا نفكر في هذا بعض الوقت. وعديني ألا تنطقي بكلمة أخرى حول هذا الموضوع حتى أحصل أنا وأمك على فرصة كافية للنقاش.»

قالت سيمون: «أعدك.» وأضافت وهي عند باب غرفتهما: «أشكركما كثيرًا. أحبكما.»

استدارت وسارت في الردهة المضاءة. وكان شعرها الأسود الطويل ينسدل حتى خصرها تقريبًا. وقالت نيكول بينها وبين نفسها وهي تراقب مشية سيمون الرشيقة إن ابنتها أصبحت امرأة. وأن هذا ليس من الناحية الجسدية وحسب. وإنما على مستوى النضج، فنضجها يسبق سنها كثيرًا. تخيلت نيكول مايكل وسيمون زوجًا وزوجةً واندهشت عندما لم تستبشع الفكرة على الإطلاق. كانت تعلم أن مايكل أوتول سيقبل الأمر بسرور رغم اعتراضه في البداية، وقالت لنفسها: عند أخذ الجوانب كافة في الاعتبار، فإن فكرتك يا سيمون ربما تمثل الاختيار الأقل سوءًا في هذا الوضع الصعب.

لم تتراجع سيمون عما عقدت العزم عليه رغم ما أبداه مايكل من اعتراض شديد على ما أسماه «قيامها بعملية استشهادية». وإنما أوضحت له بصبر أن زواجها منه هو الحل الوحيد لأنه هو وكيتي شخصيتان غير متوافقتين بشهادة الجميع، ولأن كيتي، على أي حال، ما زالت طفلة أمامها عام أو ثمانية عشر شهرًا قبل البلوغ. وسألته إن كان يفضل أن تتزوج هي أحد أشقائها وترتكب سفاح القربى بهذا؟ فأجاب بالنفي.

وافق مايكل عندما رأى أن ليس أمامه خيار صالح آخر وأن ريتشارد ونيكول لم يبديا أي اعتراضات قوية على الزواج. وخفف ريتشارد بالطبع من موافقته بعبارة «في هذه الظروف غير العادية»، ومع هذا فقد كان واضحًا لمايكل أن والد سيمون وافق على مضض على فكرة زواج ابنته ذات الثلاثة عشر عامًا برجل في سن جدها.

في غضون أسبوع واحد قرروا، بمشاركة من الأطفال، أن يرافق كيتي وباتريك والصغيرة إيلي ريتشارد ونيكول في رحلة العودة على متن راما. كان باتريك راغبًا عن ترك والده، ولكن مايكل رأى بكل كياسة أن ابنه ذا السنوات الست سيحظى بحياة «أفضل وأسعد» إذا ما ظل مع باقي أفراد الأسرة. وهكذا لم يتبقَّ سوى بينجي. أخبرْنا هذا الطفل المحبوب الذي يبلغ عمره الزمني ثمانية أعوام ولم يتجاوز عمره العقلي ثلاثة أعوام، أننا نرحب به سواء في راما أم في النود. لم يكن يفهم ما سيحدث للأسرة إلا بصعوبة، ولم يكن على أي استعداد لاتخاذ هذا الاختيار الخطير. أخافه القرار وأربكه، وأصبح حائرًا للغاية واعتراه اكتئاب شديد. لذا أجَّلَت الأسرة مناقشة مصير بينجي إلى أجل غير مسمى.

قال الرجل النسر لمايكل والأطفال: «ستستغرق المهمة منا يومًا ونصفًا أو ربما يومين. فراما تجرى عليها بعض الإصلاحات في ورشة تقع على بعد عشرة آلاف كيلومترٍ من هنا.»

قالت كيتي في غضب طفولي: «أريد أن آتي معكم. فأنا أيضًا لدي أفكار جيدة بشأن وحدة الأرض.»

أكد ريتشارد لكيتي أنها ستنضم إليهم في مرحلة لاحقة من العملية. وقال: «سيكون هناك مركز تصميم بجوارنا هنا، في حجرة المؤتمرات.»

في النهاية، انتهى ريتشارد ونيكول من توديع الأسرة ولحقا بالرجل النسر عند المدخل. وارتديا بذلتيهما الخاصتين ودخلا المنطقة العامة في القطاع. ولاحظت نيكول على ريتشارد أمارات الحماس. وقالت له: «إنك تحب المغامرة، أليس كذلك، يا حبيبي؟»

أومأ برأسه. وقال: «أظن أن جوته هو من قال إن كل ما يصبو إليه الإنسان يمكن تقسيمه إلى أربعة عناصر: الحب والمغامرة والسلطة والشهرة. وتتشكل شخصياتنا وفقًا للمقدار الذي نصبو إليه من كلٍّ من هذه العناصر. ولطالما ظلت المغامرة هي العنصر المفضل لي.»

كانت نيكول مستغرقة في أفكارها وهما يدخلان مع الرجل النسر سيارةً كانت تنتظرهم. انغلق الغطاء، ومرة أخرى لم يعد بوسعهما رؤية أي شيء أثناء الرحلة إلى مركز المواصلات. قالت نيكول لنفسها: «المغامرة مهمة جدًّا لي أيضًا، ففي صباي المبكر كانت الشهرة هي هدفي الأول.» ثم ابتسمت لنفسها وقالت: «لكن الآن الغلبة للحب بالتأكيد ... إن لم نجنح إلى التغيير لأُصبنا بالسأم.»

انتقلوا في مكوك مماثل للمكوك الذي أقلهم إلى النود في البداية. وكان الرجل النسر جالسًا في المقدمة ونيكول وريتشارد في المؤخرة. وكان المنظر من خلفهم خلابًا؛ إذ كان يضم الوحدات الكروية وممرات المواصلات والمثلث المضاء بأكمله.

كانوا يسيرون في اتجاه الشعرى اليمانية وهو الملمح الأبرز في الفضاء المحيط بالنود. كان النجم الأبيض الضخم الحديث الوجود يتألق في الأفق ويبدو تقريبًا في نفس حجم شمسهم الأصلية عند النظر إليها عند حزام الكويكبات.

سأل ريتشارد الرجل النسر بعد أن مر نحو ساعة وهم ينطلقون بسرعة ثابتة: «كيف اخترتم هذا الموقع للنود؟»

أجاب: «ماذا تعني؟»

رد ريتشارد: «لماذا هنا، لماذا في نظام الشعرى اليمانية بدلًا من أي مكان آخر؟»

ضحك الرجل النسر. وقال: «هذا الموقع مؤقت. سنتحرك مرة أخرى فور مغادرة راما.»

شعر ريتشارد بالحيرة. وقال: «أتعني أن النود بأكمله يتحرك؟» استدار ونظر خلفه إلى المثلث الذي يتألق بوهن عن بعد. وتابع متسائلًا: «أين نظام الدفع؟»

أجاب الرجل النسر: «كل وحدة من الوحدات تتمتع بقدرات دفع محدودة لكنها لا تُستخدم إلا في حالة الطوارئ. أما التنقل بين المواقع المؤقتة فيتم عن طريق ما نسميه بمركبات السحب؛ إذ تثبت نفسها في منافذ على جوانب الأجسام الكروية وتمدها تقريبًا بكل السرعة اللازمة لتغيير المسار.»

فكرت نيكول في مايكل وسيمون فاعتراها القلق. وسألت: «إلى أين ستذهب النود؟»

أجاب الرجل النسر في غموض: «لم نحدد بعدُ على وجه التحديد. فهذه المهمة دائمًا ما تتم عشوائيًّا اعتمادًا على سير العمل في الأنشطة المختلفة.» وصمت برهة. ثم تابع حديثه قائلًا: «عندما ينتهي عملنا في مكان محدد ينتقل التشكيل بأكمله — النود وحظيرة المركبات ومحطة الترانزيت — إلى منطقة أخرى من المناطق محل اهتمامنا.»

أخذ ريتشارد ونيكول يحدق كلٌّ منهما في الآخر في صمت في المقعد الخلفي. إذ كان يصعب عليهما استيعاب الفكرة الرهيبة التي يطلعهما عليها الرجل النسر. النود بأكمله يتحرك! كان الأمر أكبر من أن يصدقه عقل. قرر ريتشارد أن يغير الموضوع.

سأل الرجل النسر: «ما تعريفك للأنواع التي تستطيع ارتياد الفضاء؟»

رد عليه: «أي الأنواع التي خرجت من الغلاف الجوي لكوكبها الأم سواء بنفسها أو عن طريق بديلها الآلي. أما لو لم يكن لكوكبها غلاف أو لم يكن لها كوكب أم من الأساس، فإن التعريف يزداد تعقيدًا.»

فسأله ريتشارد: «أتعني أن هناك مخلوقات عاقلة نشأت في الفراغ؟ كيف يكون هذا ممكنًا؟»

رد الرجل النسر: «أنت تغالي في إيمانك بأهمية الغلاف الجوي. وتميل إلى حصر ظهور أشكال الحياة في البيئات المماثلة لبيئتك، شأنك في هذا شأن كل المخلوقات الأخرى.»

بعد قليل سأله ريتشارد: «كم عدد الأنواع التي تتمتع بالقدرة على ارتياد الفضاء في مجرتنا؟»

رد عليه الرجل النسر: «إن الوصول إلى إجابة دقيقة لهذا السؤال هو أحد أهداف مشروعنا. تذكر أن هناك أكثر من مائة مليار نجم في مجرة درب التبانة. إن ما يربو بقليل على ربع هذه النجوم تحيط بها مجموعات من الكواكب. هذا يعني أنه إذا كان واحد من كل مليون نجم من النجوم التي لها كواكب يمثل موطنًا لنوع من المخلوقات يستطيع

ارتياد الفضاء، لأصبح لدينا خمسة وعشرون ألف نوع من المخلوقات التي تستطيع ارتياد الفضاء في مجرتنا وحدها.»

ثم التفت الرجل النسر ونظر إلى ريتشارد ونيكول. وقال: «العدد الذي قدرناه للمخلوقات التي تجوب فضاء المجرة، وكثافتها في منطقة محددة من المعلومات المصنفة ضمن المستوى الثالث. ولكن بوسعي أن أقول لكم شيئًا واحدًا. وهو أن هناك مناطق تشهد كثافة في أشكال الحياة في المجرة يزيد فيها متوسط عدد المخلوقات التي تستطيع ارتياد الفضاء عن واحد لكل ألف نجم.»

صفَّر ريتشارد. وقال لنيكول بحماس: «هذه معلومات مذهلة. فهي تعني أن معجزة التطور المحلية التي جاءت بنا إلى الحياة ما هي إلا نموذج شائع يتكرر في أنحاء الكون. إننا متفردون قطعًا لأنه لا يمكن أن تكون العملية التي كان لها الفضل في وجودنا قد تكررت بالضبط في أي مكان آخر. ولكن الخاصية التي تميز نوعنا حقًّا؛ وهي قدرتنا على صياغة عالمنا وفهمه واستيعاب مكاننا في هذا النظام ككل؛ أقول إن هذه الخاصية لا بد أن آلاف المخلوقات الأخرى تتمتع بها! لأنه لولا هذه القدرة لما كان باستطاعتهم أن يرتادوا الفضاء.»

انتابت نيكول دهشة عارمة. وتذكرت لحظة مماثلة مرت منذ سنوات وذلك عندما كانت هي وريتشارد في غرفة الصور في ملجأ الأوكتوسبايدر في راما، حين كانت تحاول أن تستوعب مدى اتساع الكون من حيث مجموع محتوى المعلومات. الآن أيضًا، أدركت أن مجموع المعرفة البشرية بأسرها، وأن كل ما تعلمه أو عايشه أي فرد من أفراد الجنس البشري، لا يزيد مقداره عن حبة رمل في صحراء شاسعة تمثل مجموع المعرفة التي أتيحت لكل المخلوقات العاقلة في الكون.

٥

توقف المكوك بعيدًا عن حظيرة المركبات بعدة مئات من الكيلومترات. تتسم المنشأة بتصميم غريب؛ فهي مسطحة تمامًا من القعر ومستديرة من الجوانب ومن أعلى. ويقع على كل طرف من طرفيها مصنع وفي وسطها مصنع آخر، وتبدو المصانع الثلاثة من الخارج مثل القبة الجيوديسية. ويبلغ ارتفاعها ستين أو سبعين كيلومترًا. وينخفض السقف بين هذه المصانع الثلاثة عنه في المناطق الأخرى؛ إذ يبلغ ارتفاعه عن السطح المستوي ثمانية أو عشرة كيلومترات فقط، ولذا يبدو المنظر من أعلى الحظيرة أشبه بظهر جمل له ثلاثة أسنمة، إن كان لمثل هذا المخلوق وجود أصلًا.

كان الرجل النسر ونيكول وريتشارد قد توقفوا ليشاهدوا مركبة على شكل نجم البحر قال الرجل النسر إنها قد أُدخلت عليها تجديدات بحيث أصبحت مستعدة للانطلاق في رحلة جديدة. خرجت المركبة النجمة من القبة التي تقع على اليسار. ومع أنها تعد صغيرة مقارنة بالحظيرة وبراما فإن المسافة بين مركزها ونهاية أحد أذرعها تبلغ نحو عشرة كيلومترات كاملة. وقد بدأت تدور فور انفصالها عن الحظيرة. وبينما ظل المكوك «واقفًا» على بعد حوالي خمسة عشر كيلومترًا، زادت المركبة النجمة من معدل دورانها ليصل إلى عشر دورات في الدقيقة. وما إن استقر معدل دورانها حتى انطلقت بسرعة باتجاه اليسار.

قال الرجل النسر: «بهذا لا يبقى سوى راما في هذه المجموعة. فقد رحلت العجلة العملاقة التي كانت تتقدم صفَّكم في محطة الترانزيت منذ أربعة أشهر. فلم تكن تحتاج إلا لإصلاحات طفيفة.»

كان ريتشارد يود أن يطرح سؤالًا، ولكنه سيطر على نفسه. فقد عرف من خلال رحلته من النود أن الرجل النسر أعطاهما طوعًا تقريبًا كل المعلومات التي يسمح له بإطلاعهما عليها. وأردف الرجل النسر قائلًا: «أما راما فتمثل تحديًا لنا. وما زلنا لا نعرف بالتحديد متى سننتهي منها.»

اقترب المكوك من القبة اليمنى لحظيرة المركبات وبدأت الأضواء تلمع على سطح القبة متخذة شكل عقارب الساعة وهي تشير إلى الخامسة. وبعد النظر في المكان عن قرب استطاع ريتشارد ونيكول أن يريا بعض الأبواب الصغيرة وهي تنفتح. قال الرجل النسر: «ستحتاجان لارتداء بذلتيكما. فتحويل هذا المكان الضخم إلى بيئة قابلة للتغيير يعد معجزة هندسية لا طاقة لنا بها.»

ارتدى ريتشارد ونيكول ملابسهما بينما كان المكوك يرسو عند رصيف شبيه بالرصيف الواقع في مركز المواصلات. قال الرجل النسر وهو يجرب نظام الاتصال: «أتسمعانني جيدًا؟»

أجاب ريتشارد من خوذته: «تسلمتُ الرسالة.» ونظر هو ونيكول كلٌّ منهما إلى الآخر وضحكا، فقد ذكَّرهما هذا بالأيام التي قضياها في العمل روادًا للفضاء.

تقدمهما الرجل النسر في ممر طويل واسع. وفي النهاية انعطفوا إلى اليمين وخرجوا من باب يؤدي إلى شرفة واسعة ترتفع عشرة كيلومترات عن مصنع من الداخل أكبر مما قد يخطر على قلب بشر. شعرت نيكول وهي ترنو إلى الفراغ الهائل الواقع بين الشرفة والمصنع أن ركبتيها لا تقويان على حملها. ورغم انعدام الجاذبية، انتابت ريتشارد ونيكول

موجات من الدوار. وأشاحا بوجهيهما في اللحظة نفسها. وأخذ كلٌّ منهما يتطلع إلى الآخر وهما يحاولان استيعاب ما رأياه لتوِّهما.

علق الرجل النسر قائلًا: «إنه لمشهد مؤثر.»

قالت نيكول لنفسها: كم تبخس الأمر حقه بقولك هذا! خفضت عينيها ببطء شديد لتلقي نظرة على المشهد المذهل. وفي هذه المرة أمسكت بالحاجز بكلتا يديها لتحفظ توازنها.

يضم المصنع الذي يقع أسفلهم نصف الأسطوانة الشمالي من راما بأكمله، من طرف الميناء الذي أرسوا فيه نيوتن ودخلوا منه، حتى طرف السهل الرئيسي وضفاف البحر الأسطواني. ولكن لم يريا البحر أو مدينة نيويورك الموجودة في راما، لكن مجموع المباني والأراضي الموجودة داخل هذا المصنع المُسَيَّج يكاد يساوي مجموع المباني والأراضي في ولاية رود آيلاند الأمريكية بأسرها.

التجويف والفوهة الواقعان في الطرف الشمالي لراما ظلا على حالهما دون تغيير، بما في ذلك الطبقة الخارجية لهما. تقع هذه المناطق من راما على يمين ريتشارد ونيكول والرجل النسر، وتكاد تصبح خلفهم إذا وقفوا على الرصيف الموجود بالشرفة. ويوجد أمامهم على الحاجز اثنا عشر تلسكوبًا لكلٍّ منها دقة مختلفة، تمكنوا من خلالها من رؤية السلالم المألوفة لهما التي بدت أشبه بثلاثة من دعامات مظلة، ويتكون كلٌّ منها من ثلاثين ألف درجة تؤدي إلى السهل الرئيسي في راما.

أما باقي نصف الأسطوانة الشمالي فهو منبسط ومنقسم إلى أجزاء منفصلة عن التجويف وعن بعضها، ولكنه مع هذا مصطف بعضه بجوار بعض. وتبلغ مساحة كل جزء من ستة إلى ثمانية كيلومترات مربعة، وترتفع حوافُّه عن الأرض بكثير نظرًا إلى انحنائها.

أوضح الرجل النسر قائلًا: «من الأسهل اتخاذ الخطوات الأولية في هذا التشكيل. لأنه ما إن نغلق الأسطوانة حتى تزداد صعوبة الدخول والخروج بالمعدات كلها.»

وشاهد ريتشارد ونيكول عبر التلسكوب منطقتين مختلفتين من السهل الرئيسي تعجان بالنشاط. لكنهما لم يستطيعا عد الآليين الذين يتحركون جيئة وذهابًا في المصنع أسفل منهما. كما لم يستطيعا أن يحددا بالضبط في حالات عديدة ما الذي يحدث. فالأعمال الهندسية التي تجري تتم على نطاق لم يخطر قط على عقول البشر.

قال الرجل النسر: «أحضرتكما إلى الأعلى أولًا لكي تتمكنا من إلقاء نظرة شاملة. وبعدها سننزل إلى أرضية المصنع وسيصبح بوسعكما رؤية المزيد من التفاصيل.»

حدق ريتشارد ونيكول فيه في ذهول. وضحك الرجل النسر وواصل حديثه. إذ قال: «إذا ألقيتما نظرةً متأنيةً وفكرتما بطريقة منطقية ستريان أن هناك منطقتين كبيرتين من المناطق التي يتكون منها السهل الرئيسي قد أخليتا تمامًا: واحدة بالقرب من البحر الأسطواني، والأخرى هي المنطقة الممتدة حتى نهاية السلالم. ونحن نقيم الإنشاءات الجديدة في هاتين المنطقتين. أما المنطقة التي تقع بين هاتين المنطقتين فلم تتغير عما كانت عليه عندما تركتم راما. إذ إننا نتبع قاعدة هندسية عامة هنا وهي ألا نغير سوى المناطق التي سنستخدمها في المهمة التالية.»

تهلل وجه ريتشارد. وسأل: «أتقول إن هذه المركبة الفضائية يعاد استخدامها مرارًا وتكرارًا؟ وأنكم لا تُدخلون عليها سوى التغييرات «اللازمة» في كل مهمة؟»

أومأ الرجل النسر برأسه.

فأردف ريتشارد قائلًا: «إذن فتلك البقعة التي تكتظ بناطحات السحاب هذه التي نسميها نيويورك ربما تكون قد بُنيت لمهمة ما سابقة، وتركتموها على حالها لعدم وجود حاجة إلى إدخال تعديلات عليها؟»

لم يُجب الرجل النسر عن السؤال الذي طرحه ريتشارد. وإنما أشار إلى المنطقة الشمالية من السهل الرئيسي. وقال: «سيكون مسكنكم هناك. لقد انتهينا لتوِّنا من البنية التحتية التي تسمونها «المرافق» بما فيها المياه والكهرباء والصرف الصحي والتحكم البيئي الكامل. وهناك مساحة من المرونة في تصميم باقي العملية. ولهذا أحضرناكم إلى هنا.»

سأل ريتشارد: «ما هذا المبنى الصغير ذو القبة الذي يقع جنوب المنطقة الخالية؟» كان لا يزال يشعر بالارتباك من فكرة أن نيويورك قد تكون مجرد أطلال باقية من رحلة راميَّة سابقة.

أجاب الرجل النسر قائلًا: «هذا هو مركز التحكم. سنخزن فيه التجهيزات التي تدير مسكنكم. عادة ما نخبئ مركز التحكم تحت المنطقة السكنية، في الغلاف الخارجي من راما، ولكن في حالتكم، قرر واضعو التصميم وضعه على السهل.»

سألت نيكول، وهي تشير إلى المنطقة الخالية التي تقع مباشرة شمال المكان الذي كان البحر الأسطواني سيحتله في حالة إعادة تجميع راما بالكامل: «ما هذه المنطقة الضخمة الموجودة هناك؟»

أجاب الرجل النسر قائلًا: «ليس مسموحًا لي أن أطلعكما على الغرض منها. في الواقع، أنا مندهش من أنهم سمحوا لي أن أطلعكما على حقيقة وجودها. فعادة ما يجهل المسافرون

الذين يقومون برحلة العودة كل ما يتعلق بمحتويات مركبتهم ولا سيما خارج مسكنهم. والهدف من هذا هو — بالطبع — أن يظل كل نوع في الوحدة الخاصة به.»

قالت نيكول لريتشارد وهي تلفت انتباهه إلى المنطقة الأخرى: «انظر إلى هذا المرتفع أو البرج في المنتصف. لا بد أن ارتفاعه يبلغ تقريبًا كيلومترين.»

«وهو على شكل كعكة حلقية. أعني أن وسطه مجوف.»

لاحظا أن الجدران الخارجية لما قد يكون مسكنًا آخر متطورة للغاية. ولن يمكن رؤية ما بداخلها من داخل المصنع.

سألت نيكول: «أيمكنك أن تعطينا لمحة عن ساكني هذا المكان؟»

هز الرجل النسر رأسه بالنفي وقال بحزم: «هيا. حان وقت النزول.»

ترك ريتشارد ونيكول التلسكوب، وألقيا نظرة سريعة على المظهر العام لمسكنهم (الذي لم يكن بناؤه مكتملًا مثل المكان الآخر)، ثم تبعا الرجل النسر عائدين إلى الممر. بعد خمس دقائق من المشي وصلا إلى ما وصفه الرجل النسر بأنه مصعد.

قال المرشد: «يجب أن تثبتا أنفسكما في المقعدين بعناية. فنحن سننطلق بسرعة شديدة.»

كانت الزيادة في سرعة الكبسولة البيضاوية الغريبة هذه زيادة مفاجئة. ثم انخفضت سرعتها فجأة، بعد أقل من دقيقتين. حينها كانوا قد وصلوا إلى داخل المصنع. وسأل ريتشارد بعد إجراء حسابات عقلية سريعة: «هذا الشيء يتحرك بسرعة ثلاثمائة كيلومتر في الساعة، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل النسر قائلًا: «هذا إن لم يكن في عجلة من أمره.»

خرج ريتشارد ونيكول من المصعد وراءه، وسارا نحو المصنع. كان المصنع ضخمًا. بل أكثر ضخامةً من راما نفسها من جوانب عدة، وقد استنتجا هذا لأن نحو نصف المركبة العملاقة كان على الأرض حولهما. تذكَّرا الأحاسيس الجارفة التي اعتملت في نفسيهما وهما يركبان عربات التلفريك في راما وينظران إلى الأبراج الغامضة الواقعة في التجويف الجنوبي على الجانب الآخر من البحر الأسطواني. عادت تنتابهما مشاعر المهابة والإعجاب التي صاحبت تلك اللحظات، بل عادت بقوة أكبر، وريتشارد ونيكول يحدقان في النشاط الجاري حولهما وفوقهما في المصنع.

كان المصعد قد أنزلهما في الطابق الأرضي على مشارف إحدى المناطق التي يضمها محل إقامتهم مباشرة. كان الغلاف الخارجي لراما أمامهما. فقاسا سمكه وهما يسيران

إلى الجانب المقابل لمخرج المصعد. وقال ريتشارد لنيكول: «يبلغ سمكه حوالي مائتي متر»، مجيبًا على سؤال ظلت إجابته معلقة منذ أيامهم الأولى على متن راما.

سألت نيكول: «ماذا يوجد في الغلاف الخارجي تحت مسكننا؟»

رفع الرجل النسر ثلاثة من أصابعه الأربعة مشيرًا بذلك إلى أنهما يسألان عن معلومات تندرج تحت المستوى الثالث. فضحك الاثنان.

بعد دقائق قليلة، سألت نيكول الرجل النسر قائلة: «هل ستذهب معنا؟»

أجاب قائلًا: «إلى نظامكم الشمسي؟ كلا، لا أستطيع. ولكنني أقر بأن التجربة ستكون مشوقة.»

قادهما الرجل النسر إلى منطقة يبلغ فيها النشاط أوجه. حيث يجري عدد كبير من الرجال الآليين أعمالًا في بناء أسطواني ضخم يبلغ ارتفاعه نحو ستين مترًا. وقال الرجل النسر: «هذا مصنع إعادة تدوير السوائل الرئيسي. فكل السوائل التي تُصرف إلى المصارف أو البالوعات في مسكنكم تُرسل إلى هنا في النهاية. ثم يعاد ضخ المياه بعد تنقيتها إلى مستعمرتكم، ونحتفظ بباقي المواد الكيماوية لاستخدامها لأغراض أخرى. سنتخذ ما يلزم ليكون هذا المصنع حصينًا ومانعًا للتسرب. فهو يستخدم تكنولوجيا تفوق مستوى تطوركم بكثير.»

صعد بهما الرجل النسر سُلَّمًا يؤدي إلى داخل المسكن نفسه. ثم صحبهما في جولة مرهقة. كان يطلعهما خلالها على الملامح المميزة لكل قسم من أقسام المسكن، ثم كان يأمر أحد الآليين بنقلهما إلى القسم المجاور له حتى يعرفهما عليه.

بعد عدة ساعات عندما كان الرجل النسر يستعد ليصحبهما إلى قسم آخر من أقسام المكان الذي سيقيمان فيه، سألته نيكول: «ماذا تريدوننا أن نفعل هنا بالضبط؟»

أجاب الرجل النسر: «لا شيء محددًا. هذه هي الزيارة الوحيدة التي ستقومان بها إلى راما. والهدف منها هو أننا نريدكما أن تطلعا على حجم مسكنكما على الطبيعة، لعل هذا يسهل عملية وضع التصميم. ونحن نحتفظ في وحدة الإسكان بنموذج لراما يبلغ حجمه واحدًا على عشرين من الحجم الأصلي وسنقوم بما تبقى من العمل هناك.» ثم نظر إلى ريتشارد ونيكول. وقال: «نستطيع أن نرحل متى شئتما.»

جلست نيكول على صندوق معدني رمادي وأخذت تتطلع فيما حولها. كان عدد الآليين وتنوعهم كفيلين وحدهما بإصابتها بدوار. ولم يفارقها الذهول منذ أن خرجت من الشرفة التي تطل على المصنع، وصارت الآن تشعر بخدر شديد. فمدت يديها إلى ريتشارد.

وقالت: «أعرف أن عليَّ أن أدرس ما أراه يا حبيبي، ولكنني لم أعد أستوعب ما أراه. وأشعر بأنني قد اكتفيت بما رأيته.»

فرد ريتشارد قائلًا: «أوافقك الرأي. لم أكن لأتخيل أبدًا أنه من الممكن أن يكون هناك شيء مدهش ومبهر أكثر من راما، ولكن هذا المصنع بالتأكيد فاق ما تخيلته.»

قالت نيكول: «ألم يخطر ببالك، بعد أن دخلنا هنا، أن تتساءل كيف يبدو المصنِّع الذي صنع هذا المكان؟ بل الأدهى من ذلك أن تتخيل عملية تصنيع النود!

ضحك ريتشارد. وقال: «يمكننا أن نواصل التعليق إلى ما لا نهاية. إذا كان النود عبارة عن آلة بالفعل، كما تبدو، فإنها بالتأكيد من طراز يفوق طراز راما. وراما صُممت هنا على الأغلب. ويتحكم فيها النود، حسبما أظن. ولكن ما الذي صنع النود ويتحكم فيه؟ هل هو مخلوق مثلنا ظهر إلى الوجود بفعل التطور البيولوجي؟ هل لا يزال له وجود بأي معنًى يمكن أن نفهمه، أم أنه تحول إلى كيان آخر، بعد أن اكتفى بأن تبقى الآلات المدهشة التي صنعها شاهدًا على قدراته؟»

جلس ريتشارد بجوار زوجته. وقال: «هذا أكثر مما أحتمل. أعتقد أنني اكتفيت أنا أيضًا ... لنعد إلى الأطفال.»

مالت نيكول وقبلته. وقالت: «أنت رجل ذكي جدًّا يا ريتشارد. وأظن أنك تعرف أن هذا أحد الأسباب التي جعلتني أحبك.»

تدحرج آلي ضخم يشبه الرافعة الشوكية بالقرب منهما وهو يحمل ألواحًا معدنية ملفوفة. فهز ريتشارد رأسه متعجبًا مرة أخرى. وقال بعد لحظة من الصمت: «أشكرك يا حبيبتي. أحبك أيضًا، وأنت تعرفين هذا.»

وقفا وأشارا إلى الرجل النسر بأنهما مستعدان للرحيل.

في الليلة التالية، عندما عادا إلى شقتهما في وحدة الإسكان، ظل ريتشارد ونيكول مستيقظين طوال ثلاثين دقيقة بعد أن تطارحا الغرام. سألته نيكول: «ما بك يا حبيبي؟ هل ثمة ما يضايقك؟»

أجاب ريتشارد: «انتابتني اليوم نوبة ضبابية أخرى. وقد استمرت نحو ثلاث ساعات.»

قالت نيكول: «يا إلهي!» وجلستْ على الفراش. وتابعت قائلةً: «هل أنت بخير الآن؟ هل أحضر أداة الفحص الأوتوماتيكية وأرى إن كان هناك تغير في الظواهر البيولوجية؟»

أجاب ريتشارد وهو يهز رأسه نافيًا: «كلا. إن النوبات الضبابية التي تنتابني لم تظهر قط على آلتك. ولكن هذه النوبة أزعجتني حقًّا. فقد جعلتني أدرك كم أصبح عاجزًا

عندما تنتابني هذه الحالة. فأنا أكاد أشعر بالعجز، فما بالك بتمكني من مساعدتك أنت أو الأطفال إن مررتم بأزمة حينها. هذه النوبات ترعبني.»

«هل تتذكر ما الذي جاء بهذه النوبة؟»

«طبعًا. كالعادة. كنت أفكر في رحلتنا إلى حظيرة المركبات، وخاصة في المسكن الآخر. ثم بدأت أتذكر، دون قصد مني، بضعة مشاهد غير مرتبطة من الرحلة التي قمت بها، وفجأة خيم الضباب على عقلي. كان كثيفًا جدًّا. بل إنني لا أظن أنني كنت سأتعرف عليك لو رأيتك أمامي في الدقائق الخمس الأولى منه.»

قالت نيكول: «كم يؤسفني هذا، يا حبيبي!»

«وكأن ثمة شيئًا ما يراقب أفكاري. وعندما أصل إلى جزء معين من ذاكرتي، يعطيني تحذيرًا ما.»

ساد الصمت دقيقة تقريبًا.

ثم قالت نيكول: «عندما أغمض عينيَّ أرى كل هؤلاء الآليين وهم ينطلقون في راما.»

«أنا أيضًا.»

«ومع هذا، ما زلت أعجز عن تصديق أن هذا كان مشهدًا حقيقيًّا، وليس مشهدًا من حلم، أو من فيلم.» ثم ابتسمت. وقالت: «لقد عشنا حياة لا يصدقها عقل على مدى الأعوام الأربعة عشر الماضية، أليس كذلك؟»

أجاب ريتشارد وهو يتقلب على جنبه متخذًا الوضع الذي عادة ما ينام فيه: «بالتأكيد. ومن يدري؟ ربما لم يأتِ الفصل الأكثر تشويقًا بعد.»

٦

ظهرت صورة هولوجرافية مجسمة لعدن الجديدة في منتصف حجرة المؤتمرات الكبيرة بمقياس يبلغ ١ إلى ٢٠٠٠. من المفترض أن يشغل المسكن الأرضي في راما مساحةَ مائة وستين كيلومترًا مربعًا من السهل الرئيسي، تبدأ من المنطقة المقابلة لقاعدة السلم الشمالي الطويل. ومساحته من الداخل كالتالي: يبلغ الطول عشرين كيلومترًا بالاتجاه المحيط بالأسطوانة، ويبلغ عرضه ثمانية كيلومترات بالاتجاه الموازي لمحور الدوران الأسطواني، ويبلغ الارتفاع ثمانية كيلومترات تمتد من أرض المستعمرة وحتى السقف الشاهق.

ولكن نموذج عدن الجديدة الذي كان في وحدة الإسكان والذي استخدمه الرجل النسر وريتشارد ونيكول لوضع التصميم كان يتسم بحجم أصغر. وكان يناسب حجم

الغرفة الكبيرة، وقد أتاحت الصور الهولوجرافية المجسمة الفرصة للمصممين للسير داخل البنايات المختلفة وبينها. وكانت التعديلات تتم عن طريق استخدام الروتينات الفرعية الخاصة بالتصميم بمعاونة الكمبيوتر التي تنشط فور تلقي الأوامر الصوتية من الرجل النسر.

قالت نيكول للرجل النسر وهي ترسم دائرة بضوء مصباحها اليدوي الأسود حول مجموعة من المباني الواقعة في منتصف المستعمرة، بادئةً ثالث نقاش طويل يدور حول التصميم: «لقد غيرنا رأينا مرة أخرى. الآن، نعتقد أنها فكرة سيئة أن نجعل كل المنشآت في مكان واحد، إذ سيؤدي ذلك إلى الازدحام. لذا أرى أنا وريتشارد أنه من الأفضل أن ننشئ المناطق السكنية والمحال التجارية الصغيرة في أربع قرى منفصلة في زوايا المستطيل. بحيث لا تصبح هناك أي منشآت في المنطقة الوسطى سوى تلك التي يستخدمها الجميع.»

أضاف ريتشارد: «بالطبع، ستغير فكرتنا الجديدة بالكامل سير المواصلات الذي ناقشناه أنا وأنت أمس، وكذلك الأماكن متساوية المساحة التي خصصناها للحدائق وغابة شيرwood، وبحيرة شكسبير وجبل الأوليمب. ولكن كل العناصر الأساسية يمكن دمجها في التصميم الحالي لعدن الجديدة؛ تفضل، ألقِ نظرة على هذا الرسم وسترى التوزيع الجديد للأماكن.»

عبس الرجل النسر، فيما يبدو، وهو ينظر إلى مساعديه البشريين. وبعد وهلة نظر إلى الخريطة الظاهرة على كمبيوتر ريتشارد المحمول. وعلق قائلًا: «آمل أن يكون هذا آخر تغيير كبير نجريه. فنحن لن نحرز تقدمًا كبيرًا إن بدأنا من الصفر في كل مرة نلتقي فيها.»

قالت نيكول: «نحن آسفان. ولكن الأمر استغرق منا بعض الوقت لنستوعب حجم مهمتنا. فحسبما فهمنا، فإننا نضع تصميم مكان سيقيم فيه مدةً طويلة ألفان من البشر، وإذا كان الأمر يتطلب القيام بعدة تغييرات لضمان إنجاز المهمة على الوجه الأمثل، فيتعين علينا ألا نبخل بالوقت اللازم لذلك.»

قال الرجل النسر: «أرى أنكما زدتما عدد البنايات الضخمة في المجمع المركزي. فما الغرض من هذا المبنى الواقع خلف المكتبة ومبنى الاجتماعات العامة؟»

أجابت نيكول: «إنه مبنى للأنشطة الرياضية والترويحية. سنضع فيه مضمارًا للجري، وملعب بيسبول، وملعب كرة قدم، وملاعب تنس، وقاعة للتمارين الرياضية، وحمام سباحة، إضافةً إلى عدد من المقاعد في كل مكان يكفي لاستيعاب كل السكان. أرى أنا وريتشارد أن ممارسة الألعاب الرياضية ستكون مهمة جدًّا لشغل الوقت في عدن الجديدة، خاصة أن الكثير من الأعمال الروتينية سيقوم بها الآليون.»

«لقد وَسَّعتُم أيضًا أحجام المستشفى والمدارس ...»

قاطعه ريتشارد قائلًا: «كنا في منتهى الحذر ونحن نقسم المساحة المتاحة في البداية. فلم نترك ما يكفي من المساحة للأنشطة التي لم نحددها بعد.»

كان أول اجتماعين عُقدا لوضع التصميم قد استمرَّا مدة عشر ساعات. وفي البداية تعجب ريتشارد ونيكول من سرعة الرجل النسر في تضمين مقترحاتهم في توصيات محددة لإنجاز التصميم. ولكن بحلول الاجتماع الثالث كانا قد اعتادا على سرعته ودقته؛ فلم يعد ذلك أمرًا يثير دهشتهما. أما ما ظل يدهشهما فهو الاهتمام الشديد الذي أبداه ذلك الآلي الفضائي ببعض التفاصيل الثقافية. فعلى سبيل المثال، طرح عليهما أسئلة كثيرةً حول الاسم الذي اختير للمستعمرة الجديدة. وبعد أن شرحت له نيكول أنه من الضروري أن يكون لموطنهم اسم محدد، سأل الرجل النسر عن معنى اسم «عدن الجديدة» ومغزاه.

فشرح له ريتشارد قائلًا: «لقد أمضينا القسم الأكبر من إحدى الأمسيات في نقاش حول اسم المسكن، اشترك فيه جميع أفراد الأسرة وطُرح العديد من الاقتراحات الجيدة، معظمها مُستقًى من تاريخ الجنس البشري وآدابه. تصدَّر اسم يوتوبيا قائمة الاقتراحات. وفكرنا جديًّا في أركاديا والجنة والفردوس وكونكورديا وبوفوا. ولكن في النهاية رأينا أن عدن الجديدة هو أفضل خيار.»

أضافت نيكول قائلةً: «تمثل عدن الأسطورية بداية ما يمكن أن نسميه الثقافة الغربية الحديثة. إذ إنها كانت جنة خضراء مورفة الظلال يُقال إن إلهًا قديرًا كان قد خلق كل شيء قد صممها خصوصًا للبشر. كانت عدن الأولى هذه غنية بكل أشكال الحياة، ولكنها تخلو من التكنولوجيا.

كذلك، مركبة عدن الجديدة تمثل بداية. ولكنها تمثل نقيضًا لعدن القديمة من أغلب النواحي. فعدن الجديدة معجزة تكنولوجية تفتقر إلى أشكال الحياة المختلفة، على الأقل في البداية؛ فلن يكون بها سوى حفنة قليلة من البشر.»

ما إن أُتم وضع التصميم العام للمستعمرة حتى صارت هناك حاجة للبت في مئات التفاصيل. وأوكل إلى كيتي وباتريك مهمة وضع تصميم الحدائق العامة لكلٍّ من القرى الأربع. ومع أنهما لم يريا قط ورقة عشب فعلية أو زهرة حقيقية أو شجرة عالية، فقد شاهدا الكثير من الأفلام والكثير جدًّا من الصور التي تظهر فيها النباتات. وابتكرا في النهاية أربعة تصميمات مختلفة ورائعة، لمساحة تضم مناطق مفتوحة، وحدائق عامة، وممرات هادئة، تبلغ خمسة أفدنة في كل قرية.

سألت كيتي الرجل النسر: «لكن من أين سنأتي بالعشب؟ والزهور؟»
أجاب قائلًا: «سيأتي بها البشر القادمون من الأرض.»
«كيف سيعرفون ما ينبغي أن يحضروه؟»
«سنخبرهم نحن.»

كانت كيتي أيضًا هي من أشار بأن تصميم عدن الجديدة أغفل عنصرًا أساسيًّا، عنصرًا يعد ركنًا محوريًّا من أركان قصص ما قبل النوم التي كانت والدتها تحكيها لها وهي طفلة صغيرة. قالت: «لم أرَ حديقة حيوان قط. هل يمكن أن نحظى بحديقة حيوانات في عدن الجديدة؟»

غيَّر الرجل النسر الخطة الرئيسية أثناء انعقاد جلسة مناقشة التصميم التالية، بحيث صارت عدن الجديدة تضم حديقة حيوانات صغيرة عند حافة غابة شيروود.

تعاون ريتشارد مع الرجل النسر في وضع معظم التفاصيل التكنولوجية لعدن الجديدة. أما البيئة المعيشية فتولت أمرها نيكول. كان الرجل النسر قد اقترح في البداية بناء نمط واحد من المنازل تضم مجموعة متماثلة من الأثاث لجميع البيوت. فانفجرت نيكول ضاحكةً. وقالت: «لا ريب أنك لم تتعلم الكثير عن نوعنا. يجب أن يتمتع البشر بالتنوع. وإلا شعروا بالملل. إذا صممنا كل المنازل بنفس الشكل، فسيبدأ البشر في تغييرها على الفور.»

ونظرًا إلى أن نيكول لم يكن أمامها متسع من الوقت (فالمعلومات التي طلبها الرجل النسر كانت تتطلب من ريتشارد ونيكول العمل مدةً تتراوح بين عشر ساعات واثنتي عشرة ساعة يوميًّا، لحسن الحظ رحب مايكل وسيمون بالاعتناء بالأطفال) فقد استقر رأيها على ثمانية تصميمات أساسية للبيوت وأربعة أشكال من ترتيب الأثاث. وهكذا أصبح الإجمالي اثنين وثلاثين تصميمًا سكنيًّا مختلفًا. وفي آخر الأمر، حققت نيكول ما تصبو إليه من وضع تصميم يناسب نمط المعيشة اليومية، ويتسم بالتنوع والابتكار في الوقت ذاته، عن طريق تغيير التصميمات الخارجية لمباني كل قرية من القرى الأربع (إذ وضعت نيكول التفاصيل بمساعدة ريتشارد بعد الحصول على معلومات مفيدة من المؤرخ الفني مايكل أوتول).

اتفق ريتشارد والرجل النسر على أنظمة المواصلات والاتصالات الخارجية والداخلية التي ستعمل في عدن الجديدة في غضون بضع ساعات. ولكنهما واجها صعوبات عندما بدآ مناقشة التحكم البيئي الشامل وتصميمات الآليين. كانت فكرة الرجل النسر فيما يتعلق بالبنية التحتية لعدن الجديدة تقوم في بادئ الأمر على تقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعةً

من الضوء واثنتي عشرة ساعةً من الظلام. وكان يرى بضرورة انتظام فترات ظهور ضوء الشمس والسحب وهطول المطر. وكان يرى أيضًا ألا تختلف درجات الحرارة باختلاف المكان والزمان.

وعندما طلب ريتشارد إجراء تغييرات فصلية على طول مدة النهار وإضفاء مزيد من التنوع على كل متغيرات الطقس، أكد الرجل النسر أن السماح بإدخال هذه «التغييرات الجوهرية» على حجم الهواء الهائل في المسكن سيؤدي إلى استخدام المزيد من المصادر الحوسبية على نحو يفوق ما خُطط له أثناء وضع تصميم البنية التحتية في البداية. كما أشار الرجل النسر إلى أن هذا سيتطلب إعادة تصميم خوارزميات التحكم الرئيسية وإعادة اختبارها، مما سيؤدي إلى تأخير تاريخ المغادرة. أيدت نيكول ريتشارد فيما يتعلق بمسألة الطقس والفصول، وأخذت تشرح للرجل النسر أن السلوك البشري («الذي تطمح أنت والذكاء النودي إلى مراقبته كما هو واضح») يتوقف بكل تأكيد على هذين العاملين.

في النهاية توصلوا إلى حل وسط. سيكون طول الليل والنهار طوال السنة مثله مثل أي مكان يقع على خط عرض ثلاثين على كوكب الأرض. وسيصبح من المتاح تغيير المناخ بطريقة طبيعية في إطار محدود، بحيث لا يتدخل المتحكم الرئيسي إلا عندما تصل الأحوال المناخية إلى حد «إطار التصميم». وبهذا يمكن أن تتفاوت درجة الحرارة والرياح والأمطار بحرية في حدود النسب المسموح بها. غير أن الرجل النسر تمسك برأيه بشأن أمرين. إذ رفض السماح بوجود البرق والثلج. ففي حالة قرب حدوث أيٍّ من هاتين الظاهرتين المناخيتين (اللتين تضيفان «تعقيدات جديدة» على النموذج الحوسبي الذي يستخدمه) سيتدخل نظام التحكم تلقائيًّا ويضبط المناخ، وإن كانت باقي مظاهر الطقس داخل حدود إطار التصميم.

كان الرجل النسر يعتزم من البداية الإبقاء على نفس نوع الآليين الذي كان في أول مركبتين راميتين، ولكن ريتشارد ونيكول أكدا له أن الآليين الراميِّين غير مناسبين على الإطلاق، لا سيما الذين يشبهون أم أربع وأربعين وفرس النبي والسلطعون والعناكب.

وأوضحت نيكول ذلك قائلةً: «رواد الفضاء الذين كانوا على متن المركبتين الفضائيتين لا يُعدون بشرًا عاديين. بل إنهم، في الواقع، أبعد ما يكونون عن هذا. فلقد تلقينا تدريبًا خاصًّا للتعامل مع الآلات المعقدة، ومع هذا أصيب بعضنا بالخوف من الآليين الخاصين بكم. فما بالك بالبشر العاديين الذين سيشكلون على الأرجح الجانب الأكبر من سكان عدن الجديدة؛ إنهم لن يرحبوا على الإطلاق برؤية هذه الآلات الغريبة وهي تجوب أنحاء مملكتهم.»

بعد عدة ساعات من النقاش وافق الرجل النسر على تغيير تصميم الآليين المخصصين لمهام الصيانة. على سبيل المثال، القمامة سيجمعها آليون يشبهون عربات نقل القمامة العادية على الأرض؛ الاختلاف الوحيد هو أنها بلا سائق. وأعمال البناء سيقوم بها — في حالة الحاجة إليها — آليون يشبهون المركبات التي تقوم بمهام شبيهة على الأرض. وبهذا يصبح شكل الآلات الغريبة مألوفًا للمستعمرين، وتخف مخاوفهم التي يثيرها كل ما هو مجهول.

سألهم الرجل النسر في نهاية أحد الاجتماعات الطويلة: «وماذا عن القيام بالأعمال الروتينية، أعني الأنشطة اليومية؟ فكرنا في أن نستخدم آليين على شكل بشر يستجيبون للأوامر الصوتية وينتشرون بأعداد كبيرة ليخلصوا المستعمرين من عبء القيام بالأعمال الشاقة المملة. وقد أمضينا وقتًا كبيرًا في إدخال التحسينات على التصميمات منذ أن وصلتم.»

أعجبت فكرة وجود مساعدين آليين ريتشارد أما نيكول فعبرت عن تشككها في الأمر. وقالت: «من الضروري أن يسهل تمييز هؤلاء الآليين. فيجب ألا يلتبس الأمر على أحد — وإن كان طفلًا صغيرًا — فيظنهم من البشر.»

ضحك ريتشارد ضحكة عالية. وقال: «إنك أسرفتِ في قراءة قصص الخيال العلمي.»

اعترضت نيكول قائلةً: «لكن هذه مشكلة حقيقية. يمكنني تصور مدى الجودة التي سيتسم بها الآليون ذوو المظهر البشري الذين سيُصنعون هنا في النود. نحن لا نتحدث عن تلك الأشياء الخالية من التعبير التي رأيناها في راما. سيصاب الناس بالرعب إن لم يستطيعوا التفرقة بين البشر والآلات.»

أجاب ريتشارد: «إذن سنقلل عدد الاختلافات فيما بينهم. وسيكون من السهل تصنيفهم حسب المهمة الأساسية التي يقومون بها. هل يهدئ هذا من مخاوفك ...؟ من العيب علينا ألا نستغل هذه التكنولوجيا الرائعة.»

قالت نيكول: «ربما يفي هذا بالغرض، لكن يجب تنظيم دورة إرشادية قصيرة للبشر، تهدف إلى تعريفهم بأنواع الآليين المختلفة. يجب أن نضمن تمامًا عدم وجود مشاكل في التعرف على الآليين.»

بعد أسابيع من الجهد الجهيد كان معظم القرارات المهمة المتعلقة بالتصميم قد اتُّخذ، وخف عبء العمل الملقى على كاهلي ريتشارد ونيكول. فتمكنا من العودة إلى حياتهما الطبيعية بشكل أو بآخر مع الأطفال ومايكل. وذات مساء، زارهم الرجل النسر وأخبرهم أن عدن الجديدة تمر بآخر اختبار وأن الغرض الأساسي من هذا الاختبار هو التأكد من

قدرة الخوارزميات الجديدة على مراقبة البيئة والتحكم فيها في ظل مجموعة كبيرة من الظروف المحتملة.

واصل الرجل النسر حديثه قائلًا: «تحسبًا للطوارئ، وضعنا آلات لتبادل الغازات في كل الأماكن التي ستنمو فيها النباتات القادمة من الأرض: غابة شيروود وفي الحدائق وعلى طول شاطئ البحيرة وعلى جوانب الجبل. وتلك الآلات تعمل مثل النباتات فهي تمتص ثاني أكسيد الكربون وتنتج الأكسجين، وهي مساوية لها كميًّا أيضًا. وهي تمنع تراكم ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي لأن هذا من شأنه أن يضعف فعالية خوارزميات الطقس مع مرور الوقت. وتشغيل هذه الآلات يتطلب قدرًا من الطاقة لذا فقد قللنا القوة الكهربائية المتاحة للاستهلاك البشري خلال الأيام الأولى في المستعمرة تقليلًا طفيفًا. ولكن فور أن تزدهر النباتات سيكون من المتاح رفع هذه الآلات، وبهذا يتوافر قدر كبير من الطاقة اللازمة لأي غرض محتمل.»

قالت كيتي بعد أن انتهى: «حسنًا يا سيدي. كل ما نريد أن نعرفه هو موعد رحيلنا.»

أجاب الرجل النسر والتغضن الصغير الذي يقوم مقام الابتسامة يظهر على جانب فمه: «سأخبركم في يوم عيد الميلاد؛ أي بعد يومين.»

قال باتريك: «أخبرنا الآن، أرجوك يا سيدي.»

أجاب رفيقهم الفضائي: «حسنًا ... لا بأس. الحادي عشر من يناير هو التاريخ الذي نعتزم الانتهاء فيه من العمل الذي نجريه على راما في حظيرة المركبات. وننوي أن نحملكم في المكوك ونجعلكم ترحلون من النود بعد ذلك بيومين؛ أي، في صباح الثالث عشر من يناير.»

عندما بدأت فكرة رحيلهم تتضح تدريجيًّا، أخذت نيكول تحدث نفسها وقلبها يخفق بشدة: لم يبقَ أمامنا سوى ثلاثة أسابيع. وما زال أمامنا الكثير لنقوم به. نظرت إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث يجلس مايكل وسيمون جنبًا إلى جنب على الأريكة. وقالت لنفسها: يجب أيضًا أن أعدك للزفاف يا ابنتي الجميلة.

قالت سيمون: «إذن سنتزوج يوم عيد ميلادك يا أمي. لقد اتفقنا أن يقام الحفل قبل رحيل باقي أفراد الأسرة بأسبوع.»

تسللت الدموع لا إراديًّا إلى عينَي نيكول. فأطرقت رأسها حتى لا يراها باقي الأطفال. وقالت لنفسها: لم أعد نفسي بعد للحظة الوداع. بل إنني لا أحتمل مجرد التفكير في أنني لن أرى سيمون مرة أخرى.»

اختارت نيكول أن تكف عن المشاركة في اللعبة الجماعية التي كانت تشارك فيها مع أفراد الأسرة في غرفة المعيشة. واعتذرت لهم متعللة بأن عليها أن تعد بعض البيانات الخاصة بالتصميم النهائي للرجل النسر، ولكنها في الحقيقة كانت في أمس الحاجة لأن تختلي بنفسها بضع لحظات؛ حتى تخطط لآخر ثلاثة أسابيع من حياتها على النود. فأثناء تناول العشاء لم يكف عقلها عن التفكير في المهام التي عليها القيام بها. وكاد الذعر يستولي عليها. إذ كانت نيكول تخشى من ألا يكفي الوقت أو أن تنسى أحد الأشياء المهمة من الأساس. ومع هذا، ما إن وضعت قائمة كاملة بما تبقى أمامها من مهام إضافةً إلى الجدول الزمني اللازم لإنجازها، حتى هدأت بعض الشيء. إذ لم يكن إنجاز القائمة مستحيلًا.

من بين المهام التي أدخلتها نيكول على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها بحروف كبيرة ما يلي: «بينجي». وبينما هي جالسة على طرف سريرها تفكر في ابنها الأكبر المتأخر عقليًّا، وتوبخ نفسها لأنها لم تتصدَّ لهذا الأمر من قبل، سمعت نقرة عالية على بابها المفتوح. وكانت مصادفة مدهشة.

قال بينجي ببطء شديد وعلى وجهه ابتسامة بريئة كبيرة: «أم...مي، أيمكن أن أتحدث معك؟» وصمت دقيقة يفكر. ثم أضاف: «هل يمكن الآن؟»

أجابت نيكول: «بالطبع يا حبيبي. تعال، واجلس إلى جانبي على السرير.»

ذهب بينجي إلى جوار والدته وعانقها عناقًا شديدًا. ثم أطرق، وتكلم متلعثمًا. وقد بدا عليه أن هناك صراعًا يعتمل بداخله. وقال: «سـ...ـترحلين أنت وريـ...ـتـ...ـشارد وباقي الأطـ...ـفال قريبًا لوقت طويل جد...دًا.»

أجابت نيكول وهي تحاول أن تبدو مرحة: «هذا صحيح.»

«أ...بي وسـ...ـيـ...ـمون سيبقيان هنا ويتزو...جان؟»

جاءت عبارته في صيغة الاستفهام. ورفع رأسه وانتظر أن تؤكد نيكول قوله. وعندما أومأت برأسها بالإيجاب، فاضت عيناه بالدموع على الفور، وبدا الألم على قسمات وجهه. وقال: «وماذا عن بيـ...ـنـ...ـجي؟ ماذا سـ...ـيحـ... سيحدث لبيـ...ـنـ...ـجي؟»

فضمت نيكول رأس ابنها إلى كتفها وأخذت تبكي معه. كان جسده كله يرتجف وهو ينتحب. غضبت نيكول من نفسها لأنها ظلت تؤجل البت في هذا الموضوع كل هذه المدة. وقالت لنفسها: «كان يدرك ما سيحدث من البداية. منذ أول حوار دار بين أفراد الأسرة. وظل ينتظر طوال هذا الوقت. ويعتقد أن لا أحد يريده.»

عندما استعادت نيكول السيطرة على مشاعرها، نجحت في أن تقول: «الخيار لك يا حبيبي. سيسعدنا أن تأتي معنا. وسيكون والدك وسيمون سعيدين إن بقيت هنا معهما.»

حدق بينجي في والدته وكأنه لا يصدقها. فكررت نيكول كلامها ببطء شديد. فسألها: «أحقًّا؟»

أومأت نيكول برأسها بقوة.

ابتسم بينجي لحظةً، ثم حوَّل بصره عنها. وظل صامتًا لوقت طويل. وقال بعدها وهو يحدق نحو الحائط: «هنا، لن أجـ…ـد من ألعب معه. وستحتاج سيمون لأن تظل مع أ…بي وحدهما.»

اندهشت نيكول من مدى الإيجاز الذي لخص به بينجي أفكاره. بدا وكأنه ينتظر. فقالت نيكول بهدوء: «إذن فلتأتِ معنا. العم ريتشارد وكيتي وباتريك وإيلي وأنا جميعنا نحبك كثيرًا ونريدك معنا.»

التفت بينجي إلى والدته. وكانت دموع جديدة تسيل على وجنتيه. وقال: «سآتي معكم يا أمي»، ووضع رأسه على كتفها.

قالت نيكول لنفسها وهي تحتضنه: لقد اتخذ قراره من قبل. إنه أذكى مما ظننا. وما جاء إلى هنا إلا ليتأكد أننا نريده معنا.

٧

«… وامنحني، يا رب، القدرة على إسعاد هذه الفتاة الصغيرة الرائعة التي سأتزوجها. وامنحنا هبة حبك، واجعلنا نزداد معرفةً بك … أسألك هذا بحق ابنك الذي أرسلته إلى الأرض ليكون برهانًا لنا على حبك، وليخلصنا من الآثام. آمين.»

أبعد مايكل ريان أوتول البالغ من العمر الثانية والسبعين يديه إحداهما عن الأخرى وفتح عينيه. كان جالسًا إلى المكتب الموجود في حجرة نومه. نظر في ساعته. وقال في نفسه: لم يبقَ سوى ساعتين على زواجي بسيمون. ألقى مايكل نظرة عاجلة على صورة المسيح وعلى التمثال الصغير للقديس مايكل السييني الموضوع أمامه على المكتب. ثم قال بينه وبين نفسه: الليلة، بعد تناول الوجبة التي هي وليمة زواجنا وحفل عشاء عيد ميلاد نيكول في آنٍ واحد، سأضم هذا الملاك بين ذراعيَّ. ولم يستطع أن يمنع الفكرة التالية من أن ترد إلى ذهنه: يا إلهي، أدعوك ألا أُخيب أملها.

مد مايكل يده في درج مكتبه وأخرج منه نسخة صغيرة من الكتاب المقدس. هذا هو الكتاب الورقي الوحيد الذي يملكه. فباقي ما يقرأ يأخذ شكل مكعبات معلومات صغيرة

يدخلها في جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به. وكانت لهذا الكتاب مكانة خاصة جدًّا عنده فهو تذكار بقي له من حياة عاشها في يوم ما على كوكب بعيد.

أثناء طفولته ومراهقته كان يأخذ الكتاب المقدس معه أينما ذهب. لذا، اجتاحته الذكريات وهو يقلب الكتاب الأسود الصغير في يديه. وفي أول ذكرى أتته رأى نفسه طفلًا صغيرًا في السادسة أو السابعة من عمره. وقد جاء والده إلى غرفة نومه في المنزل. وقد كان يلعب لعبة فيديو تدور حول البيسبول على الكمبيوتر الشخصي الخاص به، فشعر بشيء من الإحراج؛ كان دائمًا ما يشعر بالانزعاج عندما يجده والده الجادُّ منهمكًا في اللعب.

قال له والده: «مايكل، أريد أن أعطيك هدية. الكتاب المقدس الخاص بك. إنه كتاب ورقي، كتاب تقرؤه عن طريق تقليب الصفحات. لقد وضعنا اسمك على الغلاف.»

أعطى الوالد الكتاب للصغير مايكل فأخذه قائلًا «شكرًا» بصوت خفيض. كان الغلاف من الجلد ووجد مايكل ملمسه جميلًا. واصل الوالدُ الحديثَ قائلًا: «في هذا الكتاب مجموعة من أفضل التعاليم التي عرفتها البشرية. اقرأه قراءةً متأنيةً. اقرأه كثيرًا. وسيِّر حياتك وفقًا لحكمته.»

وأخذ مايكل يتذكر: في تلك الليلة وضعت الكتاب المقدس تحت وسادتي. وظللت أحتفظ به في هذا المكان. طوال طفولتي. وحتى طوال مدة الدراسة الثانوية. وتذكر الحيل التي قام بها حين فاز فريق البيسبول التابع للمدرسة الثانوية الذي كان يلعب له وكان مسافرًا إلى سبرينجفيلد ليلعب في دوري الولاية بعد فوزه في بطولة المدينة. أراد مايكل أن يتمكن من الاحتفاظ بالكتاب المقدس معه دون أن يراه أحد من زملائه. ولم يكن احتفاظ الرياضيين في المرحلة الثانوية بالكتاب المقدس أمرًا «رائجًا»، ولم يكن الصغير مايكل لديه ما يكفي من الثقة بالنفس ليتغلب على خوفه من ضحك أقرانه عليه. فما كان منه إلا أن صمم جيبًا خاصًّا لكتابه المقدس في جانب حقيبة أدواته الخاصة، واحتفظ به هناك مغلقًا بغطاء واقٍ. وفي غرفته في فندق مدينة سبرينجفيلد، كان ينتظر حتى يدخل شريكه للاستحمام. ثم كان يُخرِج الكتاب المقدس من مخبئه ويضعه أسفل وسادته.

وتابع تأمل ذكرياته: أخذته معي في شهر العسل أيضًا. كانت كاثلين متفهمة للغاية. كعهدها دومًا في كل الأمور. وتذكر الشمس الساطعة والرمال البيضاء خارج جناحهما في جزر كايمان وسرعان ما داهمه إحساس شديد بالخسارة. فتساءل بصوت مسموع: «كيف حالك يا كاثلين؟ تُرى إلى أين أخذتك الحياة؟» ورآها بعين الخيال تتمشى حول البناية المبنية من الحجر البني التي كانا يقيمان فيها في شارع كومنولث أفنيو في مدينة بوسطن.

وأخذ يقول لنفسه: لا بد أن حفيدنا ماتْ قد صار يافعًا الآن. ترى هل لنا أحفاد آخرون؟ كم عددهم؟

تفاقم الألم الذي يعتصر قلبه وهو يتخيل أسرته، المكونة من زوجته كاثلين وابنته كولين وابنه ستيفن وأحفاده جميعًا، مجتمعةً حول المائدة الطويلة لتناول مأدبة عيد الميلاد من دونه. وفي خياله، كان يرى الثلج الخفيف يتساقط في الشارع. وقال لنفسه: «أظن أن ستيفن سيقود صلاة الأسرة الآن. فقد كان دائمًا أشد أبنائي تدينًا.»

هز مايكل رأسه عائدًا إلى الحاضر وفتح الكتاب المقدس على أولى صفحاته. وكانت في أعلى الصفحة كلمتا «معالم مهمة» مكتوبتين بخط جميل. كانت المدخلات في هذه الصفحة قليلة، فمجمل عددها ثمانية، وهي تمثل تأريخًا لأهم الأحداث التي وقعت في حياته.

١٣–٧–٦٧: الزواج من كاثلين ميرفي في بوسطن عاصمة ولاية ماساتشوستس.

٣٠–١–٦٩: مولد الابن توماس ميرفي أوتول في بوسطن.

١٣–٤–٧٠: مولد الابنة كولين جافين أوتول في بوسطن.

٢٧–١٢–٧١: مولد الابن ستيفين مولوي أوتول في بوسطن.

١٤–٢–٩٢: وفاة توماس ميرفي أوتول في مدينة باسادينا بولاية كاليفورنيا.

توقفت عينا مايكل عند هذه النقطة، عند موت ابنه الأول وسرعان ما فاضت بالدموع. ظلت ذكرى عيد الحب البغيض هذا حيَّةً فيه رغم مرور سنوات عليها. يومها كان قد صحب كاثلين لتناول العشاء في مطعم جميل في ميناء بوسطن يقدم المأكولات البحرية. وكانا قد كادا ينتهيان من تناول وجبتهما عندما سمعا الخبر لأول مرة. إذ جاء الشاب الذي كان يقدم لهما الطعام معتذرًا يقول: «آسف على تأخري في عرض قائمة أصناف الحلوى عليكما. فقد كنت أشاهد الأخبار عند البار. لقد وقع زلزال مدمر في جنوب كاليفورنيا.»

ثارت مخاوفهما على الفور. إذ إن تومي — قرة عينهما — كان قد حاز منحةً لدراسة الفيزياء في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا بعد أن أنهى دراسته في مدرسة هولي كروس بعد حصوله على أعلى الدرجات، مما أهله لإلقاء خطبة الوداع في حفل التخرج بصفته أكثر الطلاب تميزًا. ترك الزوجان ما تبقى من وجبتهما وأسرعا إلى البار. وهناك، علما أن الزلزال وقع في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً بتوقيت الساحل الغربي للولايات المتحدة. وذلك إثر اتساع صدع سان أندرياس الضخم بالقرب من ممر كاهون، فتناثر البشر المساكين والعربات والبنايات الواقعة في مساحة مائة ميل من المركز السطحي للزلزال مثلما تتقاذف الأمواج المراكب المشئومة في قلب الإعصار.

ظل مايكل وكاثلين يستمعان إلى الأخبار طوال الليل وهما يتأرجحان بين الخوف والرجاء بينما أخذ الحجم الحقيقي لأسوأ كارثة واجهتها البلاد في القرن الثاني والعشرين يتضح. بلغت قوة الزلزال المخيف ٨٫٢ على مقياس ريختر. وفقدَ عشرون مليون شخصٍ مصادر المياه والكهرباء ووسائل المواصلات والاتصالات. وابتلعت شقوق عمقها خمسون قدمًا مراكز تسوق بأكملها. وصار السير في أيٍّ من الطرق مستحيلًا. وقد خلف الزلزال خسائرَ أشد فداحةً وأوسع نطاقًا من الخسائر التي كانت ستتكبدها المنطقة الرئيسية من لوس أنجلوس لو أنها تعرضت للقصف بعدة قنابل نووية.

في مستهل الصباح، بل حتى قبل الفجر، أعلنت هيئة الطوارئ الفيدرالية عن رقم هاتف تتلقى عليه الاستفسارات. فأعطت كاثلين أوتول آلة تلقي الرسائل كل المعلومات التي يعرفانها، والتي تشمل عنوان شقة تومي ورقم هاتفها، واسم وعنوان المطعم المكسيكي الذي يعمل فيه لكسب مصروفه الشخصي، وعنوان رفيقته ورقم هاتفها.

قال مايكل في نفسه متذكرًا: انتظرنا طوال النهار والليل. ثم اتصلت شيريل. كانت قد نجحت بطريقة ما في قيادة سيارتها إلى منزل والديها في باواي.

قالت شيريل ودموعها تنهمر من عينيها: «انهار المطعم يا سيد أوتول. ثم اشتعلت فيه النيران. لقد تحدثت إلى نادل في المطعم ظل على قيد الحياة لأنه كان في الفناء الخارجي الملحق بالمطعم وقت وقوع الزلزال. كان تومي يعمل في أقرب موقع من المطبخ ...»

أخذ مايكل نفسًا عميقًا. وقال لنفسه وهو يجاهد لإبعاد ذكريات موت ابنه المؤلمة عن ذهنه: هذا خطأ. وكرر قوله: هذا خطأ. هذا وقت بهجة، لا وقت حزن. من أجل سيمون يجب ألا أفكر في تومي الآن.

أغلق مايكل الكتاب المقدس وكفكف دموعه. ثم وقف عند مكتبه، واتجه إلى الحمام. وحلق ذقنه بعناية وتأنٍّ ثم أخذ حمامًا دافئًا.

بعد خمس عشرة دقيقة، عندما فتح مايكل أوتول الكتاب المقدس مرةً أخرى، ممسكًا هذه المرة بقلم، كان قد تخلص من أشباح موت ابنه. وكتب بتأنق كلمات جديدة في صفحة المعالم المهمة، وعندما انتهى توقف ليقرأ آخر أربعة أسطر.

٣١–١٠–٩٧: مولد حفيدي ماثيو أرنولد رينالدي في مدينة توليدو بولاية أوهايو.

٢٧–٨–٠٦: مولد الابن بينجامين ريان أوتول في راما.

٧–٣–٠٨: مولد الابن باتريك إيرين أوتول في راما.

٦–١–١٥: الزواج بسيمون تياسو ويكفيلد.

قال لنفسه وهو ينظر إلى شعره الرمادي الخفيف في المرآة: أنت كهل يا أوتول. كان قد أغلق كتابه المقدس قبل عدة دقائق ثم عاد إلى الحمام ليصفف شعره مرة أخيرة. ثم أضاف: أكبر من أن تتزوج ثانية. وتذكَّر أول زواج له، قبل سبعة وأربعين عامًا، قائلًا: كان شعري كثيفًا أشقر حينها. وكانت كاثلين جميلةً. والمراسم رائعة. وشهقت لحظة أن رأيتها وهي في نهاية الممشى.

بدأت صورة كاثلين وهي مرتدية فستان الزفاف ومتأبطة ذراع والدها في نهاية الممشى في الكاتدرائية تتلاشى، وحلت محلها ذكرى أخرى لها، ذكرى غارقة في الدموع. لكن كانت الدموع هذه المرة دموع زوجته. كانت جالسة بجواره في الغرفة المخصصة لأفراد العائلة في كيب كينيدي عندما حان موعد المغادرة في الرحلة المتجهة إلى محطة الفضاء رقم ٣ التي تقع في مدار قريب من الأرض للانضمام إلى بقية طاقم نيوتن. قالت وهي تودعه وداعًا حارًّا للغاية: «اعتنِ بنفسك.» ثم تعانقا. ثم همست في أذنه قائلةً: «أنا فخورة بك للغاية يا حبيبي. وأحبك كثيرًا.»

«لأني أحبك كثيرًا»، كان هذا ما قالته أيضًا سيمون عندما سألها مايكل إن كانت تريد حقًّا أن تتزوجه وعن سبب رغبتها، إن كان الأمر كذلك. بدأت صورة رقيقة لسيمون تستحوذ على عقله وذكرى وداعه الأخير لكاثلين تتلاشى تدريجيًّا. قال مايكل متأملًا وهو يفكر في عروسه الصغيرة: إنك بريئة جدًّا يا سيمون وميَّالة إلى الثقة بالآخرين. فعلى الأرض، لن تكوني قد بدأت الدخول في علاقات عاطفية بعد. وسيعتبرك الآخرون مجرد فتاة.

مرت الثلاثون عامًا التي قضاها في راما بذهنه في لحظة. وتذكر أول ما تذكر مدى الصعوبة التي اكتنفت ميلاد سيمون، وتلك اللحظة الرائعة التي بكت فيها فوضعها برفق على بطن والدتها. تلت ذلك صورة سيمون وهي صغيرة جدًّا؛ كانت فتاة جادة في حوالي السادسة من عمرها، تستذكر دروس العقيدة باجتهاد تحت إشرافه. في صورة أخرى، كانت تنط الحبل مع كيتي وهي تغني أغنية مرحة. وآخر صورة مرت بذهنه هي صورة الأسرة وهي في نزهة خلوية على شاطئ البحر الأسطواني في راما. كانت سيمون واقفةً بجوار بينجي باعتزاز وكأنها ملاكه الحارس.

قال الجنرال مايكل أوتول لنفسه وعقله ينتقل إلى سلسلة أحدث من الصور: كانت قد وصلت إلى مرحلة الشباب عندما وصلنا إلى النود. إنها تقية للغاية. وصبورة مع الأطفال الصغار وتتحلى بالإيثار معهم. ولم ينجح أحد في رسم ابتسامة على وجه بينجي كما تفعل هي.

هناك خيط واحد يجمع بين كل صور سيمون هذه. وهو أن تلك الصور في عقله كان يغلفها الحب الجارف الذي يكنه لعروسه الطفلة. ولم يكن هذا الحب يشبه الحب الذي عادةً ما يشعر به الرجل تجاه المرأة التي سيتزوجها، وإنما هو أقرب ما يكون إلى الافتتان. ولكنه كان حبًّا على أي حال، وقد ربط هذا الحب بين الزوجين غير المتكافئين برباط قوي.

عندما أنهى مايكل ارتداء ملابسه قال لنفسه: أنا رجل محظوظ جدًّا. فقد اختار الله أن يريني آياته بصور مختلفة.

كانت نيكول تساعد سيمون في ارتداء ملابسها في الجناح الرئيسي الواقع في الطرف الآخر من الشقة. لم يكن فستان سيمون فستان زفاف بالمعنى التقليدي، لكنه كان أبيض ومكسوًّا بالشرائط الصغيرة عند الكتفين. ولا شك أنه كان مختلفًا تمامًا عن الملابس غير الرسمية التي اعتادت الأسرة ارتداءها يوميًّا.

وضعت نيكول المشابك في شعر ابنتها الأسود الطويل بعناية ثم تأملت صورتها في المرآة. وقالت: «تبدين جميلة.»

نظرت في ساعتها. كان أمامهما عشر دقائق. وسيمون كانت جاهزة تمامًا إلا أنها لم ترتدِ حذاءها بعد. فكرت نيكول لحظة قائلة لنفسها: حسن. يمكن أن نتكلم الآن. فبدأت الكلام قائلةً: «حبيبتي»، وتهدج صوتها فجأة.

قالت سيمون بلطف: «ما الأمر يا أمي؟» كانت سيمون جالسة على السرير بجوار والدتها، وترتدي حذاءها الأسود بعناية.

بدأت نيكول حديثها مرة أخرى: «عندما تحدثنا الأسبوع الماضي عن العلاقة الزوجية كان هناك العديد من النقاط التي لم نناقشها.» رفعت سيمون عينيها إلى والدتها. كانت شديدة الانتباه لدرجة جعلت نيكول تنسى للحظة ما كانت ستقوله. بعد لحظة سألتها متلعثمةً: «هل قرأت تلك الكتب التي أعطيتك إياها ...؟»

عقدت سيمون حاجبيها في حيرة. ثم أجابت: «بالطبع يا أمي. لقد تحدثنا في هذا أمس.»

أمسكت نيكول بيدَي ابنتها. وقالت: «مايكل رجل رائع. فهو حنون ومحب ويراعي مشاعر الآخرين، ولكنه كهل. والرجال في هذه السن ...»

قاطعتها سيمون برفق قائلةً: «لست متأكدة من أنني أفهمك يا أمي. ظننت أنك تريدين إخباري بشيء عن العلاقة الحميمة.»

قالت لها نيكول بعد أن أخذت نفسًا عميقًا: «ما أحاول قوله هو أنك قد تحتاجين للتحلي بالصبر والحنان الشديدين مع مايكل في الفراش. فقد لا تسير الأمور على ما يرام.»

حدقت سيمون في والدتها طويلًا. ثم قالت بهدوء: «شككت في هذا بسبب التوتر الذي بدا عليكِ عندما أثير الموضوع، وبسبب قلق خفي قرأته على وجه مايكل. لا تقلقي يا أمي فليست لي آمال جارفة. لأننا في المقام الأول لم نتزوج رغبةً في الإشباع الجنسي. ولما كنت أفتقر إلى أي تجارب من أي نوع، فيما عدا تشابك أيدينا الأسبوع الماضي، فإن أي متعة سأشعر بها ستكون جديدة، ومن ثم رائعة.»

ابتسمت نيكول لابنتها التي بلغت درجة مذهلة من النضج مع أنها لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها. وقالت وعيناها مغرورقتان بالدموع: «أنت جوهرة.»

قالت سيمون وهي تحتضن والدتها: «أشكرك يا أمي.» ثم أضافت: «تذكري أن الرب يبارك زواجي بمايكل. وسنسأل الرب أن يساعدنا عندما تواجهنا أي مشاكل. سنكون بخير.»

اعتصر شعور مفاجئ بالغم قلب نيكول. وقال صوت بداخلها: أسبوع، وبعده لن أرى ابنتي المحبوبة هذه ثانيةً. وظلت تحتضن ابنتها حتى دق ريتشارد الباب وأخبرهما أن الجميع مستعدون للمراسم.

٨

قالت سيمون بابتسامة رقيقة على وجهها: «صباح الخير.» كان باقي أفراد الأسرة جالسين حول المائدة يتناولون الإفطار عندما دخلت هي ومايكل الغرفة ويداهما متشابكتان.

أجاب بينجي: «صباح النور.» كان فمه مملوءًا بالخبز المحمر المدهون بالزبد والمربى. قام من على مقعده ودار ببطء حول الطاولة واحتضن أحب أخواته إليه.

كان باتريك خلفه مباشرةً. وسأل سيمون: «هل ستساعدينني في استذكار الرياضيات اليوم؟ تقول أمي إن عليَّ أن أجتهد في دراستي لأننا عائدون إلى النظام الشمسي الخاص بنا.»

جلس مايكل وسيمون في مكانهما بعد أن عاد الولدان إلى مقعديهما. ومدت سيمون يدها إلى ركوة القهوة. إنها تشبه والدتها في صفة واحدة. وهي أنها لا تستطيع أداء المهام المطلوبة كما ينبغي في الصباح إلا بعد أن تتناول قهوتها.

سألت كيتي بأسلوبها المعتاد الذي يفتقر إلى التهذيب: «ها، هل انتهى شهر العسل أخيرًا؟ لقد مرت ثلاث ليال ويومان. لا بد أنكما استمعتما إلى كل مقطوعة موسيقية كلاسيكية في قاعدة البيانات.»

ضحك مايكل بعفوية. وقال وهو يبتسم لسيمون ابتسامةً دافئةً: «صحيح يا كيتي. لقد رفعنا اللافتة المكتوب عليها «نرجو عدم الإزعاج» من على الباب. فنحن نريد أن نبذل ما بوسعنا لمساعدة الجميع في حزم الأمتعة للرحلة.»

علقت نيكول، وقد أسعدها أن ترى مايكل وابنتها متآلفَين للغاية بعد عزلتهما الطويلة، قائلةً: «لا عليك، فنحن سنتولى أمر ذلك.» ثم قالت لنفسها بسرعة: لم يكن هناك داعٍ للقلق. فسيمون أكثر نضجًا مني في بعض الجوانب.

قال ريتشارد بلهجة شاكية: «ليت الرجل النسر يعطينا مزيدًا من التفاصيل حول رحلة العودة. فهو يرفض إطلاعنا على المدة التي ستستغرقها الرحلة وما إذا كنا سننام طوال الطريق أم لا، أو أي معلومة دقيقة.»

ذكَّرت نيكول زوجها بأن الرجل النسر قال إنه لا يعرف أي شيء على وجه اليقين. وقالت: «هناك متغيرات «لا يمكن التحكم فيها» يمكن أن تنتج عنها الكثير من السيناريوهات المختلفة.»

عارضها ريتشارد قائلًا: «إنك دائمًا ما تصدقينه. أنت أكثر مَن رأيت ثقةً بالآخرين ...»

قطع جرس الباب حوارهما. فذهبت كيتي لتفتح الباب وعادت بعد دقائق قليلة مع الرجل النسر. اعتذر الرجل الطائر قائلًا: «آمل ألا أكون قد قطعت إفطاركم، ولكن علينا إنجاز الكثير اليوم. أريد أن ترافقني السيدة ويكفيلد.»

احتست نيكول آخر ما في قهوتها وتطلعت إلى الرجل النسر باستغراب. قالت: «بمفردي؟» كانت تحس بخوف غامض يسري بداخلها. إنها لم تخرج من شقتها مع الرجل النسر بمفردهما قط طوال مدة إقامتها في النود التي دامت ستة عشر شهرًا.

أجاب الرجل النسر: «نعم. ستأتين معي بمفردك. ثمة مهمة خاصة لن يستطيع إنجازها سواك.»

«أيمكنك أن تمنحني عشر دقائق أستعِد فيها؟»

أجاب الرجل النسر: «بالتأكيد.»

بينما كانت نيكول خارج الغرفة، أمطر ريتشارد الرجل النسر بالأسئلة. وعند مرحلة ما من حديثهما، قال ريتشارد: «حسنًا، أرى أنكم واثقون الآن من إمكانية أن نظل نائمين

بأمان أثناء أوقات زيادة السرعة وإبطائها، استنادًا إلى كل تلك الاختبارات. ولكن كيف سيكون الوضع أثناء الرحلة العادية؟ هل سنكون مستيقظين أم نائمين؟»

أجاب الرجل النسر: «غالبًا ستكونون نائمين، فبهذا سنتمكن من أن نؤخر التقدم في السن وسنضمن الحفاظ على صحتكم. ولكن من الوارد أن تحدث أمور عديدة غير متوقعة. وربما نضطر أن نوقظكم عدة مرات أثناء الرحلة.»

فسأله ريتشارد: «لماذا لم تخبرنا بهذا من قبل؟»

رد عليه: «لأن الأمر لم يكن قد حُسم بعد. فسيناريو مهمتكم به بعض التعقيد، ولم نحدد الخطة الرئيسية إلا مؤخرًا.»

قالت كيتي: «لا أريد أن «يتأخر» تقدمي في السن. أريد أن أكون امرأة ناضجة عندما نقابل البشر الآخرين القادمين من كوكب الأرض.»

قال الرجل النسر لكيتي: «كما أخبرت أمك وأباك أمس، من المهم أن ننجح في إبطاء عملية التقدم في السن أثناء نومك أنت وأسرتك. فنحن لا نعرف بالضبط متى سنعود إلى نظامكم الشمسي. فإن افترضنا أنكم ستنامون خمسين عامًا على سبيل المثال ...»

قاطعه ريتشارد في رعب قائلًا: «ماذا؟ من قال خمسين عامًا؟ لقد وصلنا إلى هنا في اثني عشر عامًا، أو ثلاثة عشر، لماذا لا ...»

قالت كيتي وعلى وجهها أمارات الخوف: «سأكون في سن أكبر من سن أمي.»

دخلت نيكول من الغرفة المجاورة. وقالت: «ما هذا الذي سمعته؛ أتقول خمسين عامًا؟ لماذا سنستغرق كل هذا الوقت؟ هل سنذهب إلى مكان آخر أولًا؟»

قال ريتشارد: «بالتأكيد.» كان غاضبًا. ووجَّهَ حديثه إلى الرجل النسر قائلًا: «لماذا لم تخبرونا بهذا قبل أن نتخذ قرار «التوزيع»؟ كان من الممكن أن نرتب الأمور ترتيبًا مختلفًا ... يا إلهي! إذا استغرقت الرحلة خمسين عامًا، سنكون أنا ونيكول في المائة من عمرنا!»

أجاب الرجل النسر بلا انفعال: «كلا لن يحدث ذلك. نُقَدِّرُ أنك والسيدة ويكفيلد ستكبران بمعدل سنة واحدة كل خمس أو ست سنوات بعد أن «نبطئ نُموَّكما». أما الأطفال، فسيقترب معدل نُموِّهم من سنة كل سنتين وذلك إلى أن يستقر نموهم على الأقل. فنحن متخوفون من الإفراط في العبث في هرمونات النمو. كما أن الخمسين عامًا هذه تعتبر الحد الأقصى، وهو ما يسميه أي مهندس بشري «قيمة ٣ سيجما».»

قالت كيتي وهي تتجه نحو الرجل النسر وتواجهه مباشرةً: «الآن أنا لا أفهم شيئًا. كم سيكون عمري عندما أقابل البشر الآخرين؟»

أجاب رفيقهم الفضائي: «لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال إجابة قاطعة؛ لأن الأمر ينطوي على نقاط غامضة من الناحية الإحصائية. ولكن من المفترض أن جسدك سيكون في مستوى نموٍّ مساوٍ لأوائل العشرينيات وحتى منتصف العشرينيات. هذه هي الإجابة المرجحة، على الأقل.» سار الرجل النسر نحو نيكول قائلًا: «أخبرتك بكل ما لدي. أما الآن فأمامي عمل أنجزه مع أمك. وسنعود الليلة قبل العشاء.»

تذمر ريتشارد قائلًا: «كعادتك، لا تخبرنا بشيء. أحيانًا أتمنى لو لم نكن متعاونين معك هكذا.»

قال الرجل النسر وهو يغادر الغرفة مع نيكول: «كان يمكن أن يكون التعامل معكم أصعب، وفي الواقع، تنبأنا — استنادًا إلى البيانات التي جمعناها أثناء مراقبة سلوككم — بأن تكونوا أقل تعاونًا مما أنتم عليه. ولكن في النهاية لم يكن هذا ليُحدِث فارقًا جوهريًّا في النتائج. وبهذا أصبح الأمر يناسبكم أكثر.»

قالت نيكول: «إلى اللقاء.»

رد بينجي: «إلى اللقاء»، ملوحًا لأمه بعد أن كان الباب قد أغلق.

كانت الوثيقة طويلة جدًّا. وقدرت نيكول أن قراءة النص بأكمله جهرًا قد تستغرق منها على الأقل عشر دقائق أو ربما خمس عشرة دقيقة.

سألها الرجل النسر مرةً أخرى: «هل أوشكت على الانتهاء من دراستها؟ نريد أن نبدأ التصوير — كما تسمونه — في أقرب وقت ممكن.»

طلبت منه نيكول أن يشرح لها ما الذي سيحدث لهذا الفيديو بعد تصويره.

فقال: «سنبثه باتجاه الأرض قبل وصولكم إلى نظامكم الشمسي بسنوات عديدة. وهذا سيمنح إخوانكم من البشر الوقت الكافي للرد.»

سألت نيكول: «كيف ستعرف إن كانوا قد سمعوه بالفعل أم لا؟»

رد الرجل النسر: «لقد طلبنا الرد علينا بإشارة بسيطة تخطرنا أنهم تلقوا الفيديو.»

سألت نيكول: «افترض أنكم لم تتلقوا إشارة رد أبدًا، ماذا سيحدث عندئذٍ؟»

رد الرجل النسر: «هنا يأتي دور خطط الطوارئ.»

انتابت نيكول مخاوف شديدة بشأن قراءة الرسالة. وطلبت منه أن يمنحها بعض الوقت لمناقشة الوثيقة مع ريتشارد ومايكل.

سأل الرجل النسر: «ما الذي يقلقك؟»

أجابت نيكول: «كل شيء. لا يبدو هذا صوابًا. أشعر أنكم تستغلونني لتحقيق هدفكم، وبما أنني لا أعرف هدفكم بالضبط، فأنا أخشى أن يكون ما تطلبه مني ينطوي على خيانة للجنس البشري.»

أحضر الرجل النسر لنيكول كوبًا من الماء، وجلس بجوارها في الأستوديو الفضائي. وقال: «دعينا نفكر في هذا منطقيًّا. لقد أخبرناك بوضوح أن هدفنا الرئيسي هو جمع معلومات مفصلة عن الكائنات التي تستطيع ارتياد الفضاء في المجرة. أليس كذلك؟»

أومأت نيكول برأسها إيجابًا.

«وأنشأنا أيضًا منطقة سكنية داخل راما لألفين من سكان الأرض، وسنعيدك أنت وأسرتك لتجمعوا هؤلاء البشر للقيام برحلة نتمكن أثناءها من مراقبتهم. كل ما ستفعلينه في هذا الفيديو هو إخبار أهل الأرض بأننا في الطريق إليهم، وبأنه على ألفين من قومكم أن يحضروا المنتجات الرئيسية لحضارتكم ويقابلونا في مدار المريخ. ما الذي يمكن أن يكون الخطأ في هذا؟»

اعترضت نيكول قائلةً وهي تشير إلى الكمبيوتر المحمول الذي أعطاها إياه الرجل النسر: «نص الوثيقة غامض للغاية. فأنا لن أشير قط — على سبيل المثال — إلى المصير الذي ينتظر كل هؤلاء البشر، ولن أقول سوى أنهم سيلاقون «عنايةً» و«اهتمامًا» أثناء رحلة من نوع ما. كما أن أحدًا لم يذكر سبب دراسة هؤلاء البشر أو أي شيء على الإطلاق عن النود والذكاء المتحكم فيه. أضف إلى هذا أن لهجة الخطاب تنم عن التهديد. فأنا سأخبر الناس الذين يصلهم هذا الفيديو على الأرض أنه إذا لم يصعد حشد من البشر على متن راما في مدار المريخ، فستقترب المركبة أكثر من الأرض و«ستحصل على العينة المطلوبة بطريقة أقل تنظيمًا». ومن الواضح أن هذه عبارة عدائية.»

أجاب الرجل النسر قائلًا: «يمكنك أن تعدلي النص، إن أردت، شريطة عدم تغيير فحوى الرسالة. ولكنني يجب أن أخبرك أن لدينا خبرة طويلة بهذا النوع من التواصل. فنحن أدركنا أننا دائمًا ما نحقق نجاحًا أكبر مع الأنواع الشبيهة بنوعكم عندما تبتعد الرسالة عن التحديد.»

ردت نيكول: «ولكن لماذا ترفض أن أعود بالوثيقة إلى الشقة؟ يمكنني أن أناقشها مع ريتشارد ومايكل ويمكننا أن نعدلها معًا لنخفف من حدة لهجتها.»

قال الرجل النسر بإصرار: «لأنه يجب عليك أن تعدي الفيديو اليوم. إننا على استعداد لمناقشة التعديلات التي ستُدخلينها على المحتوى، وسنتعاون معك بقدر ما تقتضي الضرورة. ولكن يجب أن ننهي التصوير قبل أن تعودي إلى أسرتك.»

كانت نبرته ودودة، ولكن المعنى الذي تحمله كان واضحًا تمامًا. فقالت نيكول لنفسها: لا خيار لي. فهو يأمرني بأن أصور الفيديو. ثم حدقت عدةَ دقائق في المخلوق الغريب الجالس بجوارها. وعادت تقول لنفسها وهي تشعر أن غضبها يشتد: الرجل النسر مجرد آلة. إنه ينفذ التعليمات التي بُرمج عليها ... خلافي ليس معه.

وفجأة، قالت: «لا»، بطريقة أدهشتها هي نفسها. وهزت رأسها. وقالت: «لن أصور الفيديو.»

لم يكن الرجل النسر مستعدًّا لمواجهة رد فعل نيكول هذا. فخيم الصمت عليهما طويلًا. ورغم أن مشاعرها كانت ثائرة فإن انتباهها كان منصبًّا على الجالس أمامها. وتساءلت: «ترى ما الذي يحدث بداخله الآن؟ هل الشيء الذي يوازي العقل لديه منشغل بدوائر منطقية جديدة معقدة؟ أم يستقبل إشارات ما من مكان آخر؟»

بعد فترة، وقف الرجل النسر. وقال: «حسنًا، هذه مفاجأة حقًّا ... لم نتوقع قط أن ترفضي تصوير الفيديو.»

قالت: «هذا لأنك لم تكن تصغي لما كنت أقوله ... أشعر وكأنك أنت أو مَن يأمرك أيًّا كان، تستغلونني ... وتتعمدون إطلاعي على أقل القليل. إذا كنتم تريدون مني أن أقوم بشيء لأجلكم، إذن عليكم أن تجيبوا عن بعض أسئلتي على الأقل.»

سألها: «ما الذي تريدين أن تعرفيه «بالتحديد»؟»

أجابت نيكول وقد بدا عليها الإحباط: «لقد أخبرتك من قبل. أريد أن أعرف بحق الجحيم حقيقة ما يحدث في هذا المكان. من أو ما أنتم؟ لماذا تريدون مراقبتنا؟ وما دمنا قد تطرَّقنا إلى هذا، ما رأيك أن تعطيني تفسيرًا مقنعًا لسبب رغبتكم في أن نترك «ثنائيًّا تزاوجيًّا» هنا؟ فقد انزعجت حقًّا لتشتت شمل أسرتي؛ كان ينبغي أن أعترض اعتراضًا أشد قوة من البداية. إذا كانت التكنولوجيا التي توصلتم إليها بلغت من الروعة حدًّا جعلها تستطيع أن تصنع شيئًا مبهرًا كالنود، فما الذي يمنعكم من أخذ بويضة بشريَّة وبعضًا من السائل المنوي ...»

قال الرجل النسر: «اهدئي يا سيدة ويكفيلد. لم أرك في مثل هذه الحالة من قبل. بل إنني عددتك أكثر أفراد مجموعتك هدوءًا.»

عندها قالت نيكول بينها وبين نفسها: وأراهن أنك عددتني أشدهم خنوعًا أيضًا. انتظرت حتى خفت حدة غضبها. ثم أضافت: لا بد أن عقلك الغريب ينطوي في إحدى تلافيفه على تقدير كمي لاحتمال طاعتي لأوامرك في خنوع ... حسنًا، لقد خدعتك هذه المرة ...

قالت بعد ثوانٍ قليلة: «اسمع أيها الرجل النسر، أنا لست غبية. فأنا أعرف لمن السيطرة هنا. ولكن كل ما في الأمر هو أنني أعتقد أننا نحن البشر نستحق أن تقدرونا على نحو أكبر قليلًا. وخاصةً أن الأسئلة التي نطرحها لا ضرر منها.»

رد عليها قائلًا: «وماذا لو أجبنا عنها على نحو يرضيكِ؟»

قالت نيكول: «لقد ظللتم تراقبونني عن كثب طوال ما يربو على عام.» ثم ضحكت. وأضافت: «هل صدر مني أي تصرف غير عقلاني قط؟»

سألت نيكول: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجاب الرجل النسر: «في رحلة قصيرة. قد تكون هذه أفضل طريقة للقضاء على شكوكك.»

كانت المركبة الغريبة صغيرة وكروية، ولا تتسع إلا للرجل النسر ونيكول. وكان نصفها الأمامي شفافًا. وتوجد لوحة تحكم صغيرة خلف النافذة على الجانب الذي يجلس فيه الرجل الطائر الفضائي. أحيانًا أثناء الرحلة كان الرجل النسر يلمس اللوحة، ولكن في معظم الوقت بدت المركبة وكأنها تعمل من تلقاء نفسها.

بعد أن جلسا في المركبة بثوانٍ انطلقت في ممر طويل وعبرت مجموعة كبيرة من الأبواب ذات المصراعين ثم دخلت في ظلام حالك. شهقت نيكول. إذ شعرت وكأنها تسبح في الفضاء.

قال الرجل النسر ونيكول تحاول رؤية أي شيء دون جدوى: «لكلٍّ من الوحدات الكروية الثلاث في النود مركز مجوف. وقد دخلنا لتونا ممرًّا يؤدي إلى مركز وحدة الإسكان.»

بعد دقيقة تقريبًا ظهرت أنوار من بعيد أمام المركبة الصغيرة. وبعد هذا مباشرة صعدت المركبة من الممر المظلم ودخلت في المركز الضخم المجوف. وأخذت الكرة تدور وتنقلب مما جعل نيكول تفقد الإحساس بالاتجاهات، والمركبة تتجه نحو الظلام بعيدًا عن الأضواء الكثيرة التي تعلو ما يبدو أنه الجزء الداخلي من الهيكل الأساسي لوحدة الإسكان.

قال الرجل النسر: «نحن نراقب كل ما يحدث للأنواع التي نستضيفها، سواء أكانت الاستضافة مؤقتة أم دائمة. وكما توقعتم، لدينا المئات من أدوات المراقبة داخل شقتكم. كما أن جميع الجدران من الزجاج العاكس، ونحن نستطيع أن نراقب كل الأنشطة التي تقومون بها من منظور أكبر من منطقة المركز هذه.»

أصبحت نيكول معتادة على عجائب النود، ومع هذا أدهشتها المشاهد الجديدة التي تحيط بها. رأت عشرات، بل مئات، الأضواء الصغيرة المتقطعة تتجول في الظلام الشاسع

الذي يغلف المركز. فبدت أشبه بمجموعة من اليراعات المتناثرة في ليلة صيف مظلمة. كانت بعض الأضواء تتأرجح قرب الجدران، وكانت أضواء أخرى تتحرك ببطء عبر الفراغ. بينما كانت هناك أضواء أخرى بعيدة جدًّا حتى إنها كانت تبدو وكأنها ساكنة لا تتحرك.

قال الرجل النسر وهو يشير أمامهما إلى مجموعة كثيفة من الأضواء في الأفق: «كما أننا لدينا مركز صيانة رئيسي هنا. يمكن الوصول إلى كل جزء من أجزاء الوحدة بسرعة كبيرة من هذا المركز في حالة وقوع مشكلة هندسية أو أي مشكلة من نوع آخر.»

سألت نيكول وهي تشير عبر النافذة: «ما الذي يحدث هناك؟» فقد كانت هناك مجموعة من المركبات واقفة بالقرب من جزء كبير مضاء من وحدة الإسكان على بعد حوالي عشرين كيلومترًا إلى اليمين من مركبتهم.

أجاب الرجل النسر: «هذه جلسة مراقبة خاصة نستخدم فيها أكثر أجهزة المراقبة عن بعد تقدمًا. فهذه الشقق على وجه الخصوص يقطنها نوع غريب له خصائص لم يرها أحد من قبل في هذا القطاع من المجرة. والكثير من أفراده يموتون لأسباب نجهلها. لذا فنحن نحاول أن نكتشف وسيلة لإنقاذهم.»

«إذن فالرياح تأتي أحيانًا بما لا تشتهي سفنكم؟»

أجاب الرجل النسر: «صحيح.» وفي الضوء المنعكس، بدا وكأن المخلوق يبتسم. وأضاف: «ولهذا نعد الكثير جدًّا من خطط الطوارئ.»

فجأة سألته نيكول: «ماذا كنتم ستفعلون لو لم يأتِ أيٌّ من البشر ليستكشف راما من الأساس؟»

أجابها الرجل النسر بغموض: «لدينا وسائل بديلة لتحقيق نفس الغايات.»

زادت المركبة من سرعتها في طريقها الوتَري في الظلام. وسرعان ما اقتربت منهم كرة مماثلة تكبر مركبتهم قليلًا، قادمة من جهة اليسار. قال الرجل النسر: «أتودين أن تقابلي أحد أفراد نوع وصل تطوره إلى درجة مساوية تقريبًا للدرجة التي وصلتم لها؟» لمس لوحة التحكم فأُضيء الجزء الداخلي من مركبتهما بأضواء خافتة.

قبل أن تتاح لنيكول فرصة الإجابة، كانت المركبة الثانية قد وصلت إلى جوارهما. كان نصفها الأمامي شفافًا أيضًا. وكانت مليئة بسائل لا لون له يسبح فيه مخلوقان. كانا يشبهان ثعباني بحر ضخمين يرتدي كلٌّ منهما عباءة، وكانا يتحركان حركات متماوجة في السائل. قدرت نيكول أن طولهما يبلغ نحو ثلاثة أمتار وأن سمكهما يبلغ نحو عشرين سنتيمترًا. ويبلغ عرض العباءة السوداء، التي تنبسط مثل الجناح أثناء حركتهما، مترًا تقريبًا عندما يبسطانها إلى أقصى حد.

قال الرجل النسر: «الكائن الذي لا يحمل جسده علامات ملونة ويقف جهة اليمين هو عبارة عن نظام ذكاء صناعي. إنه يقوم بدور شبيه بالدور الذي أقوم به، فهو يقوم بدور مضيف للنوع الذي يعيش في بيئة مائية. أما الكائن الآخر فهو من المخلوقات التي تستطيع ارتياد الفضاء، وينتمي إلى عالم آخر.»

أنعمت نيكول النظر في الكائن الفضائي. كان قد ضم العباءة بإحكام حول جسده ذي اللون المائل للأخضر قليلًا، وكان يجلس بلا حراك تقريبًا في السائل. كان الكائن قد اتخذ شكل حدوة الفرس بحيث أصبح طرفا جسده يواجهانها. واندفعت مجموعة من الفقاقيع من أحد طرفَي جسده.

قال الرجل النسر: «يقول لكِ: «مرحبًا، أوه، إنك تثيرين اهتمامي».»

أجابت نيكول، وقد عجزت عن رفع عينيها عن الكائن الغريب: «كيف عرفت هذا؟» كان طرفا جسده — أحدهما أحمر زاهٍ والآخر رمادي — ملتفَّين أحدهما حول الآخر. وكانا ملتصقين بزجاج المركبة.

«زميلي في المركبة الأخرى يترجم وينقل الكلام لي … أتودين أن تجيبي؟»

وجدت نيكول عقلها قد خلا من أي أفكار. قالت لنفسها، وعيناها تركزان على التجاعيد والنتوءات الغريبة الظاهرة على طرفَي الكائن الفضائي: ماذا أقول؟ كانت هناك ست قسمات مختلفة على كل جانب، منها اثنان من الشقوق البيضاء على «الوجه» الأحمر. ولم تكن تشبه أيٌّ من العلامات التي تغطي جسده أيَّ شيء رأته نيكول على الأرض. حدقت نيكول في صمت، متذكرةً الحوارات العديدة التي دارت بينها وبين وريتشارد ومايكل حول الأسئلة التي سيطرحونها إذا أُتيحت لهم الفرصة في وقت من الأوقات للتواصل مباشرة مع كائن فضائي عاقل. وقالت في نفسها: ولكننا لم نتخيل قط موقفًا كهذا.

غمر المزيد من الفقاعاتِ النافذةَ المواجهة لها. فقال الرجل النسر مترجمًا ما قاله الكائن الآخر: «تكوَّن كوكبنا الأم منذ خمسة مليارات عام. ووصلت أنجمنا الثنائية إلى الاستقرار بعد هذا بمليار عام. نظامنا به أربعة عشر كوكبًا رئيسيًّا، نشأت أشكال من الحياة على اثنين منهما. تعيش ثلاثة أنواع عاقلة على كوكبنا المائي، ولكننا النوع الوحيد الذي لديه القدرة على ارتياد الفضاء. لقد بدأنا استكشاف الفضاء منذ ما يزيد قليلًا على ألفي عام.»

شعرت نيكول بالإحراج من صمتها. وقالت متلعثمةً: «مرحبًا … مرحبًا. يسعدني لقاؤك … لم يبدأ نوعنا ارتياد الفضاء إلا من ثلاثمائة عام. ونحن الكائنات الوحيدة التي

تتمتع بدرجة عالية من الذكاء على كوكبنا الذي تغطي المياه ثلثيه. مصدر الحرارة والضوء لدينا هو نجم أصفر وحيد مستقر. بدأت نشأتنا في المياه منذ ثلاثة أو أربعة مليارات عام، ولكننا الآن نحيا على اليابسة ...»

صمتت نيكول. اقترب المخلوق الآخر بباقي جسده من النافذة بحيث يمكنها رؤية تفاصيل تكوين جسده رؤيةً أكثر وضوحًا، وظل طرفا جسده ملتفَّين. فهمت نيكول ما يريد. فوقفت بجوار النافذة واستدارت ببطء. ثم مدت يديها وحركت أصابعها. صدر المزيد من الفقاعات.

ترجم الرجل النسر بعد دقائق قليلة قائلًا: «هل لديكم أشكال بديلة؟»

أجابت نيكول: «لا أفهم ما تعنيه.» وصَّل المضيف النودي في الكرة الأخرى رسالتها مستخدمًا حركات الجسد والفقاعات.

قال لها الفضائي شارحًا: «لدينا شكلان من نوعنا. سيكون لذُرِّيتي أطراف، لا تختلف كثيرًا عن أطرافك، وسيسكنون في الغالب قيعان المحيطات، ويبنون منازلنا ومصانعنا وسفننا الفضائية. وهم بدورهم سينجبون جيلًا آخر يشبهني أنا.»

أجابت نيكول في النهاية: «لا، لا. لدينا شكل واحد فقط. وأبناؤنا دائمًا ما يشبهون آباءهم.»

استمر الحوار خمس دقائق أخرى. ودار أغلب حديث نيكول والمخلوق الفضائي حول علم الأحياء في كوكبيهما. انبهر المخلوق الفضائي انبهارًا كبيرًا بالنطاق الحراري الواسع الذي يستطيع البشر العيش فيه. وأخبر نيكول أن أفراد نوعه لا يستطيعون الحياة إذا خرجت الحرارة الخاصة بالسائل المحيط بهم عن نطاق معين محدود.

انبهرت نيكول بوصف المخلوق لكوكبه المائي الذي يغطي معظم سطحه مساحات ضخمة من الكائنات التي تحيا اعتمادًا على البناء الضوئي. وعلمت أن الكائنات الشبيهة بثعابين البحر، أو أيًّا ما كان اسمها، تعيش في المناطق الضحلة أسفل المئات من هذه الكائنات المختلفة، وكانت تستخدم الكائنات التي تعتمد على البناء الضوئي في كل الأغراض تقريبًا؛ إذ كانت تستخدمها للغذاء وكمواد للبناء، بل وفي المساعدة على الإنجاب.

في النهاية أخبر الرجل النسر نيكول أنه قد حان وقت الانصراف. فلوحت للفضائي الذي كان لا يزال ملتصقًا بالنافذة. ورد عليها بإطلاق مجموعة أخيرة من الفقاقيع وفك طرفيه. بعد هذا بثوانٍ كانت المسافة بين المكوكين قد بلغت بالفعل مئات الأمتار.

خيم الظلام مرة أخرى داخل الكرة المتحركة. ولم يتكلم الرجل النسر. وكانت نيكول تشعر بالابتهاج. واصل عقلها انطلاقه، فظل يصوغ بحماس الأسئلة التي يود طرحها على

المخلوق الفضائي الذي التقت به لقاءً عابرًا. قالت في نفسها: أتعيشون في أُسر؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف تعيش معًا المخلوقات التي لا تتشابه؟ أيمكنك التواصل مع قاطني القاع الذين هم أبناؤك؟

خطر نوع آخر من الأسئلة على تيار الوعي في عقل نيكول، وفجأة شعرت بخيبة أمل من نفسها قليلًا. إذ قالت لنفسها: كانت أسئلتي إكلينيكية وعلمية جدًّا. كان ينبغي أن أطرح أسئلة عن الله والحياة بعد الموت والأخلاق.

قال الرجل النسر بعد أن عبَّرت نيكول عن عدم رضاها عن الموضوعات التي نوقشت بدقائق قليلة: «من المستحيل تمامًا أن يدور بينكما ما يمكن أن تسميه حوارًا فلسفيًّا. فليست هناك على الإطلاق أرضية مشتركة يقوم عليها حوار من هذا النوع. ولن تكون هناك مرجعية لأي نقاش عن القيم أو أي قضايا جوهرية أخرى إلا بعد أن يعرف كلٌّ منكما بعض الحقائق الأساسية عن الآخر.»

قالت نيكول لنفسها: كان عليَّ أن أحاول رغم هذا. فمن يدري؟ ربما تكون لدى الفضائي الذي له شكل حدوة بعض الإجابات ...

أفاقت نيكول من تأملاتها على بعض الأصوات البشرية. وبينما هي تنظر إلى الرجل النسر متسائلةً، دارت الكرة دورةً كاملةً، ورأت نيكول أنهما يحلِّقان على بعد أمتار قليلة من مسكنها.

أضيئت غرفة نوم مايكل وسيمون. وسمعت نيكول ما كانت تهمس به ابنتها إلى زوجها إذ قالت: «أهذا بينجي؟»

أجاب مايكل: «أظن هذا.»

شاهدت نيكول الموقف بهدوء وسيمون تنهض من فراشها وترتدي روبها المنزلي وتسير إلى الرواق. أضاءت نور غرفة المعيشة ورأت أخاها الصغير المتأخر ذهنيًّا منكمشًا على الأريكة.

سألته سيمون بحنان: «ماذا تفعل هنا يا بينجي؟ يجب أن تكون في الفراش؛ فالوقت متأخر، متأخر جدًّا.» وأخذت تملس على جبهة أخيها البادي عليها القلق.

أجاب بينجي بصعوبة: «لم أستطع النوم. كنت قلقًا عــ...ــلى أمــ...مي.»

قالت سيمون محاولةً تهدئته: «ستعود قريبًا. ستعود قريبًا.»

شعرت نيكول بغصة في حلقها واغرورقت عيناها بقليل من الدموع. نظرت إلى الرجل النسر ثم إلى الشقة المُضاءة أمامها، ثم إلى المركبات المتناثرة في الفضاء من فوقها. ثم أخذت نفسًا عميقًا. وقالت ببطء: «حسنًا، أنا على استعداد لتصوير الفيديو.»

قال ريتشارد: «إنني أحسدك. أنا حقًّا أحسدك. كنت على استعداد لدفع نصف عمري مقابل الدخول في حوار مع ذلك المخلوق.»

قالت نيكول: «كان الأمر مدهشًا. وحتى الآن يصعب عليَّ تصديق أن هذا حدث حقًّا ... من المدهش أيضًا أن الرجل النسر كان يعرف بطريقة ما كيفية استجابتي لكل شيء.»

«كان يخمن فقط. لم يكن ليتوقع بالفعل أنه سيحل هذه المشكلة معك بهذه السهولة. بل إنك حتى لم تقنعيه بالإجابة على سؤالك حول رغبتهم في الحصول على ثنائي تزاوجي ...»

أجابت نيكول بلهجة دفاعية بعض الشيء: «بل أقنعته. لقد أوضح لي أن علم الأجنة البشرية معقد للغاية إلى درجة أنهم هم أنفسهم يعجزون عن معرفة الدور الذي تقوم به الأم البشرية دون أن يشاهدوا جنينًا وهو ينمو ويتطور.»

قال ريتشارد بسرعة: «آسف يا حبيبتي. أدرك أنه لم يكن أمامك خيار ...»

تنهدت نيكول: «شعرت أنهم يحاولون على الأقل إقناعي بقبول النقاط التي كنت أعترض عليها. ربما أخدع نفسي. فرغم كل ذلك، صورت الفيديو في النهاية، بالضبط كما خططوا.»

لف ريتشارد ذراعيه حول نيكول. وقال: «كما أخبرتك، لم يكن أمامك خيار يا حبيبتي. لا تقسي على نفسك.»

قبلت نيكول ريتشارد واعتدلت في جلستها على الفراش: «ولكن ماذا لو كانوا يجمعون هذه المعلومات ليقوموا بغزو ناجح أو شيء من هذا القبيل؟»

أجاب ريتشارد: «لقد ناقشنا كل هذا من قبل. إن إمكانياتهم التكنولوجية متقدمة جدًّا، إلى درجة تمكنهم من السيطرة على الأرض في دقائق إن كان هذا هو هدفهم. لقد أشار الرجل النسر نفسه إلى أنه إذا كان الغزو والقمع هو هدفهم، فإنه يمكنهم إنجازه باتخاذ إجراءات أقل تعقيدًا من هذا بكثير.»

قالت نيكول وهي تبتسم: «الآن، من منا الذي يفرط في الثقة بالآخرين؟»

«لا أفرط في الثقة بالآخرين. بل إنني واقعي فقط. أنا متأكد أن رفاهية الجنس البشري لا تحتل مركزًا متقدمًا في سلم أولويات الذكاء النوديِّ. ولكنني أعتقد أنك يجب أن تكفِّي عن الظن أنك قد أصبحت شريكة في الجريمة بتصوير هذا الفيديو. فالرجل النسر كان محقًّا. أغلب الظن، أنك ساعدتِ على تيسير «عملية الأسر» على سكان الأرض أيضًا.»

ساد الصمت دقائق قليلة. ثم قالت نيكول بعد مدة: «حبيبي. لماذا تعتقد أننا لن نذهب إلى الأرض مباشرةً؟»

«تخميني هو أننا حتمًا سنتوقف في مكان ما أولًا. على الأرجح لالتقاط أنواع أخرى في نفس المرحلة التي نحن فيها من المشروع.»

«وهل هؤلاء سيعيشون في الوحدة الأخرى بداخل راما؟»

أجاب ريتشارد: «هذا ما أفترضه.»

٩

تحدد الثالث عشر من يناير عام ٢٢١٥ موعدًا للرحيل، وذلك وفقًا للتقويم الذي حرص عليه ريتشارد أو نيكول أو كلاهما كل الحرص منذ هروب راما من قاذفات فالنكس النووية. بالطبع لا يعني هذا التاريخ شيئًا لأحد سواهم. فقد أدت الرحلة الطويلة التي قطعوها إلى الشعرى اليمانية بسرعة تزيد قليلًا عن نصف سرعة الضوء إلى إبطاء الزمن بداخل راما، على الأقل قياسًا بزمن الأرض، وبهذا فإن التاريخ الذي يستخدمونه ما هو إلا حيلة تربطهم بالماضي. ويقدر ريتشارد أن التاريخ الحقيقي في الأرض، وقت رحيلهم من النود، يسبق التاريخ السالف الذكر بثلاث أو أربع سنوات؛ أي إن الأرض في عام ٢٢١٧ أو ٢٢١٨. ولكن كان مستحيلًا عليه أن يحسب تاريخ الأرض بدقة لأنه لا يتوافر لديه تاريخ زمني دقيق للسرعة أثناء السنوات التي قضوها وهم مسافرون داخل راما. لذا لم يسَع ريتشارد سوى تقدير التعديلات النسبية اللازمة لتحويل الأساس الزمني الخاص بهم بحيث يصبح نفس الأساس الزمني على الأرض.

وما إن استيقظ ريتشارد ونيكول في آخر أيامهما على النود حتى أخذ يشرح لها قائلًا: «التاريخ على الأرض الآن لا يهمنا في شيء على أي حال. كما أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أننا سنعود إلى نظامنا الشمسي بسرعات عالية جدًّا، بمعنى أنه سيحدث تأخير زمني آخر بيننا وبين الأرض قبل أن نتقابل في مدار المريخ.»

لم تتمكن نيكول قط من فهم نظرية النسبية؛ إذ لا تتسق تمامًا مع فكرها، ولم تكن تنوي بالتأكيد بذل أي ذرة من طاقتها في إزعاج نفسها بهذه النظرية في آخر أيامها مع سيمون ومايكل. وكانت تدرك أن لحظات الوداع الأخيرة ستكون صعبة جدًّا على الجميع، فأرادت أن تدخر كل طاقاتها لتلك اللحظات الأخيرة المفعمة بالعاطفة.

قالت نيكول لريتشارد وهما يرتديان ملابسهما: «قال الرجل النسر إنه سيأتي ليصطحبنا في الساعة الحادية عشرة. كنت آمل أن نتمكن من الجلوس معًا في غرفة المعيشة بعد الإفطار. فأنا أريد تشجيع الأطفال على التعبير عن مشاعرهم.»

كان المرح يرفرف على أجواء الإفطار، بل البهجة أيضًا، ولكن عندما اجتمع أفراد الأسرة الثمانية في غرفة المعيشة وكلهم يدركون أنه لم يبقَ أمامهم سوى أقل من ساعتين على وصول الرجل النسر لاصطحاب جميع أفراد الأسرة عدا مايكل وسيمون، أصبح الحوار مُتكَلَّفًا ومُغَلَّفًا بالتوتر.

جلس الزوجان المتزوجان حديثًا معًا على أريكة تتسع لشخصين أمام ريتشارد ونيكول والأطفال الأربعة. كانت كيتي — كعادتها — لا تكف عن الصخب والحركة. إذ أخذت تثرثر بلا انقطاع. وتنتقل من موضوع إلى آخر دون أن تتحدث من قريب أو بعيد عن الرحيل الوشيك. وكانت تقص عليهم تفاصيل حلم غريب كانت قد رأته الليلة الماضية عندما قطع حديثها صوتان بشريان قادمان من المدخل المؤدي إلى الجناح الرئيسي.

قال الأول بصوت ريتشارد: «اللعنة، يا سير جون، هذه هي فرصتنا الأخيرة. أنا ذاهب لوداعهم سواء أكنت ستأتي معي أم لا.»

قال الصوت الثاني: «إن لحظات الوداع، يا أميري، تلقي بروحي في مهاوي الأسى. ولم أثمل بعد حتى أقوى على تخفيف الألم. لقد قلت بنفسك إن تلك الفتاة أشبه بملاك طاهر. فكيف يمكنني ...»

قال الأمير هال: «حسنًا، إذن، سأذهب وحدي.» تركزت أبصار جميع أفراد الأسرة على الأمير الآلي الصغير الذي صنعه ريتشارد وهو يسير من الرواق إلى غرفة المعيشة. كان فولستاف يترنح خلفه ويقف بعد كل أربع أو خمس خطوات ليحتسي رشفة من زجاجته.

مشى هال حتى صار أمام سيمون. ثم جثا على إحدى ركبتيه وقال: «سيدتي الغالية، لا أستطيع أن أجد كلمات تصف كم سأشتاق لرؤية وجهك الباسم. فلا توجد في مملكتي بأكملها من تضاهيك جمالًا وبهاءً ...»

جثا فولستاف على ركبتيه بجوار أميره وقاطعه قائلًا: «ويحك. ربما يكون سير جون مخطئًا. لماذا أذهب مع هذه الزمرة المتنافرة (وأشار بذراعه إلى ريتشارد ونيكول وباقي الأطفال الذين كانوا يبتسمون ابتسامةً عريضةً) في حين أنه يمكنني أن أبقى هنا في حضرة هذا الحسن البديع دون أن ينافسني إلا هذا الرجل العجوز؟ إنني أتذكر خليلتي المفضلة دول تيرشيت ...»

بينما كان الآليان اللذان يبلغ طولهما عشرين سنتيمترًا يسليان الأسرة، قام بينجي من كرسيه واقترب من مايكل وسيمون. وقال وهو يغالب دموعه: «ســ...ـيــ...ـمون، سأفـ...ـتقدك. أحبك.» صمت بينجي لحظة ناظرًا أولًا إلى سيمون ثم إلى والده. ثم تابع قائلًا: «آمل أن تنعما أنتِ وأبي بســ...ـعا...دة غا...مرة.»

قامت سيمون من مقعدها ولفَّت ذراعيها حول أخيها الصغير الذي كان جسده يرتعد من فرط الانفعال. وقالت: «أوه، يا بينجي، أشكرك. أنا أيضًا سأفتقدك كثيرًا. ولكن روحك ستظل معي دائمًا.»

لم يتحمل الصبي ذلك العناق. فانفجر في نحيب شديد، وتأثر الجميع بأنينه الهادئ الحزين حتى دمعت عيونهم. وفي غضون دقائق، كان باتريك قد حبا إلى حجر والده. ودفن عينيه المتورمتين في صدره. وظل يقول: «أبي … أبي.»

لم يكن أبرع مصمم رقصات ليستطيع أن يصمم رقصة وداع أجمل من رقصة سيمون. فسيمون المتألقةُ أخذت تتحرك بخفة، وكأنها ترقص رقصة الفالس، وهي تبدو هادئة بعض الشيء رغم دموعها، لتودع جميع أفراد الأسرة وداعًا معبرًا. وظل مايكل أوتول جالسًا على الأريكة وباتريك جالسًا على حجره وبينجي بجواره. واغرورقت عيناه بالدموع مرارًا وأفراد الأسرة الراحلون يتجهون إليه واحدًا تلو الآخر ليودعوه.

قالت نيكول لنفسها وهي تجول ببصرها في أنحاء الغرفة: أريد ألا أنسى هذه اللحظة أبدًا. فهذا مكان يرفرف عليه الحب. كان مايكل يحمل إيلي الصغيرة، وكانت سيمون تخبر كيتي كم ستفتقد حديثهما معًا. بل إن كيتي نفسها، وللمرة الأولى، بدا عليها التأثر؛ إذ غلفها الصمت، على غير عادتها، عندما كانت سيمون تتجه إلى الناحية الأخرى من الغرفة حيث يجلس زوجها.

أنزل مايكل باتريك برفق من على حجره وأمسك بيد سيمون الممدودة. ثم التفتا إلى الآخرين وركعا وتشابكت أيديهما للصلاة. قال مايكل بصوت قوي: «أبانا الذي في السماوات.» ثم صمت عدة ثوانٍ حتى ركع باقي أفراد الأسرة، وفيهم ريتشارد، بجوار الزوجين على الأرض.

تابع صلاته قائلًا: «نحمدك على منحنا حب هذه الأسرة الرائعة الدافئ. ونحمدك على أن أريتنا عجيب آياتك في الكون. وفي هذه اللحظة، نبتهل إليك أن تشمل كلًّا منا برعايتك ونحن نفترق كلٌّ في طريق، إن كانت هذه هي مشيئتك. لا نعرف إن كنت تدبر لنا أن نعود لنتبادل مشاعر الحب والمودة التي أسعدتنا جميعًا أم لا. فلتظل معنا، في أي طريق نسلكه في أنحاء كونك المذهل، واجمعنا يا إلهي، ذات يوم، في هذا العالم أو في الآخرة. آمين.»

بعد ثوانٍ، دق جرس الباب. ووصل الرجل النسر.

تركت نيكول المنزل الذي صُمِّمَ خصوصًا ليكون صورة مصغرة من فيلا أسرتها في بوفوا في فرنسا، ومشت في الممر الضيق باتجاه المحطة. مرت على بيوت أخرى، جميعها مظلمة

خاوية، وحاولت أن تتخيل كيف سيكون الأمر عندما يسكنها البشر. قالت نيكول لنفسها: كانت حياتي كالحلم. قطعًا لم يعش أي بشري تجربة بمثل هذا التنوع.

كانت بعض البيوت ترمي بظلالها على الممر، والشمس الزائفة تتم دورتها في السقف الشاهق من فوقها. قالت نيكول لنفسها وهي تتجول بعينيها في القرية الواقعة في الجانب الجنوبي الشرقي من عدن الجديدة: هذا العالم مميز هو الآخر. كان الرجل النسر محقًّا عندما قال إن المنطقة السكنية لن تختلف عما عليه الحال على كوكب الأرض.

للحظة عابرة، فكرت نيكول في ذلك الكوكب الأزرق المائي الذي يبعد عنهم بمقدار تسع سنوات ضوئية. وعادت بخيالها إلى ما قبل ثلاثة عشر عامًا عندما كانت واقفةً بجوار جانو تابوري ومركبة نيوتن تبتعد عن محطة الفضاء رقم ٣ التي تقع في مدار قريب من الأرض. حينها قال جانو وهو يرسم بأصابعه دائرة حول بقعة محددة تظهر على الكرة الأرضية المضيئة التي تتألق من وراء نافذة المراقبة: «هذه بودابست.»

بعد هذا حددت نيكول مكان بوفوا، أو على الأقل النطاق العام الذي تقع فيه، عن طريق تتبع نهر لوار من مصبه في المحيط الأطلسي. وقالت لجانو: «يقع موطني في هذا النطاق تقريبًا. ربما يكون أبي وابنتي ينظران في هذا الاتجاه الآن.»

قالت نيكول لنفسها وهذه الذكرى العابرة تتوارى: جنيفياف، أوه يا ابنتي. لا بد أنك أصبحت شابة الآن. في الثلاثين تقريبًا. واصلت السير ببطء في الممر بجوار منزلها الجديد في المنطقة السكنية الشبيهة بالبيئة الأرضية داخل راما. ذكَّرها التفكير في ابنتها الأولى بالحوار القصير الذي دار بينها وبين الرجل النسر أثناء استراحة قضياها وقت تسجيل الفيديو في النود.

كانت نيكول قد سألته: «هل سأتمكن من رؤية ابنتي جنيفياف عندما نقترب من الأرض؟»

أجاب الرجل النسر بعد هنيهة من التردد: «لا ندري. هذا يعتمد كليةً على طبيعة رد فعل إخوانك البشر لرسالتك. أنت نفسك ستبقين في راما حتى وإن طبقنا خطط الطوارئ، ولكن من المحتمل أن تكون ابنتك واحدة من بين الألفي شخص الذين سيأتون من الأرض ليعيشوا في عدن الجديدة. لقد حدث هذا من قبل مع أنواع أخرى من مرتادي الفضاء مثلكم.»

عندما سكت الرجل النسر سألته نيكول: «وسيمون؟ هل سأراها ثانية؟»

أجاب الرجل النسر: «إجابة هذا السؤال أصعب. فالعوامل التي تحدد ذلك كثيرة جدًّا.» ورمق المخلوق الفضائي صديقته البشرية التي بدا عليها الجزع. وقال: «آسف يا سيدة ويكفيلد.»

قالت لنفسها: تركت إحدى بناتي على الأرض. وسأترك ابنة أخرى في عالم فضائي غريب يبعد مائة تريليون كيلومتر. وسأكون أنا في مكان آخر. من يدري أين؟ كانت نيكول تشعر بوحدة قاتلة. فوقفت، وركزت عينيها على المشهد الذي يحيط بها. كانت واقفة بجوار منطقة مستديرة في الحديقة العامة للقرية. كان يوجد داخل المحيط الصخري زحلوقة وفناء رملي للعب وقضبان تسلُّق ودوامة خيول، وكل ذلك يصلح ليكون ملعبًا رائعًا لأطفال الأرض. وأسفل قدميها، كانت شبكة آلات تبادل الغازات متداخلة في أنحاء الحديقة التي سيضعون فيها العشب بعد إحضاره من كوكب الأرض.

انحنت نيكول لتلقي نظرة على آلات تبادل الغازات الفردية. كانت عبارة عن أجسام مستديرة صغيرة لا يتجاوز قطرها سنتيمترين. ويبلغ عددها عدة آلاف، وهي منتظمة في صفوف وعواميد تتقاطع عبر أنحاء الحديقة. وقالت نيكول بينها وبين نفسها: نباتات إلكترونية. تحول ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين. وتساعدنا نحن البشر على البقاء على قيد الحياة.

أخذت نيكول تتخيل شكل الحديقة بعد أن يضعوا فيها العشب والأشجار وبعد أن يضعوا الزنابق في بركة المياه الصغيرة، ورأتها بعين الخيال بكامل التفاصيل التي بدت في تتخيل هذه الحديقة وهي تعج بالأطفال، مع أنها كانت تعرف أن راما ستعود إلى النظام الشمسي لـ «أسر» البشر الذين سيعمرون هذه الجنة التكنولوجية. وقالت لنفسها: لم تقع عيناي على أيِّ بشري سوى أفراد أسرتي طوال نحو خمسة عشر عامًا.

غادرت نيكول الحديقة وسارت باتجاه المحطة. حلت صفوف المباني التي ستضم في المستقبل المتاجر الصغيرة محل المنازل المنفصلة التي كانت تصطف على جانبَي الممرات الضيقة. بالطبع كانت جميعها فارغة، وكذلك كان المبنى الهائل المستطيل الشكل الذي صُمم ليكون سوبر ماركت، والذي يقع أمام المحطة مباشرةً.

دخلت من البوابة وركبت القطار الذي كان ينتظرها، وجلست في المقدمة خلف غرفة التحكم التي كان يشغلها آلي على هيئة بنيتا جارسيا. قالت نيكول بصوت مرتفع: «أوشك الظلام أن يحل.»

أجاب الآلي: «سيحل بعد ثماني عشرة دقيقة.»

سألت نيكول: «كم من الوقت سنستغرق للوصول إلى قاعة التنويم؟»

أجابها الآلي والقطار يغادر المحطة الجنوبية الشرقية: «يستغرق الطريق إلى المحطة المركزية الكبرى عشر دقائق. ثم ستسيرين مدة دقيقتين.»

كانت نيكول تعلم إجابة سؤالها. ولكنها كانت في حاجة إلى سماع صوت آخر. فهذا ثاني يوم تقضيه بمفردها. والتحدث إلى الآلي أفضل من التحدث مع نفسها بالتأكيد.

نقلتها رحلة القطار من الركن الجنوبي الشرقي للمستعمرة إلى وسطها. على طول الطريق، شاهدت نيكول بحيرة شكسبير على يسار القطار، ومنحدرات جبل الأوليمب (المغطاة بمزيد من آلات تبادل الغازات) على اليمين. وكانت الشاشات الإلكترونية الموجودة في القطار تعرض معلومات عن المشاهد التي تمر بها، والوقت، والمسافة التي قُطعت.

قالت نيكول لنفسها وهي تفكر في زوجها ريتشارد النائم الآن هو وباقي أفراد الأسرة: لقد أتقنت أنت والرجل النسر تصميم نظام القطارات هذا. سألحق بك وبباقي أفراد الأسرة في القاعة الكبيرة المستديرة قريبًا.

تعد قاعة التنويم، في واقع الأمر، امتدادًا للمستشفى الرئيسي الواقع على بعد نحو مائتي متر من محطة القطار المركزية. غادرت نيكول القطار وتجاوزت المكتبة، ثم دخلت المستشفى وعبرته حتى وصلت إلى قاعة التنويم عبر نفق طويل. كان باقي أفراد أسرتها نائمين في غرفة مستديرة ضخمة في الطابق الثاني. وكلٌّ منهم في «مضجع» موازٍ للحائط، وكان كل مضجع عبارة عن هيكل غريب طويل يشبه التابوت، مغلقًا إغلاقًا محكمًا بحيث ينعزل عن البيئة الخارجة. ولم يكن يظهر منهم سوى وجوههم عبر نوافذ صغيرة في الغطاء بالقرب من رءوسهم. فحصت نيكول أجهزة المراقبة التي تحتوي على معلومات بشأن الحالة الصحية لزوجها وابنتيها وابنيها كما علمها الرجل النسر. كان الجميع على ما يرام. فلا توجد حتى أي إشارات تدل على وجود اضطرابات.

وقفت نيكول وأخذت تنظر إلى كلٍّ من أحبتها في حنين. إذ كان هذا آخر فحص تقوم به. فالتعليمات تقضي بأن تنام نيكول فور أن تطمئن أن المؤشرات الحيوية للجميع في الحدود المسموح بها. قد تمر سنوات قبل أن ترى أيًّا من أفراد أسرتها مرة أخرى.

تنهدت نيكول وهي تتأمل ابنها المتأخر عقليًّا وهو نائم. وقالت في نفسها: عزيزي بينجي. ستكون أشد المتضررين من انقطاعنا هذا عن الحياة. فكيتي وباتريك وإيلي سيتغلبون على تبعاته بسرعة. فهم يتمتعون بالذكاء وسرعة البديهة. أما أنت فستضيع عليك السنوات التي كان من الممكن أن تكتسب فيها خبرات تساعدك على الاعتماد على نفسك.

كان ما يشبه قطعًا معدنية من الحديد المطاوع يفصل المضاجع عن الحائط المستدير. تبلغ المسافة بين مقدمة كل مضجع ونهاية المضجع الذي يليه حوالي متر ونصف فقط. ويقع مضجع نيكول الخاوي في المنتصف، وخلف موضع رأسها ريتشارد وكيتي، وعند موضع قدميها باتريك وبينجي وإيلي.

لبثت بجوار مضجع ريتشارد عدة دقائق. كان آخر من نام، وكان هذا منذ يومين. كان الأمير هال وفولستاف راقدَين على صدره بداخل الصندوق المغلق، حسبما طلب. قالت نيكول لنفسها وهي تحدق في وجه زوجها الخالي من التعبير عبر النافذة: هذه الأيام الثلاثة الأخيرة كانت رائعة يا حبيبي. لم أكن لأطمع في المزيد.

في تلك الأيام الثلاثة سبحا في بحيرة شكسبير وتزلجا فوق أمواجها، وتسلَّقا جبل الأوليمب، وتطارحا الغرام كلما شعر أيٌّ منهما بأدنى رغبة في هذا. وظل كلٌّ منهما ليلةً كاملةً بجوار الآخر في سريرهما الكبير في بيتهما الجديد. وكان ريتشارد ونيكول يفحصان الأطفال النائمين، مرة يوميًّا، ولكنهما كانا يستغلان باقي الوقت في استكشاف مملكتهما الجديدة.

كانت أيامًا لطيفة ترفرف عليها المشاعر الجميلة. وكانت آخر كلمات نطق بها ريتشارد قبل أن تنشِّط نيكول النظام المُنوِّم هي: «إنك امرأة رائعة، وأنا أحبك كثيرًا.»

الآن حان دور نيكول. لم يعد الأمر يحتمل التأجيل. صعدت إلى مضجعها، فقد تدربت على هذا كثيرًا أثناء الأسبوع الأول لهم في عدن الجديدة، وحركت كل المفاتيح عدا مفتاحًا واحدًا. كان الفوم المحيط بها مريحًا للغاية. انغلق غطاء المضجع فوقها. ولم يبقَ أمامها سوى أن تحرك المفتاح الأخير لكي تدخل الغاز المُنوِّم إلى مقصورتها.

تنهدت بعمق. واستلقت على ظهرها، وتذكرت الحلم الذي رأته عن الجمال النائم في آخر التجارب التي أجريت عليها في النود. ثم عادت إلى ذكريات طفولتها، إلى تلك العطلات الرائعة التي قضتها مع أبيها في مشاهدة عروض الجمال النائم في قلعة أوسيه.

قالت لنفسها وهي تشعر بالنعاس والغاز ينتشر في مضجعها: «هذه طريقة لطيفة للرحيل. سأرحل عن عالم الوعي وأنا أفكر بأن ثمة فارس أحلام سيأتي لإيقاظي.»

مقابلة في المريخ

١

«سيدة ويكفيلد.»

بدا الصوت بعيدًا، بعيدًا جدًّا. وتسلل إلى وعيها برفق دون أن يوقظها تمامًا من نومها.

«سيدة ويكفيلد.»

هذه المرة كان الصوت أكثر ارتفاعًا. حاولت نيكول أن تتذكر أين هي قبل أن تفتح عينيها. وحركت جسدها فتحرك الفوم الذي يحيط بها ليوفر لها أقصى راحة ممكنة. وبدأت ذاكرتها ترسل ببطء بعض الإشارات إلى بقية مخها. فتذكرت ما يلي: عدن الجديدة. بداخل راما. العودة إلى النظام الشمسي. أكان كل هذا مجرد حلم؟

فتحت عينيها أخيرًا. لكنها عجزت عن التركيز عدة ثوانٍ. وبدأت معالم الشخص المنحني فوقها تتضح شيئًا فشيئًا. حتى اكتشفت أنه أمها ترتدي زي ممرضة!

قال الصوت: «سيدة ويكفيلد. حان وقت الاستيقاظ والتأهب للمقابلة.»

ظلت نيكول لحظةً في حالة صدمة. أين هي؟ ما الذي تفعله أمها هنا؟ ثم تذكرت قائلةً في نفسها: الآليون. أمي هي أحد الأنواع الخمسة من الآليين البشرين. وهذه من نوع أناوي تياسو وهي اختصاصية صحة ولياقة.

ساعدت ذراعُ الآلية نيكول على الاعتدال وهي تجلس في مضجعها. لم تتغير الغرفة أثناء هذا الوقت الطويل الذي قضته في النوم. وسألت وهي تستعد للخروج من المضجع: «أين نحن؟»

أجابت أناوي تياسو ذات البشرة السمراء الداكنة قائلة: «لقد أنهينا منحنى الإبطاء الرئيسي ودخلنا في نظامكم الشمسي. سندخل مدار المريخ في غضون ستة أشهر.»

لم تبدُ عضلات نيكول على غير طبيعتها على الإطلاق. ويرجع هذا، كما قال لها الرجل النسر قبل أن تغادر النود، إلى أن كل مقصورة من مقصورات النوم تحتوي على مكونات إلكترونية خاصة لا تقوم فقط بتدريب العضلات والأنظمة البيولوجية الأخرى بانتظام لتمنع ضمورها وإنما أيضًا تراقب صحة كل الأعضاء الحيوية. نزلت نيكول السلم. وتمطت عندما وصلت إلى نهايته.

سألتها الآلية: «كيف حالك؟» الآلية التي طرحت السؤال كانت أناوي تياسو رقم ٠١٧. ويظهر رقمها بوضوح على الكتف الأيمن من زيها.

أجابت نيكول: «ليس سيئًا.» ثم قالت وهي تتفحص الآلية ببصرها: «ليس سيئًا، يا ٠١٧» كانت حقًّا تشبه أمها إلى حد غير عادي. لقد رأت هي وريتشارد نماذج الآليين كلها قبل أن يغادرا النود، ولكن كانت بنيتا جارسيا هي الوحيدة الصالحة للعمل في الأسبوعين اللذين سبقا نومهم. أما باقي الآليين في عدن الجديدة فصُنعوا وخضعوا للاختبار أثناء الرحلة الطويلة. قالت نيكول لنفسها وهي تتأمل بإعجاب ما صنعه فنانو راما المجهولون: إنها تشبه أمي تمامًا. فقد أجرَوا كل التغييرات التي طلبتها على النموذج.

سمعت نيكول وقْع أقدام قادمة نحوهما من بعيد. فاستدارت. ورأت آلية أناوي تياسو ثانية تقترب منهما مرتدية أيضًا زي ممرضة أبيض. قالت الآلية الواقفة بجوارها: «كُلفت رقم ٠٠٩ بالمساعدة في إتمام الإجراءات التمهيدية أيضًا.»

سألتها نيكول وهي تحاول جاهدةً أن تتذكر ما دار بينها وبين الرجل النسر حول خطوة الاستيقاظ: «من كلفها بهذه المهمة؟»

أجابت رقم ٠١٧: «خطة المهمة السابقة البرمجة. ولكن فور أن تستيقظوا جميعًا أنتم البشر وتعودوا إلى وعيكم، سنتلقى كل التعليمات منكم.»

استيقظ ريتشارد بسرعة أكبر ولكنه نزل السلم القصير بصعوبة بعض الشيء. حتى إن اثنتين من الآليات اضطرتا إلى مساعدته لكيلا يسقط. بدا السرور على وجه ريتشارد بوضوح حين رأى زوجته. وبعد عناق طويل وقبلة، أخذ يتطلع إليها عدة ثوانٍ. وقال مازحًا: «لم تنل منك السنون. لقد انتشر اللون الرمادي في شعرك ولكن لا تزال هناك خصلات سوداء متفرقة.»

ابتسمت نيكول. إذ شعرت بالسعادة للتحدث مع ريتشارد من جديد.

سأل بعد ثانية: «بالمناسبة، كم قضينا من الوقت في هذه التوابيت السخيفة؟»

هزت نيكول كتفيها. وأجابت: «لست أدري. لم أسأل بعد. أول ما فعلتُ هو إيقاظك.»

التفت ريتشارد إلى الآليتين. وسأل: «أتعرفان أيتها الجميلتين كم مضى من الوقت منذ أن غادرنا النود؟»

أجابت تياسو رقم ٠٠٩: «لقد نمتم تسعة عشر عامًا وفقًا لتوقيت المسافرين.»

سألت نيكول: «ماذا تعني بتوقيت المسافرين؟»

ابتسم ريتشارد. وقال: «هذا تعبير نسبي يا حبيبتي. فالوقت لا يعني شيئًا إلا في ظل وجود إطار مرجعي. فقد مرت تسعة عشر عامًا في راما، ولكن هذه السنوات لا تتعلق إلا بـ...»

قاطعته نيكول قائلةً: «لا تتعب نفسك. فأنا لم أنم كل هذا الوقت لكي أستيقظ على سماع درس في النسبية. يمكنك أن تشرح لي هذا لاحقًا، على العشاء. أما الآن فأمامنا أمر أكثر أهمية. ما الترتيب الذي سنوقظ الأطفال وفقًا له؟»

أجاب ريتشارد بعد لحظة من التردد: «لدي اقتراح آخر. أعرف أنك تتوقين إلى رؤية الأطفال. وأنا كذلك. ولكن ما رأيك أن نتركهم ينامون عدة ساعات أخرى؟ إن هذا لن يضيرهم بالتأكيد ... فأمامنا أنا وأنتِ الكثير من الأمور التي نحتاج إلى مناقشتها. يمكننا أن نبدأ التحضير للمقابلة، ونخطط لما سنفعله بشأن تعليم الأطفال، بل وربما نمضي بعض الوقت في التعارف من جديد ...»

كانت نيكول تتحرق شوقًا إلى محادثة الأطفال، ولكنها أحست أن اقتراح ريتشارد منطقي. فالخطة التي وضعتها الأسرة لتنظيم أمورها بعد الاستيقاظ كانت خطة أولية لأن الرجل النسر أكد أن المهمة تنطوي على الكثير من الأمور المجهولة مما يحول دون تحديد الظروف التي سيعيشون فيها بدقة. وسيكون من الأسهل كثيرًا أن يقوما بوضع بعض الخطوات اللازمة للتخطيط قبل أن يستيقظ الأطفال ...

في النهاية قالت نيكول: «حسنًا سأنزل على اقتراحك شريطة أن أطمئن إلى أن الجميع بخير.» ونظرت إلى تياسو الأولى.

قالت الآلية: «تشير كل بيانات الرصد إلى أن الأطفال جميعًا مرت عليهم مدة النوم دون أن تظهر عليهم أي اضطرابات خطيرة.»

التفتت نيكول إلى ريتشارد وأنعمت النظر في وجهه. فلاحظت أن علامات تقدم السن قد ظهرت عليه قليلًا، ولكن ليس إلى الدرجة التي كانت تتوقعها.

سألته فجأة بعد أن أدركت أنه حليق الذقن تمامًا على غير المتوقع: «أين لحيتك؟»

أجابت تياسو رقم ٠٠٩: «لقد حلقنا للرجال أمس وهم نائمون. وحلقنا أيضًا شعر الجميع وحممناهم وفقًا لخطة المهمة السابقة البرمجة.»

قالت نيكول بينها وبين نفسها: الرجال؟! ولثوانٍ ظلت حائرة. ثم أدركت الموقف وقالت لنفسها: بالطبع. أصبح بينجي وباتريك رجلين الآن!

أمسكت بيد ريتشارد وهرعا إلى مضجع باتريك. واندهشت لمرأى الوجه الذي بدا لها عبر النافذة. لم يعد صغيرها باتريك طفلًا. فقد استطالت ملامحه كثيرًا واختفت استدارات وجهه. وظلت نيكول تحدق في ابنها أكثر من دقيقة في صمت.

أجابت تياسو رقم ٠١٧ على نظرة نيكول المتسائلة قائلةً: «إنه في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. والسيد بينجامين أوتول أكبر منه بعام ونصف. بالطبع هذه أعمار تقريبية لا أكثر. وكما أوضح الرجل النسر قبل رحيلكم من النود، لقد استطعنا تأخير إنزيمات النمو الرئيسية في كلٍّ منكم بعض الشيء، ولكن ليس بالمعدل نفسه. ونحن عندما نقول إن السيد باتريك أوتول في السادسة عشرة أو السابعة عشرة الآن، فإننا لا نشير إلا إلى ساعته البيولوجية الداخلية. فالسن المذكور يعتبر المتوسط الناتج عن عمليات نموه ونضجه وتقدمه في السن.»

وقفت نيكول وريتشارد أمام كل مضجع من المضاجع الأخرى وحدقا عدة دقائق عبر النوافذ في أبنائهما النائمين. وأخذت نيكول تهز رأسها مرارًا وتكرارًا في ذهول. وبعد أن رأت أنه حتى إيلي الصغيرة وصلت إلى مرحلة المراهقة أثناء هذه الرحلة الطويلة، قالت: «أين أطفالي؟»

علق ريتشارد بلا انفعال ودون أن يحاول مساعدة الجانب الأمومي من نيكول في التغلب على إحساسها بالخسارة قائلًا: «كنا نعرف أن هذا سيحدث.»

قالت نيكول: «معرفة هذا شيء. ورؤيته ومعايشته شيء آخر. فأنا لست أمًّا عاديةً عرفت فجأة أن أبناءها وبناتها كبروا. فما حدث لأبنائنا مذهل حقًّا. لقد توقف نموهم العقلي والاجتماعي طوال ما يوازي من عشرة أعوام إلى اثني عشر عامًا. نحن الآن لدينا أطفال صغار في أجساد راشدين. كيف يمكننا أن نهيئهم لمقابلة غيرهم من البشر في ستة أشهر فقط؟»

اعتصر الحزن قلب نيكول. هل سبب هذا أن جزءًا منها عجز عن تصديق الرجل النسر عندما وصف ما الذي سيحدث لأسرتها؟ ربما. كان هذا الحدث مجرد حدث واحد من بين سلسلة أحداث شهدتها حياة لطالما ظلت عصية على الفهم. حدَّثت نيكول نفسها قائلةً: ولكن بصفتي أمهم، عليَّ أن أقوم بالكثير دون أن يكون أمامي وقت كافٍ. لماذا لَم أعدَّ العدة لهذا كله قبل أن نغادر النود؟

بينما كانت نيكول تصارع مشاعرها الجارفة التي فجرتها رؤية أطفالها وقد كبروا فجأة، كان ريتشارد يتبادل أطراف الحديث مع الآليتين تياسو. وكانتا تجيبان عن كل أسئلته بعفوية. وانبهر بقدراتهما الجسدية والعقلية انبهارًا شديدًا. سألهما ريتشارد أثناء الحوار: «أتتمتعون جميعًا بهذا المخزون الهائل من المعلومات في ذاكراتكم؟»

أجابت رقم ٠٠٩: «نحن فقط — من صنف تياسو — اللائي نلم بالتاريخ المفصل للبيانات الصحية الخاصة بأسرتكم. ولكن كل الآليين البشريين يستطيعون الوصول إلى مجموعة هائلة جدًّا من الحقائق الأساسية. ولكن سيُحذف بعض هذه المعلومات عند أول تواصل مع البشر الآخرين. فعندئذٍ سيختفي جانب من محتويات أجهزة الذاكرة لدى جميع أنواع الآليين. ولن يبقى في قاعدة البيانات الخاصة بنا أي حدث أو أي معلومة تتعلق بالرجل النسر أو النود أو أي مواقف حدثت قبل أن تستيقظوا. ولن يكون متاحًا إلا المعلومات المتعلقة بصحتكم الشخصية منذ تلك الفترة السابقة، وهذه البيانات ستكون متاحة في آليات التياسو.»

كانت نيكول تفكر بالفعل في النود قبل سماع هذا الجزء الأخير من الحوار. وسألت فجأة: «هل ما زلتم تتواصلون مع الرجل النسر؟»

هذه المرة أجابت تياسو رقم ٠١٧. فقالت: «كلا. يمكنكم أن تفترضوا أن الرجل النسر، أو على الأقل مندوب عن الذكاء النودي، يتابع مهمتنا بانتظام، ولكن لا يوجد أي تواصل مع راما بمجرد أن غادرت حظيرة المركبات. سنظل — أنتم ونحن وراما — دون مساعدة إلى أن تتحقق أهداف المهمة.»

وقفت كيتي أمام المرآة الطويلة وأخذت تتطلع إلى جسدها العاري. كان جسدها لا يزال غريبًا عليها، مع أنها أدركت حالها هذا منذ شهر. كانت تحب أن تلمس جسدها. كانت تحب خصوصًا تمرير أصابعها عبر صدرها ومشاهدة حلمتيها تبرزان نتيجة للإثارة. وكانت تحب ذلك أكثر ليلًا، وهي بمفردها تحت الغطاء. حينها، كانت تحك بيدها كل مكان في جسدها حتى تسري الإثارة عبره وترغب في الصراخ من فرط اللذة.

شرحت لها أمها هذه الظاهرة، ولكن بدا عليها الانزعاج قليلًا عندما أرادت كيتي التحدث بشأنها مرارًا وتكرارًا. فقالت لها بصوت منخفض ذات ليلة قبل العشاء: «حبيبتي، ممارسة العادة السرية أمر شديد الخصوصية، وعادةً لا يتحدث الناس عنه إلا مع أقرب أصدقائهم، هذا إن تحدثوا عنه أصلًا.»

لم تستطع طلب المساعدة من إيلي. إذ لم ترَ كيتي أختها تتأمل جسدها قط، ولو لمرة واحدة. قالت كيتي لنفسها: الأرجح أنها لا تفعل هذا أبدًا. وهي بالتأكيد لا تود التحدث عنه.

سمعت كيتي إيلي تناديها من الغرفة المجاورة: «هل انتهيتِ من الاستحمام؟» لكل فتاة غرفة نومها الخاصة، ولكن الحمام مشترك بينهما.

صاحت كيتي: «نعم.»

دخلت إيلي الحمام وقد لفت منشفة حول جسدها، وألقت نظرة عابرة على أختها الواقفة أمام المرآة عاريةً تمامًا. همت الفتاة الصغيرة بالكلام ولكن يبدو أنها غيرت رأيها ثم خلعت المنشفة ودخلت ببطء تحت الدش.

أخذت كيتي تراقب إيلي عبر الباب الشفاف. أخذت تنظر إلى جسد إيلي ثم إلى المرآة التي تقف هي أمامها وأخذت تقارن بين أدق تفاصيل جسديهما. كانت كيتي تفضل وجهها ولون بشرتها — فبخلاف والدها، هي أفتح أفراد الأسرة بشرةً — ولكن جسد إيلي كان أفضل كثيرًا.

ذات مساء، بعد أن انتهت كيتي من تصفُّح مكعب معلومات فيه مجلات أزياء قديمة جدًّا، سألت نيكول: «لماذا يبدو قوامي رجوليًّا هكذا؟»

رفعت نيكول بصرها عما تقرؤه وأجابت: «لا يمكنني أن أشرح بالضبط. فعلم الجينات معقد للغاية، معقد أكثر مما تخيل جريجور مندل بكثير في البداية.»

ضحكت نيكول على نفسها فقد أدركت على الفور أن كيتي لم تفهم ما قالته لتوِّها. فتابعت حديثها في لهجة أقل تحذلقًا: «كيتي، كل طفل هو تركيبة فريدة من خصائص والديه. هذه الخصائص المميزة مختزنة في جزيئات تسمى جينات. هناك حرفيًّا مليارات الصور المختلفة التي من الممكن أن تظهر فيها جينات كل زوجين. لهذا فإن أبناء نفس الزوجين لا يكونون على الإطلاق نسخًا طبق الأصل بعضهم من بعض.»

عقدت كيتي جبينها. كانت تتوقع إجابة مختلفة. وفهمت نيكول هذا بسرعة. فأضافت في لهجة مشجعة: «كما أن قوامك في واقع الأمر ليس «رجوليًّا» على الإطلاق. إن وصف «رياضي» ملائم أكثر له.»

أجابت كيتي وهي تشير إلى أختها التي كانت تدرس بجد في ركن غرفة المعيشة: «على أي حال، أنا بالتأكيد لا أشبه إيلي. فجسدها جذاب للغاية؛ فهو أنثوي أكثر من جسدك أنتِ.»

ضحكت نيكول. وقالت: «إن قوام إيلي رائع بالفعل. ولكن قوامك لا يقل عنه، وكل ما في الأمر أنه مختلف.» عادت نيكول إلى القراءة وهي تظن أن الحوار انتهى.

بعد برهة من الصمت، تابعت كيتي الحديث قائلةً: «لا أجد في هذه المجلات القديمة الكثير من النساء اللاتي لهن نفس شكل قوامي.» وكانت ترفع جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بها لكن نيكول لم تعد تعيرها انتباهها. قالت ابنتها بعد هذا: «تعرفين يا أمي، أعتقد أن الرجل النسر ارتكب خطأً في أدوات التحكم التي كانت في مضجعي. أعتقد أنني حُقنت ببعض الهرمونات التي كانت من المفترض أن يحقن بها باتريك أو بينجي.»

أجابت نيكول بعد أن أدركت أخيرًا أن ابنتها مهووسةً بشكلها: «حبيبتي كيتي، لا شك في أنك أصبحت الإنسانة التي حددت جيناتك أوصافها منذ لحظة الحمل. إنك شابة جميلة ذكية. وستكونين أكثر سعادة إذا ما قضيت الوقت تفكرين في الصفات الرائعة الكثيرة التي تحملينها بدلًا من التفتيش عن عيوبك، وتمني أن تصبحي مختلفة عما أنتِ عليه.»

منذ أن استيقظا والكثير من حواراتهما تسير على نمط مشابه. كانت كيتي على ما يبدو تعتقد أن أمها لا تحاول أن تفهمها، وأنها دائمًا ما تكون جاهزة بمحاضرة أو حكمة ما أو كلتيهما معًا. وكان من بين ما تسمعه دائمًا منها «الحياة بها أشياء كثيرة أهم من شعور المرء بالرضا عن مظهره». وفي نفس الوقت كانت ترى أن أمها لا تكف عن مدح إيلي. «إيلي تلميذة متفوقة جدًّا، مع أنها بدأت الاستذكار في مرحلة متأخرة» أو «إيلي تساعدنا دائمًا دون أن نطلب منها هذا» أو «لماذا لا تتحلين بمزيد من الصبر مع بينجي مثل إيلي؟»

قالت كيتي لنفسها وهي راقدة عارية في سريرها في وقت متأخر من إحدى الليالي، بعد أن تشاجرت مع أختها وأنَّبتها أمها هي فقط: انتهينا من سيمون لنجد إيلي. لم أحظَ بفرصتي مع أمي قط. فنحن مختلفتان تمامًا. ربما كان من الأفضل أن أكف عن محاولة التقرب إليها.

وراحت تمر بأصابعها على جسدها، فتشتعل رغبتها، ثم تنهدت انتظارًا لما هو قادم. ثم قالت بينها وبين نفسها: «على الأقل هناك أشياء لا أحتاج إلى أمي فيها.»

ذات مساء، بعدما لم يعد يفصلهم عن المريخ سوى ستة أسابيع، قالت نيكول وهي في فراشها: «ريتشارد.»

أجاب ببطء: «ممم؟» كان شبه نائم.

قالت: «أنا قلقة على كيتي. أنا سعيدة بالتقدم الذي يحرزه باقي الأطفال، وخاصة بينجي، حفظه الله. ولكنني قلقة جدًّا على كيتي.»

قال ريتشارد وهو يستند إلى مرفقه: «ما الذي يقلقك بالضبط؟»

«في المقام الأول توجهاتها. إنها نرجسية للغاية. كما أن طبعها حاد، وتفتقر إلى الصبر في التعامل مع باقي الأطفال، حتى مع باتريك الذي يهيم بها. كما أنها تتشاجر معي طوال الوقت، وإن كان موضوع الشجار تافهًا عادة. كما أنني أعتقد أنها تمضي وقتًا أطول مما ينبغي بمفردها في الغرفة.»

أجاب ريتشارد: «إنها تشعر بالملل. تذكري يا نيكول أنها جسديًّا شابة في أوائل العشرينيات. وأنها كان من المفترض أن تدخل في علاقة تثبت استقلالها. لكن لا يوجد هنا من هو في نفس سنها ... ويجب أن تعترفي بأننا في بعض الأوقات نعاملها وكأنها في الثانية عشرة من عمرها.»

لم تقل نيكول شيئًا. فمال ريتشارد عليها ولمس ذراعها. وقال: «كنا نعرف من البداية أن كيتي هي أكثر أولادنا عصبيةً. إنها تشبهني كثيرًا للأسف.»

قالت نيكول: «ولكنك على الأقل توجه طاقتك لمشروعات مفيدة. أما كيتي فتميل إلى توجيه طاقتها في تصرفات هدامة ... أتمنى فعلًا يا ريتشارد أن تتحدث معها. وإلا فأخشى أننا سنواجه مشاكل كبيرة عندما نقابل باقي البشر.»

رد عليها ريتشارد بعد صمت قصير: «ماذا تريدينني أن أقول لها؟ إن الحياة ليست سلسلة من الأحداث المشوقة؟ ولماذا أطلب منها ألا تتقوقع في عالم الأوهام في غرفتها؟ بالتأكيد عالمها هناك مشوق أكثر. للأسف ليس هناك شيء في الوقت الحالي في عدن الجديدة يمكن أن يثير بشدة اهتمام فتاة شابة.»

ردت نيكول وقد شعرت بشيء من الاستياء: «كنت أتمنى أن تكون متفهمًا أكثر من هذا. فأنا أحتاج إلى مساعدتك يا ريتشارد ... كما أن كيتي تستجيب لك أفضل مما تستجيب لي.»

صمت ريتشارد مرةً أخرى. ثم قال بلهجة محبطة: «حسنًا.» وعاد يستلقي في السرير. وتابع قائلًا: «سآخذها معي لنركب الأمواج غدًا، فهي مولعة بهذه الرياضة، وعلى الأقل سأطلب منها الحرص على حسن معاملة باقي أفراد الأسرة.»

قال ريتشارد بعد أن انتهى من قراءة ما في كمبيوتر باتريك المحمول: «جيد جدًّا. ممتاز.» ثم أطفأ الجهاز ونظر إلى ابنه الذي كان يبدو عليه شيء من التوتر وهو جالس في المقعد المقابل لريتشارد. واصل ريتشارد حديثه قائلًا: «لقد تعلمت الجبر بسرعة. أنت موهوب

في الرياضيات بلا شك. وعندما يحضر باقي البشر إلى عدن الجديدة ستكون قد أصبحت مستعدًّا لتلقي التعليم الجامعي، على الأقل في الرياضيات والعلوم.»

رد عليه باتريك قائلًا: «ولكن أمي تقول إن مستواي في اللغة الإنجليزية ضعيف للغاية. وتقول إن موضوعات التعبير التي أكتبها أشبه بالموضوعات التي يكتبها الأطفال.»

سمعت نيكول الحوار فجاءت من المطبخ. وقالت: «باتريك يا حبيبي إن جارسيا رقم ٠٤١ تقول إنك لا تهتم بالكتابة كما ينبغي. أعلم أنك لا يمكن أن تتعلم كل شيء بين عشية وضحاها، ولكنني لا أريدك أن تكون في موقف محرج عندما نقابل البشر الآخرين.»

احتج باتريك قائلًا: «ولكنني أفضل الرياضيات والعلوم. ويقول الآلي أينشتاين الخاص بنا إنه يستطيع أن يعلمني حساب التفاضل والتكامل في مدة تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أسابيع، هذا إن لم أكن مثقلًا بمواد أخرى.»

فجأة فُتح الباب الأمامي واندفعت كيتي وإيلي داخل المنزل. كان وجه كيتي مشرقًا ينبض بالحيوية. قالت: «آسفة لأننا تأخرنا، لكنه كان يومنا حافلًا.» ثم التفتت إلى باتريك. وقالت: «قدت المركب في بحيرة شكسبير بنفسي. فقد تركنا جارسيا على الشاطئ.»

لم يكن الحماس باديًا على إيلي مثلما يبدو على أختها. بل إنها في الواقع بدت شاحبة قليلًا. فسألت نيكول ابنتها الصغرى، بينما كانت كيتي تسلي الأسرة بحكايات مغامرتهما في البحيرة، قائلة بهدوء: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟»

أومأت إيلي برأسها ولم تنبس ببنت شفة.

قالت كيتي بحماس: «ما كان مثيرًا حقًّا هو السير بسرعات عالية على الأمواج التي أحدثها مركبنا. أخذنا نقفز من موجة إلى أخرى، بام، بام، بام. في بعض الأوقات كنت أشعر وكأننا نطير.»

قالت نيكول بعد ثوانٍ: «تلك المراكب ليست للعب.» وأشارت للجميع بأن يحضروا إلى مائدة العشاء. كان بينجي آخر من جلس؛ إذ كان واقفًا في المطبخ يعبث في السلطة بأصابعه.

عندما جلس الجميع سألت نيكول كيتي: «ماذا كنت ستفعلين إن انقلب المركب؟»

ردت عليها باستخفاف: «كانت آليات الجارسيا ستنقذنا. فقد كان هناك ثلاث منها على الشاطئ تراقبنا … فهذه هي مهمتهم على أي حال. كما أننا كنا نرتدي سترات النجاة وأنا أجيد السباحة.»

ردت عليها نيكول بسرعة وقد بدت في صوتها رنة تأنيب: «لكن أختك لا تجيدها. وتعلمين أنها كانت ستفزع إن كانت قد وقعت في البحيرة.»

بدأت كيتي تجادلها، لكن ريتشارد تدخل وغيَّر الموضوع قبل أن يتصاعد الخلاف. في الواقع، كان جو القلق يسود الأسرة كلها. فقد دخلت راما في المدار الذي يدور حول المريخ منذ شهر وما زالوا لا يرون أي أثر للمجموعة القادمة من الأرض التي كان من المفترض أن يقابلوها. وكانت نيكول تتوقع أن يلتقوا بإخوانهم من البشر فور دخولهم مدار المريخ.

بعد تناول العشاء انتقلت الأسرة إلى حجرة الرصد الصغيرة الخاصة بريتشارد التي تقع في الفناء الخلفي؛ وذلك ليشاهدوا المريخ. تتصل حجرة الرصد بجميع المستشعرات الخارجية التي تقع على سطح راما (ولكنها لا تتصل بالمستشعرات الداخلية التي تقع خارج حدود عدن الجديدة، وقد كان الرجل النسر حاسمًا جدًّا في هذا الأمر أثناء مناقشة التصميم) والتي كانت تمدهم بصور مكبرة رائعة للكوكب الأحمر لمدة جزء من كل يوم من أيام المريخ.

كان بينجي خصوصًا مغرمًا بجلسات الرصد التي يشرف عليها ريتشارد. وكان يشير بفخر إلى مواقع البراكين في منطقة ثارسيس والوادي الكبير المسمى فاليس مارينيريس وسهل كرايسي الذي هبطت فيه أول مركبة فضاء من برنامج فايكنيج منذ ما يزيد على مائتي عام. كانت تتأهب عاصفة ترابية للهبوب جنوبي محطة ماتش، وهي محور المستعمرة المريخية الكبيرة التي هُجرت في فترة عدم الاستقرار التي صاحبت الفوضى الكبرى. رأى ريتشارد أن الغبار قد ينتشر في جميع أرجاء الكوكب؛ لأن هذا هو موسم هبوب هذه العواصف الكونية.

في لحظة هدوء تخللت جلسة رصد المريخ سألت كيتي: «ماذا سيحدث إن لم يظهر الأرضيون؟ وأرجوك يا أمي أعطنا إجابة صريحة هذه المرة. ففي النهاية، نحن لم نعد أطفالًا.»

تجاهلت نيكول نبرة تعليق كيتي المستفزة. وأجابت: «إذا لم تخنّي الذاكرة، أظن أن الخطة الرئيسية تتضمن أن نبقى هنا في مدار المريخ مدة ستة أشهر. وإذا لم تحدث مقابلة في هذه المدة فستتوجه راما إلى الأرض.» صمتت عدة ثوانٍ. ثم تابعت حديثها قائلةً: «لا يعرف أيٌّ منا أنا وأبوك الخطوات التي سنتخذها من تلك المرحلة فصاعدًا. فكل ما أخبرنا به الرجل النسر هو أنه سيخطرنا، في حالة الاضطرار للجوء إلى خطط الطوارئ، بما يجب علينا أن نعرفه.»

ساد الهدوء نحو دقيقة ظهرت خلالها صور بدرجات وضوح متنوعة للمريخ على الشاشة الضخمة المعلقة على الحائط. سأل بينجي حينها: «أين الأرض؟»

أجاب ريتشارد: «إنه الكوكب الذي يظهر بالقرب من المريخ، ذلك الكوكب الذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث البعد عن الشمس. تذكر أنني قد أطلعتك على صورة لترتيب الكواكب في المجموعة الشمسية على الكمبيوتر الخاص بي.»

رد عليه بينجي ببطء شديد: «ليس هذا ما أعنيه. أريد أن أرى الأرض.»

كان طلبه بسيطًا للغاية. ومع أن ريتشارد صحب الأسرة كثيرًا إلى حجرة الرصد من قبل، فإنه لم يخطر بباله قط أن ذلك الضوء الأزرق الشاحب الذي يظهر في سماء المريخ ليلًا قد يثير اهتمام الأطفال. قال ريتشارد وهو يتصفح قاعدة البيانات الخاصة به ليحصل على النتائج المناسبة من المستشعرات: «لا تبدو الأرض مبهرة من هذه المسافة. فهي في الواقع لا تختلف عن أي جرم لامع آخر، مثل الشعرى اليمانية على سبيل المثال.»

جانب ريتشارد الصواب. فما إن حدد الأرض في إطار سماوي معين ووضع ذلك الشكل المنعكس التافه ظاهريًّا في مركز الصورة حتى أخذ كل الأطفال يرمقون الأرض في انتباه شديد.

شعرت نيكول بالانبهار حيال التغير المفاجئ الذي عم أجواء الغرفة، وقالت لنفسها: هذا كوكبهم الأصلي. مع أنهم لم يعيشوا عليه قط. وأخذت صور من الأرض تتدفق على مخيلتها، وهي تحدق هي الأخرى في الضوء الضئيل الظاهر في مركز الصورة. واستيقظ بداخلها حنين شديد إليه، وشعرت بتوق للعودة إلى ذلك الكوكب الجميل الذي تغطيه المحيطات. واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقترب من أبنائها وتحيطهم بذراعيها.

قالت بصوت هامس: «أيًّا كان المكان الذي سنذهب إليه في هذا الكون المذهل، سواء في الحاضر أو في المستقبل، فإن هذه البقعة الزرقاء ستظل دومًا موطننا.»

٢

استيقظت ناي بواتونج في ظلمة ما قبل الفجر. وارتدت ثوبًا قطنيًّا بلا أكمام، ثم وقفت دقائق أمام تمثال بوذا الخاص بها والموجود في «الهوانج برا» الخاص بالأسرة المجاور لغرفة المعيشة؛ تبجيلًا له، وبعدها فتحت باب المنزل دون أن تزعج أيًّا من أفراد أسرتها. كان هواء الصيف عليلًا. وكان النسيم محملًا برائحة الزهور مختلطةً برائحة التوابل التايلاندية؛ كان ثمة من يطهو الفطور في هذا الوقت في الحي.

لم يُصدر الصندل الذي كانت ترتديه صوتًا وهي تمشي في الزقاق الترابي الأملس. كانت ناي تمشي ببطء، وهي تستدير يمينًا ويسارًا وعيناها ترنو إلى الظلال المألوفة التي ستتحول قريبًا إلى مجرد ذكريات. قالت لنفسها: هذا آخر يوم لي. لقد جاء أخيرًا.

بعد دقائق قليلة، انعطفت يمينًا في الشارع المرصوف الذي يؤدي إلى منطقة لامبون التجارية الصغيرة. وباستثناء الدراجات التي كانت تمر بها من آنٍ لآخر، كان ذلك الصباح هادئًا عمومًا. فلم يكن أيٌّ من المتاجر قد فتحت أبوابها بعد.

عندما كانت ناي تقترب من أحد المعابد، مرت براهبين بوذيين، كلٌّ منهما يقف على أحد جانبَي الطريق. كان كلٌّ منهما يرتدي الرداء الزعفراني اللون المعتاد ويحمل وعاءً معدنيًّا كبيرًا. كانا ينتظران الحصول على إفطارهما، كعادتهما يوميًّا كل صباح في أنحاء تايلاند، معتمدين على كرم سكان لامبون. ظهرت امرأة في مدخل متجر أمام ناي مباشرةً، ووضعت بعض الطعام في وعاء الراهب. لم يتحدثا ولم تتغير تعبيرات وجه الراهب تعبيرًا عن شكره للهبة.

حدثت ناي نفسها قائلةً: إنهما لا يملكان شيئًا، ولا حتى ملابسهما. ولكنهما سعيدان. ثم تلت بسرعة القاعدة الأساسية التي تقوم عليها عقيدتها: «المعاناة وليدة الرغبة»، وذكرها هذا بالثروة الطائلة التي تملكها أسرة زوجها الجديد التي تسكن في مقاطعة هيجاشياما على أطراف مدينة كيوتو في اليابان. وقالت لنفسها: يقول كينجي إن والدته تملك كل شيء، إلا الطمأنينة. وهي محرومة منها لأنها لا تستطيع أن تشتريها بالمال.

للحظات ملأت الذكرى الحديثة لمنزل آل واتانابي الفاخر عقلها، وأزاحت منه صورة الشارع التايلاندي البسيط الذي كانت تسير فيه. لقد سحرتها فخامة قصرهم. ولكنها لم تشعر فيه بالترحاب. فقد كان من الواضح أن والدَي كينجي ينظران إليها على أنها متطفلة، مجرد أجنبية وضيعة تزوجت ابنهما دون موافقتهما. لم يعاملاها بقسوة، بل ببرود. وانهالا عليها بأسئلة عن أسرتها وتعليمها بأسلوب جاف ودقيق. وفيما بعد طمأن كينجي ناي وأخبرها بأنَّ أسرته لن تذهب معهما إلى المريخ.

وقفت في شارع في لامبون ونظرت إلى الناحية المقابلة حيث معبد الملكة كاماتيفي. هذا هو مكان ناي المفضل في البلدة، بل ربما يكون مكانها المفضل في تايلاند بأسرها. ويبلغ عمر بعض أجزاء هذا المعبد ألف وخمسمائة عام، وحراسه الحجريون الصامتون يقفون شاهدين على تاريخ يختلف عن الحاضر اختلافًا يجعلك تظن أن أحداثه وقعت على كوكب آخر.

عبرت ناي الشارع ووقفت في الفناء الذي تحيط به جدران المعبد. كان هذا الصباح صحوًا على نحو غير معتاد. وكان هناك نور وهاج يسطع في سماء الصباح الداكنة فوق أعلى قمة من قمم المعبد التايلاندي القديم. أدركت ناي أن هذا الضوء ما هو إلا كوكب المريخ،

محطتها التالية. كان احتضان سماء هذه البلدة لصورة المريخ في هذه اللحظة معبرًا. فهذه البلدة ظلت موطنها طوال سنوات عمرها الست والعشرين (فيما عدا السنوات الأربع التي قضتها في جامعة تشيانج ماي). وفي غضون ستة أسابيع كانت ستستقل مركبة فضاء عملاقة تقلها إلى إحدى المستعمرات الفضائية التي تقع على الكوكب الأحمر حيث ستعيش طوال السنوات الخمس القادمة.

جلست ناي متخذة وضع اللوتس في زاوية الفناء، وأخذت تتأمل ذلك الضوء البادي في السماء. قالت لنفسها: كم تناسبني إطلالة كوكب المريخ عليَّ هذا الصباح. بدأت تتنفس بانتظام تمهيدًا للتأمل الصباحي الذي اعتادت عليه. ولكن بينما كانت تستعد للاستمتاع بمشاعر الطمأنينة والسكينة التي تهيؤها نفسيًّا لاستقبال اليوم الذي أمامها؛ إذ بها تدرك أن نفسها تجيش بطوفان من العواطف الجارفة والمتلاطمة.

فاتخذت قرارًا بالكف عن تأملها مؤقتًا. وقالت لنفسها: يجب عليَّ، في آخر الأيام التي أقضيها في وطني، أن أتصالح مع الأحداث التي غيرت مجرى حياتي تمامًا.

قبل أحد عشر شهرًا، كانت ناي بواتونج تجلس في نفس المكان، ومكعبات دروس اللغة الفرنسية والإنجليزية الخاصة بها مرتبة بجوارها في حقيبة. كانت ناي تعد المادة التي ستستعين بها للتدريس في الفصل الدراسي القادم وقد عقدت العزم على استخدام أسلوب أكثر تشويقًا وحيوية في تدريس اللغات للمرحلة الثانوية.

قبل أن تبدأ العمل في وضع الخطوط العريضة لدروسها في ذلك اليوم الحاسم من العام السابق، كانت تقرأ صحيفة تشيانج ماي اليومية. فوضعت المكعب في جهاز القارئ الخاص بها ثم أخذت تتصفح الجريدة بسرعة دون أن تقرأ سوى العناوين الرئيسية. لكنها وجدت إعلانًا بالإنجليزية في الصفحة الأخيرة لفت انتباهها.

لكلٍّ من يعمل في الطب والتمريض والتدريس والزراعة

هل أنت مغامر وتلم بعدة لغات وتتمتع بصحة جيدة؟

سترسل وكالة الفضاء العالمية بعثةً كبيرة لإعادة استعمار المريخ. ولهذا تسعى لضم الأشخاص المميزين الذين يتمتعون بالمهارات الحيوية المحددة أعلاه للعمل في المستعمرة مدة خمس سنوات. تجرى المقابلات الشخصية يوم الاثنين الموافق الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ٢٢٤٤ في مدينة تشيانج ماي. الرواتب والمزايا متميزة. تُطلب طلبات الالتحاق من البريد التايلاندي السريع رقم ٤٩٣٠-٦٢-٤٦٢.

عندما قدمت ناي الطلب إلى وكالة الفضاء العالمية لم تكن تعتقد أن فرصتها كبيرة جدًّا. بل كانت شبه متأكدة من أنها لن تنجح في مرحلة التصفية الأولى، ومن ثم لن تكون حتى مؤهلة لإجراء المقابلة الشخصية. لذا اندهشت في واقع الأمر عندما ورد إلى بريدها الإلكتروني إخطارًا بعد ستة أسابيع يبلغها أنها اختيرت مبدئيًّا لإجراء المقابلة الشخصية. وقال الإخطار أيضًا إن الإجراءات تقضي بأن تطرح ناي الأسئلة الشخصية التي تريد أن تعرف إجابتها عن طريق البريد أولًا قبل إجراء المقابلة. كما أكد أن وكالة الفضاء العالمية لا تريد إجراء مقابلات شخصية إلا مع المرشحين الذين لديهم نية قبول العمل في المستعمرة المريخية في حالة تكليفهم بمهمة هناك.

ردت ناي برسالة فيها سؤال واحد. وكان هو: هل يمكن تحويل جزء كبير مما تكسبه أثناء إقامتها على المريخ إلى بنك من بنوك الأرض؟ وأضافت أن هذا شرط مسبق جوهري للقبول.

بعد عشرة أيام وصلها إخطار آخر عبر البريد الإلكتروني. كان موجزًا جدًّا. إذ لم يرد فيه سوى أنه من الممكن تحويل جزء مما تكسبه إلى بنك من بنوك الأرض بانتظام. ولكن ينبغي التأكد تمامًا من طريقة تقسيم نقودها؛ لأنه لا يمكن للمستعمر أن يغير طريقة التقسيم التي حددها بعد أن يغادر الأرض.

نظرًا إلى انخفاض تكلفة المعيشة في لامبون، فإن الراتب الذي عرضته وكالة الفضاء العالمية على معلمي اللغات في مستعمرة المريخ كان تقريبًا ضعف ما تحتاجه ناي للوفاء بالتزامات أسرتها. كانت الفتاة مثقلة للغاية بالمسئولية. فهي المعيلة الوحيدة في أسرة من خمسة أفراد تتكون من والد مريض وأم وأختين أصغر منها.

كانت طفولتها صعبة لكن أسرتها تمكنت من العيش على الكفاف. غير أن كارثةً ألمت بالأسرة عندما كانت ناي في العام الأخير من الجامعة. ففي بادئ الأمر أصيب والدها بسكتة دماغية أقعدته. وحاولت أمها أن تدير بنفسها متجر الحرف اليدوية الصغير الذي يمتلكونه، متجاهلة نصائح الأهل والأصدقاء، على الرغم من أنها لم تكن تتمتع إطلاقًا بموهبة إدارة الأعمال. وفي غضون عام واحد، فقدت الأسرة كل شيء، واضطرت ناي إلى إنفاق مدخراتها الشخصية للوفاء باحتياجات أسرتها من طعام وملبس، فضلًا عن التخلي عن حلم ترجمة الأعمال الأدبية لإحدى دور النشر الكبرى في بانكوك.

كانت ناي تعمل معلمة طوال الأسبوع، وتعمل مرشدة سياحية في العطلة الأسبوعية. في يوم السبت السابق للمقابلة الشخصية التي أجرتها مع وكالة الفضاء العالمية، كانت ناي

في جولة سياحية في تشيانج ماي التي تبعد ثلاثين كيلومترًا عن بيتها. كان في مجموعتها عدد من اليابانيين من بينهم شاب وسيم فصيح في مطلع الثلاثينيات يتحدث بلغة إنجليزية سليمة. كان اسمه كينجي واتانابي. وكان يبدي انتباهًا شديدًا لكل ما تقوله ناي، ودائمًا ما يطرح أسئلة ذكيةً، ويتصرف بأدب جم.

قرب نهاية جولتهم في الأماكن البوذية المقدسة التي تقع في منطقة تشيانج ماي، ركبوا التلفريك متجهين إلى جبل دوي سوتيب ليزوروا المعبد البوذي الشهير المبني على قمته. كان معظم السائحين متعبين من الأنشطة التي قاموا بها على مدار اليوم، إلا كينجي واتانابي. فقد أصر على صعود سلم التنين الطويل مثلما يفعل الحجاج البوذيون بدلًا من ركوب القطار المعلق الممتد من مخرج التلفريك وحتى القمة. ثم أخذ يطرح الأسئلة وناي تشرح القصة الرائعة الخاصة بتأسيس المعبد. وفي النهاية، عندما نزلوا وكانت ناي جالسةً وحدها تحتسي الشاي في المطعم الجميل عند سفح الجبل، ترك كينجي باقي السائحين في محلات الهدايا التذكارية وتوجه نحو منضدتها.

قال بتايلاندية ممتازة أدهشت ناي: «معذرة.» ثم أضاف: «أتسمحين لي بالجلوس؟ فأنا لدي بضعة أسئلة.»

سألته ناي بالتايلاندية وهي لا تزال تشعر بالذهول عما إذا كان يجيد التايلاندية.

فرد بالتايلاندية بأنه يفهم القليل منها. ثم سألها عما إذا كانت تعرف اليابانية.

فهزت ناي رأسها. وقالت بالتايلاندية إنها تجهلها. ثم ابتسمت. وأضافت بالإنجليزية قائلة: «لا أعرف إلا الإنجليزية والفرنسية والتايلاندية. مع أنني أستطيع أحيانًا فهم اليابانية البسيطة إذا سمعت من يتحدثها ببطء شديد.»

ثم تحدث كينجي بالإنجليزية بعد أن جلس أمام ناي قائلًا: «أبهرتني اللوحات الجدارية التي تصف تأسيس المعبد على قمة دوي سوتيب. إنها أسطورة رائعة؛ فهي مزيج من التاريخ والتصوف، ولكن بصفتي مؤرخًا يثير فضولي أمران. أولًا، أليس من المحتمل أن يكون هذا الراهب السريلانكي المبجل قد علم من بعض المصادر الدينية خارج مملكة لانا بوجود آثار مقدسة لبوذا في تلك الباغودة المهجورة المجاورة؟ يبدو لي أنه من المستبعد أن يكون الراهب قد غامر بسمعته. ثانيًا، فكرة صعود الفيل الأبيض لجبل دوي سوتيب من تلقاء نفسه وهو يحمل الآثار المقدسة، ثم موته بعد وصوله إلى القمة تبدو مثالية أكثر مما ينبغي. فهل هناك مصادر تاريخية غير بوذية من القرن الخامس عشر تدعم هذه القصة؟»

لعدة ثوانٍ، أخذت ناي ترمق السيد واتانابي المتحمس قبل أن ترد. ثم أجابت بابتسامة واهنة: «سيدي، طوال العامين اللذين قضيتهما في إرشاد السائحين في المواقع البوذية في هذه المنطقة لم أقابل قط من سألني أيًّا من هذين السؤالين. وأنا نفسي لا أعرف الإجابة، ولكن إن كنت مهتمًّا، أستطيع أن أعطيك اسم أستاذ في جامعة تشيانج ماي هو علَّامة في التاريخ البوذي لمملكة لانا. وهو خبير بهذه الحقبة كلها بدءًا من الملك مينجراي ...»

قطع حوارهما إعلان عن أن التلفريك على استعداد الآن لنقل الركاب في رحلة العودة إلى المدينة. فقامت ناي من مقعدها واستأذنت للانصراف. أما كينجي فقد لحق بباقي المجموعة. وعندما كانت ناي تراقبه من بعيد، ظلت تتذكر قوة عينيه. وقالت لنفسها: عيناه مدهشتان. لم أرَ قط عيونًا بهذا الصفاء ويملؤها حب الاستطلاع إلى هذا الحد.

رأت هاتين العينين مرةً أخرى بعد ظهر يوم الاثنين التالي عندما ذهبت إلى فندق دويست تاني في تشيانج ماي لإجراء المقابلة الشخصية مع وكالة الفضاء العالمية. اندهشت عندما رأت كينجي جالسًا خلف مكتب وعلى قميصه الشعار الرسمي لوكالة الفضاء العالمية. وشعرت بالاضطراب في البداية. فقال كينجي معتذرًا: «إنني لم أطلع على أوراقك قبل يوم السبت. أقسم لك بهذا. لو كنت أعلم أنك إحدى المتقدمات لكنت ذهبت في جولة مختلفة.»

مضت المقابلة بسلاسة. وأثنى كينجي على سجلها الدراسي المتميز، وعلى عملها التطوعي في دور الأيتام في لامبون وتشيانج ماي. كانت ناي صادقة عندما قالت إنها لم تكن تشعر بـ «رغبة جامحة» في السفر في الفضاء، وأنها تقدمت لشغل هذه الوظيفة على المريخ لأنها كانت أساسًا «مغامرة بطبيعتها»، ولأن الوظيفة التي عرضتها وكالة الفضاء العالمية ستمكنها من الوفاء بالتزاماتها العائلية.

قرب نهاية المقابلة توقف الحوار. فسألت ناي بلطف وهي تقوم من مقعدها: «أهذا كل شيء؟»

قال كينجي واتانابي وقد بدا عليه الارتباك فجأة: «ربما يكون هناك شيء واحد. أتجيدين تفسير الأحلام؟»

ابتسمت ناي وجلست ثانيةً. قالت: «تفضل.»

أخذ كينجي نفسًا عميقًا. ثم قال: «حلمت ليلة السبت بأنني كنت في الغابة، في مكان ما قرب سفح جبل دوي سوتيب، عرفت أن هذا المكان هو دوي سوتيب لأنني رأيت القمة الذهبية التي تعلو المعبد البوذي في خلفية المشهد. كنت أسرع بين الأشجار محاولًا أن أجد طريقي، وعندئذٍ رأيت ثعبانًا كبيرًا ملتفًّا حول فرع عريض من أفرع الشجرة بجانب رأسي.

سألني الثعبان: «إلى أين أنت ذاهب؟»

أجبته: «إنني أبحث عن حبيبتي.»

قال الثعبان: «إنها أعلى الجبل.»

وخرجت من الغابة حتى وصلت إلى بقعة يغمرها ضوء الشمس، ونظرت إلى قمة الجبل. فوجدت من أحببتها منذ طفولتي، كيكو موروساوا، واقفةً تلوح لي. التفت ونظرت إلى الثعبان.

فقال لي: «انظر ثانيةً.»

عندما نظرت أعلى الجبل مرة أخرى كان وجه المرأة قد تغير. لم يعد وجه كيكو؛ كنت أنتِ من تلوح لي من أعلى دوي سوتيب.»

صمت كينجي عدة ثوانٍ. ثم قال: «لم أرَ قط حلمًا غريبًا أو واضحًا هكذا. ففكرت أنه ربما ...»

سرت قشعريرة في ذراعَي ناي وهي تسمع كينجي يحكي قصته. كانت قد عرفت النهاية قبل أن ينهي قصته؛ عرفت أنها، هي ناي بواتونج، ستكون المرأة التي تلوح من قمة الجبل. مالت ناي إلى الأمام في كرسيها. وقالت ببطء: «يا سيد واتانابي آمل ألا يسبب لك ما سأقوله إساءةً من أي نوع ...»

صمتت ناي عدة ثوانٍ. ثم قالت وعيناها تتحاشيان عينيه: «لدينا مثل تايلاندي شهير يقول إنه عندما يتحدث إليك ثعبان في الحلم فقد وجدت من ستتزوجه.»

قالت ناي في نفسها متذكرة: تسلمت الإخطار بعد ستة أسابيع. كانت لا تزال جالسة في الفناء بجانب معبد الملكة كاماتيفي في لامبون. ثم أضافت في نفسها: وبعدها بثلاثة أيام وصل طرد من الأدوات والكتيبات من وكالة الفضاء العالمية. كما تلقيت باقة زهور من كينجي.

جاء كينجي إلى لامبون في عطلة نهاية الأسبوع التالية. واعتذر قائلًا: «آسف لأنني لم أتصل بك أو أتواصل معك، ولكن لم يكن هناك معنى لاستمرار علاقتنا إن لم تكوني أنت أيضًا ذاهبة إلى المريخ.»

طلب يدها بعد ظهر يوم الأحد فقبلت بسرعة. وتزوجا في كيوتو بعد ثلاثة أشهر. تكرم آل واتانابي ودفعا مصاريف سفر أختيها وثلاث من صديقاتها التايلانديات إلى اليابان لحضور حفل الزفاف. للأسف، لم تستطع أمها أن تحضر لأنها لم تجد من يعتني بزوجها بدلًا منها.

أخذت ناي نفسًا عميقًا. انتهى الآن استعراضها للتغيرات التي وقعت مؤخرًا في حياتها. وصارت على استعداد لبدء جلسة التأمل. بعد ثلاثين دقيقة شعرت بالسكينة والسعادة وأصبحت تترقب الحياة المجهولة التي تنتظرها. أشرقت الشمس وجاء آخرون إلى فناء المعبد. تجولت ببطء في المكان وهي تحاول الاستمتاع بلحظاتها الأخيرة في بلدتها.

داخل القاعة الرئيسية، قدمت ناي قربانًا وحرقت البخور عند المذبح، ثم أخذت تتأمل باهتمام كل تفاصيل الرسومات التي تزدان بها الجدران مع أنها لطالما رأتها من قبل. كانت الرسومات تحكي قصة حياة الملكة كاماتيفي والتي كانت بطلتها الوحيدة منذ الطفولة. في القرن السابع عشر كان للقبائل الكثيرة التي تسكن منطقة لامبون ثقافات مختلفة، وكثيرًا ما كانت تتحارب. وكان الشيء الوحيد المشترك بين تلك القبائل في تلك الحقبة هو أسطورة؛ أسطورة تقول إن ملكة شابة ستأتي من الجنوب «تحملها أفيال ضخمة»، وستوحد القبائل المتناحرة، وتؤسس مملكة هاريبونشاي.

لم تكن كاماتيفي قد تجاوزت الثالثة والعشرين من عمرها عندما أفضى عراف عجوز لرسل من الشمال بأنها ملكة هاريبونشاي المنتظرة. كانت أميرة شابة وجميلة من أميرات شعب المُن، والمُن هم شعب الخمير الذي بنى فيما بعد معبد أنجكور وات. كانت كاماتيفي آية في الذكاء، وامرأة فريدة في عصرها، وكان جميع من في البلاط الملكي يحبونها.

لذلك اندهش شعبها عندما أعلنت أنها ستترك حياة الرفاهية والراحة، وتتجه إلى الشمال في رحلة شاقة تستغرق ستة أشهر، تعبر فيها سبعمائة كيلومتر من الجبال والغابات والمستنقعات. وعندما وصلت كاماتيفي وحاشيتها «تحملهم أفيال ضخمة» إلى الوادي الأخضر الذي تقع فيه لامبون، نحى رعاياها المستقبليون صراعاتهم الداخلية جانبًا على الفور، وأجلسوا الملكة الجميلة الشابة على العرش. حكمت كاماتيفي خمسين عامًا من الحكمة والعدل، وتمكنت من النهوض بمملكتها من الظلام إلى عصر تميز بالتطور الاجتماعي والإنجازات الفنية.

عندما صارت في السبعين من عمرها تنازلت عن العرش، وقسمت مملكتها بالتساوي بين ابنيها التوءمين. ثم أعلنت أنها ستكرس ما بقي من حياتها لله. فدخلت ديرًا بوذيًّا وتنازلت عن كل ممتلكاتها. وعاشت حياة بسيطة تقية في الدير إلى أن ماتت في سن التاسعة والتسعين. وحينئذٍ انتهى عصر الهاريبونشاي الذهبي.

في اللوحة الجدارية الأخيرة تظهر صورة امرأة زاهدة مسنة تحملها مركبة رائعة إلى الفردوس. وتظهر صورة الملكة، وهي أصغر سنًّا وأروع جمالًا، وهي تجلس بجوار تمثال

بوذا فوق المركبة التي تحلق في عنان السماء. جلست ناي بواتونج واتانابي التي اختيرت لتكون ضمن مستعمري المريخ على ركبتيها في المعبد في لامبون في تايلاند، ووصلت داخليًّا لروح بطلتها التي عاشت في الماضي البعيد.

قالت في نفسها: عزيزتي كاماتيفي. لقد قمت برعايتي سنوات عمري التي تبلغ ستة وعشرين سنة. والآن أنا على وشك الرحيل إلى مكان لا أعرفه، بالضبط مثلما فعلتِ عندما ذهبت إلى الشمال سعيًّا خلف هاريبونشاي. اهدني بحكمتك وبصيرتك وأنا على أعتاب هذا العالم الجديد الرائع.

٣

كانت يوكيكو ترتدي قميصًا حريريًّا أسود وبنطالًا أبيض وقبعة لونها أبيض وأسود. وتوجهت إلى الجانب الآخر من غرفة المعيشة لتُحدث أخاها. قالت: «وددت لو أتيت معي يا كينجي. فهذه المظاهرة ستكون أكبر مظاهرة من أجل السلام يشهدها العالم.»

ابتسم كينجي لأخته الصغرى. وأجاب: «كنت أتمنى هذا أيضًا يا يوكي. ولكن ليس أمامي سوى يومين على الرحيل، وأريد أن أقضي هذا الوقت مع أمي وأبي.»

دخلت والدتهما الغرفة من الجانب المقابل. وكانت تحمل حقيبة سفر كبيرة وتبدو على عجلة من أمرها كعادتها. قالت: «حزمت كل شيء على أتم وجه. ولكنني وددت لو غيرت رأيك. فهيروشيما ستكون مزدحمةً كالسوق. تقول جريدة «أساهي شيمبون» إنها ستستقبل «مليون» زائر، نصفهم تقريبًا من خارج البلاد.»

قالت يوكيكو وهي تمد يدها لأخذ الحقيبة: «شكرًا يا أمي. كما تعرفين سأنزل أنا وساتوكو في فندق هيروشيما برينس. والآن، لا داعي للقلق. سنتصل بكم كل صباح قبل بدء الأنشطة. وسأعود إلى البيت بعد ظهر يوم الاثنين.»

فتحت الشابة الحقيبة وأدخلت يدها في جيب خاص سحبت منه سوارًا ماسيًّا وخاتمًا يزينه فص من الياقوت الأزرق. وارتدتهما. قالت أمها بلهجة متبرمة: «ألا تعتقدين أنه يجب أن تتركي هذه الأشياء في المنزل؟ تذكَّري أن الكثير من الأجانب سيحضرون. وقد تغريهم مجوهراتك لسرقتها.»

أطلقت يوكيكو ضحكتها المدوية التي يعشقها كينجي. وقالت: «أمي، كم أنتِ قلوقة. فأنت لا تفكرين إلا في السلبيات التي من الممكن أن نواجهها … إننا ذاهبون إلى هيروشيما لحضور الاحتفالات التي تحيي الذكرى الثلاثمائة لإلقاء القنبلة الذرية.

وسيحضر الاحتفالات رئيس الوزراء وثلاثة من أعضاء الجهاز الرئيسي بمجلس الحكومات. وسيعزف الكثير من أشهر موسيقيي العالم في هذه الأمسيات. ستكون هذه «تجربة مثرية» كما يقول والدي، بينما كل ما يمكنك التفكير فيه هو من قد يسرق مجوهراتي.»

«عندما كنتُ صغيرة لم يكن من المعتاد أن تسافر فتاتان لم يتما دراستيهما الجامعية في أنحاء اليابان دون رفيق يحميهما ...»

قاطعتها يوكي: «أمي، لقد ناقشنا هذا من قبل. إنني في الثانية والعشرين تقريبًا. والعام القادم سأترك البيت، لأقيم بمفردي بعد التخرج من الجامعة، وربما أذهب إلى بلد آخر. لم أعد طفلة. هذا بالإضافة إلى إنني أنا وساتوكو يستطيع كلٌّ منا الاعتناء بالآخر على أكمل وجه.»

نظرت يوكيكو في ساعتها. وقالت: «يجب أن أرحل الآن. إنها غالبًا تنتظرني في محطة المترو.»

اتجهت بخطى رشيقة واسعة إلى والدتها وقبلتها قبلةً يعوزها الاهتمام. ثم عانقت أخاها يوكي عناقًا حارًّا.

همست في أذنيه: «في حفظ الله يا أخي الحبيب. اعتنِ بنفسك وبزوجتك الجميلة على المريخ. إننا جميعًا فخورون بشدة بكما.»

لم يتسنَ لكينجي التعرف على يوكيكو جيدًا قط. فقد كان يكبرها بنحو اثني عشر عامًا. كانت يوكي في الرابعة من عمرها عندما تولى السيد واتانابي منصب رئيس الفرع الأمريكي لشركة إنترناشونال روبوتيكس. فعبرت الأسرة المحيط الهادئ متوجهة إلى إحدى ضواحي سان فرانسيسكو. في تلك الأيام، لم يكن كينجي يهتم بأخته الصغرى كثيرًا. فقد كان أكثر اهتمامًا بحياته الجديدة في كاليفورنيا خاصة بعد أن بدأ الدراسة في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس.

عاد الوالدان ويوكيكو إلى اليابان عام ٢٢٣٢ تاركَين كينجي يدرس التاريخ في السنة الثانية من الجامعة. ومنذ ذلك الحين وتواصله مع يوكي محدود للغاية. كان دائمًا ما ينوي أن يقضي بعض الساعات معها وحدها أثناء زياراته السنوية لبيته في كيوتو ولكن هذا لم يحدث قط. ويعود ذلك إما لاستغراقها الشديد في حياتها الخاصة، أو لتكليف والديه له بكثير من الواجبات الاجتماعية، أو لعدم توافر وقت كافٍ لديه.

شعر كينجي بحزن غريب وهو واقف على الباب ينظر إلى يوكيكو وهي تختفي في المدى. وقال لنفسه: سأغادر هذا الكوكب دون أن أحظى بوقتٍ كافٍ لأتعرف على أختي.

كانت والدته تتحدث خلفه حديثًا رتيبًا عن شعورها بأن حياتها ذهبت أدراج الرياح؛ لأن أبناءها لا يحترمونها ورحلوا جميعًا عنها. الآن يرحل ابنها الوحيد ليعيش على المريخ بعد أن شانهم بزواجه من تايلاندية، ولن تراه لما يزيد عن خمس سنوات. أما عن ابنتها الوسطى فعلى الأقل أنجبت لها هي وزوجها المصرفي حفيدتين، ولكنهما ثقيلتا الظل ومملتان كوالديهما …

قاطع كينجي والدته: «كيف حال فوميكو؟ هل سأتمكن من رؤيتها هي وابنتيها قبل الرحيل؟»

«سيأتون غدًا من كوبي قبل العشاء. وعلى الرغم من أنني ليس لدي أي فكرة عما سأطهوه لهم … أتعلم أن تاتسو وفوميكو لا يعلمان ابنتيهما الأكل بالعيدان؟ أتصدق هذا؟ طفل ياباني لا يعرف كيف يستخدم العيدان؟ ألم نعد نقدس شيئًا؟ لقد تخلينا عن هويتنا في سبيل الثراء. كنت أقول لوالدك …»

استأذن كينجي للانصراف وأنقذ نفسه من مونولوج والدته المتبرم لاجئًا إلى غرفة مكتب والده. كانت جدران الغرفة مزدانة بصور فوتوغرافية موضوعة في إطارات، وكأنها السجل الذي يحفر فيه الرجل الناجح ذكريات حياته الشخصية والمهنية. تحمل اثنتان من هذه الصور ذكريات خاصة لكينجي. في إحداها يمسك هو ووالده بجائزة ضخمة منحها نادي البلدة للفائزين بدورة الجولف السنوية للآباء والأبناء. وفي الصورة الأخرى كان السيد واتانابي يقدم ميدالية كبيرة لابنه والسعادة مرتسمة على وجهه وذلك بعد أن فاز كينجي بالجائزة الأولى على مستوى كيوتو في المسابقة الأكاديمية للمدارس الثانوية.

تذكر كينجي شيئًا كان قد نسيه إلى أن شاهد الصورتين مرةً أخرى، وهو أن توشيو ناكامورا، ابن أقرب أصدقاء والده وشريكه في العمل، كان ثاني الفائزين في المسابقتين. في كلتا الصورتين كان وجه ناكامورا، الذي يزيد طوله عن طول كينجي بقليل، متجهمًا من الغضب.

حدَّث كينجي نفسه قائلًا: كل هذا حدث قبل المشاكل التي وقع فيها توشيو بكثير. وتذكر العنوان الرئيسي الذي قرأه في الصحف وتناول إدانة توشيو ناكامورا منذ أربع سنوات «القبض على مسئول كبير في مدينة أوساكا». كان المقال الذي جاء تحت هذا العنوان يوضح أن السيد ناكامورا، الذي كان في هذا الوقت يشغل منصب نائب المدير في مجموعة فنادق توموزاوا، وُجهت إليه اتهامات خطيرة جدًّا تتراوح بين الرشوة والقوادة، وتنتهي بالاتجار في البشر. وفي خلال أربعة أشهر أدين ناكامورا وصدر ضده حكم بالسجن

عدة سنوات. انتابت الدهشة كينجي. وظل يتساءل طوال السنوات الأربع تلك: ما الذي حدث لناكامورا؟

وفي خضم الذكريات التي خطرت على باله عن غريمه إبان صباه، انتابه إحساس بالأسف الشديد على كيكو موروساوا، زوجة ناكامورا، التي كان كينجي نفسه يكنُّ لها عاطفة خاصة وهو في السادسة عشرة من عمره عندما كان يعيش في كيوتو. في الواقع ظل كينجي وناكامورا يتنافسان للفوز بحب كيكو طوال عام تقريبًا. وعندما أفصحت كيكو في نهاية الأمر عن أنها تفضل كينجي على توشيو، غضب هذا الشاب غضبًا شديدًا. حتى إنه واجه كينجي ذات صباح بالقرب من معبد ريونجي وهدده باستخدام العنف.

قال كينجي لنفسه: ربما كانت كيكو قد صارت زوجتي أنا لو لم أرحل عن اليابان. نظر من النافذة إلى حديقة الطحالب. كان المطر ينهمر. وفجأة اجتاحته ذكرى مؤلمة أخرى ليوم ممطر عاشه في صباه.

توجه كينجي إلى منزلها ما إن نقل إليه والده الخبر. فتناهى إلى سمعه لحنٌ من ألحان شوبان وهو ينعطف ليدخل الممر المؤدي إلى بيتها. فتحت السيدة موروساوا الباب وتحدثت إليه بصرامة. فقالت: «كيكو تتمرن الآن. ولن تنتهي إلا بعد ما يزيد عن ساعة.»

قال الفتى ذو الستة عشر عامًا: «أرجوك يا سيدتي، أريدها في أمر مهم جدًّا.»

كانت أمها على وشك أن تغلق الباب عندما لمحت كيكو كينجي من النافذة. فتوقفت عن العزف، وأسرعت إليه وعلى وجهها ابتسامة مشرقة غمرت الفتى بالسعادة. قالت: «مرحبًا يا كينجي. ما الأمر؟»

أجاب بغموض: «أمر مهم للغاية. أيمكنك أن تأتي معي لنتمشى؟»

فأعربت أمها عن اعتراضها متعللة بالحفل الموسيقي الذي من المقرر أن تعزف فيه كيكو، ولكن كيكو أقنعتها بأنه يمكنها التوقف عن التمرين مدة يوم واحد دون أن يؤثر ذلك على مستواها. أخذت مظلة ولحقت بكينجي الذي كان يقف أمام المنزل. وما إن ابتعدا عن المنزل حتى تأبطت ذراعه مثلما تفعل دائمًا عندما يمشيان معًا.

قالت كيكو وهما يسيران في طريقهما المعتاد المؤدي إلى التلال التي تقع خلف المنطقة التي يسكنان فيها من كيوتو: «والآن يا صديقي. ما هذا الأمر البالغ الأهمية؟»

أجاب كينجي: «لا أريد أن أطلعك عليه الآن. ليس هنا على أي حال. أريد أن أنتظر حتى نصل إلى المكان المناسب.»

أخذ كينجي وكيكو يضحكان ويثرثران وهما يتوجهان نحو «ممشى الفيلسوف»، وهو ممشى جميل يلتف حول سفح التلال الشرقية ويبلغ طوله عدة كيلومترات. اشتهر هذا الطريق بفضل فيلسوف القرن العشرين نيشيدا كيتارو الذي من المفترض أنه كان يمشي فيه كل صباح. ويمر الممشى بمجموعة من أشهر المناطق ذات المشاهد الطبيعية الخلابة في كيوتو، بما فيها جينكاكو-جي (المقصورة الفضية) والمكان المفضل لدى كينجي وهو المعبد البوذي القديم والمسمى هونين-إن.

خلف هونين-إن وبجواره تقع مقبرة صغيرة بها نحو سبعين أو ثمانين قبرًا وشاهد قبر. وبينما كان كينجي وكيكو يغامران بالتجول في المكان وحدهما في بداية ذلك العام اكتشفا أن المقبرة تضم رفات بضعة أشخاص من أشهر من سكن كيوتو في القرن العشرين، منهم الروائي الشهير جونيشيرو تانيزاكي، والشاعر الطبيب إيواو ماتسو. وبعد اكتشافهما، صارت المقبرة مكان لقائهما المعتاد. وذات مرة، بعد أن قرآ رائعة تانيزاكي، «الأخوات ماكيوكا» التي تدور عن الحياة في مدينة أوساكا في ثلاثينيات القرن العشرين، دخلا في نقاش مرح لما يزيد عن ساعة حول أيٍّ من الأخوات ماكيوكا هي الأقرب شبهًا بكيكو، كل ذلك وهما جالسان بجوار ضريح المؤلف.

في اليوم الذي أخبر فيه السيد واتانابي كينجي بأن الأسرة ستسافر إلى أمريكا، كان المطر قد بدأ ينهمر عند وصول كينجي وكيكو إلى هونين-إن. هناك، انعطف كينجي يمينًا إلى ممشى صغير واتجه إلى بوابة قديمة ذات سقف مبني من القش المنسوج. وكما توقعت كيكو، لم يدخلا إلى المعبد وإنما صعدا السلالم المؤدية إلى المقبرة. غير أن كينجي لم يتوقف عند قبر تانيزاكي. وإنما صعد إلى أعلى، إلى مجموعة مقابر أخرى.

قال كينجي وهو يخرج الكمبيوتر المحمول الإلكتروني الخاص به: «هنا دفن السيد إيواو ماتسو. سنقرأ بعض القصائد التي كتبها.»

جلست كيكو بجانب صديقها، واقترب كلٌّ منهما من الآخر تحت مظلتها التي تتساقط عليها قطرات المطر الخفيف وهو يقرأ ثلاث قصائد. وبعدها قال: «بقيت لدي قصيدة أخيرة؛ قصيدة مميزة صيغت في قالب «هايكو» كتبها أحد أصدقاء ماتسو، يقول فيها:

في أحد أيام شهر يونيو
بعد تناول الآيس كريم المنعش
ودع كلٌّ منا الآخر.

خيم الصمت عدة ثوانٍ بعد أن ألقى كينجي القصيدة غيبًا مرة أخرى. انزعجت كيكو، بل انتابها شيء من الخوف عندما لم يتغير التعبير المتجهم على وجه كينجي. وقالت بصوت خفيض: «تتحدث القصيدة عن الوداع. أتقصد أن تخبرني …»

قاطعها كينجي: «ليس الأمر بيدي يا كيكو.» تردد عدة ثوانٍ. ثم تابع حديثه بعد برهة قائلًا: «عُين والدي في فرع أمريكا. وسنرحل إلى هناك الشهر القادم.»

لم يرَ كينجي مثل تلك النظرة الحزينة على وجه كيكو الجميل من قبل. وحين رفعت إليه هاتين العينين الغارقتين في الحزن، شعر وكأن قلبه سيتمزق إربًا. فعانقها بقوة تحت المطر وهما يبكيان، وأقسم بأنه لن يحب سواها إلى الأبد.

٤

سحبت النادلة الأصغر سنًّا، التي ترتدي كيمونو أزرق فاتح وقد شدت خصرها بوشاح عريض، الباب ودخلت الحجرة. وكانت تحمل صينية عليها جعة ومشروب الساكي.

قال والد كينجي بلطف وهو يرفع الكأس إلى الفتاة كي تضع فيه الساكي: «صُبي لي ساكي من فضلك.»

أخذ كينجي رشفة من الجعة الباردة. وعادت النادلة الأكبر سنًّا في صمت بطبق صغير من المقبلات. وكان في وسطه محار من نوع ما تحيط به صلصة خفيفة القوام، ولكن كينجي لم يستطع التعرف على نوع المحار أو الصلصلة. فهو لم يتناول إلا القليل من هذه الوجبات اليابانية التقليدية منذ أن رحل عن كيوتو قبل سبعة عشر عامًا.

ضرب كينجي كأس الجعة التي يشربها بكأس الساكي التي يحتسيها والده. وقال: «في صحتك. أشكرك يا أبي. إنه لشرف لي أن أتناول العشاء معك هنا.»

كيشو كان هو أشهر مطعم في منطقة كانساي، بل ربما في اليابان كلها. وأسعاره فلكية لأنه يحافظ على عادات الأكل اليابانية بأكملها، فيعتمد على الخدمة الشخصية، ويوفر غرف طعام خاصة، ويقدم أطباقًا موسمية تطهى من أجود المكونات. وكل طبق من هذه الأطباق يتميز بجمال الشكل وروعة المذاق. ولذلك عندما أخبر السيد واتانابي ابنه كينجي أنهما سيتناولان الطعام وحدهما، هما الاثنان فقط، لم يتخيل قط أنهما سيأكلان في كيشو.

كانا يتحدثان عن الرحلة التي سيقوم بها كينجي إلى المريخ. وسأله السيد واتانابي: «كم يبلغ عدد اليابانيين من إجمالي عدد المستعمرين؟»

أجاب كينجي: «عددهم لا يستهان به. إذ يبلغ نحو ثلاثمائة على ما أذكر. فالكثير من ذوي الكفاءة العالية الذين تقدموا إلينا يابانيون. ولم تحظ أي دولة أخرى بعدد أكبر من الممثلين سوى أمريكا.»

فسأله واتانابي: «أتعرف أيًّا من هؤلاء اليابانيين معرفةً شخصيةً؟»

رد عليه كينجي قائلًا: «اثنان أو ثلاثة. من بينهم ياسوكو هوريكاوا التي كانت زميلتي مدة قصيرة في المدرسة الإعدادية بمدينة كيوتو. قد تتذكرها. إنها تلك الفتاة البالغة الذكاء. الفتاة ذات الأسنان الأمامية البارزة. والنظارة الطبية السميكة. إنها تعمل، أو بالأحرى كانت تعمل، كيميائية في شركة داي-نيبون.»

ابتسم السيد واتانابي. وقال: «أظن أنني أتذكرها. هل حضرت إلى المنزل في الليلة التي عزفت فيها كيكو على البيانو؟»

قال بعفوية: «نعم، أظن هذا.» ثم ضحك. وأضاف: «ولكن يصعب عليَّ تذكر أي شيء متعلق بهذه الليلة سوى كيكو.»

أنهى السيد واتانابي مشروب الساكي الخاص به. فجاءت النادلة الصغيرة إلى المنضدة لتملأ الكأس، وقد كانت جالسة على ركبتيها في زاوية الغرفة المفروشة بالحصير الياباني التقليدي دون تطفل منها عليهما. قال السيد واتانابي وهي تنصرف: «كينجي أنا مهتم بأمر المحكوم عليهم.»

قال كينجي: «عم تتحدث يا أبي؟»

رد عليه: «قرأت مقالًا طويلًا في مجلة جاء فيه أن وكالة الفضاء العالمية اختارت عدة مئات من المحكوم عليهم ليكونوا جزءًا من مستعمرة لوويل الخاصة بكم. وأكد المقال أن كل السجناء كانوا يتمتعون بحسن السير والسلوك أثناء مدد سجنهم، فضلًا عن تمتعهم بمهارات مميزة. ولكن لماذا اضطررتم لقبول أفراد محكوم عليهم من الأساس؟»

احتسى كينجي رشفة من الجعة. وأجاب: «في الحقيقة يا أبي، لقد واجهنا صعوبة في عملية الاختيار. أولًا، كان تقديرنا لعدد من سيتقدمون غير واقعي، مما جعلنا نضع معايير اختيار صعبة للغاية. ثانيًا، كان من الخطأ أن نضع شرطًا يقضي بأن يكون الحد الأدنى لمدة المهمة خمس سنوات. فبالنسبة إلى الشباب خاصة، يمثل قرار القيام بأي نشاط يستغرق كل هذه المدة التزامًا صارمًا للغاية. والأهم من كل هذا هو أن الإعلام قام بدور أدى إلى إضعاف عملية الاختيار. ففي الوقت الذي كنا فيه نسعى للحصول على طلبات تقديم، كنا نرى آلاف المقالات في المجلات و«الحلقات الخاصة» في التليفزيون تتناول زوال

المستعمرات التي أقيمت على المريخ قبل مائة عام. فخاف الناس من أن قد يعيد التاريخ نفسه وأن تتقطع بهم السبل أيضًا على المريخ.»

صمت كينجي برهة ولكن السيد واتانابي لم يعلق. فتابع هو حديثه قائلًا: «بالإضافة إلى هذا، مر المشروع، كما تعلم، بأزمات مادية متكررة. ولم نبدأ في التفكير في اختيار المحكوم عليهم المهرة المثاليين إلا عندما اضطررنا إلى خفض الموازنة العام الماضي، على أمل أن ينقذنا ذلك من بعض المشكلات المتعلقة بالعاملين وبالميزانية. فهناك الكثير من الإغراءات التي ستدفع المحكوم عليهم إلى التقدم للالتحاق رغم أنهم سيحصلون على رواتب متواضعة. ومنها أن وقوع الاختيار عليهم يعني حصولهم على عفو شامل، ومن ثم فوزهم بالحرية عند عودتهم إلى الأرض بعد مرور السنوات الخمس. كما أن المحكوم عليهم السابقين سيتمتعون بالمواطنة الكاملة في مستعمرة لوويل مثل الجميع، ولن يضطروا لخضوع كل أنشطتهم للمراقبة ...»

قطع كينجي حديثه عندما كانت النادلة تضع على المائدة طبقًا مفروشًا بأوراق خضراء متنوعة فوقها قطعتان صغيرتَان من السمك المشوي، وبدا الطبق جميلًا وشهيًّا. التقط السيد واتانابي قطعة سمك بعصتيه. وقال دون أن ينظر إلى ابنه: «لذيذ حقًّا.»

مد كينجي يده نحو قطعة السمك الأخرى. وبدا أن النقاش حول المحكوم عليهم في مستعمرة لوويل قد انتهى. نظر كينجي إلى ما وراء أبيه، حيث رأى الحديقة الجميلة التي كان المطعم يشتهر بها. ورأى جدولًا صغيرًا ينزل على درجات سلم مصقولة ويجري بجوار ست أشجار قزمة خلابة. لطالما كان المقعد المواجه للحديقة يضفي على من يجلس عليه مكانة رفيعة أثناء تناول وجبة يابانية تقليدية. وقد أصر السيد واتانابي على أن يتسنى لكينجي رؤية الحديقة من مقعده على المائدة أثناء عشائه الأخير.

سأل الأب بعد أن فرغ من تناول السمك: «ألم تستطع جذب أي مستعمرين صينيين؟»

هز كينجي رأسه نفيًا. وقال: «فقط عدد قليل من سنغافورة وماليزيا. أما حكومتا الصين والبرازيل فقد منعتا المواطنين من التقدم. قرار البرازيل متوقع بسبب دخول إمبراطورية أمريكا الجنوبية في حرب مع مجلس الحكومات، ولكننا كنا نأمل أن تتخذ الصين موقفًا أقل تشددًا. أعتقد أن مائة عام من العزلة لا يختفي أثرها بسهولة.»

علق السيد واتانابي قائلًا: «لا يمكنك أن تلومهم. فقد عانى بلدهم معاناةً أليمةً أثناء مدة الفوضى العظمى. إذ اختفى رأس المال الأجنبي كله بين عشية وضحاها، وانهار اقتصادهم على الفور.»

قال كينجي: «لقد نجحنا في اختيار القليل من الأفارقة السود، ربما يبلغ عددهم مجتمعين نحو مائة، وكذلك حفنة من العرب. ولكن معظم المستعمرين من البلاد التي تساهم مساهمة كبيرة في وكالة الفضاء العالمية. وهو أمر متوقع.»

فجأة شعر كينجي بالإحراج. وكان مبعث هذا أن الحوار الذي دار بينهما منذ أن دخلا المطعم لم يتناول سواه هو وأنشطته. فما كان من كينجي إلا أن طرح على والده أسئلة حول عمله في شركة إنترناشونال روبوتيكس أثناء تناول الأطباق القليلة التالية. كان السيد واتانابي يشغل الآن منصب مسئول التشغيل الرئيسي في المؤسسة، ودائمًا ما كان يتيه فخرًا وهو يتحدث عن «شركته». إنها أكبر جهة منتجة للآليين المخصصين للعمل في المصانع والمكاتب على مستوى العالم. وبفضل مبيعاتها السنوية أصبحت من بين أكبر خمسين جهة منتجة في هذا المجال على مستوى العالم.

قال السيد واتانابي وقد أصبح ثرثارًا على غير العادة بفعل كئوس الساكي الكثيرة التي احتساها: «سأبلغ الثانية والستين العام القادم، وقد فكرت في أن أتقاعد. ولكن ناكامورا يقول إن هذا سيكون قرارًا خاطئًا. ويقول إن الشركة لا تزال تحتاجني ...»

قبل أن تصل الفاكهة عاد كينجي ووالده إلى الحديث حول رحلة المريخ القادمة. قال كينجي إن ناي ومعظم المستعمرين الآسيويين الآخرين الذين كانوا سيسافرون على بينتا أو نينيا وصلوا بالفعل إلى معسكر التدريب الياباني الذي يقع في جنوب جزيرة كيوشو. وإنه سيلحق بزوجته هناك فور أن يغادر كيوتو، وبعد عشرة أيام أخرى من التدريب سينتقلان مع باقي ركاب بينتا إلى محطة فضائية تقع في مدار قريب من الأرض حيث سيتدربون مدة أسبوع على التكيف مع انعدام الجاذبية. وآخر مرحلة من مراحل الرحلة القريبة من الأرض ستكون جولة على متن مركبة فضائية صغيرة مخصصة للمهام قصيرة المدى، تأخذهم من المدار القريب من الأرض إلى محطة فضائية تدور حول الأرض بنفس سرعة دوران الأرض وتقع في المدار المتزامن رقم ٤، حيث يجري حاليًّا تجميع السفينة بينتا وإجراء الاختبارات الأخيرة عليها وتجهيزها للقيام بالرحلة الطويلة إلى المريخ.

أحضرت لهما النادلة الصغيرة كأسي كونياك. قال السيد واتانابي وهو يحتسي رشفة صغيرة من المشروب: «زوجتك رائعة فعلًا. لطالما كنت أرى أن التايلانديات هن أجمل نساء العالم.»

أضاف كينجي بسرعة وقد أحس فجأة بأنه يفتقد عروسه: «إن مَخبرها أيضًا جميل كمظهرها. وهي كذلك ذكية جدًّا.»

قال السيد واتانابي: «إنها تجيد الإنجليزية. ولكن والدتك تقول إنها لا تتقن اليابانية.»

غضب كينجي. وقال: «حاولت ناي أن تتحدث اليابانية — مع أنها لم تدرسها قط — لأن أمي رفضت التحدث بالإنجليزية. لقد تعمدت هذا لتصيب ناي بالارتباك ...»

تمالك كينجي نفسه. إذ أحس أن دفاعه عن ناي لا يليق بهذه المناسبة.

فقال لوالده: «معذرةً.»

رشف السيد واتانابي رشفة كبيرة من الكونياك. وقال: «حسنًا يا كينجي، هذه آخر مرة نجلس فيها معًا بمفردنا لخمس سنوات على الأقل. وقد استمتعت كثيرًا بعشائنا وحوارنا.» صمت قليلًا. ثم قال: «لكنَّ هناك موضوعًا آخر أريد مناقشته معك.»

غير كينجي جلسته (إذ لم يعد معتادًا على أن يجلس القرفصاء على الأرض مدة أربع ساعات متواصلة)، وجلس معتدلًا في محاولة لتصفية ذهنه. فقد نبأته نبرة والده بأن «الموضوع الآخر» سيكون خطيرًا.

بدأ السيد واتانابي حديثه قائلًا: «إن اهتمامي بالمحكوم عليهم في مستعمرة لوويل لا ينبع من مجرد فضول عقيم.» توقف ليستجمع أفكاره قبل أن يواصل حديثه. ثم قال: «جاء السيد ناكامورا إلى مكتبي في وقت متأخر من الأسبوع الماضي، في نهاية يوم العمل، وقال لي إن الطلب الثاني الذي تقدم به ابنه للذهاب إلى مستعمرة لوويل رُفِض أيضًا. وطلب مني أن أتحدث معك لتدرس الأمر.»

نزل الكلام على كينجي كالصاعقة. إذ إنه لم يعلم حتى بأن غريم طفولته تقدم بطلب للالتحاق بمستعمرة لوويل. والآن يأتي والده ...

رد عليه كينجي ببطء: «لم أشارك في عملية اختيار المستعمرين من فئة المحكوم عليهم. فهذا قسم مختلف تمامًا من المشروع.»

لم ينبس السيد واتانابي ببنت شفة عدةَ ثوانٍ. ثم أكمل بعد أن انتهى من كأس الكونياك: «معارفنا أخبرونا أن الاعتراض القوي الوحيد على الطلب جاء من طبيب نفسي نيوزيلندي، اسمه د. ريدجمور، والذي يرى أن توشيو ابن ناكامورا، رغم حسن سيره وسلوكه أثناء مدة سجنه، لا يزال لم يعترف بأنه قد أخطأ ... أعتقد أنك مسئول شخصيًّا عن ضم د. ريدجمور ضمن فريق مستعمرة لوويل.»

صعق كينجي. إذ إن والده لا يطلب منه طلبًا عابرًا. وإنما قام ببحث مفصل في جذور المسألة. فأخذ كينجي يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا؟ ما سر كل هذا الاهتمام؟

قال السيد واتانابي: «إن السيد ناكامورا مهندس عبقري. ويعود الفضل إليه هو شخصيًّا في الكثير من المنتجات التي حققت لنا الريادة في مجالنا. ولكن معين الابتكار في

مختبره جف بعض الشيء في الفترة الأخيرة. فقد بدأت إنتاجيته تنخفض تقريبًا منذ أن أُلقي القبض على ابنه وأُدين.»

مال السيد واتانابي على كينجي وهو يستند بمرفقيه على الطاولة. وقال: «فقد السيد ناكامورا ثقته بنفسه. فهو مضطر لزيارة توشيو في معتقله مرة شهريًّا مع زوجته. وهو ما يذكره دومًا بالعار الذي لحق بأسرته. لكن إذا استطاع ابنه الذهاب إلى المريخ فربما ...»

فهم كينجي جيدًا ما كان يطلبه منه والده. وأحس أن المشاعر التي ظل يكبحها طويلًا على وشك الانفجار. كان كينجي غاضبًا ومرتبكًا. وكان على وشك أن يخبر والده بأن ما يطلبه «لا يليق» عندما تحدث والده ثانيةً.

قال: «والأمر ظل صعبًا على كيكو وابنتها كذلك. فأيكو في نحو السابعة الآن. وفي عطلة نهاية كل أسبوع يستقلان القطار إلى مدينة آشيا ...»

حاول كينجي جاهدًا أن يكبح الدموع في مقلتيه ولكنه لم يستطع. إذ كانت صورة كيكو وهي محطمةً مكتئبةً وتصطحب ابنتها إلى المنطقة المحظورة في زيارة نصف شهرية بصحبة أبيها تفوق قدرته على الاحتمال.

أضاف والده: «تحدثتُ إلى كيكو بنفسي الأسبوع الماضي بناءً على طلب السيد ناكامورا. ووجدتها مكتئبةً للغاية. ولكن بدا عليها السرور عندما أخبرتها أنني سأطلب منك أن تتوسط لزوجها.»

أخذ كينجي نفسًا عميقًا وحدق في وجه والده الذي لا ينم عن أي انفعالات. كان يعرف ما سيفعله. وكان يعرف حقًّا أن هذا «غير لائق»؛ لم يكن خطأً، بل هو غير لائق فحسب. ولكن كان من غير المنطقي أن يظل المرء يعذب نفسه بسبب قرار يعتبر تحصيل حاصل.

أنهى كينجي الكونياك. وقال: «أخبر السيد ناكامورا أنني سأتصل بدكتور ريدجمور غدًا.»

قال كينجي في نفسه وهو ينصرف من التجمع الأسري — الذي انضمت إليه أخته فوميكو وابنتاها — ويهرع إلى الشارع: ماذا لو أخطأ إحساسي؟ سأكون قد أضعت ساعة، أو تسعين دقيقة في الأغلب. انعطف على الفور تجاه التلال. لم يبقَ على الغروب سوى نحو ساعة. قال لنفسه: ستكون هناك، هذه فرصتي الوحيدة لأودعها.

ذهب كينجي أولًا إلى معبد أناراكو-جي الصغير. ودخل إلى المحراب الرئيسي متوقعًا أن يجد كيكو في مكانها المفضل أمام المذبح الخشبي الجانبي، تحيي ذكرى الراهبتين البوذيتين

اللتين كانتا من حريم البلاط في القرن الثاني عشر، وانتحرتا عندما أمرهما الإمبراطور توبا الثاني بإنكار تعاليم القديس هونين. لكنه لم يجد كيكو هناك. ولم يجدها كذلك في الخارج في المكان الذي دفنت فيه المرأتان على حافة غابة الخيزران. فبدأ يظن أنه قد جانبه الصواب. وحدث نفسه قائلًا: كيكو لم تأت. ربما تشعر بأن الأمر قد حط من كرامتها.

الأمل الوحيد المتبقي أمامه هو أن يجد كيكو في انتظاره في المقبرة بجانب معبد هونين-إن، وهو المكان الذي أخبرها فيه قبل سبعة عشر عامًا بأنه سيغادر اليابان. خفق قلب كينجي بشدة وهو يصعد الطريق المؤدي إلى المعبد. إذ رأى هيئة امرأة من بعيد جهة اليمين. كانت ترتدي هذه المرأة فستانًا أسود بسيطًا وتقف بجانب مقبرة جونيشيرو تانيزاكي.

مع أنها كانت تتجه إلى ناحية أخرى بجسدها، ومع أنه لم يستطع الرؤية بوضوح في ضوء الشفق الواهن، فقد كان متأكدًا من أن المرأة هي كيكو. فأسرع يصعد الدرجات وهرع إلى المقبرة، ثم توقف في النهاية على بعد نحو خمسة أمتار من المرأة المتشحة بالسواد.

قال وهو يلتقط أنفاسه: «كيكو. إنني سعيد جدًّا ...»

قالت المرأة بلهجة رسمية وهي تلتفت مُطرِقة برأسها وتغض نظرها: «سيد واتانابي!» وانحنت انحناءة شديدة وكأنها خادمة. وقالت مرتين باليابانية: «شكرًا جزيلًا لك.» ثم اعتدلت أخيرًا ولكن دون أن ترفع عينيها إليه.

قال بصوت منخفض: «كيكو. أنا كينجي. إنني هنا بمفردي. من فضلك انظري إليَّ.»

أجابت بصوت هامس لم يكد يسمعه: «لا أستطيع. ولكنني أستطيع أن أشكرك على كل ما فعلته لأيكو ولي.» وانحنت ثانية وقالت باليابانية: «شكرًا جزيلًا.»

انحنى كينجي لاإراديًّا ووضع يده أسفل ذقن كيكو. ثم رفع رأسها برفق حتى استطاع أن يرى وجهها. كانت كيكو لا تزال جميلة. ولكنه صُدم عندما رأى الحزن محفورًا في ملامحها الرقيقة.

كانت دموعها تنهمر فشعر بأنها كالسكاكين الصغيرة تمزق قلبه، وتمتم قائلًا: «كيكو.»

قالت: «لا بد أن أرحل. أتمنى لك السعادة.» وأشاحت بوجهها عن يده وانحنت مرةً أخرى. ثم نهضت دون أن تنظر إليه ومشت ببطء في الممر في ظلال الشفق.

تابعها كينجي بعينيه حتى اختفت في المدى. وعندها فقط أدرك أنه كان ينحني على مقبرة تانيزاكي. ولم يستطع أن يرفع عينيه عدة دقائق عن الحرفين الكانجيين المحفورين على الشاهدين الرماديين. كان أحدهما يعني الخواء، والثاني يعني الوحدة.

٥

عندما بُثَّت الرسالة من راما إلى الأرض عبر نظام التتبع بالأقمار الصناعية عام ٢٢٤١ تسببت على الفور في حالة من الذعر. وبالطبع صُنف الفيديو الذي تظهر فيه نيكول على الفور ضمن فئة سري للغاية، في حين حاولت وكالة الاستخبارات العالمية — وهي الجناح الأمني لمجلس الحكومات — فهم الأمر. وسرعان ما نُقِل دزينة من أمهر العملاء إلى المنشأة الآمنة في مدينة نوفوسيبيرسك لتحليل الإشارة التي جاءت من غياهب الفضاء، ولوضع خطة رئيسية لرد الفعل الذي سيتخذه مجلس الحكومات.

وما إن تأكد لهم أنه لا يمكن أن يكون الصينيون أو البرازيليون قد تمكنوا من حل شفرة الإشارة (فإمكاناتهم التكنولوجية لم ترتقِ بعدُ إلى نفس مستوى إمكانات مجلس الحكومات) حتى أرسلوا إشعار الاستلام إلى راما، مما يحول دون إعادة بث فيديو نيكول. وبعدها، ركز العملاء على تفاصيل محتوى الرسالة نفسها.

بدءوا بالقيام ببعض البحث التاريخي. وكان من المعروف أن سفينة الفضاء راما ٢ دمرها وابل الصواريخ النووية الذي أطلق في أبريل من عام ٢٢٠٠ رغم وجود بعض الأدلة (المشكوك فيها) على غير هذا. وظن الجميع أن نيكول دي جاردان — وهي الإنسانة التي من المفترض أنها تظهر في الفيديو — ماتت قبل أن تغادر بعثة نيوتن العلمية راما. ومن المؤكد أنها قد قضت نحبها عندما وقع الدمار النووي. لذلك لا يمكن أن تكون هي التي تتحدث في الفيديو.

ولكن إذا كان الشخص أو الشيء المتحدث في المقطع التليفزيوني عبارة عن تقليد آلي لها أو صورة زائفة منها، يتضح أنه يتفوق على أي تصميمات للذكاء الصناعي على الأرض. ولذا كان الاستنتاج الأولي الذي توصلوا إليه هو أن الأرض تواجه مرة أخرى حضارةً متقدمةً ذات إمكانات مذهلة، إمكانات تتوافق مع المستويات التكنولوجية لسفينتي راما.

وكذلك أجمع العملاء على أن الرسالة تتضمن قطعًا تهديدًا ضمنيًّا. إذا كانت هناك مركبة رامية أخرى في طريقها إلى النظام الشمسي (مع أن محطتي إكسكاليبار لم ترصد أي مركبة بعد) فلا يمكن أن تتجاهل الأرض الرسالة بالتأكيد. وبالطبع هناك احتمال أن يكون الأمر كله مجرد خدعة معقدة دبرها علماء الفيزياء الصينيين العباقرة (هم بالتأكيد أول المشتبه فيهم)، ولكن إلى أن يصبح هذا الاحتمال حقيقة مؤكدة فإن مجلس الحكومات بحاجة إلى خطة حاسمة.

ومن حسن الحظ كان مشروع متعدد الجنسيات يهدف إلى إقامة مستعمرة صغيرة على المريخ بحلول منتصف أربعينيات القرن الثالث والعشرين قد لقي موافقة بالفعل.

وعلى مدار العقدين السابقين أعادت بضع رحلات استكشافية إلى المريخ الحماسَ لفكرة تهيئة الكوكب الأحمر، على غرار كوكب الأرض، وجعله صالحًا لسكنى البشر. وكانت توجد مختبرات علمية لا يديرها بشر على المريخ تُجري التجاربَ شديدة الخطورة أو المثيرة للجدل إلى حد يحول دون إجرائها على الأرض. وعلى ضوء ما سبق تصبح أيسر طريقة لتحقيق هدف فيديو نيكول — دون إزعاج سكان الأرض — هي الإعلان عن تأسيس وتمويل مستعمرة أكبر على المريخ. وإذا ما اتضح فيما بعد أن الأمر كله مجرد خدعة يمكن تخفيض حجم المستعمرة إلى الحجم الأساسي المقترح.

وقام أحد العملاء — وهو هندي يدعى رافي سرينيفاسان — بإجراء بحث دقيق في أرشيفات وكالة الفضاء العالمية الهائلة المتعلقة بالأحداث التي وقعت منذ عام ٢٢٠٠ حتى تيقن أن السفينة راما ٢ لم يدمرها قاذفات الفالنكس النووية. قال السيد سرينيفاسان: «من المحتمل أن يكون هذا الفيديو حقيقيًّا، وأن تكون المتحدثة هي بالفعل السيدة نيكول الموقرة.»

رد عليه عميل آخر: «ولكنها كان يجب أن تكون في السابعة والسبعين اليوم.»

قال السيد سرينيفاسان: «لا يوجد في الفيديو ما يشير إلى تاريخ تصويره. وإذا ما قارنت صور السيدة نيكول التي التقطت أثناء البعثة بصور المرأة التي ظهرت في البث الذي وصلنا، فستلاحظ مدى اختلافهما الشديد. فوجهها أكبر، ربما بعشر سنوات. وهذا يشير إلى أنه إذا كانت المتحدثة في الفيديو خدعة أو صورة زائفة، فالأمر يدل على براعة مدهشة.»

ومع هذا كان السيد سرينيفاسان متفقًا معهم على أن الخطة التي وضعتها وكالة المخابرات العالمية هي الخطة المناسبة، وإن كان ما يظهر في الفيديو هو الحقيقة. لذا لم يكن مهمًّا أن يُقنع الجميع بصحة وجهة نظره. واتفق جميع العملاء على أنه ينبغي ألا يعلم بأمر الفيديو إلا أقل عدد ممكن من الناس.

شهدت الأربعون عامًا التي مرت منذ بدء القرن الثالث والعشرين تغيرات ملحوظة على كوكب الأرض. فبعد الفوضى العظمى، ظهر مجلس الحكومات بصفته منظمة هائلة متجانسة تتحكم في المناورات السياسية في الكوكب أو على الأقل تديرها. ولم يخرج عن نطاق نفوذ المجلس سوى الصين؛ إذ دخلت في عزلة بعد التجربة الأليمة التي مرت بها أثناء تلك الأزمة. لكن بعد عام ٢٢٠٠ بدأت تظهر دلائل على أن سلطة المجلس المطلقة بدأت تضعف.

وكان أول هذه الدلائل هو ما حدث في الانتخابات الكورية عام ٢٢٠٩؛ إذ صوت الشعب لمصلحة الدخول في اتحاد فيدرالي مع الصين، بدافع الاستياء من مجموعة من الأنظمة السياسية الفاسدة المتعاقبة التي ازداد أطرافها ثراءً على حساب الشعب. والصين هي البلد الوحيد من بين البلدان الكبرى في العالم التي تختلف حكومتها اختلافًا كبيرًا عن الرأسمالية المنظمة المعمول بها في الدول الغنية في أمريكا الشمالية وآسيا وأوروبا. فكانت الحكومة الصينية عبارة عن نظام ديمقراطي اشتراكي يقوم على المبادئ الإنسانية التي اتبعها القديس الإيطالي الكاثوليكي مايكل السييني الذي عاش في القرن الثاني والعشرين.

أذهلت نتائج الانتخابات الكورية الصادِمة مجلس الحكومات، بل العالم أجمع. فلجأت وكالة الاستخبارات العالمية إلى إشعال حرب أهلية، وعندما نجحت في هذا (٢٢١١–٢٢١٢) كانت الحكومة الكورية الجديدة وحلفاؤها الصينيون قد ملكوا عواطف وألباب الشعب. وقُمع التمرد بسهولة، وصارت كوريا جزءًا دائمًا من الاتحاد الصيني.

أعلن الصينيون صراحة أنه ليس لديهم أي نية في تصدير نمط الحكومة المتبع لديهم عن طريق القيام بعمل عسكري، ولكن بقية دول العالم لم تصدقهم. وضاعف مجلسُ الحكومات الميزانيةَ العسكرية وميزانيةَ الاستخبارات في المدة ما بين ٢٢١٠ و٢٢٢٠، مع عودة التوتر السياسي إلى الساحة العالمية.

وفي أثناء هذه المدة، وتحديدًا عام ٢٢١٨، انتخب ثلاثمائة وخمسون مليون برازيلي جنرالًا يتمتع بشخصية آسرة، يدعى جواو بيريرا، لرئاسة البلاد. كان بيريرا يرى أن مجلس الحكومات يظلم أمريكا الجنوبية ويبخسها قدرها (وكان محقًّا في هذا) وطالب بإجراء تغييرات في طبيعة المجلس من شأنها إصلاح المشكلات. وعندما رفض المجلس، أحيا بيريرا النزعة الإقليمية لأمريكا الجنوبية وذلك بإعلانه عدم الالتزام بميثاق المجلس. وانسحبت البرازيل فعليًّا من المجلس وحذت حذوها معظم حكومات باقي دول أمريكا الجنوبية على مدار العقد التالي، وشجعهم على هذا القوة العسكرية الهائلة التي تتمتع بها البرازيل، والتي مكنتها من النجاح في التصدي لقوات حفظ السلام التابعة للمجلس. نتج عن هذا ظهور لاعب ثالث على الساحة الجيوسياسية العالمية، ألا وهو ما يشبه إمبراطورية برازيلية يرأسها باقتدار الجنرال بيريرا.

في البداية هدد الحظر الاقتصادي الذي فرضه المجلس على البرازيل وباقي دول أمريكا الجنوبية، بأن يعيدهما إلى الفقر المدقع الذي عاث فسادًا في المنطقة في أعقاب الفوضى العظمى. ولكن بيريرا لم يستسلم. فما دامت الدول المتقدمة في أمريكا الشمالية

وآسيا وأوروبا ترفض شراء السلع الشرعية التي تصدرها بلاده، فقد قرر هو وحلفاؤه أن يصدروا لهم المنتجات غير الشرعية. وبهذا أصبحت تجارة المخدرات هي التجارة الرئيسية للإمبراطورية البرازيلية. وحققت هذه السياسة نجاحًا كبيرًا. إذ تدفق سيل يضم شتى أشكال وألوان المخدرات من أمريكا الجنوبية إلى باقي العالم بحلول عام ٢٢٤٠.

في هذه الأجواء السياسية، تلقت الأرض فيديو نيكول. ومع أن سيطرة المجلس على الكوكب أصابها بعض الوهن، فإنه لا يزال يمثل نحو سبعين في المائة من السكان، وتسعين في المائة من ثروة الأرض. لذا كان من الطبيعي أن يتحمل المجلس ووكالة الفضاء العالمية التابعة له مسئولية الرد عليه. ومع الالتزام بالمعايير الأمنية التي حددتها وكالة الاستخبارات العالمية التزامًا دقيقًا، أُعلن عن مضاعفة عدد من سيسافرون إلى المريخ بهدف الانضمام إلى مستعمرة لوويل خمسة أضعاف في فبراير من عام ٢٢٤٢. وتقرر أن موعد المغادرة من الأرض سيكون في أواخر صيف عام ٢٢٤٥ أو في أوائل الخريف من العام نفسه.

خرج الأربعة الآخرون الذين كانوا في الغرفة — وجميعهم لهم شعر أشقر وعيون زرقاء ومن الأسرة نفسها المنحدرة من مدينة مالمو بالسويد — تاركين كينجي واتانابي وزوجته ناي بمفردهما. وظلت ناي ترنو إلى كوكب الأرض الذي كان يقع أسفلها بخمسة وثلاثين ألف كيلومتر. فلحق بها كينجي عند نافذة الرصد الضخمة.

قالت ناي لزوجها: «لم أدرك تمامًا ما يعنيه أن يكون المرء في مدار تزامني بالنسبة إلى الأرض. إن الأرض لا تتحرك من هذه البقعة. وإنما تبدو وكأنها معلقة في الفضاء.»

ضحك كينجي. وقال: «في الواقع نحن والأرض نتحرك، وبسرعة كبيرة أيضًا. ولكنها دائمًا ما تبدو لنا بنفس الصورة لأن زمن دوراننا مساوٍ لزمن دوران الأرض.»

قالت ناي وهي تبتعد عن النافذة، في خفها المنزلي: «كان الأمر مختلفًا في المحطة الفضائية الأخرى. فالأرض من هناك تبدو مهيبة وديناميكية ومبهرة أكثر بكثير.»

رد عليها: «ولكننا لم نكن نبعد عن السطح سوى ثلاثمائة كيلومتر، وبالطبع ...»

سمعا صوتًا يصيح قائلًا «اللعنة» من الجانب الآخر من قاعة الرصد. وعندما التفتا رأيا شابًّا قويًّا يرتدي قميصًا ذا نقوش مربعة وبنطال جينز أزرق، يتقلب في الهواء على بعد ما يزيد بقليل عن متر من الأرض، وكانت حركته الهوجاء تتسبب في سقوطه بزاوية جانبية. فاتجه كينجي إلى الجانب الآخر وساعد الوجه الجديد في الوقوف معتدلًا على قدميه.

قال الرجل: «أشكرك. نسيت أنني يجب أن أحتفظ بقدم على الأرض دائمًا. لا يمكن لفلاح مثلي أن يتكيف مع انعدام الجاذبية الغريب اللعين هذا.»

كانت لكنته جنوبية واضحة. استدرك قائلًا: «آه، آسف على التفوه بهذه الألفاظ يا سيدتي. لكن ما باليد حيلة؛ فقد عشت بين البقر والخنازير طويلًا.» ومد يده لكينجي مصافحًا. وأضاف: «أنا ماكس باكيت، من مقاطعة دي كوين بولاية آركنسو.»

عرَّفه كينجي بنفسه وبزوجته. كان ماكس يتمتع بوجه طلق بشوش. قال: «تعرفان، عندما سجلت اسمي للذهاب إلى المريخ لم أكن أعرف أننا سنعيش في حالة انعدام الجاذبية هذه طوال الرحلة اللعينة ... ماذا سيحدث لدجاجاتي المسكينة؟ ربما لن تستطيع أن تضع بيضة واحدة.»

اتجه ماكس إلى النافذة. وقال: «إنه تقريبًا وقت الظهيرة في بلدي هناك على ذلك الكوكب السخيف. لعل أخي كلايد يفتح الآن زجاجة جعة وزوجته وينونا تعد له شطيرة.» وصمت عدة ثوانٍ، ثم التفت إلى الزوجين. وقال: «ماذا ستعملان على المريخ؟»

أجاب كينجي: «إنني مؤرخ المستعمرة. أو على الأقل واحد من مؤرخي المستعمرة. وزوجتي ناي معلمة، ستقوم بتدريس اللغتين الإنجليزية والفرنسية.»

قال ماكس باكيت: «تبًّا. كنت أتمنى أن تكونا من الفلاحين القادمين من فيتنام أو لاوس. إذ كنت أريد أن أتعلم شيئًا عن زراعة الأرز.»

سألت ناي بعد لحظات من الصمت: «سمعتك تتحدث عن الدجاج؟ هل سيكون معنا دجاج على بينتا؟»

أجاب ماكس باكيت: «سيدتي، معنا خمسة عشر ألفًا من أحسن دجاج باكيت في أقفاص في سفينة بضائع تقف في الطرف الآخر من هذه المحطة. لقد دفعت وكالة الفضاء العالمية مبلغًا ضخمًا مقابل هذا الدجاج، حتى إن كلايد ووينونا يمكنهما أن يستريحا عن العمل مدة عام إن أرادا ... إذا لم يكن هذا الدجاج قادم معنا، فأود أن أعرف ما الذي سيفعلونه به.»

ذكَّر كينجي ناي قائلًا: «لا يشغل الركاب سوى عشرين في المائة من مساحة بينتا وسانتا ماريا. وباقي المساحة تحتلها الإمدادات وباقي البضائع. فمجموع ركاب بينتا لن يتعدى ثلاثمائة راكب، معظمهم من مسئولي وكالة الفضاء العالمية وباقي الشخصيات الرئيسية اللازمة لتدشين المستعمرة ...»

قاطعه ماكس: «تدشين المستعمرة؟! اللعنة يا رجل، تتكلم مثل الآليين.» ثم ابتسم لناي. وتابع حديثه قائلًا: «بعد أن قضيت عامين في العمل مستعينًا بأحد المزارعين الآليين الناطقين، رميت ذلك الحقير، واستبدلت به نسخة أقدم من النوع الصامت.»

ضحك كينجي بعفوية. وقال: «أعتقد أنني فعلًا أكثر من استخدام مصطلحات وكالة الفضاء العالمية. فقد كنت من أول المدنيين الذي اختيروا للعمل في نيو لوويل وكنت أتولى عملية الاختيار في الشرق.»

وضع ماكس سيجارة في فمه ثم أخذ يقلب عينيه في أنحاء غرفة الرصد وقال: «لا أرى لافتة التدخين في أي مكان هنا. لذا أعتقد أنني إذا دخنت ستنطلق كل آلات الإنذار.» وضع السيجارة خلف أذنه. وقال: «لا تحب وينونا أن تراني أنا أو كلايد ندخن. تقول إنه لم يعد أحد يدخن إلا الفلاحون وفتيات الليل.»

ضحك ماكس ضحكةً مجلجلةً. وضحك كينجي وناي أيضًا. فقد كان خفيف الظل. وقال ماكس وعيناه تلمعان: «بمناسبة الحديث عن فتيات الليل، أين السجينات اللاتي رأيتهن على التليفزيون؟ آه، بعضهن فاتنات. على أي حال منظرهن أفضل بكثير من منظر الدجاج والخنازير.»

قال كينجي: «كل المستعمرين الذي كانوا سجناء على الأرض سيسافرون على متن سانتا ماريا. وسيصلون بعدنا بنحو شهرين.»

قال ماكس: «إنك تعرف الكثير جدًّا عن هذه البعثة. وأنت لا تتحدث بإنجليزية مشوهة مثل اليابانيين الذين قابلتهم في مدينتي ليتل روك وتيكساركانا. هل تحتل مكانة مميزة؟»

أجاب كينجي وقد عجز عن كتمان ضحكته: «كلا. كما أخبرتك، أنا المؤرخ الرئيسي في المستعمرة ليس إلا.»

كان كينجي على وشك أن يفضي إلى ماكس بأنه عاش في الولايات المتحدة مدة ست سنوات — وهو ما يفسر طلاقته في الإنجليزية — عندما فُتِح باب القاعة ودخل كهل جليل يرتدي بذلة رمادية ورابطة عنق سوداء. قال الرجل لماكس الذي كان قد أعاد السيجارة غير المشتعلة إلى فمه: «أستميحك عذرًا، هل دخلت حجرة التدخين خطأً؟»

أجاب ماكس: «لا يا بوبس. هذه الحجرة هي حجرة الرصد. إنها أجمل من أن يسمحوا لنا بالتدخين بها. لا يسمح بالتدخين إلا في حجرة صغيرة بلا نوافذ بجانب الحمامات. أخبرني الرجل الذي أجرى المقابلة الشخصية معي من وكالة الفضاء العالمية ...»

أخذ الكهل يحدق في ماكس مثلما يحدق عالمُ الأحياء في فصيلة نادرة بغيضة. ثم قاطعه قائلًا: «اسمي ليس بوبس أيها الشاب، اسمي بيوتر. بيوتر ميشكين، إن شئت الدقة.»

قال ماكس وهو يمد يده مصافحًا: «تشرفنا يا بيتر. أنا ماكس. وهذان الزوجان وابانيابي. إنهما من اليابان.»

قال كينجي مصححًا: «أنا كينجي واتانابي. وهذه زوجتي ناي من تايلاند.»

قال بيوتر ميشكين بطريقة رسمية: «يا سيد ماكس اسمي بيوتر وليس بيتر. يكفيني أنني سأضطر إلى التحدث بالإنجليزية لخمس سنوات. أكثير عليَّ أن أطلب أن يحتفظ اسمي بنطقه الروسي الأصلي؟»

قال ماكس وهو يبتسم مرة أخرى: «حسنًا يا بيوتر. ماذا تعمل؟ لا، دعني أخمن … أنت حانوتي المستعمرة.»

لجزء من الثانية خاف كينجي أن ينفجر السيد ميشكين غاضبًا. ولكن، على عكس ما توقع، بدأت ابتسامة صغيرة جدًّا ترتسم على وجهه. وقال ببطء: «من الواضح يا سيد ماكس أنك تتمتع بروح الدعابة. أرى أن هذه ستكون ميزة في رحلة فضائية طويلة ومملة.» وصمت لحظة. ثم قال: «لعلمك، أنا لست حانوتيًّا. أنا متخصص في القانون. وكنت عضوًّا في المحكمة السوفيتية العليا منذ عامين، ولكنني تقاعدت بإرادتي سعيًّا خلف «مغامرة جديدة».»

صاح ماكس باكيت: «تبًّا! تذكرت الآن. لقد قرأت عنك في مجلة «تايم» … آه! يا سيادة القاضي، ميشكين، أنا آسف. لم أتعرف عليك …»

قاطعه القاضي وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «لا عليك. سرني أن أكون مجهولًا لحظة، وأن يحسبني الناس حانوتيًّا. لعل تعبيرات وجه القاضي المحنك تشبه في صرامتها سحنة الحانوتي. بالمناسبة يا سيد …»

«باكيت يا سيدي.»

واصل القاضي حديثه قائلًا: «بالمناسبة يا سيد باكيت، أتحب أن تأتي معي لنحتسي مشروبًا في البار؟ سيكون مذاق الفودكا رائعًا جدًّا الآن.»

أجاب ماكس وهو يتجه نحو الباب مع القاضي: «وكذلك مشروب التيكيلا. لا أعتقد أنك تعرف ما يحدث عندما تسقي الخنازير التيكيلا، أليس كذلك؟ … كنت أعلم أنك لا تعرف … حسنًا، أنا وأخي كلايد …»

وخرجا من الباب تاركين كينجي وناي بمفردهما مرةً أخرى. نظر الزوجان أحدهما إلى الآخر وضحكا. قال كينجي: «لا تظنين أنهما سيصبحان صديقين، أليس كذلك؟»

أجابت مبتسمةً: «مستحيل. يا لهما من شخصيتين مختلفتين!»

قال كينجي «يعد ميشكين من أمهر قضاة هذا القرن. وآراؤه تُدرس في مناهج كليات القانون السوفيتية. أما باكيت فكان رئيس اتحاد مزارعي جنوب غرب آركنسو. وهو ضليع في تقنيات الزراعة، فضلًا عن حيوانات الحقل.»

سألته ناي: «أتعرف خلفية كلِّ مَن في نيو لوويل؟»
أجاب كينجي: «كلا. ولكنني درست ملفات كلِّ مَن على متن بينتا.»
لفت ناي ذراعيها حول زوجها. وقالت: «قل لي ما تعرفه عن ناي بواتونج واتانابي.»
«معلمة تايلاندية، تتقن الإنجليزية والفرنسية، شديدة الذكاء، وماهرة في عملها ...»
قاطعته ناي بقبلة. وقالت: «نسيت أهم صفة لها.»
«ما هي؟»
قبَّلته ثانية. وقالت: «عروس كينجي واتانابي مؤرخ المستعمرة التي تعشقه.»

٦

كان معظم سكان العالم يشاهدون التليفزيون أثناء تدشين بينتا رسميًّا وذلك قبل ساعات من موعد مغادرتها إلى المريخ بركابها وبضائعها. كان النائب الثاني لرئيس مجلس الحكومات — وهو سويسري متخصص في مجال العقارات يدعى هينريك جينزر — حاضرًا في المدار التزامني رقم أربعة للمشاركة في مراسم التدشين. حيث ألقى خطابًا قصيرًا أشاد فيه بإتمام تجهيز ثلاث سفن فضائية ضخمة، وبدء «عهد جديد من استعمار المريخ». وعندما فرغ السيد جينزر من إلقاء خطابه قدم للجمهور السيدَ إيان ماكميلان، قائد سفينة بينتا الاسكتلندي، وألقى ماكميلان خطبة استغرقت ست دقائق، ذكَّر العالمَ فيها بالأهداف الأساسية للمشروع، وكان خطيبًا مملًّا ونموذجًا يجسد بيروقراطية وكالة الفضاء العالمية.

قال في بداية خطبته: «هذه المركبات الثلاث ستحمل نحو ألفي شخص في رحلة تقطع مائة مليون كيلومتر إلى كوكب آخر، هو المريخ، حيث نؤسس لوجود بشري دائم هناك هذه المرة. سيُنقل معظم مستعمري المريخ المستقبليين في السفينة الثانية المسماة نينيا، التي ستغادر من هنا بعد ثلاثة أسابيع من اليوم بحساب المدار التزامني رقم أربعة. أما سفينتنا بينتا والسفينة الأخيرة المسماة سانتا ماريا فستحمل كلٌّ منهما نحو ثلاثمائة راكب وآلاف الكيلوجرامات من الإمدادات والمعدات اللازمة لإمداد المستعمرة بأسباب الحياة.»

بعد ذلك حاول القائد ماكميلان إضفاء لمسة أدبية على خطابه، فأخذ يقارن بين الرحلة المرتقبة والرحلة التي قام بها كريستوفر كولومبس منذ سبعمائة وخمسين عامًا، متجنبًا بحذر أي ذكر لما حل بالمجموعة الأولى من القواعد التي أقيمت على المريخ في القرن الماضي. كان أسلوب الخطاب الذي كُتب له رائعًا، ولكن إلقاء ماكميلان الرتيب الممل حوَّل

الخطاب إلى محاضرة تاريخية مملة وثقيلة، على الرغم من أنه كان سيكون خطابًا آسرًا إذا ما ألقاه خطيب بارع.

أنهى ماكميلان خطابه بإلقاء الضوء على سمات مجموعة المستعمرين، مستشهدًا بإحصاءات حول سنهم ووظائفهم والبلاد التي جاءوا منها. ثم لخص حديثه قائلًا: «هؤلاء الرجال والنساء إذن هم عينة تمثل الجنس البشري بكل جوانبه تقريبًا. أقول «تقريبًا» لأن هناك صفتين على الأقل مشتركتين في هذه المجموعة لا يمكن أن نجدهما في مجموعة عشوائية من البشر بهذا الحجم. أولًا، إن ساكني مستعمرة لوويل غاية في الذكاء، فمتوسط ذكائهم يزيد على ١٫٨٦. وثانيًا، إنهم شجعان، وهذا بديهي وإلا لما كانوا تقدموا للقيام بمهمة صعبة تستغرق وقتًا طويلًا في بيئة جديدة مجهولة وقبلوا القيام بهذا.»

عندما فرغ القائد ماكميلان، قدم له أحد الحاضرين زجاجة شامبانيا صغيرة، ففتحها فوق نموذج المركبة بينتا الذي يبلغ مقياس رسمه ١٠٠/١ والمعروض خلفه هو وأصحاب المقام الرفيع على المنصة. وبعد لحظات بدأ ماكميلان وجينزر المؤتمر الصحفي وفقًا للجدول الموضوع في الوقت الذي كان فيه المستعمرون يغادرون القاعة ويستعدون لركوب بينتا.

«إنه أحمق.»

«بل هو بيروقراطي متواضع الكفاءة.»

«إنه أحمق لعين.»

كان ماكس باكيت والقاضي ميشكين يتحدثان عن القائد ماكميلان وهما يتناولان غداءهما.«إنه ليس ظريفًا على الإطلاق.»

«بل هو يعجز عن تقدير الأشياء غير المألوفة.»

كان ماكس يستشيط غضبًا. فقد وبخه طاقم قيادة بينتا في جلسة استماع غير رسمية عُقدت في ساعة مبكرة من ذلك الصباح. وكان وكيله فيها صديقه القاضي ميشكين الذي كان له الفضل في منع الموقف من التفاقم.

«ليس من حق أولئك الحمقى الحكم على تصرفاتي.»

رد عليه القاضي قائلًا: «من حيث المبدأ، معك كل الحق يا صديقي. ولكننا نعيش في ظل ظروف استثنائية على مركبة الفضاء هذه. فهم يمثلون السلطة هنا، على الأقل حتى نصل إلى مستعمرة لوويل ونقيم حكومتنا الخاصة ... ومهما يكن، لا ينطوي الأمر على

إساءة حقيقية لك. فوصف تصرفاتك بأنها «غير لائقة» ليس من شأنه أن يضايقك أبدًا. كما أن الأمر كان من الممكن أن يتفاقم أكثر.»

قبل ليلتين أقيم حفل بمناسبة أن مركبة بيننا قطعت نصف مسافة الرحلة من الأرض إلى المريخ. في الحفل، طوال ما يزيد على ساعة لم يكف ماكس عن مغازلة شابة جميلة تدعى أنجيلا ريندينو، وهي من بين طاقم مساعدي ماكميلان. عندئذٍ تحدث الرجل الاسكتلندي الممل مع ماكس على انفراد ونصحه بحزم بأن يترك أنجيلا وشأنها.

رد عليه ماكس بعقلانية قائلًا: «دعها تقل ذلك بنفسها.»

فقال له: «إنها شابة غريرة. وهي مهذبة إلى درجة تمنعها أن تعبر لك عن مدى نفورها من دعاباتك السمجة.»

كان ماكس يستمتع بوقته حتى تلك اللحظة. سأل ماكميلان بعد أن ملأ كأسًا آخر من المارجاريتا قائلًا: «وما شأنك أنت؟ أيها القائد؟ أهي ملكية خاصة بك أم ماذا؟»

احمر وجه إيان ماكميلان بشدة. وأجاب بعد ثوانٍ: «يا سيد باكيت، إذا لم تتحسن سلوكياتك، فسأضطر إلى حبسك في غرفتك.»

أفسدت المشادة التي اندلعت بينه وبين ماكميلان أمسيته. فقد أغضبه استخدام القائد لسلطته الرسمية في موقف شخصي بحت. عاد ماكس إلى الغرفة التي يقيم فيها مع أمريكي آخر يدعى ديف دينسون — وهو حارس غابات كئيب قادم من ولاية أوريجون — واحتسى بسرعة زجاجة كاملة من التيكيلا. وعندما ثمل، انتابه شعور بالإحباط وبالحنين إلى الوطن. وعندها قرر أن يذهب إلى مركز الاتصالات ليتصل بأخيه كلايد في ولاية آركنسو.

كان الوقت قد تأخر للغاية. وحتى يصل ماكس إلى مركز الاتصالات كان عليه أن يقطع المركبة بأكملها مارًا بالردهة العامة التي انتهى فيها الحفل لتوِّه، ثم بغرف القادة. وفي الجناح الرئيسي لمح ماكس أنجيلا ريندينو وهي تتأبط ذراع إيان ماكميلان في طريقهما إلى غرفته الخاصة.

قال ماكس في سره: «الوغد.»

أخذ ماكس السكران يقطع الرواق أمام غرفة ماكميلان جيئةً وذهابًا وموجة غضبه ترتفع شيئًا فشيئًا. وبعد خمس دقائق راودته فكرة أعجبته. إذ تذكر ماكس صيحة الخنزير التي كان يجيدها وهو في جامعة آركنسو وحاز بفضلها جائزة، فأطلق صيحة عالية شنيعة شقت سكون الليل.

صاح مقلدًا صوت الخنزير: «سوو-ييي.»

وأعاد الصرخة مرة أخرى، ثم اختفى في لمح البصر، وعندئذ انفتحت جميع الأبواب في جناح القادة (بما فيها باب ماكميلان) بحثًا عن مصدر هذا الإزعاج. وأصيب القائد ماكميلان بانزعاج شديد عندما رآه جميع أفراد طاقمه هو والآنسة أنجيلا وهما يخرجان من غرفته عاريَين.

تحولت الرحلة إلى المريخ إلى شهر عسل ثانٍ لكينجي وناي. إذ لم يكن أيٌّ منهما مكلفًا بالكثير من العمل. فالرحلة لم تكن زاخرة بالأحداث، على الأقل من وجه نظر مؤرخ، ولم تكن ناي مثقلة بواجبات تُذكر لأن معظم تلاميذ المرحلة الثانوية كانوا على متن السفينتين الأخريين.

قضى آل واتانابي عدة أمسيات في جلسات سمر مع القاضي وماكس باكيت. وكانوا كثيرًا ما يلعبون الورق (كان ماكس بارعًا في لعبة البوكر بقدر ما كان سيئًا في لعبة البريدج) ويتحدثون عن أحلامهم لمستعمرة لوويل وعن الحياة التي تركها كلٌّ منهم على الأرض.

عندما أصبحت بينتا على بعد ثلاثة أسابيع من المريخ، أعلن طاقمها أن الاتصالات ستنقطع مدة يومين وحث الجميع على الاتصال بأهلهم قبل أن تصبح أنظمة الإرسال والاستقبال خارج الخدمة مؤقتًا. ولما كان ذلك التوقيت يتزامن مع فترة عطلة عيد الميلاد على الأرض، فقد كان التوقيت المناسب لإجراء الاتصالات الهاتفية.

كان ماكس يمقت ما يرتبط بالاتصالات الهاتفية من تأخير زمني وحوارات طويلة من طرف واحد. وبعد أن استمع إلى حديث غير مترابط حول الخطط التي وضعها كلايد ووينونا لعيد الميلاد في آركنسو أخبرهما ماكس بأنه لن يتصل ثانيةً لأنه يكره «الانتظار خمس عشرة دقيقة حتى يتضح ما إذا كان من أحدثه قد ضحك على دعاباتي أم لا».

تساقطت الثلوج على كيوتو في وقت مبكر ذلك العام. فأعد والدا كينجي فيديو يظهر فيه معبد جينكاكو-جي ومعبد هونين-إن وهما مغطيان بطبقة رقيقة من الثلوج؛ لولا وجود ناي بجوار كينجي لشعر بحنين جارف إلى الوطن. وأجرت ناي مكالمة هاتفية قصيرة إلى تايلاند، هنأت فيها إحدى أخواتها بالحصول على منحة للدراسة بالجامعة.

أما بيوتر ميشكين فلم يتصل بأحد. إذ إن زوجة ذلك الروسي العجوز توفيت ولم يكن له أبناء. قال بيوتر لماكس: «لدي ذكريات رائعة، ولكن لم يبقَ لي على الأرض أي شيء أرتبط به ارتباطًا شخصيًّا.»

في أول أيام انقطاع الاتصالات المحدد سلفًا، أُعلن عن إذاعة برنامج مهم، وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر، وأنه على الجميع مشاهدته. فدعا كينجي وناي ماكس والقاضي إلى مشاهدته في سكنهما الصغير.

قال ماكس: «تُرى أي محاضرة سخيفة هذه»، معربًا — كعادته — عن معارضته للبيانات الرسمية التي يعتبرها مضيعة للوقت.

وعند بدء عرض الفيديو، ظهر رئيس مجلس الحكومات ومدير وكالة الفضاء العالمية جالسَين معًا خلف مكتب ضخم. شدد رئيس مجلس الحكومات على أهمية الرسالة التي هم على وشك تلقيها من فيرنر كوخ، مدير وكالة الفضاء العالمية.

بدأ الدكتور كوخ حديثه قائلًا: «أيها السادة الركاب، قبل أربع سنوات حلت أنظمة التتبع بالأقمار الصناعية شفرة إشارة متناسقة بدا أنها قادمة من غياهب الفضاء بالاتجاه العام للنجم إبسيلون إريداني. وبعد تحليل الإشارة كما يجب، وجدنا بها فيديو مدهشًا ستشاهدونه كاملًا في غضون خمس دقائق.

كما ستسمعون، يعلن الفيديو عن عودة مركبة فضاء من مركبات راما إلى نظامنا الشمسي. في عامي ٢١٣٠ و٢٢٠٠ زارت نظامنا الشمسي أسطوانتان عملاقتان يبلغ طولهما خمسين كيلومترًا، وعرضهما عشرين كيلومترًا، وكانتا تتحركان في مدار حول الشمس، هاتان الأسطوانتان صنعهما ذكاء فضائي مجهول لغرض لم نعرفه بعد. هذا، وقد قام الدخيل الثاني — الذي عادةً ما يشار إليه بمركبة راما الثانية — بتعديل السرعة وهو في مدار كوكب الزهرة مما جعله يقع في دائرة تأثير مع الأرض. فأطلقنا وابلًا من الصواريخ النووية ليواجه الأسطوانة الفضائية ويدمرها قبل أن تقترب من كوكبنا بدرجة تمكنها من إلحاق أي ضرر به.

الفيديو التالي يدعي أن مركبة أخرى من تلك المركبات الراميَّة جاءت إلى المنطقة المجاورة لكوكبنا بهدف واحد، هو الحصول على عينة تمثل الجنس البشري قوامها ألفان من البشر بُغيَة «الملاحظة». ومهما بدا لنا هذا الإدعاء غريبًا يبقى من الجدير بالذكر أن الرادار الخاص بنا أكد بالفعل أن هناك مركبة من طراز راما دخلت مدار المريخ قبل أقل من شهر.

لسوء الحظ يجب أن نأخذ هذه الرسالة الغريبة القادمة من غياهب الفضاء على محمل الجد. لذا أوكلنا إليكم، أنتم المستعمرين الذين تستقلون بيننا، مهمةَ مقابلة الجسم الجديد في مدار المريخ. ندرك أن هذا النبأ سينزل كالصاعقة على معظمكم، ولكن لم يكن

أمامنا الكثير من الخيارات المنطقية. وإذا كان هذا الأمر لا يعدو أن يكون خدعة كبيرة أعدها عبقري مخبول، وهذا ما نرجحه، فسيصبح عليكم مواصلة استعماركم للمريخ وفقًا للتصور الأساسي له بعد هذا الانحراف البسيط عن الخطة الرئيسية. ولكن إذا كان الفيديو الذي ستشاهدونه الآن صادقًا فعلًا، فسيكون عليكم أنتم وزملاؤكم على متن نينيا وسانتا ماريا أن تقوموا بدور الفريق الممثل للبشر الذي سيراقبه الذكاء القادم من راما.

أظن أنكم تستوعبون أن مهمتكم الآن تأتي على قائمة أولويات جميع أنشطة مجلس الحكومات. وأظن أيضًا أنه بوسعكم تفهم حاجتنا إلى السرية. فمن هذه اللحظة فصاعدًا، وحتى يتم الفصل في موضوع راما بطريقة أو بأخرى، سيخضع الاتصال بين مركبتكم والأرض لسيطرة دقيقة. وستراقب وكالة الاستخبارات العالمية كل الدوائر الكهربائية الصوتية. سنخبر أصدقاءكم وأسركم أنكم آمنون، وأنكم هبطتم على المريخ وسنبرر عدم تواصلكم معهم بتعطل أنظمة اتصال بيننا.

إننا نريكم هذا الفيديو الآن لنمنحكم ثلاثة أسابيع تستعدون فيها للمقابلة. لقد وضعت وكالةُ الاستخبارات العالمية وطاقمُ العمليات التابع لوكالة الفضاء العالمية الخطة الرئيسية للمقابلة والإجراءات المصاحبة لها بالتفصيل، وقد أرسلناها إلى القائد ماكميلان في حزمة بيانات عالية الجودة. أوكلنا إلى كلٍّ منكم مجموعة محددة من المهام. وسيتسلم كل منكم مجموعة خاصة من الوثائق تزودكم بالمعلومات اللازمة للقيام بواجباتكم.

بالطبع نتمنى لكم التوفيق. على الأرجح سيتضح أن مسالة راما هذه مجرد خدعة، وفي هذه الحالة لن يضيركم منها سوى أنه أخر تدشينكم لمستعمرة لوويل. ولكن إذا كان الفيديو صحيحًا، فسيصبح عليكم أن تعملوا بسرعة لوضع خطط محكمة تمهيدًا لوصول نينيا وسانتا ماريا؛ إذ لن يكون أيٌّ من المستعمرين في السفينتين الأخريين على علم بأي شيء عن راما أو عن تغير المهمة.»

مرت لحظات من الصمت في شقة واتانابي عندما انتهى الفيديو فجأةً، وحلت محله على الشاشة رسالةٌ نصية تقول: «الفيديو التالي سيعرض في غضون دقيقتين.» لم ينبس أحد ببنت شفة سوى ماكس باكيت، إذ لم يزد تعليقه عن: «تبًّا.»

٧

في الفيديو، كانت نيكول تجلس على كرسي بني عادي أمام حائط بلا ملامح تميزه. وكانت مرتدية إحدى بذلات طيران وكالة الفضاء العالمية، التي عادةً ما كانت ترتديها أثناء بعثة نيوتن. قرأت نيكول الرسالة من كمبيوتر محمول تحمله في يديها.

بدأت تقول: «إخواني معشر الأرضيين، أنا رائدة فضاء من بعثة نيوتن، نيكول دي جاردان، أتحدث إليكم من على بعد مليارات الكيلومترات. أنا على متن مركبة فضائية من طراز راما تشبه السفينتين الأسطوانيتين الهائلتين اللتين زارتا نظامنا الشمسي في القرنين الماضيين. تتوجه مركبة راما الثالثة هذه هي الأخرى نحو البقعة الضئيلة التي نحتلها من المجرة. ثم ستتوجه بعد نحو أربع سنوات من تلقيكم هذا الفيديو إلى مدار حول كوكب المريخ.

بعد أن رحلت من الأرض عرفت أن المركبات من نوع راما صنعها ذكاء فضائي متقدم؛ لتكون أحد عناصر نظام هائل يقوم بتجميع المعلومات، ويهدف أساسًا إلى جمع وتصنيف بيانات حول الحياة في الكون. وفي إطار هذا الهدف تعود مركبة راما الثالثة هذه إلى جوار كوكبنا الأصلي.

صُمم مسكن يشبه الأرض داخل مركبة راما الثالثة يستوعب ألفين من البشر، بالإضافة إلى عدد ضخم من الحيوانات والنباتات القادمة من كوكبنا الأصلي، وستجدون في الملحق الأول للفيديو معلومات دقيقة عن الكتلة الحيوية وغيرها من التفاصيل العامة المتعلقة بالحيوانات والنباتات؛ وإنني مع هذا، أشدد على أن النباتات، خاصة النباتات ذات الكفاءة العالية في تحويل ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين، تعد من أهم عناصر التصميم الأساسي للمنطقة السكنية الشبيهة ببيئة الأرض على متن راما. فمن دون هذه النباتات ستتعرض حياة البشر داخل راما لتهديد خطير.

رد الفعل الذي ننتظره من كوكب الأرض بعد تلقي هذا البث هو إرسال مجموعة تمثله من سكانه، مصحوبةً بالإمدادات الإضافية المفصلة في الملحق الثاني لتتقابل مع مركبة راما الثالثة في مدار المريخ. وحينئذٍ، سيُؤخذ المسافرون إلى داخل راما ويخضعون لمراقبة دقيقة وهم يعيشون في المنطقة السكنية التي تطابق ظروفها البيئية الظروف البيئية للأرض.

ونظرًا إلى رد فعلكم العدائي تجاه مركبة راما الثانية الذي منعته الصدفة وحدها من أن يتسبب في خسائر فادحة للسفينة الفضائية، فإن الخطة التي تحدد ملامح مهمة مركبة راما تتضمن ألا تقترب المركبة من الأرض إلى ما بعد مدار المريخ. كما أن هذه الخطة تفترض، بالطبع، أن سلطات الأرض ستستجيب للطلبات المنصوص عليها في هذا البث. وأنا لا أعرف رد الفعل الذي برمجت السفينة على القيام به إذا لم ترسلوا البشر لمقابلة مركبة راما الثالثة في مدار المريخ. ولكنني أستطيع أن أقول — بناءً على مشاهداتي — إنه بوسع الذكاء الفضائي أن يحصل على معلومات المراقبة التي يريدها بطرق أخرى أقل لطفًا.

أما عما يخص البشر الذين سيُنقلون إلى المريخ، فمن البديهي أن من يقع عليهم الاختيار يجب أن يمثلوا شريحة عريضة جدًّا من المجتمع الإنساني، تشمل الجنسين وجميع الأعمار وأكبر عدد ممكن من الثقافات. المكتبة الضخمة التي تحتوي على معلومات عن الأرض والتي طلبناها في الملحق الثالث ستوفر معلومات إضافية مهمة يمكن ربطها بالملاحظات التي ستُؤخذ داخل راما.

أنا شخصيًّا لا أدري كم سيبقى البشر داخل راما، أو إلى أين ستأخذهم السفينة بالتحديد، بل لا أدري لماذا يجمع الذكاء الخارق الذي صنع مركبات راما معلومات عن الحياة في الكون. ولكن بوسعي القول إن العجائب التي شهدتها منذ أن غادرت نظامنا الشمسي غيرت تمامًا من نظرتي إلى مكانتنا في الكون.»

استغرق الفيديو ما يربو على عشر دقائق، خُصص نصفها للملاحق المفصلة. ولم يتغير المشهد الأساسي طوال البث. كان إلقاء نيكول متأنيًا ورصينًا، وتخللته لحظات صمت قصيرة أثناء انتقال عينيها من الكاميرا إلى الكمبيوتر المحمول الذي في يديها. ومع أن طبقة صوتها كانت تتغير بعض الشيء فإن تعبيرات وجهها الجادة ظلت ثابتة تقريبًا، حتى أشارت إلى أن سكان راما قد يستخدمون «طرقًا أخرى أقل لطفًا» للحصول على المعلومات، فعندها، لمع انفعال قوي في عينيها السوداوين.

شاهد كينجي واتانابي النصف الأول من الفيديو بتركيز شديد. لكن أثناء عرض الملاحق، بدأ عقله يشرد، وبدأت الأسئلة تتلاحق في عقله. تساءل في نفسه: من هؤلاء الفضائيون؟ ومن أين أتوا؟ ولماذا يريدون أن يراقبونا؟ ولماذا اختاروا نيكول دي جاردان متحدثةً رسميةً لهم؟

ضحك كينجي في نفسه وقد أدرك أن سيلًا عارمًا من الأسئلة اللانهائية يدور في رأسه. فقرر أن يركز على قضايا أسهل.

قال كينجي بينه وبين نفسه: إذا كانت نيكول لا تزال حية اليوم فإنها ستكون في الحادية والثمانين من عمرها. صحيح أن المرأة التي ظهرت على شاشة التليفزيون كان شعرها به بعض الخصلات الرمادية، وأن التجاعيد التي تظهر في وجهها تزيد على التجاعيد التي كانت في وجه رائدة الفضاء عندما انطلقت بعثة نيوتن من الأرض، لكن سنها في الفيديو قطعًا يقل عن الثمانين بكثير. قال في نفسه: ربما تكون في الثانية والخمسين أو الثالثة والخمسين على أقصى تقدير.

تساءل: هل صورت الفيديو منذ ثلاثين عامًا؟ أم أن نموها قد تعرض للإبطاء بطريقة ما؟ لم يخطر ببال كينجي أن يتساءل ما إذا كانت المتحدثة هي نيكول بالفعل أم لا. فقد قضى وقتًا كافيًا بين سجلات نيوتن بما يتيح له التعرف على الفور على تعبيرات وجه نيكول وأسلوبها، قال كينجي لنفسه: من المفترض أنها صورت الفيديو منذ نحو أربع سنوات، ولكن إذا كان هذا صحيحًا ... كان لا يزال يحاول فهم الموقف برمته عندما انتهى بث نيكول وظهر مدير وكالة الفضاء العالمية على الشاشة.

أوضح د. كوخ بسرعة أنهم سيعيدون بث الفيديو كاملًا على كل القنوات مرتين وبعدها سيكون متاحًا لكل الركاب وأفراد الطاقم وقتما يريدون.

ما إن ظهر وجه نيكول على الشاشة مرة أخرى حتى سأل ماكس باكيت: «ما الذي يجري هنا بالضبط؟» وقد وجه سؤاله لكينجي.

أجاب كينجي بعد أن شاهد الفيديو عدة ثوانٍ: «إذا كان ما فهمته صحيحًا، فإن وكالة الفضاء العالمية تعمدت خداعنا بشأن أحد الأهداف الرئيسية لمهمتنا. من الواضح أنهم تلقوا هذه الرسالة منذ أربع سنوات في الوقت الذي كان مصير تمويل مستعمرة لوويل يكتنفه الغموض، وتقرر أن يكون استكشاف مركبة راما الثالثة الهدف السري لمشروعنا، وذلك «بعد» أن فشلت كل محاولات إثبات أن الفيديو مجرد خدعة.»

قال ماكس باكيت وهو يهز رأسه بقوة: «تبًّا! لماذا لم يخبرونا بالحقيقة؟»

علق القاضي ميشكين بعد صمت قصير: «يعجز عقلي عن استيعاب فكرة إرسال بعض المخلوقات الخارقة لهذه التكنولوجيا المبهرة، لا لشيء إلا ليجمعوا معلومات عنا. ولكن، على صعيد آخر، الآن فقط أستطيع أن أفهم بعض الجوانب الغريبة المتعلقة بعملية اختيار الأفراد. لقد صعقت عندما ضموا تلك المجموعة من المراهقين الأمريكيين المشردين إلى المستعمرة منذ ثمانية أشهر. لكنني الآن أرى أن معايير الاختيار كانت تقوم على تلبية طلب السيدة دي جاردان بضم «شريحة عريضة جدًّا من المجتمع الإنساني»، ولا بد أن الاهتمام بمدى نجاح هذا الخليط من الأفراد والمهارات في إنتاج مستعمرة تتميز بالقابلية للاستمرار على المريخ من الناحية الاجتماعية ظل من الأمور الثانوية.»

قال ماكس: «أكره الكذب والكاذبين.» قبل هذا كان قد نهض من مقعده وأخذ يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا. وتابع قائلًا: «كل هؤلاء السياسيين ومديري الحكومات سواء، فجميع هؤلاء الأوغاد يكذبون بلا رادع من ضميرهم.»

رد عليه القاضي: «ولكن ما الذي كان يمكنهم فعله يا ماكس؟ فهم غالبًا لم يأخذوا الفيديو على محمل الجد. على الأقل حتى ظهرت تلك المركبة الجديدة في مدار المريخ. ولو قالوا الحقيقة من البداية لساد الذعرُ أنحاء العالم.»

قال ماكس بنبرة محبطة: «اسمع أيها القاضي، لقد ظننت أنهم اختاروني لأعمل مزارعًا لعينًا في مستعمرة على المريخ. وأنا لا أعرف شيئًا عن الفضائيين، وبصراحة، لا أريد أن أعرف. فيكفيني ما ألاقيه من التعامل مع الدجاج والخنازير والبشر.»

قال القاضي بسرعة مبتسمًا لصديقه: «خاصةً البشر.» فضحك ماكس مقهقهًا رغمًا عنه.

بعد دقائق قليلة ألقى القاضي وماكس التحية على كينجي وناي وتركاهما وحدهما. وما إن انصرف الضيفان مباشرةً، حتى رن الهاتف المرئي في شقة كينجي وناي. وسمعا إيان ماكميلان يقول: «واتانابي؟»

أجاب كينجي: «نعم يا سيدي.»

قال القائد: «آسف على الإزعاج يا واتانابي. ولكنني أوكل إليك أول مهمة يقوم بها شخص من غير طاقمي. تتضمن التعليمات الصادرة لك تعريف جميع أفراد طاقم بينتا ببعثة نيوتن وسكان راما ورائدة الفضاء دي جاردان في الساعة السابعة من مساء اليوم. أظن أنك قد تود أن تبدأ الاستعداد الآن.»

«... في عام ٢٢٠٠، أعلنت جميع وسائل الإعلام أن وابل القنابل النووية الذي انفجر بجوار مركبة راما الثانية دمرها بالكامل، بل فتتها تفتيتًا. وبالطبع اعتبرت رواد الفضاء المفقودين نيكول دي جاردان وأوتول وتاكاجيشي وويكفيلد في عداد الموتى. لكن في واقع الأمر، الوثائقُ الرسمية لبعثة نيوتن والكتبُ والمسلسلاتُ التليفزيونية التي أعدها هاجنست وشميت ولاقت نجاحًا كبيرًا زعمت أن نيكول دي جاردان ماتت في مكان ما في نيويورك، وهي المدينة التي تقع على جزيرة وسط البحر الأسطواني، قبل أن ترحل سفينة نيوتن العلمية عن راما وتعود إلى الأرض بأسابيع.»

سكت كينجي لينظر إلى الحاضرين. ومع أن القائد ماكميلان أوضح لركاب بينتا وللطاقم أنه سيوفر لهم على الفور شريط فيديو بالمادة التي قدمها كينجي فإن كثيرًا من المستمعين كانوا يدونون ملاحظات. كان كينجي مستمتعًا والأضواء مسلطة عليه. ونظر إلى ناي وابتسم ثم تابع حديثه.

قال: «افترضت رائدة الفضاء فرانشيسكا ساباتيني، وهي أشهر مَن نجا من أفراد بعثة نيوتن المشئومة، في مذكراتها أن الدكتورة نيكول قد تكون قابلت كائنًا آليًّا عدائيًّا أو وقعت في مكان ما في إحدى المناطق المعتمة في نيويورك. كانت السنيورة فرانشيسكا تعرف كمية الغذاء والماء التي تحملها رائدة الفضاء نيكول لأنهما كانتا معًا معظم اليوم، إذ كانتا تبحثان عن العالم الياباني شيجرو تاكاجيشي الذي اختفى في ظروف غامضة من الموقع بيتا في الليلة السابقة. وعلى هذا كتبت فرانشيسكا تقول: «رغم معرفة نيكول التامة بالجسم البشري لم تكن لتظل على قيد الحياة أكثر من أسبوع. وإذا أصاب عقلها اضطراب وحاولت الحصول على مياه من ثلج البحر الأسطواني المسموم فستموت في غضون أقل من أسبوع.»

من بين الرواد الستة الذين لم يعودوا إلى الأرض بعد مقابلة مركبة راما الثانية، كانت نيكول دي جاردان هي دائمًا محط الاهتمام. فسمعة نيكول كانت قد أصبحت أسطورية، حتى قبل أن يتوصل عالم الإحصاء العبقري روبيرتو لوبيز منذ سبع سنوات إلى أن الملك هنري الحادي عشر ملك إنجلترا الراحل هو والد جنيفياف ابنة نيكول، استنادًا إلى معلومات عن الجينوم الأوروبي وجدها في مدينة لاهاي. ومؤخرًا زاد عدد من يحضرون حفل إحياء ذكراها الذي يقام قرب فيلا أسرتها في بوفوا في فرنسا زيادةً كبيرةً خاصة بين الشابات. فالناس يحتشدون هناك للتعبير عن تقديرهم لرائدة الفضاء، ولمشاهدة الصور والفيديوهات الكثيرة التي تخلد ذكرى حياتها المميزة، وكذلك لرؤية التمثالين البرونزيين الرائعين اللذين نحتهما النحات اليوناني ثيو بابس. أحد هذين التمثالين يصور نيكول الشابة وهي ترتدي الملابس الرياضية والميدالية الأوليمبية الذهبية حول عنقها، والثاني يصورها وهي امرأة ناضجة ترتدي زي طيران وكالة الفضاء العالمية الشبيه بهذا الذي شاهدتموه في الفيديو.»

أشار كينجي إلى خلفية الغرفة في قاعة بيتنا الصغيرة فأطفئت الأنوار. وبعد دقائق بدأ عرض شرائح على إحدى الشاشتين الواقعتين خلفه. قال: «أمامكم بضع صور لنيكول دي جاردان الواردة في ملفات بيتنا المتاحة لنا. وتشير قاعدة البيانات المرجعية إلى أن هناك الكثير من الصور والأفلام التاريخية القصيرة المتاحة في المكتبة الاحتياطية الموجودة في مكان البضائع، غير أن تلك المعلومات لا يمكن الوصول إليها أثناء الرحلة نتيجةً لقصور في شبكة المعلومات. ولكننا لسنا في حاجة إلى البيانات الإضافية؛ إذ يتضح من هذه الصور أن من ظهرت في البث عصر اليوم هي إما نيكول دي جاردان «أو نسخة طبق الأصل منها».»

ظهرت صورة ثابتة مقرَّبة من الفيديو الذي أذيع عصرًا على الشاشة الموضوعة على اليسار، ووضع إلى جوارها صورة يظهر فيها وجه نيكول التُقِطَت لها في حفل عشية عيد الميلاد في فيلا أدرياني على مشارف روما. ولم يكن هناك مجال للشك في الأمر. كانت الصورتان بالتأكيد للمرأة نفسها. وعندما تخلل العرض الذي كان يقدمه كينجي لحظات صمت، تصاعدت همهمات تنم عن الاستحسان بين الجمهور.

تابع كينجي حديثه بنبرة هادئة بعض الشيء، قال: «ولدت نيكول دي جاردان في السادس من يناير عام ٢١٦٤. وعلى هذا، فإذا كان الفيديو الذي شاهدناه اليوم قد صُوِّر فعلًا منذ نحو أربع سنوات، فلا بد أنها كانت في السابعة والسبعين من عمرها وقت تصويره. ونحن جميعًا نعرف أن الحالة الجسدية للدكتورة نيكول ممتازة، وأنها كانت معتادة على أداء التمرينات الرياضية باستمرار، ولكن إذا كانت المرأة التي رأيناها في السابعة والسبعين فلا يسعنا سوى أن نقول إن الفضائيين الذين بنوا راما لا بد أنهم اكتشفوا ينبوع الشباب.»

كان الوقت متأخرًا وكان كينجي مرهقًا جدًّا، ومع ذلك فقد جافاه النوم. فأحداث اليوم ظلت تفرض نفسها على عقله وتقلقه. كانت ناي بواتونج واتانابي ترقد بجواره، على السرير المزدوج الصغير، وهي تدرك جيدًا أن زوجها مستيقظ.

قالت ناي بصوت خفيض بعد أن تقلب كينجي للمرة الألف: «تبدو متيقنًا من أننا كنا نشاهد نيكول دي جاردان الحقيقية، أليس كذلك يا حبيبي؟»

قال كينجي: «بلى. ولكن ماكميلان لا يوافقني الرأي. لقد طلب مني أن أشير كما قلت إلى الاحتمال القائل بأن من رأيناها ما هي إلا صورة طبق الأصل من نيكول. فهو يعتقد أن كل ما في الفيديو زائف.»

قالت ناي بعد صمت قصير: «بعد المناقشة التي دارت بيننا عصر اليوم، تذكرت كل تلك الجلبة التي ثارت حول نيكول والملك هنري منذ سبع سنوات. كانت معظمها في مجلات المشاهير. ولكنني نسيت شيئًا. كيف أثبتوا يقينًا أن هنري هو والد جنيفياف؟ ألم يكن الملك قد مات قبل ذلك؟ أليست الأسرة المالكة في إنجلترا تحتفظ بمعلومات البنية الوراثية الخاصة بها في إطار من الخصوصية والسرية؟»

أجابها كينجي قائلًا: «حلل لوبيز البنية الوراثية لآباء وأمهات وأخوة كلِّ مَن تزوجوا من الأسرة المالكة. وباستخدام أسلوبٍ كان قد ابتكره بنفسه، يمكنه من الكشف عن

العلاقة بين البيانات، أثبت أن احتمال أن يكون هنري، الذي كان أميرًا على ويلز أثناء أولمبياد عام ٢١٨٤، والد جنيفياف يفوق احتمال أن يكون أي شخص آخر كان حاضرًا في لوس أنجلوس في هذا الوقت؛ والدًا لها بما يزيد عن ثلاثة أضعاف. وبعد أن اعترف دارين هيجينز على فراش الموت بأن هنري ونيكول أمضيا ليلة معًا أثناء الأولمبياد، سمحت الأسرة المالكة لاختصاصي في الجينات بالدخول على قاعدة بيانات البنية الوراثية الخاصة بهم. وخلص الخبير إلى أن هنري والد جنيفياف بما لا يدع مجالًا للشك.»

قالت ناي: «يا لها من امرأة مذهلة!»

رد كينجي: «إنها مذهلة بالفعل. ولكن ما الذي جعلك تقولين هذا الآن؟»

قالت ناي: «بصفتي امرأة، يعجبني حفاظها على سرها وتربيتها للأميرة بنفسها بقدر ما تعجبني إنجازاتها الأخرى إن لم يكن أكثر.»

٨

وجدتْ إيبونين كيمبرلي في زاوية الغرفة المعبقة بالدخان فجلست بجوارها. عرضت عليها صديقتها سيجارة فأخذتها وأشعلتها ودخنتها بقوة.

قالت إيبونين بهدوء وهي تنفث الدخان في دوائر صغيرة وتشاهدها وهي تصعد ببطء تجاه أجهزة التهوية: «آه يا لها من متعة!»

قالت كيمبرلي هامسة وهي بجوارها: «ما دمت تحبين التبغ والنيكوتين فأستطيع أن أقول إنك بالتأكيد ستحبين سيجارة الكوكومو.» أخذت الفتاة الأمريكية نفسًا من سيجارتها ثم تابعت حديثها قائلة: «أعرف أنك لا تصدقينني يا إيبونين، ولكني أفضل تدخين الكوكومو على الجنس.»

ردت إيبونين بنبرة ودودة دافئة: «ليس بالنسبة إليَّ يا صديقتي، فأنا ابتليت بما يكفي من الرذائل. ولن أستطيع أبدًا أن أتحكم في نفسي إن جربت شيئًا يفوق الجنس متعةً.»

انفجرت كيمبرلي هيندرسون ضاحكةً على نحو جعل خصلات شعرها الأشقر تتطاير على كتفيها. كانت في الرابعة والعشرين؛ أي إنها تصغر زميلتها الفرنسية بعام. كانتا جالستين في استراحة التدخين الملحقة بحمام السيدات. وهذه الاستراحة هي غرفة مربعة صغيرة لا يزيد طولها عن أربعة أمتار، بها اثنتا عشرة امرأة يجلسن أو يقفن وهن يدخن السجائر.

قالت كيمبرلي: «هذه الغرفة تذكرني بالأوقات التي قضيناها في الغرفة الخلفية من حانة ويلي الكائنة في مدينة إيفرجرين التي تقع على حدود مدينة دينفر. ففي حين كان

مائة أو يزيد من رعاة البقر والفلاحين يرقصون ويحتسون الشراب في البار الرئيسي، كان ثمانية أو عشرة منا ينسحبون ويدخلون «مكتب» ويلي المقدس، حسبما كان يُطلِق عليه، ويحشون أنوفهم بالكوكومو.»

حدقت إيبونين في كيمبرلي من خلال سُحب الدخان. وقالت: «على الأقل لن يزعجنا الرجال في هذه الغرفة. إنهم لا يطاقون، فهم أسوأ من الشبان المسجونين في سجن بورج. أنا على يقين من أن هؤلاء لا يفكرون طوال اليوم سوى في الجنس.»

ردت كيمبرلي بضحكة أخرى. وقالت: «هذا مفهوم. فقد رفعت عنهم المراقبة لأول مرة منذ سنوات. فعندما خرَّب رجال توشيو كل أدوات المراقبة المخفاة أصبح الجميع أحرارًا فجأة.» ثم نظرت إلى إيبونين. وقالت: «ولكن هناك جانب مظلم في هذا أيضًا. فقد وقع حادثا اغتصاب اليوم، أحدهما في منطقة الترفيه المشتركة.»

أنهت كيمبرلي سيجارة وأشعلت أخرى. ثم أردفت قائلةً: «تحتاجين إلى من يحميك، أعلم أن والتر سيرحب بهذه المهمة. لقد توقف معظم المجرمين عن محاولة مهاجمتي بفضل توشيو. من يقلقني الآن هم جنود وكالة الفضاء العالمية، فهم يظنون أنفسهم جذابين. أما أنا فلا يعجبني غير ذلك الفتى الإيطالي الرائع، الذي يدعى مارتشيللو. لقد وعدني بأنني سأمضي وقتًا ممتعًا معه إن ذهبت معه إلى غرفته. وقد أغراني هذا بشدة، لكنني رأيت أحد أعوان توشيو يراقب الحوار.»

أشعلت إيبونين سيجارة أخرى. كانت تعرف أنه من الحماقة أن تدخن سيجارة تلو الأخرى، ولكن ركاب سانتا ماريا لا يسمح لهم بالراحة سوى ثلاث مرات يوميًّا، مدة كل مرة منها نصف ساعة، والتدخين محظور في المناطق السكنية المكتظة. طرحت امرأةٌ قوية البنية في أوائل الأربعينيات سؤالًا على كيمبرلي، فانصرف انتباهها عن إيبونين مؤقتًا، فأخذت إيبونين تتذكر الأيام القليلة الأولى التي قضتها بعد مغادرة الأرض. وقالت في نفسها: في ثالث يوم، أرسل ناكامورا وسيطًا يبلغني أنه يريد مقابلتي. لا بد أنني كنت أول من اختارها.»

انحنى الرجل الياباني الضخم، الذي كان مصارع سومو قبل أن يعمل في تحصيل الفواتير لمصلحة نادي قمار سيئ السمعة؛ انحنى أمامها باحترام بعدما اقترب منها في الاستراحة المخصصة للجنسين. وقال بإنجليزية ذات لكنة يابانية واضحة: «آنسة إيبونين، طلب مني صديقي السيد ناكامورا أن أخبرك أنه معجب بك للغاية. ويعرض عليك الحماية التامة مقابل صحبتك ومضاجعته من حين لآخر.»

وتذكرت في نفسها قائلة: كان العرض مغريًّا من بعض النواحي، وهو لا يختلف عما قبلتْه معظم الجميلات في سانتا ماريا. كنت أعرف في هذا الوقت أن سلطة ناكامورا ستزيد. ولكنني كنت أكره بروده. وظننت — مخطئةً — أنني أستطيع أن أظل حرة.

كررت كيمبرلي قولها: «مستعدة؟» أفاقت إيبونين من أفكارها. وأطفأت سيجارتها واتجهت مع صديقتها إلى غرفة تبديل الملابس. عندما كانتا تخلعان ملابسهما وتستعدان للاستحمام، كانت عشرات العيون تلتهم جسديهما الرائعين.

سألت إيبونين وهما واقفتان معا تحت الدش: «ألا يزعجك التهام هؤلاء السحاقيات لك بأعينهن؟»

أجابت كيمبرلي: «لا. أستمتع بهذا إلى حدٍّ ما. فنظراتهن لي تشبع غروري. فليس هناك كثيرات تضاهيننا جمالًا. ويثيرني أن يحدقن في بهذه اللهفة.»

غسلت إيبونين رغوة الصابون التي تغطي صدرها الجميل ومالت على كيمبرلي. وسألتها: «إذن هل مارست السحاق مع امرأة؟»

أجابت كيمبرلي بضحكة مجلجلة أخرى. وقالت: «بالطبع. ألم تفعلي هذا؟»

دون أن تنتظر إجابة انطلقت الأمريكية تحكي إحدى قصصها. قالت: «كانت أول موزعة مخدرات أتعامل معها سحاقية. وكنت في ذلك الوقت في الثامنة عشرة ومكتملة الأنوثة. وما إن رأتني لوريتا لأول مرة وأنا عارية، حتى وقعت في غرامي. وكنت حينئذٍ قد التحقت لتوِّي بكلية التمريض، ولم أستطع تدبير تكاليف المخدرات. فعقدت صفقة معها. اتفقت مع لوريتا على مضاجعتها مقابل إمدادي بالكوكايين. واستمرت علاقتنا نحو ستة أشهر. وكنت بحلول ذلك الوقت قد بدأت أعتمد على نفسي، كما أنني قد وقعت في غرام الساحر.»

وأردفت وكلٌّ منهما تجفف ظهر الأخرى: «مسكينة لوريتا. لقد سحقها الأسى. وكانت قد قدمت لي كل شيء، بما في ذلك قائمة أسماء عملائها. وفي آخر الأمر، سئمت منها، فتخلصت منها، إذ طلبت من الساحر أن يطردها من دينفر.»

لمحت كيمبرلي نظرة استهجان عابرة على وجه إيبونين. فقالت: «يا إلهي، ستعودين وتلقين عليَّ مواعظك الأخلاقية. إنك أرق قاتلة لعينة قابلتها في حياتي. أحيانا تذكرينني بالطلاب المهذبين في الصف الأخير من المدرسة الثانوية.»

عندما كانا على وشك مغادرة الحمامات اقتربت من خلفهما فتاة سمراء ضئيلة ذات شعر مضفر. سألت: «أنت كيمبرلي هندرسون؟»

أومأت برأسها والتفتت: «نعم. ولكن لماذا ...»

قاطعتها الفتاة: «هل خليلك هو الملك ناكامورا الياباني؟»

لم تجب كيمبرلي. تابعت الفتاة السمراء: «إن كان هذا صحيحًا فأنا بحاجة إلى مساعدتك.»

سألت كيمبرلي بلهجة لا مبالية: «ماذا تريدين؟»

انفجرت الفتاة فجأة في البكاء. وقالت: «خليلي روبن لم يقصد شيئًا. لقد سكر بسبب هذا الشيء اللعين الذي يبيعه الحراس. ولم يكن يعرف أنه يتحدث إلى الملك الياباني.»

انتظرت كيمبرلي حتى تكفكف الفتاة دموعها. ثم همست: «ماذا لديك؟»

أجابت الفتاة السمراء هامسة: «ثلاثة سكاكين وسيجارتي كوكومو قويتين.»

قالت كيمبرلي مبتسمةً: «أحضريها لي. وسأهيئ الوقت لروبن ليعتذر للسيد ناكامورا.»

قالت إيبونين لوالتر براكين: «إنك تكره كيمبرلي، أليس كذلك؟» كان والتر زنجيًّا أمريكيًّا قوي البنية، يتسم بعينين رقيقتين وأصابع بارعة في العزف على آلة الكيبورد. كان يعزف مزيجًا من ألحان موسيقى الجاز وهو يحدق في رفيقته الجميلة، بينما كان نزلاء غرفته الثلاثة خارج الغرفة في المنطقة المشتركة، وذلك بناءً على طلبه.

أجابها ببطء: «نعم، لست أكرهها. كل ما في الأمر أنها ليست مثلنا. فقد تكون خفيفة الظل للغاية، لكنني أظن أن باطنها سيئ للغاية.»

«ماذا تعني؟»

بدأ يعزف لحن أغنية رومانسية هادئة، وواصل العزف دقيقة قبل أن يتحدث. قال: «إننا جميعًا سواء في عين القانون، فجميعنا قتلة. لكنني لا أتفق مع هذه النظرة. فأنا انتزعت حياة رجل اغتصب أخي الصغير. وأنت قتلت وغدًا مجنونًا كان يدمر حياتك.» صمت لحظة ثم أدار عينيه. وقال: «لكن صديقتك كيمبرلي وخليلها قتلا ثلاثة أشخاص لا يعرفانهم من أجل المخدرات والمال.»

«حين فعلت هذا كانت تحت تأثير المخدرات.»

«لا يهم. فجميعنا مسئولون عن سلوكياتنا في كل الأحوال. فأنا إن تناولت حثالة تجعلني مجنونًا، فهذا خطئي. وهذا لا يبرر التملص من مسئولية أفعالي.»

«كان سجلها في السجن رائعًا. وقد قال كل الأطباء الذين عملوا معها إنها ممرضة ممتازة.»

توقف والتر عن العزف وأخذ يرمق إيبونين عدة ثوانٍ. ثم قال: «دعينا نكف عن الحديث عن كيمبرلي، فالوقت المتاح لنمضيه معًا لا يتسع لهذا ... هل فكرتِ في العرض الذي اقترحته عليكِ؟»

تنهدت إيبونين. وقالت: «نعم يا والتر. ومع أنني أحبك وأستمتع بمطارحتك الغرام، فإنني أحس أن الاتفاق الذي تطرحه ينطوي على التزام شديد ينفرني منه ... كما أنني أظن أنه نابع من رغبتك في إرضاء غرورك أساسًا. وأظن أنك تفضل مالكولم ...»

قاطعها والتر قائلًا: «لا شأن لمالكولم بنا. إنه صديقي المقرب منذ سنوات، منذ أن دخلت سجن جورجيا. فنحن نعزف الموسيقى معًا. ونمارس الجنس عندما نشعر بالوحدة. نحن صديقان حميمان ...»

«أعرف، أعرف ... مالكولم ليس هو الأمر المهم في الواقع. فما يزعجني حقًّا هو الفكرة التي يقوم عليها هذا الأمر. أنا معجبة بك يا والتر، وأنت تعرف هذا. ولكن ...» ثم تهدج صوتها وهي تغالب مشاعرها المضطربة.

قال والتر: «نحن نبعد عن الأرض ثلاثة أسابيع، وأمامنا ستة أسابيع أخرى قبل أن نصل إلى المريخ. وأنا أقوى رجال سانتا ماريا. وإذا قلت إنك فتاتي فلن يجرؤ أحد على إزعاجك طوال هذه المدة.»

في هذه اللحظة تذكرت إيبونين مشهدًا مخيفًا حدث ذلك الصباح؛ إذ كان راكبان ألمانيان يتحدثان عن مدى سهولة اغتصاب فتاة في المنطقة التي يقطنها المحكوم عليهم. فعلا ذلك دون أن يحاولا خفض صوتيهما، مع أنهما كانا يعلمان أنها قريبة بما يكفي لتسمعهما.

فألقت نفسها بين ذراعَي والتر الضخمتين. وقالت بصوت خفيض: «حسنًا، لكن لا تتوقع الكثير ... فأنا امرأة صعبة المراس.»

همست إيبونين قائلةً: «أظن أن والتر يعاني من مشكلة ما في قلبه.» كان الوقت منتصف الليل ونزيلتا الغرفة الأخريان نائمتين. كانت كيمبرلي ترقد في سريرها الذي يقع أسفل سرير إيبونين، وكانت لا تزال تحت تأثير الكوكومو الذي دخنته قبل ساعتين. ولذا كان من المستحيل أن يداعب النوم عينيها إلا بعد عدة ساعات أخرى.

قالت كيمبرلي: «القواعد التي تحكم هذه السفينة سخيفة للغاية. يا إلهي، إن قوانين سجن بويبلو نفسه كانت أقل. لماذا لا يسمحون لنا بالبقاء في المناطق العامة اللعينة بعد منتصف الليل؟ ما الضرر الذي سنسببه؟»

«ينتابه ألم في الصدر من حين لآخر، وإذا حدث وتطارحنا الغرام بإفراط يشكو بعدها من ضيق في التنفس ... ترى، أيمكنك أن تفحصيه؟»

«ماذا أصاب مارتشيللو هذا؟ هه! يا له من حمار غبي! يقول إنني سأسهر طوال الليل إذا ذهبت معه إلى غرفته. كل هذا وأنا جالسة مع توشيو. ماذا يظن أنه فاعل؟ أعني، الحراس أنفسهم لا يمكنهم مضايقة الملك الياباني ... ماذا قلت يا إيبونين؟»

جلست إيبونين في سريرها مستندةً على مرفقها ومالت من على جانب السرير. قالت: «والتر براكين يا كيم. أحدثك عن والتر براكين. هل يمكنك أن تنحي اهتمامك بنفسك جانبًا قليلًا حتى تنتبهي لما أقول؟»

«حسنًا. حسنًا. ماذا عن صديقك والتر؟ ماذا يريد؟ كل شخص يريد شيئًا من الملك الياباني. أظن أن هذا يجعلني الملكة، على نحو ما على الأقل ...»

كررت إيبونين ما قالته بصوت مرتفع وقد تملكها غضب شديد: «أظن أن قلب والتر مريض. وأود أن تفحصيه.»

ردت عليها كيمبرلي قائلةً: «ششششش. سيضربوننا كما فعلوا بالفتاة السويدية المجنونة ... تبًّا يا إيب، أنا لست طبيبة. صحيح أنني أستطيع أن أعرف متى تكون ضربات القلب غير منتظمة، لكن هذا هو كل ما أستطيع فعله. عليك أن تصحبي والتر إلى ذلك الطبيب المتخصص في أمراض القلب الذي كان سجينًا، ما اسمه، ذلك الرجل شديد الهدوء الذي ينفرد بنفسه عندما لا يكون منشغلًا بفحص شخص ما ...»

قاطعتها إيبونين قائلةً: «د. روبرت تيرنر.»

«آه، هو ذاك ... إنه محترف للغاية، ومتحفظ، وانطوائي، ولا يتكلم إلا بالمصطلحات الطبية، يصعب عليَّ تصديق أنه أطلق النار على رأسي رجلين في المحكمة ببندقية، لا يبدو ...»

سألتها إيبونين: «كيف عرفت هذا؟»

«أخبرني مارتشيللو. كنا نضحك معًا وكان يستفزني بقول أشياء مثل: «أتستمتعين مع الملك الياباني؟» و«ماذا عن طبيب القلب الهادئ؟»

قالت إيبونين في انزعاج: «تبًّا يا كيم، أتضاجعين مارتشيللو أيضًا؟»

ضحكت رفيقتها. وقالت: «مرتين فقط. إنه لا يجيد سوى الكلام. ويا له من مغرور! على الأقل الملك الياباني يقدرني.»

«أيعرف ناكامورا؟»

ردت عليها كيمبرلي: «أتظنين أنني جننت؟ لا أريد أن أموت. لكن وارد أنه يشك في الأمر … لن أفعل هذا مرة أخرى، أما هذا الطبيب تيرنر، فإنه يثيرني إلى أقصى حد، حتى إن لم يفعل شيئًا سوى أن يهمس في أذني …»

ظلت كيمبرلي تثرثر وتنتقل من موضوع إلى آخر. أما إيبونين فسرح فكرها قليلًا في د. روبرت تيرنر. كان الطبيب قد فحصها بعد انطلاق المركبة مباشرة عندما ظهرت عليها بعض البقع الغريبة. قالت لنفسها متذكرةً: لم ينظر إلى جسدي مطلقًا. كان فحصًا مهنيًّا بحتًا.

تجاهلت إيبونين كيمبرلي وركزت على صورة الطبيب الوسيم. واندهشت عندما اكتشفت أنها تشعر في أعماقها بلمحة اهتمام عاطفي به. كان هناك شيء غامض بالتأكيد يتسم به الطبيب، فلم يكن ثمة شيء في سلوكه أو شخصيته ينم على الإطلاق على أنه قتل مرتين. قالت لنفسها: لا بد أن خلف هذا الرجل قصة مثيرة.

كانت إيبونين تحلم. كانت ترى نفس الكابوس التي رأته مئات المرات منذ حادث القتل. فرأت البروفسير مورو ممددًا على أرض شقته وعيناه مغمضتان والدماء تتفجر من صدره. مشت إلى الحوض، وغسلت السكين الكبير، وأعادته إلى مكانه على الرف. وبينما هي تمر من فوق الجسد، إذا بالعينين الكريهتين تنفتحان. رأت الجنون الجامح في عينيه. مد ذراعيه إليها …»

«أيتها الممرضة كيمبرلي. أيتها الممرضة كيمبرلي.» ارتفع الدق على الباب. استيقظت إيبونين من كابوسها وفركت عينيها. وصلت كيمبرلي وإحدى النزيلتين الأخريين إلى الباب في الوقت نفسه تقريبًا.

كان صديق والتر مالكولم بيبودي يقف عند الباب، وهو رجل أبيض واهن ضئيل الحجم في بداية الأربعينيات. كان مذعورًا. وقال: «أرسلني د. تيرنر لطلب الممرضة. تعالي بسرعة. فوالتر جاءته أزمة قلبية.»

وحين بدأت كيمبرلي ترتدي ملابسها نزلت إيبونين من سريرها مسرعة. وسألت وهي ترتدي روبها المنزلي: «كيف حاله يا مالكوم؟ هل مات؟»

ارتبك مالكولم لحظة. وقال برفق: «آه، مرحبًا يا إيبونين. نسيت أنك والممرضة هيندرسون … عندما تركته كان لا يزال يتنفس، لكن …»

أسرعت إيبونين خارجة من الباب وانطلقت سائرةً في الممر ثم في المنطقة العامة المركزية ومنها إلى سكن الرجال، دون أن تنسى أن تحتفظ بإحدى قدميها على الأرض

كلما تحركت. وانطلقت أجهزة الإنذار في الوقت الذي كانت أجهزة المراقبة الرئيسية تتابع حركتها. عندما وصلت إلى مدخل جناح والتر توقفت لحظة حتى تلتقط أنفاسها.

وجدت حشدًا من الناس يقفون في الممر أمام غرفة والتر. وكان باب غرفته مفتوحًا على آخره، والثلث الأسفل من جسده ممددًا خارجه في المدخل. شقت إيبونين طريقها بين الحشد ودخلت الغرفة.

كان د. روبرت تيرنر جاثيًا بجوار المريض وهو يضع جهاز الصدمات الكهربائية على صدره العاري. كان جسد الرجل الضخم يرتد مع كل صدمة ثم يرتفع قليلًا عن الأرض، قبل أن يعيد الطبيب المحاولة من جديد.

رفع د. تيرنر عينيه عندما وصلت إيبونين. وسأل بفظاظة: «أنت الممرضة؟»

عجزت إيبونين عن النطق لحظات. إذ شعرت بالإحراج. فكل ما تستطيع أن تفكر فيه هو عينا دكتور تيرنر الزرقاوان الجذابتان، بينما صديقها يموت، أو مات فعلًا. وأخيرًا، ردت وهي مرتبكة تمامًا: «كلا.»

وأضافت: «أنا خليلته ... الممرضة هيندرسون رفيقتي في الغرفة ... ستصل إلى هنا فورًا.»

في هذه اللحظة وصلت كيمبرلي مع اثنين من جنود وكالة الفضاء العالمية. قال د. تيرنر لكيمبرلي: «توقف قلبه عن الخفقان نهائيًّا منذ خمس وأربعين ثانية. فات أوان نقله إلى غرفة الفحص. سأشق صدره وأحاول أن أستخدم المحفز الكوموري. هل أحضرت قفازك؟»

عندما كانت كيمبرلي ترتدي قفازها أمر الطبيب الحشد بالابتعاد عن المريض. لم تتحرك إيبونين. فجذبها الجنديان من ذراعيها، لكن الطبيب غمغم ببعض الكلمات فتركاها.

ناول الطبيب كيمبرلي أدواته الجراحية ثم شق فتحة عميقة في صدر والتر بسرعة ومهارة مذهلتين. وأزاح طبقات الجلد كاشفًا عن القلب والقفص الصدري. وسأل الممرضة: «هل شهدت عملية كهذه من قبل أيتها الممرضة هيندرسون؟»

أجابته: «كلا.»

قال: «المحفز الكوموري هو جهاز كهروكيميائي نلصقه بالقلب فيدفعه إلى أن ينبض وأن يستمر في ضخ الدم. وبهذا يستطيع الجهاز حل المشكلة إن كان المرض عابرًا كجلطة دموية أو تشنج في الصمام، ويعود القلب إلى العمل مرة أخرى.»

وضع الطبيب الجهاز الذي لا يزيد حجمه عن حجم طابع البريد خلف البطين الأيسر للقلب وزوده بالكهرباء عن طريق مولد كهربائي محمول كان بجواره على الأرض. بعد

ثلاث أو أربع ثواني عاد قلب والتر يدق ببطء. فقال الطبيب لنفسه: «أمامنا نحو ثماني دقائق نجد فيها المشكلة.»

أنهى الطبيب فحص أجزاء القلب الأساسية في أقل من دقيقة. ثم غمغم قائلًا: «ليس مصابًا بجلطة والأوعية والصمامات سليمة ... إذن لماذا توقف عن الخفقان؟»

وبمنتهى الحرص رفع الطبيب القلب الذي لا يزال يدق، وفحص العضلات تحته. فوجد أن أنسجة العضلات المحيطة بالأذين الأيمن لونها باهت وواهنة. وما كاد يلمسها بخفة شديدة بطرف إحدى أدواته الحادة حتى تمزق جزء من نسيجها.

قال: «يا إلهي، ما هذا؟!» وبينما كان الطبيب يرفع قلب والتر براكين إذ بالقلب ينقبض مرةً أخرى وإذ بإحدى الألياف الطويلة الموجودة في المنطقة الوسطى من النسيج العضلي الباهت تبدأ في التمزق. فأغمض عينيه وفتحهما مرتين ثم وضع يده على خده وقال: «ما ...»

استجمع هدوءه وقال: «انظري إلى هذا أيتها المرضة هيندرسون. هذا لا يصدق، فالعضلات أصابها ضمور شديد. لم أرَ شيئًا كهذا قط. لم يعد يمكننا أن نساعد ذلك الرجل.»

اغرورقت عينا إيبونين بالدموع والطبيب ينزع المحفز الكوموري وقلب والتر يتوقف عن الخفقان مرة أخرى. بدأت كيمبرلي تنزع المثبتات التي تمسك بالجلد والأنسجة المحيطة بالقلب فمنعها الطبيب. وقال: «ليس بعد. دعينا نأخذه إلى غرفة الفحص حتى يتسنى لي تشريحه. فأنا أريد أن أعرف أقصى قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة.»

وضع الجنديان واثنان من رفاق والتر في الغرفة الرجلَ الضخم على سرير ذي عجلات، ونُقل الجسد خارج المنطقة السكنية. أخذ مالكوم بيبودي يبكي في صمت على سرير والتر. فتوجهت إيبونين إليه. وعانقته طويلًا دون أن ينبس أيٌّ منهما ببنت شفة، ثم جلسا معًا ويداهما متشابكتان طوال ما تبقى من الليل.

٩

قال القائد ماكميلان لنائبه الشاب المهندس الروسي الوسيم ديميتري أولانوف: «ستكون المسئول هنا طوال المدة التي أكون فيها في راما، ومهما تكن الظروف فإن مسئوليتك الأولى هي سلامة الركاب والطاقم. فإذا سمعتَ أو رأيت أيَّ شيء يوحي بالخطر أو حتى يُثير ريبتك فأشعل الرابط المُتفجر وانطلق ببيننا بعيدًا عن راما.»

أشرق الصبح على أول مهمةٍ استكشافية تنطلق من بينتا إلى داخل راما. واستعدادًا لهذا، رست السفينة التي انطلقت من الأرض اليومَ السابق في أحد الأطراف الدائرية للسفينة الأسطوانية الضخمة. وركنت بينتا بجانب الغطاء الخارجيِّ مباشرةً، وهو نفس الموقع العمومي الذي وقفت فيه البعثتان اللتان انطلقتا لاستكشاف راما عامَي ٢١٣٠ و٢٢٠٠.

وفي الليلة نفسها، أطلع كينجي واتانابي مجموعةَ الاستكشاف على جغرافيةِ مَركبتَي راما الأولى والثانية ضمن مجموعة الفعاليات التي أُقيمَت تمهيدًا لأول انطلاقةٍ لهم خارج سفينتهم بينتا. وعندما أنهى تعليقاته، اقترب منه صديقه ماكس باكيت.

سأل ماكس: «أتعتقد أن راما ستُشبِهُ هذه الصور الذي أطلعْتَنا عليها بالضبط؟»

أجاب كينجي: «ليس بالضبط. أتوقع بعض التغيُّرات. تذكر أنه جاء في الفيديو أنهم بنوا مسكنًا يشبه الأرض في مكان ما داخل راما. ومع هذا فأنا لا أتوقع أن يكون كلُّ ما بالداخل قد تغيَّر؛ لأن الهيئة الخارجية لهذه السفينة مُطابقة للسفينتَين الأوليين.»

بدا ماكس متحيرًا. وقال وهو يهز رأسه: «لا يُمكنني أن أفهم أيًّا من هذا.» وأضاف بعد ثوان: «بالمناسبة، هل أنت متأكد من أنك لستَ مسئولًا عن انضمامي لمجموعة الاستكشاف؟»

أجاب كينجي: «كما أخبرتُك عصرَ اليوم، لا علاقة لأي فرد يركب بينتا باختيار المجموعة. فوكالة الفضاء العالمية ووكالة الاستخبارات العالمية هما من اختار الستة عشر عضوًا من موقعيهما على الأرض.»

«لكن لماذا زُوِّدت بهذه الترسانة اللعينة؟ معي مدفع ليزر حديث، وقنابل موجهة ومجموعة من الألغام التي تتغيَّر قوة انفجارها تبعًا لحجم الجسم الذي تنفجِر فيه. إن قوة الأسلحة التي معي الآن تفوق ما كان معي أثناء غزو بيليز لحفظ السلام بها.»

ابتسم كينجي. وقال: «لا يزال القائد ماكميلان والكثير من أعضاء الهيئة الحربية في مقر مجلس الحكومات يؤمِنون بأن هذا الأمر كلَّه فخ من نوعٍ ما. وأنت تشغل منصب «جندي» في هذه العملية الاستكشافية. أنا شخصيًّا أعتقد أن اصطحاب الأسلحة غير ضروري.»

كان ماكس لا يزال يتذمَّر في صباح اليوم التالي عندما ترك ماكميلان لديميتري أولانوف مسئولية بينتا، وقاد مجموعة الاستكشاف إلى راما بنفسه. ورغم انعدام الجاذبية، فإن المعدات العسكرية التي كان يحملها ماكس خارج زيِّ الفضاء، كانت ثقيلة وأعاقت حرية حركته بشدة. وتمتم لنفسه: «هذا سخف. أنا فلاح، ولست فدائيًّا لعينًا.»

جاءت المفاجأة الأولى بعد دقائق من تحرُّك مستكشفي بينتا داخل الغطاء الخارجي. سار المستكشفون قليلًا في ممرٍّ واسع حتى وصلوا إلى حجرةٍ دائرية تتفرَّع منها ثلاثة أنفاق تؤدي إلى مكانٍ أعمق داخل السفينة الفضائية. كان اثنان من الأنفاق مغلقَين بالكثير من البوابات المعدنية. فاستدعى القائد ماكميلان كينجي ليستشيره.

قال كينجي ردًّا على سؤال القائد: «هذا التصميم مختلف تمامًا. لن يضيرنا شيءٌ إن رمَينا الخرائط.»

سأل ماكميلان: «إذن أظن أن علينا أن نمضيَ في النفق غير المُغلق؟»

رد كينجي: «الرأي رأيك، ولكن لا أرى أمامنا خيارًا سوى العودة لبينتا.»

مشى الستة عشر رجلًا ببطءٍ في النفق المفتوح مُرتَدِين الزيَّ الفضائي. وكانوا لا يدَعون دقائق كثيرة تمرُّ دون أن يُطلقوا شعاعًا في الظلام الذي يُغلفهم حتى يتمكنوا من رؤية المكان الذي تطؤه أقدامهم. بعدما قطعوا نحو خمسمائة مترٍ في داخل راما، ظهر شخصان ضئيلان فجأة في نهاية النفق. فأخرج الجنود الأربعة والقائد ماكميلان نظاراتهم المكبِّرة بسرعة.

قال أحد الجنود في حماس: «إنهما قادمان نحونا.»

قال ماكس باكيت وقد سرَت قشعريرة في جسده: «ليلعننِّي الله إن لم يكن هذا إبراهام لينكولن!»

قال آخر: «وامرأة ترتدي زيًّا ما.»

صاح إيان ماكميلان: «استعِدُّوا لإطلاق النيران.»

أسرع الجنود الأربعة وتقدَّموا المجموعة وجَثَوا مُوجِّهين مدافعهم نحو نهاية النفق. صاح ماكميلان والشخصان الغريبان يمشيان على مسافة مائتي متر من مجموعة الاستكشاف، قائلًا: «مكانكما.»

توقَّف إبراهام لينكولن وبنيتا جارسيا. وسمِعا القائد يصيح: «حدِّدا هدفكما.»

قال إبراهام لنكولن بصوتٍ عال وعميق: «نحن هنا لنُرحِّب بكم.»

وأضافت بنيتا جارسيا: «ونأخذكم إلى عدن الجديدة.»

ارتبك القائد ماكميلان ارتباكًا شديدًا. ولم يعرف ماذا يفعل. وبينما هو في تردُّده تحدَّث باقي أفراد مجموعة الاستكشاف فيما بينهم.

قال الأمريكي تري سنيدار: «إنه إبراهام لينكولن، هذا شبحه.»

«الأخرى هي بنيتا جارسيا، لقد رأيتُ تمثالها في مكسيكو سيتي ذات مرة.»

قال مُستكشف آخر: «لنخرج من هذا المكان اللَّعين. هذا المكان يُرعبني.»

«ما الذي تفعله الأشباح في مدار حول المريخ؟»

في النهاية، قال كينجي لماكميلان المُرتبك: «عفوًا أيها القائد. ما الذي تنوي فعله الآن؟»

التفت الاسكتلندي إلى مستشاره الياباني. وقال: «من الصعب أن نُحدِّد التصرُّف السليم بالطبع. أعني أن هذين يبدوان مُسالمَين، ولكن تذكَّر حصان طروادة. هه! حسنًا، ماذا ترى يا واتانابي؟»

«لماذا لا أتقدَّم، بمفردي أو مع أحد الجنود، ونتحدَّث معهما؟ عندها سنعرف ...»

«هذه بالتأكيد شجاعة منك يا واتانابي ولكن لا داعي لها. لا، أرى أن نتقدَّم جميعًا. بحذر بالطبع. ونترك رجلَين في المؤخِّرة لينقلوا الأخبار إذا ما أطلقوا علينا مدفع ليزر أو شيئًا من هذا القبيل.»

شغَّل القائد جهاز الإرسال والاستقبال اللاسلكي. وقال: «أيها القائد أولاناوف، معك ماكميلان. لقد قابلْنا كائنَين من نوعٍ ما. هما إما بشر أو كائنات مُتخفِّية في هيئة بشر. أحدهما يبدو مثل إبراهام لينكولن، والآخر يُشبه رائدة فضاء مكسيكية شهيرة ... ما هذا! ديميتري؟ ... نعم، صحيح، لينكولن وجارسيا. لقد قابلنا لينكولن وجارسيا في النفق بداخل راما. يمكنك أن تنقل هذا إلى الآخرين ... والآن، سأترك سنايدر وفينزي هنا بينما يتقدَّم الجميع باتجاه الغريبَين.»

لم تتحرك الشخصيتان عندما كان المُستكشفون الأربعة عشر القادمون من بينتا يتقدَّمون نحوهما. كان الجنود مُصطفِّين أمام المجموعة وهم على استعداد لإطلاق النار مع أول بادرةٍ تُوحي بأنهم سيواجهون متاعب.

قال إبراهام لينكولن عندما صار أولُ مستكشفٍ لا يبعد عنه سوى عشرين مترًا: «مرحبًا بكم في راما. نحن هنا لنصطحبكم إلى بيوتكم الجديدة.»

لم يُجِب القائد ماكميلان على الفور. كان ماكس باكيت الذي لا يمكن كبحُ جماحه هو من كسر حاجز الصمت. صاح قائلًا: «هل أنت شبح؟ أعني هل أنت إبراهام لينكولن فعلًا؟»

أجاب لينكولن بلا انفعالٍ وكأنه يسرد بعض الحقائق العلمية: «بالطبع لا. أنا وبنيتا جارسيا آليان بشريان. ستجد خمسة أصناف من الآليين البشريين في عدن الجديدة، صُمِّم كل منهم بقدراتٍ خاصة بهدف تخليص البشَر من المهام الروتينية المُملة. أنا مُتخصِّص في القيام بأعمال السكرتارية والمحاماة وكذلك أعمال المحاسبة وإمساك الدفاتر وتأمين التجهيزات والخدمات وإدارة المنازل والمكاتب وغيرها من المهام التنظيمية.»

صُعق ماكس. ومشى حتى أصبح على بُعد عدة سنتيمترات من لينكولن متجاهلًا أمر القائد بأن «يقف بعيدًا». تمتم لنفسه قائلًا: «هذا آلي لعين.» بعد هذا مدَّ يدَه ووضع أصابعه على وجه لينكولن مُتناسيًا أي خطر مُحتمل، لمس الجلد المُحيط بأنفه أولًا ثم تحسَّس شعيرات لحيتِه السوداء الطويلة. قال بصوتٍ عال: «غير معقول. غير معقول على الإطلاق.»

عندها قال لينكولن: «كانوا يعتنون بالتفاصيل عنايةً بالغة وهم يصنعوننا. فجِلدُنا مُماثل لجلدكم كيميائيًّا وأعيُننا تعمل على نفس الأسس البصرية الأساسية التي تعمل بها أعينكم. ولكننا لسنا مخلوقاتٍ ديناميكية دائمة التجدُّد مثلكم. كما أنه يجب على الفنيِّين صيانة أنظمتنا الفرعية وأحيانًا استبدالها.»

هدَّأت حركة ماكس الشجاعة من توتر الجميع. وبعدها كانت مجموعة الاستكشاف كلها، بما فيها القائد ماكميلان، تَكِزُ الآليين وتجسهما. أثناء الفحص أجاب لينكولن وجارسيا على الأسئلة التي طرحت حول تصميمهما وتشغيلهما. وفي لحظةٍ ما أدرك كينجي أن ماكس باكيت انسحب من بين مجموعة الاستكشاف وجلس بمفردِه مستندًا إلى أحد حوائط النفق.

اتجه كينجي نحو صديقه. وسأله: «ما الأمر يا ماكس؟»

هز ماكس رأسه. وقال: «أي عبقرية هذه التي صنعت شيئًا كهذا؟ هذا مُخيف حقًّا.» صمت عدة ثوان. ثم قال: «ربما أكون غريبًا ولكن هذين الآليَّيْن يُخيفانني أكثر من هذه الأسطوانة الضخمة.»

مشى لينكولن وجارسيا مع المجموعة المُستكشفة لِما بدا أنه نهاية النفق. وفي ثوانٍ فُتح باب في الحائط وأشار الآلِيَّان إلى البشر أن يدخلوا. إجابةً على استفسار ماكميلان، أوضح الآليَّان أن البشر على وشك دخول «وسيلة مواصلات» تحمِلهم إلى ضواحي المسكن الأرضي.

نقل ماكميلان ما قاله الآليون إلى ديميتري أولانوف على بينتا، وقال لنائبه الروسي أن «ينطلق» إذا لم تصِله منهم أخبار في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة.

كانت الرحلة في العربة الناقلة مُذهلة. ذكَّرت ماكس باكيت بلعبة الدودة الضخمة في مهرجان مدينة دالاس بولاية تكساس. انطلقت المركبة التي على شكل رصاصة بسرعةٍ في طريقٍ حلزوني مُغطًّى، ينحدر من الطرف الشمالي لراما ذي الشكل المُجوَّف إلى السهل الرئيسي في الأسفل. خارج العربة الناقلة المُغطَّاة بنوعٍ من البلاستيك الشفَّاف الثقيل، رأى

كينجي والآخرون شبكاتٍ ضخمة من السلالم والأدراج تمتدُّ عبر المنطقة التي يقطعونها. ولكنهم لم يرَوا المَشاهد التي لا تُضَاهَى التي أخبر عنها مستكشفو راما السابقون؛ فقد حجب رؤيتَهم للجنوب حائطٌ طويل جدًّا لونُه كلون الجرانيت.

استغرقت الرحلة أقلَّ من خمس دقائق. وصلوا بعدَها إلى حلقةٍ مغلقة تُحيط بمسكن الأرض إحاطة تامة. عندما خرج مُستكشفو بينتا من العربة الناقلة انتهت حالة انعدام الجاذبية التي كانوا يعيشون فيها منذُ أن رحلوا عن الأرض. وصارت الجاذبية شبه طبيعية.

قال لينكولن الآلي: «الغلاف الجوي في هذا الممر، وفي عدن الجديدة، يُطابق الغلاف الجوي في كوكبكم الأم. ولكن الحال ليس كذلك في المنطقة التي تقع على يَميننا، خارج الحوائط التي تحمي مسكنكم.»

كان الضوء في الحلقة المُحيطة بعدن الجديدة خافتًا؛ لذا لم يكن المُستعمرون على استعدادٍ لاستقبال ضوء الشمس الباهر الذي استقبل أعيُنَهم عندما فُتِح الباب الضخم ودخلوا إلى عالَمِهم الجديد. خلع الرجال خوذاتهم، وحملوها في أيديهم وهم يسيرون في الممشى القصير المؤدِّي إلى محطة القطار القريبة. مرُّوا ببنايات خالية تقع على جانبَي الممر، فرأوا بنايات صغيرة هي على الأرجح بيوت أو محال، ورأوا في الجهة المقابلة للمحطة بنايةً كبيرة (أخبرتهم بنيتا جارسيا أنها ستكون «مدرسةً ابتدائية»).

عندما وصلوا إلى المحطة، وجدوا قطارًا في انتظارهم. وبعد أن ركبوا انطلقت العربة الأنيقة، التي كانت مقاعدها مريحة ناعمة، وكانت بها لوحة إلكترونية تزودهم بمعلومات عن الأماكن التي يمرُّون بها بسرعةٍ باتجاه عدن الجديدة حيث «سيحصلون على معلوماتٍ شاملة» وفقًا لما قاله لينكولن الآلي. في البداية، جرى القطار بموازاة شاطئ بحيرة جميلة صافية (قالت بنيتا جارسيا إنها «بحيرة شكسبير») ثم انعطف يسارًا مُبتعدًا عن الحوائط الرمادية الفاتحة التي تُحيط بالمُستعمرة. وفي نهاية الرحلة هيمن جبلٌ ضخم لا تكسوه خضرة على المنظر الطبيعي الظاهر على يمين القطار.

طوال الرحلة ظلَّ فريق بينتا صامتًا. إذ كان مذهولًا تمامًا. فقد كان ما رأوه رائعًا جدًّا. إن الخيال الإبداعي لكينجي واتانابي نفسه لم يستطع يومًا أن يتصوَّر شيئًا كالذي رأوه. كان أروع كثيرًا مما تخيَّلوه.

كان آخِر جمال سيتطلعون إليه في رحلتهم هو جمال المدينة المركزية التي وضع فيها مصممو عدن الجديدة كل البنايات الرئيسية. وقف أفراد المجموعة وكأنَّ على رءوسهم الطير وهم يُحدقون في صفِّ البنايات الضخمة المُبهرة التي تُمثل قلب المُستعمرة. وكون

هذه البنايات لا تزال خاوية أضاف صبغةً من الغموض على التجربة كلها. كان كينجي واتانابي وماكس بيكيت آخِر من دخلا الصرح الذي ستُلقى فيه المعلومات.

سأل كينجي ماكس وهما واقفان أعلى سُلَّم مبنى الإدارة يُلقيان نظرة على مجمع المباني المحيط بهما: «ما رأيك؟»

أجاب ماكس في رهبة واضحة: «لا رأيَ لي. هذا المكان يتحدَّى العقل. إنه كالجنة، بل بلاد العجائب التي زارتها أليس، بل كل القصص الخيالية التي سمعتُها في طفولتي مجتمعةً في صورة واحدة. إنني لا أكفُّ عن قرص نفسي لعلِّي أتأكد من أنني لا أحلم.»

قال لينكولن الآلي: «على الشاشة التي أمامكم خريطة شاملة لعدن الجديدة. كل منكم سيحصل على مجموعةٍ كاملة من الخرائط بها كل الطرق والبنايات الموجودة في المستعمرة. نحن هنا في المدينة الرئيسية التي صُمِّمت لتكون المركز الإداري لعدن الجديدة. بنينا المساكن والمحال والمكاتب الصغيرة والمدارس في الزوايا الأربعة للمُستطيل المحاط بالجدار الخارجي. ولأن اختيار أسماء هذه المدن الأربع متروك للسكان فإننا سنُشير إليهم اليوم بالشمال الشرقي والشمال الغربي والجنوب الشرقي والجنوب الغربي. وإننا إذ نُشير إلى المدن باتجاهاتها فإننا نتبع التقليدَ الذي تبنَّاه مستكشفو راما الأوائل الذين جاءوا من الأرض؛ إذ أشاروا إلى طرف راما الذي ترسو فيه سفينتكم بالطرف الشمالي.

كلٌّ من الجوانب الأربعة لعدن الجديدة له وظيفة جغرافية. تُسمَّى البحيرة العذبة الممتدة على طول الجانب الجنوبي من المُستعمرة — كما أخبرناكم من قبل — بحيرة شكسبير. معظم الأسماك وأشكال الحياة المائية التي أحضرتموها معكم ستعيش هناك، لكن بعض الأنواع قد يكون من الأمثل أن تضعوها في النهرَين اللذَين يصبَّان في البحيرة، واللذَين يمرُّ أحدهما بجبل الأوليمب الواقع على الجانب الشرقي من المستعمرة، ويمر الآخر بغابة شيروود الواقعة على الجانب الغربي.

في الوقت الحالي تُغطي شبكة رائعة من أجهزة تبادل الغازات منحدرات جبل الأوليمب وكل أرجاء غابة شيروود وحدائق المدن والأحزمة الخضراء في كل أرجاء المستعمرة. هذه التقنية الدقيقة تقوم بمهمة واحدة ألا وهي: تحويل ثاني أكسيد الكربون إلى أكسجين. بمعنى أنها نباتات ميكانيكية. وستحل محلها النباتات الحقيقية التي أحضرتموها معكم من الأرض.

أما الجزء الذي يقع بين المدن في الجانب الشمالي من المستعمرة فمُخصَّص لأغراض الزراعة. بنَينا المزارع هنا على طول الطريق الذي يصِل بين المدينتَين الشماليتَين. ستزرعون

معظم طعامكم في هذه المنطقة. يجب أن تكفي الإمداداتُ الغذائية التي أحضرتموها معكم والطعامُ الصناعي المُخزَّن في المباني الأسطوانية العالية — التي تقع على بُعد ثلاثمائة متر من شمال هذا المبنى — احتياجات ألفَي إنسانٍ من الطعام مدة عامٍ على الأقل، بل قد تصل المدة إلى ثمانية عشر شهرًا إذا ما حافظتم على الحد الأدنى من إهدار الطعام. بعد هذا ستتحملون مسئولية أنفسكم. وعلى هذا فمِن البديهي أن الزراعة ستُمثل جزءًا هامًّا من حياتكم في عدن الجديدة، بما في ذلك الزراعة بلا تربة التي ستقومون بها على السواحل الشرقية لبحيرة شكسبير ...»

شعر كينجي أنه لم يكد يلتقط أنفاسه أثناء جلسة التعريف بعدن. فقد ظل اللينكولن الآلي يُلقي المعلومات بسرعةٍ شديدة جدًّا طوال تسعين دقيقة رافضًا الإجابة عن كلِّ الأسئلة إما بقوله «هذا خارج قاعدة بياناتي» أو بالإشارة إلى رقم الصفحة ورقم الفقرة اللذَين يحتويان على الإجابة في كتاب «المُرشد الأساسي لعدن الجديدة» الذي سلَّمَهم إيَّاه. أخيرًا حان وقت الاستراحة وانتقل الجميع إلى الغرفة المُجاورة حيث قدَّموا لهم مشروبًا يُشبه طعمُه طعم المياه الغازية.

قال تيري سنايدر وهو يمسح جبينه: «يا إلهي! هل أنا الوحيد الذي أنهكَه هذا؟»

أجاب ماكس باكيت وهو يبتسِم ابتسامة عابثة: «تبًّا يا سنايدر. أتقول إن قُدراتك أضعف من قدرات هذا الآلي اللعين؟ إنه لم يتعب بالتأكيد. أُراهن أنه يستطيع أن يقضي اليوم بأكمله في إلقاء المحاضرات.»

قال كينجي واتانابي متفكرًا: «بل ربما أسبوعًا كاملًا. وددتُ لو عرفت كم يمرُّ من الوقت قبل أن يحتاج هؤلاء الآليون إلى إصلاح. إن شركة أبي تصنع الآليين وبعضهم مُعقد للغاية، ولكنَّ أيًّا منهم لا يُشبه هذا. لا بد أنَّ محتوى المعلومات في لينكولن هذا عملاق.»

قال لينكولن: «ستبدأ الجلسة مرة أخرى بعد خمس دقائق. أرجو الإسراع.»

في النصف الثاني من الجلسة قدم المحاضر للبشر مُختلف أنواع الآليين الذين سيعيشون معهم في عدن الجديدة، وألقى الضوء على كلِّ ما يتعلق بها. كانت لدى البشر معرفة مُسبقة عن البلدوزر وآليي البناء الآخرين، اكتسبوها من دراستهم الحديثة لبعثات راما السابقة. لذلك لم تُثِر فيهم ردَّ فعلٍ قويًّا كالذي أثارته رؤية الأصناف الخمسة للآليين البشريين.

قال لهم لينكولن: «قرَّر واضعو التصميمات أن يجعلوا الشبَهَ بين الآليين والبشر محدودًا لكيلا يُصبح هناك احتمال أن يخلط أحد بيننا وبينكم. لقد عددتُ لكم وظائفي

الأساسية بالفعل، وبرمجة اللينكولن الآخرين، الذين سينضمُّ إلينا ثلاثة منهم، مُماثلة لبرمجتي. على الأقل من حيث الأساسيات. ولكننا نتمتع بشيءٍ من القدرة على التعلُّم، وهذا سيجعل قواعد بياناتنا تختلف بتطوُّر وظائفنا المُحددة.»

عندما كان اللينكولن الجدد الثلاثة ينتشرون في الغرفة سأل أحد أعضاء مجموعة الاستكشاف التي أصابها الذهول: «كيف نُفرِّق بين آليي اللينكولن المُختلِفين؟»

«لكلٍّ منَّا رقم تعريف، منحوت على مكانين: على الكتف وعلى الردف الأيسر. وهذا ينطبق على جميع أصناف البشر الآليين. على سبيل المثال، أنا لينكولن ٠٠٤. الثلاثة الذين دخلوا هم ٠٠٩ و٠٢٤ و٠٧١.»

عندما غادر اللينكولن الآليون القاعة حلَّ محلهم خمسة من آليات بنيتا جارسيا. قامت إحداهن بوصف تخصُّصات صنْفها — وهي القيام بمهام الشرطة ومكافحة الحرائق وتولِّي أمور الزراعة والصرف الصحي والتنقُّل والبريد — وبعدها أَجَبْنَ على بضعة أسئلة ثم انصرفن جميعًا.

كان الأينشتاين الآليون هم من دخلوا بعد هذا. وانفجر المُستكشفون ضحكًا عندما رأوا آليي أينشتاين الأربعة يدخلون الغرفة معًا وكل منهم نسخة من صورة عبقري القرن العشرين بشعره الأبيض الأشعث. أوضح هؤلاء أنهم مهندسو المستعمرة وعلماؤها. وأشاروا إلى أن مهمتهم الأساسية هي «ضمان عمل البنية التحتية للمستعمرة على نحوٍ مُرضٍ»، وهذه البنية تشمل مجموعة الآليين، وأضافوا أن مُهمتهم مهمة حيوية تتضمن الكثير من الواجبات.

قدمت مجموعة من الآليات السمراوات الطويلات أنفسهن قائلاتٍ إنهنَّ يُدْعَين تياسو، وإنهن مُتخصصات في العناية الصحية، فهن يَقُمنَ بأدوار الطبيبات والمُمرضات ومسئولات الصحة ويعتنين بالأطفال عندما يتغيَّب آباؤهم. بينما كان الجزء المُخصَّص لهؤلاء من الجلسة في نهايته، دخل إلى الغرفة آليٌّ شرقي له عينان تنبضان بالإحساس، كان يحمل قيثارةً ومسندًا إلكترونيًّا، وقدَّم نفسه على أنه ياسوناري كاواباتا، قبل أن يعزف مقطوعةً قصيرة جميلة على القيثارة.

قال ببساطة: «نحن الكاواباتا فنانون مُبدعون. فنحن موسيقيون وممثلون ورسامون ونحاتون وكُتَّاب، وأحيانًا نعمل مصورين فوتوغرافيين وسينمائيين. عددُنا قليل، ولكن وجودنا ضروري للارتقاء بجودة الحياة في عدن الجديدة.»

عندما انتهي التعريف الرسمي، قُدم للمجموعة الاستكشافية عشاء فاخر في القاعة الكبيرة. انضمَّ نحو عشرين آليًّا للبشر، لكنهم لم يأكلوا شيئًا بالطبع. كان البط المشويُّ

الصناعي يُشبه الحقيقي إلى حدٍّ مُربك، وهذا ينطبق على جميع أنواع الطعام والشراب، وفي ذلك الخمر، فهي لم تكن لتُثير شكَّ أيِّ شخصٍ إلا إن كان أوسع العالِمين بصناعة الخمور خبرةً.

بعد هذا، عندما حل المساء وأصبح البشر أكثر اطمئنانًا إلى صحبة الآليين حتى إنهم أخذوا يُمطرونهم بوابل من الأسئلة، ظهرت شخصية نسائية في مدخل الباب المفتوح. لم ينتبِه إليها أحد. لكنَّ الهدوء ساد الغرفة بسرعةٍ بعدما قفز كينجي واتانابي من مقعده واقترب من الوافدة الجديدة بيد ممدودة.

قال مبتسمًا: «الدكتورة دي جاردان، حسبما أعتقد.»

١٠

مع أن نيكول أكدت أن ما قالته في الفيديو وصفٌ صادق لِواقع عدن الجديدة، فقد رفض القائد ماكميلان السماح لركاب بينتا وطاقمها بدخول راما وشغْل بيوتهم الجديدة، إلى أن يتأكد له عدم وجود أي خطر. فعاد إلى بينتا، وتشاوَر طويلًا مع العامِلين بوكالة الفضاء العالمية على الأرض، ثم أرسل بعثةً صغيرة يرأسها ديميتري أولانوف إلى راما للحصول على معلوماتٍ إضافية. كان أهم أفراد فريق أولانوف هو الهولندي الصارم دارل فان روس، وهو مسئول الصحة الأول. وصحِب المهندسَ الروسي كينجي واتانابي وجندِيَّين كانا في مجموعة الاستكشاف الأولى.

كانت التعليمات التي أُعطيت للطبيب واضحة. سيفحص آل ويكفيلد جميعًا ويتأكد من أنهم بشر بالفعل. وثانيةُ مهامِّه هي تحليل الآليين ووضع تصنيفٍ لملامحهم غير البيولوجية. تم إنجاز كل هذا بلا مشاكل، مع أن كيتي ويكفيلد لم تكن متعاونة وظلت تتهكَّم عليه أثناء الفحص. وبناءً على اقتراح من ريتشارد، فكك أينشتاين آلي أحد اللينكولن الآليين وشرح، عمليًّا، كيف تعمل أكثر الأنظمة الفرعية تعقيدًا. فانبهر النائب أولانوف انبهارًا شديدًا.

بعد يومَين بدأ مسافرو بينتا نقل مُمتلكاتهم إلى راما. وساعدهم فريق كبير من الآليين في تفريغ السفينة ونقل الإمدادات إلى عدن الجديدة. استغرق إتمام هذه العملية نحو ثلاثة أيام. ولكن أين سيستقر كلٌّ منهم؟ في قرارٍ ستترتَّب عليه نتائج ذات أهمية شديدة للمستعمرة فيما بعد، اختار الغالبية العظمى من مسافري بينتا الثلاثمائة أن يعيشوا في الجنوب الشرقي، وهو المكان الذي اتخذ فيه آل ويكفيلد مسكنهم. ولم يتخلَّف عن هذا

سوى ماكس باكيت وقليل من الفلاحين الذين انتقلوا مباشرةً إلى المنطقة الزراعية على طول المُحيط الشمالي لعدن الجديدة.

انتقل آل واتانابي إلى منزل صغير قريب من الممر المتفرع من مسكن ريتشارد ونيكول. من البداية نشأت أُلفة طبيعية بين كينجي ونيكول وأخذت صداقتهما تنمو مع كل التعامُلات التي تلت. في أول ليلة قضاها كينجي وناي في منزلهما الجديد دعتهما أسرة ويكفيلد إلى العشاء.

قالت نيكول عندما انتهوا من تناول الوجبة: «ما رأيكم أن ننتقل إلى غرفة المعيشة؟ إنها مريحة أكثر. وسينظف اللينكولن المائدة ويتولَّى أمر الأطباق.»

قام آل واتانابي من مِقعدَيهما وسارا خلف ريتشارد في مدخلٍ يقع في نهاية غرفة الطعام. انتظر صغار أسرة ويكفيلد بأدبٍ حتى يدخل كينجي وناي أولًا ثم لحقوا بأبوَيهم والضيوف في غرفة المعيشة الدافئة في مقدمة المنزل.

مرَّت خمسة أيام على دخول مجموعة بينتا الاستكشافية راما لأول مرة. قال كينجي لنفسه وهو جالس في غرفة المعيشة في منزل أسرة ويكفيلد: هذه الأيام الخمسة كانت مُدهشة. واستعرض عقلُه بسرعة مجموعةَ الانطباعات المختلطة التي لم يفلح في ترتيبها بعد. ثم قال في نفسه: أكثر شيء إثارةً للدهشة فيها في كثير من النواحي هو هذا العشاء. ما مرَّت به هذه الأسرة لا يُصدَّق.

قالت ناي لريتشارد ونيكول بعد أن جلس الجميع: «الحكايات التي قصصتموها مُذهلة للغاية. هناك الكثير من الأسئلة التي أودُّ أن أطرحَها ولا أدري من أين أبدأ ... أنا مُنبهرة خصوصًا بهذا المخلوق الذي تُسمُّونه الرجل النسر. أهو أحد الفضائيين الذين بنَوا النود وراما من البداية؟»

قالت نيكول: «كلَّا. الرجل النسر إنسان آلي أيضًا. على الأقل هذا هو ما قاله لنا، وليس لدَينا سبب يدعو إلى عدم تصديقه. لقد صنعه الذكاء الذي يحكم النود ليمنحنا فرصةَ التعامُل مع شيءٍ محسوس.»

«ولكن من بنى النود؟»

قال ريتشارد مُبتسمًا: «هذا السؤال بالتأكيد مُصنَّف في المستوى الثالث.»

ضحك كينجي وناي. كانت نيكول وريتشارد قد شرحا لهما ترتيب الرجل النسر للمعلومات ضمن القصص الطويلة التي قالوها على العشاء. قال كينجي: «أتساءلُ ما إذا كان من المُمكن لعقلنا أن يستوعب فكرة وجود كائنات متطورة جدًّا حتى إن آلاتهم يمكن أن تَصنع آلاتٍ أخرى أذكى منَّا.»

قاطعَتْه كيتي قائلة: «أتساءل ما إذا كان من الممكن لنا أن نُناقش بعض الأمور الأقل جدية. على سبيل المثال، أين الشباب الذين هم في نفس عمري؟ حتى الآن لا أظن أنَّني رأيتُ أكثر من اثنَين ما بين الثانية عشرة والخامسة والعشرين.»

أجاب كينجي: «معظم الأفراد الأصغر سنًّا على متن نينيا. مِن المُفترض أن تصِل إلى هنا في غضون ثلاثة أسابيع وبها معظم سكان المُستعمرة. فقد اختير ركاب بينتا للقيام بمهمة التأكد من صحة الفيديو الذي تلقَّيناه.»

سألت كيتي: «ما معنى «صحة»؟»

قالت نيكول: «صِدق ودقة. تقريبًا. كانت هذه إحدى كلمات جدِّك المُفضلة ... وبمناسبة الحديث عن جدك، لقد كان من أشدِّ المؤمنين بأن الشباب يَجب أن يُسمح لهم دائمًا بالاستماع لحديث الكبار، لكن لا يُسمح لهم بمقاطعتهم ... علينا مناقشة الكثير من الأمور مع آل واتانابي هذا المساء. لستُم مُضطرين للبقاء معنا.»

قال بينجي: «أريد أن أخرج وأرى الأضواء. هل ستأتين معي يا إيلي، لو سمحت؟»

وقفت إيلي ويكفيلد وأمسكت بيَدِ بينجي. استأذَنا بأدبٍ وتبعتهما كيتي وباتريك خارج الباب. قالت كيتي وهما يَخرجان: «سنخرج لنرى ما إذا كان هناك شيءٌ مُثير يُمكننا أن نفعلَه. عِمتما مساءً يا سيد كينجي ويا سيدة ناي. أمي، سنعود بعد حوالي ساعتَين.»

هزَّت نيكول رأسها وآخِر الأطفال يغادر البيت. وقالت شارحةً موقف كيتي: «إن كيتي في حالة هستيرية منذ أن وصلت بيننا، إنها لا تكاد تنام ليلًا. تُريد أن تقابل الجميع وتتحدَّث معهم.»

بعد أن أنهى اللينكولن الآلي تنظيف المطبخ وقف بجوار الباب خلف مِقعد بينجي بلا تطفُّل. سألت نيكول كينجي وناي وهي تسير باتجاه الآلي: «أتريدان أن تشربا شيئًا؟ ليس لدَينا ما هو في حلاوة طعم مشروبات الفاكهة الطازجة التي أحضرتموها من الأرض، ولكن لينك يستطيع أن يصنع بعض المنتجات الصناعية اللذيذة.»

هز كينجي رأسه وقال: «كلَّا شكرًا. لقد أدركتُ أننا قضينا الليل بطوله نتحدَّث عن رحلتكم التي لا يُصدقها عقل. وبالتأكيد لديكما أسئلة تريدان أن تطرحاها علينا. فبعد كل شيء، لقد مرت خمسةٌ وأربعون عامًا على الأرض منذ أن انطلقَتْ منها بعثة نيوتن.»

فجأة دار ما يلي في خلد نيكول: خمسة وأربعون عامًا. هل هذا مُمكن؟ هل من الممكن أن تكون جنيفياف في نحو الستين من عمرها حقًّا؟

تذكَّرَت نيكول بوضوحٍ آخِر مرة كانت فيها مع أبيها وابنتها على الأرض. اصطحبها بيير وجنيفياف إلى المطار في باريس. وظلَّت ابنتها تحتضنها بقوةٍ حتى صدر آخِر نداء للركاب بصعود المركبة وعندها نظرت إلى أُمِّها وعيناها تفيضان بالحُب والفخر. كانت عينا الفتاة مُغرورقَتَين بالدموع. لم تستطع جنيفياف أن تنبس ببنت شفة. قالت نيكول في نفسها: «أثناء الخمس والأربعين سنة مات والدي. وأصبحت جنيفياف عجوزًا، بل جدة كما قال كينجي. في الوقت الذي كنتُ أتِيهُ فيه في الزمان والمكان. في بلاد العجائب.»

كانت الذكريات أقوى مما تحتمِله نيكول. فأخذت نفسًا عميقًا وهدَّأت نفسها. عندما عادت إلى الحاضر كان الهدوء لا يزال يُخيم على غرفة المعيشة.

سألها كينجي برقة: «هل كل شيءٍ على ما يُرام؟» أومأت نيكول برأسها وحدَّقَت في عينَي صديقها الجديد الواسعتَين الصافيتَين. وتصوَّرتْ للحظةٍ أنها كانت تتحدَّث مع زميلها رائد الفضاء شيجرو تاكاجيشي. قالت في نفسها: هذا الرجل فضولي مثل شيج. أستطيع أن أثق به. كما أنه تحدث مع جنيفياف من سنوات قليلة.

قالت نيكول بعد صمت طويل: «شرح لنا ركاب بينتا معظم الأحداث العامة التي وقعت على الأرض في حلقات منفصلة، أثناء الحوارات العديدة التي دارت بيننا. ولكننا لا نعرف شيئًا عن أُسَرِنا إلا ما أخبرتَنا به باختصار في تلك الليلة الأولى. أنا وريتشارد نودُّ أن نعرف إن كنتَ قد تذكرتَ أي تفاصيل أخرى ربما تكونُ قد أهملتها في حواراتنا الأولى.»

قال كينجي: «في الحقيقة، تصفحت يومياتي عصر اليوم، وأعدتُ قراءة ما أدخلتُه من بيانات عندما كنت أقوم ببحثٍ أولي تمهيدًا للكتاب الذي كنتُ أعده عن نيوتن. أهم ما أهملت ذكره في نقاشاتنا السابقة هو إلى أي مدى تشبه جنيفياف والدها، على الأقل من شفتَيها وحتى نهاية وجهها. كان وجه الملك هنري جذابًا، أنا واثق من أنك تتذكَّرين هذا. عندما كبرت جنيفياف استطال وجهها وبدأ يُشبه وجهه بوضوح ... تفضَّلي، انظري إلى هذه، نجحت في العثور على صورتَين التُقِطتا في الأيام الثلاثة التي قضيتُها في بوفوا، وكانتا مُختزنَتَين في قاعدة البيانات الخاصة بي.»

استحوذت الصورتان على عقل ومشاعر نيكول. فاندفعت الدموع على الفور في عينَيها وفاضت على وجنتَيها. وارتعشت يداها وهي تُمسك الصورتَين اللتَين تظهر فيهما جنيفياف وزوجها لوي جاستون. صرخت بينها وبين نفسها: آه يا جنيفياف، كم أفتقدك! لكم أودُّ أن أحتضنك ولو لحظة واحدة!

مال ريتشارد نحوها ليرى الصورتَين. وربَّت على كتفها بلُطف. ثم علَّق بهدوء قائلًا: «تُشبه الأمير كثيرًا، ولكنَّني أظنُّ أنها تُشبه والدتها أكثر.»

أضاف كينجي قائلًا: «كانت جنيفياف لطيفةً للغاية، وهذا أدهشَني خاصة عندما نظرتُ إلى كمِّ مُعاناتها أثناء الجلبة الإعلامية التي ثارت عام ٢٢٣٨. أجابت أسئلتي بمُنتهى الصبر. كنتُ أنوي أن أجعلَها إحدى ركائز كتابي حتى أثناني مُحرِّرُ كتابي عن القيام بالمشروع.»

سأل ريتشارد محافظًا على استمرار الحوار، بينما ظلَّت نيكول تنظر إلى الصورتَين: «كم من روَّاد فضاء نيوتن لا يزالون على قيد الحياة؟»

أجاب كينجي: «فقط ساباتيني وتابوري وياماناكا. أصيب الدكتور ديفيد براون بجلطة خطيرة تُوفي بعدَها بستة أشهر في ظروفٍ غريبة بعض الشيء. أظنُّ أن هذا حدث عام ٢٢٠٨. ومات الأميرال هيلمان في حوالي عام ٢٢١٤ بعد إصابته بالسرطان. وعانت إيرينا ترجينيف من انهيارٍ عصبي حادٍّ بعد إصابتها بمُتلازمة «العودة إلى الأرض» التي ظهرت بين بعض روَّاد الفضاء في القرن الحادي والعشرين، وفي النهاية انتحرَت في عام ٢٢١١.»

كانت نيكول لا تزال تقاوم مشاعرها. قالت لآل واتانابي عندما عاد الصمت إلى الغرفة: «حتى ثلاثة أيام مضت، لم أكن قد أخبرتُ ريتشارد أو الأطفال أن هنري هو والد جنيفياف. وعندما كنتُ أعيش على الأرض لم يعرف الحقيقة سوى والدي. ربما يكون الشكُّ قد راود هنري ولكنه لم يتيقن. وعندما أخبرتْني عن جنيفياف، أدركتُ أنني يجب أن أُخبر أُسرتي. أنا ...»

تهدج صوت نيكول وظهر مزيد من الدموع في عينَيها. مسحت وجهها بمنديلٍ ناولته إيَّاها ناي وقالت: «آسفة، لم يحدُث لي هذا قط. كانت صدمةً لي أن أرى الصورتَين وأتذكَّر الكثير من الأشياء ...»

قال ريتشارد: «أثناء حياتنا في مركبة راما الثانية وفي النود، كانت نيكول مثال الثبات. كانت كالصخرة. فمهما يكن ما نُقابله ومهما تكن غرابة ما نواجِهه فإنها تظلُّ متحكمة في نفسها. كنتُ أنا والأطفال ومايكل أوتول نعتمِد عليها. كنَّا نادرًا جدًّا ما نراها ...»

صاحت نيكول بعد أن مسحت وجهها: «كفى.» ونحَّت الصورتَين جانبًا. وقالت: «دعونا ننتقل إلى موضوع آخر. لنتحدَّث عن رائدة الفضاء فرانشيسكا ساباتيني خاصة. هل حصلت على ما تريد؟ هل حققت شهرةً وغِنًى لا مَثيل لهما؟»

قال كينجي: «تقريبًا. لم أكن قد وُلِدت عندما كانت في ذروة مجدها في العقد الأول من القرن الماضي، لكنها لا تزال مشهورةً جدًّا حتى الآن. كانت أحد الذين استضافهم التليفزيون مؤخَّرًا بشأن أهمية إعادة استعمار المريخ.»

مالت نيكول إلى الأمام في كُرسيها. وقالت: «لم أُخبرك بهذا أثناء العشاء، ولكنني متأكدة من أن فرانشيسكا وبراون أعطَيا مخدرات لبورزوف مما تسبَّب في ظهور أعراض الزائدة الدودية عليه. كما أنها تعمَّدت تَركي في قاع تلك الحفرة في نيويورك. إنها امرأة بلا ضمير.»

ظلَّ كينجي صامتًا عدة ثوانٍ. ثم قال: «نعود إلى عام ٢٢٠٨، قبل موت د. براون مباشرة، أثناء مرضه، كان أحيانًا ما يمرُّ بأوقاتٍ يكون فيها عقله سليمًا. في إحدى هذه المرات أجرى حوارًا رائعًا مع مُراسل صحفي في إحدى المجلات، اعترف فيه بأنه مسئول جزئيًّا عن موت بورزوف، واتهم فرانشيسكا بالتسبُّب في اختفائك. قالت السنيورة إن القصة كلها «هراء وتهيؤات عقل مريض»، وقاضت المجلة مُطالبةً إيَّاها بمائة مليون مارك، ثم سوَّت القضية وديًّا. ففصلت المجلة المُراسِل واعتذرت لها رسميًّا.»

علقت نيكول قائلةً: «دائمًا ما تربح فرانشيسكا في النهاية.»

تابع كينجي قائلًا: «كدتُ أُحْيي هذه القضية منذ ثلاثِ سنواتٍ عندما كنتُ أقوم ببحث لكتابي. فقد كانت جميع البيانات الواردة من بعثة نيوتن قد أصبحت ملكيةً عامة متاحةً لكل مَن يَطلبها؛ لأنه كان قد مرَّ عليها أكثر من خمسةٍ وعشرين عامًا. وبهذا وجدت محتويات الكمبيوتر الشخصي الخاص بك مبعثرة بين المعلومات التي نُقِلت إلينا من الفضاء، وفيها مكعب بيانات لا بدَّ أنه يخصُّ هنري. كنتُ قد اقتنعت بأن الحوار الذي دار مع د. براون به بالفعل شيءٌ من الحقيقة.»

«وماذا حدث بعد هذا؟»

«ذهبتُ لأُجري حوارًا مع فرانشيسكا في قصرها في سورينتو. وبعدها مباشرة توقفتُ عن العمل في الكتاب ...»

تردَّد كينجي لحظة، وتساءل في نفسه: هل أُفصح عن المزيد؟ نظر إلى زوجته المُحبة وقال لنفسه: لا، لا الوقت مُناسب ولا المكان.

«آسفة يا ريتشارد.»

كان ريتشارد قد أوشك على أن يغطَّ في النوم عندما سمع صوت زوجته الرقيق في غرفة النوم يقول ذلك.

قال: «هه؟ هل قلتِ شيئًا يا حبيبتي؟»

كررت نيكول ما قالته: «آسفة.» تدحرجت لتصِل إلى جواره وتحسَّست الطريق إلى يدَيه بيدَيها تحت الغطاء. قالت: «كان ينبغي أن أُخبرك بشأن هنري منذ سنوات ... أما زلت غاضبًا؟»

قال ريتشارد: «لم أغضب أبدًا. ربما اندهشت، بل ذُهلت. لكنني لم أغضب. كان لديك أسبابك عندما أخفيتِ الأمر.» ضغط على يدِها. وقال: «كما أن هذا كان على الأرض، في حياةٍ أخرى. لو كنتِ أخبرتني عندما تقابَلْنا أول مرة، ربما كان الأمر قد شغلَني. فلربما أثار غيرتي، ويقينًا كان سيُثير فيَّ الشعور بأنني غير أهل لك. أما الآن، فلا.»

مالت عليه نيكول وقبَّلته. ثم قالت: «أُحبك يا ريتشارد ويكفيلد.»

أجاب: «أنا أيضًا أحبك.»

تطارَح كينجي وناي الغرام لأول مرة منذ أن غادرا بينتا، ونامت هي على الفور. كان كينجي لا يزال يقظًا على غير المُتوقَّع. ورقد في الفراش مُستيقظًا يفكر في الليلة التي قضياها مع أسرة ويكفيلد. لسببٍ ما جاءت صورة فرانشيسكا ساباتيني إلى عقله. قال لنفسه: «إنها أجمل من بلغ السبعين من النساء. ويا لها من حياةٍ رائعة تلك التي عاشتها!»

تذكَّر كينجي بوضوح عصر ذلك اليوم الصيفي الذي دخل فيه قطارُه المحطة في سورينتو. عرف سائق السيارة الكهربائية العنوان على الفور. وقال له بالإيطالية: «فهمت، تُريد قصر ساباتيني.»

تسكن فرانشيسكا في بيتٍ يُطل على خليج نابولي. وهو فندق مُكون من عشرين غرفة، كان من أملاك أميرٍ من أمراء القرن السابع عشر. كان بوسع كينجي أن يرى، من الغرفة التي ينتظر فيها ظهور السنيورة، العربات المُعلقة التي تنقل السبَّاحين وهي تنطلِق نازلةً جرفًا شديدَ الانحدار لتصِل بهم إلى الخليج ذي المياه الزرقاء في الأسفل.

تأخَّرت السنيورة نصف ساعة وتعجلت إنهاء الحوار. أخبرت فرانشيسكا كينجي مرتَين بأنها وافقت على أن تتحدَّث معه فقط لأن ناشِرها أخبرها أنه «كاتب شاب مُميز». قالت بإنجليزية رائعة: «بصراحة، في هذه المرحلة، أجِد أيَّ نقاشٍ حول نيوتن مُملًّا للغاية.»

غير أن اهتمامها بالحوار اشتعل عندما أخبرَها كينجي بـ «البيانات الجديدة» وملفات كمبيوتر نيكول الشخصي التي نُقِلت إلى الأرض في الأسابيع القليلة الأخيرة للبعثة «بطريقة

الإرسال البطيء»، وبينما كان كينجي يُقارن ما كتبتْه نيكول باعترافات د. ديفيد براون لمُراسل المجلة عام ٢٢٠٨، هدأت فرانشيسكا، بل استغرقت في التفكير.

عندما سألها كينجي عما إذا كانت تظنُّ أنَّ تَوافُقَ الكثير من النقاط التي جاءت في اعتراف ديفيد براون مع مذكرات نيكول «مصادفة لافتة للانتباه»، أجابت وهي تبتسِم قائلةً: «لقد بخستُك قدرك.» لم تُجب على أسئلتِه مباشرةً قط. وإنما وقفت في الغرفة وأصرَّت أن يبقى هو للمساء وأخبرَتْه أنها ستتحدَّث معه في وقتٍ لاحق.

قُرب الغسق، تلقَّى كينجي وهو في حجرته في قصر فرانشيسكا رسالةً فحواها أن العشاء سيكون في الساعة الثامنة والنصف، وأن عليه أن يرتدي مِعطفًا ورابطة عُنق. وفي الوقت المُحدَّد، وصل آليٌّ إلى حجرته وقاده إلى غرفة طعام رائعة، كانت اللوحات الجدارية واللوحات المرسومة على القماش تُغطي الجدران، والثريَّات المُتلالئة تتدلَّى من السقف، والنقوش الرائعة تُزين حُلَى السقف. أُعِدت المائدة لعشرة أشخاص. كانت فرانشيسكا واقفة قُرب نادلٍ آليٍّ صغير في أحد جوانب الغرفة الضخمة.

قالت فرانشيسكا باليابانية وهي تُقدم لواتانابي كأسًا من الشمبانيا: «تفضل يا سيد واتانابي.» ثم أضافت: «إنني أُجدِّد غُرَف الجلوس الرئيسية لذا سنُضطر للأسف إلى تناول الشراب هنا. أعلم أن هذا غير لائق، كما يقول الفرنسيون، لكنه الحلُّ الأنسب.»

بدت فرانشيسكا رائعة. وكان شعرها الذهبي قد بدت فيه خصلات رمادية. وكان مرفوعًا فوق رأسها يُثبِّته مِشبك شعرٍ كبيرٌ مزدان . وكانت تزين رقبتها قلادةٌ ماسية صغيرة ضيقة، أسفل منها عقد ماسي رقيق تتدلى منه ياقوتة زرقاء كبيرة. وكانت ترتدي فستانًا أبيض بدون حمالات، به طيَّات تُظهر جمال مُنحنيات جسدِها الذي لا يزال ينبض شبابًا. حتى إن كينجي لم يستطع أن يُصدق أنها في السبعين من عمرها.

أمسكت بيده بعد أن أفصحت له عن أنها ستعقد حفلَ عشاءٍ على شرفِه، وقادته إلى اللوحات القماشية (الأوبيسون) المُعلقة على حائطٍ بعيد، سألته: «أتعرف شيئًا عن مدينة أوبيسون؟» وحين أجاب بالنفي انطلقت تحكي تاريخ هذا الفن في أوروبا.

بعد نصف ساعةٍ جلست فرانشيسكا على مقعدها في رأس المائدة. وجلس الجميع على مقاعدهم: أستاذ الموسيقى القادم من نابولي وزوجته (يقولون إنها مُمثلة)، ولاعبا كرة قدم وسيمان داكنا البشرة، والمسئول عن مدينة بومبي الأثرية (والذي كان في بداية الخمسينات من عمره)، وشاعرة إيطالية في منتصف العمر، وشابتان في العشرينيات، جذَّابتان للغاية. بعد مشاورة فرانشيسكا جلست إحدى الشابتَين أمام كينجي وجلست الأخرى بجواره.

كان المقعد المقابل لمقعد فرانشيسكا على طرف المائدة الآخر البعيد شاغرًا. لكن فرانشيسكا همست ببعض كلماتٍ في أذنِ كبير الخدَم، وبعدها بخمس دقائق قاد إلى الغرفة عجوزًا أعرج ضعيف البصر. عرفه كينجي على الفور، إنه جانو تابوري.

كان العشاء رائعًا والحوار شيقًا. لم يُقدِّم الآليون الطعام وإنما قدَّمَه الخدم مثلما يحدث في أكثر المطاعم رقيًّا، وعززوا روعة كلِّ طبقٍ من الأطباق بتقديم نوع مختلفٍ من الخمر الإيطالي معه. ويا لها من مجموعة مُميزة! جميعهم يُجيدون الإنجليزية، وفي ذلك لاعبا كرة القدم. كما أن جميعهم كانوا مُهتمِّين بتاريخ الفضاء ومُتبحِّرين فيه. بل إن الشابة التي تجلس أمامه قرأت أشهر كتبِه عن الاستكشافات الأولى للمريخ. كان مرور الوقت يفتُّ من تحفُّظ كينجي، ذلك الأعزب الذي يبلغ الثلاثين. كان كل شيء يثيره بدءًا بالنساء والخمر ومرورًا بالحديث حول التاريخ والشِّعر والموسيقى.

طوال الساعتَين اللتَين قضوهما حول المائدة، لم يُذكَر أمر اللقاء الذي أجراه كينجي مع السنيورة عصر ذلك اليوم سوى مرة واحدة. ففي إحدى فترات الصمت التي سادت بعد تناول الحلوى وقبل شُرب الكونياك قالت فرانشيسكا لجانو بصوتٍ مرتفع: «هذا الشاب الياباني، الذكي بشدة، يظنُّ أنه وجد في كمبيوتر نيكول الشخصي دليلًا يُؤيد الأكاذيب المُريعة التي قالها ديفيد قبل أن يموت.»

لم يَرُد جانو. ولم تتغير تعبيرات وجهه. لكن بعد العشاء ناول كينجي رسالةً واختفى، كُتب فيها: «في رواية «الأبله» التي كتبها فيودور دوستويفسكي قالت أجلايا يبانشين للأمير ميشكين: «أنت لا تنظر إلا إلى الحقيقة، تنظر إليها بلا رأفة، ولذا تحكُم ظلمًا.»»

لم يُمضِ كينجي أكثر من خمس أو عشر دقائق في غرفته حتى سمع طرقًا على الباب. وعندما فتحه رأى الشابَّة الإيطالية التي كانت جالسةً أمامه أثناء العشاء. كانت مُرتدية رداءَ سباحةٍ من قطعتَين يكشف جمال جسدها. وكانت أيضًا تحمِل رداء سباحة رجاليًّا في يدِها.

قالت بابتسامة ساحرة: «أرجوك أن تأتي لتسبح معنا يا سيد واتانابي. نظن أنَّ هذا الرداء سيُناسبك.»

على الفور، شعر كينجي بإثارة شديدة لم يفلح مرور الدقائق في أن يُهدئها. وبعد أن بدَّل ملابسه، ظلَّ منتظرًا دقيقة أو دقيقتَين قبل أن يلحق بالمرأة، بسبب شعوره بالإحراج.

رغم مرور ثلاث سنوات، ورغم أن كينجي يرقُد في سريره بجوار المرأة التي يُحبها، كان صعبًا عليه ألَّا يحنَّ إلى الليلة التي قضاها في قصر فرانشيسكا. لقد استقلَّ ستة منهم

العربات المُعلقة متوجِّهين إلى الخليج، وسبحوا في ضوء القمر. وفي الكوخ المُطل على الماء، شربوا الخمر ورقصوا وضحكوا. باختصار، كانت ليلةً كالحلم.

قال كينجي في نفسه مُتذكرًا: في غضون ساعة، كنَّا جميعًا عرايا. وصارت الخطة واضحة. لاعبا كرة القدم من نصيب فرانشيسكا. والفاتنتان الجميلتان من نصيبي.

تقلَّب كينجي في سريره مُتذكرًا قوةَ المتعة التي شعر بها والضحكةَ التي أطلقتها فرانشيسكا عندما وجدَتْه بين الشابتَين على «شيزلونج» ضخم عند الفجر بجوار الخليج.

قال في نفسه: عندما وصلتُ إلى نيويورك بعد أربعة أيامٍ قال لي المُحرر إنه يرى أنه من الأفضل أن أنسى أمر مشروع نيوتن. ولم أُجادله. بل إنني كنتُ سأقترح هذا بنفسي.

١١

انبهرت إيلي وهي تتأمَّل الأشكالَ المصنوعةَ من الخزف الصيني. فالتقطت أحدها وكان على شكل فتاةٍ صغيرة ترتدي فستان باليه لونُه أزرق فاتح، وقلَّبَتْه بين يدَيها. ثم قالت لأخيها: «انظر إلى هذا يا بينجي. هناك من صنع هذا، صنعه بمُفرده.»

قال صاحب المتجر الإسباني: «تلك في الواقع مجرد نُسخة مُقلدة، لكن النسخة الأصلية التي أنتجتها نسخة الكمبيوتر صنعها فنانٌ بشري. إن عملية تقليد الشكل الأصلي أصبحت دقيقة، حتى إن الخبراء أنفسهم يعجزون عن التفرِقة بين الأصل والتقليد.»

قالت إيلي وهي تُشير بيدها إلى الأشكال التي يبلغ عددها نحو المائة والتي تصطفُّ على المنضدة وتلك الموضوعة في صناديق زجاجية صغيرة: «وأنت جمعتَ كل هذه على الأرض؟»

قال السيد موريللو بفخر: «نعم. لقد كنتُ موظفًا مَدنيًّا في إشبيلية — أصدر تصاريح البناء وما شابه — لكنني كنت أملك أنا وزوجتي محلًّا صغيرًا. وأحببنا فنَّ الخزَف الصيني منذ نحو عشر سنوات، ومن وقتها صِرنا من أشدِّ هواة جمع الأشكال المصنوعة من الخزف الصيني.»

خرجت زوجة السيد موريللو، وهي في أواخر الأربعين أيضًا، من غرفةٍ خلفية حيث كانت لا تزال تُفرغ البضائع من صناديقها.

قالت: «قبل أن نعرف بكثيرٍ أن وكالة الفضاء العالمية اختارتنا لنكون مُستعمِرين، قرَّرنا أن نُحضر معنا المجموعة كلها بصرف النظر عن قيود الوزن المسموح به للأمتعة على متن رحلة نينيا.»

كان بينجي يُمسك بالفتاة الراقصة على بُعد سنتيمترات قليلة من وجهه. قال بابتسامة عريضة: «جـ...ـميـ...ـلة.»

قال السيد موريللو: «شكرًا. كنا نأمُل أن نُنشئ جمعية تضمُّ هواة جمع التحف في مستعمرة لوويل. لقد أحضر ثلاثة أو أربعة آخَرون من رُكاب نينيا عدة قطع أيضًا.»

سألت إيلي: «أتسمَح لنا أن نُشاهدها؟ سنكون حريصين جدًّا.»

قالت الزوجة: «تفضَّلا. ففي النهاية، عندما تستقرُّ الأمور، سنبيع أو نُقايض بعضًا منها، من النُّسَخ المقلدة بالتأكيد. أما في الوقت الراهن فهي للعرض فقط.»

بينما كانت إيلي وبينجي يتأمَّلان القِطَع الخزفية، دخل عدة أشخاص آخَرين إلى المحل. بدأ آل موريللو نشاطهما التجاري منذ بضعة أيام. وكانا يبيعان الشموع وفوط المائدة وغيرها من أدوات الزينة المنزلية البسيطة.

قال أمريكي قوي البنية للسيد موريللو بعد عدة دقائق: «إنك لم تُضيِّع أيَّ وقتٍ بالتأكيد يا كارلوس.» كان من الواضح من التحية التي ألقاها في البداية أنهما كانا معًا على متن نينيا.

قال السيد موريللو: «كان هذا سهلًا علينا يا ترافيس. فليست لدَينا أسرة ولا نحتاج إلا إلى مكانٍ صغير نعيش فيه.»

قال ترافيس بلهجةٍ شاكية: «إننا لم نستقر في منزلٍ بعد. بالتأكيد سنعيش في هذه المدينة ولكن شيلسيا والأطفال لا يمكن أن يتَّفقوا على منزل. إن الأمر كله لا يزال يُرعب شيلسيا. فهي لا تُصدِّق أن وكالة الفضاء العالمية تُخبرنا بالحقيقة حتى الآن.»

«أُقِرُّ أنه من العسير جدًّا أن نُصدق أن محطة الفضاء هذه بناها فضائيون ليتمكنوا من مُراقبتنا وحسب ... وبالتأكيد كنَّا سنُصدق قصة وكالة الفضاء العالمية لو كانت هناك صور للمكان المُسمَّى بالنود. ولكن لماذا يكذبون علينا؟»

«لقد كذبوا من قبل. فلم يذكُر لنا أي شخصٍ أمر هذا المكان إلا قبل المقابلة بيوم ... شيلسيا تعتقد أننا جزءٌ من تجربة استعمار فضائية تقوم بها وكالة الفضاء العالمية. تقول إننا سنبقى هنا لبعض الوقتِ ثم ننتقِل إلى سطح المريخ حتى تتمكن الوكالة من المقارنة بين نوع المُستعمَرتَين.»

ضحك السيد موريللو. وقال: «أرى أن شيلسيا لم تتغير بعدَ أنْ غادرنا نينيا.» ثم أصبح أكثر جدية. وقال: «أتعرف، الشكوك تنتابني أنا وخوانيتا أيضًا، خاصةً بعد أن مرَّ أسبوع ولم نرَ أي أثرٍ للفضائيين. فأمضَينا يومَين كاملَين في التجوُّل والتحدُّث مع الآخرين،

وتحرَّينا عن الأمر شخصيًّا. وفي النهاية توصَّلنا إلى أنه لا مناصَ من أن تكون قصة وكالة الفضاء العالمية حقيقية. فأوَّلًا: إنَّ الأمر كله مُذهل إلى درجةٍ تجعله أكبر من مجرد كذبة. ثانيًا: تلك السيدة التي تُدعَى ويكفيلد مُقنِعة للغاية. فقد ظلَّت تُجيب عن الأسئلة نحو ساعتَين في الاجتماع المفتوح، ولم أجد أنا أو خوانيتا أيَّ تضاربٍ في إجاباتها.»

قال ترافيس وهو يهزُّ رأسه: «يصعُب عليَّ أن أتخيَّل أن هناك من نام مدة اثني عشر عامًا.»

«بالطبع. لقد كان صعبًا علينا أيضًا. ولكننا عاينَّا المكان الذي يُقال إن أسرة ويكفيلد نامت فيه. ووجدنا أنَّ كلَّ شيء يُطابق ما وصفته نيكول في الاجتماع. كما أن المبنى بأكمله ضخم. وبه مضاجع وغُرَف تكفي كلَّ من في المستعمرة عند الضرورة ... بالتأكيد ليس من المعقول أن تكون وكالة الفضاء العالمية قد بنت هذه المنشأة الضخمة لتؤيِّد كذبتَها.»

«ربما تكون مُحقًّا.»

«على أيِّ حال، لقد قرَّرْنا استغلالَ الموقف الاستغلالَ الأمثل. على الأقل في الوقت الحالي. وبالتأكيد لا يُمكننا أن نشكوَ من أحوال مَعيشتنا. فالمنازل على أعلى مستوًى. وأنا وخوانيتا لدَينا لينكولن آليٌّ خاصٌّ بنا يُساعدنا في البيت والمتجر.»

كانت إيلي تتابع النِّقاش عن كثَب. تذكَّرَت ما قالَتْه لها أُمُّها الليلة الماضية عندما طلبت منها أن تأذن لها أن تخرج للتمشية مع بينجي في المدينة. قالت نيكول: «حسنًا يا حبيبتي، ولكن إذا أدرك أيُّ شخصٍ أنك من أسرة ويكفيلد وبدأ في استجوابك، لا تُجيبيه. تصرفي بلباقة وعودي إلى البيت بأقصى سرعةٍ مُمكنة. فالسيد ماكميلان لا يُريدنا بعدُ أن نتحدَّث عن تجربتنا مع أي شخصٍ من غير العامِلين في وكالة الفضاء العالمية.»

بينما كانت إيلي تتأمَّل الأشكال المصنوعة من الخزَف وتُصغي إلى الحوار الدائر بين السيد موريللو والرجل المدعو ترافيس، تجوَّل بينجي بعيدًا بمُفرده، وعندما أدركت إيلي أنه ليس بجوارها بدأ الذُّعر ينتابها.

سمعت إيلي صوتًا ذكوريًّا خشنًا من الجانب الآخر من المحل يقول: «فيم تُحدِّق يا فتى؟»

أجاب بينجي: «شعرها جـ... جميل جـ... جدًّا.» كان بينجي يسدُّ الممرَّ مانعًا الرجل وزوجته من التقدُّم. ابتسم ومدَّ يدَه إلى شَعر المرأة الأشقر الطويل الرائع. وسأل: «أيُمكنني أن ألمسه؟»

«أُجننت؟ بالطبع لا. اغرب عن وجهي الآن ...»

قالت المرأة بهدوء: «أظن أنه مُتأخِّر عقليًّا يا جيسون»، وأمسكت بذراع زوجها قبل أن يدفع بينجي.

في هذه اللحظة اتجهت إيلي إلى أخيها. كانت تُدرك أن الرجل غاضب ولكنها لم تعرِف كيف تتصرَّف. فوكزت كتف بينجي برفقٍ لتلفتَ انتباهه. قال مُتلعثمًا من فرط حماسه: «انظري يا إيلي، انظري إلى شعرها الأصفر الجـــ...ــجميل.»

سأل الرجل الطويل إيلي: «هل هذا الأبله صديقك؟»

أجابت إيلي بصعوبة: «بينجي أخي.»

«حسنًا، أخرِجيه من هنا. إنه يُزعج زوجتي.»

قالت إيلي بعد أن استجمعت شجاعتها: «يا سيدي، أخي لم يقصد الإساءة. كلُّ ما في الأمر أنه لم يَرَ شعرًا أشقر عن قُربٍ من قبل.»

ظهرت أمارات الغضب والحيرة على وجه الرجل. وقال: «ماذا؟» نظر إلى زوجته. ثم قال: «ما خطبهما؟ أحدُهما غبيٌّ والأخرى ...»

قاطعَه صوت أنثوي جميل جاء من خلف إيلي: «ألستُما من أبناء أسرة ويكفيلد؟»

استدارت إيلي في اضطراب. وسارت السيدة موريللو حتى وقفت بين المراهِقَين والزوجَين. فقد اتجهت هي وزوجها إلى ذلك الجانب من المحل عندما سمعا الأصوات المرتفعة. قالت إيلي بهدوء: «بلى يا سيدتي. نحن ولداهما.»

سأل الرجل المدعو جيسون: «تقصدين أن هذين من الأطفال القادِمين من الفضاء الخارجي؟»

نجحت إيلي في سحب بينجي بسرعةٍ إلى باب المحل. وقالت قبل أن يُغادرا: «آسِفان جدًّا. لم نقصد التسبُّب في أي متاعب.»

وبينما الباب يُغلَق خلفهما سمعت إيلي صوتًا يقول: «كم هما غريبان!»

كان هذا يومًا مُرهقًا آخَر. كانت نيكول متعبة للغاية. وقفت أمام المرآة وانتهت من غسل وجهها. قال ريتشارد وهو في غرفة النوم: «إيلي وبينجي مرَّا بتجربةٍ مزعجة في المدينة اليوم. ورفضا أن يُطلِعاني على تفاصيلها.»

أمضت نيكول ثلاث عشرة ساعة طويلة اليوم في تأهيل ركاب نينيا. ومهما تفانت هي وكينجي واتانابي والآخرون في العمل، لم يكن ذلك المجهود ليُرضي أحدًا، ودائمًا ما يظهر المزيد من المهام التي ينبغي إنجازها. وعندما حاولت نيكول أن تشرح للمُستعمِرين الجُدد

الإجراءات التي وضعتها وكالة الفضاء العالمية لتقسيم الغذاء والأحياء السكنية ومناطق العمل، تعامل معها الكثير منهم بوقاحةٍ شديدة.

كانت نيكول قد أمضت أيامًا عديدة دون أن تنال قسطًا كافيًا من النوم. نظرت إلى الانتفاخات البادية أسفل عينَيها. وقالت لنفسها: «ولكننا يجب أن نُنهي عملنا مع هذه المجموعة قبل أن تصل سانتا ماريا. إذ سيكون التعامُل مع ركابها أصعب بكثير.»

مسحت نيكول وجهها بمنشفةٍ واتجهت إلى غرفة النوم حيث يجلس ريتشارد على السرير مرتديًا رداء نومه. سألته: «كيف كان يومك؟»

«ليس سيئًا ... بل مُثير إلى حدٍّ كبير في الواقع. بدأت العلاقة بين المهندسين البشر والأينشتاين الآليين تتوطَّد ببطءٍ ولكن بخُطى واثقة.» صمت. ثم قال: «أسمعتِ ما قلتُه بشأن إيلي وبينجي؟»

تنهَّدت نيكول. فقد أفهمتْها نبرة ريتشارد مغزى سؤ الألم على وجه الطفل لحظاله. ورغم تعبها، خرجت من غرفة النوم وتوجَّهت إلى الردهة.

كانت إيلي نائمةً أما بينجي فكان لا يزال مُستيقظًا في غرفته هو وباتريك. جلست نيكول بجوار بينجي وأمسكت بيده. فقال: «مـ... مرحبًا يا أمـ...مي.»

قالت نيكول لابنها الأكبر: «قال لي العم ريتشارد إنك ذهبت مع إيلي إلى المدينة عصر اليوم.»

ارتسم الألم على وجه الطفل لحظاتٍ ثم اختفى. ثم قال: «نعم يا أمـ...ـمي.»

قال باتريك من الجانب الآخر من الغرفة: «أخبرتني إيلي أن الناس عرفوا هويتهما، وأن أحد المُستعمِرين الجُدد سبَّهما.»

سألت نيكول بينجي وهي لا تزال تُمسك بيدَيه وتُربِّت عليهما: «أهذا صحيح يا حبيبي؟»

أومأ برأسه مؤكدًا صحة كلام أخيه، لكن الإيماءة كانت ضعيفة حتى إن نيكول لم تكد تراها ثم حدَّق في أمِّه صامتًا. سألها فجأة والدموع تملأ عينيه: «ما معنى أبله يا أمي؟»

لفَّت نيكول ذراعَيها حول بينجي. وقالت برقة: «أهُناك من ناداك بالأبله اليوم؟»

أومأ بينجي برأسه. فأجابته نيكول: «هذه الكلمة ليس لها معنى مُحدد. فيُمكننا أن نقولها على أي شخصٍ مختلف عنَّا أو أي شخصٍ نعترض عليه.» ربَّتت على بينجي مرةً أخرى. وقالت: «الناس يستخدمون مثل هذه الكلمات دون قصد. لعلَّ الشخص الذي ناداك

بالأبله كان مُرتبكًا أو غاضبًا من شيءٍ ما في حياته وصبَّ غضبه عليك لمجرد أنه لم يفهمك ... أفعلتَ ما ضايقَه؟»

«لا يا أمي. فقط أخبرتُه أن شعر المرأة الأصفر يُعجبني.»

استغرق الأمر عدة دقائق حتى فهِمَتْ جوهر ما حدث في محلِّ الخزف الصيني. عندما اطمأنَّتْ على بينجي اتَّجهت إلى الجانب الآخر من الغرفة لتطبع على جبين باتريك قبلةً قبل النوم. وقالت: «وماذا عنك؟ أكان يومك جيدًا؟»

قال باتريك: «تقريبًا. واجهتُ كارثةً واحدة فقط، في الحديقة.» وحاول أن يبتسِم. وأضاف: «كان بعض الصبية الجُدد يلعبون كرة السلة، ودعَوني للعب معهم ... كان أدائي فظيعًا. فضحك اثنان منهم عليَّ.»

عانقت نيكول باتريك عناقًا طويلًا حنونًا. وقالت لنفسها عندما خرجت إلى الردهة وهي عائدة إلى غرفة النوم: باتريك قوي. ولكنه يحتاج إلى دعم. أخذت نفسًا عميقًا وطرحت على نفسها السؤال الذي لم تكُفَّ عن طرحه منذُ أن وقعت على عاتقها كل الأمور المتعلقة بالتخطيط للمُستعمرة: هل ما أفعله هو الصواب؟ أشعر بأنني مسئولة عن كل شيءٍ هنا. أريد عدن الجديدة أن تبدأ بداية صحيحة ... ولكن يجب أن أمنح أبنائي مزيدًا من الوقت ... هل سأتمكن من تحقيق التوازن المناسب؟

كان ريتشارد لا يزال مُستيقظًا عندما اندسَّت نيكول بجواره. أخبرت زوجها بقصة بينجي. فقال: «آسِف لأنني لم أستطع المساعدة. فهناك بعض الأمور التي لا يستطيع أحد غير الأمهات ...»

كانت نيكول مُتعبة جدًّا حتى إنها نامت قبل أن يتم ريتشارد عبارته. فلمس ذراعها بقوة. وقال: «نيكول، هناك أمر آخَر أريد أن أتحدَّث معك بشأنه. وللأسف لا يمكن تأجيله، فقد لا نحظى بوقتٍ نتحدَّث فيه بمُفردنا في الصباح.»

استدارت نحوَه وهي تنظر إليه نظرةً متسائلة. قال: «الأمر يتعلق بكيتي. أحتاج لمساعدتك فعلًا ... هناك حفل راقص جديد يُقام مساء الغد يهدف إلى أن يتعرف الشباب بعضهم على بعض؛ لو تذكرين، أخبرنا كيتي الأسبوع الماضي أنه يُمكنها الذهاب بشرط أن يصحبها باتريك وأن يعودا إلى البيت في وقتٍ مقبول. حسنًا، الليلة حدث أن رأيتها واقفة أمام مرآتها وهي ترتدي فستانًا جديدًا. كان قصيرًا وكاشفًا للغاية. وعندما سألتُها عنه، وأخبرتُها أنه لا يبدو مناسبًا لحفلٍ راقص غير رسمي، استشاطت غضبًا. وظلَّت تُكرر أنني كنت «أتجسَّس عليها»، وقالت لي إنني «لا أفقه شيئًا» في الموضة.»

«وبِمَ أجبتَها؟»

«وبَّختُها. فأخذت ترمقني ببرودٍ دون أن تتكلم. وبعد عدة دقائق غادرت المنزل دون أن تنبس ببنت شفة. تناولنا العشاء بدونها ... لم تعُد إلى البيت إلا قبل عودتك بثلاثين دقيقة أو نحو ذلك. وكانت رائحتها تبغًا وجعة. وعندما حاولتُ أن أتحدث معها قالت لي: «لا تُزعجني»، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بعنف.»

قالت نيكول بينها وبين نفسها وهي راقدة في صمتٍ بجوار ريتشارد: كنت خائفة من هذا. ظهرت علامات هذا السلوك عليها منذ أن كانت طفلةً صغيرة. كيتي ذكية للغاية ولكنها أيضًا أنانية ومتهورة.

عندما انتبهت، كان ريتشارد يقول: «كنت سأخبر كيتي أنني لن أسمح لها بالذهاب إلى الحفل الراقص غدًا، ولكنني أدركتُ أنها راشدة تمامًا. كما أن بطاقتها التي أصدرها مكتب الإدارة تقر بأنها في الرابعة والعشرين. وعلى هذا لا يُمكننا أن نُعاملها على أنها طفلة.»

بينما بدأ ريتشارد في سرد الصعوبات التي واجهوها مع كيتي منذ دخول البشر الآخَرين إلى راما أحسَّت نيكول بالضيق وقالت لنفسها: لكن نُضجها العاطفي قد لا يزيد عن نُضج مَن في الرابعة عشرة. فلا شيء يُهمها سوى المغامرة والإثارة.

تذكَّرَت نيكول اليوم الذي قضتْه مع كيتي في المستشفى. كان هذا قبل أسبوع من وصول المُستعمرين الذين أتوا على متن نينيا. فقد شعرت كيتي بالانبهار حين شاهدت المعدات الطبية المتطورة، وبدا عليها الاهتمام الشديد بكيفية عملها، ولكن عندما اقترحت نيكول عليها أن تعمل في المستشفى حتى تبدأ الجامعة، ضحكت ابنتها. وقالت: «أتمزحين؟ لا يمكن أن يكون هناك ما قد يُصيبني بالملل أكثر من هذا. وخاصة عندما يكون أمامنا فرصة التعرُّف على المئات من الأشخاص.»

قالت نيكول لنفسها وهي تتنهَّد: ليس بيدي أنا أو ريتشارد أن نفعل الكثير. إننا نتألم لحالها ونمنحها حُبنا ولكنها قرَّرت تجاهُل معرفتنا وخبراتنا.

ساد الصمت غرفة النوم. فمالت على ريتشارد وقبَّلته ثم قالت: «سأتحدَّث مع كيتي غدًا بشأن الفستان، ولكنني أشكُّ في أن هذا سيُجدي نفعًا.»

كان باتريك جالسًا وحده على كرسي من الكراسي القابلة للطي مُستندًا إلى الحائط في غرفة التمارين الرياضية المُلحقة بالمدرسة. ارتشف رشفةً من الصودا ثم نظر في ساعته في

الوقت الذي توقَّفت فيه المُوسيقى الهادئة وبَطَّأ اثنا عشر زوجًا من الراقصين حركاتهم على الساحة الواسعة تمهيدًا للتوقُّف. تبادلَت كيتي وأولاف لارسن — وهو شاب سويدي طويل ابن أحد أفراد طاقم القائد ماكميلان — قبلةً سريعة ثم سارا مُتأبِّطَين باتجاه باتريك.

عندما وصلا إلى باتريك قالت له كيتي: «أنا وأولاف سنخرج لنُدخِّن سيجارًا ونشرب كأسًا آخَر من الويسكي. لماذا لا تأتي معنا؟»

أجاب باتريك: «لقد تأخَّرنا يا كيتي. لقد قُلنا إننا سنعود إلى البيت بحلول الساعة الثانية عشرة والنصف.»

ربَّت الفتى السويدي على ظهر باتريك على سبيل المُلاطفة. وقال له: «ما بك يا فتى؟ كفَّ عن التصرُّف بهذه الصرامة. أنا وأُختك نستمتع بوقتنا.»

كان أولاف ثمِلًا. وكان وجهه الأبيض متوردًا بفعل الشرب والرقص. وأشار إلى الجانب الآخر من الغرفة. وقال: «أترى هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر والجسد المُثير التي ترتدي فستانًا أبيض؟ اسمها بيث وهي رائعة. لقد ظلَّت تنتظر طوال الليل أن تطلُب الرقص معها. أتُحب أن تتعارفا؟»

هزَّ باتريك رأسه بالنفي. وقال: «اسمعي يا كيتي. أريد أن أرحل؟ لقد جلست هنا في صبر ...»

قاطعَتْه كيتي: «نصف ساعة فقط يا أخي الأصغر. سأخرج قليلًا ثم أعود لنرقص رقصتَين. وبعدها نرحل. اتفقنا؟»

طبعَتْ قبلةً على وجنته واتَّجهت نحو الباب مع أولاف. بدأت موسيقى رقصة سريعة تصدُر من النظام الصوتي للقاعة. وأخذ باتريك يُراقب المنظر مُنبهرًا، والراقصون الشباب يتحركون حركاتٍ متناغمة مع إيقاعات الموسيقى الصاخبة.

سأله شاب كان يسير عند حافة ساحة الرقص: «ألا تجيد الرقص؟»

أجاب باتريك: «نعم. لم أحاول قط.»

تطلَّع الشاب إلى باتريك بنظرةٍ غريبة. ثم توقَّف وابتسم. وقال: «بالطبع أنت أحد أفراد أسرة ويكفيلد ... مرحبًا، اسمي بريان والش. أنا من ولاية ويسكنسن في وسط الولايات المتحدة. من المزمع أن يكون والداي هما المسئولان عن تنظيم شئون الجامعة.»

منذ أن وصل باتريك إلى الحفل الراقص قبل ساعات لم يتبادل حديثًا مع أحدٍ سوى كيتي. فصافح بريان والش بسرور، ودار بينهما حديث ودِّي عدة دقائق. كان بريان في العشرين من عمره وهو الابن الوحيد لوالدَيه، وكان على وشك نيل الدرجة الجامعية في

هندسة الكمبيوتر عندما اختيرت أُسرته للذهاب إلى مستعمرة لوويل. وقد أبدى اهتمامًا كبيرًا بتجارب رفيقه.

قال لباتريك بعد أن شعر كلٌّ منهما بالألفة تجاه الآخر: «أخبرني، هل هذا المكان المُسمَّى النود موجود فعلًا؟ أم أنه جزء من قصة سخيفة من وحي خيال وكالة الفضاء العالمية؟»

قال باتريك، وقد نسي أنه من المُفترَض ألا يُناقش مثل هذه الأمور: «كلَّا. النود موجود بالفعل. يقول والدي إنه مركز تصنيع بنَتْه كائنات من خارج كوكب الأرض.»

انفجر بريان ضاحكًا. وقال: «إذن في مكانٍ ما قُرب الشعرى اليمانية يوجد مثلث عملاق بناه نوع خارق مجهول؟ ومن المفترض أنه يساعدهم في دراسة المخلوقات الأخرى التي تجوب الفضاء؟ يا للعجب! هذه أغرب حكاية سمعتها. في الواقع، أغلب ما أخبرتنا به والدتك في الاجتماع المفتوح لا يُصدَّق. ومع هذا أُقر أن وجود هذه المحطة الفضائية والمستوى التكنولوجي الذي يتَّسِم به الآليون يُضفي مصداقيةً على قصتها.»

قال باتريك: «كل ما قالته أمي صحيح. وقد تعمَّدَت حجب مجموعة من أغرب القصص. على سبيل المثال تحدَّثَت أمي مع كائنات تُشبه الثعابين البحرية تتحدث من خلال فقاعات. كما أن ...» تذكر باتريك تحذيرات نيكول فكبح جماح نفسه.

انبهر بريان. وقال: «ثعابين بحرية؟ كيف عرفَتْ ما كان يقول؟»

نظر باتريك في ساعته. وقال فجأة: «عذرًا يا بريان ولكنني حضرتُ مع أختي ومن المُفترض أن أقابلها في غضون دقائق قليلة.»

سأل بريان: «هل أختك هي الفتاة التي ترتدي فستانًا قصيرًا أحمر بفتحة صدر واسعة للغاية؟»

أومأ باتريك. لفَّ بريان ذراعَه حول كتف صديقه الجديد. وقال: «دعني أنصحك نصيحةً. يجب أن يتحدَّث أحد مع أختك. فالطريقة التي تتصرَّف بها أمام الشباب تجعل الناس يظنُّون أنها فتاة سهلة المنال.»

قال باتريك مدافعًا: «هذه هي طبيعة كيتي. إنها تتصرَّف هكذا لأنها لم تختلط قطُّ بأحد خارج نطاق أسرتها.»

قال بريان وهو يهز كتفه: «آسف. هذا ليس من شأني على أيِّ حال ... اسمع، لِمَ لا تتصل بي؟ لقد استمتعت بالحديث معك كثيرًا.»

ودَّع باتريك بريان وبدأ يتوجه نحو الباب. أين كيتي؟ لماذا لم تعُد إلى داخل صالة التمارين الرياضية؟

سمع ضحكتها العالية بعد أن خرج بثوانٍ. كانت كيتي واقفة في الملعب مع ثلاثة رجال أحدهم أولاف لارسن. وكانوا جميعًا يُدخنون ويضحكون ويشربون الخمر من زجاجة واحدة يُمرِّرونها بينهم.

سأل شاب أسمر لديه شنب كيتي قائلًا: «إذن، ما الوضع الذي تُفضلينه؟»

ردَّت ضاحكة: «أوه، أُفضِّل الوضع الفوقي.» وارتشفت رشفةً من الزجاجة. ثم أضافت: «بهذه الطريقة، أكون أنا المُتحكمة في العلاقة.»

قال الرجل الذي كان يُسمَّى أندرو: «يُعجبني هذا.» وضحك ضحكةً خافتة ولمس بيده مؤخِّرتها. فدفعت يده عنها وهي لا تزال تضحك. وبعد ذلك بثوانٍ شاهدت كيتي باتريك يتقدَّم نحوَها.

صاحت كيتي: «تعال هنا يا أخي الأصغر. هذه الملعونة التي نحتسيها قوية للغاية.»

تحرك الرجال الثلاثة مُبتعِدين قليلًا عن كيتي عندما اتَّجه إليهم باتريك، قبل هذا، كانوا يميلون عليها ويُحيطون بها. ومع أن باتريك كان لا يزال نحيفًا بعض الشيء ولم يكتمِل نموُّه بعد، فقد كان يتمتع بطول قامةٍ جعل شكلَه يبدو مهيبًا في الضوء الخافت.

قال باتريك وهو يُبعد عنه الزجاجة التي قدَّمَتها له أخته: «سأعود إلى البيت الآن يا كيتي، وأعتقد أنك يجب أن تأتي معي.»

ضحك أندرو. وقال ساخرًا: «لدَينا هنا فتاة عابثة يا لارسن يصحبها أخوها المُراهق متقمصًا دور المحرم.»

اشتعل الغضب في عينَي كيتي. ورشفت رشفةً أخرى من الزجاجة وناولتها لأولاف. ثم شدَّت أندرو إليها وقبَّلته بعُنف على شفتَيه، وهي تحتضنه بقوة.

شعر باتريك بالإحراج. صاح أولاف والرجل الثالث وصفَّرا وأندرو يُقبل كيتي. وبعد دقيقةٍ تقريبًا ابتعدت كيتي عنه. وقالت مبتسمةً وهي تُحدِّق في الرجل الذي قبَّلته: «لنرحل الآن يا باتريك. أعتقد أن هذا يكفي الليلة.»

١٢

أخذت إيبونين ترنو من نافذة الطابق الثاني إلى المنحدَر غير الوعر. كانت أجهزة تبادُل الغازات تُغطي جانب التل، وشبكاتها الدقيقة تكاد تحجب التربة البُنِّية التي تحتها.

سألت كيمبرلي: «إذن يا إيب، ما رأيك؟ إنها لطيفة حقًّا. وعندما تُزرع الغابة فستجدين نافذتنا تطلُّ على الأشجار والحشائش، وربما نُشاهد منها سنجابًا أو سنجابَين. هذه ميزة بالتأكيد.»

أجابت إيبونين بعد ثوانٍ قليلة في شرود: «لا أعرف. إنها أصغر قليلًا من الشقة التي أعجبتْني أمس في بوسيتانو. كما أن لديَّ بعض المخاوف بشأن العيش هنا في هاكون. لم أكن أعرف أن الكثير من الشرقيين ...»

«اسمعي يا زميلتي، لن نستطيع أن ننتظِر إلى الأبد. لقد أخبرتُك أمس أنه كان يجب علينا أن نضع خيارات احتياطية. فقد كان هناك سبعة أشخاص يريدون شقة بوسيتانو، وهذا ليس أمرًا مُستغربًا فلم يبقَ في المدينة بأكملها سوى أربع وحدات، ولم يُحالفنا الحظ. والآن لم يبقَ أمامنا سوى هذه الشقة أو شقة سان ميجيل، وقد استبعدتُ من الاختيارات الشُّققَ الصغيرة التي تقع فوق المحلات في الشارع الرئيسي في بوفوا، والتي لا أُريد أن أعيش فيها لأنها لن تُوفر لنا أدنى مستوًى من الخصوصية. كما أن كلَّ الزنوج والسُّمر يعيشون في سان ميجيل.»

جلسَتْ إيبونين على واحدٍ من مقعدَين. كانت الفتاتان في غرفة المعيشة في شقةٍ صغيرة. أثاث الغرفة مُتواضع ولكنه يؤدِّي الغرض؛ إذ كانت تضمُّ مقعدَين وأريكة كبيرة ومنضدة منخفضة صغيرة مستطيلة من اللَّون البُني. وتبلُغ المساحة الإجمالية للشقة ما يزيد قليلًا عن مائة مترٍ مربع، وهي تضمُّ حمَّامًا واحدًا كبيرًا ومطبخًا صغيرًا إضافة إلى غرفة المعيشة وغرفتي نوم.

أخذت كيمبرلي هندرسون تذرَع الغرفة جيئةً وذهابًا على نحوٍ ينمُّ عن نفاد الصبر. قالت إيبونين ببطء: «كيم، أنا آسفة، ولكنني أعجز عن التركيز في اختيار شقةٍ في الوقت الذي تتلاحَق فيه الأحداث. ما هذا المكان؟ وأين نحن؟ ولماذا نحن هنا؟» عاد ذهنها بسرعة إلى ذكرى الجلسة الإرشادية المُذهلة التي عُقدت منذ ثلاثة أيام، والتي أخبرهم فيها القائد ماكميلان بأنهم بداخل سفينة فضاء بنَتْها مخلوقات من خارج كوكب الأرض وجهَّزتها «بهدف مراقبة سكان الأرض».

أشعلت كيمبرلي هندرسون سيجارةً ونفثَت الدخان بقوة في الهواء. ثم هزَّت كتفَيها. وقالت: «تبًّا يا إيبونين، لا أعرف إجابةَ أيٍّ من هذه الأسئلة. ولكنني أعرف أننا إذا لم نختر شقةً فلن يبقى أمامنا سوى الشُّقق التي لا يريدها أحد.»

نظرت إيبونين إلى صديقتها عدة ثوانٍ ثم تنهَّدت. وقالت متذمرةً: «لا أظن أن هذه العملية مُنصفة على الإطلاق. فقد كان بوسع ركَّاب بينتا ونينيا أن يختاروا منازلهم قبل أن نصل. فنحن مُجبرون على الاختيار من بين الشُّقق التي رفضوها.»

ردَّت كيمبرلي بسرعة: «وما الذي كنتِ تتوقعينه؟ سفينتنا تقلُّ السجناء؛ فمن المنطقي أن نحصل على الحثالة. ولكننا على الأقل حصلنا على الحرية أخيرًا.»

قالت إيبونين بعد مدةٍ طويلة: «إذن أعتقد أنك تُريدين أن تعيشي في هذه الشقة؟»

أجابت كيمبرلي: «نعم. وأريد أن أُقدم طلبًا بشأن الشقتَين الأُخرَيين اللتين رأيناهما هذا الصباح بالقُرب من سوق هاكون، وذلك تحسبًا لعدم حصولنا على هذه الشقة. أخشى أننا سنكون في وضعٍ حرج جدًّا إن لم نحصُل على منزلٍ مُحدَّد بعد السحب الليلة.»

قالت إيبونين لنفسها وهي تُشاهد كيمبرلي تتجوَّل في الغرفة: كان هذا خطأ. لم يكن عليَّ أن أقبل قطُّ أن تكون رفيقتي في الشقة ... ولكن لم يكن لي خيار. فالمنازل التي تبقَّت للسكن المُنفرد سيئة للغاية.

لم تكن إيبونين معتادةً على حدوث تغيرات سريعة في حياتها. فقد عاشت مرحلتي الطفولة والصبا في أمانٍ نسبي، بعكس كيمبرلي هندرسون التي مرَّت بعددٍ كبير من التجارب المختلفة قبل اتهامها بالقتل وهي في التاسعة عشرة من عمرها. فقد نشأت إيبونين في دار أيتام على مشارف مدينة ليموج بفرنسا، ولم تخرج قطُّ من المكان الذي نشأت فيه حتى صحبها البروفسير مورو إلى باريس لترى المتاحف العظيمة وهي في السابعة عشرة من عمرها. كان قرار الانضمام إلى مستعمرة لوويل صعبًا جدًّا عليها في المقام الأول. ولكنها كانت تواجِهُ حكمًا بالسجن مدى الحياة في مدينة بورج، وعُرِضت عليها فرصة نيل الحرية على المريخ. فتحلَّت بالشجاعة واتخذت قرار تقديم طلبٍ لوكالة الفضاء العالمية بعد تفكير طويل.

وقع الاختيار على إيبونين لتكون من بين المُستعمِرين بفضل سجلِّها الدراسي المتميز، خاصة في الفنون، ولإتقانها اللغة الإنجليزية، ولأنها كانت سجينة مثالية. حدَّد ملفُّها في وكالة الفضاء العالمية الوظيفةَ التي ستشغلها في مستعمرة لوويل على أنها ستكون على الأغلب «مُعلمة دراما أو فن أو كليهما في المدارس الثانوية». ورغم الصعوبات التي رافقت مرحلة السفر في الفضاء بعد الرحيل عن الأرض، فقد شعرت إيبونين باندفاع دفقةٍ قوية

من الأدرينالين والإثارة في عروقها عندما رأت المريخ من نافذة المراقبة في المركبة سانتا ماريا. إذ شعرت أنها مقبلة على حياةٍ جديدة في عالمٍ جديد.

ولكن قبل يومَين من اللقاء المُزمَع أعلن حراس وكالة الفضاء العالمية أن المركبة الفضائية لن تنشُر مكوكات الهبوط كما كان مخططًا. وأخبروا الركاب من فئة السجناء أن سانتا ماريا — بدلًا من ذلك — «ستسلك طريقًا بديلًا مؤقتًا لتقابل محطة فضائية تدور حول المريخ». تسبب الإعلان في إصابة إيبونين بحالة من الارتباك والخوف. فعلى عكس معظم زملائها، كانت قد قرأت بعناية كل المواد التي أعطتها وكالة الفضاء العالمية للمستعمرين، ولم تلاحظ قط أيَّ ذكرٍ لمحطة فضائية تدور حول المريخ.

لم يُخبِر أحد إيبونين والسجناء الآخرين بما يجري إلا بعد انتهاء تفريغ حمولة سانتا ماريا، وصار جميع الأشخاص والإمدادات بداخل عدن الجديدة. حتى بعد حضور الجلسة الإرشادية التي عقدها ماكميلان لم يصدق أغلب المجرمين أن ما أخبرهم به هو الحقيقة. قال ويليس ميكر: «بالله، أيَظُننا بهذا الغباء؟! أتصدِّقون أن مجموعة من المخلوقات القادمة من خارج الأرض أنشأت هذا المكان وكل أولئك الآليين المجانين؟ الأمر كله يبدو خدعة. فنحن هنا ليُجربوا علينا نوعًا جديدًا من أنواع السجن.»

ردَّ مالكولم بيبودي: «لكن يا ويليس ما رأيك في الآخرين الذين جاءوا على متن بينتا ونينيا؟ لقد تحدَّثتُ مع بعضهم. ووجدتهم بشرًا عاديين. أعني أنهم ليسوا من السجناء. لو كانت نظريتك صحيحةً فما هي الحكمة من وجودهم هنا؟»

«بربك، كيف لي أن أعرف أيها الأحمق؟ لستُ عبقريًّا. كل ما أعرفه هو أن هذا المتأنق المدعو ماكميلان لا يُخبرنا بالحقيقة اللعينة.»

لم تسمح إيبونين لشكوكها بشأن الجلسة الإرشادية التي عقدها ماكميلان بأن تثنِيَها عن الذهاب مع كيمبرلي إلى المدينة المركزية لتُقدِّم طلبات الحصول على الثلاث شُقق التي تقع في هاكون. كانتا محظوظتَين في السحب هذه المرة وحصلتا على أول شقةٍ اختارتاها. أمضت المرأتان يومًا كاملًا في الانتقال إلى الشقة التي تقع على حافة غابة شيروود ثم أخطرتا مكتب التوظيف في المجمع الإداري بحضورهما لاتخاذ الإجراءات اللازمة.

ولَمَّا كانت المَركبتان الأُخريان قد وصلتا قبل سانتا ماريا بكثير، رُوعي تحديد إجراءات دمج السجناء في الحياة في عدن الجديدة بعناية. ولم يستغرق إلحاقُ كيمبرلي بالعمل في المستشفى المركزي وقتًا طويلًا؛ فقد كانت تتمتَّع بسجِلٍّ مُميز للغاية في مجال التمريض.

أجرت إيبونين مقابلةً شخصية مع مدير المدرسة وأربعة مُعلمين قبل أن تُقبل للعمل في المدرسة الثانوية المركزية. كانت وظيفتها الجديدة تتطلَّب منها الانتقال بالقطار ذهابًا

وإيابًا مسافةً قصيرة بينما كان يُمكنها التوجُّه إلى عملِها مشيًّا إذا ما قرَّرت أن تعمل في مدرسة هاكون الإعدادية. ولكن إيبونين رأت أن الأمر يستحقُّ العناء. وقد شعرت بالأُلفة مع الناظر وأعضاء التدريس الذين يعملون في المدرسة الثانوية.

في البداية كان الأطباء السبعة العاملون في المستشفى مُتخوِّفين من الطبيبَين اللذَين يقعان ضِمن فئة السجناء، خاصة الطبيب روبرت تيرنر الذي يضمُّ ملفُّه إشارةً مبهمةً لارتكابه جريمتَي قتل وحشيتَين دون ذِكر أي تفاصيل عن الملابسات. ولكن بعد حوالي أسبوع اتَّضح للجميع مهارته المميزة وعلمه الواسع وبراعته، فاختاره العاملون بالإجماع مديرًا للمستشفى. اندهش د. تيرنر من هذا الاختيار وتعهَّد في خطبةٍ قصيرة ألقاها عند قبول المنصب بأن يُكرس نفسه تمامًا للعمل من أجل رفاهية المستعمرة.

كانت أول مهمةٍ رسمية قام بها تيرنر هي اقتراح قدَّمه إلى الحكومة المؤقتة بإجراء فحصٍ شامل لجميع المواطنين في عدن الجديدة حتَّى يتسنَّى لهم تحديث الملفات الطبية الشخصية. وعندما وافقت الحكومة على اقتراحه نشر د. تيرنر التياسو الآليات في أنحاء المستعمرة ليضطلعوا بمهام المساعِدين الطبيِّين. قام الآليون بعمل كل الفحوصات الروتينية وجمعوا البيانات ليُحللها الأطباء. في الوقت نفسه تذكَّر تيرنر شبكة البيانات الممتازة التي كانت تربط كل المستشفيات في مدينة دالاس، فبدأ العمل بلا كللٍ مع العديد من الأينشتاين الآليين ليقوموا بتصميم نظامٍ قائم بالكامل على الكمبيوتر، يسمح بمتابعة البيانات الصحية للمُستعمرين.

ذات مساء، أثناء الأسبوع الثالث من الْتحام سانتا ماريا براما، كانت إيبونين بمفردها في المنزل كالعادة (الروتين الذي تسير عليه كيمبرلي هندرسون أصبح ثابتًا: فهي تكاد لا تجلس في الشقة على الإطلاق، فهي تقضي حياتها ما بين عمل في المستشفى وخروج مع توشيو ناكامورا ورفاقه)، عندما سمعت رنين الهاتف المرئي الخاص بها. وظهر وجه مالكولم بيبودي على الشاشة. وقال على استحياء: «إيبونين أريد أن أطلب منك خدمة.»

«تفضل يا مالكولم.»

«اتصل بي د. تيرنر من المستشفى منذ خمس دقائق. وقال إن بياناتي الصحية التي جمعها أحد الآليين الأسبوع الماضي «تنمُّ عن وجود بعض الاضطرابات». ويُريدني أن أذهب إليه ليقوم بفحصٍ أدق.»

انتظرت إيبونين بصبرٍ عدة ثوان. ثم قالت: «لا أفهم. ما الخدمة التي تريدها؟»

أخذ مالكولم نفسًا عميقًا. وقال: «لا بد أن الأمر خطير يا إيبونين. إنه يريدني أن أذهب إليه الآن … أيُمكنك أن تأتي معي؟»

قالت إيبونين وهي تنظر إلى ساعتها: «الآن؟ إنها الحادية عشرة مساءً تقريبًا.» لكنها سرعان ما تذكَّرت كيمبرلي هندرسون وهي تشتكي من أن د. تيرنر «يدمن العمل، وهو بهذا لا يختلف كثيرًا عن المُمرضات الآليات السوداوات». وتذكرت أيضًا لون عينَيه الأزرق الخلَّاب.

قالت لمالكولم: «حسنًا. سأقابلك في المحطة في غضون عشر دقائق.»

لم تكن إيبونين تخرج ليلًا كثيرًا. فمنذ تعيينها في وظيفة مُعلمة وهي تقضي معظم أمسياتها في تحضير دروسها. في إحدى ليالي السبت، خرجت مع كيمبرلي وتوشيو ناكامورا وآخرين إلى مطعم ياباني افتُتح حديثًا. ولكن الطعام كان غريبًا ومعظم الحاضرين كانوا من الشرقيين، وبعد أن أسرف عدة رجال في الشراب أخذوا يحاولون مراودتَها عن نفسها. بعد أن عادتا وبَّختْها كيمبرلي «لتحفُّظها وأنَفَتِها»، ولكنها رفضت فيما بعد دعوات زميلتها لها للخروج معهم.

وصلت إيبونين إلى المحطة قبل مالكوم. وبينما كانت تنتظِره أخذت تتعجَّب من مدى تغيُّر المدينة تغيرًا كاملًا بعد وصول البشر. وقالت لنفسها: لنرَ، وصلت بينتا هنا قبل أربعة أشهر ووصلت نينيا بعدها بخمسة أسابيع. وها هي المتاجر قد انتشرت في كل مكان: حول المحطة وفي المدينة نفسها. تُوجَد كل دلائل الوجود البشري. إذا ظللنا في هذه المُستعمرة عامًا أو عامَين فلن تختلف عن الأرض في شيء.

كان مالكوم متوترًا جدًّا أثناء رحلة القطار القصيرة وأخذ يُثرثر. قال: «أعرف أن هناك مشكلةً في قلبي يا إيبونين. ظللت أشعر بآلامٍ حادة هنا منذُ أن مات والتر. في البداية ظننتُ أن هذه مجرد أوهام يُصورها لي عقلي.»

ردَّت إيبونين في محاولةٍ لتهدئته: «لا تقلق. صدِّقني، إنه أمر بسيط.»

كانت إيبونين تشعر بجفنَيها يتثاقلان. فقد تجاوزت الساعة الثالثة صباحًا. كان مالكولم نائمًا على المقعد الطويل بجوارها. تساءلت في نفسها: ما الذي يفعله هذا الطبيب؟ لقد قال إنه لن يَستغرق وقتًا طويلًا.

بعد وصولهما مباشرةً فحص الطبيب تيرنر مالكولم بسماعةٍ طبية متصلة بكمبيوتر، ثم صحِبه إلى قسمٍ خاص بالمستشفى بعد أن أخبرَهما بأنه بحاجة إلى «إجراء اختبارات

شاملة». عاد مالكولم إلى غرفة الانتظار بعد ساعة. لم تر إيبونين الطبيب إلا برهة، وذلك عندما أدخل مالكولم إلى مكتبه في بداية الفحص.

فجأة، سمعت صوتًا يسألها: «هل أنت صديقة السيد بيبودي؟» لا بدَّ أن إيبونين قد غلبها النعاس. بعدما اتضحت لها الرؤية، رأت العينَين الزرقاوَين الجذابتَين تُحدقان فيها من على بُعد متر واحد فقط. كان الطبيب يبدو متعبًا ومنزعجًا.

قالت إيبونين بهدوءٍ محاولةً ألا تُزعج الرجل النائم على كتفها: «نعم.»

قال د. تيرنر: «سيموت قريبًا جدًّا. على الأرجح في غضون الأسبوعَين القادمَين.»

شعرت إيبونين بالدماء تندفع في جسدها. وقالت بينها وبين نفسها: هل حقًّا ما أسمعه؟ هل قال إن مالكولم سيموت في الأسبوعين القادمين؟ وشعرت إيبونين بالصدمة.

قال الطبيب: «سيحتاج إلى دعمٍ كبير منك.» صمت دقيقة مُحدقًا في إيبونين. أكان يحاول أن يتذكَّر أين رآها من قبل؟ ثم سألها: «هل ستستطيعين مساعدته؟»

أجابت إيبونين: «آمُل ... آمُل هذا.»

بدأ مالكولم يتحرك. قال الطبيب: «يجب أن نُوقظه الآن.»

لم تظهر أي مشاعر في عينَي تيرنر. فقد قال تشخيصه — بل معلوماته المؤكدة — بلا ذرة من الإحساس. قالت إيبونين لنفسها: كيم مُحقة. إنه آلي مثل التياسو بالضبط.

بناءً على اقتراح الطبيب صحِبَت إيبونين مالكولم وسارا في الممر ودلَفا إلى غرفة تمتلئ بالأجهزة الطبية. قال د. تيرنر لمالكولم: «من اختار الأجهزة التي جُلبت من الأرض إلى هنا ذكي. مع أن عدد العامِلين محدود فإن أجهزة التشخيص من الدرجة الأولى.»

اتجه الثلاثة إلى مُكعب شفاف يبلغ ارتفاع ضلعه نحو متر واحد. وقال الطبيب: «هذا الجهاز المذهل هو جهاز لتصوير الأعضاء الداخلية. إنه يستطيع أن يرسم بدقةٍ متناهية صور معظم الأعضاء الرئيسية في جسد الإنسان. ما نراه الآن، عندما ننظر داخله، هو تمثيل رسومي لقلبك يا سيد بيبودي، بالضبط مثلما كان يبدو منذ تسعين دقيقة عندما حقنت العنصر الاستشفافي في أوعيتك الدموية.»

أشار د. تيرنر إلى الغرفة المجاورة حيث أُجريت الاختبارات على مالكولم على ما يبدو. وواصل قائلًا: «عندما كنتَ جالسًا على هذه المنضدة كان الجهاز ذو العدسة الكبيرة يلتقط لك ملايين الصور في الثانية الواحدة. ثم رسم الجهاز صورةً متناهية الدقة ثُلاثية الأبعاد لقلبك بناءً على ما أظهره العنصر الاستشفافي ومليارات الصور الفورية. وهذا هو ما تراه في المكعب.»

صمت الطبيب لحظات، وأشاح ببصره بسرعةٍ ثم ركز عينَيه على مالكولم. وقال بهدوء: «أنا لا أحاول أن أُصعِّب الأمر عليك يا سيد بيبودي، ولكنَّني أردتُ أن أوضح لك كيف استطعتُ أن أعرف كُنه المشكلة التي تُعاني منها. حتى تفهم أن التشخيص لا يشوبه خطأ.»

اتسعت عينا مالكولم من فرط الخوف. فأمسك الطبيب بيده، وقاده إلى موضعٍ مُعيَّن بجانب المكعب. وقال: «انظر هناك، في الجزء الخلفي من القلب قُرب الجانب العلوي. أترى الشبكات والخطوط الغريبة الظاهرة في الأنسجة؟ هذه عضلات قلبك وقد أصابها اعتلال لا يمكن معالجته.»

أخذ مالكولم يُحدق داخل المكعب طويلًا ثم أطرق برأسه. وسأل في انكسار: «هل سأموت أيها الطبيب؟»

أمسك روبرت تيرنر بيد المريض الأخرى. وقال: «نعم يا مالكولم. لو كنَّا على الأرض كان من المُمكن أن نبحث احتمال إجراء عملية زراعة قلب، ولكن هذا غير وارد هنا لعدم توافر الأجهزة المناسبة والمُتبرع المناسب … إن كنتَ تريد، يمكنني أن أشقَّ صدرك حتى يتسنى لي النظر إلى قلبك مباشرة. ولكن من غير المُحتمَل على الإطلاق أن أكتشف شيئًا قد يُغير من تكهُّني لاحتمال تطور المرض.»

هز مالكولم رأسه رافضًا اقتراحه. وبدأت الدموع تنهمر على وجنتَيه. فلفَّت إيبونين ذراعَيها حول الرجل الضئيل وبدأت تبكي. قال الطبيب: «آسف لأنني استغرقتُ وقتًا طويلًا حتى أُتم التشخيص، ولكن في حالة خطيرة كهذه أردتُ أن أكون متأكدًا تمامًا.»

بعد دقائق قليلة مشى مالكولم وإيبونين باتجاه الباب. ثم استدار مالكولم وسأل الطبيب: «ماذا أفعل الآن؟»

أجاب تيرنر: «ما يحلو لك.»

بعد انصرافهما عاد تيرنر ليجلس إلى مكتبه الذي تتناثر عليه النُّسَخ المطبوعة من الرسومات والملفَّات الخاصة بمالكولم بيبودي. كان الطبيب يشعر بقلقٍ شديد. فهو متأكد تمامًا — وإن كان لن يتأكد يقينًا إلا بعد إجراء تشريح — من أن قلب بيبودي مُصاب بنوع المرض نفسه الذي قتل والتر براكين في سانتا ماريا. لقد ظلَّ الرجلان صديقَين حميمَين طوال عدة سنوات تعود إلى بداية مدة حبسهما في جورجيا. ومن المُستبعَد أن يكون الاثنان قد أُصيبا

بالمرض القلبي نفسه بالصدفة. ولكن إن لم تكن صدفةً فلا بد أن العامل المُمرِض قابِل للانتقال من إنسانٍ إلى آخر.

هزَّ روبرت تيرنر رأسه. فأي مرض يُصيب القلب مُخيف. فما بالك إن كان ينتقل من شخصٍ إلى آخر؟ كان شبح الفكرة مُرعبًا.

كان متعبًا جدًّا. لكن قبل أن يضع رأسَه على مكتبه كتب قائمة بالمراجع التي تتناول الفيروسات التي تُصيب القلب والتي يريد الحصول عليها من قاعدة البيانات. ثم سرعان ما نام.

بعد خمس عشرة دقيقة أيقَظه رنين الهاتف فجأة. كان الطرف الآخر إحدى الآليات من نوع تياسو تتَّصِل من غرفة الطوارئ. قالت: «وَجدَ اثنتان من الجارسيا الآليين جثَّةً بشريةً في غابة شيروود وهما في طريقهما إلى هنا الآن. وبناءً على الصور التي أرسلتاها أستطيع القول إن هذه الحالة تتطلَّب تدخُّلَك الشخصي.»

فرك تيرنر يدَيه وارتدى معطفه مرةً أخرى ووصل إلى غرفة الطوارئ قبل أن تصِل الآليتان جارسيا بالجثة مباشرةً. ومع أنه يتمتع بخبرةٍ واسعة فإنه لم يستطع أن يتمالك نفسه وأشاح بوجهه عن الجثة المُشوَّهة تشويهًا رهيبًا. كان الرأس تقريبًا منفصلًا عن الجسد؛ إذ كان مُعلَّقًا به بخيط رفيع من العضلات، وكان الوجه مُشوَّهًا إلى حدٍّ يصعُب معه التعرُّف على صاحبه. إضافةً إلى هذا، كان حِجر البنطال به فجوة واسعة مُلطخة بالدماء.

بدأت الآليتان تياسو العمل على الفور، فمسحتا الدماء وأعدَّتا الجثة للتشريح. جلس د. تيرنر على كرسي بعيدًا عن هذا المشهد، وبدأ يكتب أول تقريرٍ بحالة وفاة في عدن الجديدة.

سأل الآليتين: «ما اسمه؟»

بحثت إحداهما فيما تبقَّى من ملابس الرجل الميت ووجدت البطاقة التي أصدرتها له وكالة الفضاء العالمية.

أجابت الآلية: «داني. مارتشيللو داني.»

أغنية الزفاف

١

كان القطار الذي انطلق من بوسيتانو مُمتلئًا بالركاب. توقَّف في محطة صغيرة قرب شاطئ بحيرة شكسبير التي تقع في منتصف المسافة بين بوسيتانو وبوفوا، وأفرغ حمولته التي تتألف من البشر والآليين. كان الكثيرون يحملون سِلالًا بها طعام وبطاطين وكراسيُّ قابلة للطي. وراح بعض الأطفال الصغار يركضون من المحطة إلى العُشب الكثيف المجزوز حديثًا الذي يحيط بالبحيرة. وأخذوا يضحكون ويتدحرجون على المنحدَر غير الوعر الذي يُغطي مسافة المائة والخمسين مترًا التي تفصل بين المحطة وحافة المياه.

ولِمن لا يُفضل الجلوس على العشب، وُضِعت مقاعد خشبية أمام اللسان الضيق الذي يمتدُّ خمسين مترًا في المياه، ويقع عند طرفه منصَّة مستطيلة. كان على المنصة مُكبر صوت ومنبر للخطابة وعددٌ من الكراسي، فهناك سيُلقي الحاكم واتانابي خطابَ يوم الاستيطان بعد فقرة الألعاب النارية.

وعلى بُعد أربعين مترًا إلى يسار المقاعد، وضع أفراد أُسرَتي ويكفيلد وواتانابي مائدة طويلة يُغطيها غطاء لونه أزرق وأبيض. ورُصَّت عليها وجبات خفيفة بترتيبٍ رفيع الذوق. ومُلئت الثلاجات الصغيرة الموضوعة أسفل المائدة بالمشروبات. تجمَّع أفراد الأسرتَين والأصدقاء في هذه المنطقة، ومنهم من أخذ يأكل، ومنهم من راح يلعب لعبةً ما، ومنهم من انهمك في حوارات مُحتدمة. كان هناك آليَّان من نوع لينكولن يتحرَّكان حول المجموعة يُقدِّمان المشروبات والمقبلات لمن يجلسون بعيدًا عن المائدة والثلاجات.

كان الجو حارًّا في ذلك الوقت من العصر. بل كان شديد الحرارة في الواقع، إنه ثالث يوم شديد الحرارة على التوالي. ولكن عندما بدأت الشمس الصناعية رحلة المغيب في القبة

الهائلة على ارتفاعٍ شاهق فوق رءوسهم وبدأ الضوء يخفُت ببطء، تناسى الجمهور المُترقِّب الجالس على ضفاف بحيرة شكسبير أمر الحرارة.

وصل قطار أخير قبل دقائق من حلول الظلام. وكان قادمًا من محطة المدينة المركزية الواقعة في الشمال، وكان يُقلُّ المستعمِرين الذين يعيشون في هاكون أو سان ميجيل. لم يكن عدد الذين تأخَّروا كبيرًا. فمعظم الناس جاءوا مبكرًا حتى يُرتِّبوا الأطعمة التي جاءوا بها معهم على العشب. جاءت إيبونين في القطار الأخير. كانت قد قرَّرَت في البداية ألا تحضر الاحتفال من الأساس، ولكنها غيَّرَت رأيها في اللحظة الأخيرة.

شعرت إيبونين بالارتباك عندما نزلت من رصيف المحطة إلى العشب. فقد كان المكان يعجُّ بالناس! قالت لنفسها: لا بدَّ أنَّ سكان عدن الجديدة كلهم هنا. للحظة تمنَّت لو لم تحضر. فقد كان الجميع في صحبة أصدقائهم وأُسَرهم، أما هي فكانت وحيدة.

كانت إيلي ويكفيلد تلعب مع بينجي لعبة رمي الحدوات عندما خرجت إيبونين من القطار. وسرعان ما ميَّزت أستاذتها رغم بُعدها عنها، بفضل الشريط الأحمر الزاهي الذي يُحيط بذراعها. قالت إيلي وهي تجري نحو نيكول: «إنها إيبونين يا أمي. هل يمكن أن أطلب منها الانضمام إلينا؟»

أجابت نيكول: «بالطبع.»

قاطع صوت صادر من مُكبر الصوت الموسيقى التي تعزفها فرقة صغيرة، معلنًا أن الألعاب النارية ستبدأ في غضون عشر دقائق. فصفَّق بعض الحضور.

صاحت إيلي: «إيبونين. أنا هنا.» ولوَّحَت إيلي بيدَيها.

سمعت إيبونين من يُنادي باسمها، ولكنها لم تستطِع أن ترى المُنادي بوضوح في الضوء الخافت. بعد دقائق رأت إيلي وتوجَّهت نحوَها. لكن في طريقها، اصطدمت دون قصدٍ بطفل صغير كان يتجول وحيدًا على العشب. صرخت الأم: «كيفين، ابتعِد عنها!»

في لحظةٍ أمسك رجلٌ أشقر ضخمٌ بالطفل الصغير وأبعدَه عن إيبونين. وقال: «يجب ألا تكوني هنا. لا يجب أن تكوني مع الأناس المُحترَمين.»

شعرت إيبونين بشيءٍ من الانزعاج، لكنها تابعت سيرَها نحو إيلي التي كانت تمشي على العشب باتجاهها. صاحت امرأة كانت قد شاهدت الموقف الذي حدث لتوِّه قائلة: «عودي إلى بيتك يا رقم ٤١!» أشار طفل سمين في العاشرة من عمره مُنتفخ الأنف إلى إيبونين وهمس في أذن أخته بتعليقٍ ما.

قالت إيلي عندما وصلت إلى مُعلمتها: «أنا سعيدة برؤيتك. أتودِّين أن تأكلي شيئًا؟»

أومأت إيبونين برأسها. فقالت إيلي بصوتٍ عالٍ يسمعه كلٌّ من حولها: «آسفة بشأن هؤلاء. من العار أن يكونوا بهذا الجهل.»

رافقت إيلي إيبونين إلى المائدة الكبيرة وعرَّفت الجميع بها. قالت: «انتبهوا جميعًا، أُقدِّم لكم إيبونين، لِمن لا يعرفها، إنها مُعلمتي وصديقتي. وهي لا تحمِل اسم عائلة، فلا تسألوها عنه.»

كانت إيبونين ونيكول قد التقتا عدة مراتٍ من قبل. فأخذتا تمزحان بينما كان يُقدِّم لينكولن لإيبونين بعض قطع الخضراوات ومشروب الصودا. وتعمدت ناي واتانابي إحضار توءمَيها كيبلر وجاليليو، اللذَين احتفلا بعيد ميلادهما الثاني قبل أسبوع، ليلتقِيا الوافدة الجديدة. وأخذ لفيف من المُستعمِرين الجالسين بالقرب منهم والقادمين من بوسيتانو يحدقون في إيبونين وهي تحمل كيبلر بين ذراعيها. قال الطفل الصغير وهو يشير إلى وجه إيبونين: «جميلة.»

قالت نيكول بالفرنسية وهي تُشير برأسها في اتجاه المُتفرجين المُحملِقين: «لا بد أن هذا صعب للغاية.»

أجابت إيبونين بالفرنسية: «صحيح.» وقالت بينها وبين نفسها: صعب؟! هذا أشدُّ تهوين سمعتُه هذا العام. ماذا لو قُلنا هذا أمر يستحيل تحمُّله؟ ألا يكفيهم أنني أعاني من مرضٍ رهيب غالبًا سيودي بحياتي. لا. يجب أيضًا أن أرتدي شريطًا حول ذراعي حتى يتمكن الناس من اجتنابي إن شاءوا.

رفع ماكس باكيت عينَيه من على رقعة الشطرنج ولاحظ وجود إيبونين. فقال: «مرحبًا مرحبًا. لا بد أنك أنت المعلمة التي سمعت عنها كثيرًا.»

قالت إيلي وهي تقود إيبونين نحوه: «هذا ماكس. إنه يهوى المغازلة، ولكن لا يُخشى منه. والكهل الذي يتجاهلنا هو القاضي بيوتر ميشكين ... تُرى أنطقت اسمك نطقًا صحيحًا أيها القاضي؟»

أجاب القاضي دون أن يرفع عينَيه من على رقعة الشطرنج: «بالطبع يا فتاتي. اللعنة يا باكيت ما الذي تحاول أن تفعله بهذا الحصان؟ كالعادة، لعبك إما أن يكون غبيًّا أو عبقريًّا وأنا لا أستطيع أن أُقرِّر إلى أيٍّ منهما تنتمي هذه الخطوة الأخيرة.»

أخيرًا رفع القاضي رأسه ورأى الشريط الأحمر يُحيط بذراع إيبونين فهبَّ واقفًا. وقال: «آسف يا سيدتي. آسف حقًّا، فأنتِ تُعانين بما فيه الكفاية، ولم تكن تنقصك إهانات هذا العجوز الأناني.»

قبل أن تبدأ الألعاب النارية بدقيقةٍ أو دقيقتَين، كان يختٌ كبير يقترب من الجانب الغربي من البحيرة متجهًا نحو منطقة النزهة الخلوية. كان ظهْر اليخت الطويل تُزينه الأضواء الملونة والفتيات الجميلات. وكان اسم ناكامورا منقوشًا على جانب اليخت. رأت إيبونين كيمبرلي هندرسون واقفةً بجانب توشيو ناكامورا عند الدفةِ فوق الظَّهْر الرئيسي لليخت.

أخذ من يقفون على ظهر اليخت يلوِّحون لمن على الشاطئ. جرى باتريك ويكفيلد في حماسٍ إلى المائدة. وقال: «انظري يا أمي، كيتي على المركب.»

ارتدت نيكول نظارتها ليتسنَّى لها الحصول على رؤية أفضل. فرأت ابنتَها مُرتديةً لباس سباحة من قطعتَين وتلوِّح من على سطح اليخت. تمتمت نيكول لنفسها: «هذا ما كان ينقُصنا»، في اللحظة التي انفجرت فيها أولى الألعاب النارية فوقهم، فتألَّقَت السماء المُظلمة بالألوان والأنوار.

بدأ كينجي واتانابي خطبتَه قائلًا: «في مثل هذا اليوم منذ ثلاثة أعوام جاءت مجموعة استكشافية من بيتنا إلى هذا العالم الجديد لأول مرة. لم يكن أحد منَّا يعرف ما الذي ينتظرنا. وأخذنا نتساءل جميعًا، خاصة في الشهرَين الطويلَين اللذَين كنا نقضي فيهما ثماني ساعات يوميًّا في قاعة التنويم، إن كان من المُمكن أن تنشأ حياة طبيعية هنا في عدن الجديدة.

لم تتحقَّق مخاوفنا الأولى. فمُضيِّفونا الفضائيون، مهما كانت هويتهم، لم يتدخلوا في حياتنا قط. قد يكون صحيحًا أنهم يُراقبوننا باستمرارٍ كما قالت نيكول ويكفيلد والآخرون، ولكننا لا نشعر بوجودهم على أيِّ نحو. وخارج مُستعمرتنا، تندفع مركبة الفضاء راما باتجاه النجم الذي نُطلِق عليه تاو سيتي بسرعة هائلة. لكن داخل المُستعمرة لا تتأثر أنشطتنا اليومية بهذه الظروف الخارجية غير العادية.

قبل الأيام التي قضيناها في قاعة التنويم، عندما كنا لا نزال نرتحِل بين مجموعة الكواكب التي تدور حول نجمنا الأم: وهو الشمس، كان الكثيرون منَّا يعتقدون أن «مدة المراقبة» ستكون قصيرة. اعتقدنا أنه بعد أشهر قليلة سنعود إلى الأرض أو إلى الوجهة التي كنَّا نقصدها في البداية، أي المريخ، وأن مركبة راما الثالثة هذه ستختفي في غياهب الفضاء مثل المركبتَين اللتَين سبقتاها. لكن وأنا أقف أمامكم اليوم، يُخبرني ملَّاحونا أننا ما زلنا نبتعِد عن شمسنا بنصف سرعة الضوء تقريبًا، وهذا هو الحال الذي نحن عليه منذ عامَين

ونصف. إذا حالفنا الحظ وعُدنا ذات يومٍ إلى نظامنا الشمسي، فإن هذا لن يحدُث على الأقل قبل عدة أعوام.

هذه العوامل هي التي أملت عليَّ فكرة آخِر خطابٍ أُلقيه عليكم في هذه المناسبة. الفكرة بسيطة وهي أننا — يا إخواني المُستعمِرين — يتعيَّن علينا أن نضطلع بمسئولية مصيرنا كاملة. لا يُمكننا أن نعتمِد على القوى الجبارة التي خلقت عالَمَنا في البداية في إنقاذنا من أخطائنا. علينا أن نُدير عدن الجديدة وكأننا سنبقى فيها نحن وأبناؤنا إلى الأبد. إن ضمان الحفاظ على جودة الحياة هنا، في الحاضر والمستقبل، أمر يتوقَّف علينا بالكامل.

في الوقت الحاضر تُواجِه المُستعمرة عدة تحدِّيات. وأرجو أن تُلاحظوا أنني أُطلق عليها تحدِّياتٍ وليس مشكلات. وذلك لأننا إذا تعاونَّا فسننجح في أن نُواجهها. وإذا ما فكَّرنا مليًّا في عواقب أفعالنا على المدى البعيد فسنتمكَّن من اتخاذ القرارات الصحيحة. ولكن إنْ عجزْنا عن فهم مفهومَي «تأخير تلبية الرغبات» و«النفع العام» فإن مُستقبل عدن الجديدة سيكون في مهبِّ الريح.

دعوني أضرب لكم مثالًا يُوضح وجهة نظري. لقد أوضح ريتشارد ويكفيلد في البرامج التليفزيونية والمُنتديات العامة كيف أنَّ النظام الأساسي الذي يتحكم في الطقس يقوم على افتراضاتٍ مُحددة بشأن الأحوال الجوية داخل موطننا. وعلى وجه التحديد، تفترض الخوارزمية التي تتحكَّم في الطقس أنَّ مستويات ثاني أكسيد الكربون وتركيز جسيمات الدخان أقل من مقدارٍ مُحدد. ونحن لا نحتاج إلى فهمٍ دقيق لكيفية عمل النظام الرياضي الذي يحكم الخوارزمية لكي نستوعب أن الحسابات التي تتحكم في المدخلات الخارجية التي تدخل مساكننا لن تكون صحيحة إذا لم تكن الافتراضات التي بُنِيت عليها دقيقة.

لستُ أنوي أن ألقي محاضرة علمية اليوم عن موضوع مُعقد للغاية. بل ما أريد أن أتحدَّث عنه حقًّا هو الاستراتيجية. ولمَّا كان معظم علمائنا يُؤمنون بأن الطقس الغريب الذي ساد في الأشهُر الأربعة الأخيرة كان نتيجة ارتفاع مستويات ثاني أكسيد الكربون وجسيمات الدخان في الجو ارتفاعًا مُفرطًا، قدَّمَت حكومتي اقتراحات مُحدَّدة بشأن مواجهة هذه المشكلات. غير أن مجلس الشيوخ رفض كلَّ اقتراحاتنا.

لماذا؟ لأن اقتراحنا بفرض حظرٍ تدريجيٍّ على المدافئ — التي ليست لها أي ضرورة في عدن الجديدة من الأساس — وُصِف بأنه «قيد على الحرية الشخصية». كما صوَّت أعضاء المجلس ضد اقتراحنا المُفصَّل بإصلاح جزءٍ من شبكة أجهزة تبادُل الغازات بهدف

تعويض الفاقد من الغطاء النباتي الناتج عن تطوير أجزاءٍ من غابة شيروود والمساحات الخضراء الشمالية. لماذا؟ تقول المُعارضة إن المُستعمرة لن يُمكنها توفير الإمكانات اللازمة للقيام بهذه المهمة، كما أن الطاقة التي تستهلكها الأجزاء الجديدة من شبكة أجهزة تبادل الغازات ستتسبَّب في فرض إجراءاتٍ صارمة للغاية للحفاظ على الكهرباء.

سيداتي سادتي، من السخيف أن ندفن رءوسنا في الرمال ونأمُل أن تختفي هذه المشكلات البيئية من تلقاء نفسها. فكلَّما أرجأنا اتخاذ إجراءاتٍ عملية فستُواجِه المستعمرة صعوباتٍ أكبر في المُستقبل. إنني لا أستطيع أن أُصدق أن الكثير منكم يقتنع بفكر المعارضة غير العملي، ومفاده أننا سننجح بطريقةٍ ما في فهم طريقة عمل خوارزميات الطقس خارج كوكب الأرض ونُغيرها، بحيث تعمل كما ينبغي في ظل الأحوال الجوية التي ترتفع فيها مستويات ثاني أكسيد الكربون وجسيمات الدخان. يا للغرور!»

كانت نيكول وناي تُراقبان ردود الأفعال الصادرة عن خطبة كينجي بعناية شديدة. لقد نصحه الكثير من مؤيديه بأن يُلقي خطابًا لطيفًا متفائلًا دون مناقشة أيِّ مشاكل عصيبة. ولكن الحاكم كان مُصممًا على أن يُلقي خطابًا هادفًا.

مالت ناي إلى نيكول وهمست في أُذنها قائلة: «لقد فقد انتباه الجمهور. فهو يتحدَّث بأسلوبٍ مُتحذلق أكثر مما يجب.»

سادت حالة من التململُ لا تُخطئها عين بين الحاضرين الذين تراجع عددهم الآن إلى حوالي النصف. وأبحر يخت ناكامورا، الذي كان راسيًا على مقربة من الشاطئ أثناء عرض الألعاب النارية، وذلك بعد لحظات من إلقاء الحاكم واتانابي لخطابه.

غيَّر كينجي موضوع حديثه، فانتقل من الحديث عن البيئة إلى الحديث عن فيروس «آر في ٤١» الارتجاعي. لمَّا كان هذا الموضوع من الموضوعات التي أثارت بلبلة في المستعمرة، زاد انتباه الجمهور زيادةً ملحوظةً. وأخذ الحاكم يشرح كيف أن طاقم العاملين في المجال الطبي في عدن الجديدة، تحت إشراف الدكتور روبرت تيرنر، قطع شوطًا طويلًا لفهم المرض ولكنه لا يزال يحتاج إلى إجراء أبحاثٍ شاملة أكثر ليُحدِّد كيفية علاجه. ثم انتقد بشدة الخوف الجامح الذي أدى إلى تمرير مشروع قانون يقضي بإلزام كل المُستعمِرين الذين يحملون أجسامًا مضادة لفيروس «آر في ٤١» في أجسادهم بارتداء أشرطةٍ حمراء حول أذرُعهم باستمرار، وذلك رغم استخدامه حقَّ الفيتو لمنع هذا.

أخذ عددٌ كبيرٌ من الجالِسين على المقاعد التي تقع على الجانب الآخر من نيكول وناي، معظمهم من الشرقيين؛ يُطلقون صيحات استهجان.

كان كينجي يقول: «... هؤلاء المساكين سيئي الحظ يُواجهون ما يكفي من الكرب ...»

صاح رجل يجلس خلف جماعة ويكفيلد وواتانابي: «ما هم إلا مجموعة من فتيات الليل والمِثليِّين.» ضحك من حوله وصفَّقوا.

«... لقد أكد الدكتور تيرنر مرارًا وتكرارًا أن هذا المرض مِثله مِثل معظم الفيروسات الارتجاعية، لا ينتقل إلا عن طريق الدم والسائل المنوي ...»

كان الجمهور قد بدأ يخرج عن السيطرة. وكانت نيكول تأمُل أن ينتبِه كينجي لما يحدث وأن يختصر تعليقاته. كان ينوي أن يُناقش حكمة (أو انعدام الحكمة في) التوسع في استكشاف المناطق التي تقع خارج عدن الجديدة من راما، ولكنه لاحظ أنه فقد انتباه الجمهور.

صمت الحاكم واتانابي لحظة ثم أطلق صفارةً عالية للغاية في مُكبر الصوت. مما أسكت المُستمِعين مؤقتًا. قال: «لم يبقَ سوى القليل من الملاحظات، ويجب ألا ينزعِج أحدٌ من كلامي ...

كما تعلمون، أنجبتُ أنا وزوجتي ناي توءمين. ونشعر بأن الله أغدق علينا بنِعَمه. في يوم الاستيطان هذا، أطلب من كلٍّ منكم أن يُفكر في أبنائه، وأن يتخيل يوم استيطانٍ آخَر بعد مائة بل ألف عام. تخيَّلوا أنكم جالسون وجهًا لوجهٍ مع ذُريتكم، مع أبناء أحفادكم. هل ستستطيعون أن تُخبروهم بأنكم فعلتم كل ما بوسعكم لتتركوا لهم عالمًا يجدون فيه فرصةً جيدة للسعادة وأنتم تتحدَّثون معهم وتَحملونهم بين أذرُعكم؟»

عاد الحماس يُسيطر على قلب باتريك. فقُرب انتهاء النزهة الخلوية دعاه ماكس إلى قضاء هذه الليلة واليوم الذي يلِيها في مزرعة باكيت. قال الشابُّ لوالدته: «لن يبدأ الفصل الدراسي الجديد في الجامعة حتى يوم الأربعاء. أتسمحين لي بالذهاب يا أمي؟ أرجوكِ!»

كانت نيكول لا تزال تشعر بالانزعاج حيال ردِّ فعل الجمهور على خطبة كينجي، ولم تستوعِب في البداية ما كان ابنها يطلُبه. فطلبت منه إعادة طلبِه ثم نظرت إلى ماكس. وسألته: «هل ستعتني بابني جيدًا؟»

ابتسمَ ماكس باكيت وأومأ برأسه إيجابًا. انتظر ماكس وباتريك حتى أنهى الآليون تنظيف كل النفاية التي خلَّفتها النزهة الخلوية، ثم توجَّها إلى محطة القطار معًا. بعد نصف ساعة كانا في محطة المدينة الرئيسية ينتظران القطار غير المُنتظِم الذي يتوجَّه إلى المنطقة الزراعية مباشرةً. على الرصيف المُواجه لهما كانت مجموعة من زملاء باتريك في

الكلية يركبون قطار هاكون. وصاح أحدُهم لباتريك قائلًا: «عليك أن تأتي. إنهم يُقدمون المشروبات للجميع مجانًا طوال الليل.»

شاهد ماكس عينَي باتريك تتبعان أصدقاءه الذين يستقلون القطار. فسأله: «ألم تذهب إلى فيجاس قط؟»

أجاب: «نعم يا سيدي. فوالداي ...»

«أتُحِب أن تذهب؟»

كان تردُّد باتريك هو كل ما يَحتاجُه ماكس. بعد ثوانٍ قليلة رِكِبا قطار هاكون مع كلِّ رفاق الحفل. قال ماكس وهما يركبان: «أنا لستُ مولعًا بالمكان. فهو يبدو زائفًا وسطحيًّا للغاية ... ولكن بالتأكيد يستحقُّ أن تراه، كما أنه مكان لا بأس من زيارته للتسلِية عندما تكون وحيدًا.»

قبل عامَين ونصف بقليل، بعد انتهاء مدة زيادة السرعة التي تحدُث يوميًّا مباشرةً، قدَّر توشيو ناكامورا أنه من المُحتمَل أن يبقى المستعمرون في عدن الجديدة وراما وقتًا طويلًا. وقرَّر أن يُصبح أغنى وأقوى شخصٍ في المستعمرة، حتى قبل عقد الاجتماع الأول للجنة الدستورية واختيارها نيكول دي جاردان ويكفيلد حاكمةً مؤقتةً. واعتمادًا على مؤيدِيه من السجناء الذين استقطبهم أثناء الرحلة من الأرض إلى المريخ على سانتا ماريا، وسَّع علاقاته الشخصية واستطاع أن يبدأ بناء إمبراطوريته فور سكِّ العملات وتأسيس البنوك في المستعمرة.

كان ناكامورا مُقتنعًا بأنَّ أفضل منتجاتٍ يمكن بيعها في عدن الجديدة هي المنتجات التي تمدُّ المُستعمرين بالمتعة والإثارة. وحقَّق أول مشروعٍ يقوم به — وهو كازينو قمار صغير — نجاحًا فوريًّا. بعد هذا، اشترى بعض الأراضي الزراعية التي تقع على الجانب الشرقي من هاكون وبنى أول فندقٍ في المستعمرة، إضافةً إلى كازينو أكبر من الكازينو الأول يقع بجوار البهو مباشرة. ثم أضاف ناديًا خاصًّا صغيرًا، تعمل به مُضيفات مُدرَّبات على الخدمة على الطريقة اليابانية، إلى جانب نادٍ صاخب يتَّسِم بالخلاعة. كانت كل أنشطته تُكلَّل بالنجاح. واستغل استثماراته بدهاء، حتى صار في وضعٍ يُمكنه من أن يعرض على الحكومة شراء خُمس غابة شيروود بعد انتخاب كينجي واتانابي حاكمًا مباشرةً، وأتاح عرضُه هذا لمجلس الشيوخ التراجُع عن زيادة الضرائب التي كانوا يحتاجونها للإنفاق على البحث المبدئي المُتعلق بفيروس «آر في ٤١».

أُزيل جزء من الغابة المزدهرة، وحلَّ محلَّها قصر ناكامورا الشخصي وكازينو/فندق فاخر ومنطقة ترفيه ومجمع مطاعم وعدة نوادٍ. وحتى يُعزز ناكامورا من احتكاره، أخذ يمارس ضغوطًا لإصدار تشريعٍ يقصر لعب القمار على المنطقة المُحيطة بهاكون حتى تحقَّق له ما أراد. ثم تمكن البلطجية العاملون معه من إقناع كل أصحاب المشاريع في هذا المجال بترك الساحة «للملك الياباني» وعدم منافسته في مجال القمار.

عندما وصل سلطانه إلى حدِّ منحِه حصانة، سمح لرفاقه بأن يبدءوا العمل في الدعارة والمخدرات، وهما من الأنشطة التي لم يحظُرهما مجتمع عدن الجديدة. وعند اقتراب نهاية فترة رئاسة واتانابي، عندما بدأت سياسات الحكومة تتعارَض بشكلٍ مُتزايدٍ مع جدول أعمال ناكامورا الشخصي، قرَّر أن يُسيطر على الحكومة أيضًا. ولكنه لم يُرِد أن يُرهق نفسه بتحمُّل أعباء هذه الوظيفة المُملَّة. إذ كان يحتاج إلى دُمية يحركها من وراء الستار. فجند الاسكتلندي السيئ الحظ إيان ماكميلان، الربَّان السابق لبينتا الذي خسر في أول انتخاباتٍ تجرى لاختيار الحاكم، وفاز بها كينجي واتانابي. عرض ناكامورا على ماكميلان منصب الحاكم مُقابل ولائه.

لا يُوجَد في المستعمرة كلها مكان يُشبه فيجاس ولو شبهًا طفيفًا. فالمعمار الأساسي في عدن الجديدة الذي صمَّمه الزوجان ويكفيلد والرجل النسر كان بسيطًا وعمليًّا إلى أقصى حد، فتصميماته الهندسية بسيطة وواجهاته غير مزخرفة. أما فيجاس، فكانت تتَّسِم بطابعٍ معماري يغلب عليه الإسراف في الزخرفة وعدم التناسُق؛ فهو في الواقع مزيج من عدة أساليب معمارية مختلفة. ولكن فيجاس كانت مُمتعة وكان الإعجاب واضحًا على الشاب باتريك أوتول وهو يدخل بصُحبة ماكس باكيت من البوابات الخارجية للمجمع.

قال: «أوه!»، وهو يُحدِّق في لافتة النيون الضخمة التي تُومِض أضواؤها فوق الباب.

قال ماكس وهو يُشعل سيجارة: «لا أريد أن أُقلل من إعجابك يا فتى ولكن الطاقة اللازمة لتشغيل هذه اللافتة الواحدة يُمكن أن تُساهم في تشغيل نحو كيلومتر مُربع من أجهزة تبادل الغازات.»

ردَّ باتريك: «تتحدَّث مثل أمي وأبي.»

كان لزامًا على كلِّ مَن يدخل كازينو القمار أو أي نادٍ من النوادي التوقيع في السجل الرئيسي. فناكامورا لا يترك شيئًا للصُّدفة. ويحتفظ بملفٍ كامل يضمُّ كل الأنشطة التي يقوم بها كل زائر من زوار فيجاس في كل مرة يدخل فيها. وهكذا كان يتسنَّى لناكامورا

التعرُّف على المجال الذي يَجب التوسع فيه، والأهم من ذلك، الرذيلة (أو الرذائل) المُفضَّلة لكل عميلٍ من عملائه.

دخل ماكس وباتريك كازينو القمار. وعندما كانا واقِفَين بجوار إحدى الطاولتَين اللتَين تُلعَب عليهما لعبة الكرابس حاول ماكس أن يشرح للشابِّ كيفية عمل اللعبة. ولكن باتريك لم يستطع أن يرفع عينَيه عن كوكبة النادلات اللاتي يرتدين ملابس فاضحة.

سأله ماكس: «هل سبق لك مُضاجعة أحدٍ من قبل يا فتى؟»

ردَّ باتريك: «ماذا تقصد يا سيدي؟»

«هل أقمتَ علاقة جنسية مع امرأةٍ من قبل؟»

أجاب الشاب: «لا يا سيدي.»

تردَّد في عقل ماكس صوت يقول إنه ليس مسئولًا عن تعريف الشابِّ بعالَم المُتعة. وذكَّره نفس الصوت بأنه في عدن الجديدة وليس في آركنسو، وإلا كان سيصحب باتريك إلى زانادو ويوفر له سُبل الدخول في أول علاقةٍ جنسية له.

كان هناك أكثر من مائة شخصٍ في كازينو القمار وهو عدد ضخم مقارنةً بحجم المستعمرة، وكان يبدو أن الجميع يستمتعون بوقتِهم. كانت النادلات يوزعنَ المشروبات المجانية بأقصى سرعةٍ مُمكنة، فاختطف ماكس كأس مارجاريتا وناول كأسًا آخر لباتريك.

قال باتريك: «لا أرى أيَّ آليين.»

رد ماكس: «لا يُوجَد آليون في الكازينو. بل إنهم لا يُديرون المناضد، مع أنهم أفضل في هذه المهمة من البشر. فالملك الياباني يعتقد أن وجودهم يقضي على غريزة المقامرة. ولكنه يَستخدمهم في المطاعم فقط.»

«ماكس باكيت، هذا أنت حتمًا.»

استدار ماكس وباتريك. كانت هناك شابَّةٌ جميلة ترتدي ثوبًا ورديًّا حريريًّا تقترِب منهما. وأردفت قائلة: «إنني لم أرك منذ أشهُر.»

قال ماكس بعد أن انعقد لسانُه عدَّةَ ثوانٍ على غير عادته: «مرحبًا يا سامانثا.»

قالت سامانثا وهي تُصوِّب رموشها الطويلة باتجاه باتريك: «ومن هذا الشاب الوسيم؟»

أجاب ماكس: «إنه باتريك أوتول. أحد ...»

هتفت سامانثا: «أوه، يا إلهي! لم أُقابل قطُّ أحد المُستعمِرين الأصليين.» أنعمتِ النظر في باتريك عدة ثوانٍ قبل أن تُتابع حديثها. فقالت: «أخبِرني يا سيد أوتول، أحقًّا أنك نمتَ عدة سنوات؟»

أومأ باتريك برأسه إيجابًا في خجَل.

«تقول صديقتي جولدي إن القصة بأكملها هراء، وإنك أنت وأُسرتك عملاء لوكالة الاستخبارات العالمية. إنها لا تُصدِّق أننا تركنا مدار المريخ. وتقول إن كل تلك المدة الكئيبة التي قضيتموها في الأحواض كانت أيضًا جزءًا من الخدعة.»

ردَّ باتريك بأدب: «أؤكد لك يا سيدتي أن أُسرتي نامت بالفعل سنوات. لقد كنتُ في السادسة من عمري فقط عندما وضعَني والداي في المضجع. وعندما استيقظتُ كنتُ في نفس الهيئة التي أنا عليها الآن تقريبًا.»

«إن ما تقوله مُبهر، حتى لو لم أكن أستوعِبه ... إذن يا ماكس ما الذي ستفعله؟ وبالمناسبة ألن تُعرِّفني عليه رسميًّا؟»

«آسف. باتريك، أُقدِّم لك الآنسة سامانثا بورتر، من ولاية ميسيسيبي العظيمة. كانت تعمل في زانادو ...»

قاطعَتْه سامانثا قائلة: «أنا فتاة ليل يا سيد أوتول. إحدى أفضل فتيات الليل ... هل قابلتَ فتاة ليلٍ من قبل؟»

احمرَّ وجه باتريك. وقال: «لا يا سيدتي.»

رفعت سامانثا ذقنه بإصبعها. وقالت لماكس: «إنه وسيم. أحضره. إن كانت هذه أول مرةٍ له فلن آخُذ منه نقودًا.» طبعَتْ قبلةً صغيرة على شفتَي باتريك ثم استدارت وانصرفت.

لم يستطِع ماكس أن يُفكر في أي شيءٍ مناسبٍ يقوله بعد أن انصرفت سامانثا. وخطر له أن يعتذِر، ولكنه قرَّر أن هذا لن يكون ضروريًّا. لفَّ ماكس ذراعَه حول باتريك واتَّجها إلى المنطقة الخلفية من كازينو القمار حيث تُوجَد مناضد مَبالغ الرهان المرتفعة في منطقة منفصلة.

قالت شابة تُعطيهم ظهرها: «حسنًا يا هذا. خمسة وستة تعني «يو».»

نظر باتريك إلى ماكس في دهشة. وقال وهو يُسرع الخُطى نحوها: «هذه كيتي.»

كانت كيتي مُنهمكة تمامًا في اللعبة. أخذت نفسًا سريعًا من سيجارتها وعبَّت الشراب الذي ناولها إيَّاه الرجل الأسمر الجالس على يمينها، ثم رفعت الزهر عاليًا فوق رأسها. وقالت وهي تناول مدير اللعبة الفيشة: «كلُّ الأرقام». وأضافت وهي تقذف الزهر في الناحية المُقابلة من المنضدة بضربةٍ سريعةٍ من معصمها: «هاك ستةً وعشرين وخمسة ماركات على الثمانية الصعبة ... الآن، يُصبح معك أربعة وأربعون.» صاح الأشخاص المُلتفُّون حول المنضدة بصوت واحد: «أربعة وأربعون.»

أخذت كيتي تقفز في مكانها واحتضنت خليلَها وعبَّت شرابًا آخَر وأخذت نفسًا طويلًا من سيجارتها.

ناداها باتريك وهي على وشك أن ترمي الزهر ثانيةً.

تسمَّرت والتفتت والنظرة المُتسائلة مُرتسمة على وجهها. قالت: «تبًّا. هذا أخي الصغير.»

اتجهت باضطرابٍ نحو أخيها لتُحييه، ومدير اللعبة واللاعبون الآخَرون على المنضدة يصيحون فيها لتُواصِل اللعب.

قال باتريك بهدوءٍ وهو يُعانقها: «إنك سكرانة يا كيتي.»

ردَّت عليه كيتي وهي تبتعِد عنه مُتجهة نحو المنضدة: «كلَّا يا باتريك. إنني أطير. أنا أطير نحو النجوم في مكوكي الخاص.»

استدارت نحو منضدة الكرابس ورفعت ذراعها اليُمنى عاليًا. وصاحت: «حسن، الآن، «يو». هل ستلعبون «يو»؟»

٢

عادت الأحلام تزور نيكول في الساعات الأولى من الصباح. استيقظت وحاولت أن تتذكر ما كانت تحلُم به ولكنها لم تستطِع أن تتذكَّر سوى مشاهد منفصلة من هنا وهناك. في أحد أحلامها رأت وجه أومه ظاهرًا بلا جسدِه. كان أومه — جدُّها الأكبر المنحدر من جماعة السينوفو — يُحذرها من شيءٍ ما ولكنها لم تستطع أن تفهم ما كان يقول. في حلمٍ آخر رأت ريتشارد يدخل في محيط هادئ، وبعدها مباشرة اندفعت موجةٌ عارمة نحو الشاطئ.

فركت نيكول عينَيها ونظرت إلى الساعة. كانت الساعة الرابعة إلَّا قليلًا. قالت لنفسها: «تقريبًا في نفس الموعد من كل صباح طوال هذا الأسبوع. ماذا تقصد؟» وقفت واتجهت إلى الحمام.

بعد دقائق كانت تقِف في المطبخ مُرتدية ملابس التمرين. شربت كوبًا من الماء. عاد اللينكولن الآلي إلى العمل بعد أن كان مُستندًا بلا حراك إلى حائط عند نهاية السطح الرخامي الموجود في المطبخ، واقترب منها.

سألها وهو يأخذ كوب المياه الفارغ منها: «أتودِّين أن أُعِد لك فنجانًا من القهوة يا سيدة ويكفيلد؟»

أجابته: «كلَّا يا لينك. سأخرج الآن. إذا استيقظ أحدٌ منهم أخبِره أنَّني سأعود قبل السادسة.»

سارت نيكول في الرواق مُتجهةً إلى الباب. وقبل أن تُغادر المنزل مرَّت بحجرة المكتب التي تقع عن يمين الممر. كانت الأوراق مبعثرةً على مكتب ريتشارد، بجانب الكمبيوتر الجديد الذي صمَّمه وجمَّعه بنفسه وفوقه. كان ريتشارد فخورًا للغاية بجهاز الكمبيوتر الجديد الخاص به الذي حثَّته نيكول على صنعه، لكن من غير المُحتمَل أن يحتلَّ هذا الكمبيوتر بالكامل محل محبوبته: الكمبيوتر الجيبي الرائع الذي صنعته وكالة الفضاء العالمية. فريتشارد لم يكن يُفارق ذلك الكمبيوتر المحمول الصغير منذ ما قبل انطلاق نيوتن.

ميزت نيكول خطَّ ريتشارد على بعض الأوراق، ولكنها لم تستطِع أن تقرأ لغة الكمبيوتر الرمزية التي يستخدمها. فقالت لنفسها وقد انتابها شعور بالذنب: «كان يقضي وقتًا طويلًا هنا مؤخَّرًا. مع أنه يؤمِن بأن ما يفعله خطأ.»

في البداية رفض ريتشارد المشاركة في جهود حلِّ شفرة الخوارزمية التي تحكم الطقس في عدن الجديدة. تذكرت نيكول النقاش الذي دار بينهما بوضوح. قالت: «لقد اتفقنا على المشاركة في هذا النظام الديمقراطي. فإذا ما قرَّرْنا أنا وأنت أن نتجاهل قوانينه فإننا بهذا نضرب مثلًا سيئًا للآخرين ...»

قاطعها ريتشارد: «هذا ليس قانونًا. إنه مجرد قرار. وتعلمين مثلما أعلم أنه يستند على فكرةٍ سخيفة للغاية. لقد عارضتِ هذا القرار أنتِ وكينجي. وفضلًا عن ذلك، ألَم تقولي لي ذات مرةٍ إنه من واجبنا أن نقِف في وجه غباء الأغلبية؟»

ردَّت نيكول: «أرجوك يا ريتشارد. يُمكنك بالطبع أن توضح للجميع سبب رفضك للقرار. ولكن محاولة الوصول إلى الخوارزمية هذه أصبحت قضيةَ رأيٍ عام. فالمُستعمرون يعلمون أننا قريبون من أسرة واتانابي. وإذا تجاهلنا القرار فسيبدو وكأن كينجي يتعمَّد محاولة الحط من ...»

بينما كانت نيكول تتذكر الحوار الذي دار بينها وبين زوجها في وقتٍ سابق، راحت عيناها تدوران في الغرفة بلا هدف. وعندما عاد ذهنها إلى التركيز على الحاضر، اندهشت بعض الاندهاش لأنها وجدت أن عينَيها ظلَّتا تُحدِّقان في ثلاثة أشكالٍ صغيرة واقفة في رفٍّ مفتوح فوق مكتب ريتشارد. قالت لنفسها: الأمير هال وفولستاف وشين. كم من الوقت مضى منذ أن سلَّانا ريتشارد بكم؟

عادت نيكول بذاكرتها إلى الأسابيع الطويلة المُملَّة التي أعقبت استيقاظ أُسرتها بعد سنواتٍ من النوم. عندما كانوا ينتظرون وصول المُستعمرين الآخرين، كان مصدر

تسليتهم الأساسي هو الآليين الذين صنعهم ريتشارد. لا تزال تتذكَّر ضحكات الأطفال المرحة وريتشارد وهو يبتسم في سرور. قالت لنفسها: كانت الحياة في تلك الأوقات أبسط وأسهل من الحياة التي نعيشها الآن. أغلقت حجرة المكتب وواصلت سيرَها في الممر. وتابعت حديثها مع نفسها قائلة: أصبحتِ الحياةُ معقدة حتى إنها لا تحتمِل الترفيه. الآن لا يسع أصدقاءك الصِّغار سوى الجلوس على الرفِّ في صمت.

عندما خرجَتْ في الممشى، توقفت لحظةً تحت عمود الإنارة بجوار موقف الدراجة. ترددَتْ لحظة وهي تنظر إلى دراجتها، ثم استدارت وتوجَّهَت إلى الفناء الخلفي. بعد دقيقة، كانت قد عبرت المنطقة المكسوة بالعشب التي تقع خلف المنزل ووصلت إلى الطريق الضيق الذي يلتفُّ صعودًا حتى يؤدي إلى قمة جبل الأوليمب.

مشَتْ نيكول بنشاطٍ وخفة. كانت غارقة بشدة في أفكارها. ولم تكن تنتبه إلى ما يُحيط بها وقتًا طويلًا. إذ أخذ عقلها يقفز من موضوع إلى آخر، من المشكلات التي تهدد عدن الجديدة، إلى الأحلام الغريبة التي تأتيها، إلى قلقها على أبنائها وخاصة كيتي.

وصلت إلى نقطة تشعَّب عندها الطريق المُلتف. كانت هناك لافتة صغيرة جميلة تقول إن الطريق الأيسر يؤدي إلى محطة التلفريك، التي تقع على بُعد ثمانين مترًا، حيث يُمكن الركوب إلى قمة جبل الأوليمب. اكتشف النظام الإلكتروني وجود نيكول عند مُفترق الطريق، وأمر جارسيا آليًّا بأن ينطلق من اتجاه عربة تلفريك إلى نيكول.

صاحت نيكول: «لا عليك. سأصعد مشيًا.»

أخذ المشهد يزداد جمالًا كلما صعدت الطرق المُتعرجة المحفورة في جانب الجبل الذي يُواجِه المستعمرة. توقفت نيكول عند موضعٍ يرتفع عن الأرض خمسمائة متر ويبعُد عن منزلها مسافة تقلُّ بقليلٍ عن ثلاثة كيلومتر، ونظرت إلى عدن الجديدة وهي تبدو من بعيد. كانت ليلةً السماء فيها صافية، تنخفِض فيها نسبة الرطوبة أو تكاد تكون مُنعدمة.

قالت نيكول لنفسها: «لن تُمطر اليوم»، وقد لاحظَت أن السماء دائمًا ما تكون مشبعة ببخار الماء صباح الأيام التي تشهد هطول أمطار. نظرت نيكول إلى أسفل منها مباشرة فرأت بوفوا، ومكَّنَتها الأضواء الصادرة من مصنع الأثاث الجديد من تمييز معظم المباني المألوفة في منطقتها رغم بُعد المسافة. في الشمال كانت سان ميجيل مُختبئة خلف الجبل الضخم. ولكنها لمحت الأضواء الساطعة التي تُميز فيجاس التي بناها ناكامورا في الجانب الآخر البعيد من المدينة المركزية التي يلفُّها الظلام.

وعلى الفور انقلب مزاجها وتذمَّرت في صمت: هذا المكان اللعين يظلُّ مفتوحًا طوال الليل، ويستهلك مصادر طاقة مهمة ويُقدِّم متعًا مُشينة.

كان من المستحيل ألا تفكر نيكول في كيتي وهي تنظر إلى فيجاس. قالت لنفسها: «يا لها من موهبة»، واعتصر قلبَها ألمٌ شديد وهي تستحضِر صورة ابنتها في خيالها. لم تستطع أن تمنع نفسها من التساؤل عما إذا كانت كيتي لا تزال مُستيقظة ومنخرطة في تلك الحياة الوهمية البراقة التي تدبُّ في الجانب الآخر من المُستعمرة. ثم قالت في نفسها وهي تهزُّ رأسها: «يا للخسارة!»

كثيرًا ما تناقشت هي وريتشارد حول أحوال كيتي. فهما لا يتشاجران إلَّا حول موضوعَين: كيتي، وسياسة عدن الجديدة. ولم يكن من المُمكن أن يُقال إنهما يتشاجران حول السياسة. فريتشارد يرى أن جميع السياسيين — ما عدا نيكول — وربما كينجي واتانابي، ليس لهم مبادئ أصلًا. وكانت طريقتُه في النقاش قوامها إطلاق آراءٍ عامَّة عن الأحداث السخيفة التي تقع في مجلس الشيوخ، أو في قاعة المحكمة التي تترأسها نيكول، ثم يرفض أن يسترسل في مناقشة الموضوع بعد ذلك.

أما كيتي فأمرها مختلف. إذ إن ريتشارد دائمًا ما يقول إن نيكول تقسو عليها أكثر مما ينبغي. قالت نيكول لنفسها وهي تُحدق في الأضواء البعيدة: إنه يلومُني أيضًا لأنني لا أقضي ما يكفي من الوقت معها. ويؤكِّد أن انهماكي في سياسة المستعمرة جعل الأولاد يفتقدون وجود أمِّهم وهم في أهم مراحل حياتهم.

لم تعُد كيتي تأتي إلى البيت إلَّا لِمامًا. فمع أنهم لا يزالون يحتفظون لها بغرفتها فإنها تُمضي مُعظم الليالي في إحدى الشقق الفاخرة التي بناها ناكامورا في مجمع فيجاس.

سألت نيكول ابنتَها ذات ليلةٍ قبل أحد الشجارات المعتادة: «وكيف تدفعين الإيجار؟»

أجابت كيتي بلهجةٍ عدوانية: «ماذا تعتقِدين يا أمي؟ إنني أعمل. لديَّ ما يكفي من الوقت. فأنا لا أدرس سوى ثلاث مواد في الجامعة.»

سألت نيكول: «وما نوع العمل الذي تقومين به؟»

أجابت كيتي بغموض: «إنني مُضيفة، أقوم بتسلية الروَّاد … وأُلبي جميع طلباتهم.»

أشاحت نيكول بوجهها عن أضواء فيجاس، وقالت لنفسها: بالطبع، سبب اضطراب كيتي مفهوم. فهي لم تمُر بمرحلة المراهقة قط. ولكن لا يبدو أنها تتحسَّن على الإطلاق … وأخذت نيكول تصعد الجبل بسرعةٍ من جديدٍ كي تُبدِّد كآبتها المتزايدة.

هذا الجبل كانت تكسوه أشجار سميكة طولها خمسة أمتار على طول المساحة المُمتدَّة على ارتفاعٍ يتراوح بين خمسمائة متر وألف متر فوق الأرض. في هذه المنطقة كان الطريق الذي يؤدي إلى القمة يصعَد بين الجبل والجدار الخارجي للمُستعمرة، في منطقةٍ مظلمة للغاية تمتدُّ إلى أكثر من كيلومتر. وكانت نقطة المُراقبة التي تُطلُّ على الشمال وتقع بالقُرب من نهاية الطريق هي المنطقة الوحيدة غير المظلمة.

وصلت نيكول إلى أعلى نقطةٍ في صعودها. وتوقفت عند نقطة المُراقبة وأخذت تُحدق في سان ميجيل. قالت لنفسها وهي تهزُّ رأسها: ذلك هو الدليل على أننا فشِلنا هنا في عدن الجديدة. فرغم كلِّ شيءٍ يوجَد فقر ويأس في الجنة.

لقد أحسَّت باقتراب المشكلة، فقد تنبأت بوقوعها بدقةٍ قرب نهاية العام الذي قضته في الحكم المؤقَّت. ومن المفارقات أنَّ الظروف التي تمخَّضت عنها مشكلة سان ميجيل — التي تصل مستويات المعيشة فيها إلى نصف مستوى المعيشة في المدن الثلاث الأخرى — قد بدأت بعد وصول بينتا مباشرة. فقد استقرَّ معظم المُستعمرين من تلك المجموعة الأولى في المدينة التي تقع في الجنوب الشرقي والتي أصبحت فيما بعدُ بوفوا، مما أرسى سابقة تأكدت بعد وصول ركاب نينيا إلى راما. وبدأ تنفيذ نظام حرية الاستيطان (أي حرية اختيار مكان الإقامة)، فقرَّر مُعظم الشرقيِّين العيشَ معًا في هاكون، واختار الأوروبيون والأمريكيون البيض وسكان أواسط آسيا أن يعيشوا إما في بوسيتانو أو فيما تبقَّى من بوفوا. أما المكسيكيون وغيرهم من مواطني أمريكا اللاتينية والأمريكيون السود والأفارقة فابتلعَتهم سان ميجيل.

بصفتها حاكمة، حاولت نيكول أن تُنهي هذا الفصل العنصري القائم في المستعمرة عن طريق تطبيق نظام إعادة استيطانٍ مثالي يقوم على إعادة توزيع السكان، بحيث تسكن في كل مدينة من المدن الأربع نِسَب من الأعراق المختلفة لتُمثل المستعمرة ككل. كان من الممكن أن يُقبَل اقتراحها في أول أيام المستعمرة، خاصة بعد الأيام التي قضَوها في قاعة التنويم عندما كان معظم المواطنين ينظرون إلى نيكول على أنها شخصية ذات قدسية. ولكن بعد مرور أكثر من عامٍ كان الوقت قد فات. فقد تسبَّبت مشاريع القطاع الخاص في حدوث فجواتٍ في كلٍّ من الثروة الشخصية وقيمة العقارات. وحتى أشد مؤيدي نيكول رأوا أن فكرة إعادة الاستيطان في تلك المرحلة غير عملية.

بعد نهاية المدة التي شغلتها نيكول في منصب الحاكمة، رحَّب مجلس الشيوخ بتعيين كينجي لها واحدة من القضاة الخمس الدائمين في عدن الجديدة. غير أن صورتها في

المستعمرة قد تضرَّرَت كثيرًا بعدما شاعت الآراء التي أبدتها دفاعًا عن خطة إعادة الاستيطان التي وُئدت في مهدها. فقد قالت نيكول إنه من الضروري أن يسكن المستعمرون في أحياءٍ صغيرة مشتركة حتى يُصبح لدَيهم وعي مُستنير بالاختلافات الثقافية والعرقية. وقد وصف مُنتقدوها آراءها بأنها «في منتهى السذاجة».

أخذت نيكول تنظر إلى أضواء سان ميجيل المُتلألئة دقائق أخرى وهي تستريح بعد رحلة صعود الجبل الشاقة. وقبل أن تستدير وتعود إلى بيتها في بوفوا تذكَّرَت فجأة مجموعةً أخرى من الأضواء المُتلألئة، في مدينة دافوس السويسرية على كوكب الأرض. في آخِر رحلة تزلُّج قامت بها نيكول، تناولت هي وابنتها جنيفياف العشاء على الجبل المطل على دافوس، وبعد تناول الطعام، وقفَتا في شرفة المطعم وقد تشابكَت أيديهما في البرد المُنعش. وكانت أضواء دافوس تلمع كالمجوهرات الصغيرة تحتهما بعدة كيلومترات. دمعت عينا نيكول وهي تُفكر في ابنتها الكبرى التي لم ترَها منذ سنوات، وتذكَّرت جمالها وخفة ظلِّها. وتذكَّرت الصور التي أحضرَها صديقها الجديد من الأرض، فتمتمت وهي تبدأ السير قائلة: أشكرك مرةً أخرى يا كينجي لأنك سمحت لي أن أعايش معك أحداث زيارتك لجنيفياف.

عاد الظلام يُخيم مرة أخرى من حول نيكول وهي تعود أدراجها وتنزل جانب الجبل. صار الجدار الخارجي للمُستعمرة عن يسارها الآن. وراحت تُواصل التأمُّل في الحياة في عدن الجديدة. وقالت لنفسها: نحتاج إلى شجاعةٍ كبيرة الآن. نحتاج إلى الشجاعة وإلى القيم وإلى الرؤية المُستقبلية. ولكنها كانت في قرارة نفسها تتوجَّس أن المُستعمرين مُقبلون على الأسوأ. وأخذت تُفكر في كآبةٍ قائلة: للأسف، ظلَّ الناس ينظرون إليَّ أنا وريتشارد، بل والأطفال، على أننا مُختلفون عنهم، رغم كلِّ ما حاولنا فعله. ومن المُستبعَد أن نتمكن من تغيير أي شيءٍ تغييرًا يُذكر.

تحقق ريتشارد من أن الأينشتاين الآليين الثلاثة نسَخوا على أتمِّ وجهٍ كل الإجراءات والبيانات التي كانت ظاهرة على الشاشات المُختلفة في حجرة مكتبه. وبينما كان الأربعة يُغادرون المنزل، قبَّلته نيكول.

قالت: «أنت رجل رائع يا ريتشارد ويكفيلد.»

ردَّ عليها وهو يُحاول أن يبتسِم: «أنت الوحيدة التي ترَين هذا.»

قالت: «أنا أيضًا الوحيدة التي تعرف هذا.» صمتت لحظة. ثم تابعت حديثها قائلةً: «أنا أُقدِّر ما تفعله يا عزيزي. أعرف ...»

قاطعها قائلًا: «لن أتأخَّر كثيرًا. فليس أمامي أنا والآليين الأينشتاين الثلاثة سوى تجريب فكرتَين أساسيتَين ... إن لم ننجح اليوم فسنكفُّ عن المحاولة.»

أسرع ريتشارد إلى محطة بوفوا والأينشتاين الثلاثة في إثره، واستقلَّ القطار المُتجه إلى بوسيتانو. توقف القطار قليلًا بجوار الحديقة الكبيرة المُطلة على بحيرة شكسبير التي احتفلوا فيها بيوم الاستيطان منذ شهرَين. بعد دقائق، نزل ريتشارد ومعاونوه في محطة بوسيتانو وساروا عبر البلدة إلى الركن الجنوبي الغربي من المُستعمرة. وهناك، سُمِح لهم بعبور مخرج المُستعمرة المؤدِّي إلى الحلقة التي تُطوِّق عدن الجديدة بعد أن تحقَّق حارس بشري واثنتان من آليات جارسيا من بطاقات الهوية. خضعوا لتفتيشٍ إلكتروني آخَر سريع، ثم وصلوا إلى الباب الوحيد الذي شُقَّ في الجدار الخارجي السميك المُحيط بالمنطقة السكنية. بعده، انفتح الباب فجأة ودخل ريتشارد منه ومن خلفه الآليون إلى راما نفسها.

ثارت مخاوف ريتشارد عندما صوَّت مجلس الشيوخ منذ ثمانية عشر شهرًا لمصلحة قرارٍ بصنع وتشغيل مسبارٍ ثاقب لاختبار الأحوال البيئية في راما خارج وحدة الإسكان مباشرةً. وكان ريتشارد عضوًا في اللجنة التي راجعت التصميمَ الهندسيَّ للمسبار، وكان مُتخوفًا من أن تكون البيئة الخارجية غير مواتية ومن أن يعجز تصميم المسبار عن حماية سلامة المنطقة السكنية كما ينبغي. وقد تكلف الأمر قدرًا كبيرًا من الوقت والمال لضمان أن تكون حدود عدن الجديدة مُحكمة الغلق على نحوٍ لا يسمح بتأثُّرها بالبيئة الخارجية طوال العملية بأكملها، بما في ذلك المدة التي يحفر المسبار فيها ببطء في الجدار.

كان ريتشارد قد فقد مصداقيتَه في المُستعمرة عند اكتشاف أنَّ بيئة راما لا تختلف عن بيئة عدن الجديدة اختلافًا كبيرًا. فمع أنَّ الظلام كان يُخيم في الخارج باستمرار ومع أن بعض التغييرات الدورية الطفيفة تطرأ على الضغط الجوي وعلى العناصر الجوية، فإن البيئة المُحيطة في راما كانت مشابهةً بشدة لبيئة المستعمرة، حتى إن المُستكشفين البشَر لم يكونوا في حاجةٍ إلى ارتداء بذَلِهم الفضائية. وبعد أسبوعين من كشف المسبار الأول عن أن جوَّ راما غير مؤذٍ كان المُستعمرون قد أتمُّوا رسم خريطة لمنطقة السهل المركزي التي أصبحوا يستطيعون الآن الوصول إليها.

كانت عدن الجديدة ومبنًى آخر مُستطيل الشكل في الجنوب يكاد يكون نسخةً مطابقة منها — يعتقد ريتشارد ونيكول أنه منطقة سكنية لنوعٍ آخر من أنواع الحياة — تُحيط بهما منطقة أكبر ومُستطيلة الشكل أيضًا، وتفصلها عن باقي راما حواجز رمادية معدنية

شاهقة. وكانت الحواجز الموازية للجانبَين الشمالي والجنوبي عبارةً عن امتدادٍ لجدران المنطقتَين السكنيتَين أنفسهما. لكن كانت تُحيط بالمنطقتَين السكنيتَين المُسيَّجتَين، من الجانبين الشرقي والغربي، مساحة مفتوحة تُقدَّر بنحو كيلومترين.

في الزوايا الأربع لهذا المُستطيل الخارجي كانت توجَد أبنية أسطوانية عملاقة. كان ريتشارد والفنيون الآخرون في المستعمرة يعتقدون أن تلك الأسطوانات الغامضة تحتوي على السوائل وآليات الضخ المستخدمة للحفاظ على توازن الأحوال البيئية داخل المناطق السكنية.

تُغطي المنطقة الخارجية الجديدة — غير المسقوفة إلا في الجانب المقابل لراما نفسها — معظم النصف الشمالي من مركبة الفضاء. ولا يُوجَد في السهل المركزي الواقع بين المنطقتَين السكنيتَين سوى كوخٍ معدني ضخم تعلُوه قبة، يُشبِه منازل الإسكيمو. وكان هذا الكوخ هو مركز التحكُّم في عدن الجديدة، ويقع على بُعد نحو كيلومترين من جنوبي جدار المستعمرة.

عندما خرج ريتشارد والآليون الأينشتاين من عدن الجديدة، توجهوا إلى مركز التحكم، حيث كانوا يعملون معًا طوال قرابة أسبوعين في محاولةٍ لاختراق دوائر التحكم المنطقية الأساسية التي تتحكم في الطقس داخل عدن الجديدة. فعلى الرغم من اعتراض كينجي واتانابي، خصص مجلس الشيوخ حِصصًا من الميزانية لتمويل «الجهود الدءوبة» التي يبذلها «أفضل مهندسي» المستعمرة لتغيير خوارزمية الطقس الفضائي. وقد أعلنوا هذا التشريع بعد أن استمعوا إلى شهادة مجموعة من العلماء اليابانيين الذين قالوا إن هذا سيمكنهم من الحفاظ على استقرار الأحوال الجوية في عدن الجديدة وإن ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون والدخان في الهواء.

لاقى القرار قبولًا لدى السياسيين. ففي حالة عدم اضطرارهم إلى حظر حرق الأخشاب ونشر شبكة مُعدَّلة من أجهزة تبادل الغازات، وفي حالة إذا لم يكن من الضروري فعل شيءٍ سوى تعديل بضعة معاملات في الخوارزمية الفضائية التي صُمِّمت أصلًا بناءً على بعض الافتراضات التي لم تعُد صحيحة، إذن …

كان ريتشارد يمقُت ذلك الأسلوب في التفكير. وكان يُطلق عليه أسلوب التسويف والمماطلة. ومع هذا فقد وافق على تولي المهمة استجابةً لتوسُّلات نيكول، ونظرًا إلى فشل المهندسين الآخرين في فهم أيٍّ من جوانب عملية التحكم في الطقس فشلًا ذريعًا. لكنه أصر على أن يعمل بمفرده دون أن يتلقى مساعدة من أحد سوى الأينشتاين الآليين.

في اليوم الذي عزم ريتشارد أن يقوم فيه بآخِر محاولة لفك شفرة الخوارزمية المتحكمة في طقس عدن الجديدة توقف هو والآليون بالقرب من موقع يبعُد نحو كيلومتر عن مخرج المستعمرة. فقد رأوا مجموعةً من المهندسين والمعماريِّين يعملون حول منضدة كبيرة جدًّا تحت أضواء مبهرة.

«لن يكون حفر القناة صعبًا، فالتربة ناعمة للغاية.»

«لكن ماذا عن الصرف الصحي؟ هل نبني بالوعات أم نُعيد المخلَّفات إلى عدن الجديدة لمُعالجتها؟»

«ستكون احتياجات هذه المُستوطنة من الطاقة هائلة. فالطاقة لازمة لإنارة هذا الظلام الحالك وأيضًا لتشغيل المعدات. كما أننا بعيدون عن عدن الجديدة حتى إننا مُضطرون للإبلاغ عن الخسائر غير العادية هاتفيًّا ... ولا يمكن أن نستخدِم ما لدَينا من مواد مُوصلة فائقة لأنها أخطر من أن تُستخدَم لهذا الغرض.»

شعر ريتشارد بمزيجٍ من الاشمئزاز والغضب وهو يستمع إلى هذه الحوارات. فما كان يقوم به المهندسون والمِعماريون الآن هو دراسة جدوى لبناء مدينةٍ خارجية يعيش فيها المصابون بفيروس «آر في ٤١». هذا المشروع المُسمى أفالون هو ثمرة تسوية سياسية واهية بين الحاكم واتانابي والمعارضة. فقد سمح كينجي بتمويل هذه الدراسة ليُثبت أنه مُتفتح فيما يتعلق بقضية مواجهة مشكلة فيروس «آر في ٤١».

واصل ريتشارد والأينشتاين الثلاثة السير جنوبًا. وعند شمال مركز التحكم مرُّوا بمجموعة من البشر والآليين يتوجَّهون نحو موقع الاستكشاف في المنطقة السكنية الثانية وهم يحملون آلات ضخمة.

قالت ميريلين بلاكستون، وهي مهندسة بريطانية مثل ريتشارد، كان قد رشَّحها لرئاسة مشروع الاستكشاف: «أهلًا، ريتشارد.» وُلِدت ميريلين في مدينة تونتون بمقاطعة سومرست. وحصلت على بكالوريوس الهندسة من جامعة كامبريدج عام ٢٢٣٢، وهي تتمتع بكفاءة عالية.

سألها ريتشارد: «كيف يسير العمل؟»

قالت ميريلين: «تعال، ألقِ نظرة إن كان لديك وقت.»

ترك ريتشارد الأينشتاين الثلاثة عند مركز التحكُّم وصحب ميريلين وفريقها إلى المنطقة السكنية الثانية الواقعة على الجانب الآخر من السهل المركزي. تذكَّر وهو في سيره الحوارَ الذي دار بينَه وبين كينجي واتانابي وديميتري أولانوف في عصر أحد الأيام في مكتب الحاكم قبل حصول مشروع الاستكشاف على الموافقة الرسمية.

قال ريتشارد: «أُريد أن أؤكد أنني أعترض تمامًا على أيٍّ من محاولات التعدِّي على تلك المنطقة السكنية الأخرى. فأنا ونيكول على يقينٍ تامٍّ من أن بها نوعًا آخر من المخلوقات. فليست ثمة أسباب قوية تدعو لاقتحامها.»

ردَّ عليه ديميتري: «ماذا لو كانت فارغة؟ ماذا لو أنهم خصَّصوها لنا في ذلك المكان مُفترِضِين أننا أذكياء بما يكفي لنستشف كيف نستخدِمُها؟»

صاح ريتشارد: «يا ديميتري، هل استوعبتَ كلمةً مما كنتُ أقوله لك أنا ونيكول طوال هذه الأشهر؟ إنك ما زلت تتمسك بفكرة سخيفة تُفسر مكانتنا في الكون من منظور التفوُّق البشري. إنك تفترض أننا كائنات متفوقة لأننا النوع المُهيمن في كوكب الأرض. ولكن هذا غير صحيح. لا بد أن هناك مئات ...»

قاطعَه كينجي بصوتٍ هادئ قائلًا: «ريتشارد، نعرف رأيك عن هذا الموضوع. لكن مُستعمري عدن الجديدة لا يُشاطرونك الرأي. فهم لم يرَوا الرجل النسر أو الأوكتوسبايدر أو أيًّا من المخلوقات الرائعة الأخرى التي تتحدَّث عنها. وهم يريدون أن يعرفوا إن كان أمامنا مجال للتوسع ...»

قال ريتشارد لنفسه وهو يقترب مع فريق الاستكشاف من المنطقة السكنية الثانية: إذن كان كينجي خائفًا حينها. وهو لا يزال خائفًا من احتمال تغلُّب ماكميلان على أولانوف في الانتخابات مما يضع المُستعمرة تحت رحمة ناكامورا.

بدأ اثنان من الأينشتاين العمل فور وصول الفريق إلى موقع الاستكشاف. فأخذا يُركِّبان بعنايةٍ حفارًا صغير الحجم يعمل بالليزر في الثُّقب الذي سبق حفره. وبعد خمس دقائق بدأ الحفَّار يُوسِّع ببطءٍ الثقب الموجود في الجدار المعدني.

سأل ريتشارد: «ما المسافة التي تمكنتم من حفرها؟»

أجابت ميريلين: «نحو خمسة وثلاثين سنتيمترًا حتى الآن. فنحن نتقدَّم ببطءٍ شديد. إن كان سُمك ذلك الجدار يُساوي نفس سُمك جدار منطقتنا السكنية فسنستغرق ثلاثة أو أربعة أسابيع قبل أن نحفره حتى الجانب الآخر ... بالمناسبة، يشير التحليل الطيفي لمكونات الجدار إلى أنها من نفس المادة التي يتكون منها جدارنا.»

«وماذا بعد أن تخترقوا الجدار إلى الداخل؟»

ضحِكَت ميريلين. وقالت: «لا تقلق يا ريتشارد. فنحن نتبع كل الإجراءات التي أوصيت بها. قبل أن ننتقل إلى المرحلة التالية سنُمضي أسبوعَين على الأقل في المراقبة دون فعل شيء، وسنُعطيهم فرصةً للرد علينا، هذا إن كانوا بالداخل حقًّا.»

كان الشك واضحًا في صوتها. فقال ريتشارد: «حتى أنت يا ميريلين. ماذا أصاب الجميع؟ أتظنِّين أنني أنا ونيكول والأولاد اختلقْنا كل تلك القصص؟»

ردَّت عليه: «البيِّنة على من ادَّعى.»

هز ريتشارد رأسه. وهمَّ بأن يُجادلها، لكنه تذكَّر أن عليه القيام بمهامَّ أهم.

فأمضى دقائق قليلة في حوار مهذب عن النواحي الهندسية، ثم عاد إلى مركز التحكم حيث كان ينتظره الآليون الأينشتاين الثلاثة.

ما يُعجب ريتشارد في العمل مع آليي الأينشتاين هو أنهم يتيحون له تجربة الكثير من الأفكار في الوقت نفسه. فمتى خطرت له فكرة جديدة حدَّد ملامحها لأحد الآليين وهو مُطمئن إلى أنه سيُنفذها على أكمل وجه. ومع أن الأينشتاين لم يقترحوا على ريتشارد أفكارًا جديدة فقد كانوا مُزوَّدين بذاكراتٍ ممتازة وكثيرًا ما كانوا يلفتون انتباه ريتشارد عندما تتشابَه إحدى أفكاره بأسلوب آخر سبق أن طبَّقَه وباءَ بالفشل.

في أول الأمر، حاول جميع مهندسي المستعمرة المُكلَّفين بتعديل خوارزمية الطقس التوصُّلَ إلى فهم كيفية عمل الكمبيوتر الفضائي الفائق الموجود في منتصف مركز التحكُّم. وكان هذا هو خطأهم الأساسي. أما ريتشارد فكان يعلم مُسبقًا أن العمليات الداخلية لهذا الكمبيوتر ستكون أشبه بالطلاسم بالنسبة إليه؛ لذا فقد ركز جهوده على تحليل الإشارات التي تخرج من الكمبيوتر الضخم وتحديدها. وافترض أن البنية الأساسية للعملية لا بدَّ أن تكون مباشرة. وأنها كالتالي: تُحدد مجموعة من قياسات الأحوال المناخية في عدن الجديدة في وقتٍ مُحدد. ثم تستخدِم الخوارزمية تلك القياسات لتصوغ الأوامر التي تُنقَل بطريقةٍ ما إلى الهياكل الأسطوانية الضخمة، حيث يحدُث النشاط الفيزيائي الفعلي الذي يؤدِّي إلى تعديل الغلاف الجوي داخل المنطقة السكنية.

لم يستغرق ريتشارد وقتًا طويلًا ليرسم رسمًا تخطيطيًّا لطريقة عمل ذلك النظام. فقد كان واضحًا أن هناك نوعًا من التواصُل الكهرومغناطيسي بين مركز التحكم والبنايات الأسطوانية، وذلك لعدم وجود وصلاتٍ كهربائية مباشرة تربط بينهما. لكن يبقى سؤال هو: ما نوع هذا التواصُل الكهرومغناطيسي؟ عندما قام ريتشارد بإجراء التحليل الطَّيفي ليتوصَّل إلى طول موجات الاتصال وجدَ عددًا كبيرًا من الإشارات المُحتمَلة.

كان تحليل هذه الإشارات وفهمها كالبحث عن إبرةٍ في كومة قش. توصَّل ريتشارد — بمساعدة آليي الأينشتاين — إلى أن مُعظم الإشارات المُرسَلة نطاقها التردُّدي من الموجات

الكهرومغناطيسية المتناهية القصر. ظلَّ هو وآليو الأينشتاين طوال أسبوع يُصنفون الموجات الكهرومغناطيسية القصيرة، ويُقارنون الأحوال المناخية في عدن الجديدة بعدَ وقبل إرسالها، ويُحاولون تعديل مجموعة المُعاملات التي تتحكَّم في قوة استجابة الواجهة من جهة الأسطوانات. وأثناء ذلك الأسبوع أيضًا اختبر ريتشارد جهازًا محمولًا لإرسال الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية القِصَر، وتأكد من صلاحيته للعمل، وذلك بعد أن انتهى من صنعه بمساعدة الآليين. وكان يهدف من ذلك إلى أن يُرسل إلى الأسطوانات إشارةً تحمل أمرًا وكأنها صادرة من مركز التحكُّم.

باءت أول محاولة جادة يقوم بها في اليوم الأخير بالفشل الذريع. وخمَّن ريتشارد أن سبب المشكلة قد يكون مدى دقَّة توقيت الإرسال، فصنع هو وآليو الأينشتاين نظامًا يتحكم في تسلسل الموجات بحيث يُمكِّنهم من إرسال الإشارة بدقةٍ متناهية تُحسب بالفيمتوثانية، وبهذا تستقبل الأسطوانات الأمر في غضون مدةٍ زمنية وجيزة للغاية.

بعد أن أرسل ريتشارد إلى الأسطوانات ما ظنَّ أنه مجموعة جديدة من المعاملات بلحظات، انطلق إنذار مُدَوٍّ في مركز التحكم. وبعد ثوانٍ ظهرت صورة شبَحِيَّة للرجل النسر فوق ريتشارد والآليين.

قالت الصورة الهولوجرافية المُجسَّمة: «أيها البشر احذروا بشدة. فقد تطلَّب خلقُ التوازن الحساس الذي تتمتَّع به بيئتكم قدرًا كبيرًا من الجهد والعلم. فلا تُغيروا هذه الخوارزميات الحساسة إلا في حالة الطوارئ القصوى.»

تغلَّب ريتشارد على وقع المفاجأة، وبدأ التصرُّف على الفور آمِرًا الأينشتاين بتسجيل ما يرونه. كرَّر الرجل النسر التحذير مرةً أخرى ثم اختفى، وحينها كان المشهد كله قد سُجِّل صوتًا وصورةً في الأنظمة الفرعية المدمجة في الآليين.

٣

سألت نيكول زوجها وهي تنظُر إليه من الجانب الآخر من مائدة الإفطار: «أستظل مكتئبًا هكذا طوال الوقت؟ لم يحدُث شيء رهيب حتى الآن. والطقس جيد.»

قال باتريك مؤكدًا حديثها: «أعتقد أنه أفضل من ذي قبل يا عم ريتشارد. فالطلاب في الجامعةِ يَعدونك بطلًا، وإن كان بعضهم يرَون أنك أشبه بالمخلوقات الفضائية.»

ابتسم ريتشارد رغمًا عنه. ثم قال بصوتٍ خفيض: «الحكومة لا تأخُذ بتوصياتي ولا تأبه بالتحذير الذي أطلقَه الرجل النسر على الإطلاق. بل إن بعض الأشخاص في مكتب الهندسة يقولون إنَّني اصطنعتُ صورة الرجل النسر المُجسمة بنفسي. هل تتخيلون؟»

«لكن كينجي يُصدِّق ما أخبرته به يا حبيبي.»

«إذن لماذا يسمح لمن يعبثون بالجوِّ بأن يزيدوا الاستجابة المُوجهة باستمرار؟ لا يمكنهم التنبُّؤ بأثر ما يقومون به على المدى البعيد.»

سألت إيلي بعد دقيقة: «ما الذي يُقلقك يا أبي؟»

«إن عملية التحكُّم في هذا المقدار الهائل من الغاز مُعقدة للغاية يا إيلي، وأنا أُكن تقديرًا للفضائيِّين الذين صمَّموا البِنية التحتية لعدن الجديدة في البداية. وقد أصرُّوا على ألا يزيد مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء وتركيزات الجسيمات عن مستوياتٍ مُحددة. فلا بد أنهم قالوا هذا لأنهم يعرفون شيئًا ما.»

أنهى باتريك وإيلي فطورهما واستأذنا للانصراف. بعد دقائق من انصراف الأبناء دارت نيكول حول المائدة ووضعت يدَيها على كتفَي ريتشارد. وقالت: «أتذْكُرُ الليلة التي تحدَّثنا فيها عن ألبرت أينشتاين مع باتريك وإيلي؟»

نظر ريتشارد إلى نيكول وهو مُقطب الجبين.

«في تلك الليلة عندما كنَّا في الفراش، قلتُ أنا إن اكتشاف أينشتاين للعلاقة بين المادة والطاقة كان «مريعًا» لأنه أدَّى إلى اختراع الأسلحة النووية … أتذكُر بم أجبتني؟»

هز ريتشارد رأسه.

«قلت لي إن أينشتاين كان عالمًا، لم يكن هدفه سوى البحث عن المعرفة والحقيقة. وقلت لي إنه ليست هناك معرفة مريعة. بل إن المُريع هو استخدام البشر للمعرفة.»

ابتسم ريتشارد. ثم قال: «أتُحاوِلين إعفائي من تبعات مسئولية قضية الطقس هذه؟»

أجابت نيكول «ربما.» انحنت وطبعت قبلة على شفتَيه. ثم تابعت قائلة: «أعلم أنك من أذكى البشر قاطبةً ومن أكثرهم قدرة على الإبداع، ولا أحب أن أراك تحمِل كل أعباء المُستعمرة على عاتقك.»

قبَّلها ريتشارد بحرارة. وهمس قائلًا: «أتعتقدين أنه يمكننا أن ننتهي قبل أن يستيقظ بينجي؟ لقد بقي مستيقظًا حتى وقتٍ متأخر ليلة أمس لأن اليوم عطلة في المدرسة.»

أجابت نيكول وهي تبتسِم في دلال: «ربما. يُمكننا أن نُحاول على الأقل. فأول قضية لي لن تبدأ إلا في العاشرة.»

تتناول المادة التي تُدَرسها إيبونين لطلَّاب السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية المركزية، والمُسمَّاة «الفن والأدب»، الكثير من نواحي الثقافة التي تركها المُستعمرون وراءهم مؤقتًا

على الأقل. فإيبونين تتناول، في المنهج الأساسي الذي وضعتْه، مجموعة من المصادر المُنتقاة من ثقافات مُتعددة، بحيث تُشجع التلاميذ على القيام بدراسةٍ مستقلة في أيٍّ من المجالات التي تُثير اهتمامهم. ومع أن إيبونين دائمًا ما تتَّبع خطط الدراسة والمنهج عندما تُدرِّس، فإنها تنتمي إلى ذلك النوع من الأساتذة الذين يُكيفون كل مادة علمية وفقًا لاهتمامات الطلاب.

كانت إيبونين ترى أن رواية «البؤساء» التي كتبها فيكتور هوجو هي أعظم رواية على الإطلاق، وأن الرسام الانطباعي بيير-أوجوست رينوار الذي وُلِد في القرن التاسع عشر في مدينتِها الأم لِيموج هو أروع الرسامين قاطبةً. لذا فقد وضعت أعمال مواطنَيْها ضمن منهجها، ولكنها نظَّمت باقي المصادر بعنايةٍ بحيث تُمثل باقي الأمم والثقافات تمثيلًا عادلًا.

لأنَّ الكاواباتا الآليين كانوا يُساعدون إيبونين كل عام في المسرحيات المدرسية، كان من الطبيعي أن تأخُذ روايتيْ كاواباتا «ألف طائر كركي»، و«بلاد الثلج»، نموذجًا للأدب الياباني. وفي الأسابيع الثلاثة المُخصَّصة لدراسة الشعر أبحرت بين الشعراء: فروست وريلكه وعمر الخيام. ولكنها ركَّزت على الشاعرة بنيتا جارسيا، ولا يعود ذلك لوجود الجارسيا الآليات في جميع أنحاء عدن الجديدة وحسب، وإنما أيضًا إلى إعجاب الشباب بشِعر بنيتا وحياتها.

في العام الذي كان على إيبونين أن ترتدي فيه الشريط الأحمر لأن نتائج اختبار الأجسام المضادة لفيروس «آر في ٤١» جاءت إيجابية، لم يحضر إلى فصلها سوى أحدَ عشر طالبًا. لقد وضعت نتائج هذا الاختبار إدارة المدرسة في ورطة كبيرة. فمع أن الناظر قاوم بشجاعة جهود مجموعة دءوبة من أولياء الأمور — معظمهم من هاكون — تُطالب بطرد إيبونين من المدرسة الثانوية، فإنه رضخ هو والعاملون معه بعض الرضوخ للهستيريا التي أصابت المُستعمرة فجعلوا المادة التي تُدرسها إيبونين لطلاب السنة النهائية اختيارية. نتيجةً لهذا تضاءل عدد طلَّابها مقارنةً بالعامَين السابقَين.

كانت إيلي ويكفيلد تلميذة إيبونين المُفضلة. فمع معاناة تلك الشابة من قصورٍ شديد في المعرفة بسبب السنوات التي مرَّت عليها في سباتٍ طوال الرحلة التي انطلقوا فيها من النود في طريق عودتهم إلى النظام الشمسي، فإن ذكاءها الفطري ونهمها للتعلُّم حبَّبها إلى قلب إيبونين. كثيرًا ما كانت إيبونين تطلُب من إيلي القيام بمهامَّ خاصة. وفي الصباح الذي بدأ فيه الطلاب دراسة بنيتا جارسيا — الذي كان بالصدفة الصباح نفسه الذي تحدَّث فيه

ريتشارد ويكفيلد مع ابنته عن مخاوفه بشأن أنشطة التحكُّم في الطقس في المستعمرة — طلبت إيبونين من إيلي أن تحفظ إحدى القصائد الواردة في ديوان الشاعرة المكسيكية بنيتا جارسيا الأول المعنوَن «أحلام فتاة مكسيكية»، الذي كتبته وهي في مرحلة المراهقة. ولكن قبل أن تُلقي إيلي القصيدة، حاولت إيبونين أن تُلهب خيال الشباب بإلقاء محاضرةٍ قصيرة عن حياة بنيتا.

قالت إيبونين وهي تُومئ برأسها صوب الجارسيا الآلية ذات الوجه المُجرد من التعبير التي كانت تقف في الزاوية، والتي تساعدها في القيام بالأعمال الروتينية المتعلقة بالتدريس: «كانت بنيتا جارسيا الحقيقية من أكثر النساء المُدهشات اللاتي عشنَ على وجه الأرض. إذ كانت شاعرة ورائدة فضاء وقائدة سياسية ومتصوِّفة، وكانت حياتها تعكس تاريخ الحقبة التاريخية التي عاشت فيها وتُمثل مصدر إلهام للجميع.

كان والدُها من كبار مُلَّاك الأراضي في ولاية يوكاتان المكسيكية، بعيدًا عن المنطقة الوسطى من البلاد التي تشتهر بالأنشطة الفنية والسياسية. وكانت بنيتا الابنة الوحيدة لأمٍّ ماينية وأبٍ يكبُر الأم بكثير. وقضت معظم طفولتها بمفردها في مزرعة الأسرة التي كانت تقع بالقرب من أطلال منطقة بوك المائينية في مدينة أوكشمال. وكثيرًا ما لعبت بنيتا وهي طفلة صغيرة بين أهرامات ومباني ذلك المركز الشعائري الذي يعود تاريخه إلى ألف عام.

كانت تلميذةً موهوبة من البداية، ولكن ما كان يُميزها حقًّا عن أقرانها في الفصل هو خيالها وحماسها. كتبت بنيتا أولى قصائدها عندما كانت في التاسعة من عمرها، وعندما وصلت إلى الخامسة عشرة من عمرها تقريبًا — وكانت في هذا الوقت مُلتحقةً بمدرسةٍ كاثوليكية داخلية في عاصمة يوكاتان، ميريدا — نُشِرت قصيدتان من قصائدها في صحيفة «دياريو دي ميكسيكو» المهمة.

بعد أن أنهت بنيتا الدراسة الثانوية فاجأت مُدرِّسيها وأُسرتها حين أعلنت عن رغبتها في أن تُصبح رائدة فضاء. وفي عام ٢١٢٩، أصبحت أول مكسيكية يُسمح لها بالالتحاق بأكاديمية الفضاء في كولورادو. لكن عندما تخرَّجت بعد ذلك بأربع سنوات كانت الحكومة قد بدأت حينئذٍ في تخفيض الميزانية المُخصَّصة للفضاء تخفيضًا ملحوظًا. وبعد الانهيار الاقتصادي الذي حدث عام ٢١٣٤ أُصيب العالم بحالةٍ من الركود معروفة باسم الفوضى الكبرى، وتوقفت جميع أنشطة استكشاف الفضاء تقريبًا. سرَّحت وكالةُ الفضاء العالمية بنيتا عام ٢١٣٧، فظنت أن ذلك نهاية عملها في الفضاء.

في عام ٢١٤٤ انطلقت واحدة من آخِر سفن النقل التي ترتحِل بين الكواكب — وهي جيمس مارتن — بصعوبةٍ من المريخ عائدة إلى الأرض، وكان معظم ركَّابها من نساء وأطفال مُستعمرات المريخ. وتمكنت المركبة من الدخول في مدار الأرض بشقِّ الأنفس، وظنَّ رُكابها أنهم هالكون. لكن بنيتا جارسيا وثلاثة من أصدقائها روَّاد الفضاء تمكنوا من صُنع مركبة إنقاذ بدائية على عجل، ونجحوا في إنقاذ أربعةٍ وعشرين راكبًا في أروع مهمة فضاء على مرِّ العصور …»

شردت إيلي بعيدًا عن حكاية إيبونين وأخذت تتخيَّل كم كانت مهمة الإنقاذ التي قامت بها بنيتا مُثيرةً. إذ قادت بنيتا سفينتها يدويًّا بدون وجود وسيلة مساعدة تُتيح الاتصال بغرفة العمليات التي على الأرض، وخاطرت بحياتها لإنقاذ الآخرين. أيُمكن أن يُبدي المرء التزامًا تجاه قومه أكبر من هذا؟

بينما إيلي تُفكر فيما تتمتَّع به بنيتا جارسيا من إيثار إذ بصورة أمها تخطر لها. وتبعتها مجموعة أخرى من الصور لأمِّها. في البداية رأت إيلي أمَّها مرتديةً ثياب قاضية وتتحدَّث بلباقةٍ أمام مجلس الشيوخ. ثم رأت نيكول تدلك رقبة والدها في غرفة المكتب في وقت متأخر من الليل، ورأتها تُعلم بينجي القراءة بصبرٍ يومًا بعد يوم، وتركب الدرَّاجة بجوار باتريك ذاهبين للعب التنس في الحديقة، وتُخبر لينكولن بالأصناف التي عليه إعدادها على العشاء. وفي آخِر صورة كانت نيكول جالسةً على سرير إيلي في وقتٍ مُتأخِّر من الليل تُجيب أسئلتها عن الحياة والحب. فجأة أدركت إيلي أن أُمَّها هي بطلتها. فهي تتميز بالإيثار مثل بنيتا جارسيا بالضبط.

«… تخيلوا فتاة مكسيكية في السادسة عشرة من عمرها تعود من المدرسة الداخلية إلى بيتها لقضاء الإجازة، وتصعد ببطءٍ الدرجات الشاهقة المَبنية في «هرم الساحر» في أوكشمال. وتلهو من تحتها بين الصخور والأطلال سحالي إجوانا في صباح يومٍ ربيعي دافئ.»

أشارت إيبونين إلى إيلي. لقد حان وقت إلقاء قصيدتها. فوقفت عند مقعدها وراحت تُلقي هذه الأبيات.

شهدتِ كلَّ شيء، أيتها السحلية العجوز.
رأيتِ أفراحَنا وأحزاننا،
وقلوبنا المليئة بالأحلام،
وبالرغبات الرهيبة.

فهل تغيَّر مما رأيتِ شيء؟
هل جلسَتْ جدَّتي الهندية
على هذه الدرجات الحجرية،
منذ ألف عام،
وأسرَّت إليك بمشاعرها الخفية
التي ما كانت لتُفضي بها إلى أحد، ولم تستطع أن تُطلِع أحدًا عليها؟

* * *

في الليل أتطلَّع إلى النجوم،
وأجرؤ على رؤية نفسي بينها،
يحلق قلبي فوق هذه الأهرامات،
طائرًا حرًّا إلى حيث تختفي كلمة مستحيل.
قالت لي السحالي: نعم يا بنيتا،
نُجيبك أنتِ وجدتك بنعم؛
جدتك التي ستتحقَّق أحلامها التي راودتها منذ سنوات،
فيكِ أنتِ.

بعد أن انتهت إيلي كانت الدموع الصامتة قد بلَّلت خدَّيها. على الأرجح، ظنَّت مُعلمتها وباقي التلاميذ أن ذلك من فرط تأثرها بالقصيدة وبالمحاضرة التي ألقتها إيبونين عن بنيتا جارسيا. لم يكن من المُمكن أن يفهموا أن إيلي مرَّت لتوِّها بلحظة تنوير عاطفية، وبأنها اكتشفت لتوِّها عُمق حُبها واحترامها لأمها.

كان هذا آخر أسبوعٍ للبروفات على المسرحية المدرسية. اختارت نيكول مسرحيةً قديمة هي مسرحية «في انتظار جودو» التي كتبها صامويل بيكيت الذي حاز جائزة نوبل في القرن العشرين؛ لأن أفكارها تنطبق تمامًا على الحياة في عدن الجديدة. ستقوم إيلي ويكفيلد وبدرو مارتينيز، وهو شابٌّ وسيم في التاسعة عشرة من عمره، كان أحد المُراهقين «المكتئبين» الذين انضمُّوا إلى المستعمرة في الأشهُر الأخيرة قبل الانطلاق؛ بلعب دور الشخصيتَين الرئيستَين اللتَين ترتديان ثيابًا رثة طوال المسرحية.

لم تكن إيبونين لتستطيع عرض المسرحية بدون مساعدة الكاوابا‌تا الآليين. إذ كانوا يُصمِّمون الديكور والملابس، ويُنفذون هذه التصميمات، ويتحكَّمون في الإضاءة، ويُديرون

البروفات عندما لا تستطيع الحضور. كان في المدرسة أربعة كاواباتا آليين، ثلاثة منهم كانوا تحت سلطة إيبونين أثناء الأسابيع الستة التي سبقت المسرحية مباشرة.

صاحت إيبونين وهي تتوجَّهُ نحو تلاميذها على خشبة المسرح: «أحسنتُم. لنكتفي بهذا القدر اليوم.»

قال كاواباتا رقم ٠٥٢: «آنسة إيلي لم تكن كلماتك صحيحة تمامًا في ثلاثة مواضع. في كلامك الذي يبدأ بـ...»

قاطعتْه إيبونين وهي تُشير برفق إلى الآلي بأن ينصرف: «أخبِرها غدًا. ستكون ملاحظتك أهمَّ حينَها.» والتفتت إلى فريق التمثيل الصغير. وسألت: «هل لديكم أي أسئلة؟»

قال بدرو مارتينيز بتردُّد: «أعلم أننا ناقشنا هذا من قبلُ يا سيدتي، ولكنني سأستفيد إن ناقشناه ثانيةً ... لقد أخبرتِنا أن جودو ليس شخصًا وإنما هو فكرة أو شيء من صُنع الخيال ... وأننا جميعًا ننتظِر شيئًا ما ... أنا آسف، ولكن يصعب عليَّ فهم ما الذي ...»

أجابت إيبونين بعد ثوانٍ قليلة: «المسرحية كلها تعليق على عبَث الحياة. إننا نضحك لأننا نرى أنفسنا في هذَين المُتشردَين اللذَين يقفان على خشبة المسرح، ولأنهما ينطقان بلساننا. ما يُصوِّره بيكيت هنا هو التَّوق المُتأصِّل في النفس البشرية. أيًّا كانت هوية جودو، فإنه سيصلح كل أحوالنا. وبطريقةٍ ما سيُغير حياتنا ويجعلنا سعداء.»

سأل بدرو: «أيمكن أن يكون جودو هو الله؟»

أجابت إيبونين: «بالتأكيد. بل من المُمكن أن يكون هو الكائنات الفضائية فائقة التطوُّر التي صنعت مركبة راما وأدارت النود الذي أقامت فيه إيلي وأُسرتها. أي سلطة أو قوة أو كائن يرى البشر أنه سيُنقذ العالم من جميع الكروب يمكن أن يكون جودو. ولهذا أصبحت المسرحية تصلح لكل مكانٍ وزمان.»

صاح صوتٌ آمِر من خلف القاعة الصغيرة: «بدرو، هل أوشكتَ على الانتهاء؟»

أجاب الشاب: «لحظة يا ماريكو. تدور بيننا مناقشة شائقة الآن. لم لا تنضمِّين إلينا؟»

ظلَّت الفتاة اليابانية واقفةً عند المدخل. وقالت بوقاحة: «كلَّا. لا أريد، لنرحل الآن.»

أذِنت إيبونين للفريق بالانصراف، فقفز بدرو من على خشبة المسرح. وبينما هو يُسرع باتجاه الباب، اقتربت إيلي من مُعلمتها.

وتساءلت بصوتٍ عالٍ: «لماذا يسمح لها بالتصرُّف على هذا النحو؟»

أجابت إيبونين وهي تهزُّ كتفها: «لا تسأليني. فمِن المُؤكَّد أنني لستُ خبيرة في العلاقات الشخصية.»

قالت إيبونين لنفسها: «إن تلك الفتاة المدعوة ماريكو كوباياشي مصدر إزعاج»، وقد تذكَّرَتْ كيف عاملَتْها ماريكو هي وإيلي وكأنهما حشرتان ذات ليلة بعد البروفة. وأردفت بينها وبين نفسها: «أحيانًا ما يتَّضح أن الرجال أغبياء للغاية.»

سألت إيلي: «إيبونين، هل لديك اعتراض على حضور والديَّ البروفة النهائية؟ بيكيت هو أحد الكتَّاب المسرحيين الذين يُفضِّلهم أبي و...»

أجابت إيبونين: «لا مانع. إني أُرحِّب بمجيء والدَيك في أي وقت. كما أنني أُريد أن أشكرهما ...»

صاح صوت شاب من الجانب الآخر من الغرفة: «آنسة إيبونين.» كان صاحب الصوت هو ديريك بروير أحد تلاميذ إيبونين، وكان واقعًا في غرامِها على طريقة الطالب والمُعلِّمة. قطع ديريك خطواتٍ قليلة باتجاهها جريًا ثم صاح مرةً ثانية. وقال: «أسمعتِ آخِر الأخبار؟»

هزَّت إيبونين رأسها نفيًا. كان من الواضح أن ديريك قد تملَّكه الحماس الشديد. قال: «حكم القاضي ميشكين بأن ارتداء الأشرطة غير دستوري!»

استغرق الأمر من إيبونين بضعَ ثوانٍ لتستوعِب ما قاله. وأثناء هذا كان ديريك قد وصل إلى جوارها مسرورًا بأنه هو من زفَّ إليها البُشرى. سألته إيبونين: «هل ... هل أنت متأكد؟»

«لقد سمعنا الخبر يُذاع للتوِّ في الراديو ونحن في المكتب.»

مدَّت إيبونين يدَها إلى ذراعِها الذي يلتفُّ حوله الشريط الأحمر البغيض. ثم نظرت إلى ديريك وإيلي ونزعت الشريط من على ذراعِها بحركةٍ سريعة وألقت به في الهواء. اغرورقت عيناها بالدموع وهي تُشاهده يتَّجه نحو الأرض متخذًا شكلَ قوس.

قالت: «أشكرك يا ديريك.»

وبعد لحظاتٍ أسرع الطالبان يُعانقانها. وقالت إيلي بصوتٍ منخفض: «مبارك.»

٤

يتولَّى الآليون كلَّ الأمور المتعلقة بإدارة مطعم الهامبرجر الصغير في المدينة المركزية، فمهام الإشراف على هذا المطعم الذي لا يخلو من الحركة يقوم بها اثنان من اللينكولن الآليين، ويتولَّى تسجيل طلبات الزبائن أربعٌ من آليات الجارسيا. أما إعداد الطعام فيقوم به اثنان من الأينشتاين، وتتولَّى تياسو واحدة فقط مهمة المحافظة على نظافة المكان الذي يأكل

فيه الزبائن. كان المطعم يُدِر ربحًا هائلًا على صاحبه؛ لأنه لا يتحمَّل أي تكاليف سوى التكاليف التي تحمَّلها عند تجهيز المبنى الأساسي وتكاليف الحصول على المواد الخام.

كانت إيلي مُعتادة على تناول طعامها هناك في ليالي الخميس التي تعمل فيها متطوعةً في المستشفى. وفي اليوم الذي أُلقِي فيه ما عُرِف فيما بعدُ بإعلان ميشكين، رافقت إيلي في مطعم الهامبرجر مُعلمتُها إيبونين التي أصبحت لا ترتدي الشريط.

قالت إيبونين وهي تقضم إحدى قِطَع البطاطس المُحمرة: «لماذا لم أركِ من قبلُ في المستشفى؟ ما الذي تفعلينه هناك على أي حال؟»

أجابت إيلي: «العمل الأساسي الذي أقوم به هو التحدُّث إلى الأطفال المرضى. هناك أربعة أو خمسة أطفال مُصابون بأمراضٍ خطيرة، وصبيٌّ صغير مُصاب بفيروس «آر في ٤١»، وهم يسعدون بالزيارات التي يقوم بها البشر. ومع أن التياسو الآليات بارعات جدًّا في تشغيل المستشفى وفي القيام بكلِّ الأعمال الروتينية، فإنهن لسنَ عطوفات بما يكفي.»

قالت إيبونين بعد أن مضغت قضمة من الهامبرجر وابتلعتها: «اسمحي لي أن أسألك، لماذا تقومِين بهذا؟ إنك صغيرة وجميلة وتتمتَّعين بصحةٍ جيدة. ولا بد أن هناك آلاف الأشياء التي قد تُفضلين القيام بها.»

أجابت إيلي: «غير صحيح. فأمي تربطها بالمجتمع مشاعرُ انتماء قوية للغاية كما تعلمين، وأنا أشعر أنني أصبح ذات قيمة بعد أن أتحدث مع الأطفال.» تردَّدَت لحظة ثم تابعَت حديثها قائلةً: «كما أنني لا أتمتَّع بمهارةٍ اجتماعية كبيرة ... جسدي جسد فتاة في التاسعة عشرة أو العشرين، وهذه سِن كبيرة على المدرسة الثانوية، ولكني أفتقر إلى أي خبرةٍ اجتماعية تقريبًا.» احمرَّ وجهها. ثم تابعت: «أخبرتني إحدى صديقاتي في المدرسة أن الأولاد مقتنعون بأنني من المخلوقات الفضائية.»

ابتسمت إيبونين لتلميذتها. وقالت لنفسها: أن يكون المرء من المخلوقات الفضائية أفضل من أن يكون مريضًا بفيروس «آر في ٤١». على أي حال، هؤلاء الشباب يفوتهم الكثير إن كانوا يتجاهلونك.

أنهت المرأتان عشاءهما وغادرتا المطعم الصغير. وتوجَّهتا إلى ميدان المدينة المركزية. كان يُوجَد في وسط الميدان نصب تذكاري ذو شكلٍ أسطواني، أُقيم ضمن مراسم أول احتفالٍ بيوم الاستيطان. وكان يبلُغ طوله مترَين ونصف. وتتدلَّى منه عند مستوى النظر، كرة شفافة قُطرها خمسون سنتيمترًا. وكان في وسط الكرة مصباح صغير يُمثل الشمس، وكان السطح الموازي للجزء السُّفلي من الكرة يمثل السطح البيضاوي الذي يضمُّ الأرض

وباقي كواكب المجموعة الشمسية، وعكست الأضواءُ المبعثرة في أنحاء الكرة المواقعَ النسبية الصحيحة لكلِّ النجوم التي تقع حول الشمس بنصف قطرٍ قدره عشرين سنة ضوئية.

وكان هناك خيط من الضوء يربط بين الشمس والشعرى اليمانية مُمثلًا الطريق الذي سلكته أسرة ويكفيلد في رحلتها من وإلى النود. كما كان يخرج خيط رفيع من الضوء من النظام الشمسي ويمتدُّ على طول المسار الذي اتَّبعته مركبة راما الثالثة منذ أن تتبَّعت المُستعمرين البشر في مدار المريخ. وكانت المركبة المُضيفة، التي يمثلها ضوء أحمر قوي مُتقطع، في مكان يُمثل نحو ثلث الطريق بين الشمس والنجم تاو سيتي.

قالت إيبونين وهما واقفتان بجوار الكرة السماوية: «أظنُّ أن أباك هو صاحب فكرة هذا النصب.»

قالت إيلي: «صحيح. فأبي مُبدع للغاية في كلِّ ما يتعلق بالعلوم والإلكترونيات.»

حدَّقَت إيبونين في الضوء الأحمر المُتقطع. وقالت: «أيُزعِجه أننا سائرون باتجاهٍ مختلف، لا إلى الشعرى اليمانية ولا إلى النود؟»

هزَّت إيلي كتفَيها. وقالت: «لا أعتقد هذا. إننا لا نتحدَّث عن هذا كثيرًا ... وقد أخبرني ذات مرة أننا لن نستطيع أن نفهم ما يفعله الفضائيون على أي حال.»

جالت إيبونين ببصرِها في الميدان. وقالت: «انظُري إلى كل هؤلاء الناس وهم يُسرعون هنا وهناك. ومعظمهم لا يتوقَّفون أبدًا ليرَوا أين نحن ... إنني أتحقَّق من المكان الذي نصِل إليه مرة أسبوعيًّا على الأقل.» فجأة اكتسب حديثها لهجةً جادة. وقالت: «منذ أن تبيَّن أنني مصابة بفيروس «آر في ٤١» وأنا أشعر بحاجةٍ ماسَّة إلى معرفة مكاني في الكون بالضبط ... تُرى هل هذا جزء من خَوفي من الموت؟»

بعد صمتٍ طويل وضعت إيبونين ذراعها على كتف إيلي. وقالت: «هل سبق أن سألت الرجل النسر عن الموت؟»

أجابت إيلي بهدوء: «لا. عندما غادرنا النود لم أكن قد تجاوزتُ الرابعة من عمري. وبالتأكيد لم تكن لديَّ أي فكرة عن الموت.»

قالت إيبونين لنفسها: «عندما كنتُ طفلة، كنتُ أفكر مثلما يُفكر الأطفال.» ضحكت. وسألت إيلي: «فيمَ كنتِ تتحدَّثين مع الرجل النسر؟»

قالت إيلي: «لا أتذكَّر بالضبط. ولكن باتريك يقول إن الرجل النسر كان مُغرمًا بمشاهدتنا ونحن نلعب بلُعبنا.»

قالت إيبونين: «حقًّا؟ هذه مفاجأة. فمن وصْف والدتك تخيلتُ أن الرجل النسر يتَّسم بجديةٍ بالغة تمنعه من أن يهتمَّ باللُّعَب.»

قالت إيلي: «صورته لا تزال واضحة في خيالي مع أنني كنتُ صغيرة للغاية. ولكنني لا أستطيع تذكُّر الانطباع الذي كان يتركه فيَّ.»

سألتها إيبونين بعد ثوانٍ قليلة: «هل حلمتَ به قط؟»

«أوه، نعم. كثيرًا. في أحدِ أحلامي كان واقفًا فوق شجرةٍ ضخمة وينظر إليَّ من بين السحاب.»

ضحكت إيبونين ثانية. ثم نظرت إلى ساعتها بسرعة. وقالت: «أوه، يا إلهي! لقد تأخرت عن موعدي. متى يجب أن تصلي إلى المُستشفى؟»

قالت إيلي: «في السابعة.»

«إذن فمن الأفضل أن نمضي الآن.»

عندما ذهبت إيبونين إلى مكتب د. تيرنر لتقوم بالفحص نصف الأسبوعي، أخذتها التياسو المسئولة إلى المعمل وأخذت عينات دمٍ وبول ثم طلبت منها الجلوس. أخبرت الآلية إيبونين أن الطبيب «قادم في غضون دقائق».

كان هناك رجل شديد السواد جالس في حجرة الانتظار، وكانت عيناه ذكيتَين وترتسِم على وجهه ابتسامةٌ ملؤها الود. عندما تقابلَت عيناهما قال: «مرحبًا، اسمي أمادو ديابا. أعمل صيدليًّا.»

قدمت إيبونين نفسها له وهي تُحدِّث نفسها أنها رأته من قبل.

سألها الرجل بعد صمتٍ قصير: «يوم رائع، أليس كذلك؟ من المُريح أن نخلع ذلك الشريط اللعين.»

في هذه اللحظة، تذكرت إيبونين أمادو. لقد رأته مرةً أو مرتَين في اللقاءات الجماعية المُخصَّصة للمُصابين بفيروس «آر في ٤١». لقد أخبرها شخصٌ ما أن أمادو أُصيب بالفيروس الارتجاعي عن طريق نقل الدم في بدايات المُستعمرة. قالت نيكول لنفسها: «ما إجمالي عدد المُصابين بالفيروس؟ ثلاثة وتسعون. أم أربعة وتسعون؟ خمسة منَّا أُصيبوا به عن طريق نقل الدم …»

كان أمادو يقول: «يبدو أن الأخبار المهمة لا تأتي فرادى أبدًا. فقد نُطق بإعلان ميشكين قبل ساعاتٍ قليلة من مشاهدة ذوات الأرجل لأول مرة.»

نظرت إليه إيبونين نظرةً متسائلة. وسألته: «عم تتحدَّث؟»

قال أمادو وهو يكاد يضحك: «ألَم تسمعي عن ذوات الأرجل بعد؟ أين كنت؟»

انتظرَ أمادو ثواني قليلةً قبل أن يبدأ في الشرح. قال: «كان فريق الاستكشاف هناك في المنطقة السكنية الأخرى يَمضي في عملية توسيع موقع الاختراق طوال الأيام القليلة الماضية. واليوم واجهتهُم فجأةً ستة مخلوقات غريبة خرجت من الثُّقب الذي حفروه في الجدار. يبدو أن ذوات الأرجل هذه، كما أطلق عليها المذيع، تعيش معًا في المنطقة السكنية الأخرى. وهي تُشبه كرات جولف مكسوَّة بشعرٍ كثيف ومُلتصقة بستة أرجل عملاقة مُمَفْصلة، وهي تسير بسرعة شديدة ... وظلت تزحف أسفل الرجال والآليين والمعدَّات حوالي ساعة. ثم اختفت عائدة إلى موقع الاختراق.»

كانت إيبونين على وشك أن تطرح بعض الأسئلة حول ذوات الأرجل عندما خرج د. تيرنر من مكتبه. قال: «سيد ديابا وآنسة إيبونين. لديَّ تقرير مُفصَّل لكلٍّ منكما. بمن أبدأ؟»

لا تزال إيبونين ترى أن عيني الطبيب هما أروع عينَين زرقاوين. أجابت: «السيد ديابا حضر قبلي. لذا ...»

قاطعها أمادو قائلًا: «النساء أولًا دائمًا. وإن كنَّا في عدن الجديدة.»

ذهبت إيبونين إلى مكتب د. تيرنر الداخلي. وعندما أصبحا بمُفردهما قال لها: «كل شيء على ما يُرام حتى الآن. أنا مُتأكِّد من أن الفيروس في جسدك، ولكن لا تُوجَد أيُّ علامة تدلُّ على تدهور عضلات القلب. ولستُ متأكدًا من سبب هذا ولكن من المؤكَّد أن المرض يتطوَّر عند بعض الأشخاص أسرع من البعض الآخر.»

قالت إيبونين لنفسها: كيف تتابع كل بياناتي الطبية عن كثب يا طبيبي الوسيم، دون أن تلحظ أبدًا النظرات التي أرميك بها طوال الوقت؟

«ستُواصِلين تناوُل أدوية النظام المناعي بانتظام. فليس لها أعراض جانبية خطيرة، وقد تكون مسئولةً جزئيًّا عن عدم ظهور أي دلائل على الأثر المُدمر للفيروس ... بخلاف ذلك، هل أنت على ما يُرام؟»

عادا إلى حجرة الانتظار معًا. وراجع د. تيرنر مع إيبونين الأعراض التي تُشير إلى أن الفيروس انتقل إلى مرحلةٍ أخرى من مراحل تطوُّره. وبينما كانا يتحدَّثان، انفتح الباب ودخلت إيلي ويكفيلد الحجرة. في البداية تجاهل دكتور تيرنر وجودها ولكن بعد لحظات أخذ يُطيل النظر إليها.

قال لإيلي: «هل من مُساعدةٍ يُمكنني تقديمها يا سيدتي؟»

أجابت إيلي باحترام: «جئتُ لأطرح سؤالًا على إيبونين. يُمكنني أن أنتظر بالخارج إن كنتُ أسبب لك أي إزعاج.»

هز د. تيرنر رأسه نفيًا، ولكن عندما كان يُدلي بتعليقاته الأخيرة لإيبونين طرأ تشوُّش على أسلوبه على غير عادته. في البداية لم تفهم إيبونين ما حدث. ولكن عندما بدأت تُغادر مع إيلي وجدت أن الطبيب لا يرفع بصرَه عن تلميذتها. قالت في نفسها: طوال ثلاث سنوات وأنا أتوق لرؤية نظرةٍ كهذه من عينَيه. لم أكن أعتقد أنه يستطيع الإعجاب بأحد. أما إيلي، حماها الله، فلم تلحظ شيئًا من هذا كله.

كان اليوم طويلًا. وكانت إيبونين مرهقةً للغاية وهي تمشي من المحطة إلى شقَّتها في هاكون. زال الارتياح الذي شعرَت به بعد أن خلعت الشريط. وكانت تشعر الآن بشيءٍ من الاكتئاب. كما أنها كانت تُغالب شعورها بالغيرة من إيلي ويكفيلد.

توقفت أمام شقتها. الخط الأحمر العريض على بابها كان يُذكِّر الجميع بأن من يعيش بالداخل يحمل فيروس «آر في ٤١». عاودها الشعور بالامتنان تجاه القاضي ميشكين وهي تمسح الخط بعناية. ترك أثرًا على الباب. قالت إيبونين في نفسها: سأطلِيه غدًا.

ما إن دخلت شقَّتها حتى ألقت بنفسها على مقعدها الوثير وأخذت سيجارة. وشعرت بدفقةٍ من المتعة المُنتظَرة وهي تضع السيجارة في فمها. وأخذت تُبرر تصرُّفها وهي تقول لنفسها: «أنا لا أُدخِّن في المدرسة أمام تلاميذي أبدًا. فأنا أتجنَّب أن أكون قدوةً سيئة لهم. ولا أُدخن إلا هنا. في البيت. عندما أكون بمُفردي.»

نادرًا ما كانت تخرج إيبونين ليلًا. فسكَّان هاكون أوضحوا لها أنهم لا يُريدونها بينهم، فقد بعثوا إليها بوفدَين مُنفصلَين طلَبَا منها مغادرة المدينة، وعلَّقوا العديد من الرسائل البذيئة على باب شقَّتها. ولكن إيبونين أصرَّت بعنادٍ على رفض المغادرة. فقد كانت المساحة التي تعيش فيها أكبر من أيِّ مساحةٍ تستطيع أن تتحمَّل نفقات الحصول عليها في الأحوال العادية، ويرجع الفضل في هذا إلى أن كيمبرلي هندرسون لم تكن تأتي إلى البيت قط. هذا بالإضافة إلى أن إيبونين تعرِف أن حاملي فيروس «آر في ٤١» لن يكونوا محل ترحيبٍ في أيٍّ من أحياء المستعمرة.

غطَّت إيبونين في النوم على مقعدها وكانت تحلُم بحقولٍ من الزهور الصفراء. فلم تكد تسمع دقَّ الباب مع أنه كان عاليًا للغاية. نظرت في ساعتها، كانت الحادية عشرة. عندما فتحت إيبونين الباب دخلت كيمبرلي هندرسون الشقة.

قالت: «أوه يا إيب! أنا سعيدة جدًّا لأني وجدتك هنا. أنا في حاجة ماسَّة إلى التحدُّث إلى شخصٍ ما. شخص يمكن أن أثِق به.»

أشعلت كيمبرلي سيجارةً ويدُها ترتعش، ثم راحت تُثرثر بكلامٍ غير مُترابط. قالت وقد رأت الاعتراض في عينَي إيبونين: «نعم، نعم، أعرف. معك حق، المُخدرات تُدير رأسي بالفعل ... ولكنَّني أحتاج إليها ... ما أجمل الكوكومو ... أن يكون لديك شعور زائف بالثقة بالنفس أفضل من أن تعتبري نفسك حقيرة.»

أخذت نفسًا مسعورًا من السيجارة ثم زفرتْهُ على دفعاتٍ قصيرة متقطعة. وقالت: «الحقير فعلها هذه المرة يا إيب ... أزاحني من طريقه ... ذلك السافل، يظنُّ أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له ... تحمَّلتُ علاقاته الغرامية، بل إنني سمحتُ لبعض الفتيات الأصغر منِّي أن يُشاركنني فيه، فالمجالس الثلاثية تُذهب الملل ... ولكنني كنتُ دائمًا رقم واحد، أو على الأقل هكذا كنت أظن ...»

سحقت كيمبرلي عقب السيجارة وبدأت تضغط يدَيها المُتشابكتَين. كانت على وشك البكاء. قالت: «الليلة أخبرَني بأنني سأرحل ... قلتُ له: «ماذا؟! ماذا تعني؟» قال: «سترحلين» ... لم يبتسم، لم يناقش الأمر ... قال: «احزمي أمتعتك، وهناك شقة لك خلف زانادو.»

ردَدتُ عليه: «هذا المكان تعيش فيه فتيات الليل» ... ابتسم قليلًا ولم ينبس ببنت شفة ... قلت: «أهكذا، تطردني؟» استشطتُ غضبًا ... قلت: «لا يُمكنك أن تفعل هذا بي» ... حاولت أن أضربه ولكنه أمسك يدي وصفعَني ... قال: «ستفعلين ما آمُر به» ... «لن يحدُث أيها الوغد» ... التقطتُ مزهرية وقذفتُها. فتحطمت على منضدةٍ وتبعثرت. في ثوانٍ، كان رجلان قد ثبَّتا ذراعيَّ خلف ظهري ... قال الملك الياباني: «أبعدوها.»

أخذوني إلى شقَّتي الجديدة. كانت جميلة للغاية. في غرفة الملابس كان هناك صندوق كبير من الكوكومو الملفوف ... دخنتُ سيجارة كاملة حتى انتشيتُ ... قلتُ لنفسي: ما بك؟ الأمر ليس بهذا السوء. على الأقل لن يكون عليَّ أن أرضخ لرغبات توشيو الجنسية الغريبة ... ذهبت إلى كازينو القمار، وكنتُ أستمتع بوقتي، وأشرب وأُدخن حتى أثمل، حتى رأيتهما ... على الملأ، أمام الجميع ... جُنَّ جنوني، صحتُ وصرختُ ولعنت، بل إنني هاجمتُها ... ضربني شخصٌ ما على رأسي ... وقعتُ على الأرض وانحنى توشيو عليَّ ... قال بصوتٍ كفحيح الأفعى: «لو فعلتِ شيئًا كهذا ثانيةً فسأدفنك بجوار مارتشيللو داني.»»

دفنَت كيمبرلي وجهها بين يدَيها وبدأت تنتحِب، قالت بعد ثوان: «آه يا إيب. أشعر بقلة الحيلة. وليس لديَّ مَن ألجأ إليه. ماذا يُمكنني أن أفعل؟»

قبل أن تتمكَّن إيبونين من أن تتفوَّه بأي كلمة، كانت كيمبرلي قد بدأت تتحدَّث ثانية، قالت: «أعرف أعرف. يُمكنني أن أعود إلى العمل في المستشفى. فهم لا يزالون بحاجةٍ إلى مُمرضات، ممرضات حقيقيات من لحمٍ ودم ... بالمناسبة، أين لينكولن الخاص بك؟»

ابتسمت إيبونين وأشارت إلى الخزانة. ضحكت كيمبرلي. وقالت: «أحسنت. أبقيه في الظلام. أخرجيه ليُنظِّف الحمَّام ويغسل الأطباق ويطهو الطعام. ثم أعيديه إلى الخزانة ...» ضحكت ضحكة خافتة. ثم تابعت حديثها قائلةً: «تعرفين، لا يُرجى من الرجال الآليين نفع. فهم مُكتملون من الناحية التشريحية بنحوٍ أو بآخَر ولكنهم دون نفع. ذات ليلةٍ عندما كنتُ تحت تأثير المخدِّر وبمفردي طلبتُ من أحدهم مُضاجعتي ... إنهم لا يقلُّون سوءًا عن بعض الرجال الذين عرفتُهم.»

قفزَتْ كيمبرلي وأخذت تسير بسرعةٍ في أنحاء الغرفة. قالت وهي تُشعل سيجارة أخرى: «لا أعرف سبب مجيئي يقينًا، ولكنَّني ظننتُ أنه ربما يُمكننا ... أعني أننا كنَّا صديقتَين مدة ...» تهدج صوتها. ثم أردفت قائلةً: «إنني أفيق من تأثير المخدرات، وبدأتُ أشعر بالاكتئاب. هذا فظيع، رهيب. لا أحتمل. لا أعرف ما الذي أنتظِرُه منك، فأنت لك حياتك الخاصة ... من الأفضل أن أذهب.»

اتجهت كيمبرلي إلى الجانب الآخر من الغرفة وعانقت إيبونين عناقًا فاترًا. وقالت: «اعتنِ بنفسك، اتفقنا؟ ولا تقلقي عليَّ، سأكون بخير.»

لم تُدرك إيبونين أنها لم تنبس ببنت شفة وصديقتها السابقة في الغرفة إلَّا عندما أُغلق الباب وانصرفت كيمبرلي. كانت إيبونين متأكِّدة من أنها لن ترى كيمبرلي ثانية.

٥

في ذلك اليوم، عقد مجلس الشيوخ اجتماعًا مفتوحًا سُمِح لكل مَن في المستعمرة بحضوره. شغل الحضورُ جميعَ مقاعدِ الصالة العلوية التي لا يزيد عددُها على ثلاثمائة مقعد. في حين كان هناك مائة شخصٍ ما بين وقوفٍ بمحاذاة الجدران وقعودٍ في الممرات التي تفصل بين صفوف المقاعد. وفي مقاعد الأعضاء دعا الحاكمُ كينجي واتانابي أعضاءَ الهيئةِ التشريعية الأربعة والعشرين لعدن الجديدة الذين يرأسهم إلى أن يُعيروه انتباههم.

قال كينجي بعد أن دقَّ بالمطرقة عدة مراتٍ حتى يهدأ الحضور: «تستمر جلسات مناقشة الميزانية اليوم بتقرير يعرِضُه علينا مدير مستشفى عدن الجديدة د. روبرت تيرنر. وفيه يُلخص ما أنجزه بميزانية الصحة في العام الماضي، ويُقدم طلباته للعام المقبل.»

اتجه د. تيرنر إلى المنصة وأشار إلى التياسو الآليَّين اللذَين كانا جالسَين بجواره. فأسرعا بتركيب جهاز العرض وتعليق شاشةٍ مكعبة حتى يستخدمهما د. تيرنر في عرض المواد المرئية التي تدعم حديثه.

بدأ د. تيرنر حديثه قائلًا: «قطعنا خطواتٍ واسعة إلى الأمام في العام الماضي، سواء في خلق بيئة طبية ممتازة للمستعمرة أم في فهم النقمة التي حلَّت بنا، ألا وهي فيروس «آر في ٤١» الارتجاعي الذي لا يزال يُعذِّب شعبنا. فعلى مدى الاثني عشر شهرًا الماضية تمكنَّا بالكامل من تحديد دورة حياة هذا الكائن المُعقد، كما طوَّرنا تحاليل للكشف المبكر تُمكننا من التعرُّف بدقة على أي شخصٍ يحمل المرض ...

أُجرِيَت تحاليل لكلِّ سكان عدن الجديدة في غضون ثلاثة أسابيع وذلك منذ سبعة أشهر. فاكتشفنا في ذلك الوقت أنَّ هناك ستةً وتسعين شخصًا في المُستعمرة مصابًا بالفيروس الارتجاعي. ومنذ انتهاء إجراء التحاليل لم نكتشِف إلا إصابةً واحدة جديدة. وأثناء هذه المدة وقعت ثلاثُ وفيات بسبب فيروس «آر في ٤١»، وبهذا يصل العدد الحالي للمُصابين به إلى أربعة وتسعين ...

فيروس «آر في ٤١» هو فيروس ارتجاعي مُميت يُهاجم عضلات القلب ويتسبَّب في ضمورها ضمورًا لا يمكن علاجه. وفي النهاية يموت حامل المرَض. ولا يُوجَد علاج معروف لهذا المرض. ولكنَّنا نُجرب مجموعةً متنوعةً من التقنيات التي تمنع تطوُّره، وحقَّقنا بعض النجاح في حالاتٍ فردية ولكنها غير حاسمة. وحاليًّا، وحتى نُحقق تقدمًا ملحوظًا في عملِنا، يجب أن نفترِض، على مضض، أن كلَّ المُصابين بهذا الفيروس سينهارون في النهاية أمام حِدَّته.

الرسم الذي أضعه على جهاز العرض يُوضح المراحل المختلفة للمرض. ينتقل الفيروس الارتجاعي بين الأشخاص أثناء انتقال سوائل جسدية تتضمَّن أيَّ خليط يدخل فيه الدم والسائل المنوي. ولا تُوجَد إشارة على أن هناك أي طريقة أخرى لنقل المرض.» قال د. تيرنر وهو يرفع صوته ليسمعه الناس من بين الصخب الذي علا في الصالة العلوية: «أُكرِّر مرة أخرى، وجَدْنا أن الفيروس لا ينتقل إلَّا عن طريق السائل المنوي أو الدم فقط. ومع أنه لا يُمكننا أن نعلن على نحوٍ قاطع أن السوائل الأخرى التي يُفرزها الجسد مثل العرق والمخاط

والدموع واللعاب والبول لا يمكن أن تكون من عوامل نقل الفيروس، فإن البيانات المُتوفرة لدَينا حتى الآن تدلُّ بدرجةٍ كبيرة على أن فيروس «آر في ٤١» لا يُمكن أن ينتقل عن طريق هذه السوائل.»

انتشرت الأحاديث الجانبية في الصالة العلوية. فدقَّ الحاكم واتانابي بمطرقتِه عدة مراتٍ حتى يعود الهدوء إلى القاعة. تنحنح روبرت تيرنر ثم واصل حديثَه. فقال: «هذا الفيروس الارتجاعي ذكي للغاية، إن كان يجوز وصفُه بهذه الكلمة، وهو يستطيع التكيُّف مع الجسم المُضيف على نحوٍ مميز. وكما ترَون في الرسم الظاهر على المكعب، فإنه يكون حميدًا نسبيًّا في المرحلتَين الأوليَين، ففيهما يسكن الفيروس في خلايا الدم والسائل المنوي دون أن يُسبِّب ضررًا. وربما يبدأ الهجوم على جهاز المناعة في هذه المرحلة. ولكنَّنا لا نستطيع أن نؤكد هذا؛ لأن كلَّ بيانات التشخيص في هذه المرحلة تكشف عن أنه يكون سليمًا.

نحن لا نعرف ما الذي يؤدي إلى تدهور جهاز المناعة. فهناك عملية غامضة في أجسادنا المُعقدة — وهذا جانب يتطلَّب المزيد من البحث المُكثف — تُعطي إشارة مفاجئة لفيروس «آر في ٤١» بأن جهاز المناعة ضعيف فيبدأ هجومًا ضاريًا. وتزيد كثافة الفيروس في الدم والسائل المنوي فجأة بمعدلاتٍ كبيرة، وفي هذه المرحلة يرتفع احتمال العدوى إلى أقصى درجة، وفيها أيضًا، يتغلَّب الفيروس على الجهاز المناعي.»

توقف د. تيرنر. وقلَّب الأوراق التي كان يقرأ منها. ثم واصل حديثه قائلًا: «من المُحيِّر أن جهاز المناعة لا ينجح أبدًا في مقاومة الهجوم. فالفيروس يُدرك بطريقةٍ ما اللحظة المناسبة للهجوم، ولا ينتشِر إلا عند وصول الجهاز المناعي إلى حالة الضعف. وما إن يُصاب جهاز المناعة بالتلَف حتى يبدأ ضمور عضلات القلب ويعقُب ذلك الموت المُتوقَّع.

في المراحل اللاحقة للمرض يختفي الفيروس تمامًا من السائل المنوي والدم. وتستطيعون أن تتخيلوا كيف يضرُّ ذلك الاختفاء بالتشخيص، أين يذهب؟ هل «يختبئ» بطريقةٍ ما أم يتحوَّل إلى شيءٍ آخر لم نتعرَّف عليه بعد؟ هل يُشرِف على التلف التدريجي لعضلات القلب أم إنَّ الضمور مجرد عرض جانبي لهجومه السابق على الجهاز المناعي؟ كل هذه الأسئلة لا نستطيع أن نُجيب عنها حاليًّا.»

توقف د. تيرنر قليلًا ليشرب جرعة ماء. ثم قال: «كان ضمن الأهداف التي أعلنَّاها العام الماضي أن نبحث في أصل هذا المرض. وقد ثارت إشاعات بأن الفيروس مُتأصِّل في بيئة عدن الجديدة، وأنه ربما يكون قد زُرِع هنا بصفتِه جزءًا من تجربةٍ فضائية وحشية.

وهذا هراء. فمن المؤكد أننا جلبنا هذا الفيروس من الأرض إلى هنا. فقد مات اثنان من ركاب سانتا ماريا بسبب هذا الفيروس دون أن يفصل بين وفاتهما سوى ثلاثة أشهر، وأولهما مات أثناء الرحلة من الأرض إلى المريخ. ويُمكننا أن نكون على يقينٍ — مع أن هذا لا يُطمئن — من أن أصدقاءنا وزملاءنا على الأرض يُصارعون هذا الوحش أيضًا.

أما عن أصل الفيروس فلا يسعني سوى التخمين. وربما تمكنتُ من تخطي مرحلة التخمين إلى الحسم لو أن قاعدة البيانات الطبية التي أحضرناها معنا من الأرض كانت أكبر … ولكنني أريد أن أشير إلى أن جينوم فيروس «آر في ٤١» الارتجاعي يُشبه، على نحوٍ مُذهلٍ، عاملًا مُمرِضًا طوَّرَه البشر عن طريق الهندسة الوراثية في إطار اختبار نطاق اللقاحات الذي جرى في أوائل القرن الثاني والعشرين.

دعوني أشرح هذا بمزيدٍ من التفصيل. فبعد أن نجح البشر في تطوير لقاحات تقي من فيروس الإيدز الارتجاعي، الذي ظلَّ يمثل بلاءً رهيبًا طوال العقدَين الأخيرين من القرن العشرين، استغلَّت التكنولوجيا الطبيةُ الهندسةَ الأحيائية لتزيد من وظائف كل اللقاحات المتاحة. وعلى وجه التحديد، تعمَّد علماء الأحياء والأطباء هندسة أنواع جديدة من الفيروسات الارتجاعية والبكتيريا الأكثر فتكًا، وذلك لإثبات أنه يُمكن استخدام مجموعةٍ مُعينة من اللقاحات بنجاح في عدة أغراض. وبالطبع تمَّت المهمة بأكملها تحت ضوابط دقيقة ودون تعريض السكان لأي خطر.

لكن عندما حدثت الفوضى الكبرى، خُفِّضت الأموال المُخصصة للبحث تخفيضًا كبيرًا، واضطُررنا إلى إغلاق الكثير من المُختبرات الطبية. من المُفترَض أن تكون كل العوامل المُمرِضة الخطيرة المُخزَّنة في أماكن معزولة في جميع أنحاء العالم قد أُعدِمت. إلا إذا … وعند هذه النقطة يأتي التكهُّن الذي طرحتُه في شرحي للظاهرة.

إن الفيروس الارتجاعي الذي نُعاني منه هنا في عدن الجديدة يُشبه، إلى درجة مدهشة، الفيروس الارتجاعي «إيه كيو تي ١٩» الذي قام العلماء بهندسته عام ٢١٠٧ في مُختبر لافون الطبي في السنغال. أقرُّ أنه من المُحتمَل أن يحمل ناقل طبيعي جينومًا مُشابهًا لفيروس «إيه كيو تي ١٩»، ولهذا يمكن أن يكون تخميني خاطئًا. ولكنَّني مع هذا أومن أن فيروسات «إيه كيو تي ١٩» التي كانت في ذلك المُختبر المهجور في السنغال لم تُعدَم. أنا مقتنِع بأن هذا الفيروس الارتجاعي بالذات ظلَّ حيًّا بطريقةٍ ما، وتحوَّر قليلًا في القرن التالي — ربما عن طريق العيش في أجساد القردة — وفي النهاية وجد طريقَه إلى البشر. في هذه الحالة، نكون نحن المُتسبِّبين من البداية في المرض الذي يفتك بنا.»

ضجَّت الصالة العلوية. ومرة أخرى، أخذ الحاكم واتانابي يدقُّ بالمطرقة ليُهدئ الحضور متمنيًا في سرِّه أن لو كان د. تيرنر قد احتفظ بتخميناته لنفسه. عندها بدأ د. تيرنر، مدير المستشفى، يناقش كل المشروعات التي تتطلب تمويلًا في العام القادم. إذ طلب زيادة المخصصات المالية بمقدار الضعف مقارنة بالمخصصات التي حصلت عليها إدارته العام الماضي. فسَرَت همهمة مسموعة في مقاعد أعضاء المجلس.

لم تكن الكلمات التي ألقاها كلُّ مَن تحدث بعد روبرت تيرنر مباشرةً أكثر من كونها ذرًّا للرماد في العيون. وكان الجميع يُدركون أن الخطبة المهمة الوحيدة الأخرى لذلك اليوم هي التي سيُلقيها إيان ماكميلان، مرشح المعارضة لشغْل منصب الحاكم في الانتخابات التي ستجرى بعد ثلاثة أشهر. كان معروفًا أن الحاكم الحالي كينجي واتانابي وديميتري أولانوف — الذي رشَّحه حزب كينجي السياسي لخوض الانتخابات القادمة — يُرحبان بزيادة الميزانية الطبية زيادةً كبيرةً، وإن تطلَّب ذلك فرض ضرائب جديدة لتمويل الميزانية. أما ماكميلان، فقد قيل إنه يُعارض أي زيادة في الاعتمادات المالية المُخصصة للدكتور تيرنر.

هزم كينجي واتانابي إيان ماكميلان هزيمةً نكراء في الانتخابات العامة الأولى التي أُجريت في المستعمرة. ومنذ ذلك الحين، نقل ماكميلان محلَّ إقامته من بوفوا إلى هاكون وانتُخِب عضوًا في مجلس الشيوخ عن منطقة فيجاس، وشغل وظيفةً مُربحة في إمبراطورية توشيو ناكامورا التجارية الآخِذة في النمو. وكان ذلك تحالفًا مثاليًّا. فناكامورا كان بحاجةٍ إلى شخصٍ «مقبول» يُدير المستعمرة نيابةً عنه، وكان ماكميلان — وهو رجل طموح لا يؤمِن بأي قِيَمٍ أو مبادئ مُحددة — يريد أن يكون حاكمًا.

بدأ إيان ماكميلان إلقاء خطبته قائلًا: «مِن السهل جدًّا أن نستمع إلى د. تيرنر ثم نفتح قلوبنا وجيوبنا ونُخصِّص الأموال اللازمة لتغطية طلباته. وهذا هو عيب جلسات مناقشة الميزانية. فكل رئيس إدارة يستطيع أن يسوق الحجج القوية التي تدعم مقترحاته. ولكننا عندما نستمِع إلى كلِّ بندٍ منفصل نعجز عن رؤية الصورة مكتملة. إنني لا أقصد بكلامي إنكار أن برنامج د. تيرنر مُهم حقًّا. ولكنَّني مع هذا أعتقد أنه من المطلوب الآن أن نناقش أولوياتنا.»

طرأ تحسُّن كبير على أسلوب ماكميلان في الحديث منذ أن انتقل إلى هاكون. ومن الواضح أنه تلقَّى تدريبًا جيدًا في فنِّ الخطابة. ولكنه لم يكن خطيبًا موهوبًا بالفطرة، ولذا كانت الحركات التي تدرَّب عليها تجيء مُضحكة في بعض الأحيان. كانت النقطة الأساسية

التي تناولها هي أن حاملي فيروس «آر في ٤١» يُمثلون أقلَّ من خمسة بالمائة من سكان عدن الجديدة وأن التكلفة التي تتكبَّدها المستعمرة لتُساعدهم، عالية للغاية.

قال ماكميلان: «لماذا نُجبِر باقي مواطني المستعمرة على معاناة الحرمان لمصلحة هذه الجماعة القليلة؟ كما أن هناك مشاكل أخرى ضرورية أكثر من هذا تحتاج مزيدًا من النقود وهي مشاكل تمسُّ كل فئات المستعمرين، ومن المُحتمَل أن تؤثر على قدرتنا على البقاء.»

عندما طرح إيان ماكميلان روايته لموضوع ذوات الأرجل التي «اندفعت» من الوحدة المجاورة في راما و«أفزعت» فريق الاستكشاف الذي أرسلته المستعمرة، صور «هجومها» كما لو كان الغارة الأولى في حربٍ مُخطط لها بين نوعَين مختلفَين من المخلوقات. ورسم ماكميلان صورة خيالية مُرعبة لتلك الكائنات، وزعم أنها تُبشر بهجومٍ آخر لـ «كائنات مُرعبة أكثر» تُثير الذُّعر بين المُستعمرين ولا سيما النساء والأطفال. وقال: «المال الذي يُنفَق على الدفاع يعود بالنفع علينا جميعًا.»

كما أشار المرشح ماكميلان إلى أن البحثَ العلميَّ في مجال البيئة يُعَد من الأنشطة الأخرى التي تفوق البرنامج الطبي الذي طرَحه د. تيرنر كثيرًا في «أهميتها لرفاهية المستعمرة». وأشاد بالجهود التي تُتَّخَذ للسيطرة على البيئة، ورسم صورة لمُستقبلٍ تُتاح فيه الفرصة للمستعمرين بالتنبُّؤ الكامل بالطقس المتوقَّع.

قاطع الحضور في الصالة العلوية خطبتَه بالتصفيق أكثر من مرة. وعندما وصل أخيرًا إلى مناقشة قضية المُصابين بفيروس «آر في ٤١» طرح خطة «أفضل من الناحية الاقتصادية» لمواجهة «مِحنتهم الرهيبة». وأردف بلهجةٍ جادة وهو يضغط على كل كلمةٍ قائلًا: «سنبني لهم مدينة جديدة خارج عدن الجديدة حيث يُمكنهم أن يقضوا أيامهم الأخيرة في سلام.»

وأضاف: «أرى أن الجهود الطبية التي ستُبذَل لمواجهة «آر في ٤١» في المُستقبل يجب أن تكون قاصرةً على تحديد وتعيين كل الآليات التي ينتقل بها هذا البلاء من شخصٍ إلى آخر. وإلى حين انتهاء هذه الجهود البحثية، من مصلحة كلِّ مَن في المستعمرة — بمن فيهم البؤساء الذين يحملون المرض — أن نفرِض الحجر الصحي على حاملي المرض حتى لا تحدُث أي إصابة بالصدفة.»

كانت نيكول وأسرتها في الصالة العلوية. وقد ظلُّوا يُلحون على ريتشارد حتى أقنعوه بالحضور مع أنه يكره التجمعات السياسية. أثار خطاب ماكميلان اشمئزاز ريتشارد. أما نيكول، فبعث في نفسها الخوف. إذ إنَّ ما يقوله كان يُلاقي قبولًا عند الناس. قالت نيكول

لنفسها في ختام خطبته: تُرى من ذا الذي يكتب له الخُطَب. ووبَّخت نفسها لأنها لم تُقدِّر ناكامورا حقَّ قدره.

قرب نهاية خطبة ماكميلان غادرت إيلي ويكفيلد مكانها في الصالة العلوية بهدوء. وبعد دقائق أُصيب والداها بالدهشة عندما رأياها عند مقاعد أعضاء المجلس وتقترب من المنصة. وكان ذلك هو شعور الحاضرين في الصالة العلوية الذين ظنُّوا أن إيان ماكميلان آخِر المتحدِّثين في هذا اليوم. كان الجميع يستعدُّون للانصراف. لكن معظمهم جلسوا ثانيةً عندما قدم كينجي واتانابي إيلي.

بدأت إيلي حديثها والتوتر بادٍ في صوتها قائلةً: «في مادة التربية المدنية في المدرسة الثانوية كنَّا ندرس دستور المُستعمرة والنظم المتبعة في مجلس الشيوخ. ولا يعرف الكثير من الناس أن أيَّ مواطنٍ من مواطني عدن الجديدة يُمكنه إلقاء خطاب في إحدى هذه الجلسات المفتوحة ...»

أخذت إيلي نفَسًا عميقًا قبل أن تُواصل حديثها. في الصالة العلوية، مالت أمُّها ومُعلمتها إيبونين إلى الأمام وأمسكَتا بالحاجز الذي أمامهما. قالت إيلي بلهجةٍ أقوى من ذي قبل: «أردتُ أن أتحدَّث اليوم لأنني أومن بأنني لديَّ وجهة نظر فريدة في قضية مرضى فيروس «آر في ٤١». أولًا، أنا صغيرة، وثانيًا، حتى ما يزيد بقليلٍ عن ثلاث سنوات مضت، لم تُتَح لي الفرصة قطُّ للتعامُل مع بشرٍ غير أُسرتي.

ولهذين السببين فإنني أُقدر الحياة البشرية وكأنها كنز. لقد اخترت هذه الكلمة بعناية. الكنز هو شيء تُقدره كلَّ التقدير. ومن الجليِّ أن هذا الرجل، هذا الطبيب المذهل الذي يعمل طوال اليوم وأحيانًا طوال الليل ليُحافظ على صحتنا، يرى أن الحياة البشرية كنز أيضًا.

عندما تحدَّث د. تيرنر سابقًا لم يُخبركم عن السبب الذي يدعوكم إلى تمويل برنامجه، وإنما أخبركم فقط بماهية المرَض والطريقة التي سيحاول من خلالها مكافحته. لقد افترض أنكم جميعًا تفهمون السبب.» ونظرت إيلي إلى المُتحدِّث السابق وتابعت حديثها قائلة: «لكن بعد الاستماع إلى السيد ماكميلان ثارت بداخلي الشكوك في افتراضه.

لا بد أن نواصل دراسة هذا المرض الرهيب حتى نستطيع أن نطوِّقه ونُسيطر عليه، لأن الحياة البشرية سلعة غالية. فكلُّ إنسانٍ معجزة مُتفردة في حد ذاته، فهو تركيبة مذهلة من المواد الكيميائية المعقدة، وله مواهب وأحلام وتجارب متفردة. لا شيء في المستعمرة كلها أهم من نشاطٍ يهدف إلى الحفاظ على الحياة البشرية.

فهمت من النقاش الدائر اليوم أن برنامج د. تيرنر مُكلف. وإذا كان من الحتمي أن نفرض الضرائب لنُموله، فربما يُصبح على كلٍّ منَّا أن يستغنيَ عن أشياء مُحببة كان يريدها. غير أن هذا ثمن بخس مقابل كنز هو صحبة إنسان آخَر.

أحيانًا يقول لي أفراد أُسرتي وأصدقائي إنني ساذجة للغاية. ربما يكون هذا صحيحًا. ولكن قد تُمكنني براءتي من رؤية الأمور بوضوح أكبر من الآخَرين. في هذه الحالة أومن أننا بحاجة إلى طرح سؤال واحد فقط. إن علمتَ أنك مصاب بفيروس «آر في ٤١» أو أحد أفراد أسرتك مُصاب به، فهل ستدعم برنامج د. تيرنر؟ ... شكرًا جزيلًا.»

ساد صمت غريب وإيلي تتنحَّى عن المنصة. ثم دوَّى تصفيق حاد. وترقرقت الدموع من عينَي نيكول وإيبونين. وفي مقاعد أعضاء المجلس، مدَّ د. روبرت تيرنر يدَيه ليُصافح إيلي.

٦

عندما فتحت نيكول عينَيها وجدت ريتشارد جالسًا بجوارها على السرير. كان مُمسكًا بفنجان قهوة. قال لها: «طلبتِ أن نُوقظك في الساعة السابعة.»

جلسَتْ في السرير وأخذَت منه القهوة. ثم قالت: «شكرًا يا حبيبي. لكن لماذا لم تطلُب من لينك ...»

«قررتُ أن أحضر قهوتك بنفسي ... هناك أخبار جديدة من السهل المركزي. أردتُ مناقشتها معك، مع أنني أعلَم أنك تكرهين أن تَستيقظي على الثرثرة وأن يكون أول ما يحدُث في الصباح هو ثرثرة الناس معك.»

احتَسَت نيكول رشفةً طويلة من قهوتها ببطء. وابتسمت لزوجها ثم قالت: «ما الأخبار؟»

«وقعت حادثتان للكائنات ذوات الأرجل الليلة الماضية. هذا يجعل إجمالي الحوادث التي وقعت في هذا الأسبوع اثنتَي عشرة حادثة. قيل إنَّ قوات الدفاع التابعة لنا دمَّرت ثلاثةً منها كانت «تُزعج» طاقم الهندسة.»

«هل قامت الكائنات ذات الأرجُل بأي محاولةٍ للردِّ على الهجوم؟»

«كلَّا، لم تفعل. لقد أسرعت إلى الحفرة التي في المنطقة السكنية الأخرى مع أول صوتٍ لإطلاق النار ... معظمها هربت كما حدث أمس الأول.»

«وهل لا تزال تعتقِد أنها تقوم بمهمة المُراقبة عن بُعد مثل العناكب الآلية في مركبتَي راما الأولى والثانية؟»

أومأ ريتشارد برأسه إيجابًا. وقال: «وتستطيعين أن تتخيَّلي الصورة التي يُكوِّنها الآخَرون عنَّا. إننا نُطلِق النيران على مخلوقاتٍ غير مسلحة لم تُحاول استفزازنا ... إننا نقوم بردود فعلٍ عدوانية لفعلٍ لا يعدو أن يكون محاولةً منهم للتواصُل معنا ...»

قالت نيكول بهدوء: «أوافقك الرأي. ولكن ما الذي يُمكننا أن نفعله؟ لقد أجاز مجلس الشيوخ لطواقم الاستكشاف الدفاع عن أنفسهم.»

كان ريتشارد على وشك أن يُجيب عندما لاحظ أنَّ بينجي يقِف عند المدخل. كانت هناك ابتسامة عريضة مُرتسِمة على وجه الشاب. سأل: «أيُمكنني الدخول يا أمي؟»

أجابت نيكول: «بالطبع يا حبيبي.» فتحت ذراعَيها له. وقالت: «تعالَ أعطني حضنَ عيد الميلاد.»

زحف الفتى — الذي يفوق حجمُه حجم معظم الرجال — على السرير واحتضن والدته، وقال ريتشارد: «كل عام أنت بخير يا بينجي.»

«أشكرك يا عم ريتشارد.»

سأل بينجي ببطء: «هل ما زالت نُزهتنا الخلوية في غابة شيروود اليوم قائمة؟»

أجابت والدته: «نعم، بالتأكيد. وسنُقيم حفلًا كبيرًا الليلة.»

قال بينجي: «رائع.»

كان ذلك يوم السبت. نام باتريك وإيلي حتى وقتٍ مُتأخِّر لأنهما في إجازة من المدرسة. قدم لينك الإفطار إلى ريتشارد ونيكول وبينجي، والزوجان يُشاهدان أخبار الصباح على التليفزيون. كان يُعرَض تقرير مصور قصير عن آخِر المواجهات مع الكائنات ذوات الأرجل التي وقعت بالقُرب من المنطقة السكنية الثانية، وكذلك تعليقات المُرشحَيْن لمنصب الحاكم على الواقعة.

قال إيان ماكميلان للمُراسِل: «كما كنتُ أقول طوال الأسابيع الماضية، يجب علينا أن نتوسع في استعدادات الدفاع توسعًا كبيرًا. لقد بدأنا أخيرًا في تطوير الأسلحة المتاحة لقواتنا، ولكننا يجِب أن نتقدَّم بخُطًى أكثر جرأةً على هذا الصعيد.»

اختتمت أخبار الصباح بلقاء مع المديرة المسئولة عن الطقس. إذ أوضحت أن الطقس الحالي الجاف والعاصف على نحوٍ غير معتاد نتج عن خطأ في تصميم برنامج المحاكاة بالكمبيوتر. قالت: «طوال الأسبوع كنَّا نُحاول أن نستمطِر السماء ولكن دون جدوى. الآن،

برمجنا الكمبيوتر بحيث يُصبح الجوُّ صحوًا لأننا في عطلة نهاية الأسبوع ... ولكننا نعِدُكم بأن تُمطر الأسبوع القادم.»

قال ريتشارد مُتذمرًا وهو يُغلق التليفزيون: «ليست لديهم أدنى فكرة عما يفعلونه. فهم يأمرون النظام بمهامَّ تفوق طاقته ويتسبَّبون في حدوث فوضى.»

سأله بينجي: «ماذا تعني بفوضى يا عم ريتشارد؟»

تردَّد ريتشارد لحظة. ثم قال: «أعتقد أن أبسط تعريفٍ لها هو غياب النظام. لكن في الرياضيات، تحمِل الكلمة معنًى أدق. فهي تُستخدَم لوصف الاستجابات غير المحدودة للتشوُّش البسيط.» ضحك ريتشارد. وقال: «آسِف يا بينجي. أحيانًا أستخدِم مصطلحاتٍ علمية بحتة في حديثي.»

ابتسم بينجي. وقال بتأنٍّ: «أُحب أن تتحدَّث إليَّ على طبيعتك. وأحيانًا أفـ...ـهم بعض ما تقول.»

بدت نيكول مشغولة البال عندما كان لينك يرفع صحون الإفطار من على المائدة. عندما غادر بينجي الغرفة ليغسِل أسنانه، مالت على زوجها وسألته: «هل تحدثت إلى كيتي؟ إنها لم تُجب على هاتفها عصر أمس أو ليلة أمس.»

هز ريتشارد رأسه.

«سيتألَّم بينجي كثيرًا إن لم تحضر حفلَه. سأُرسل باتريك ليبحث عنها اليوم.»

قام ريتشارد من كُرسيه ولفَّ حول المنضدة. ومال على نيكول مُمسكًا بيدِها. وقال: «وماذا عنك يا سيدة ويكفيلد؟ هل وضعتِ في برنامجك المزدحِم مكانًا للراحة والاسترخاء؟ لا تنسي، إنها عطلة نهاية الأسبوع.»

«سأمرُّ على المستشفى هذا الصباح للمساعدة في تدريب المُسعفتَين الجديدتَين. ثم سألتقي بإيلي وبينجي هنا في تمام العاشرة ونخرج معًا. وفي طريق العودة سأمر على المحكمة، فأنا لم أقرأ بعد المذكرات التي قدمت عن الدعاوى القضائية التي ستُنظَر يوم الاثنين. ولديَّ اجتماع سريع مع كينجي في الثانية والنصف، ومحاضرة عن علم الأمراض في الثالثة ... سأعود إلى المنزل بحلول الرابعة والنصف.»

«وبهذا لا يبقى لديك من الوقت سوى ما يكفي بالكاد لتنظيم حفلة بينجي. حبيبتي إنك فعلًا تحتاجين إلى أخذ قسطٍ من الراحة. فلا تنسَي أنك لستِ آلية.»

قبَّلت نيكول زوجها. وقالت: «أنت آخِر من يجب أن يقول هذا. ألستَ تعمل مدة عشرين أو ثلاثين ساعةً مُتصلة عندما تكون منشغلًا بمشروعٍ مُثير؟» صمتت لحظة ثم

بدا عليها الجدية. وقالت: «كل ما نقوم به في غاية الأهمية يا حبيبي ... أشعر أن المُستعمرة في مرحلةٍ حرجة وأنني أقوم بدور مؤثر.»

«لا ريبَ في هذا يا نيكول. إنك تتركين بصمتك على الحياة هنا بلا شك. ولكنك لا تُخصِّصين أيَّ وقتٍ لنفسك أبدًا.»

قالت نيكول وهي تفتح باب غرفة باتريك: «هذه رفاهية. سأستمتع بها في سنوات عمري الأخيرة.»

بينما كانت نيكول وإيلي وبينجي يخرجون من بين الأشجار إلى المرج الواسع أخذت الأرانب والسناجب تركض مُبتعدة عن طريقهم. في الجانب المُقابل من المرج كان هناك أيل صغير يأكل في هدوءٍ وسط مجموعة من الزهور الأرجوانية الطويلة. أدار إليهم رأسه التي نبتت عليها قرون منذ فترة قريبة، ورمقَهم وهم يقتربون منه، ثم قفز مُبتعدًا إلى داخل الغابة.

نظرت نيكول في خريطتها. وقالت: «لا بدَّ أن هناك مناضد مُخصصة للنزهات الخلوية في مكانٍ ما بجوار المرج.»

كان بينجي يجثو على ركبتَيه ليتأمَّل مجموعة من الزهور الصفراء يُغطيها النحل. وقال وهو يبتسم: «عسل. النحل يصنع العسل في خلاياه.»

بعد دقائق وجدوا المناضد وغطَّوا إحداها بمفرش. كان لينك قد أعد لهم حقيبتهم وجهزها بالشطائر — بينجي يُفضل زبدة الفول السوداني وحلوى الجيلي — وببرتقال وجريب فروت طازج قطفَه من البساتين القريبة من سان ميجيل. بينما كانوا يتناولون غداءهم كانت أسرة أخرى تتجول في الجانب الآخر من المرج. لوَّح لهم بينجي.

قال: «هؤلاء الـ...ـناس لا يعرفون أن اليوم عيد ميـ...ـلادي.»

قالت إيلي وهي ترفع كوبها المليء بالليمونادة لتشرب نخبه: «ولكننا نعرف. كل عام وأنت بخير يا أخي.»

قبل أن ينتهوا من تناول الطعام مباشرة مرَّت سحابة صغيرة فوقهم في السماء فبهتت ألوان المرج الزاهية ثوانيَ معدودة. قالت نيكول لإيلي: «هذه السحابة لونها داكن على غير المُعتاد.» انقشعت السحابة بعد دقائق، وعاد ضوء الشمس الساطع يغمُر العشب والزهور من جديد.

سألت نيكول بينجي: «أتريد حلوى البودنج الآن؟ أم تُفضل أن تنتظِر؟»

أجاب بينجي: «لنلعب أولًا.» أخرَجَ أدوات البيسبول وناول إيلي القفاز. ثم قال وهو يجري إلى المرج: «هيا بنا.»

بينما كان ولداها يتبادلان الكرة بينهما أخذت نيكول تُزيل بقايا الطعام. وكانت على وشك أن تلحق بهما لكنها سمعت صوت رنين جهاز الاستقبال اللاسلكي الذي ترتديه حول مِعصمها. فضغطت على زر الاستقبال وحلت صورة تليفزيونية محل الساعة الرقمية. رفعت نيكول الصوت حتى تتمكن من سماع ما يقوله كينجي.

قال كينجي: «آسف على إزعاجك يا نيكول ولكن لدَينا حالة طوارئ. فقد تلقَّينا اتهامًا رسميًّا بارتكاب جريمة اغتصاب، وتُريد الأسرة اتخاذ الإجراءات اللازمة لإصدار قرار اتهامٍ على الفور. إنها حالة حسَّاسة، وهي في نطاق سُلطتك القضائية، أعتقِد أنك يجب أن تُباشريها الآن ... لا أريد أن أسترسِل في الحديث عبر اللاسلكي.»

ردت نيكول: «سأحضر في غضون نصف ساعة.»

في البداية شعر بينجي بخيبة أملٍ لقطع النُّزهة الخلوية دون استكمالها. ولكن إيلي أقنعت أمَّها بأنها لا تُمانع في أن تبقى مع بينجي في الغابة ساعتَين أخرَيَين. وقبل أن تُغادر نيكول المرج أعطت خريطة غابة شيروود لإيلي. وفي تلك اللحظة تحرَّكت سحابة أكبر من السحابة السابقة أمام شمس عدن الجديدة الصناعية.

لم تكن هناك أي دلائل على وجود أحدٍ في شقة كيتي. فشعر باتريك بالإحباط مؤقتًا. أين يُمكنه أن يبحث عنها؟ لا يعيش أيٌّ من أصدقاء الجامعة في فيجاس، ولذا فلم يدرِ من أين يبدأ.

اتصل بماكس باكيت من هاتف عمومي. فأعطى له أسماء وعناوين وأرقامَ هواتفِ ثلاثةٍ من معارفه في فيجاس. وقال له: «ليس منهم من تودُّ أن تدعوه لتناول العشاء في منزلك مع والدَيك، إن كنت تفهم ما أقصده.» ضحك ثم أردف قائلًا: «ولكنهم جميعًا طيبون وعلى الأرجح سيُساعدون في البحث عن أختك.»

الاسم الوحيد الذي تعرَّف عليه باتريك من بين هذه الأسماء هو سامانثا بورتر، وكانت شقتها تبعُد مئات قليلة من الأمتار عن كابينة الهاتف. كانت سامانثا لا تزال ترتدي ثياب النوم عندما فتحت الباب، مع أن الوقت كان بعد الظهيرة. قالت بابتسامة مُغرية: «عندما نظرتُ إلى الشاشة، عرفت أن مَن يدقُّ الباب هو أنت. باتريك أوتول أليس كذلك؟»

أومأ باتريك برأسه إيجابًا ثم أخذ يتململ في وقفتِه على نحوٍ يشي بعدم الارتياح خلال فترة صمتٍ طويلة. ثم قال: «آنسة سامانثا، أُعاني من مشكلة ...»

قاطعته قائلة: «أنت أصغر كثيرًا من أن تُعاني من مشكلة.» ثم ضحكت بملء فيها. وقالت: «ما رأيك أن تدخُل حتى نتحدَّث عنها؟»

احمرَّ وجه باتريك. وقال: «لا يا سيدتي، ليس هذا النوع من المشاكل ... كلُّ ما في الأمر أنني لا أستطيع العثور على أُختي كيتي، وظننتُ أنه ربما يمكنك أن تساعديني.»

بعد أن كانت سامانثا قد أفسحت لباتريك الطريق حتى يدخل، التفتت إليه وأخذت تُحدق فيه. وقالت: «ألهذا أتيت؟» هزَّت رأسها وضحكت ثانية. ثم أردفت قائلةً: «يا لخيبة أملي! ظننتُ أنك جئتَ للَّهوِ غير البريء، وعندها كنتُ سأستطيع أن أعطي الجميع القول الفصل فيما إذا كنتَ فضائيًّا بالفعل أم لا.»

ظلَّ باتريك يتململ وهو واقف في المدخل. بعد عدة ثوان هزَّت سامانثا كتفَيها. وقالت: «أعتقد أن كيتي تقضي مُعظم وقتها في القصر. اذهب إلى كازينو القمار واسأل عن شيري. هي تعرف كيف تجد أُختك.»

كانت نيكول تقول للياباني الجالس في مكتبها: «بالطبع بالطبع يا سيد كوباياشي، أفهم هذا. وأستطيع أن أتفهَّم شعورك. كن متأكدًا من أن العدالة ستأخذ مجراها.»

صحبت الرجل إلى حجرة الانتظار حيث لحق بزوجته. كانت عينا الزوجة لا تزالان مُتورِّمَتَين من فرط البكاء. كانت ابنتهما ماريكو البالِغة من العمر ستة عشر عامًا في مستشفى عدن الجديدة، تخضع لفحصٍ طبيٍّ شامل. فقد تعرضت لضربٍ مبرح، ولكنها لم تكن في حالة خطرة.

اتصلت نيكول بدكتور تيرنر بعد أن انتهت من حديثها مع والدَي الفتاة. قال الطبيب: «تُوجَد آثار سائل منوي حديث في مهبلها، وكدمات في كل شبر من جسدها تقريبًا. كما أنها منهارة نفسيًّا، احتمال تعرُّضها للاغتصاب وارد.»

تنهَّدت نيكول. اتهمت ماريكو كوباياشي بدرو مارتينيز — وبدرو هو الشاب الذي لعب دور البطولة مع إيلي في مسرحية المدرسة — باغتصابها. فهل هذا ممكن؟ حركت نيكول مقعدها ذي العجلات على أرض مَكتبها ودخلت إلى قاعدة بيانات المستعمرة عبر جهاز الكمبيوتر الخاص بها.

> مارتينيز، بدرو إيسكوبار ... ولد في السادس والعشرين من مايو عام ٢٢٢٨ في ماناجوا عاصمة نيكاراجوا ... والدتُه غير متزوجة، تُدعى ماريا إسكوبار، خادمة منازل، غالبًا لا تعمل ... والدُه على الأرجح رامون مارتينيز، زنجي يعمل عاملًا في حوض السفن، وهو من دولة هايتي ... له ستة إخوة غير أشقاء، كلهم أصغر منه ... أُدين ببيع الكوكومو في عامَي ٢٢٤١ و٢٢٤٢ ... وبالاغتصاب في عام ٢٢٤٣ ... قضى ثمانية أشهر في إصلاحية ماناجوا ... كان سجينًا مثاليًّا ... انتقل إلى دار رعاية أطفال الشوارع في مكسيكو سيتي عام ٢٢٤٤ ... مستوى الذكاء ١٫٨٦، المستوى الدراسي ٥٢.

قرأت نيكول البيانات القصيرة التي أظهرها الكمبيوتر مرَّتَين ثم استدعت بدرو إلى مكتبها. جلس، حسبما طلبت منه نيكول، ولم يرفع عينَيه عن الأرض. وقف آلي لينكولن في الزاوية طوال المقابلة وسجَّل حديثهما بعناية.

قالت نيكول بهدوء: «بدرو.» لم يرُد. بل لم يرفع عينَيه إليها. كرَّرت بمزيدٍ من الحزم: «بدرو مارتينيز، هل تعِي أنك مُتهم باغتصاب ماريكو كوباياشي ليلة أمس؟ أنا واثقة من أنني لستُ في حاجةٍ لأن أوضِّح لك أن هذه تُهمة خطيرة للغاية ... نحن نمنحك الآن فرصةً للردِّ على اتهاماتها.»

لم ينبس بدرو ببنت شفة. في النهاية تابعت نيكول حديثها قائلة: «في عدن الجديدة لدَينا نظام قضائي ربما يكون مُختلفًا عن النظام الذي عرفته في نيكاراجوا. فهنا لا يمكن إصدار قرار اتهامٍ في القضايا الجنائية إلَّا إذا صار القاضي مؤمنًا بأن هناك سببًا كافيًا للاتهام بعد أن يدرس الوقائع. ولهذا أنا أتحدَّث معك الآن.»

بعد صمتٍ طويل غمغم الشاب بكلامٍ غير مسموع دون أن يرفع عينَيه.

سألته نيكول: «ماذا تقول؟»

قال بدرو بصوتٍ أعلى: «إنها تكذب. لا أدري لماذا، ولكن ماريكو تكذب.»

«أتودُّ أن تُطلِعني على ما حدث؟»

«ما جدوى ذلك؟ لن يُصدِّقني أحد على أي حال.»

«اسمعني يا بدرو. إذا قرَّرَت محكمتي — استنادًا إلى قيامها بتحقيق أوَّلي — أنه ليس هناك سببٌ كافٍ لإقامة الدعوى، فمِن المُمكن أن تُرفَض الدعوى التي رُفِعت ضدك. بالطبع تتطلَّب خطورة هذه التهمة إجراء تحقيقٍ دقيق، مما يعني أنك ستُضطَر للإدلاء بإفادةٍ كاملة عما حدث والإجابة عن بعض الأسئلة الصعبة للغاية.»

رفع بدرو مارتينيز رأسه ونظر إلى نيكول بعينَين حزينتَين. ثم قال بهدوء: «أيتها القاضية نيكول، أنا وماريكو تطارَحنا الغرام ليلة أمس ... ولكنها كانت فِكرتها هي. قالت إنه سيكون من اللطيف أن ندخُل إلى الغابة ...» توقف الشابُّ عن الحديث وعاد ينظر إلى الأرض.

سألته نيكول بعد عدة ثوان: «هل سبق وفعلتَ ذلك من قبل مع ماريكو؟»

أجاب بدرو: «مرة واحدة فقط، قبل نحو عشرة أيام.»

«بدرو هل كنت ... عنيفًا معها أمس؟»

سالت الدموع من عينَي بدرو وانهمرت على وجنتَيه. وقال بانفعال: «لم أضربها. لم أكن لأؤذيها أبدًا.»

أثناء حديثه، صدر صوت غريب من بعيد، وكأنه صوت فرقعة سوط طويل، ولكنه يختلف عن صوت السوط في أنه أعمق بكثير.

تساءلت نيكول بصوتٍ مرتفع: «ما هذا؟»

قال بدرو: «يبدو وكأنه صوت رعد.»

سمع هزيم الرعد أيضًا سكان مدينة هاكون، حيث كان يجلس باتريك في جناحٍ فاخر في قصر ناكامورا ويتحدَّث إلى أُخته كيتي. كانت ترتدي ثوبًا منزليًّا مصنوعًا من الحرير الأزرق الغالي.

تجاهل باتريك الضوضاء الغريبة. إذ كان يقول غاضبًا: «أتعنين أنك لن تُحاولي أن تأتي إلى حفلة بينجي الليلة؟ ماذا أقول لأمي؟»

قالت كيتي: «ما يحلو لك.» أخذت سيجارة من عُلبتها ووضعتْها بين شفتَيها. ثم قالت: «أخبِرها أنك لم تَجدني.» أشعلت السيجارة بقدَّاحة من الذهب، ونفثت الدُّخان باتجاه أخيها. فحاول أن يُبعِده بيدِه.

قالت كيتي ضاحكةً: «دعك من هذا يا أخي الصغير. إنه لن يَقتلك.»

ردَّ عليها: «ليس على الفور على أيِّ حال.»

نهضت كيتي وبدأت تَقطع الجناح جيئة وذهابًا. ثم قالت: «اسمع يا باتريك، بينجي غبي، أبله. ولم تجمعنا قطُّ علاقة وثيقة. وهو لن يُدرك أنني لم أحضر إلَّا لو أخبرَه شخصٌ ما بهذا.»

«أنت مُخطئة يا كيتي. إنه أذكى مما تعتقدِين. إنه يسأل عنك طوال الوقت.»

ردَّت كيتي: «إنك تكذب عليَّ يا أخي الصغير. أنت تقول هذا لتجعلني أشعر بالذنب ... اسمع، لن آتي. أعني كنتُ سأفكر في الأمر لو كان الحضور هم أنت وبينجي وإيلي، مع أنها أصبحت شخصية مُزعجة منذ أن ألقت خطبتها «الرائعة». ولكنك تعرف معنى وجودي مع أمي. إنها تنتقدني طوال الوقت.»

«إنها قلقة عليك يا كيتي.»

ضحكت كيتي في توتُّر، وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارتها فأنهتها به. ثم قالت: «طبعًا قلقة يا باتريك. إن كلَّ ما يُقلقها فعلًا هو ما إذا كنتُ سأُسبب حرجًا للأسرة.»

نهض باتريك ليرحل. فقالت له كيتي: «لستَ مضطرًا للانصراف الآن. ما رأيك أن تبقى معي بعض الوقت؟ سأرتدي ملابسي وننزل إلى الكازينو. أتذكُرُ كم تسلينا ونحن معًا؟»

أسرعت كيتي نحو غرفتها. فسألها باتريك فجأة: «هل تتعاطَين المخدرات؟»

توقفت ورمقت أخاها بنظرةٍ فاحصة. ثم قالت بلهجةٍ مفعمة بالتحدي: «مَن يريد أن يعرف؟ أنت أم السيدة رائدة الفضاء الدكتورة الحاكمة القاضية نيكول دي جاردان ويكفيلد؟»

قال باتريك بهدوء: «أنا أريد أن أعرف.»

اتَّجهت كيتي إليه ووضعت يدَيها على وجنتَيه. وقالت: «أنا أُختك وأُحبك. لا يُهِم أي شيء آخر.»

تجمَّعت السحب الداكنة كلها فوق تلال غابة شيروود الصغيرة ذات المُنحدرات غير الوعرة. كانت الرياح تهبُّ على الأشجار، وتعصف بشعر إيلي فيتطاير خلف رأسها. لمعت صاعقة برق وتزامَن معها تقريبًا قصف الرعد.

تراجع بينجي فجذبته إيلي إلى جوارها. وقالت: «وفقًا للخريطة، نحن نبعُد عن حافة الغابة بكيلومتر.»

سأل بينجي: «كم سيستغرِقُ الوصول إلى هناك؟»

صاحت إيلي ليعلو صوتُها على صوت الرياح: «إن سِرنا بسرعةٍ يُمكننا أن نصل إلى هناك في حوالي عشر دقائق.» أمسكت بيد بينجي وجذبته إلى جوارها على الطريق المُمهد.

بعد لحظة شطر البرق إحدى الأشجار التي كانت بجوارهما إلى قسمين وسقط فرع سميك فقطع الطريق. ارتطم الفرع بظهر بينجي وأوقعه على الأرض. وقع معظم جسده

على الطريق، ولكن رأسه ارتطمَ بالنباتات الخضراء واللبلاب النامي أسفل أشجار الغابة. وكاد دويُّ الرعد أن يُصيبه بالصمم.

بقِي راقدًا على أرض الغابة عدة ثوانٍ محاولًا أن يفهم ما حدث له. وبعد برهة تمكن من النهوض بصعوبة. قال وهو ينظر إلى أخته المُتمدِّدة على الناحية الأخرى من الطريق: «إيلي.» كانت عيناها مغمضتين.

أخذ بينجي يصرُخ الآن وهو يتَّجه نحوها مشيًا تارة وزحفًا تارة أخرى: «إيلي!» أمسكها من كتفَيها وهزَّها برفق. لكنها لم تفتح عينَيها. وكان التورُّم الذي أصاب جبهتها وغطى المنطقة التي تعلو عينها اليُمنى قد بلغ حجم برتقالة كبيرة في ذلك الحين.

قال بينجي بصوتٍ مرتفع: «م... ماذا أ... أفعل؟» شمَّ رائحة دخان ونظر إلى الأشجار. فرأى النيران تنتقِل بسرعة من فرعٍ إلى آخَر بفعل الرياح. وضربت الأرض صاعقة برقٍ أخرى ودوَّى هزيم الرعد. وعندما نظر أمامه في الاتجاه الذي كان يمشي فيه مع إيلي على الطريق الذي يشق الغابة رأى حريقًا أكبر من الحريق الأول يجتاح الأشجار على جانبَي الطريق. فبدأ الذُّعر يتملَّكه.

احتضن أخته وأخذ يضربها على وجهها برفق. وقال: «إيلي أرجوك استيقظي، أرجوك.» لكنها لم تتحرك. كانت النيران من حوله تنتشِر بسرعة. وسرعان ما سيُصبح هذا الجزء من الغابة بأكمله جحيمًا.

شعر بينجي بالفزَع. وحاول أن يحمل إيلي لكنه تعثر ووقع أثناء المحاولة. صاح: «لا، لا، لا»، وهو يقف مرة أخرى وينحني ليرفع إيلي على كتفَيه.

بدأت كثافة الدخان تزداد. وأخذ بينجي يمضي ببطءٍ على الطريق مُبتعدًا عن النيران وهو يحمِل إيلي على ظهره.

كان يشعر بالإرهاق عندما وصل إلى المرج. فوضع إيلي برفق على إحدى الطاولات الإسمنتية وجلس على مقعد. كانت النيران تخرج عن نطاق السيطرة في الجانب الشمالي من المرج. قال بينجي بينه وبين نفسه: ماذا أفعل الآن؟ وقعت عيناه على الخريطة التي تُطل من جيب قميص إيلي. وقال لنفسه: يمكن أن تُساعدني هذه. أمسك بالخريطة ونظر فيها. في البداية لم يفهم أي شيء منها وعاد الذُّعر ينتابه.

سمع صوت أمِّه يقول له بلهجةٍ مهدئة: اهدأ يا بينجي. هذا صعب بعض الشيء، ولكنك تستطيع أن تقوم به. الخرائط شديدة الأهمية فهي تُرشدنا إلى الاتجاهات ... حسنًا، أول ما نفعله دائمًا هو أن نضع الخريطة في الاتجاه الصحيح حتى نتمكَّن من قراءة ما

كُتِب عليها. انظر. هذا صحيح. في أغلب الأحوال يُسمَّى الاتجاه الذي يُشير إلى أعلى بالشمال. جيد. هذه خريطة لغابة شيروود ...

أخذ بينجي يُقلب الخريطة في يديه حتى صار يرى الحروف في وضعها الصحيح. استمر الرعد والبرق. وتغيَّر اتجاه الرياح فجأة فاندفع الدُّخان إلى رئتَيه حتى سعل. حاول أن يقرأ الكلمات التي على الخريطة.

سمع صوت أمه ثانيةً تقول: إن لم تعرف الكلمة من النظرة الأولى فانظر إلى كل حرفٍ على حدة وانطقْهُ ببطءٍ بصوتٍ عال. وبعد ذلك انطق الحروف مع بعضها إلى أن تتكوَّن كلمة تفهمها.

نظر بينجي إلى إيلي الراقدة على الطاولة الأسمنتية. وقال: «استيقظي، آه، أرجوك استيقظي يا إيلي. أحتاج إلى مساعدتك.» لكنها لم تتحرك.

انحنى على الخريطة وحاول أن يُركز بكل جهده. وأخذ بينجي ينطق كل الحروف بتأنٍّ وعناية مرةً بعد أخرى، حتى تأكَّد له أن الرقعة الخضراء على الخريطة هي المرج الذي كان يجلس فيه. قال لنفسه: الخطوط البيضاء هي الطُّرق. هناك ثلاثة خطوط بيضاء تقطع الرقعة الخضراء.

رفع بينجي بصرَه من على الخريطة وعدَّ الطرق الثلاث التي تؤدِّي إلى خارج المرج، فزاد هذا من ثقتِه بنفسه. لكنَّ الوضع تدهور بعد دقائق إذ حملت الرياح الجمر عبر المرج فاشتعلت الأشجار في الجانب الجنوبي. تحرَّك بينجي بسرعة. وقال في نفسه وهو يحمِل إيلي مرةً أخرى على ظهره: يجب أن أرحل من هنا.

أصبح الآن يعرِف أن الحريق الرئيسي في الجزء الشمالي من الخريطة ويتَّجه نحو مدينة هاكون. أنعم النظر مرةً أخرى في الورقة التي بين يدَيه. وقال في نفسه: إذن يجب أن أتتبع الخطوط البيضاء الموجودة في الجزء السفلي.

راح الشابُّ يمضي في الطريق بصعوبةٍ والنيران تلتهم شجرةً أخرى فوق رأسه. وكان يحمل أخته على كتفِه والخريطة المُنقذة في يده اليُمنى. وكان يتوقف لينظر في الخريطة كل عشر خطوات ليتأكد كل مرةٍ أنه لا يزال ماضيًا في الاتجاه الصحيح. عندما وصل أخيرًا إلى مفترق طرقٍ كبير وضع إيلي بحذر شديد على الأرض وأخذ يشير بإصبعه فوق الخطوط البيضاء على الخريطة. بعد دقيقة ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وحمل أختَه ثانيةً مُتجهًا إلى الطريق الذي يُفضي إلى بوسيتانو. ومرة أخرى، لمع البرق ودوَّى قصف الرعد وبدأت الأمطار الغزيرة تهطل على غابة شيروود.

٧

بعد عدة ساعات كان بينجي يغط في نومٍ عميق في غرفته. وفي الوقت نفسه كانت الفوضى تعم مستشفى عدن الجديدة الواقع وسط المستعمرة. فالبشر والآليون يُهرعون في كل مكان، والنقالات ذات العجلات التي تحمِل الجُثَث تقف في الأروقة، والمُصابون يصرخون من الألم. كانت نيكول تتحدَّث إلى كينجي واتانابي عبر الهاتف. كانت تقول: «نُريدكم أن تُرسِلوا لنا كل التياسو الآليات الموجودات في المستعمرة بأسرع ما يمكن. حاول أن تستخدِم الجارسيا أو حتى الأينشتاين بدلًا من التياسو اللائي يقُمنَ برعاية الأطفال والمُسنين. ووجِّه البشر إلى العمل في العيادات الموجودة في المدن. الوضع خطير جدًّا.»

كانت تُميز ما يقوله كينجي بصعوبةٍ من بين الضوضاء التي يضجُّ بها المستشفى. قالت ردًّا على سؤال كينجي: «سيئ، سيئ بالفعل. وصَلَنا سبعة وعشرون حتى الآن منهم أربعة موتى، على حدِّ علمنا. وأشدُّ المناطق نكبةً هي منطقة نارا، تلك المقاطعة ذات البيوت الخشبية المبنية على الطراز الياباني التي تقع وراء فيجاس وتُحيط بها الغابة. فقد اشتعلت بها النيران بسرعة كبيرة. وسيطر الذُّعر على الناس.»

«دكتورة ويكفيلد، دكتورة ويكفيلد. من فضلك اذهبي إلى الغرفة رقم مائتين وأربعة على الفور.» وضعت نيكول سمَّاعة الهاتف وأسرعت تركض في الرواق. ثم أخذت تصعد السُّلم قفزًا إلى الطابق الثاني. كان الرجل الكوري الذي يحتضر في الغرفة رقم مائتين وأربعة الذي يُدعى كيم لي صديقًا قديمًا لنيكول، فقد كان همزة الوصل بينها وبين مُجتمع هاكون طوال الوقت الذي كانت تعمل فيه حاكمةً مؤقتة.

كان السيد كيم من أوائل من بنوا المنازل الجديدة في نارا. وأثناء الحريق هُرع إلى بيته الذي تضطَرِم فيه النيران ليُنقذ ابنه ذا السنوات السبع. وكُتبت النجاة للابن لأن السيد كيم تمكن من حمايته وهو يسير به بين ألسنة اللهب. ولكن كيم لي نفسه أُصيب بحروقٍ من الدرجة الثالثة في معظم أنحاء جسده.

قابلت نيكول د. تيرنر في الممر. فقال لها: «لا أعتقِد أن بوسعِنا فعل أيِّ شيءٍ لصديقك الذي في الغرفة مائتين وأربعة. مع هذا أود أن أسمع رأيك في حالته. اتَّصلي بي في غرفة الطوارئ. فقد أحضروا لتوِّهم حالة خطرة أخرى لامرأةٍ حاصرتها النيران في بيتها.»

أخذت نيكول نفَسًا عميقًا وفتحت باب الغرفة ببطء. كانت زوجة السيد كيم — وهي امرأة كورية جميلة في منتصف الثلاثينيات — جالسة بهدوء في الزاوية. سارت نيكول إليها وعانقتها. وبينما كانت تحاول أن تهدئها، أحضرت التياسو التي كانت تُراقب كل بيانات

السيد كيم مجموعةً من الرسومات البيانية. وعندما اطَّلَعت عليها نيكول وجدت أن حالة الرجل ميئوس منها بالفعل. حين رفعت نيكول عينَيها مما كانت تقرؤه اندهشت لرؤية ابنتها إيلي تقف بجوار سرير السيد كيم والجانب الأيمن من رأسها ملفوف بضمادة كبيرة. كانت إيلي مُمسكةً بيد الرجل.

ما إن تعرف السيد كيم على نيكول حتى قال في همسٍ مُغلف بالألم: «نيكول.» كانت بشرة وجهه قد اسودَّت بشدة. وكان يتألَّم حتى إنه نطق بكلمةٍ واحدة. قال وهو يشير إلى زوجته الجالسة في الزاوية: «أريد أن أموت.»

وقفت زوجته وتوجَّهت نحو نيكول. ثم قالت: «يُريد منِّي زوجي أن أوقِّع على أوراق القتل الرحيم. ولكنني لا أُريد أن أفعل هذا إلا إذا أخبرتني أنه لا يُوجَد أي احتمال على الإطلاق للنجاة.» همَّت بالبكاء ولكنها تمالكت نفسها.

تردَّدت نيكول لحظة. ثم قالت بتجهُّم: «لا أستطيع أن أقول هذا يا سيدتي.» وأخذت تنظر تارة إلى الرجل المحروق وتارة إلى زوجته. ثم قالت: «كلُّ ما يمكنني أن أقوله هو أنه سيموت على الأرجح في غضون الأربع والعشرين ساعة التالية، وأنه سيظل يُعاني بلا انقطاع حتى الموت. وإن حدثت معجزة طبية ونجا، فسيتعرض لتشوُّه كبير، وسيظل ضعيف الجسد لِما تبقى من حياته.»

كرر كيم بصعوبة: «أريد أن أموت الآن.»

أرسلت نيكول تياسو لتُحضِر أوراق القتل الرحيم. يلزم أن تحمل الأوراق توقيع طبيب استشاري والزوجة والشخص نفسه، إن كان الطبيب يرى أنه أهل لاتخاذ قراراته بنفسه. عندما خرجت التياسو أشارت نيكول إلى إيلي بأن تخرج معها إلى الرواق.

قالت نيكول بهدوءٍ لإيلي بعدما ابتعدا عن مرمى السمع: «ماذا تفعلين هنا؟ طلبت منك أن تبقَي في البيت وترتاحي. إنك مُصابة بارتجاج شديد.»

قالت إيلي: «إنني بخير يا أمي. كما أنني وددتُ أن أقدم للسيد كيم أي مساعدةٍ بعدما سمعت أنه أصيب بحروق خطيرة. فقد قدم لنا خدمات جليلة في فترة بداية إنشاء المستعمرة.»

قالت نيكول وهي تهز رأسها: «إنه في حالة شديدة السوء. لا أُصدق أنه لا يزال حيًّا.»

اقتربت إيلي من أُمها ولمست ساعدها. وقالت: «يريد أن يكون موته مفيدًا. لقد تحدثت معي زوجته عن هذا. وقد استدعيت أمادو ولكنني أريدك أن تتحدثي مع د. تيرنر.»

حدقت نيكول في ابنتها. وقالت: «عم تتحدثين بالله عليك؟»

«ألا تذكرين أمادو ديابا …؟ صديق إيبونين، الصيدلي النيجيري السينوفوي الأصل. إنه ممن أصيبوا بفيروس «آر في ٤١» عن طريق نقل الدم … على أي حال، أخبرتني إيبونين أن حالة قلبه تتدهور بسرعة.»

صمتت نيكول عدة ثوان. إذ لم تستطع أن تُصدق ما تسمع. ثم قالت: «تريدين منِّي أن أطلب من د. تيرنر أن يجري عملية نقل قلب يدويًّا الآن ونحن في وسط هذه الأزمة؟»

«إنْ أَخَذَ القرار الآن، يمكن إجراؤها في وقتٍ متأخر الليلة، أليس كذلك؟ يُمكننا الحفاظ على قلب السيد كيم سليمًا هذه المدة على الأقل.»

قالت نيكول: «اسمعي يا إيلي، إننا لا نعرف أصلًا …»

قاطعتها إيلي: «لقد تحققتُ من هذا من قبل. فقد أكدت إحدى التياسو أن السيد كيم متبرع مناسب.»

هزَّت نيكول رأسها مرةً أخرى. وقالت: «حسنًا، حسنًا. سأفكر في الأمر. أما الآن فأريدك أن تستلقي وترتاحي. فالارتجاج ليس إصابةً بسيطة.»

قال د. تيرنر لنيكول وهو لا يصدق ما يسمعه: «تطلبين منِّي ماذا؟»

قال أمادو بلهجة بريطانية: «يا د. تيرنر ليست د. ويكفيلد هي من تطلُب منك. بل أنا، أتوسَّل إليك أن تجري هذه العملية. ومن فضلك لا تحكم بأنها تنطوي على مخاطرة. فقد أخبرتني بنفسك أنه لم يبقَ أمامي سوى ثلاثة أشهر. وأنا أعرف جيدًا أنني قد أموت على منضدة العمليات. ولكنَّني إن نجوتُ فستكون أمامي فرصة لا بأس بها لأن أعيش ثمانية أعوام أخرى — استنادًا للإحصائيات التي أطلعتني عليها. بل ربما أستطيع أن أتزوَّج وأنجب.»

استدار الدكتور تيرنر ونظر إلى الساعة المُعلقة على حائط مكتبه. وقال: «يا سيد ديابا فلنتغاضَ عن أن الساعة تجاوزت منتصف الليل، وإنني أعمل منذ تسع ساعاتٍ متواصلة لعلاج ضحايا الحريق. لكن أرجو أن تتروَّى في طلبك هذا. فأنا لم أجرِ عملية نقل قلب منذ خمس سنوات. ولم يسبق لي إجراء عملية كهذه قط دون مساعدة أمهر الأطباء المتخصصين في القلب، ودون استخدام أفضل المعدات المُستخدَمة في كوكب الأرض. فمثلًا كل المهام الجراحية كان يقوم بها الآليون دائمًا.»

«أتفهَّمُ كلَّ ذلك يا د. تيرنر. ولكن هذا لا يعنيني في شيء. فأنا سأموت حتمًا إن لم أُجْرِ العملية. وغالبًا لن يُوجَد مُتبرع آخر في المستقبل القريب. كما أن إيلي أخبرتني أنك

كنت تراجع في الآونة الأخيرة كل خطوات إجراء عملية نقل القلب، وذلك في إطار الإعداد لطلب ميزانية المعدات الجديدة ...»

رمق د. تيرنر إيلي بنظرة متسائلة. فقالت: «أخبرتني أمي بالإعداد الدقيق الذي قمتَ به يا د. تيرنر. آمُل ألا تكون قد تضايقت لأنني أخبرت أمادو.»

أضافت نيكول: «سيُسعدني أن أُساعدك بأي طريقةٍ ممكنة. فمع أنني لم أُجر عمليةً جراحية للقلب بنفسي قط، فإنني قضيتُ فترة التخصُّص في معهدٍ مُتخصِّص في أمراض القلب.»

أخذ د. تيرنر ينقل بصرَه في أنحاء الغرفة ناظرًا إلى إيلي ثم إلى أمادو ونيكول. وقال: «إذن هذا يحسم الأمر على ما أعتقد. أرى أنكم لم تتركوا لي خيارًا.»

تساءلت إيلي في حماس: «هل ستُجري العملية؟»

أجابها الطبيب: «سأحاول.» ثم سار نحوَ أمادو ديابا ومدَّ إليه يدَيه. وقال: «تعلم أن فُرصتك في النجاة ضئيلة للغاية، أليس كذلك؟»

«بلى، يا سيدي الطبيب. ولكن الفرصةَ الضئيلة للغاية أفضل من الفرصة المعدومة ... أشكرك.»

التفت د. تيرنر إلى نيكول. وقال: «سأُقابلك في مكتبي بعد خمس عشرة دقيقة لنراجع خطوات العملية. بالمناسبة يا دكتورة، أيمكنك أن تطلُبي من إحدي آليي التياسو أن تُحضر لنا إبريقًا من القهوة الساخنة؟»

تسبب الاستعداد لإجراء عملية نقل القلب في استعادة د. روبرت تيرنر لذكريات كان قد دفنها في أعماق عقله. حتى إنه ظنَّ، لعدة ثوانٍ مرةً أو مرتَين، أنه عاد حقًّا إلى مركز دالاس الطبي. كانت الذكرى المُسيطرة عليه هي ذكرى السعادة التي كانت تُرفرف على حياته في تلك الأيام الماضية التي عاشها على الكوكب الآخر. كان يُحب عمله ويُحب عائلته. وكانت حياته تكاد تكون مثالية.

كتب د. تيرنر ود. ويكفيلد بعناية سلسلة الإجراءات التي سيَتَّبعانها قبل أن يَبدآ تنفيذ العملية. وأثناء العملية نفسها كانا يتوقفان بعد كل مرحلةٍ أساسية ليتأكَّدا من دقة الخطوات التي اتُّخذت. لم تقع أي أحداث غير مُتوقَّعة قط أثناء العملية. وعندما نزع د. تيرنر قلب أمادو القديم قلَبَه لترى نيكول وإيلي (أصرَّت إيلي على البقاء معهما لتُقدم المساعدة إن احتاجا إليها) العضلات التي أصابها ضمور شديد. كان قلب الرجل تالِفًا. وكان على الأرجح سيموت في غضون أقلِّ من شهر.

ساعدت مضخَّة آلية في الحفاظ على استمرار الدورة الدموية للمريض عندما كان الطبيب «يُركب» القلب الجديد في الشرايين والأوردة الرئيسية. كانت تلك هي أصعب وأخطر مرحلة من مراحل العملية. وعلى مدار السنوات التي قضاها د. تيرنر في العمل طبيبًا، لم يسبق تنفيذ هذا الجزء من العملية بأيدٍ بشرية على الإطلاق.

ساهمت العمليات اليدوية الكثيرة التي أجراها د. تيرنر طوال السنوات الثلاث التي قضاها في عدن الجديدة في الارتقاء بمهاراته الجراحية كثيرًا. حتى إنه اندهش هو نفسه من مدى السهولة التي أوصل بها القلب الجديد بالأوعية الدموية الحيوية لأمادو.

قرب نهاية العملية، بعد الانتهاء من كل المراحل الخطرة، عرضت نيكول عليه أن تقوم بما تبقى من مهام. ولكنه هزَّ رأسه نفيًا. فقد كان مصرًّا على إنهاء العملية بنفسه بالرغم من أن الفجر كاد يبزغ على المستعمرة.

هل كان التعب الشديد هو المُتسبِّب في الخداع البصري الذي شعر به د. تيرنر أثناء الدقائق الأخيرة من العملية؟ أم أن السبب في هذا هو ارتفاع مستوى الأدرينالين لأنه أدرك أن العملية ستنجح؟ أيًّا كان السبب، المُهم هو أن د. تيرنر كان يرى تغيُّراتٍ ملحوظة في وجه أمادو ديابا أثناء المراحل الأخيرة من العملية. فقد تحوَّل وجه المريض ببطءٍ أكثر من مرة أمام عينَيه بحيث صارت ملامحه تُشبه ملامح كارل تايسون، ذلك الشاب الأسود الذي قتله د. تيرنر في دالاس. بعد أن أنهى د. تيرنر خِياطة إحدى الغرز رفع بصره إلى أمادو فأخافته ابتسامة كارل تايسون الوقحة. فتح الطبيب عينَيه وأغمضهما، ثم أعاد النظر إلى الوجه، ولكنه لم يجد أحدًا على منضدة العمليات سوى أمادو ديابا.

بعد أن تكرَّرت هذه الظاهرة أكثر من مرة سأل د. تيرنر نيكول إذا ما كانت تلحظ أي شيءٍ غريب في وجه أمادو. فأجابته: «لا شيء سوى ابتسامته. لم أرَ قطُّ شخصًا يبتسِم هكذا وهو تحت تأثير التخدير.»

عندما انتهت العملية وقالت الآليات التياسو إنَّ كل مؤشرات المريض الحيوية مُمتازة، شعر الدكتور تيرنر ونيكول وإيلي بالابتهاج رغم إرهاقهم. ودعا الطبيب المرأتَين إلى مكتبه لاحتساء القهوة على سبيل الاحتفال. وحتى تلك اللحظة لم يكن قد أدرك بعدُ أنه سيطلُب يد إيلي.

أذهلت المفاجأةُ إيلي. حتى لم يعُد بوسعها سوى التطلُّع إلى الطبيب. نظر تيرنر إلى نيكول ثم عاد يرنو إلى إيلي. وقال: «أعلم أنني فاجأتكما. ولكنَّني واثق من قراري. فقد فكرت كثيرًا. ووجدت أني أُحبك. أريد الزواج منك. وكلما كان أسرع كان أفضل.»

ساد الهدوء شِبه التامِّ الغرفةَ دقيقةً تقريبًا. وأثناء مدة الصمت هذه اتَّجه الطبيب إلى باب مكتبه وأغلقه. وفصل الهاتف. همَّت إيلي بأن تقول شيئًا. لكنه قال لها بانفعال: «لا، لا تقولي شيئًا الآن. فهناك شيء آخَر يجب أن أقوم به أولًا.»

جلس على كُرسيه وأخذ نفسًا عميقًا. ثم قال بهدوء: «شيءٌ كان يجب أن أقوم به منذ وقتٍ طويل. فمِن حقِّكما أن تعرفا الحقيقة الكاملة عني.»

اغرورقت عينا د. تيرنر بالدموع قبل حتى أن يبدأ في رواية قصته. وتهدَّج صوته في بداية حديثه، ولكنه تمالك نفسه وبدأ الحكاية.

«كنتُ في الثالثة والثلاثين من عمري، وكنتُ أنعم بسعادة جارفة. إذ كنتُ قد أصبحت حينئذٍ أحد أنجح جرَّاحي القلب في أمريكا، ووهبَني الله زوجةً جميلة مُحبة، وابنتَين في الثالثة والثانية من عمرهما. كنا نعيش في قصرٍ به حمام سباحة يقع في ضاحية راقية تقع على بُعد نحو أربعين كيلومترًا شمال دالاس بولاية تكساس.

ذات ليلة عُدت من المستشفى إلى البيت، وكان الوقت متأخرًا جدًّا لأنني كنتُ أُشرف على عملية قلب مفتوح دقيقة للغاية، فأوقفني حراس الأمن على بوابة الضاحية. وكانوا يتصرَّفون بارتباكٍ وكأنهم في حيرة من أمرهم، ولكنهم سمحوا لي بالدخول بعد إجراء مكالمةٍ هاتفية وإلقاء بعض النظرات الغريبة باتجاهي.

رأيتُ سيارتَي شرطة وسيارة إسعاف متوقفة أمام منزلي. وكانت عربات التليفزيون منتشرة بالقُرب من بيتي في الزقاق الذي يقع خلف منزلي. وعندما انعطفت بالسيارة لِأتَّجه إلى الطريق الداخلي الذي يُفضي إلى البيت أوقفني شرطي. وقادني إلى بيتي، ومصابيح التصوير تنبثق من كل مكان، والأضواء الصادرة من كاميرات التليفزيون تُعمي عينيَّ.

كانت زوجتي ترقد تحت غطاءٍ على سريرٍ نقَّال في الردهة الرئيسية بجوار السُّلَّم المؤدِّي إلى الطابق الثاني. وكانت مذبوحة. وسمعتُ أشخاصًا يتحدثون في الطابق العلوي فهُرعت إلى أعلى لأرى ابنتيَّ. كانت الفتاتان لا تزالان راقدتَين في المكان الذي قُتِلَتا فيه، كريستي على أرض الحمام، وأماندا على سريرها. فالوغد ذبحهما أيضًا.»

وفجأة راح د. تيرنر يبكي وينتحِب في أسًى شديد. ثم تابع قائلًا: «لن أنسى أبدًا هذا المشهد المُريع. لا بدَّ أنَّ أماندا قُتلت وهي نائمة لأنه لم يكن في جسدها أي آثارٍ أخرى غير الجرح الذي أدَّى إلى مَقتلها ... أي نوع من البشر هذا الذي يقتل هذه المخلوقات البريئة؟»

كانت دموع د. تيرنر تنهمِر على وجنتَيه. وكان صدره يعلو وينخفض بعُنف. لم ينبس ببنت شفة عدة ثوان. فذهبت إيلي بهدوءٍ إلى جوار كُرسيه وجلست على الأرض ممسكةً بيده.

«طوال الأشهر الخمسة اللاحقة ظللتُ أعاني من صدمة قوية أفقدتني إحساسي بما حولي. إذ كنتُ عاجزًا عن العمل والأكل. وحاول الناس مُساعدتي: الأصدقاء والأطباء النفسيون وغيرهم من الأطباء، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. إذ لم أستطِع أن أتقبل فكرة مقتل زوجتي وابنتَيَّ.

وجدت الشرطة مُشتبهًا فيه في أقل من أسبوع. كان اسمه كارل تايسون. وهو شاب أسود في الثالثة والعشرين من عمره كان يعمل لدى متجر قريب في توصيل البقالة إلى المنازل. كانت زوجتي دائمًا ما تشتري عبر التليفزيون. وقد جاء كارل تايسون إلى منزلنا مرات ومرات من قبل — أتذكر أنني رأيتُه بنفسي مرة أو مرتين — ولا شك أن منزلنا كان مألوفًا لديه.

رغم حالة الذهول التي كانت تسيطر عليَّ في تلك المدة، كنتُ أتابع ما يحدث في التحقيق الذي يجرى حول الحادث. في البداية بدت أركان الجريمة واضحة. إذ وُجِدت بصمات حديثة لكارل تايسون على الأثاث في جميع أنحاء المنزل. وكان قد دخل إلى ضاحيتنا عصر ذلك اليوم ليقوم بتوصيل طلب. وكانت معظم مجوهرات ليندا مفقودة، لذلك كان دافع السرقة واضحًا. وبناءً على هذا، توقعت أن يُدان المُشتبَه فيه ويُعدَم بسرعة.

غير أن المسألة سرعان ما اكتنفها الغموض. إذ لم تعثر الشرطة قطُّ على أي قطعةٍ من قطع المجوهرات. ومع أن الحراس سجلوا دخول كارل تايسون إلى الضاحية وخروجه منها في السجل الرئيسي فإنه لم يمكث في ضاحيتنا، جرينبراير، سوى اثنتَين وعشرين دقيقة، وهي مدة لا تكفي لتوصيل البقالة والسرقة وارتكاب ثلاثِ حوادث قتل. إضافة إلى هذا، بعد أن قرَّر محامٍ شهير أن يدافع عن تايسون وساعده في إعداد ما سيقوله تحت القَسَم، أصرَّ تايسون على أن ليندا طلبت منه أن ينقل بعض قطع الأثاث عصر ذلك اليوم. وكان هذا تفسيرًا ممتازًا لوجود بصماته في جميع أنحاء المنزل ...»

توقف د. تيرنر مفكرًا وقسماته تنطق بالألم. ضغطت إيلي على يدِه برفق فتابع حديثه.

قال: «عندما حان وقت المحاكمة، كانت أطروحة الادعاء تقول إن تايسون أحضر البقالة إلى البيت عصرًا، واكتشف من حديثه مع ليندا أنني سأتغيَّب لإجراء جراحةٍ حتى وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة. ولم يكن مُستبعدًا أن تكون زوجتي قد تحدثت مع فتى توصيل الطلبات وذكرت له أنني سأتأخَّر في عودتي، لأنها ودودة وتثِق في الناس بسهولة ... على أي حالٍ عاد تايسون — وفقًا لما قاله مُمثل الادعاء — بعد أن أنهى ورديتَه في متجر البقالة. وتسلَّق الحائط الصخري المُحيط بالمجمع السكني بالضاحية وقطع ملعب الجولف. ثم

دخل المنزل بنِيَّة سرقة مجوهرات ليندا، وهو يظنُّ أن جميع من بالمنزل نائمون. ويبدو أن زوجتي واجهته فأصابه الذُّعر فقتلَها، ثم قتل الطفلتَين ليضمن عدم وجود شهود على جريمته.

مع أن أحدًا لم يرَ تايسون يعود إلى حيِّنا، كنت أعتقد أن دعوى الادعاء مُقنعة للغاية، وأن الرجل سيُدان بسهولة. فهو لم يستطع إثبات وجوده في مكانٍ آخر وقت وقوع الجريمة. كما أن الطين الذي وُجِد على حذاء تايسون مُطابق تمامًا للطين الذي يُغطي الزقاق الذي لا بد أنه قطعَه ليصِل إلى الجانب الخلفي من المنزل. كما أنه تغيَّب عن عمله مدة يومَين بعد الجريمة. وفضلًا عن ذلك، عند القبض عليه، كان يحمل مبلغًا كبيرًا من النقود قال إنه كسبها في لعبة بوكر.

أثناء مدة الدفاع، بدأتُ أفقد ثِقتي فعلًا في النظام القضائي الأمريكي. فقد حوَّل مُحاميه القضية إلى مشكلةٍ عنصرية مصورًا كارل تايسون على أنه رجل أسود مسكين سيئ الحظ، يتعرَّض للزجِّ به في السجن ظلمًا استنادًا على دليل بالقرينة. ودفع مُحاميه بأن كلَّ ما فعله تايسون في ذلك اليوم من شهر أكتوبر هو توصيل البقالة إلى منزلي. وأضاف أن شخصًا آخر — معتوهًا مجهولًا — تسلَّق سور جرينبراير وسرق المجوهرات ثم قتل ليندا والطفلتَين.

في آخِر يومَين من أيام المحاكمة تأكدت أن تايسون سيحصل على البراءة من خلال ملاحظتي لإيماءات أفراد هيئة المُحلَّفين وتعبيرات وجوههم أكثر من أي شيءٍ آخَر. فجُن جنوني من فرط الغيظ. إذ لم يساور عقلي شكٌّ في أن هذا الشاب هو من ارتكب الجريمة. ولم أستطع أن أحتمِل فكرة أنهم قد يُطلقون سراحه.

طوال مدة المحاكمة — التي استمرَّت ستة أسابيع — كنتُ أذهب إلى المحكمة يوميًّا ومعي حقيبتي الطبية الصغيرة. في البداية كان الحراس يُفتشون الحقيبة في كل مرةٍ أدخل فيها، لكن بعد مدة، صاروا يسمحون لي بالمرور بلا تفتيش، خاصة أن معظمهم كانوا مُتعاطفين معي.

في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت انتهاء المحاكمة سافرتُ إلى ولاية كاليفورنيا زاعمًا أنَّني مسافر لحضور مؤتمرٍ طبي، ولكنني في الواقع سافرتُ لأشتري بندقية من السوق السوداء يكون حجمُها مناسبًا لوضعِها في حقيبتي الطبية. وكما توقعت، لم يطلُب مني الحرَّاس أن أفتح حقيبتي في يوم النطق بالحكم.

عندما أُعلِنت البراءة ارتفعَت أصوات مَن في قاعة المحكمة. إذ أطلق كل السُّود الذين كانوا في القاعة العلوية صيحات الفرح. وعانق كارل تايسون مُحاميه اليهودي إرفينج بيرنستين. عندها، كنتُ مستعدًّا لتنفيذ ما نويتُه. ففتحتُ حقيبتي وركَّبت البندقية بسرعة ثم قفزت فوق الحاجز وقتلتُهما، أفرغت في كلٍّ منهما طلقةً من طلقات البندقية.»

أخذ د. تيرنر نفَسًا عميقًا وصمَت. ثم أردف قائلًا: «لم أعترف من قبل بأن ما فعلتُه كان خطأً، بل إنني لم أعترِف بذلك بيني وبين نفسي. ولكن في لحظةٍ ما أثناء هذه العملية التي أجريتُها لصديقكما السيد ديابا، فهمتُ بوضوح كم أنَّ غضبي أعمى روحي طوال تلك السنوات ... فانتقامي العنيف لم يُعِد إليَّ زوجتي وبنتيَّ. ولم يُسعدني أيضًا، فيما عدا تلك المتعة الحيوانية السقيمة التي شعرتُ بها لحظة أن علمتُ أن تايسون ومحاميه سيَلقيان حتفهما.»

في تلك اللحظة، اغرورقت عينا د. تيرنر بدموع الندم. ورنا إلى إيلي. وقال: «مع أنني قد لا أكون كُفئًا لك، فإنني أُحبك يا إيلي ويكفيلد، وأريد حقًّا أن أتزوَّجك. وآمُل أن تُسامحيني على ما فعلتُه منذ سنوات.»

رفعت إيلي عينيها إلى الدكتور تيرنر وضغطت على يدِه مرةً أخرى. ثم قالت بروية: «ليست لي دراية بالعلاقات العاطفية لأنني لم أمرَّ بتجربة عاطفية من قبل. ولكنني متأكدة أنني أُكِنُّ لك مشاعر رائعة. أنا أُقدرك وأحترمك، بل ربما أُحبك. بالطبع أودُّ أن أستشير والديَّ بهذا الشأن ... ولكنني أقول لك نعم يا د. روبرت تيرنر إن لم يعترِضا سيُسعدني أن أتزوَّجك.»

٨

مالت نيكول فوق الحوض وأنعمت النظر في وجهها الظاهر في المرآة. مرَّت بأصابعها على التجاعيد التي تُغطي المنطقة الواقعة تحت عينَيها وصفَّفت غُرَّتها الرمادية. ثم قالت لنفسها: أوشكتِ أن تُصبحي عجوزًا. ابتسمت. وقالت بصوت عالٍ: «إنني أهرم، إنني أهرم، سأترك ثنية سروالي مقلوبة (في إشارة إلى قصيدة «أغنية حُب جيه ألفريد بروفروك» للشاعر الأمريكي تي إس إليوت).»

ضحكت نيكول وابتعدت عن المرآة ثم استدارت لترى كيف يبدو جسدها من الخلف. كان الثوب الأخضر المائل إلى الصفرة الذي تنوي أن ترتديه في حفل زفاف إيلي مضبوطًا

على جسدها الذي كان لا يزال مُتناسقًا ورياضيًّا رغم مرور كل هذه السنوات. قالت لنفسها باستحسان: ليس سيئًا. على الأقل لن تشعُر إيلي بالإحراج منِّي.

كان على المنضدة الموجودة بجوار سريرها صورتان أحضرهما كينجي واتانابي، وتظهر فيهما جنيفياف وزوجها الفرنسي. بعد أن عادت نيكول إلى غرفة النوم أمسكت الصورتَين ونظرت فيهما. ثم قالت لنفسها وقد داهمَها شعور مباغِت بالحزن: لم أستطع أن أحضر حفل زفافك يا جنيفياف. بل لم ألتقِ بزوجك قط.

راحت تُغالب انفعالاتها، واتجهت بسرعةٍ إلى الجانب الآخر من الغرفة. حيث أنعمت النظر قليلًا في صورة سيمون ومايكل أوتول التي التُقِطت يوم زفافهما في النود. وقالت بينها وبين نفسها: تركتك بعد أسبوع فقط من زفافك … كنتِ صغيرة جدًّا جدًّا يا سيمون، ولكنك أنضج من إيلي في نواحٍ كثيرة …

لم تترك نفسها تنجرِف في تيار الذكرى. إذ كان ينتابها أسًى شديد عندما تتذكَّر سيمون أو جنيفياف. ورأت أنه من المُفيد كثيرًا أن تُركز على الحاضر. مدَّت نيكول يدَيها وأمسكت بصورة إيلي المُعلقة على الحائط بجوار صور إخوتها التي تظهر فيها بمفردها. وقالت لنفسها: بهذا تكونين ثالث ابنةٍ من بناتي تتزوَّج. لا أكاد أُصدق هذا! أحيانًا تمضي الحياة بسرعة شديدة.

ظهرت سلسلة من الصور لإيلي في مخيلة نيكول. كان منها صورة الرضيعة الخجول الضئيلة التي ترقد بجوارها في مركبة راما الثانية، وصورة أخرى لوجه إيلي والانبهار يعلوه وهم يتوجَّهون نحو النود في المكوك وهي لا تزال فتاةً صغيرة، وصورتها بملامحها الجديدة وقد صارت في مرحلة المراهقة لحظة الاستيقاظ من النوم الطويل، وفي النهاية رأت إيلي الناضجة وهي تتحدَّث أمام مواطني عدن الجديدة في ثباتٍ وشجاعة مُدافعةً عن برنامج د. تيرنر. كانت رحلة من المشاعر القوية أخذتها إلى الماضي.

أعادت نيكول صورة إيلي إلى موضعها على الحائط وبدأت تخلع ملابسها. وما إن انتهت من تعليق ثوبها في خزانة الملابس حتى سمعت صوتًا غريبًا يُشبه صوت البكاء، وكان خافتًا للغاية. تعجبت قائلة في نفسها: ما هذا؟ ثم جلستُ لحظاتٍ بلا حراك، ولكنها لم تسمع أي صوتٍ آخر. لكن عندما وقفت راوَدَها إحساس غريب بأن جنيفياف وسيمون معها في الغرفة. فتلفتت حولها بسرعة ولكنها وجدت أنها بمفردها.

سألت نفسها: ما الذي يحدُث لي؟ هل أرهقتُ نفسي في العمل في المدة الماضية؟ هل تزامُن قضية مارتينيز مع الزفاف تسبَّب في إرهاقي إلى هذا الحد؟ أم أن هذه سلسلة أخرى من نوباتي النفسية؟

حاولت نيكول أن تُهدئ نفسها فأخذت تتنفَّس ببطءٍ وعُمق. لكنها لم تستطع أن تنفض عن نفسها الإحساس بأن جنيفياف وسيمون كانتا معها في الغرفة فعلًا. فوجودهما بجوارها كان قويًّا حتى إن نيكول اضطرَّت إلى كبح نفسها لكيلا تتحدَّث معهما.

تذكَّرت نيكول بوضوح النقاشات التي دارت بينها وبين سيمون قُبيل زواجها بمايكل أوتول. وقالت لنفسها: ربما حضَرَتا لهذا السبب. جاءتا لتُذكِّراني بأنني كنتُ مشغولة جدًّا في عملي حتى إنني لم أتحدَّث مع إيلي حول زفافها. ضحكت نيكول في توتر ولكنَّها ظلَّت تشعُر بقشعريرة في ذراعَيها.

قالت نيكول لصورة إيلي ولرُوحَي جنيفياف وسيمون: «اغفرنَ لي يا حبيباتي. أعدكما أنني غدًا ...»

في هذه المرة كانت الصرخة لا تُخطئها أُذن. فتجمَّدت نيكول في غرفة نومِها وسرى الأدرينالين في جسدها. وفي ثوانٍ كانت تجري عبر المنزل إلى غرفة المكتب التي كان ريتشارد يعمل فيها.

قالت قبل أن تصِل إلى باب الغرفة: «ريتشارد، أسمعت ...»

توقفت قبل أن تُتمَّ العبارة. فقد كانت الفوضى تعمُّ غرفة المكتب. وكان ريتشارد جالسًا على الأرض وسط شاشتَين وكومة غير منظمة من المعدات الإلكترونية. وكان يحمل الأمير هال، الآلي الصغير، في إحدى يدَيه والكمبيوتر المحمول المُحبَّب إليه الذي حصل عليه أثناء بعثة نيوتن في اليد الأخرى. وكان هناك ثلاثة من الآليين يميلون عليه، اثنتان من الجارسيا وأينشتاين مُفكك جزئيًّا.

قال ريتشارد بلا مبالاة: «آه، مرحبًا يا حبيبتي. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ظننتك نائمة.»

قالت: «ريتشارد، أنا على يقينٍ من أنني سمعت صرخة أحد المخلوقات الطائرة. منذ حوالي دقيقة واحدة فقط. وكان الصوت قريبًا.» تردَّدت نيكول وهي تُحاول أن تُقرر أتُخبره بزيارة جنيفياف وسيمون أم لا.

عقد ريتشارد حاجبَيه. وردَّ عليها: «لم أسمع شيئًا.» سأل الآليين: «أسمعتُم شيئًا؟» هزوا رءوسهم جميعًا وفيهم الأينشتاين الذي كان صدرُه مفتوحًا ومُوصلًا بالشاشتَين الموضوعتَين على الأرض عن طريق أربعة كابلات.

كررت نيكول ما قالته: «أنا على يقينٍ من أنني سمعتُ شيئًا.» صمتت لحظة. ثم سألت نفسها: هل هذه علامة أخرى تدلُّ على أنني أُعاني من ضغط رهيب؟ ألقت نيكول نظرةً على الفوضى التي تعمُّ الأرض أمامها. وسألت ريتشارد: «بالمناسبة يا حبيبي ماذا تفعل؟»

قال ريتشارد وهو يُحرِّك يدَيه حركة نصف دائرية مبهمة: «تقصدين هذا؟ آه، لا، ليس شيئًا مهمًّا. مجرد مشروع أقوم به.»

قالت بسرعة: «إنك تكذب عليَّ يا ريتشارد ويكفيلد. هذه الفوضى على الأرض لا يمكن ألا تكون شيئًا مهمًّا؛ أعرفك حتى إني لا أُصدق هذا. الآن، ما هو هذا الأمر الشديد السرية ...»

غيَّر ريتشارد ما يظهر على الشاشات الثلاث وأخذ يهزُّ رأسه بقوة. وتمتم قائلًا: «لا يروقني هذا. على الإطلاق.» رفع عينَيه إلى نيكول. وسأل: «هل حدث ودخلتِ على ملفات البيانات الحديثة الخاصة بي التي أخزنها في الكمبيوتر المركزي العملاق؟ ولو عن غير قصد؟»

«كلَّا، كلَّا بالطبع. بل لا أعرف شفرة الدخول الخاصة بك ... ولكن ليس هذا ما أريد أن أتحدث عنه ...»

فقاطعها قائلًا: «شخصٌ ما دخل عليها.» أدخل ريتشارد بسرعةٍ برنامجًا فرعيًّا أمنيًّا يُحدد الأخطاء، وأخذ ينظر إلى إحدى الشاشات. ثم تابع قائلًا: «على الأقل خمس مراتٍ في الأسابيع الثلاثة الماضية. هل أنتِ متأكدة من أنك لم تدخُلي على هذه الملفات؟»

قالت وهي تضغط على الكلمات لتؤكِّد ما تقوله: «نعم يا ريتشارد. ولكنك ما زلتَ تُحاول أن تُغير الموضوع. أريدك أن تُخبرني عما تفعله؟»

وضع ريتشارد الأمير هال على الأرض أمامه وتطلَّع إلى نيكول. ثم قال بعد لحظةٍ من التردد: «لستُ مُستعدًا لأن أخبرك الآن يا حبيبتي. أرجوك أعطني مهلة يومَين.»

بدت الحيرة على نيكول. لكن تهلَّل وجهُها في النهاية. وقالت: «حسنًا يا حبيبي إن كانت هذه هدية زفاف إيلي فسأنتظر بكل سرور.»

عاد ريتشارد إلى عمله. وارتمت نيكول على المقعد الوحيد الذي كان يخلو من الأشياء المُتراكمة. وأخذت تُشاهد زوجها، وأدركت عندئذٍ كم هي مُتعبة. وأقنعت نفسها بأنها تخيَّلت الصرخة نتيجةً لشعورها بالإرهاق.

قالت نيكول بصوتٍ خفيض بعد دقيقة أو دقيقتَين: «حبيبي.»

ردَّ عليها وهو يرفع بصرَه إليها من على الأرض: «نعم.»

«ألم تتساءل قطُّ عن طبيعة ما يحدُث هنا في عدن الجديدة؟ أعني، لماذا لم يتدخل صانعو راما في شئوننا على الإطلاق؟ معظم المُستعمِرين يعيشون حياتهم دون أن يتوقفوا ليتأملوا فكرة أنهم يسافرون على متن سفينة فضاء تنتقل بين نجوم المجرة وهي من صنع فضائيين. كيف يكون هذا مُمكنًا؟ ولماذا لا يظهر فجأة الرجل النسر أو أي مظهر آخر من

مظاهر التكنولوجيا الفضائية الفائقة التي تُضارع الرجل النسر في الروعة؟ ربما في هذه الحالة نجد لمشاكلنا التافهة ...»

صمتت نيكول عندما بدأ ريتشارد يضحك. وقالت: «ما الذي يضحكك؟»

«كلامك يُذكرني بحوارٍ دار بيني وبين مايكل أوتول ذات مرة. كان مُحبطًا لأني لم أتقبل بدون دليلٍ ما شهده الحواريون وأخبروا به. ثم قال لي كان يجب أن يعلم الله أن الإنسان يميل إلى الشكِّ بطبعه، وكان يجب أن يُرسِل المسيح إلى الأرض أكثر من مرةٍ بعد بعثه.»

ردت نيكول: «ولكن ذلك الموقف كان مختلفًا تمامًا.»

قال ريتشارد: «حقًّا؟ إن وصفنا للنود وللرحلة الطويلة التي قُمنا بها بسرعاتٍ نسبية لا يقلُّ عما قالَه المسيحيون الأوائل عن المسيح من حيث صعوبة التقبُّل ... فمن المُريح أكثر للمستعمرين الآخرين أن يُصدقوا أن هذه السفينة صنعت لتكون جزءًا من تجربة تجريها وكالة الفضاء العالمية. وهناك قلَّة منهم لدَيهم دراية كافية بالعلوم بحيث يتمكنون من استيعاب أن راما تفوق قدراتنا التكنولوجية بمراحل.»

صمتت نيكول لحظة. ثم قالت: «إذن لا يُوجَد ما يُمكننا أن نفعله لنُقنعهم ...»

قاطعها رنين ثلاثي يدلُّ على أن المكالمة الواردة عاجلة. فأسرعت لتُجيب على الهاتف. وظهر وجه ماكس باكيت على الشاشة وقد بدا عليه القلق.

قال: «الموقف خطير خارج المُعتقَل. فهناك حشد غاضب من الناس معظمهم من هاكون ويبلغ عددهم نحو سبعين أو ثمانين شخصًا. وهم يريدون الوصول إلى مارتينيز. لقد حطَّموا اثنتَين من الجارسيا الآليات، وهاجموا ثلاثة آليين آخرين. يُحاول القاضي ميشكين التفاهُم معهم ولكنهم في حالةٍ خطيرة. يبدو أن ماريكو كوباياشي انتحرت منذ نحو ساعتَين. فأسرتها بالكامل هنا وفيهم والدها.»

ارتدت نيكول ملابسها الرياضية في أقلَّ من دقيقة. فحاول ريتشارد أن يُجادلها ولكن دون جدوى. إذ قالت وهي تركب درَّاجتها: «كان القرار قراري أنا. ويجب أن أكون أنا من يُواجِه ما يترتَّب عليه من نتائج.»

قادت نيكول درَّاجتها ببطءٍ في الممر المؤدي إلى طريق الدراجات الرئيسي، ثم بدأت تقود بسرعةٍ شديدة. إذا سارت بالسرعة القصوى فستصِل إلى مركز الإدارة في أربع أو خمس دقائق، أي أن الذهاب بالدراجة يَستغرق أقل من نصف الوقت الذي سيستغرقه

الذهاب بالقطار في هذا الوقت من الليل. قالت نيكول لنفسها: كان كينجي مُخطئًا. كان علينا أن نعقد مؤتمرًا صحفيًّا هذا الصباح. حينها، كان سيُمكنني أن أشرح قراري.

تجمَّع نحو مائة من المستعمرين في الميدان الرئيسي من المدينة المركزية. كانوا يتحركون بغير نظامٍ أمام مُعتقل عدن الجديدة الذي ظلَّ بدرو مارتينيز محتجزًا فيه منذ اتهامه باغتصاب ماريكو كوباياشي. كان القاضي ميشكين واقفًا أعلى سُلم المعتقل. كان يتحدث إلى الحشد الغاضب في البوق. وكان عشرون آليًّا، أغلبهم من الجارسيا وعدد من اللينكولن والتياسو، يشبكون أذرعهم أمام القاضي ميشكين ليمنعوا الحشود من صعود السُّلَّم والوصول إليه.

كان القاضي الروسي ذو الشعر الرمادي يقول: «الآن يا رفاق، إذا كان بدرو مارتينيز مُذنبًا بالفعل فسندُينه. ولكن دستورنا يكفُل له حق الحصول على محاكمة عادلة ...»

صاح فردٌ من الجماهير: «اصمت أيها العجوز.»

قال صوتٌ آخر: «نريد مارتينيز.»

أمام مسرح الأحداث، أقصى جهة اليسار، كان ستةٌ من الشباب الشرقيين يضعون اللمسات النهائية على مشنقةٍ مؤقتة. وهللت الجماهير عندما ربط واحد منهم حبلًا سميكًا به أنشوطة في الحاجز الأفقي. أخذ شاب ياباني قوي البنية في أوائل العشرينيات يُزاحم للوصول إلى طليعة الحشد. وقال: «ابتعد عن طريقنا أيها العجوز. وخذ هؤلاء الميكانيكيين الأغبياء معك. فمعركتنا ليست معك. نحن هنا لنضمن حصول أُسرة كوباياشي على العدالة.»

صاحت شابة: «تذكَّروا ماريكو.» دوَّى صوت تحطُّم عندما ضرب صبيٌّ أحمر الشعر إحدى الجارسيا على وجهها بمضرب بيسبول غليظ مصنوع من الألومونيوم. فتحطمت عيناها وتشوَّه وجهها حتى لم يعُد من المُمكن تمييز ملامحها، ومع هذا لم يصدُر منها أيُّ ردِّ فعل، ولم تترك مكانها في الطوق المضروب عند السُّلَّم.

قال القاضي ميشكين في البوق: «لن يردَّ الآليون على هجومكم بهجومٍ مُماثل. فقد بُرمِجوا على رفض اللجوء إلى العنف. ولكن لا طائل من تدميرهم. فهذا عنفٌ أحمق.»

جاء شخصان من هاكون جريًا وعندما وصلا إلى الميدان طرأ تغيُّر مؤقَّت في اهتمام الحشد. وبعد هذا بأقلَّ من دقيقة، هلل الحشد الجامح لظهور زندَين خشبِيَّين هائلَين يحمل كلًّا منهما اثنا عشر شابًّا. قال الشاب الياباني المُتحدث باسم الحشد: «الآن سنزيح الآليين الذين يحمون القاتل مارتينيز عن طريقنا. هذه آخِر فرصة لك أيها العجوز. ابتعِد عن الطريق قبل أن يُصيبك أذى.»

أسرع العشرات من الحشد ليأخذوا مواقعهم حول الزندَين الخشبِيَّين لاستخدامهما لدكِّ الطوق المؤلَّف من الآليين. وفي هذه اللحظة وصلت نيكول ويكفيلد إلى الميدان راكبةً دراجتها.

قفزت من على الدراجة بسرعةٍ واخترقت طوق الآليِّين وصعدت السُّلم بسرعة لتقف بجوار القاضي ميشكين، ثم صاحت في البوق قبل أن يتعرَّف الحشد على هويتها: «يا هيرو كوباياشي، لقد جئتُ لأشرح لك سبب عدم انعقاد محاكمةٍ ترأسها هيئة مُحلَّفين لمحاكمة بدرو مارتينيز. هل لك أن تتقدَّم حتى أستطيع رؤيتك؟»

تقدَّم العجوز كوباياشي، الذي كان واقفًا بعيدًا عند جانب الميدان، ببطءٍ مُتجهًا إلى أسفل السُّلَّم أمام نيكول.

قالت نيكول باليابانية: «يا سيد كوباياشي، يؤسِفني حقًّا سماع نبأ وفاة ابنتك ...»

صاح شخص ما بالإنجليزية: «منافقة»، وبدأت تسري همهمة بين الحشد.

واصلت نيكول حديثها باليابانية قائلةً: «باعتباري أُمًّا، أستطيع أن أتخيَّل مدى فظاعة فقْد أحد الأبناء.»

انتقلت إلى الحديث بالإنجليزية وخاطبت الجماهير قائلةً: «الآن دعوني أشرح قراري لكم جميعًا. ينصُّ دستور عدن الجديدة على أنَّ لكلِّ مواطن الحق في الحصول على «محاكمة عادلة». وفي جميع القضايا التي مرَّت علينا منذ تأسيس المستعمرة، كانت الاتهامات الجنائية تستدعي عقد محكمة ترأسها هيئة مُحلَّفين. لكن في حالة السيد مارتينيز، أنا مؤمنة بأننا لن نجد هيئة مُحلَّفين غير مُتحيزة بسبب اتخاذ القضية بعدًا جماهيريًّا.»

قاطعت عاصفة من الصفير وصيحات الاستهجان نيكول مدة قصيرة. وبعد أن هدأت تابعت قائلةً: «دستورنا لا يُحدِّد ما يجب علينا فعله لنضمن عقد «محاكمة عادلة» في حالة غياب هيئة محلَّفين من نفس العرق. غير أن قضاتنا قد اختِيروا لتنفيذ القانون وتلقَّوا تدريبًا على البتِّ في القضايا على أساس الأدلة المتاحة. ولهذا أوكلت اتهام مارتينيز إلى اختصاص محكمة عدن الجديدة الخاصة. فهناك يُمكن دراسة كل الأدلة بعناية، بما فيها بعض الأدلة التي لم يُعلَن عنها حتى الآن قط.»

ردًّا على هذا، صاح السيد كوباياشي المكلوم: «ولكنَّنا جميعًا نعرف أن مارتينيز مُذنب. بل إنه أقرَّ بأنه ضاجَع ابنتي. ونعرف كذلك أنه اغتصب فتاةً في نيكاراجوا عندما كنَّا على الأرض ... لماذا تُدافعين عنه؟ إني أُطالب بحصول أُسرتي على العدالة.»

بدأت نيكول تُجيب: «لأن القانون ...»، لكن الحشد أسكتها.

«نُريد مارتينيز. نريد مارتينيز.» أخذ هذا الهتاف المنغَّم يرتفع بينما عاد الناس المُحتشدون في الميدان يرفعون الزندَين الخشبِيَّين الهائلَين اللذَين ألقَوهما على الرصيف بعد ظهور نيكول. وبينما كان الحشد يُحاول رفع الزندَين الخشبِيَّين لدكِّ الآليين، اصطدم أحد الزندَين عن غير قصدٍ بالنصب التذكاري الذي يظهر فيه موقع راما في السماء. فتبعثرت الكرة وسقطت الأجزاء الإلكترونية التي تُمثِّل النجوم المجاورة على الرصيف. وتحطَّم الضوء المُومِض الصغير الذي يُمثل راما نفسها.

صاحت نيكول في البوق: «يا مُواطني عدن الجديدة، اسمعوني. هناك شيء عن هذه القضية لا يعلمه أيٌّ منكم. إن أنصتُّم ...»

صاح الشاب ذو الشعر الأحمر الذي ضرب الجارسيا الآلية بمضرب البيسبول: «اقتلوا الزنجية الحقيرة.»

حدَّقت نيكول في الشاب ونيران الغضب مشتعلة في عينَيها. وصاحت: «ماذا قلت؟»

سكتت الهتافات فجأة. وابتعد الحشد عن الشاب. وتلفَّت حوله في توتُّرٍ وابتسمَ ابتسامة عريضة. وكرَّر ما قاله: «اقتلوا الزنجية الحقيرة.»

نزلت نيكول السُّلَّم في غمضة عين. وتنحَّى الحشد جانبًا وهي تتَّجِه مباشرةً نحو الشاب ذي الشعر الأحمر. وعندما صارت على بُعد أقل من مترٍ من خصمها قالت وفتحتا أنفِها تتَّسعان من فرط الغضب: «قُلها مرةً أخرى.»

بدأ يقول: «اقتلوا ...»

صفعته بقوة. فتردَّد صدى الصفعة في الميدان، ثم استدارت على نحوٍ مفاجئ وبدأت تتَّجِه نحو السُّلم، ولكن الأيدي أخذت تتجاذَبها من كلِّ جانب. ورفع الشابُّ المصدوم قبضته ...

وفي هذه اللحظة، انطلَق دويُّ رصاصتَين هزَّ الميدان. فبينما كان الجميع يُحاولون اكتشاف ما يحدث، أُطلِقَت رصاصتان أخرَيان في السماء فوق رءوس الحشد. وقال ماكس باكيت في البوق: «هذا أنا وبندقيتي. الآن، أرجو منكم ترك سيادة القاضية تمرُّ ... نعم هكذا ... وبعدَها توجَّهوا إلى بيوتكم، هذا سيكون أفضل لنا جميعًا.»

حرَّرت نيكول نفسها من الأيدي المُمسكة بها، لكنَّ الحشد لم يفترق. رفع ماكس البندقية ووجَّهها إلى العقدة السميكة الموجودة في الحبل فوق الأنشوطة المُعلقة على المشنقة المؤقتة وأطلق النار مرةً أخرى. تمزَّق الحبل إربًا ووقعت أجزاء منه على الجماهير.

قال ماكس: «أيها الناس! إن سلوكي ليس راقيًا كسلوك هذين القاضِيَين. وأنا أعرف أنني على أي حالٍ سأقضي بعض الوقت في المُعتقَل لأنني انتهكتُ قوانين استخدام البنادق في المستعمرة. وأكره أن أُضطَرَّ إلى قتْل بعضكم أيضًا.»

صوب ماكس بندقيتَه نحو الحشد. فتراجَع الجميع تلقائيًّا. وأطلق ماكس رصاصاتٍ طائشة فوق رءوسهم، وضحك من أعماق قلبه عندما بدأ الناس يركضون مُبتعِدين عن الميدان.

لم يغمض لنيكول جفن. أخذت تتذكَّر نفس المشهد مرارًا وتكرارًا. ظلَّت ترى نفسها تشقُّ طريقها بين الحشد وتصفع الشاب ذا الشعر الأحمر. قالت لنفسها: وهذا يجعلني مثله.

قال ريتشارد: «ما زلتِ مستيقظة، أليس كذلك؟»

«ممم!»

«هل أنت بخير؟»

مرَّت لحظات من الصمت. ثم أجابت نيكول: «لا يا ريتشارد. لستُ بخير ... أنا مستاءة بشدة من نفسي لأنني صفعتُ هذا الفتى.»

قال: «بالله عليك. كفِّي عن انتقاد نفسك. لقد كان يستحقُّ هذا. فقد أهانك أسوأ إهانة، وأمثاله لا يفهمون أي لغةٍ سوى لغة القوة.»

اقترب ريتشارد منها وأخذ يُدلِّك ظهرها. قال: «يا إلهي، لم أرك بهذا التوتر من قبل. إن عضلات جسدك كلها مشدودة.»

قالت نيكول: «أشعر بالقلق. يُراوِدُني شعور مريع بأن نسيج حياتنا هنا في عدن الجديدة على وشك أن ينقض ... وأن كل ما قمتُ به أو أقوم به حاليًّا يذهب سُدًى.»

«لقد بذلتِ قصارى جهدك يا حبيبتي. وأعترف أنني مُندهش من مثابرتك.» ظل ريتشارد يُدلِّك ظهر نيكول برفقٍ شديد. ثم أردف قائلًا: «ولكن يجب عليك أن تتذكَّري أنك تتعامَلين مع بشر. يمكنك أن تنقليهم إلى عالمٍ آخر وتمنحيهم جنة، ولكنهم يذهبون إليها وهم مُحمَّلون بمخاوفهم وهمومهم وميولهم الثقافية. العالم الجديد لن يُصبح جديدًا حقًّا إلا إذا كانت عقول البشر الذين يعيشون فيه بيضاء مثل أجهزة الكمبيوتر الجديدة المُجردة من البرامج ونظُم التشغيل، بل مجرد مجموعة من الإمكانيات غير المُستغلة.»

رسمت نيكول ابتسامةً على وجهها. وقالت: «لستَ متفائلًا يا حبيبي.»

«ولماذا أتفاءل؟ لا يُوحي إليَّ أيُّ شيءٍ مما رأيته هنا في عدن الجديدة أو على الأرض بأن البشرية قادرة على تحقيق الانسجام فيما بينها، فما بالك بتحقيق التوافق مع المخلوقات الأخرى. أحيانًا يستطيع فرد، أو مجموعة، السموَّ فوق العوائق الجينية والبيئية التي يُواجهها جنسنا ... ولكن هؤلاء فئة نادرة.»

قالت نيكول بهدوء: «لا أتفق معك. فنظرتك يائسة جدًّا. أومن أن معظم الناس يرغبون بقوة في تحقيق هذا الانسجام. كل ما في الأمر هو أنهم لا يعرفون كيف يقومون بهذا. ولهذا نحتاج إلى مزيدٍ من التعليم. والنماذج الصالحة التي يُقتدى بها.»

«وهل هذا ينطبق على الشاب ذي الشعر الأحمر أيضًا؟ أتؤمِنين بأن التعليم يُمكن أن يخلِّصه من تعصُّبه؟»

«عليَّ أن أومن بهذا يا حبيبي. وإلا ... أخشى أنني سأستسلِم.»

همهم ريتشارد همهمةً تقع في مرحلةٍ وُسطى بين الضحكة والسعال.

سألته نيكول: «ما الأمر؟»

أجاب: «كنت أتساءل إن كان المُحارب سيزيف يخدع نفسه بأنه قد يستطيع أن يمنع الجلمود في المرة التالية من التدحرُج إلى أسفل التل.»

ابتسمت نيكول. وقالت: «لا بدَّ أنه كان يؤمِن بأنَّ هناك فرصةً ما أن يبقى الجلمود على القمة وإلا لم يكن ليُرهق نفسه هكذا ... هذا رأيي على الأقل.»

٩

بينما كان كينجي واتانابي ينزل من القطار في هاكون، كان مستحيلًا عليه ألا يتذكَّر لقاءً آخر عقدَه مع توشيو ناكامورا منذُ سنوات على كوكبٍ يبعُد عنه مليارات الكيلومترات. حدث كينجي نفسه قائلًا: كان هو من اتَّصل بي هاتفيًّا في تلك المرة أيضًا. وأصرَّ على أن نتكلم بشأن كيكو.

توقَّف كينجي أمام نافذة متجر وعدَّل من وضع ربطة عنقه. وعندما نظر إلى الانعكاس المشوَّش لصورته في النافذة، كان سهلًا عليه أن يتخيل أنه قد عاد مرة أخرى ذلك المراهق المتمسِّك بالمُثل العليا الذي يقطن في كيوتو والذي هو في طريقه للقاء غريمه. قال كينجي لنفسه: لكن هذا كان في الماضي البعيد عندما لم يكن هناك شيء مُعرض للخطر سوى غرورنا. أما الآن فمصير عالمنا الصغير بأكمله ...

لم تكن زوجته ناي ترغب في أن يلتقي ناكامورا على الإطلاق. وحثته على الاتصال بنيكول حتى يستأنس برأي آخَر. كانت نيكول أيضًا قد عارضت فكرة عقد أي لقاء بين الحاكم وتوشيو ناكامورا. فقالت: «إنه شخص مُخادع مصاب بجنون العظمة، وهو مجنون بالسلطة. فلا يمكن أن يأتي أي خير من وراء الاجتماع به. إنه لا يبغي إلَّا أن يصِل إلى نقاط ضعفك.»

«لكنه قال إنه يستطيع أن يُهدئ التوتر الذي ساد المستعمرة.»

«وما المقابل يا كينجي؟ احذَر من الشروط التي سيفرضها عليك. فذلك الرجل لا يُعطي بلا مقابل.»

سأل صوت بداخل كينجي وهو يُحدِّق في القصر الضخم الذي بناه زميل طفولته لنفسه: إذن لماذا أتيت؟ أجاب صوت آخر: «لستُ واثقًا. ربما الشرف. أو احترام الذات. شيء ما في أعماق تراثي.»

كان قصر ناكامورا والبيوت المُحيطة به مُشيَّدة من الخشب على الطراز التقليدي المعروف عن كيوتو. كان كلُّ ما في المكان من أسطحٍ من القرميد الأزرق، وحدائق مقلمةٍ بعناية، وأشجار وارفة الظلال، وممماشٍ نظيفة للغاية، بل ورائحة الزهور؛ كل ذلك يُذكِّر كينجي بالمدينة التي جاء منها على الكوكب البعيد.

قابلَتْه على الباب شابَّة جميلة ترتدي صندلًا وكيمونو، انحنت وقالت له بالطريقة اليابانية الرسمية: «تفضل بالدخول.» ترك كينجي حذاءه في رف الأحذية وارتدى صندلًا. لم ترفع الفتاة عينَيها من على الأرض وهي تقوده عبر الغُرف القليلة المُصمَّمة على النمط الغربي في القصر إلى المنطقة المُغطاة بحصير التاتامي، التي يُقال إن ناكامورا يقضي فيها معظم وقت فراغه مع محظياته.

بعد أن سارا قليلًا توقفت الفتاة وفتحت حاجزًا ورقيًّا يُزينه رسمٌ لسِربٍ من طيور الكركي وهي تطير. قالت باليابانية: «تفضل»، وأشارت إليه أن يدخل إلى الغرفة. دلف كينجي إلى الغرفة المفروشة بستِّ حُصر، وجلس القرفصاء على إحدى الوسادتَين أمام منضدة سوداء لامعة مطلية بورنيش اللك. قال كينجي لنفسه: «سوف يأتي متأخرًا. هذا جزء من استراتيجيته.»

دخلت شابة أخرى إلى الغرفة دون أن تُصدر صوتًا حاملةً الماء والشاي الياباني، وكانت هي الأخرى جميلة ورزينة، وترتدي كيمونو أنيقًا فاتح اللون. احتسى كينجي الشاي ببطء وعيناه تجوبان الغرفة. كان في إحدى زوايا الغرفة حاجز خشبي مكون من

أربعة ألواح. ولاحظ كينجي، على بعد أمتارٍ قليلة، أنه كان منحوتًا بإتقان. قام من على الوسادة لينظر إليه عن قرب.

كان الجانب المواجِه له يُصور جمال اليابان، فقد خُصِّص كل لوح من الألواح ليعكس جمال فصل من الفصول الأربعة. كان يظهر في الصورة التي تُمثل الشتاء منتجع تزلج في جبال الألب اليابانية تُغطيه أمتار من الثلج، ويظهر في اللوح الذي يصور الربيع أشجار الكرز المزدهرة التي تحف ضفاف نهر كاما في كيوتو. أما الصيف فيُمثله يوم ريفي صافٍ؛ إذ تظهر في الصورة قمة جبل فوجي التي تُكللها الثلوج فوق الريف الأخضر. أما اللوح الذي يُمثل الخريف فتظهر فيه الأشجار المختلفة الألوان التي تُحيط بمقام وضريح أسرة توكوجاوا في مدينة نيكو.

قال كينجي لنفسه وقد شعر فجأة بحنين جارف إلى الوطن: يا لهذا الجمال الخلاب! لقد حاول أن يُحيي في راما العالَم الذي تركناه خلفنا. ولكن لماذا؟ لماذا ينفق أمواله الحقيرة على هذا الفن الرائع؟ إنه رجل غريب ذو شخصية متناقِضة.

وكان الوجه الخلفي من الألواح الأربعة يحكي جانبًا مختلفًا من اليابان. إذ كان يصور بألوانٍ زاهية معركة قلعة أوساكا التي دارت رحاها في بداية القرن السابع عشر، والتي بعدها صار إيه-ياسو توكوجاوا الحاكم العسكري على اليابان دون معارضة. كان يُغطي الحاجز رسومات لأشخاصٍ ما بين محاربي ساموراي يقاتلون، وحاشية بلاط، ذكور وإناث، ينتشرون على أرض القلعة، كما كانت تظهر شخصية اللورد توكوجاوا بحجم أكبر من الآخرين وقد بدا مُنتشيًا بانتصاره. لاحظ كينجي، وهو يبتسِم، أن الحاكم العسكري المنحوت كان يُشبه ناكامورا إلى حدٍّ بعيد.

كان كينجي على وشك أن يعود ويجلس على الوسادة حين انفتح الحاجز ودخل خصمه. قال ناكامورا باليابانية: «آسِف لأنك اضطُررت للانتظار»، مُنحنيًا انحناءة بسيطة باتجاهه.

انحنى كينجي بدوره، وكانت انحناءته سخيفة بعض الشيء لأنه لم يستطع أن يرفع عينَيه من على مُضيفه. فقد كان توشيو ناكامورا مُرتديًا زيَّ الساموراي بالكامل بما فيه السيف والخنجر! قال كينجي لنفسه: كل هذا جزء من خدعة نفسية ما. والهدف منها إرباكي أو تخويفي.

قال ناكامورا باليابانية وهو يجلس على الوسادة المُقابلة لكينجي: «حسنًا، هلَّا بدأنا؟ آه، الشاي لذيذ، أليس كذلك؟»

ردَّ عليه كينجي وهو يحتسي رشفة أخرى من الشاي: «لذيذ للغاية.» كان الشاي رائعًا للغاية. ولكنه قال لنفسه: إنه ليس حاكمًا عسكريًّا عليَّ. يجب أن أُغير هذا الجو قبل أن نبدأ أي نقاش جاد.

قال الحاكم واتانابي بالإنجليزية: «يا سيد ناكامورا، كلانا مشغول. لذا يُهمني أن نُنحي الرسميات جانبًا وندخل مباشرة في صلب الموضوع. قال لي مندوبك على الهاتف هذا الصباح إنك «منزعج» من الأحداث التي وقعت في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، وإن لدَيك «اقتراحات إيجابية» للحد من التوتر السائد في عدن الجديدة. لذا جئت لأتحدَّث معك.»

لكن لم يظهر أي تعبير على وجه ناكامورا ولكن نبرة صوته كشفت عن أنه استاء من دخول كينجي في صلب الموضوع. قال: «نسيتُ قواعد السلوك الحميد على الطريقة اليابانية يا سيد واتانابي. من سوء الأدب أن تبدأ حديث عملٍ قبل أن تُثني لمُضيفك على المكان وتسأل عن حاله. وهذا السلوك غير اللائق غالبًا ما يؤدي إلى خلافٍ سيئ يُمكننا تجنُّبه ...»

قاطعَه كينجي بلهجةٍ تشي بنفاد الصبر: «آسِف ولكنني لا أحتاج إلى تلقي درس في قواعد السلوك الحميد منك أنت بالذات. كما أننا لسنا في اليابان، بل لسنا على الأرض، وعاداتنا اليابانية القديمة لا تمتُّ لواقعنا بصلة، بالضبط كالملابس التي ترتديها ...»

لم يكن كينجي ينوي أن يهين ناكامورا ولكن لم تكن لدَيه استراتيجية أفضل تجعل خصمه يكشف عن نواياه الحقيقية. ويبدو أنه حقَّق مراده إذ نهض ملك المال الثري. وللحظة ظن الحاكم أن ناكامورا سيشهر سيفه.

قال ناكامورا وعيناه تفيضان بالعدوانية: «حسن، سندير الحوار على طريقتك ... لقد فقدت السيطرة على المستعمرة يا واتانابي. فالمواطنون مستاءون بشدة من أسلوب قيادتك، ويُخبرني رجالي أن الحديث عن محاسبتك أمام القضاء أو العصيان المسلَّح ضدك، أو كليهما، انتشر في المستعمرة. لقد فشلتَ في معالجتك للقضايا المتعلقة بالبيئة وبفيروس «آر في ٤١»، والآن تأتي القاضية السوداء وتعلن، بعد كل هذا التأخير، أن المغتصِب الزنجي لن يخضع لمحاكمة ترأسها هيئة مُحلَّفين. وقد طلب منِّي بعض الحكماء من المستعمرين، بصفتي أنتمي لنفس الأصول التي تنتمي إليها، أن أتوسط وأحاول إقناعك بالتنحِّي عن الحكم قبل أن تعمَّ الفوضى وتُسفَك الدماء.»

قال كينجي لنفسه وهو يستمع إلى ناكامورا: لا أصدق. لقد فقد الرجل صوابه بالتأكيد. قرَّر الحاكم ألا ينطق إلا بالقليل في هذا الحوار.

سأله كينجي بعد صمتٍ طويل: «إذن فأنت تعتقِد أنه عليَّ أن أستقيل؟»

أجابَه ناكامورا بلهجةٍ صارت مُتعجرفة: «نعم. لكن ليس على الفور. انتظر للغد. فاليوم عليك أن تستغلَّ سُلطتك التنفيذية لتنزع الاختصاص القضائي لقضية مارتينيز من نيكول دي جاردان ويكفيلد. فمن الواضح أنها مُتحيِّزة له. القاضي أيانيلا أو رودريجيز أفضل. اختر أيًّا منهما.» ثم قال وهو يصطنع الابتسام: «لاحظ أنني لا أقول أن تنتقل القضية إلى محكمة القاضي نيشيمورا.»

سأل كينجي: «هل من شيء آخر؟»

«شيء واحد فقط. قل لأولانوف أن ينسحب من الانتخابات. فليست أمامه أي فرصة للفوز ولن يؤدي الاستمرار في هذه الحملة المُسببة للشقاق في المستعمرة إلا إلى زيادة صعوبة تحقيق التعاون بيننا بعد فوز ماكميلان. إذ يجب أن نكون يدًا واحدة. وأنا أتوقع أن تواجه المستعمرة خطرًا شديدًا من الأعداء الذين يقطنون المنطقة السكنية الأخرى أيًّا كانوا. فالكائنات ذات الأرجل، التي تقول إنهم «مراقبون مُسالمون» ما هي إلا فرق استكشاف تابعة لهم ...»

اندهش كينجي مما يسمع. كيف أصبح ناكامورا سيئًا بشدة هكذا؟ أم أنه كان هكذا طوال الوقت؟

كان ناكامورا يقول: «... يجب أن أؤكد على أهمية الوقت بالنسبة إليَّ خاصة فيما يتعلق بقضية مارتينيز واستقالتك. فقد طلبت من السيد كوباياشي وباقي أفراد المجتمع الآسيوي ألا يتصرفوا بتسرُّع، ولكن بعد ما حدث في ليلة أمس لم أعد واثقًا من أنني سأتمكَّن من كبح جماحهم. فقد كانت ابنتُه شابة جميلة موهوبة. ورسالة انتحارها تُبين أنها لم تستطع أن تحيا بالعار الذي جلبَه عليها التأخُّر المُستمر في محاكمة من اغتصبها. هناك غضب حقيقي يعم ...»

نسي الحاكم واتانابي مؤقتًا ما كان قد عزم عليه من التزام الصمت. ووقف قائلًا: «أتعلم أننا وجدْنا في جسد ماريكو كوباياشي آثار سائل منوي لشخصَين مختلفَين بعد الليلة التي قيل إنها اغتُصِبت فيها؟ وأن كلًّا من ماريكو وبدرو مارتينيز أكَّدا مرارًا وتكرارًا أنهما كانا معًا بمُفردهما طوال الليل؟ وحتى عندما ألمحت نيكول لماريكو الأسبوع الماضي أن هناك دليلًا على قيامها بعلاقة جنسيةٍ أخرى تشبَّثَت الفتاة بقصتها.»

فقد ناكامورا هدوءه لحظاتٍ. وأخذ يُحدق في كينجي واتانابي بعينَين خاليتَين من أي تعبير.

تابع كينجي حديثه: «لم نستطِع أن نتعرَّف على الشخص الآخر. فقد اختفت عينات السائل المنوي من مُختبر المستشفى في ظروف غامضة قبل الانتهاء من عمل تحليلٍ كامل للحمض النووي. وكل ما لدَينا هو سجل الفحص الأول.»

عادت إلى ناكامورا ثقته بنفسه وقال: «يمكن أن يكون ما في هذا السجل خطأ.»

«هذا غير مُحتمل على الإطلاق. ولكن على أي حال، تستطيع أن تتفهم الآن المعضلة التي تواجهها القاضية نيكول. فقد قرَّر كلُّ مَن في المستعمرة من قبل أن بدرو مُذنب. وهي لا تريد أن تدينه هيئة المُحلَّفين ظلمًا.»

ساد صمت طويل. وهم الحاكم بالانصراف. فقال ناكامورا: «أنت تُدهشني يا واتانابي. إنك لم تفهم الغرَض من الاجتماع على الإطلاق. لا يَعنيني ما إذا كان ذلك الأسود مارتينيز اغتصب ماريكو كوباياشي أم لا. فقد وعدت أباها بأنَّ الفتى النيكاراجوي سيُعاقب. وهذا هو المهم.»

نظر كينجي واتانابي إلى رفيق صباه باشمئزاز. وقال: «سأنصرف الآن قبل أن يشتدَّ غضبي.»

قال ناكامورا والعداء يملأ عينَيه: «لن أُعطيك فرصة ثانية. كان هذا أول وآخر عرضٍ أُقدمه لك.»

هزَّ كينجي رأسه وفتح الحاجز الورقي بنفسه وخرج إلى الممر.

كانت نيكول تمشي على الشاطئ تحت أشعة الشمس الدافئة. وأمامها على بُعد نحو خمسة أمتار كانت إيلي واقفة بجوار د. تيرنر. كانت ترتدي فستان الزفاف، ولكن العريس كان يرتدي زيَّ السباحة. وكان جد نيكول الأكبر أومه يؤدي المراسم وهو يرتدي ثوبه التقليدي الأخضر الطويل المعروف في قبيلته.

وضع أومه يدَي إيلي في يدَي دكتور تيرنر، وبدأ يُنشد ترنيمة من سينوفو. ثم رفع عينَيه إلى السماء. وكان هناك مخلوق طائر وحيد يُحلق فوق رءوسهم وهو يصيح صيحةً متناغمة مع ترنيمة الزفاف. وبينما كانت نيكول تُراقب المخلوق الطائر وهو يطير فوقها اكفهرت السماء. وأقبلت سُحب العاصفة لتحلَّ محل السماء الصافية.

بدأ المحيط يهيج والرياح تهب. وتطاير شعر نيكول، الذي أصبح رماديًّا تمامًا، من خلفها. واجتاحت الفوضى حفل الزفاف. وأخذ الجميع يركضون بعيدًا عن الشاطئ ليهربوا من العاصفة القادمة. لم تتحرَّك نيكول. فقد كانت تُحدِّق في شيءٍ ضخم تتقاذفه الأمواج.

كان الشيء هو حقيبة خضراء ضخمة تُشبه الحقائب البلاستيكية التي كان الناس يضعون فيها نفاية الحدائق في القرن الحادي والعشرين. كانت الحقيبة مليئةً وكانت تتَّجه نحو الشاطئ. وكانت نيكول تريد أن تمسك بها لكنها خافت البحر الهائج. فأشارت إلى الحقيبة. واستغاثت.

رأت زورقًا طويلًا في أعلى يسار شاشة الحلم. وبينما كان الزورق يقترب أدركت أن ركَّابه الثمانية فضائيون، وكان لونهم برتقاليًّا، وحجمهم أصغر من حجم البشر. بدَوا وكأن أجسادهم من عجين الخبز. وكانت لهم وجوه وعيون، ولكن أجسادهم لم يكن يُغطيها الشعر. وجَّه الفضائيون الزورق نحو الحقيبة الخضراء الكبيرة والتقطوها.

وضع الفضائيون البرتقاليون الحقيبة الخضراء على الشاطئ. لكن نيكول لم تقترب إلا بعد أن ركبوا زورقهم وعادوا إلى المحيط. لوَّحت لهم مُودعة وسارت نحو الحقيبة. كان لها زمام منزلق فتَحته بعناية. ورفعت الجزء العلوي من الحقيبة فاصطدمت عيناها بوجه كينجي واتانابي الميت.

ارتعدت نيكول وصرخت وجلست في السرير. مدَّت يدها بحثًا عن ريتشارد ولكن السرير كان شاغرًا. كانت الساعة الرقمية على الطاولة تُشير إلى الثالثة إلَّا الربع صباحًا. حاولت نيكول أن تُهدئ من سرعة تنفُّسها وأن تطرد عن ذهنها الحلم المريع.

ظلَّت صورة كينجي واتانابي الميت تُلحُّ على ذهن نيكول. وأثناء توجُّهها إلى الحمام، تذكرت ما رأته من أحلام تتنبأ بوفاة أمِّها عندما كانت في سنٍّ لم تتجاوز العاشرة. قالت لنفسها وهي تشعر بأولى موجات الرُّعب تجتاحها: ماذا لو كان كينجي سيموت بالفعل؟ أجبرت نفسها على التفكير في موضوعٍ آخر. فتساءلت: الآن، أين ذهب ريتشارد في هذه الساعة من الليل؟ ارتدت نيكول رداء النوم بسرعةٍ وغادرت غرفة النوم.

مرت نيكول بهدوء على غرف الأبناء مُتجهةً إلى مقدمة المنزل. كان بينجي يغط في النوم كعادته. وكان نور حجرة المكتب مُضاءً، ولكن ريتشارد لم يكن فيها. لا هو ولا اثنان من الآليين الجُدد ولا الأمير هال. كانت لا تزال هناك صورة ظاهرة على إحدى الشاشات الموضوعة على طاولة العمل الخاصة بريتشارد.

ابتسمت نيكول لنفسها وتذكَّرت ما اتفقا عليه. فكتبت اسمها مُستخدمةً لوحة المفاتيح، وتغيرت الصورة التي كانت ظاهرة على الشاشة. ظهرت رسالة تقول:

> «عزيزتي نيكول، إذا استيقظت قبل عودتي فلا تقلقي. أنوي أن أعود بحلول الفجر، أو في الساعة الثامنة صباحًا كحدٍّ أقصى. كنتُ أُجري بعض العمل مع

الآليين الذين يَحملون أرقامًا تبدأ بثلاثمائة — أتتذكرينهم، إنهم الآليون الذين لم أبرمجهم ببرامج ثابتة، ولذا يمكن تصميمهم لأداء مهام خاصة، ولديَّ أسباب تجعلني أقتنع أن هناك من كان يتجسس على عملي. لذا عجلت بإتمام المشروع الذي أقوم به حاليًّا وذهبت إلى خارج عدن الجديدة لإجراء اختبارٍ أخير. أُحبك.»

ريتشارد

كان الظلام يُغلف السهل المركزي وكان الجو باردًا. حاول ريتشارد أن يتحلَّى بالصبر. أرسل الأينشتاين المطور (يُطلق عليه ريتشارد اسم الآلي الفائق) وجارسيا رقم ٣٢٥ إلى موقع استكشاف المنطقة السكنية الثانية أمامه. فأوضحا للحارسة الليلية، وهي جارسيا عادية، أنَّ تغيُّرًا قد طرأ على جدول الاستكشاف المنشور، وأن هناك استقصاءً خاصًّا سيجرى الآن. وبينما كان ريتشارد لا يزال بعيدًا، أخذ الآليُّ الفائق كل المعدات من الفتحة وأدخلها إلى المنطقة السكنية الأخرى واضعًا إيَّاها على الأرض. استغرقت هذه العملية أكثر من ساعة من الوقت الثمين. وبعد أن انتهى الآلي الفائق أخيرًا من ذلك، أشار إلى ريتشارد أن يقترب. وأبعدت جارسيا رقم ٣٢٥ الحارسة الآلية ببراعة إلى منطقةٍ أخرى حول موقع الاستكشاف، بحيث لا تستطيع أن ترى ريتشارد.

لم يُضيِّع ريتشارد الوقت. فأخرج الأمير هال من جيبه ووضعه في الفتحة. وقال وهو يضع الشاشة الصغيرة على أرض المَمر: «انطلق بسرعة.» كان المهندسون قد وسَّعوا الثغرة المؤدية إلى المنطقة السكنية الأخرى تدريجيًّا خلال الأسابيع الماضية بحيث أصبحت الآن على شكل مربعٍ تقريبًا يبلُغ ضلعه ثمانين سنتيمترًا. وبهذا فإن مساحته كانت تكفي لدخول الآلي الصغير وتزيد.

انطلق الأمير هال نحو الجانب الآخر. تبلغ المسافة بين الممر والأرضية الداخلية حوالي متر. ربط الآلي بمهارة كابلًا صغيرًا في الدعامة التي لصقها في أرض الممر، ثم ترك نفسه ينزل. كان ريتشارد يراقب كل حركة يقوم بها هال على الشاشة ويصدر له التعليمات عبر اللاسلكي.

توقع ريتشارد أن تكون هناك حلقة خارجية تحمي المنطقة السكنية الثانية. وكان توقُّعه صائبًا. فقال لنفسه: إذن فالتصميم الأساسي للمسكنَين مُتشابِه. كما توقع ريتشارد وجود فتحة من نوعٍ ما في الجدار الداخلي، بوابة أو باب تدخل منه الكائنات ذات الأرجل

وتخرج، وتوقَّع أن الأمير هال سيكون حجمُه صغيرًا بما يكفي ليدخُل المنطقة السكنية من نفس المدخل.

لم يستغرق هال وقتًا طويلًا ليُحدد موقع المدخل المؤدِّي إلى الجزء الرئيسي من المنطقة السكنية. ولكن الشيء الذي كان فيما يبدو بابًا، كان يبعد عن قاع الحلقة الخارجية بأكثر من عشرين مترًا. ولأن ريتشارد شاهد التسجيلات التي تظهر فيها الكائنات ذات الأرجل وهي تتسلق الأسطح الرأسية للكائنات الآلية الجرَّافة في موقع استكشاف أفالون، فقد استعد لهذا الاحتمال أيضًا.

أصدر ريتشارد أمرًا للأمير هال بأن يتسلَّق الجدار بعد أن نظر في ساعته بتوتُّر. كانت الساعة السادسة تقريبًا. وسرعان ما سيبزغ الفجر على عدن الجديدة. وحينها سيعود العلماء والمهندسون النظاميون إلى موقع الاستكشاف.

يزيد ارتفاع المدخل الذي يؤدِّي إلى الجزء الداخلي من المنطقة السكنية عن ارتفاع الأمير هال مائة مرة. وبهذا تساوي رحلة الصعود التي سيقوم بها الآلي رحلة صعود مبنى مكونٍ من ستِّين طابقًا يقوم بها إنسان. كان ريتشارد قد درَّب الآلي الصغير على تسلُّق جدران المنزل، ولكنه كان دائمًا بجواره. تُرى هل كان الحائط الذي يتسلَّقه هال به تعرُّجات تُتيح ليَدَيه وقدمَيه التشبُّث بإحكام؟ لم تُمكنه الصورة الظاهرة على الشاشة من معرفة الإجابة. هل أدخل ريتشارد كل المعادلات الصحيحة في المُعالج الفرعي الذي يتحكَّم في الهندسة الميكانيكية التي يعمل الأمير هال وفقًا لها؟ قال ريتشارد لنفسه عندما بدأ تلميذُه البارع يتسلَّق الجدار: سأعرف الإجابة عاجلًا.

تعثر الأمير هال مرة وتعلق في الجدار بيدَيه، لكن في النهاية نجح في الصعود إلى القمة. غير أن رحلة الصعود استغرقت ثلاثين دقيقةً أخرى. وكان ريتشارد يُدرك أن الوقت ينفد. وبينما كان هال يرفع نفسَه حتى وصل إلى عتبة نافذة دائرية، لاحظ ريتشارد وجود حاجز سلكي يعوق دخول الآلي إلى المنطقة السكنية. غير أنه رأى جزءًا صغيرًا من المنطقة الداخلية في الضوء الخافت. فضبط موقع كاميرا هال الضئيلة بعناية بحيث يتمكَّن من رؤية المنطقة الواقعة خلف الشبكة.

قالت جارسيا رقم ٣٢٥ لريتشارد عبر اللاسلكي: «تُصر الحارسة على العودة إلى موقعها الرئيسي. فعليها أن تقدم تقريرها اليومي في الساعة السادسة والنصف.»

قال ريتشارد لنفسه: تبًّا، أمامي ست دقائق فقط. وحرك هال ببطء على حافة النافذة ليرى إن كان سيُمكنه التعرف على الأشياء الموجودة داخل المنطقة السكنية. لم يستطع

ريتشارد أن يرى شيئًا مُحددًا. فأمر هال وهو يرفع مقدار جهارة صوته إلى أقصى درجة قائلًا: «اصرخ. اصرخ حتى آمُرك أن تتوقف.»

لم يسبق لريتشارد اختبار جهاز تكبير الصوت الجديد الذي وضعه في الأمير هال وهو يعمل بطاقته القصوى. ولهذا أدهشه المدى الذي بلغه صوت المخلوقات الطائرة الذي قلده هال. فقد تردد صداه حتى جعل ريتشارد يقفز إلى الخلف. وقال بعد أن هدأ: جيد جدًّا، على الأقل إن لم تكن ذاكرتي قد خانتني.

في خلال لحظات، صارت الحارسة الآلية أمام ريتشارد وأخذت تُنفذ التعليمات التي بُرمجت عليها مسبقًا، طالبة أوراقه الشخصية وتفسيرًا لما يقوم به. حاول الآلي الفائق وجارسيا رقم ٣٢٥ أن يُشتِّتا انتباه الحارسة، لكنه عندما وجد أن ريتشارد غير مُتعاون أصرَّت على أن ترسِل تقريرًا بوجود حالة طوارئ. على الشاشة، رأى ريتشارد الشبكة تنفتح، ورأى ستةً من الكائنات ذات الأرجل تندفع نحو الأمير هال. وواصل الآلي صياحه.

بدأت الحارسة من نوع جارسيا تنقل لرؤسائها حالة الطوارئ التي تُواجهها. وكان ريتشارد يُدرك أنه لم يعُد أمامه سوى دقائق قليلة قبل أن يُضطرَّ للانصراف. قال وهو يُراقب الشاشة تارة ويختلس نظراتٍ إلى السهل المركزي خلفه تارةً أخرى: «هيا، هيا، تبًّا.» لم يرَ على البعد أي أضواء تقترب من صوب المُستعمرة التي يقطنها.

في البداية ظن ريتشارد أنه تخيَّل ما سمعه. ثم تكرَّر الصوت، صوت رفرفة أجنحة هائلة. كان أحد الكائنات ذوي الأرجل يحجب عنه الرؤية جزئيًّا، ولكن بعد لحظاتٍ رأى بلا شكٍّ مخلبًا مألوفًا يمتدُّ نحو الأمير هال. وأكدت الصرخة التي أطلقها المخلوق الطائر ما رآه. بعد هذا تشوَّشت الصورة الظاهرة على الشاشة.

صاح ريتشارد في اللاسلكي: «إن أُتيحت لك الفرصة، حاول أن تعود إلى الممر. سأعود لآخُذك لاحقًا.»

استدار ريتشارد ووضع شاشتَه في حقيبته بسرعة. ثم قال لمساعِدَيه الآليَّين: «هيا بنا.» وبدءوا يركضون نحو عدن الجديدة.

شعر ريتشارد بالانتصار وهو يعدو نحو منزله. وقال لنفسه بابتهاج: أصاب حدسي. هذا يغير كل شيء ... أما الآن فلديَّ ابنة أزوجها.

١٠

تحدَّدت الساعة السابعة مساءً موعدًا لإقامة مراسم الزفاف في مسرح المدرسة الثانوية المركزية. أما حفل الاستقبال نفسه — الذي كان سيحضره عددٌ أكبر من الضيوف — فقد

كان من المقرر إقامته في مبنى الألعاب الرياضية، وهو مبنى مجاور يبعد عن المسرح بما لا يزيد على عشرين مترًا. طوال اليوم كانت نيكول تبذل أقصى جهدها لمواجهة المفاجآت التي تظهر في اللحظة الأخيرة، ولإنقاذ إجراءات الاستعداد للحفل من كارثة مُحتمَلة تلو الأخرى.

لم تحظ بوقتٍ تتأمَّل فيه أهمية الاكتشاف الجديد الذي قام به ريتشارد. فقد عاد إلى البيت وقد تملَّكه الحماس، وكان يريد أن يتحدَّث معها حول المخلوقات الطائرة وحول هوية الذين يتجسَّسون على بحثه، ولكن نيكول لم تستطع أن تُركز في أي شيءٍ سوى الزفاف. فاتفقت مع ريتشارد على عدم إطلاع أحدٍ على أمر المخلوقات الطائرة حتى تُتاح لهما فرصة مناقشة الأمر بالتفصيل.

كانت نيكول قد خرجت لتتمشَّى في الصباح مع إيلي في الحديقة العامة. وتحدَّثتا حول الزواج والحب والجنس لأكثر من ساعة، ولكن إيلي كانت تشعُر بتوتُّر شديد بشأن حفل الزفاف حتى إنها عجزت عن التركيز كما ينبغي فيما كانت تقوله أمُّها. فتوقفت نيكول تحت شجرةٍ قرب نهاية رحلتهما لتُلخِّص ما تريد قوله لإيلي.

قالت نيكول، وهي تمسك بيدي ابنتها في يدَيها: «على الأقل تذكَّري شيئًا واحدًا يا إيلي. الجنس أحد العناصر المهمة للزواج ولكنه ليس المُكون الأكثر أهمية. ومن المُحتمَل ألا يروق لكِ في البداية بسبب افتقارك إلى الخبرة. ولكن إذا كان بينك وبين روبرت حُب وثقة متبادلان، وإذا ما كان كل منكما يُريد بصدقٍ أن يمنح الآخر المتعة ويحصل عليها منه، فستجدين أن الانسجام الجسدي بينكما سيزيد عامًا بعدَ آخر.»

وصلت نيكول وناي وإيلي معًا إلى المدرسة قبل الحفل بساعتَين. ووجدن إيبونين بانتظارهن. سألت المعلمة إيلي وهي تبتسِم: «أتشعرين بتوتر؟» أومأت إيلي. فقالت إيبونين: «يكاد الخوف يَقتُلني وما أنا إلا إحدى إشبينات العروس.»

طلبت إيلي من أمِّها أن تكون وصيفةَ الشرف. وكانت ناي وإيبونين وأختها كيتي إشبينات العروس. أما د. تيرنر فكان إشبينه هو د. إدوارد ستافورد، وهو رجل يشارك روبرت تيرنر ولعَه بتاريخ الطب. ولأنه لم يكن لديه أي رفاق مُقربين إلَّا الآليين العاملين في المستشفى، فقد اختار الأشابين من بين أفراد أسرة ويكفيلد وأصدقائهم؛ إذ وقع اختيارُه على كينجي واتانابي وباتريك وبينجي.

قالت إيلي بعد أن تجمَّعوا في غرفة الملابس: «أمي، أشعر بالغثيان. سأشعر بإحراجٍ شديد إن تقيَّأتُ على فستان الزفاف. هل أحاول أن آكُل شيئًا ما؟» توقَّعت نيكول حدوث

مثل هذا الموقف فاحتاطت له. وأعطت إيلي موزةً وبعض الزبادي، وأكدت لابنتها أنه من الطبيعي تمامًا أن تشعر بالغثيان قبل هذا الحدث الجلل.

زاد توتر نيكول عندما أخذ الوقت يمرُّ دون أن تظهر كيتي. فقررت أن تذهب لتتحدَّث مع باتريك بعدما أصبح كل شيءٍ في غرفة ملابس العروس على ما يُرام. كان الرجال قد فرغوا من ارتداء ملابسهم عندما دقت نيكول الباب.

سألها القاضي ميشكين عندما دخلت: «كيف حال أمِّ العروس؟» سيقوم القاضي العجوز الجليل بعقد مراسِم الزفاف.

أجابت نيكول بابتسامةٍ واهنة: «متوترة بعض الشيء.» وجدت باتريك في مؤخِّرة الغرفة يضبط ملابس بينجي.

سأل بينجي والدتَه وهي تقترِب منه: «كيف أبدو؟»

ردَّت نيكول على ابنها المبتسِم قائلةً: «وسيم جدًّا جدًّا.» ثم سألت باتريك: «هل تحدثت إلى كيتي هذا الصباح؟»

قال: «لا. ولكنني أكدتُ معها على الموعد مرة أخرى كما طلبت، ليلة أمس ... ألم تصل بعد؟»

هزت نيكول رأسها. كانت الساعة السادسة والربع ولم يبقَ على موعد بدء الحفل سوى خمسٍ وأربعين دقيقة. خرجت إلى الردهة لتتصل بها هاتفيًّا، ولكن رائحة دخان السجائر أنبأتها بأنها وصلت أخيرًا.

بينما كانت نيكول تعود إلى غرفة العروس، كانت كيتي تقول بصوتٍ مرتفع: «تصوَّري يا أختي الصغيرة، الليلة ستُقيمين أول علاقةٍ جنسية لك. أوه! لا بد أن تلك الفكرة تُعربد بجسدك الرائع هذا!»

قالت إيبونين: «كيتي، لا أعتقد أنه من الملائم على الإطلاق أن ...»

دخلت نيكول الغرفة فصمتت إيبونين. قالت كيتي: «أوه! كم تبدين جميلةً يا أمي! لقد نسيتُ أن هناك امرأةً تختبئ وراء زيِّ القاضية.»

نفثت كيتي دخان سيجارتها في الهواء وأخذت رشفةً من زجاجة الشمبانيا الموضوعة على الطاولة بجوارها. وقالت وهي تُحرك يدَها حركة مسرحية: «ها نحن أولاء، على وشك أن نشهد زفاف أختي الصغيرة ...»

قالت نيكول بصوتٍ بارد صارم: «كُفِّي عن هذا يا كيتي، لقد أسرفت في الشراب.» أخذت الشمبانيا وعلبة سجائر كيتي. وقالت: «انتهِي من ارتداء ملابسك وتوقَّفي عن التصرف ببلاهة. يمكنك أن تسترديهما بعد مراسم الزفاف.»

قالت كيتي وهي تُدخن بعُمق وتنفث حلقات الدخان: «حسنًا يا سيادة القاضية ... كما شئتِ.» وابتسمت ابتسامةً عريضة لباقي الفتيات. ثم بينما كانت تمدُّ يدها نحو سلة المهملات لتنفض رماد سيجارتها، فقدت توازُنها. وسقطت فوق الطاولة وارتطمت بالكثير من علب مستحضرات التجميل المفتوحة، ثم سقطت على الأرض وسط الفوضى. فاندفعت إيبونين وإيلي لتساعداها.

سألتها إيلي: «هل أنت بخير؟»

قالت نيكول وهي تنظر باستهجان إلى كيتي وهي متمددة على الأرض: «انتبهي لفستانك يا إيلي.» أخذت نيكول بعض المناديل الورقية وبدأت تُنظف ما أسقطته كيتي.

بعد ذلك بثوانٍ قليلة، قالت كيتي بسخريةٍ عندما نهضت: «صحيح يا إيلي، انتبهي للفستان. يجب أن تكوني مثالَ الطهارة عندما تُزَفِّين إلى ذلك الذي قتل اثنين.»

ساد الغرفة صمتٌ تام. وامتقع وجه نيكول من الغضب. واقتربت من كيتي ووقفت أمامها مباشرة. وأمرتها قائلةً: «اعتذري لأُختك.»

قالت كيتي بتحدٍّ: «كلَّا.» وبعدها بلحظاتٍ صفعتها نيكول على خدها. فانفجرت الدموع في عينَيها. وقالت وهي تمسح وجهها: «آه، إنها أشهر من يصفع في عدن الجديدة. بعد يومَين من اللجوء إلى العُنف البدني في ميدان المدينة المركزية، تضرب ابنتها مكرِّرةً أشهر أفعالِها ...»

قاطعتها إيلي بقولها لأُمها، وقد خافت أن تصفع نيكول كيتي ثانيةً: «كلَّا يا أمي ... أرجوك.»

استدارت نيكول ونظرت إلى العروس المُضطربة. وتمتمت قائلةً: «أنا آسفة.»

قالت كيتي بغضب: «معك حق. قولي لها هي إنك آسفة. أنا التي ضربتِها أيتها القاضية. أتذكُرينني؟ أنا ابنتُك الكبيرة غير المتزوِّجة؟ تلك التي وصفتِها بأنها «مُقززة» منذ ثلاثة أسابيع ... لقد أخبرتِني أن أصدقائي «فاسقون» — أليس هذا ما قلته بالضبط — أما إيلي الغالية، مثال الفضيلة، فتُسلِّمينها لرجلٍ قتل اثنين ... وإشبينتها قاتلة أيضًا.»

أدركت جميع النساء في نفس اللحظة تقريبًا أن كيتي ليست ثمِلةً ومشاكسة فحسب. ولكنها أيضًا تُعاني من اضطرابٍ نفسي شديد. فقد كانت عيناها تنطقان بالغضب وتُسدِّد لهن جميعًا نظرات الاتهام، وهي تواصِل إلقاء خطبتها اللاذعة غير المترابطة.

قالت نيكول لنفسها: إنها أشبَه بمن تُشرف على الغرق وتستغيث باستماتة. وأنا لم أتجاهل صرخاتها فحسب، وإنما أيضًا دفعت بها إلى أعماق المياه.

قالت نيكول بهدوء: «كيتي، أنا آسفة. لقد تصرفتُ على نحوٍ أهوج وبلا روية.» واتجهت نحو ابنتها وهي تهمُّ بمُعانقتها.

ردَّت كيتي، وهي تدفع ذراعَي والدتها عنها: «لا. لا، لا، لا ... لا أريد منك شفقة.» وتراجعت نحو الباب. وقالت: «في الحقيقة، لا أريد أن أحضر هذا الزفاف اللعين ... هذا ليس مكاني. حظًّا طيبًا يا أختي الصغيرة. أخبريني ذات يومٍ عن رأيك في ذلك الطبيب الوسيم في الفراش.»

استدارت كيتي وخرجت من الباب بخطواتٍ متعثرة. كانت إيلي ونيكول تبكيان في صمتٍ وهي تنصرف.

حاولت نيكول أن تُركز تفكيرها على الزفاف ولكن الحزن كان يعتصِر قلبها بعد الموقف المزعج الذي حدث مع كيتي. ساعدت إيلي في وضع زينتها مرةً أخرى، وهي تؤنِّب نفسها مرارًا وتكرارًا لأن ردَّ فعلِها مع كيتي كان غاضبًا.

قبل أن تبدأ المراسم مباشرةً، عادت نيكول إلى غرفة ملابس الرجال وأخبرتهم بأن كيتي قررت ألا تحضر الحفل. ثم ألقت نظرةً خاطفة على الحشد المجتمِع ولاحظت وجود حوالي اثني عشر من الآليين جالسين. فقالت لنفسها: «يا إلهي، لم نكن مُحدَّدين بما يكفي في دعواتنا.» لم يكن من غير المُعتاد أن يُحضِر بعض المُستعمرين الآليين الخاصِّين بهم، من نوع لينكولن أو تياسو، معهم لحضور المناسبات الخاصة، وبخاصة إذا كان لديهم أطفال. قبل أن تعود نيكول إلى غرفة ملابس العروس، انتابها شيء من القلق من ألَّا يكفي عدد المقاعد جميع الحضور.

بعد لحظات، أو هكذا بدا، كان أشابين الزوجين مجتمعين على خشبة المسرح حول القاضي ميشكين وأعلنت الموسيقى وصول العروس. استدارت نيكول، مثلما فعل الجميع، ونظرت إلى مؤخرة المسرح. فرأت ابنتها الصغرى فائقة الجمال متألقةً في فستانها الأبيض ذي الزينة الحمراء، وهي تسير في الممر متأبطةً ذراع ريتشارد. أخذت نيكول تُغالب دموعها، ولكن عندما رأت الدمع يلمع على وجنتَي العروس لم تعد تتمالك نفسها. وقالت لنفسها: أُحبك يا إيلي. كم أتمنَّى لك السعادة.

أعد القاضي ميشكين مراسم انتقائية بناءً على طلب العروسين. وفيها أثنى على الحب بين الرجل والمرأة، وتحدث عن أهمية العلاقة التي تربط بينهما لتكوين أسرة سليمة. ونصح بالتحلي بالتسامح والصبر والإيثار. ودعا دعاءً يخلو من كل ما يمتُّ بصلة إلى

طائفة محددة، دعا فيه الله أن «يُلهم» العروسين «الرأفة والتفاهم حتى يرتقي الجنس البشري في مراتب النبل».

كانت المراسم قصيرة، لكن هذا لم يؤثر على روعتها. تبادل د. تيرنر وإيلي خاتميهما، ونطقا بعهود الزواج بأصواتٍ قوية واثقة. ثم التفتا إلى القاضي ميشكين فأخذ بيده ويدها وضمهما. وقال: «باسم السلطة التي منحتني إيَّاها مستعمرة عدن الجديدة أعلن روبرت تيرنر وإليانور ويكفيلد زوجًا وزوجة.»

بينما كان د. تيرنر يرفع غطاء وجه إيلي برفق ليتبادلا القبلة التقليدية، دوَّت طلقة نارية وأتبعتها طلقةٌ أخرى بعد لحظة. وسقط القاضي ميشكين إلى الأمام باتجاه العروسين والدم يتدفَّق من جبهته. وسقط كينجي واتانابي على الأرض بجواره. واندفعت إيبونين بين العروسين والحضور أثناء انطلاق دويِّ الطلقتَين الثالثة والرابعة. كان الجميع يصرخون. وعمَّت الفوضى المسرح.

تبع هذا انطلاق رصاصتَين أُخريين في تتابع سريع. وبعدها، نجح ماكس باكيت في نزع سلاح اللينكولن الآلي الذي أطلق النيران وهو في الصف الثالث. فقد استدار ماكس في لمح البصر فور أن سمع الطلقة الأولى، وبعدَها بثانية قفز فوق المقاعد. لكن اللينكولن الآلي الذي كان قد قام من مقعده عندما سمع كلمة «زوجة» أطلق من بندقيته الآلية ستَّ طلقاتٍ إلى أن نجح ماكس في التغلُّب عليه تمامًا.

كان الدم يُغطي خشبة المسرح. شقَّت نيكول طريقها إلى الحاكم واتانابي لتفحصه. فوجدته ميتًا. احتضن د. تيرنر القاضي ميشكين والعجوز الكريم يغمض عينَيه للمرة الأخيرة. من الواضح أن د. تيرنر كان هو المقصود بالطلقة الثالثة لأنها أصابت إيبونين في جنبها وهي تقفز قفزتها المذعورة لتُنقذ العريس والعروس.

التقطت نيكول مُكبر الصوت الذي كان قد سقط مع القاضي ميشكين. وقالت: «سيداتي سادتي. هذه مأساة مفجعة للغاية. أرجو ألا تُصابوا بالذعر. فأنا أعتقد أن الخطر قد زال. رجاءً ابقوا في أماكنكم حتى نتمكن من أن نعتني بالمصابين.»

لم تُحدِث الطلقات الأربع الأخيرة أضرارًا بالغة. إذ لم تكن حالة إيبونين حرجة رغم نزيفها. كما أن ماكس ضرب اللينكولن قبل أن يُطلق طلقته الرابعة، وبهذا أنقذ حياة نيكول من موتٍ شبه مُحقق؛ إذ مرقت هذه الرصاصة بجوارها بسنتيمترات قليلة. أما الرصاصتان الأخيرتان فمسَّتا اثنَين من الحضور واللينكولن يسقط أرضًا.

لحق ريتشارد بماكس وباتريك اللذين كانا يُقيدان الآلي القاتل. قال ماكس: «لن يُجيب عن أي سؤال.»

نظر ريتشارد إلى كتف اللينكولن. كان رقم الآلي ٣٣٣. قال: «خذوه إلى الخلف. أريد أن ألقي نظرة عليه لاحقًا.»

على خشبة المسرح، كانت ناي واتانابي جاثيةً وقد وضعت رأس حبيبها كينجي على حجرها. وكان جسدها يرتجف من شدة البكاء. وبجوارها كان التوءمان جاليليو وكيلبر يبكيان في رعب. وكانت إيلي تحاول أن تهدئ من روع الصبيَّين وقد غطت الدماء فستان زفافها.

كان د. تيرنر يُطبب إيبونين. وقال بعد أن ضمَّد جرحها: «ستحضر عربة الإسعاف في غضون دقائق.» ثم قبَّل جبهتها وقال: «لن يسعني أنا وإيلي أن نشكرك على ما فعلت.»

نزلت نيكول إلى الضيوف لتتأكد من أن الحضور الذين أصابهم الرصاص لم يُصابوا إصابة خطيرة. وكانت على وشك أن تعود إلى مُكبر الصوت وتخبر الجميع بأنه يمكنهم البدء في مغادرة المكان، عندما اندفع أحد المُستعمرين إلى المسرح وهو في حالة هستيرية.

وصاح قبل أن يلقي نظرة على المشهد الذي أمامه: «جُن جنون أحد الأينشتاين. وقتل أولانوف والقاضية أيانيلا.»

قال ريتشارد: «علينا أن نرحل نحن الاثنان. والآن. وسأرحل وحدي يا نيكول حتى لو رفضتِ مرافقتي. فأنا أعرف الكثير عن الآليين الذي يحملون الأرقام التي تبدأ بثلاثمائة وأعرف ما الذي فعله رجال ناكامورا ليُغيروهم. سيسعون خلفي الليلة أو في الصباح على أقصى تقدير.»

ردت نيكول قائلةً: «حسنًا، يا حبيبي. أتفهَّم ما تقول. ولكنني لا أستطيع الرحيل. يجب أن يكون هناك من يعتني بالأسرة. ويُحارب ناكامورا. حتى وإن كانت الحرب ميئوسًا منها. علينا ألا نخضع لطغيانه.»

مرَّت ثلاث ساعات على إفساد عُرس إيلي. كان الرعب يجتاح المستعمرة. وأذاع التليفزيون أن خمسة آليين أو ستة جن جنونهم في وقتٍ واحد، وأن أحد عشر شخصًا من أبرز مواطني عدن الجديدة قتلوا. وأضاف أن الحظ قد حالف المرشح لمنصب الحاكم، إيان ماكميلان ورجل الأعمال المعروف توشيو ناكامورا، بعد أن فشل الكاوابات الآلي الذي كان يُحيي حفلًا في فيجاس في هجومه عليهما.

قال ريتشارد وهو يشاهد التليفزيون: «هراء. هذا جزء آخَر من خطتهما.»

كان متأكدًا من أن أعوان ناكامورا خططوا لسلسلة الاغتيالات. كما لم يُساوره أي شكٍّ في أنه كان مستهدفًا هو ونيكول. وكان مقتنعًا أن الأحداث التي وقعت اليوم ستتمخَّض

عنها عدن جديدة مختلفة تمامًا، يسيطر عليها ناكامورا بعد أن يضمن أن يكون الحاكم إيان ماكميلان مجرد حاكم صوري.

سألته نيكول: «ألن تودع باتريك وبينجي على الأقل؟»

أجابها ريتشارد: «من الأفضل ألا أفعل. ليس لأنني لا أحبهما ولكن لأنني أخشى أن أغير رأيي ...»

قالت نيكول: «هل سترحل عبر مَخرج الطوارئ؟»

أومأ ريتشارد. وقال: «إنهم لن يسمحوا لي أبدًا بالخروج من المخرج الطبيعي.»

بينما كان يفحص معدات الغوص دخلت نيكول إلى غرفة المكتب. وقالت: «لقد أذيع في نشرة الأخبار للتوِّ أن الناس يحطمون الآليين الخاصين بهم في جميع أنحاء المستعمرة. وقال أحد المستعمرين الذين استضافهم المُذيع إن أحداث القتل الجماعي جزءٌ من مؤامرة فضائية.»

قال ريتشارد بتجهُّم: «رائع. ها قد بدأت الشائعات من الآن.»

أخذ معه ما يستطيع حمله من طعام وشراب. وعندما صار مستعدًّا عانق نيكول بحرارة لأكثر من دقيقة. وكانت عيونهما تفيض من الدمع وهو يرحل.

سألت نيكول بصوتٍ خفيض: «هل تعلم إلى أين ستذهب؟»

أجاب ريتشارد وهو يقف عند الباب الخلفي: «تقريبًا. لن أُخبرك بالطبع حتى لا تتورَّطي في الأمر ...»

قالت: «أتفهَّم ذلك.» سمِعا صوتًا في مقدمة المنزل، فهُرع ريتشارد إلى الفناء الخلفي.

لم يكن القطار المؤدِّي إلى بحيرة شكسبير يمر. فقد حطمت مجموعة من المستعمرين الغاضبين الجارسيا التي كانت تشغل قطارًا سابقًا يسير على نفس الخط وتعطل النظام بأكمله. بدأ ريتشارد يسير متجهًا إلى الجانب الشرقي من بحيرة شكسبير.

بينما كان يمشي مجهدًا وهو يحمل معدات الغوص الثقيلة وحقيبته، انتابه شعور بأن هناك من يتبعه. وظن مرتَين أنه رأى شخصًا ما بطرف عينَيه، لكن عندما توقَّف وتلفَّت حوله لم يرَ شيئًا. أخيرًا، وصل إلى البحيرة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. ألقى نظرة أخيرة على أضواء المستعمرة وبدأ يرتدي معدات الغوص. ولكن الدم تجمد في عروقه حين رأى جارسيا تخرج من بين الشجيرات وهو يخلع ملابسه.

توقَّع أن تقتله. لكن بعد ثوان بدت طويلةً تحدثت الجارسيا. وسألته: «هل أنت ريتشارد ويكفيلد؟»

لم يُحرك ساكنًا ولم ينبس ببنت شفة. فقالت الآلية في النهاية: «إن كنت ريتشارد أحمل لك رسالة من زوجتك. إنها تقول لك إنها تُحبك وتتمنَّى لك رحلة موفقة.»

أخذ ريتشارد نفسًا طويلًا ببطء. وقال: «أخبريها أني أُحبها أيضًا.»

المحاكمة

١

في البقعة الأعمق من بحيرة شكسبير، كان يوجد مدخل مفتوح يؤدي إلى قناة طويلة محفورة تحت البحر تمتدُّ تحت بلدة بوفوا وحائط المنطقة السكنية. وسر وجود هذه القناة هو أن ريتشارد، الذي هو ذو خبرة عملية كبيرة في هندسة الطوارئ، أكد أثناء وضع تصميم عدن الجديدة على أهمية بناء مخرج للطوارئ في المُستعمرة.

حينها، سأله الرجل النسر: «لكن فيمَ ستحتاجه؟»

رد ريتشارد: «لا أعرف. ولكن عادة ما تُواجِه المرءَ في الحياة مواقفُ غير متوقَّعة. وأي تصميمٍ هندسي قويم دائمًا ما يحوي وسائل لمواجهة الطوارئ.»

سبح ريتشارد بحذَر في النفق وكان يُبطئ كل عدة دقائق ليتحقق من مخزون الهواء. وعندما وصل إلى نهايته عبر مجموعة من الحواجز أوصلَتْه في النهاية إلى ممرٍّ جافٍّ تحت الأرض. سار نحو مائة متر قبل أن يخلع جهاز الغوص ويُخبئه في جانب الممر. وعندما وصل إلى المخرج الذي يقع في الجانب الشرقي من المنطقة المغلقة التي تضم المنطقتَين السكنيتَين في نصف الأسطوانة الشمالية من راما، أخرج سترته الحرارية من حقيبته المضادة للمياه.

مع أن ريتشارد كان يُدرك أنه من غير الممكن أن يعرف أحد مكانه، فإنه فتح الباب المُستدير الموجود في سقف الممر بحذَر شديد. ثم خرج إلى السهل الرئيسي. وقال لنفسه وهو يتنفَّس الصعداء: «كل شيءٍ على ما يرام حتى الآن. لننتقل الآن إلى الخطة «ب».»

ظل ريتشارد في الجانب الشرقي من السهل طيلة أربعة أيام. كان بوسعه خلالها أن يرى الأضواء التي تدلُّ على وجود أنشطة ما حول مركز التحكم أو منطقة أفالون أو موقع استكشاف المنطقة السكنية الثانية، وذلك باستخدام نظارته المكبِّرة الصغيرة الرائعة. وكما توقَّع ريتشارد، كانت هناك فرقتا بحث في المنطقة الواقعة بين المنطقتَين السكنيتَين وظلَّتا تخرجان إلى هناك مدة يومٍ أو يومَين، ولكن لم تسِر في اتجاهه سوى مجموعة واحدة، وكان سهلًا عليه أن يتفاداها.

تعوَّدت عيناه على الظلام الذي يلفُّ السهل المركزي والذي كان يظنُّه دامسًا. لكنه اكتشف أن هناك ضوءًا خافتًا ينعكس من على أسطح راما. خمن ريتشارد أن مصدر أو مصادر الضوء هو نصف الأسطوانة الجنوبي الواقع على الجانب الآخر من حائط المنطقة السكنية الثانية البعيد.

ودَّ ريتشارد لو استطاع أن يطير حتى يتمكن من أن يُحلق عاليًا فوق الجدران ويتحرك بحُرية في المساحات الواسعة الموجودة في العالم الأسطواني. وأثار وجود هذا المقدار الضئيل من الضوء اهتمامَه بالمنطقة الباقية من راما. هل لا يزال البحر الأسطواني موجودًا جنوب الجدار الحاجز؟ هل ما زالت نيويورك موجودة على هيئة جزيرة في هذا البحر؟ وماذا يُوجَد في نصف الأسطوانة الجنوبي الذي هو أكبر من المنطقة التي تضمُّ المنطقتَين السكنيتَين الشماليتَين، إن كان يُوجَد شيء من الأساس؟

في اليوم الخامس بعد هروب ريتشارد، أيقظه حلم مُفزع للغاية يدور حول والده، فبدأ يمشي باتجاه ما أخذ يُطلق عليه مسكن المخلوقات الطائرة. وكان ريتشارد قد غيَّر نظام نومه بحيث أصبح ينام في المدة التي يكون فيها النهار مشرقًا على عدن الجديدة، وبهذا كان الوقت داخل المستعمرة عند استيقاظه نحو السابعة مساءً. فافترض أن كل البشر الذين كانوا يعملون في موقع الاستكشاف أنهوا عمل يومِهم.

عندما صار على بُعد نحو نصف كيلومتر من الفتحة الموجودة في حائط مسكن المخلوقات الطائرة، توقَّف ليتأكَّد من أنه لم يعُد هناك أي بشَر في المنطقة مُستخدمًا نظارته المكبرة. ثم أرسل فولستاف ليُضلل حارس الموقع الآلي.

لم يكن ريتشارد يعرف إلى أيِّ مدًى يتطابق الممر الذي يؤدي إلى المنطقة السكنية الثانية مع التصميم الذي وضعَه المهندسون. لقد رسم مربعًا مساحته ثمانين سنتيمترًا على أرض حجرة مكتبِه وأقنع نفسه بأنه سيستطيع أن يزحف فيه. ولكن ماذا لو كانت مساحة الممرِّ غير مناسبة؟ قال ريتشارد لنفسه وهو يقترِب من الموقع: «سنكتشف هذا عاجلًا.»

لم يُدخِل المهندسون في الممر سوى مجموعة واحدة من الكابلات والمعدات، ولهذا لم يكن صعبًا على ريتشارد أن يُزيحها. فولستاف أيضًا نجح في مهمته إذ لم يسمع ريتشارد الحارس الآلي ولم يقع بصرُه عليه. قذف ريتشارد حقيبته الصغيرة في الفتحة ثم حاول أن يتسلَّق داخلها بنفسه. غير أن هذا كان مُستحيلًا. فخلع سُترته ثم خلع قميصه وبنطاله وحذاءه. وبعد أن أصبح لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية وجوربه، تمكن بالكاد من الدخول في الممر. ربط ملابسه على هيئة صرةٍ وثبَّتها في جانب حقيبته وانحشر في الفتحة.

كان زحفه بطيئًا جدًّا. فقد كان يزحف على بطنه مُستعينًا بيدَيه ومرفقَيه وهو يدفع حقيبته أمامه. وكان جسده يحتكُّ بالجدران والسقف مع كل حركة. توقف ريتشارد بعد أن قطع نحو خمسة عشر مترًا في النفق وقد بدأ الإنهاك يُمزق عضلاته. وكان الجانب الآخر من النفق لا يزال يبعُد عنه نحو أربعين مترًا.

وبينما كان يأخذ قسطًا من الراحة، أدرك أن مِرفقيه وركبتَيه والجزء الأعلى من رأسه الصلعاء خُدشوا وينزفون. غير أنه طرد من ذهنِه فكرة جلب ضمادَّات من حقيبتِه لأن مجرد الانقلاب على ظهره والنظر خلفَه يتطلَّب مجهودًا جبارًا في هذا المكان الضيق.

أدرك أيضًا أنه يشعر ببردٍ قارس. فبينما كان يزحف كانت الطاقة اللازمة لإحراز التقدُّم تُحافظ على شعوره بالدفء. لكن ما إن توقف، حتى سرت على الفور قشعريرةٌ في جسده العاري. ومما زاد الأمر سوءًا أنه كان يسند جسده على الأسطح المعدنية الباردة. فبدأت أسنانه يصطكُّ بعضها ببعض.

أخذ ريتشارد يتقدَّم ببطءٍ مدة خمس عشرة دقيقةً أخرى والألَم يعتصِر جسده. ثم تشنَّج مفصل وركِه الأيمن وعندما صدر عن جسده رد الفعل التلقائي اصطدم رأسه بسقف الممر. فشعر بدوار بسيطٍ من أثر هذه الصدمة، وانتابه الخوف عندما شعر بالدم يسري على جانب رأسه.

لم يكن هناك أيُّ بصيص من الضوء أمامه. إذ انطفأ الضوء الخافت الذي مكَّنَه من أن يُراقب تقدُّم الأمير هال. فحارب لينقلب على ظهره ويرى ما وراءه. ولكنه وجد أن الظلام يغلف المكان بأكمله، وعاد يشعر بالبرد مرةً أخرى. وتحسَّس رأسه محاولًا أن يُحدِّد مدى خطورة الجرح. فانتابه الذُّعر عندما أدرك أنه لا يزال ينزف.

حتى تلك اللحظة لم يكن رهاب الاحتجاز قد بدأ يُهاجمه. أما الآن وقد أصبح فجأةً عالقًا في الممر المُظلم الذي يشعر بأنه يضغط عليه من كل الجوانب، فقد بدأ يشعر بأنه عاجز عن التنفُّس. وبدا له أن الحوائط تعتصِر ضلوعه. ففقد قُدرته على السيطرة على نفسه. وصرخ.

بعد أقلَّ من نصف دقيقة أضاء ضوءٌ صادر من مؤخرة الممر. وسمع اللهجة الإنجليزية الغريبة التي تنطق بها الجارسيا الآلية، ولكنَّه لم يفهم ما كانت تقوله. قال لنفسه: إنها بالتأكيد تكتب تقريرًا عن وجود حالة طوارئ. من الأفضل أن أتحرك بسرعة.

بدأ يزحف مرةً أخرى متجاهلًا تعَبه، ورأسه الذي ينزف، وركبتَيه ومرفقَيه اللذَين كُشِط جلدهما. قدَّر أنه لم يعُد أمامه سوى عشرة أمتار أو خمسة عشر على أقصى تقدير، لكن في تلك اللحظة بدا أن الممر قد انكمش. فلم يعُد يستطيع أن يتقدَّم. شدَّ كل عضلة من عضلاته لكن هذا لم يُجدِ نفعًا. أصبح ريتشارد عالقًا في مكانه. وبينما كان يُحاول أن يجد وضعًا مختلفًا يكون أفضلَ من الوضع الذي يزحف به الآن من الناحية الهندسية، سمع صوتَ طقطقةٍ خفيضًا صادرًا من اتجاه مسكن المخلوقات الطائرة يقترِب منه.

بعد دقائق، كانوا جميعًا فوقه. فتملَّكه الفزع خمس ثوانٍ حتى أخبره عقله بأن ما يشعر به من دغدغة في جلده كله سببها الكائنات ذات الأرجل. وقد توصَّل إلى هذا الإدراك عندما تذكر مرآها على التليفزيون؛ فقد كانت مخلوقاتٍ دائريةً صغيرة يبلُغ قطرها نحو سنتيمترين، يلتصق بها ستة أرجل مُتماثلة تماثُلًا طوليًّا، وهذه الأرجل لها مفاصل متعددة، ويبلغ طولها نحو عشرة سنتيمترات حين تمتدُّ إلى الحد الأقصى.

توقفت إحدى هذه الكائنات على وجهه مباشرةً، وأقدامُها مستقرة على أنفه وفمه. حاول أن يُبعدها لكنه صدم رأسه ثانيةً. بدأ ريتشارد يتلوَّى لكي يُسقِط الكائنات ذات الأرجل من عليه ونجح بطريقةٍ ما في أن يتقدم. فزحف الأمتار القليلة الباقية إلى المخرج والكائنات ذات الأرجل تُغطيه.

وصل إلى الحلقة الخارجية الموجودة في المدخل المؤدِّي إلى مسكن المخلوقات الطائرة، وعندها سمع صوتًا بشريًّا صادرًا من خلفه. كان يقول: «مرحبًا، هل من أحد هناك؟ أيًّا من كنت، عرِّف نفسك من فضلك. نحن هنا لنُساعدك.» ثم أضاء نور كشاف قوي الممر.

في تلك اللحظة، اكتشف ريتشارد أنه يُواجِه مشكلةً أخرى. وكانت أن الثغرة التي سيخرج منها ترتفع عن قاع الحلقة بحوالي متر. قال لنفسه: كان عليَّ أن أزحف للخلف وأنا أسحب حقيبتي وملابسي. كان هذا سيجعل الأمر أيسر.

لم يعُد هذا أوان إدراك ذلك، فواصل ريتشارد زحفه للأمام حتى صار جسده خارج الممر جزئيًّا وحقيبته وملابسه على الأرض أسفل منه، وصوتٌ بشريٌّ آخر يطرح الأسئلة خلفه. وعندما شعر أنه يسقط وضع يدَيه خلف رأسه وألصق ذقنه بصدره وحاول أن

يجعل جسده يأخذ هيئة كرة، ثم وثب وتدحرج إلى داخل الحلقة. وبينما كان يسقط، قفزت الكائنات ذات الأرجل من عليه واختفت في الظلام.

انعكست الأضواء التي يُضيئها البشر في الممر على الحائط الداخلي للحلقة. وبعد أن تأكد ريتشارد من أنه لم يُصَب، وأن رأسه لم يعُد ينزف بغزارة، التقط متاعه ومشى بصعوبة مسافة مائتي متر إلى اليسار. توقف تحت الفتحة التي أمسك فيها المخلوق الطائر بالأمير هال مباشرةً.

رغم شعور ريتشارد بإنهاك شديد، لم يُهدر وقتًا طويلًا في تسلُّق الجدار. وقد بدأ التسلُّق فور أن انتهى من ارتداء ملابسه وتضميد جراحه. إذ كان متأكدًا من أن من كانوا وراءه سرعان ما سيُدخلون كاميرا متحركة في الحلقة للبحث عنه.

لحُسن الحظ كان هناك إفريز صغير أمام الفتحة، وكان هذا الإفريز كبيرًا بما يكفي لاحتواء ريتشارد. جلس عليه وهو يُمزق الشبكة المعدنية ثم دفعها جانبًا. توقع ظهور الكائنات ذات الأرجل في أي لحظةٍ، غير أن هذا لم يحدث، وبقي ريتشارد وحيدًا. لم يرَ أو يسمع شيئًا داخل المنطقة السكنية. ومع أنه حاول مرتَين أن يستدعِيَ الأمير هال عن طريق اللاسلكي، فإنه لم يُجب نداءه.

حدَّق ريتشارد في الظلام الدامس الذي يُغلف مسكن المخلوقات الطائرة. وتساءل: تُرى ماذا يُوجَد في الداخل؟ فكَّر في أن الجو في الداخل لا بد أن يكون مُطابقًا لجوِّ الفتحة لأنه لا يُوجَد ما يعوق حركة الهواء من المنطقة السكنية وإليها. كان ريتشارد قد قرر أن يُخرج كشَّافه ليُلقي نظرة داخل المنطقة السكنية عندما سمع أصواتًا صادرةً من أسفل منه ومن خلفه. وبعد ثوانٍ رأى شعاع ضوء مُتجهًا نحو قاع الحلقة مارًّا بموقعه.

انحنى إلى داخل المنطقة السكنية إلى الحدِّ الذي سمحت له به جرأته ليتفادى الضوء، ثم أنصت بعنايةٍ إلى الأصوات. وقال لنفسه: إنها كاميرًا مُتحركة. ولكن نطاقها محدود. فهي لا تعمل بغير الكابل.

تسمَّر ريتشارد في مكانه. وعندما أصبح واضحًا أنَّ الضوء الملحق بالكاميرا ظلَّ يمسح نفس المنطقة التي تقع أسفل الفتحة قال لنفسه: «ماذا أفعل الآن؟ لا بدَّ أنهم رأوا شيئًا ما. وإذا ما أنرتُ كشافي وانعكس أي ضوء منه فسيعرفون مكاني.»

ألقى بشيءٍ صغير من حقيبته في المنطقة السكنية ليتأكَّد من أن ارتفاع الأرض مساوٍ لارتفاع الحلقة. لكنه لم يسمع أي صوت. جرَّب ريتشارد إلقاء شيءٍ آخر أكبر قليلًا من الشيء السابق لكنه لم يسمع صوتَ ارتطامِه بالأرض أيضًا.

ارتفعت ضربات قلبِه عندما أخبرَه عقله بأن أرض المنطقة الداخلية للمنطقة السكنية تبعُد كثيرًا عن أرض الحلقة. وتذكَّر البنية الأساسية لراما بهيكلها الخارجي السميك، وأدرك أن قاع المنطقة السكنية يُمكن أن يكون منخفضًا عن المكان الذي يجلس فيه بعدة مئات من الأمتار. مال ريتشارد إلى الأمام وحدَّق في الفراغ ثانيةً.

فجأة، توقفت الكاميرا المتحركة عن الحركة وظلَّ ضوءُها مركزًا على نفس البقعة أسفل الحلقة. خمن ريتشارد أن شيئًا ما سقط من حقيبته وهو يمضي على عجَلٍ من الممر إلى المنطقة التي تقع أسفل الفتحة. وعلِم أنهم سرعان ما سيجلبون كاميراتٍ وأضواءً أخرى. تخيل ريتشارد أنه أُلقي القبض عليه وأُعيد إلى عدن الجديدة. لم يكن يعرف قوانين المستعمرة التي خرقَها بالتحديد، ولكنه كان على يقينٍ من أنه خرق الكثير من القوانين. جاش في نفسه شعور قوي بالاستياء وهو يفكر في أنه قد يُمضي شهورًا أو حتى سنواتٍ في المعتقل. وقال في نفسه: لن أسمح بأن يحدُث هذا بأيِّ حالٍ من الأحوال.

تحسَّس الجدار الداخلي للمنطقة السكنية ليتحقَّق مما إذا كان به ما يكفي من أماكن غير مستوية تُمكنه من إيجاد موضعٍ يُثبت فيه قدمَيه ويدَيه. وبعد أن اطمأن إلى أن نزول هذا الحائط ليس مهمةً مستحيلة، بحث في حقيبته عن حبل التسلُّق وثبَّت طرفه في مفاصل الشبكة. وقال في نفسه: حتى يُنقذني إنِ انزلقت.

سطع ضوء آخَر في الحلقة خلفه. فاندفع داخلًا المنطقة السكنية والحبل ملفوف بإحكام حول وسطه. لم يعتمِد على الحبل اعتمادًا تامًّا في رحلة الهبوط، لكنه استخدمَه ليستنِد إليه من حينٍ لآخر وهو يتحسَّس الحائط بحثًا عن موطئٍ لقدمِه في الظلام. لم يكن الهبوط صعبًا؛ فقد كانت هناك الكثير من المواضِع الصغيرة البارزة التي استطاع ريتشارد أن يضع قدمَه عليها.

ومضى ريتشارد في رحلته. حتى إذا قُدِّر أنه نزل ستِّين أو سبعِين مترًا قرَّر أن يقف ويُخرج كشَّافه من حقيبته. لم يُسَرَّ عندما سلَّط الضوء على الحائط إلى أسفل. إذ لم يكن بوسعه أن يرى القاع. لكنه كان بوسعه أن يرى شيئًا مُنتشرًا كالسحاب، بل كالضباب، على بُعد خمسين مترًا أو أكثر. قال ريتشارد في نفسه بسخرية: رائع، بل أكثر من رائع.

بعد ثلاثين مترًا أخرى كان سيصِل إلى نهاية حبل التسلُّق. كان ريتشارد يشعر بالفعل بالرطوبة الصادرة من الضباب. وكان مُنهكًا للغاية. ولأنه لم يكن يُريد أن يفقد الحماية التي يوفرها له الحبل، صعد أمتارًا قليلة ولفَّ الحبل حولَه عدة مراتٍ ونام وجسدُه مُلتصِق بالحائط.

٢

كانت الأحلام التي يراها ريتشارد غريبة للغاية. فعادةً ما كان يرى نفسه يسقط رأسًا على عقبٍ إلى ما لا نهاية دون أن يصل أبدًا إلى قاع. وكان آخِر ما رآه قبل أن يستيقظ، هو أن توشيو ناكامورا وشخصَين شرقِيَّين عنيفَين يستجوبانه في غرفةٍ صغيرة بيضاء الجدران.

عندما استيقظ لم يعرِف أين هو مدة ثوانٍ. وفي أول حركةٍ قام بها، سحب خدَّه الأيمن بعيدًا عن سطح الحائط المعدني. وبعد لحظاتٍ تذكَّر فيها أنه نام في وضعٍ رأسي مستندًا إلى الحائط في المنطقة الداخلية من مسكن المخلوقات الطائرة، أضاء كشَّافه ونظر إلى أسفل. توقَّف قلبه عن الخفقان عندما رأى أنَّ الضباب اختفى. ووجد أن الحائط مُمتد مسافةً طويلة جدًّا إلى أسفل وينتهي بشيءٍ يبدو أنه مياه.

أمال رأسه إلى الوراء ونظر فوقه. كان يعرف أن المَوضع الذي هو فيه يبعُد عن الفتحة بنحو تسعين مترًا (فقد كان طول حبل التسلُّق مائة مترٍ)، وعلى هذا، قدَّر أن المسافة من موضعه إلى المياه تبلغ نحو مائتينِ وخمسين مترًا. ارتعدَت فرائصه عندما بدأ عقله يستوعِب المأزق الذي وقع فيه. وعندما بدأ يُخلِّص نفسه من حلقات الحبل التي لفَّها حوله قبل أن ينام، لاحظ أن ذراعَيه ويدَيه يرتعشان.

ساورته رغبة جامحة في أن يهرب، في أن يصعد إلى الحفرة مرةً أخرى ويترك هذا العالم الغريب برمَّته. قال لنفسه وهو يُغالب ردَّ فعله التلقائي: كلَّا. ليس الآن. لن يحدُث هذا إلا إذا لم تُتَح أمامي خيارات عملية أخرى.

قرَّر أن يكون أول ما يفعله هو أن يأكُل شيئًا. حرَّر نفسه بحذَرٍ شديد من جزءٍ من الحبل، وسحب بعض الطعام والمياه من حقيبته. ثم استدار قليلًا وسلَّط ضوءه باتجاه المنطقة الداخلية من المسكن. ظنَّ أنه رأى أشكالًا وهياكل في مرمى البصر، لكنه لم يستطِع أن يتيقَّن من صحة هذا. قال لنفسه: قد يكون هذا خيالًا.

عندما فرغ ريتشارد من تناوُل الطعام فحص ما معه من طعامٍ وماء ثم وضع قائمةً عقلية بما أمامه من خيارات. وقال لنفسه وهو يضحك ضحكةً متوترة: الأمر بسيط للغاية. يُمكنني أن أعود إلى عدن الجديدة، وعندئذٍ يصدُر ضدي حكم. أو يُعدِمونني. أو يمكن أن أتخلَّى عن الحماية التي يُوفرها لي الحبل وأُواصل طريقي أسفل الجدار. توقَّف لحظةً ونظر فوقه وأسفل منه. ثم واصل حديثه إلى نفسه قائلًا: أو يمكن أن أبقى هنا وآمُل أن تحدُث معجزة.

تذكَّر ريتشارد أن مخلوقًا طائرًا خرج بسرعةٍ عندما صرخ الأمير هال فبدأ يصيح. لكنه توقف بعد دقيقتَين أو ثلاث وبدأ يُغني. غنَّى ريتشارد غناءً متقطعًا حوالي ساعة. بدأ فيها بدندنة ألحانٍ من الأيام التي قضاها في جامعة كامبريدج، ثم انتقل إلى الأغاني التي كانت شائعةً أثناء سنوات مُراهقته التي غلَّفتها الوحدة. اندهش ريتشارد من جودة تذكُّره لكلمات الأغاني. وفكر قائلًا: «الذاكرة جهاز مُدهش. ترى ما تفسير طريقة عملها الانتقائية؟ لماذا أتذكَّر كل كلمات أغاني المراهقة الغبية تقريبًا ولا أتذكَّر أيَّ شيءٍ من الرحلة التي قُمت بها في راما؟»

كان ريتشارد يمدُّ يده إلى حقيبته ليأخذ مزيدًا من المياه عندما سطع الضوء فجأة في المنطقة السكنية. ففزع حتى إن قدمَه انزلقت من على الجدار وحُمِل وزنه كله على حبل التسلُّق ثواني قليلة. لم يكن الضوء باهرًا كضوء الفجر الذي سطع على مركبة راما الثانية وهو يركب التلفريك، لكنه كان ضوءًا على أي حال. وما إن عاد الاطمئنان إلى ريتشارد حتى أخذ يتأمَّل العالَم الذي كشف الضوء حجابه.

كان يُصدِر الضوء عن كرةٍ ضخمة مُغطاة معلقة في سقف المنطقة السكنية. قدَّر ريتشارد أن الكرة تبعُد عنه نحو أربعة كيلومترات وأنها تعلو أبرز ما يراه من هياكل — وهو أسطوانة بُنية ضخمة في المركز الهندسي للمسكن — بنحو كيلومتر وهي فوقه مباشرة. وكان يُغطي غطاءٌ مُعتم ثلاثةَ أرباع الكرة المضيئة من أعلى؛ ولهذا وُجِّه معظم نورها إلى أسفل.

السمة المُميزة للتصميم الأساسي الذي بُني الجزء الداخليُّ من المنطقة السكنية وفقًا له هو التماثُل المحوري. إذ كان يُوجَد في وسطه أسطوانة بُنيَّة عمودية تبدو وكأنها مصنوعة من الطين، ويبلُغ طولها من أعلى إلى أسفل نحو ألفٍ وخمسمائة مترٍ. لم يستطع ريتشارد أن يرى سوى جانبٍ واحد من جوانبها، ولكنه قدَّر من الانحناءة أن قُطرها يبلغ ما بين كيلومترَين إلى ثلاثة كيلومترات.

لم يكن بالجانب الخارجيُّ من الأسطوانة أي نوافذ أو أبواب. ولم ينفُذ من الجزء الداخلي منها أي ضوء. الشكل الوحيد الموجود على جانب هذه الأسطوانة كان هو مجموعة من الخطوط المُنحنية تفصل بينها مسافات واسعة، ويبدأ كلُّ خطٍّ منها في أعلى الأسطوانة ويلتفُّ حولها قبل أن يصِل إلى قاعها تحت النقطة التي بدأ منها مباشرة. يقف قاع الأسطوانة على سهلٍ مرتفع له نفس ارتفاع الفتحة التي دخل منها ريتشارد.

يُحيط بالأسطوانة عددٌ كبير من الهياكل البيضاء الصغيرة على شكل حلقةٍ يبلغ قطرها نحو ثلاثمائة متر. رُبعا الحلقة الشماليَّان (كان ريتشارد قد دخل مسكن المخلوقات الطائرة من الفتحة الشمالية) متطابقان؛ في كل ربعٍ خمسون أو ستُّون مبنًى وُضعت على نفس النمط. افترض ريتشارد بناءً على هذا التطابُق أن يكون للربعَين الآخرَين نفس هذا التصميم.

كانت تُحيط بهذه الحلقة قناة دائرية رفيعة يبلُغ اتساعها سبعين أو ثمانين مترًا. تقع القناة والمباني البيضاء على السهل على نفس الارتفاع الذي بُني عليه قاع الأسطوانة البُنية. أما خارج القناة فتشغَل مُعظم ما تبقَّى من مساحة المنطقة السكنية منطقة واسعة بها ما يبدو أنه أشياء تنمو ذات لون أخضر. تنحدِر أرض المنطقة الخضراء هذه انحدارًا بسيطًا من القناة وحتى شاطئ الخندق الذي يبلغ عرضُه أربعمائة مترٍ والذي يُوجَد داخل الجدار الداخلي. كل ربع من أرباع الحلقة المُتماثلة في المنطقة الخضراء مُقسَّم إلى أربعة قطاعات، أطلق ريتشارد على أحدِها دغل، وعلى الثاني غاب، وعلى الثالث مرعى، وعلى الرابع صحراء، وقد بُنِيَ هذا التصنيف على أساسِ نظير هذه المناطق على الأرض.

أنعم ريتشارد النظر نحو عشر دقائق في البانوراما الواسعة بهدوء. ولأن مستوى الإضاءة ينخفض انخفاضًا طرديًّا مع المسافة بالنسبة للأسطوانة، لم تكن رؤيته للمناطق القريبة منه أوضح من رؤيته للمناطق البعيدة. ومع هذا كانت تفاصيل ما يراه لا تزال مُبهرة. وكلَّما أمعن في النظر، لاحظ أشياء جديدة. فرأى أن هناك بحيراتٍ وأنهارًا صغيرة في المنطقة الخضراء، وجزيرة صغيرة في الخندق، وأشياء تُشبه الطرُق بين المباني البيضاء. وجد نفسه يقول: طبعًا. لِمَ توقعت غير هذا؟ لقد صنعنا أرضًا صغيرة في عدن الجديدة. ولا بدَّ أنَّ هذا يُمثل، على نحوٍ ما، الكوكب الأصلي للمخلوقات الطائرة.

هذه الفكرة الأخيرة ذكَّرته بأنه هو ونيكول آمَنا من البداية بأن المخلوقات الطائرة لم تعُد من المخلوقات التي تجوب الفضاء، وهي تتمتَّع بتكنولوجيا ذات مستوًى عالٍ من التطور (هذا إن كانوا كذلك من البداية). سحب ريتشارد نظارته المُكبرة وتفحَّص الأسطوانة البُنية على مرمى البصر. وتساءل قائلًا: تُرى أي أسرار تُخفيها؟ قال هذا وقد شعر بالإثارة لحظات؛ لاحتمال دخوله في مغامرةٍ ورحلة استكشاف.

بعد هذا، بحث ريتشارد في السماء عن أي أثرٍ للمخلوقات الطائرة. غير أن أملَه خاب. فقد ظن أنه رأى مخلوقاتٍ تطير مرةً أو مرتَين عند قمة الأسطوانة البنية، غير أن الأجسام الصغيرة التي رآها كانت تنطلِق بسرعةٍ شديدة في نطاق رؤية نظارته المُكبِّرة حتى إنه

عجز عن التأكد من هوية ما يراه. نظر في كل مكان — في كل أجزاء المنطقة الخضراء، في المباني البيضاء المجاورة، بل في الخندق — لكنه لم يرَ أيَّ إشارةٍ إلى وجود حركة. ولم يكن هناك أيُّ دليلٍ على وجود حياةٍ في مسكن المخلوقات الطائرة.

خبا الضوء بعد أربع ساعاتٍ وتُرك ريتشارد مرةً أخرى في الظلام في منتصف الحائط الرأسي. نظر في الترمومتر الخاص به وفي تاريخ قاعدة بياناته. فوجَدَ أن الحرارة لم تتغيَّر عن ستٍّ وعشرين درجة مئوية إلا بنصف درجة، وذلك منذ أن دخل المنطقة السكنية. فقال لنفسه: تحكم مبهر في الحرارة. ولكن لماذا هو مُحكم هكذا؟ لماذا يستخدمون موارد طاقةٍ هائلةً ليحافظوا على ثبات الحرارة؟

ظلَّ الظلام مُخيِّمًا ساعاتٍ فنفد صبر ريتشارد. ومع أنه كان يريح كل مجموعةٍ من العضلات باستمرار عن طريق الاستناد على الحبل بأوضاعٍ مختلفة، بدأ الإنهاك ينتاب جسدَه ببطء. ورأى أن الوقت قد حان لِفعل شيءٍ ما. ورغمًا عنه أقرَّ بأن ترك الحبل والنزول إلى الخندق يُعَد تهورًا. فقال لنفسه: وماذا سأفعل عندما أَصِل إلى هناك؟ أسبح إلى الضفة الأخرى؟ وبعدها؟ سيكون عليَّ أن أغير اتجاهي إن لم أجد طعامًا على الفور.

بدأ يتسلَّق ببطءٍ باتجاه الفتحة. وبينما كان يستريح في منتصف الطريق المؤدِّي إلى المخرج ظنَّ أنه سمِع صوتًا خافتًا للغاية صادرًا من بعيدٍ جهةَ اليمين. توقَّف ريتشارد ومدَّ يدَه إلى حقيبتِه برفقٍ للبحث عن جهاز الاستقبال الخاص به. وبأقل حركةٍ مُمكنة، جعل أداة زيادة قوة الإشارات تعمَل بأقصى طاقتها وارتدى سماعة الأذن. في البداية لم يسمع أيَّ صوت. لكن بعد عدة دقائق التقط الجهاز صوتًا صادرًا من أسفل منه، من الخندق. كان من المُستحيل أن يتعرَّف على الصوت بدقة؛ فربما يكون صوت العديد من المراكب التي تُبحر في المياه، ولكن لم يكن هناك شك في أن هناك عملًا ما يُجرى أسفل منه.

هل سمع صوت رفرفة أجنحة أيضًا صدر من مكانٍ ما عن يمينه؟ بدون سابق إنذار، صرخ ريتشارد بأعلى صوته فجأة ثم توقَّف فجأة. تلاشت الذبذبة الصادرة عن رفرفة الأجنحة بسرعة، لكن بعد ثانية أو اثنتَين كانت واضحةً بحيث لا تُخطئها أُذن.

تهلَّل ريتشارد. وصاح بمرح: «أعلم أنكم هناك. أعلم أنكم تُراقبونني.»

كانت لدَيه خطة. كان على يقينٍ بأن فرصته في النجاح ضئيلة ولكن أن يُجرِّب حظه أفضل بالتأكيد من أن يقف مكتوفَ الأيدي. راجع طعامَه وشرابه وتأكَّد من أن ما معه يكفيه بالكاد وأخذ نفسًا عميقًا. وقال لنفسه: إن لم أفعل هذا الآن فلن أفعله أبدًا.

تدرَّب على النزول دون الاعتماد على الاستناد إلى الحبل. وهذا جعل التقدُّم أصعب ولكنه كان مُمكنًا. عندما وصل إلى نهاية الحبل فك الحبل وسلط الضوء على الحائط. فوجد أن هناك ما يكفي من المناطق البارزة حتى المنطقة التي تعلو الضباب على الأقل، وكان الضباب قد عاد في ذلك الوقت. واصل نزوله بعناية شديدة مُقرًّا بينه وبين نفسه بأن الخوف ينتابه. وظن أكثر من مرة أنه يسمع دقَّات قلبه في سمَّاعة الأذن.

قال في نفسه وهو ينزل إلى الضباب: الآن، إن كنتَ على صواب، سأحظى بصحبة في الأسفل. ضاعف الضباب من صعوبة الهبوط. بل إنه انزلق مرةً وكاد أن يسقط لكنه نجح في أن يعود إلى الوضع السليم. توقَّف في منطقةٍ كانت مواضعُ يدِه وقدمَيه فيها ثابتةً جدًّا. وقدَّر أنه يبعُد عن الخندق بنحو خمسين مترًا. وقال لنفسه: من الآن، سأنتظر حتى أسمع صوتًا. سيكون عليهم أن يقتربوا أكثر بسبب الضباب.

بعد مدةٍ قصيرة سمع رفرفة الأجنحة ثانيةً. في هذه المرة بدا كما لو أن هذا صوت اثنين من المخلوقات الطائرة. ظلَّ ريتشارد واقفًا في مكانه أكثر من ساعة، حتى بدأ الضباب ينقشِع. وسمع رفرفة أجنحة مُراقِبيه كثيرًا.

خطط لأن ينتظر حتى يسطع الضوء ثانيةً ثم يبدأ النزول إلى المياه. لكن عندما انقشع الضباب لم يعد الضوء، وبدأ ريتشارد يقلق بشأن الوقت. بدأ ينزل الجدار في الظلام. وسمع صوت مراقِبيه يطيرون بعيدًا، وكان الصوت صادرًا من فوق الخندق بنحو عشرة أمتار. بعد دقيقتَين بدأ الضوء يعود إلى المنطقة الداخلية من مسكن المخلوقات الطائرة.

لم يُضِع ريتشارد وقته. كانت خطته بسيطة. فاستنادًا إلى الضوضاء التي تُشبه صوت المراكب التي سمعها في الظلام، افترض ريتشارد أنَّ ما يحدث في الخندق ذو أهمية للمخلوقات الطائرة أو المخلوقات التي تحيا في الأسطوانة البُنية أيًّا كانت هويتها. وإلا ما الذي يدعوهم إلى المُضي قدمًا في هذا النشاط مع علمِهم بأنه قد يسمع الأصوات الصادرة عنه؟ إذا كانوا قد أجَّلوا القيام به ولو لسويعاتٍ كان سيرحل عن المنطقة السكنية بالتأكيد.

كان ريتشارد ينوي أن ينزل في الخندق. فقد فكَّر في نفسه قائلًا: إذا كانت المخلوقات الطائرة تشعر بأي خطرٍ فسيقومون بفعلٍ ما. وإن لم يفعلوا فسأبدأ رحلة الصعود وأستسلِم لقدري في عدن الجديدة.

قبل أن ينزل ريتشارد المياه خلع حذاءه وحشرَه بصعوبةٍ في حقيبته المصنوعة من مادةٍ مقاوِمةٍ للمياه. وكان ذلك حتى يحفظه من البلل لينفعه إذا ما قرر تسلق الجدار. بعد ثوانٍ، ما إن غمرته المياه، حتى طار اثنان من المخلوقات الطائرة باتجاهه منطلِقَين من المكان الذي كانا يختبِئان فيه في المنطقة الخضراء المقابلة للخندق مباشرة.

كانا شديدَي الاهتياج. فصرَخا وأصدرا أصواتًا غير مفهومة وبدا كأنهما سيُمزقان ريتشارد إرْبًا إرْبًا بمخالبهما. كان مبتهجًا جدًّا لنجاح خطته، حتى إنه تجاهل سلوكهما. حام المخلوقان الطائران فوقَه وحاولَا أن يسوقاه إلى الجدار. فوقف وبدأ يمضي في المياه وهو يتفحَّصهما عن قُرب.

كان هذان الطائران مُختلفَين قليلًا عن المخلوقات الطائرة التي قابلها هو ونيكول في مركبة راما الثانية. كان جسدهما مكسوًّا بالفراء كالآخرين غير أن فراءهما كان أرجوانيًّا. وكان لون الحلقة التي تُحيط بعنق كلٍّ منهما أسود. كما أن الطائرَين كانا أصغر حجمًا (وربما سنًّا أيضًا، هذا ما جال بخاطر ريتشارد) من السابقين، وكانا أكثر منها اهتياجًا بكثير. حتى إن أحد المخلوقَين لمس وجنةَ ريتشارد بمخلبِه عندما لم يُسرع بما يكفي نحو الجدار.

في النهاية تسلَّق ريتشارد الحائط خارجًا من المياه، لكن بدا أن هذا لم يُرضِ الطائرَين. وعلى الفور بدأ الطائران الضخمان يتبادلان الطيران إلى أعلى مُشيرَين إلى ريتشارد بأنهما يُريدانه أن يصعد الجدار. وعندما لم يتحرك زاد اهتياجُهما.

قال ريتشارد وهو يُشير إلى الأسطوانة البنية: «أريد أن أذهب معكما.» كلما كرَّر حركة يدَيه، صرخ المخلوقان الضخمان وأصدرا أصواتًا غير مفهومة وطارا إلى أعلى باتجاه الفتحة.

صار الطائران مُستاءَين وبدأ ريتشارد يخاف من أنهما قد يُهاجمانه. وفجأة جاءته فكرة رائعة. سأل نفسه والحماس يتملَّكه: لكن هل سأتذكَّر شفرة الدخول؟ لقد مرَّت سنوات عديدة.

عندما وضع يدَيه في الحقيبة طار الكائنان الطائران بعيدًا على الفور. فقال ريتشارد بصوتٍ مرتفع وهو يفتح الكمبيوتر المحمول المحبوب الخاص به: «هذا يُثبت أن الكائنات ذات الأرجل عبارة عن مُراقِبين إلكترونيين تابعِين لكم. وإلا كيف كان سيُمكنكما أن تعرفا أن البشَر قد يضعون أسلحة في حقائب كهذه؟»

ضغط خمسة أحرف على لوحة المفاتيح وابتسم ابتسامةً واسعة عندما ظهرت صورة على الشاشة. قال ريتشارد وهو يلوِّح للطائرَين اللذَين تراجعا إلى الجانب الآخر من الخندق: «تعالَيا. تعالَيا، لديَّ ما أريكما إيَّاه.»

رفع الشاشة وعرض عليهما الرسم المُعقد الذي استخدمه قبل سنواتٍ في مركبة راما الثانية ليُقنع المخلوقات الطائرة بأن تَحمِله هو ونيكول عبر البحر الأسطواني. كان رسمًا

رائعًا يُصوِّر ثلاثة مخلوقات طائرة تحمل بشرًا في حاملٍ عبر مُسطح مائي. اقترب الطائران الكبيران ببطء. فقال ريتشارد لنفسه والحماس يُسيطر عليه: هكذا. اقترِبا وألقِيا نظرةً مُمعنة.

٣

لم يعرف ريتشارد كم مرَّ عليه في الحجرة المعتمة. إذ فقد القدرة على متابعة الوقت منذ أن أخذت المخلوقات الطائرة حقيبتَه. صار روتينُه اليوميُّ ثابتًا. فهو ينام في زاوية الحجرة. ومتى استيقظ، سواء من نومٍ طويلٍ أو قصير، يدخل مخلوقان طائران حُجرته من الممرِّ ويُعطيانه بطيخة مَنٍّ يأكُلها. كان يعرف أنهما يدخلان من الباب المُغلق الواقع في نهاية الممر، ولكن كلما حاول أن ينام بالقُرب من الباب يَحرمانه من الطعام. فتعلَّم هذا الدرس السهل وكفَّ عن النوم هناك.

من حينٍ لآخر، كان زوجان مختلفان من الكائنات الطائرة يدخلان سجنه ويرفعان فَضلاته. صارت ملابسه نتنة، وكان يعرف أنه أصبح قذرًا قذارةً لا تُحتمَل، ولكنه لم يستطع أن يُفهِم من يأسِرونه أنه يُريد أن يستحِم.

في البداية، شعر بنشوة النصر. فعندما اقترب الكائنان الطائران الشابَّان بدرجةٍ تُمكِّنهما من مشاهدة الرسم، وقاما بأول محاولةٍ لأخذ جهاز الكمبيوتر الخاص به، قرَّر أن يُبرمج الكمبيوتر بحيث تستمر الصورة في الظهور إلى أجلٍ غير معلوم.

بعد أقلَّ من ساعة عاد أضخم مخلوقٍ طائر وقعت عليه عيناه مع المخلوقَين الطائرَين الشابَّين، وكان جسد الطائر الضخم مكسوًّا بفراء رمادي، ورقبته تُحيط بها ثلاث حلقات لامعة لونها كلَون الكرز. حمل الكائنات الثلاثة ريتشارد، وعبروا به الخندق ثم وضعوه قليلًا في منطقةٍ صحراوية، ثم رفعوه عاليًا في الهواء بعد أن هممهوا فيما بينهم فيما بدا لريتشارد أنه نقاش حول أفضل طريقةٍ لحملِه.

كانت رحلة رائعة. فرؤية ريتشارد للمنظر الطبيعي في المنطقة السكنية ذكَّرته برحلةٍ قام بها في بالون هواء ساخن في جنوب فرنسا. حملته المخلوقات الطائرة بمخالبها وطارت به طول الطريق إلى قمَّة الأسطوانة البُنية حتى صاروا تحت الكرة المُضيئة المُغطاة مباشرةً. هناك، قابلَهم ستة مخلوقات طائرة، أحدُهم مُمسك بكمبيوتر ريتشارد الذي كان لا يزال يُظهر الصور. بعد هذا اقتيدوا إلى ممرٍّ رأسي واسعٍ يؤدي إلى داخل الأسطوانة.

في الخمس عشرة ساعة الأولى أو نحوها كان ريتشارد يتنقِل بين مجموعاتٍ ضخمة مختلفة من المخلوقات الطائرة. فظنَّ أن مُضيفِيه يُعرِّفونه على جميع مواطني أرض المخلوقات الطائرة. افترض ريتشارد أن عدد الكائنات الطائرة التي حضرت أكثر من جلسةٍ من جلسات الأصوات القصيرة ليس كبيرًا، وبناءً على هذا قدَّر أن إجمالي عدد هؤلاء الكائنات يبلُغ نحو سبعمائة طائر.

بعد الجولة التي قام بها في قاعات مؤتمرات مملكة المخلوقات الطائرة، أُخِذ ريتشارد إلى حجرةٍ صغيرة ظلَّ يُراقِبه فيها على مدار أسبوع المخلوقُ الطائر ذو الحلقات الثلاث واثنان من رفاقه، كلٌّ منهما ضخم وله ثلاث حلقات حمراء حول رقبتِه أيضًا. في ذلك الوقت كان يُسمح لريتشارد بالحصول على جهاز الكمبيوتر الخاصِّ به وجميع محتويات حقيبته. لكن في نهاية مدة المُراقبة أخذوه بعيدًا عن متاعه وسجنوه.

في أحدِ الأيام، قال ريتشارد لنفسه بعد أن بدأ التمشية التي يقوم بها مرتَين يوميًّا والتي تُعَد أهم الأنشطة المنتظمة التي يقوم بها: لا بدَّ أن هذا حدث منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. يبلُغ طول الممر المؤدِّي إلى حُجرته نحو مائتي مترٍ. وهو عادةً ما يقوم بثمانين جولة كاملة فيه، تبدأ من الباب الموجود في نهايته وتنتهي عند الحائط الصخري الموجود خارج حجرته مباشرةً.

ثم أضاف بينَه وبين نفسه: وطوال هذه المدة كلها لم يزُرْني القادة زيارةً واحدة. إذن فمدة المراقبة كانت بمثابة محاكمةٍ لي، أو ما يوازي المُحاكمة بمفهوم المخلوقات الطائرة ... وهل وجدوا أنَّني مُذنب؟ أَلِهذا يَسجنونني في هذه الزنزانة القذرة؟

بدأ حذاء ريتشارد يتمزَّق وأصبحت ملابسه رثَّةً بالفعل. ومع هذا لم ينتَبْهُ أيُّ خوف من البرد؛ فقد كانت الحرارة دافئة (خمن أن درجة الحرارة تبلغ ستًّا وعشرين درجة مئوية في كل أنحاء مسكن المخلوقات الطائرة). لكن لأسباب كثيرة، لم يكن يحب أن يبقى عاريًا بعد أن تتمزَّق ملابسه. ابتسمَ لنفسه عندما تذكَّر حياءه أثناء مدة المراقبة. وقال في نفسه: أن تقضي حاجتك وثلاثة من الكائنات الطائرة العملاقة يُراقبون كل حركةٍ من حركاتك ليست بالتأكيد مهمة سهلة.

أصابه السأم من أكل بطيخِ المنِّ في كل وجبة، لكنه صبَّر نفسه بأن قال لها إنه على الأقل مُغذٍّ. وكان السائل الموجود في المنتصف مُنعشًا وطعم لبِّه الرطب لذيذًا. ومع هذا ظلَّ يتوق إلى أن يأكل شيئًا مختلفًا. وقال لنفسه أكثر من مرة: سأُرحِّب بأي تغييرٍ وإن كان التغيير هو الطعام الصناعي الذي كنَّا نحصل عليه في مركبة راما الثانية.

أما أكبر تَحدٍّ واجَهَه ريتشارد في عزلتِهِ فهو أن يُحافظ على توقُّد ذهنه. وبدأ مواجهة هذا بحلِّ مسائل رياضية في عقله. وبعد هذا، انتابَهُ القلق من أن حدة ذاكرته بدأت تضعف نسبيًّا بسبب عمره، ولهذا بدأ يُمضي الوقت في تذكُّر الأحداث التي وقعت في حياته والمراحل الرئيسية التي مرَّ بها وفقًا لترتيبها الزمني.

كان أشد ما يُثير اهتمامه في التمرينات التي يقوم بها لتنشيط ذاكرته هو الفجوات الضخمة التي تتخلل الأحداث التي وقعت في الرحلة التي قام بها في مركبة راما الثانية أثناء انتقال تلك المركبة من الأرض إلى النود. ومع أنه كان صعبًا على ريتشارد أن يتذكر الكثير من الأحداث التي وقعت في رحلته، فإن تناوُل بطيخ المنِّ كان دائمًا ما يُثير في ذهنه لقطات من إقامته الطويلة مع المخلوقات الطائرة أثناء تلك الرحلة.

فذات مرة، بعد تناول الوجبة، تذكَّر فجأةً احتفالًا كبيرًا شارك فيه عدد كبير من المخلوقات الطائرة. وتذكَّر وجود نار في هيكل له قبة، وبكاء المخلوقات الطائرة معًا بعد أن انطفأت النيران. فأصابت ريتشارد الحيرة. إذ لم يستطع أن يتذكَّر أي شيءٍ عن سياق هذه الذكرى. وتساءل في نفسه: أين حدث هذا؟ هل حدث قبل أن تأسرني كائنات الأوكتوسبايدر مباشرةً؟ لكن كالعادة، عندما حاول أن يتذكَّر شيئًا ما عمَّا مرَّ به مع كائنات الأوكتوسبايدر انتهى به الأمر إلى صداع أليم.

كان ريتشارد يفكر في رحلته السابقة مرةً أخرى وهو يقوم بالجولة الأخيرة من التمشية اليومية عندما مرَّ أسفل المصباح الوحيد في الممر. ونظر أمامه فرأى باب سجنه مفتوحًا. قال لنفسه: إذن فقد جُن جنوني. إنني أتخيَّل أشياء.

غير أن الباب ظلَّ مفتوحًا وهو يقترِب منه. تقدَّم ريتشارد ثم توقَّف ليلمس الباب المفتوح ليتأكَّد من أنه لم يفقد عقله. ثم سار عبرَه ومرَّ بمصباحَين آخَرين قبل أن يصِل إلى مخزنٍ مفتوح على يمينه. وجد فيه ثمانيَ أو تسعَ بطيخاتٍ مكدساتٍ بنظامٍ على الأرفف. قال ريتشارد لنفسه: آه، فهمت. لقد وسَّعوا سجني. من الآن سيُسمح لي بأن أجلب طعامي بنفسي. آه، لو وجدت حمَّامًا في مكانٍ ما ...

في مكانٍ بعيدٍ من الرواق، كانت هناك مياه جارية في غرفةٍ صغيرة إلى اليسار. شرب ريتشارد بنهم، وغسل وجهه، وأغرَتْه المياه بالاستحمام إغراءً شديدًا. غير أن فضوله كان أشد. إذ كان يُريد أن يعرف حدود مساحته الجديدة.

ينتهي الممرُّ الممتدُّ خارج زنزانته مباشرةً بتقاطعٍ عمودي. وكان أمام ريتشارد أن ينطلِق في أي الطريقَين. وورد في عقله احتمال أن تكون المخلوقات الطائرة قد قادته إلى

شيءٍ كالمتاهة لاختبار قُدراته العقلية، فأسقط قميصَه الخارجي عند التقاطُع ومضى إلى اليمين. كان هذا الاتجاه أشدَّ إضاءةً.

بعد أن سار نحو عشرين مترًا رأى اثنَين من المخلوقات الطائرة يقتربان منه من بعيد. بل إنه سمع أصواتهما غير الواضحة في البداية، إذ كانا مُنهمِكَين في نقاشٍ مُحتدم. وعندما صارا على بُعد خمسة أمتار فقط، توقَّف ريتشارد. فنظر إليه المخلوقان وحيَّياه بصرخة قصيرة لها نبرة مختلفة، ثم واصلا سيرهما في الممر.

بعد هذا قابل ثلاثة مخلوقات طائرة، وحدَث بينهم نفس السيناريو السابق. فتساءل ريتشارد في نفسه وهو يُواصِل السير: ما الذي يحدُث هنا؟ ألم أعد سجينًا؟

في أول غرفةٍ كبيرة يمرُّ بها كان هناك أربعة مخلوقات طائرة يجلسون في حلقة وهم ينقلون مجموعةً من العصيِّ اللامعة بينهم دون أن تنقطِع الأصوات غير الواضحة التي يُطلقونها. بعد هذا، وقف ريتشارد عند مدخل باب حجرةٍ أخرى تقع في المنطقة التي يتَّسِع بعدها الرواق متخذًا شكل حجرة اجتماعات كبيرة، وراقب بانبهارٍ اثنَين من الكائنات ذات الأرجل وهي تقوم بما يُشبه التمرينات الرياضية على طاولة مربعة. وكان هناك نحو ستة مخلوقات طائرة يتأمَّلونهم بانتباهٍ في صمت.

كان هناك عشرون من المخلوقات التي تُشبه الطيور في غرفة الاجتماعات. وكانوا جميعًا مُلتفِّين حول مائدة يُحدقون في وثيقة تُشبه الورق كانت منبسطةً أمامهم. وكان لأحد الطيور مؤشِّرٌ في مخلبه يستخدِمُه للإشارة إلى أشياء مُحددة في الوثيقة. كانت هناك كتابات غريبة على الورقة لم يفهم ريتشارد أيًّا منها، غير أنه أقنع نفسَه بأن المخلوقات الطائرة كانت تنظر في خريطة.

عندما حاول ريتشارد أن يقترِب من المنضدة ليحظى برؤيةٍ أفضل أفسحت له المخلوقات الطائرة التي كانت أمامه عن طيب خاطر. بل إن لغة جسد هؤلاء الكائنات حول الدائرة جعلت ريتشارد يظن أثناء المحادثة التي تلت أنَّ أحد الأسئلة كان موجهًا له. فقال لنفسه وهو يهزُّ رأسه: أنا في طريقي إلى الجنون.

قال ريتشارد لنفسه وهو يجلس في غرفته ويأكل بطيخ المَن: «ولكنني ما زلتُ لا أعرف لماذا منحوني كل هذه الحُرية.» مرَّت ستة أسابيع منذ أن وجد باب سجنه مفتوحًا. وأُجرِيت الكثير من التغييرات على زنزانته. فقد وضعوا في جدرانها مَصدرَين للضوء يُشبهان

المصابيح، وأصبح ريتشارد ينام على كومةٍ من مادةٍ تُشبه القش. بل إنهم وضعوا في زاوية غرفته إناءً به ماء عذب يُجددون مياهه باستمرار.

عندما فُكَّت القيود عن ريتشارد في البداية، كان متأكدًا من أن شيئًا مُهمًّا سيحدث بعد ساعات أو على أقصى تقديرٍ بعد يومٍ أو يومَين. وإلى حدٍّ ما كان مُصيبًا، فبعد التحرُّر بيومَين أيقظه اثنان من المخلوقات الفضائية الصغيرة من نومِه وبدآ تعليمه لغة المخلوقات الطائرة. بدآ بتعليمِه الأشياء البسيطة، كبطيخ المَنِّ والمياه وريتشارد، والطريقة التي اتَّبعاها لتحقيق هذا، تقوم على الإشارة إلى هذه الأشياء أولًا، ثُم الترديد البطيء لصَوتٍ من الواضح أنه الكلمة التي تُشير إليها في لُغتهما. بعد شيءٍ من الكدِّ تعلَّم ريتشارد الكثير من مفردات لُغتهم غير أن قُدرته على التفرقة بين الصيحات والأصوات المُتشابهة ليست كبيرة. وعندما طُلِب منه أن يُصدِر هذه الأصوات بنفسه كان أداؤه غيرَ مُبشِّر على الإطلاق. ويرجع ذلك إلى أن جسدَه لا يتمتع بالأجهزة التي تُمكنه من التحدُّث بلغة المخلوقات الطائرة.

توقع ريتشارد أن تُصبح رؤيته لخبايا هذا الوضع أكثر وضوحًا ولكن هذا لم يحدُث. من المؤكَّد أن المخلوقات الطائرة كانت تُحاول أن تُعلمه، وقد أعطَوه حرية التجوُّل في أي مكانٍ يُريد الذهاب إليه في أسطوانتهم — بل إنه أحيانًا ما كان يأكل معهم، وذلك عندما يكون بينهم وتظهر بطيخة منٍّ — ولكن لماذا كل هذا؟ الطريقة التي ينظرون بها إليه — وخاصة القادة — تُوحي إليه بأنهم ينتظرون منه ردَّ فعلٍ ما. سأل ريتشارد نفسه للمرة الألف بعد أن أنهى بطيخة المَنِّ التي يتناولها: لكن ما هو رد الفعل الذي ينتظرونه؟

على ما يبدو لريتشارد، ليس للمخلوقات الطائرة لغة مكتوبة. فهو لم يَرَ أي كتبٍ ولم يكتب أي منهم أيَّ شيء. والشيء المكتوب الوحيد الذي رآه هو الوثائق الغريبة التي تُشبه الخرائط التي كانوا أحيانًا يتدارَسونها — أو لنقل إن هذا هو تفسير ريتشارد لما يفعلونه — لكنهم لم يرسموا أيًّا منها قط ... بل لم يُعَلِّموا على أيٍّ منها. وكان هذا مُحيرًا.

وماذا عن الكائنات ذات الأرجل؟ كان ريتشارد يُقابل هذه المخلوقات مرتَين أو ثلاثَ مراتٍ أسبوعيًّا، وذات مرةٍ أمضى اثنان منهم عدة ساعات في حجرته، ولكنهما لم يجلسا ساكنَين قطُّ بحيث يُمكِّنانه من تحليل أيٍّ منهما. وذات مرة عندما حاول ريتشارد أن يُمسك واحدًا من الكائنات ذات الأرجل بيدَيه، سرى في جسده تيار قوي — هو تيار كهربائي بالتأكيد — أجبرَه على أن يتركه على الفور.

قفز عقل ريتشارد من صورة إلى أخرى، محاولًا أن يكتشف المنطق الكامن خلف ملامح الحياة التي يحياها في أرض المخلوقات الطائرة. لكنه فشل فشلًا ذريعًا. ومع هذا لم

يقبل ولو لحظة فكرة عدم وجود خطةٍ وراء أسرِه ثم إعطائه مساحة مُتزايدة من الحرية. فظلَّ يبحث عن إجابة عن طريق مراجعة كل التجارب التي مرَّ بها في هذه المنطقة.

منطقة رئيسية واحدة فقط من مسكن المخلوقات الطائرة كان محظورًا على ريتشارد دخولها، وعلى الأرجح لم يكن ليستطيع أن يصِل إليها على أي حالٍ لأنه لا يستطيع الطيران. من حينٍ إلى آخر، كان يرى مخلوقًا طائرًا أو اثنَين ينزل في الممرِّ الرأسي الكبير ويصِل إلى مستوياتٍ أدنى من المستويات التي يعرفها. بل إن ريتشارد رأى ذات مرةٍ اثنَين من مخلوقاتٍ حديثة الولادة لا يزيد حجمُها عن حجم قبضة يدٍ بشرية، تُحمَل من المناطق المُظلمة في الأسفل إلى أعلى. في مرةٍ أخرى أشار ريتشارد إلى المنطقة السُّفلى المُدثَّرة بالظلام فهزَّ المخلوق الطائر المُصاحِب له رأسه نفيًا. معظم المخلوقات تعلمت حركات الرأس البسيطة التي تعني نعم ولا بلغة ريتشارد.

قال ريتشارد لنفسه: لكن لا بد من وجود مزيدٍ من المعلومات في مكانٍ ما. لا بد أن بعض مفاتيح حلِّ اللغز تفوتني. عزم ريتشارد على أن يقوم بمسحٍ شامل للمنطقة التي تحيا فيها المخلوقات الطائرة كاملةً، وفيها الحجرات ذات الكثافة العالية التي تقع في الجهة المُقابِلة للممرِّ الرأسي، والتي كان عادةً ما يشعر أن وجوده فيها غير مرغوب فيه، وكذلك مخازن بطيخ المنِّ الضخمة الموجودة في مستوى القاع. قال لنفسه: سأرسُم خريطةً دقيقة لأتأكد من أنني لم أُهمل شيئًا مُهمًّا.

ما إن أتمَّ ريتشارد الرسم الثُّلاثيَّ الأبعاد لمسكن المخلوقات الطائرة حتى عرف ما كان يَغفُل عنه. إنه غفل عن ترتيب ممرات الأسطوانة التي لا تسير على نمَط مُنظَّم — بما فيها الممرات الأفقية والرأسية التي تُستخدَم للمشي والطيران — في صورة شاملة مُتناسقة. قال لنفسه وهو يجعل الخريطة المُعقدة تظهر على شاشة الكمبيوتر بحيث يراها من أكثر من زاوية مختلفة: بالطبع. كيف كنتُ بهذا الغباء؟ إنني ما زلتُ لا أعرف شيئًا عن أكثر من سبعين بالمائة من الأسطوانة.

قرَّر ريتشارد أن يأخذ صور الكمبيوتر إلى أحد قادة المخلوقات الطائرة، ويطلُب منه بطريقةٍ ما أن يرى باقي الأسطوانة. ولم تكن هذه المهمة سهلة. فقد كانت أزمةٌ ما تُزعج المخلوقات الطائرة في ذلك اليوم، إذ كانت الممرات تضجُّ بالأصوات والصرخات والمخلوقات الطائرة تندفع جيئةً وذهابًا. كما أن ريتشارد رأى ثلاثين أو أربعين من أضخم المخلوقات الطائرة تطير في الممرِّ الرأسي الكبير إلى أعلى مُتجهةً خارج الأسطوانة في تشكيلٍ منظم.

في النهاية نجح ريتشارد في جذب انتباه أحد العمالقة ذوي الحلقات الثلاث. وأبهره بالرسم المُفصل الذي رآه على شاشة الكمبيوتر، وكذلك بالرسومات الهندسية المختلفة لموطنه. غير أن ريتشارد لم يستطع أن يُوصِّل للطائر رسالته الأساسية التي فحواها أنه يريد أن يرى ما تبقى من الأسطوانة.

استدعى القائد بعض زملائه ليُشاهدوا الرسم. وقُوبل ريتشارد بأصواتٍ تنمُّ عن التقدير. لكنهم طلبوا منه الانصراف بعدما قاطع طائرٌ آخَر اجتماعهم بشيءٍ لا بد أنه كان أخبارًا مهمة عن الأزمة الحالية التي يمرُّون بها.

عاد ريتشارد إلى زنزانته. وكان خائبَ الأمل. فاستلقى على الفراش المصنوع من القش، وأخذ يُفكر في الأسرة التي تركها وراءه في عدن الجديدة. قال لنفسه: «ربما حان وقت الرحيل»، وأخذ يتساءل عن البروتوكول المُتَّبع في أرض المخلوقات الطائرة للحصول على إذن بالرحيل. وبينما هو راقد، دخل عليه زائر الحجرة.

لم يكن ريتشارد قد رأى هذا المخلوق الطائر من قبل. كانت له أربع حلقات ذات لون أزرق مائل إلى الاخضرار حول رقبتِه وكان لون فرائه أسود غامقًا وبه خصلاتٌ بيضاء. كانت عيناه لامعتَين إلى حدٍّ مُدهش وتعكسان حُزنًا عميقًا، أو هكذا ظنَّ ريتشارد. انتظر الطائر حتى وقف ريتشارد ثم بدأ يتحدَّث ببطءٍ شديد. فهِم ريتشارد بعض الكلمات، أهم ما فيها مجموعة الأصوات التي تكررت كثيرًا والتي تعني «اتبعني».

كان هناك ثلاثة مخلوقات طائرة أخرى تقف خارج زنزانته في احترام. وساروا خلف ريتشارد والزائر المُهم. غادرت المجموعة المنطقة التي تقع فيها الزنزانة، وعبرت الجسر الوحيد الذي يمتدُّ فوق الممر الرأسي الضخم، ثم دخلت المنطقة التي تُخزَّن فيها بطيخات المَن.

في نهاية أحد مخازن بطيخات المنِّ كانت تُوجَد فجوات في الجدار لم يُلاحظها ريتشارد عندما قام بالمسح. عندما صار ريتشارد والكائنات الطائرة على مقربةٍ نحو بضعة أمتار من الفجوات تحرك الجدار كاشفًا عما بدا أنه مصعد ضخم. وأشار القائد الأعلى إلى ريتشارد بأن يدخل.

ما إن صار بداخله حتى ألقت الكائنات الطائرة الأربعة التحية واصطفُّوا على شكل دائرة ليُودِّعوهما باستدارةٍ وانحناءة. حاول ريتشارد بأقصى ما يستطيع أن يُحاكي ما قالوه ليُودِّعوه ثم انحنى هو الآخر وعاد إلى المصعد. وأُغلق الجدار بعد ثوان.

٤

كانت الرحلة التي قام بها بالمصعد بطيئةً بطئًا مُزعجًا. للمصعد كابينةٌ ضخمة تتخذ أرضيتها شكلَ مربعٍ يبلغ طول ضلعه تقريبًا عشرين مترًا، ويرتفع سقفها عن رأس ريتشارد مسافة ما بين ثمانية إلى عشرة أمتار. وأرض الكابينة كانت مستويةً بالكامل إلا أن بها زوجَين من الفجوات المتوازية يقع كلٌّ منهما على جانبٍ من جانبَي ريتشارد ويمتدَّان من الباب حتى نهاية المصعد. حدَّث ريتشارد نفسَه وهو يُنعم النظر في السقف الذي يبعد عنه كثيرًا قائلًا: بالتأكيد يُمكنهم نقل حمولات ضخمة في هذا المصعد.

حاول ريتشارد أن يحسب سرعة نزول المصعد لكن هذا كان مُستحيلًا. إذ لم يكن لدَيه أي إطار مرجعي. لكن وفقًا للخريطة التي رسمها للأسطوانة، ترتفع مخازن بطيخ المنِّ عن القاعدة بنحو ألفٍ ومائة مترٍ. لذا قال في نفسه: لذا إذا كنَّا سنهبط إلى القاع بسرعة مصعدٍ عاديٍّ على الأرض فستستغرق تلك الرحلة عدة دقائق.

كانت هذه أطول ثلاث دقائق عاشها ريتشارد. إذ لم تكن لدَيه أي فكرة عما سيجده عندما ينفتح باب المصعد. وفجأة خطر ببالِه ما يلي: ربما أجد نفسي في الخارج. وربما أجد نفسي على حدود المنطقة التي بها بنايات بيضاء ... هل من الممكن أن يكونوا في سبيلهم لإعادتي إلى مسكني؟

كان قد بدأ لتوِّه يتساءل كيف تغيَّرَت الحياة في عدن الجديدة عندما توقَّف المصعد. انفتح الباب الضخم، ولثوانٍ ظلَّ ريتشارد واثقًا من أن قلبَه قد انخلع. فقد كان يقف أمامه مباشرةً مخلوقان أغرب بكثيرٍ من أي شيءٍ خطر على قلبه، وكانا يُحدقان فيه أشد تحديق.

لم يستطع أن يحرك ساكنًا. فقد كان ما يراه لا يُصَدَّق إلى حدٍّ جعل جسده يُصاب بالشلل عندما كان عقلُه يكافح محاولًا أن يفهم المعلومات التي يستقبلها من حواسِّه. كان لكلٍّ من المخلوقَين اللذَين يقفان أمامه أربعة أعين في «رأسه». هذا بالإضافة إلى عينَين أخرَيَين ملتصقتَين بأطرافٍ ترتفع فوق مقدمة الرأس مسافة ما بين عشرة سنتيمترات إلى اثني عشر سنتيمترًا، إضافةً إلى بيضتَين لبنيتَين كبيرتَين تقعان على جانبَي خطٍّ تَماثلٍ غير مرئي يقسم الرأس نصفَين. أما جسد هذَين المخلوقَين، فيقع خلف رأسيهما الضخمَين وينقسم إلى ثلاثة أجزاء، لكلِّ جزءٍ منهما رجلان، مما يجعل مجموع أرجُل كلٍّ منهما ستة. كان المخلوقان الفضائيان يقفان مُنتصبَين على رجلَيهما الخلفيتَين وأرجلهما الأمامية الأربعة مثنية وملتصقة ببطنيهما الناعمَين اللذين يغلب عليهما اللون الأصفر الشاحب.

سارا نحو ريتشارد في المصعد فتراجع فزعًا. فالتفت كلٌّ منهما إلى الآخر وتحدَّثا بأصوات ذات تردُّد عالٍ صدرت من تجويفٍ دائري صغير يقع أسفل عيونهما البيضاوية. لم يعُد ريتشارد يرى أمامه، وأصابه دوار فجثا على إحدى ركبتَيه ليسند نفسه. وكان قلبه لا يزال يدق بعنف.

غيَّر الفضائيان الوضع الذي يقفان فيه، فوضعا أرجلهما الوسطى على الأرض. فأصبحا يُشبهان النمل العملاق إذا وقف وقدماه الأماميتان مرفوعتان من على الأرض ورأسه مرتفع إلى أعلى. وطوال الوقت كانت الدوائر السوداء الموجودة في نهاية سِيقان الأعيُن تدور ناظرةً إلى كل ما يقع في مُحيط ثلاثمائةٍ وستِّين درجة وظلت المادة اللبنية الموجودة في العيون البيضاوية ذات اللون البُني الداكن تتحرك من جانبٍ إلى آخر.

جلسا بلا حراك تقريبًا عدة دقائق، وكأنهما يُشجعان ريتشارد على تأمُّلهما. ومن جانبه، حاول أن يتغلَّب على خوفه ويدرسهما بطريقةٍ علمية موضوعية. كان هذان المخلوقان في ضخامة الكلاب المتوسطة الحجم، ولكن من المؤكد أنهما أقل وزنًا منها. إذ كان جسداهما رفيعَين ومتناسقَين إلى حدٍّ ما. والأجزاء الأمامية والخلفية من جسديهما كانت أكبر من الجزء المتوسط، وجميعها مُغطاة بقشرة لامعة مصنوعة من مادة صلبة.

كان ريتشارد سيُصنِّفهما ضمن الحشرات الضخمة لولا أن لهما أطرافًا غريبة سميكة، بل ربما تكون هذه الأطراف ذات عضلات، وهي مُغطَّاة بشعرٍ قصير كثيف للغاية مقلم باللونين الأبيض والأسود جعلهما يَبدوان وكأنهما يرتديان كولونًا. أما أيديهما، إن كانت هذه التسمية صحيحة، فلا يُغطيها الشعر، ولكل منها أربعة أصابع من بينهم إصبع كالإبهام في مقدمة الزوج الأمامي.

استجمع ريتشارد ما يلزم من الشجاعة لينظر إلى رأسيهما الغريبَين مرةً أخرى، وعندها صدر صوتٌ حادٌّ كصوت صفارة الإنذار من خلف الفضائيين. فاستدارا. ووقف ريتشارد فرأى مخلوقًا ثالثًا يقترب نحوَهُم بسرعة كبيرة. إن مشاهدة حركته تُثير الانبهار. إذ كان يجري كقطٍّ له ستُّ أرجل تمتدُّ بموازاة الأرض، ويدفع جسده بزوجَين مُختلفَين من هذه الأرجُل كلما انتقل من خطوة إلى أخرى.

انهمكت المخلوقات الثلاثة في حوارٍ قصير ثم رفع الوافد الجديد رأسه ورجليه الأماميتين وأشار إلى ريتشارد إشارةً واضحة بأن يُغادر المصعد. فخرج منه سائرًا خلف المخلوقات الثلاثة حتى دخل غرفةً كبيرة جدًّا.

كانت هذه الغرفة مَخزنَ بطيخِ مَنٍّ ولكنها أيضًا لم تكن تُشبه المخزن الذي يقع في المنطقة التي تحيا فيها المخلوقات الطائرة في شيءٍ سوى احتوائها على البطيخ. فقد

كانت المعدات ذات التكنولوجيا العالية والأجهزة التي تعمل أوتوماتيكيًّا حول ريتشارد في كل مكان. وكان هناك مرفاع أوتوماتيكي يتحرَّك على قضبان وهو مُعلق في السقف فوقه بعشرة أمتار. وكان الونش يُمسك ببطيخةٍ واحدة ويضعها في شاحنة واقفة في حفرة في نهاية الغرفة. وبينما كان ريتشارد ومُضيفوه يُراقبون ما يحدث سارت شاحنة في الحفرة حتى وصلت إلى داخل المصعد وتوقفت.

وثبت المخلوقات في أحد ممرَّات الغرفة وأسرع ريتشارد حتى يتمكن من اتِّباعهم. انتظروه عند الباب ثم انطلقوا جهة اليسار وهم ينظرون خلفَهم ليروا إن كان لا يزال في مرمى بصرهم. ظل ريتشارد يعدو خلفهم دقيقتَين حتى وصلوا إلى قاعة مفتوحة واسعة ترتفع عدة أمتار وفي وسطها وسيلة انتقال.

تُشبه وسيلةُ الانتقال السُّلَّم الكهربائي قليلًا. في الواقع لم تكن هناك وسيلة انتقال واحدة، وإنما كانت هناك وسيلتان، واحدة تصعد إلى أعلى والأخرى إلى أسفل، وكانتا تلتفَّان حول عمودَين سميكَين يقعان في مركز القاعة. يتحرك السُّلَّمان بسرعةٍ كبيرة بزاوية حادة بعض الشيء. وتبلُغ المسافة التي تقع بين طابقٍ وآخر نحو خمسة أمتار، وعندما يقطعها الركاب، يسيرون مترًا حتى السُّلَّم الدوار المُلتف حول العمود الآخر. كان هناك شيءٌ يُشبه السور على جانب السُّلَّم، وهو حاجز يبلغ ارتفاعه ثلاثين سنتيمترًا فقط. كانت المخلوقات الفضائية تركب السلم وهي منتصبة وأرجلها الستة مرتكزة عليه. أما ريتشارد فقد وقف في البداية ولكنه سرعان ما استند على أطرافه الأربعة ليحمي نفسه من الوقوع.

أثناء رحلة ريتشارد على السُّلم، مرَّ به نحو اثني عشر فضائيًّا يركبون السُّلم المُتجه إلى أسفل، وحدَّقوا فيه بوجوههم التي تكسوها الدهشة. تساءل ريتشارد في نفسه: لكن كيف يأكلون؟ فقد لاحظ أن الفتحة الدائرية التي يستخدمونها للتواصُل ليست بالتأكيد كبيرةً بما يكفي لاستيعاب الكثير من الطعام. ولم تكن هناك أي تجاويف أخرى في رءوسهم لكن كانت هناك بثور وتجاعيد صغيرة لا يعرف وظيفتها.

كانت المخلوقات الفضائية الثلاثة تذهب بريتشارد إلى الطابق الثامن أو التاسع. وهناك انتظرته حتى وصل إلى الرصيف المُحدَّد. اتبعهم ريتشارد إلى مبنًى سداسي الشكل بمُقدمته علامات حمراء لامعة. قال لنفسه وهو يُحدق في الخطوط الغريبة: «هذا مُحير. لقد رأيت هذه الكتابة من قبل ... آه، بالطبع رأيتها على الخريطة أو لِنَقُل الوثيقة التي كانت المخلوقات الطائرة تقرأها.

وُضِع ريتشارد في غرفة جيدة الإضاءة مُزينة بأشكالٍ هندسية بيضاء وسوداء على نحوٍ ينم عن ذوق رفيع. كانت تُوجَد حوله أشياء من كل الأشكال والأحجام لكنه لم تكن

لدَيه أي فكرة عن ماهية أي منها. استخدم الفضائيون لغة الإشارة ليُعْلِموا ريتشارد بأن هذا هو المكان الذي سيمكث فيه. ثم رحلوا. تفحَّص ريتشارد المُنهك الأثاث محاولًا أن يستنتِج أين السرير لكنه في النهاية تمدَّد على الأرض لينام.

«قطنمل. هذا هو الاسم الذي سأُطلقه عليهم.» نام ريتشارد أربع ساعاتٍ ثم استيقظ دون أن يتوقَّف عقلُه لحظة واحدة عن التفكير في المخلوقات الفضائية. كان يُريد أن يُطلِق عليهم اسمًا مناسبًا. لكنه لم يجد في ذاكرته اسمًا يصفهم وصفًا صادقًا. فنحت كلمة «قطنمل» وأطلقها عليهم لأنهم يحملون شبهًا بالقطط والنمل.

كانت غرفة ريتشارد مضاءة جيدًا. في واقع الأمر، إن كل مكان وقعت عليه عينُه في مسكن القطنمل كان مضاءً إضاءةً جيدةً، وهذا يتناقَض تناقضًا صارخًا مع الممرَّات المُظلمة ظلمة المقابر الموجودة في الأجزاء العُليا من الأسطوانة البُنية. قال ريتشارد لنفسه: لم أرَ أيًّا من المخلوقات الطائرة منذ أن ركِبت المصعد. إذن يبدو أن هذَين الجنسَين لا يعيشان معًا. على الأقل لا يعيشان معًا طوال الوقت. ولكنهما يَستخدمان بطيخ المنِّ ... ترى ما العلاقة بينهما؟

وثب اثنان من القطنمل في المدخل ووضعا بطيخةً مُقطعة بمهارة وكوبًا من الماء أمامه ثم اختفيا. كان ريتشارد جوعانَ وعطشانَ. وبعد أن أنهى إفطاره بعدة ثوان، عاد المخلوقان. واستخدما أطرافهما الأمامية ليُشيرا إليه بأن يقف. أنعم ريتشارد النظر فيهما. وتساءل: هل هذان هما نفس المخلوقَين اللذَين أتيا بالأمس؟ وهل هما نفس الاثنين اللذين أحضرا البطيخ والمياه؟ فكَّر في كل القطنمل الذي رآه وفيهم من مرُّوا وهو على السُّلم. لكنه لم يتذكَّر أيَّ علامةٍ مميزة في أيٍّ منهم أو أي علامة تساعد على التعرُّف عليهم. فقال لنفسه: إذن فلا فرق بينهم؟ كيف إذن يُفرقون بين بعضهم البعض؟

قادَه زوج القطنمل إلى الممرِّ ثم اندفعا إلى اليمين. قال ريتشارد لنفسه وقد بدأ يعدو بعد أن أمضى بضعَ ثوانٍ يتأمَّل جمال مشيتهما: هذا رائع. لا بدَّ أنهما يعتقِدان أن كل البشر أبطال رياضيون. توقف أحدُ الكائنَين أمامه بنحو أربعين مترًا. ولم يستدِرْ ولكن ريتشارد علِم أنه يُراقبه لأن عينَيه المحمولتَين فوق طرفَين انحنتا إلى الوراء باتجاهه. فصاح: «أنا قادم. ولكنني لا أستطيع أن أعدو بهذه السرعة.»

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أدرك ريتشارد أن المخلوقَين الفضائيَّين يأخذانه في جولة في مسكنهم. وقد خطَّطا لهذه الجولة تخطيطًا منطقيًّا للغاية. فكان أول مكانٍ وقفوا فيه هو مخزن بطيخ المن، ولم يُمضوا هناك سوى دقائق. وهناك رأى ريتشارد شاحنتَين مملوءتَين

بالبطيخ تنزلِقان في الحفر إلى أن دخلتا مصعدًا مُشابهًا (أو مُطابقًا) للمصعد الذي نزل فيه بالأمس.

جرى ريتشارد جريًا وئيدًا مدة خمس دقائق أُخرى ثم دخل إلى منطقةٍ مختلفة تمامًا من بيت القطنمل. ففي حين كانت جدران المنطقة الأخرى، فيما عدا حجرته، ذات لون رمادي أو أبيض معدني، كانت جدران هذه الحجرات والممرات مُزينة زينةً صارخة إما بالألوان أو الأشكال الهندسية أو كليهما. كانت إحدى الحجرات الكبيرة تقريبًا في حجم مسرح وكان بأرضها ثلاثة أحواض بها سوائل. كان بهذه الغرفة نحو مائة من القطنمل نصفهم يسبحون في الأحواض (دون أن يظهر فوق المياه سوى أعيُنِهم والنصف العلوي من دروعهم)، والنصف الآخر إما يجلس على الحواف التي تفصل بين الأحواض الثلاثة أو يتجول في المبنى الغريب الواقع على الجانب البعيد من الغرفة.

ولكن هل هم يَسبحون فعلًا؟ عندما نظر ريتشارد إلى هذه المخلوقات عن قُرب وجد أنها لا تتحرك في الحوض وإنما تنزل في بقعةٍ مُحددة من المياه وتبقى تحتها عدة دقائق. كان السائل في اثنين من الأحواض كثيفًا، فقوامه في مثل كثافة قوام حساءٍ دسِم على كوكب الأرض، أما سائل الحوض الثالث الشفَّاف فهو بالتأكيد مياه. تبع ريتشارد أحد القطنمل وهو ينتقل من حوضٍ ذي سائلٍ كثيف إلى المياه ثم إلى الحوض الآخر ذي السائل الكثيف. تساءل ريتشارد في نفسه: ماذا يفعلون؟ ولماذا أحضروني إلى هنا؟

وكأنما قرأ أحد القطنمل أفكارَه فنقر على ظهره نقرةً خفيفةً. وأشار إلى ريتشارد ثم إلى الأحواض ثم إلى فمِ ريتشارد. غير أنَّه لم يفهم ما يُريد القطنمل أن يُخبره به. بعد هذا سار القطنمل القائد في المنحدَر متجهًا إلى الأحواض وألقى نفسه في أحد الأحواض ذات السائل السميك. وعندما عاد وقف على أطرافه الخلفية وأشار إلى التجاويف الموجودة بين أجزاء بطنِه الناعمة ذات اللون الأصفر الشاحب.

كان من الواضح أن القطنمل يُهِمُّهم أن يفهم ريتشارد ما يحدث في الأحواض. في المحطة التالية شاهد ريتشارد مزيجًا من القطنمل والآلاتٍ ذات التكنولوجيا العالية يطحنون مادة ليفية ثم يخلطونها بالمياه وبسوائل أخرى ليصنعوا قليلًا من خليطٍ يُشبه الخليط الموجود في أحد الأحواض. وفي النهاية وضع أحد الفضائيين إصبعه في الخليط ثم وضعه على فم ريتشارد. فحدَّث ريتشارد نفسه قائلًا: لا بدَّ أنهم يريدون أن يُخبروني بأن الأحواض تُستخدَم في التغذية. إذن فهم لا يأكلون بطيخ المن. أو أن لهم على الأقل أغذيةً أكثر تنوُّعًا. هذا مُبهر للغاية.

سرعان ما انطلقا يَعدُوان من جديدٍ متجهَين إلى ركنٍ بعيد من الموطن. وهناك، رأى ريتشارد ثلاثين أو أربعين مخلوقًا أصغر — من الواضح أنها قطنمل صغير — كانت مُنهمكة في نشاطٍ ما يُشرف عليه قطنمل بالغ. كان القطنمل الصغير يُشبه الكبير في كلِّ شيءٍ إلا شيئًا واحدًا مهمًّا فقط، وهو أنهم لم تكن لهم دروع. فاستنتج ريتشارد أن هذه الأغطية الصلبة لا تظهر إلا عندما يكتمِل نمو القطنمل. خمن ريتشارد أن ما يحدث أمامه يُشبه المدرسة أو ربما الحضانة، لكنه لم تكن أمامه بالطبع طريقةٌ يتأكد بها. لكن في لحظةٍ ما، كان متأكدًا من أنه سمع الصغار يُردِّدون معًا مجموعةً من الأصوات كان قطنمل كبير قد أصدرها.

بعد هذا، ركب ريتشارد المصعد مع القطنملَين اللذين يقودانه في الجولة. وفي الطابق العشرين تقريبًا، غادر المخلوقان المصعد والردهة المكشوفة منطلقَين بسرعة في الممر الذي ينتهي بمصنعٍ كبير مليء بقطنمل وماكينات، منهمكِين في القيام بمجموعةٍ مبهرة من المهام. كان المشرفان على الجولة دائمًا ما يبدوان على عجلةٍ من أمرهما، لذا كان صعبًا على ريتشارد أن يدرس أي عمليةٍ محددة. لكنه رأى أن المصنع يُشبه ورشةً ميكانيكية على الأرض. وكان يضجُّ بضوضاء من كل نوع، وطنينٍ يصدُر عند تواصل القطنمل فيما بينهم، وكان معبأً بروائح مواد كيميائية ومعادن. وفي أحد المواقع، رأى ريتشارد اثنين من القطنمل يُصلِحان مرفاعًا يُشبه المرفاع الذي رآه يعمل في مخزن المنِّ بالأمس.

في إحدى زوايا المصنع كانت تُوجَد منطقة خاصة معزولة. ومع أن المرشِدَين لم يقودا ريتشارد في اتجاهها فإنها أثارت فضوله. ولم يوقفه أحد عندما تخطى عتبتها. داخل هذه الغرفة الكبيرة كان هناك عامل يُدير عملية تصنيع أوتوماتيكية.

كانت تدخل أجزاء طويلة رفيعة مصنوعة من البلاستيك أو المعدن الخفيف وتربطها مفاصل إلى الغرفة على سَيرٍ نقَّال من أحد الاتجاهات. وتدخل كرات صغيرة قُطرها نحو سنتيمترين من الغرفة المجاورة على سَيرٍ نقَّال آخر. وفي المكان الذي يلتحم فيه السيران كانت تنزل على هذه الأجزاء ماكينة مُستطيلة ضخمة مُثبَّتة في قاعدةٍ معلقة في السقف المُرتفع محدثةً صوتًا غريبًا يُشبه صوت الامتصاص. بعد ثلاثين ثانية كان مُشغل القطنمل يجعل الماكينة تبتعِد فيقفز اثنان من ذوات الأرجل من على السير النقَّال ويثنيان أرجُلَهما الطويلة حول جسديهما ويقفزان في مكانهما في صندوق يبدو ككرتونةٍ عملاقة من الكراتين التي يُوضَع فيها البيض.

شاهد ريتشارد هذه العملية تتكرَّر أكثر من مرة. وغمره انبهار شديد. وانتابه قليل من الحيرة. وقال لنفسه: إذن فالقطنمل يصنعون ذوي الأرجل. والخرائط أيضًا. بل ربما

صنعوا أيضًا سفينة الفضاء في المكان الذي جاءوا منه هم والمخلوقات الطائرة. ما هذا إذن؟ شكل مُتطور من أشكال التكافل؟

هزَّ ريتشارد رأسه عاجزًا عن التصديق بينما كانت عملية تجميع ذوي الأرجل مستمرةً أمامه. بعد هذا بدقائق سمع ريتشارد صوتَ قطنمل من خلفه. فالتفت. فإذا بأحد مُرشِديه يمدُّ شريحةَ بطيخ مَنٍّ تجاهه.

بدأ التعب يُصيب ريتشارد. ولم يكن يعرف كم مرَّ عليه في هذه الجولة ولكنه شعر أن ساعاتٍ طويلةً جدًّا قد انقضت.

لم تكن هناك طريقة يستوعِب من خلالها ريتشارد الصورة الكاملة لما رآه. وبعد أن صعد إلى أعلى جزءٍ من المنطقة التي يحيا فيها القطنمل عن طريق المصعد الصغير، حيث فُوجئ بأن القطنمل يأخذونه إلى زيارةِ مستشفى المخلوقات الطائرة، وأن مَن يعمل في هذا المستشفى ويُديره هم القطنمل، وأن المخلوقات الطائرة تفقس من بيضٍ جِلديٍّ بُنِّي تحت رعاية أطباء من القطنمل، وصل إلى قناعة بأن هناك بالفعل علاقة تكافل مُعقدة بين القطنمل والمخلوقات الطائرة. وعندما سمح له مرشدُه بأن يأخذ قسطًا بسيطًا من الراحة قُرب قمة السُّلَّم الكهربائي أخذ يتساءل: لكن لماذا؟ من الواضح أن المخلوقات الطائرة تستفيد من القطنمل. ولكن ما الذي يحصل عليه هذا القطنمل العملاق في المقابل؟

قاده المُرشدان في ممرٍّ واسع واتَّجها نحو بابٍ ضخم يبعد عنهم عدة مئات من الأمتار. وعلى غير العادة، لم يَجرِيا. وعندما اقتربا من الباب، دخل ثلاثة قطنمل آخرون الممر قادِمين من ممراتٍ جانبية صغيرة، وبدأت المخلوقات تتحدَّث معًا بأصواتهم ذات التردُّد العالي. في لحظة، صمتوا جميعًا وظنَّ ريتشارد أنهم سيتشاجرون. كان ريتشارد قد أنعم النظر فيهم جميعًا وهم يتحدثون، وخاصةً في وجوههم. ووجد أن كلَّ أجزاء جسدهم متطابقة بما في ذلك التجاعيد المُحيطة بالفجوات التي تصدُر منها الأصوات وعيونهم البيضاوية. ولم يلحظ أي طريقةٍ يمكن من خلالها التمييز بين قطنمل وآخر.

في النهاية بدأت المجموعة كلها تمشي مرةً أخرى باتجاه الباب. لم ينجح ريتشارد في تقدير حجمِه الحقيقي من على بُعد. لكن وهو يقترب منه أصبح بوسعه أن يرى أن ارتفاعه يبلغ ما بين اثني عشر مترًا إلى خمسة عشر، وأن عرضه يبلُغ أكثر من ثلاثة أمتار. كان سطحه مُزينًا برسوماتٍ معقدة ورائعة، في مركزها رسم مُربع مُقسم إلى أربعة أجزاء، في الربع العلوي الأيسر منه مخلوق طائر يطير، وأسفل منه قطنمل يجري، وفي أعلى اليمين بطيخة منٍّ، وأسفل منها شيءٌ يُشبه حلوى غزل البنات مُتناثر عليها كُتَل سميكة متجمعة.

توقف ريتشارد ليتأمَّل هذه اللوحة. فراوده إحساس غريب بأنه رأى هذا الباب أو على الأقل هذا التصميم من قبل، لكنه قال لنفسه إن هذا مُستحيل. غير أنه عندما مرَّر أصابعه على رسم القطنمل استيقظت ذاكرته فجأة. وقال لنفسه بإثارةٍ بالغة: نعم بالطبع. رأيتُه خلف مسكن المخلوقات الطائرة في مركبة راما الثانية. في المكان الذي كانت فيه النيران.

بعد دقائق انفتح الباب وأدخلوا ريتشارد في شيءٍ يُشبه كاتدرائيةٍ ضخمة مبنية تحت الأرض. يبلُغ ارتفاع الغرفة التي وجد نفسه فيها أكثر من خمسين مترًا. وتتَّخِذ أرضيتُها شكل دائرة قُطرها نحو ثلاثين مترًا وتُحيط بحافتها ستة أماكن للصلاة منفصلة عن بعضها. كانت الجدران رائعة. وتقريبًا كل بوصةٍ مربعة من الغرفة كانت تحتوي على صورةٍ مجسمة أو لوحة جدارية صُنعت بدقةٍ مُتناهية واهتمامٍ بالِغٍ بالتفاصيل. كان جمالها مُبهرًا.

هناك منصة مرتفعة في وسط الكاتدرائية يقف عليها أحد القطنمل ويتحدَّث. وأسفل منه كان يجلس عشرات آخرون على أطرافهم الخلفية الأربعة وينظرون إليه ويستمعون وكأن على رءوسهم الطير.

بينما كان ريتشارد يتجوَّل في الغرفة أدرك أن الزخارف الموجودة على الحائط، في مساحةٍ عرضها متر واحد ترتفع عن الأرض نحو ثمانين سنتيمترًا، تُخبر قصةً مرتبةَ الأحداث. تابع ريتشارد الرسم بتروٍّ حتى وصل إلى ما ظنَّ أنه بداية القصة. أول ما رآه كان صورة مجسمة لبطيخة منٍّ. تلتها ثلاثُ لوحات تُصوِّر شيئًا ينمو داخل البطيخة. هذا الشيء كان صغيرًا في اللوحة الثانية لكن في اللوحة الرابعة صار يشغل المساحة الداخلية من البطيخة بالكامل.

في اللوحة الخامسة رأى ريتشارد رأسًا ضئيلًا يتحسس طريقَه خارج البطيخة، وكان للرأس عينان بيضاويتان لبنِيَّتَي اللون، تحتهما فجوة دائرية صغيرة، وأعلى الرأس تظهر ساقا أعيُن صغيرتان. أما الصورة المُجسَّمة السادسة التي يظهر فيها قطنمل صغير يُشبه كثيرًا من رآهم ريتشارد في بداية ذلك اليوم، فأكدت صحة الفهم الذي توصَّل إليه وهو يتابع اللوحات. وجعلته يصرخ بينه وبين نفسه: اللعنة، إذن فبطيخ المَنِّ هو بيض القطنمل! وتدفقت الأفكار تباعًا: لكن هذا ليس منطقيًّا. إن المخلوقات الطائرة تأكُل البطيخ ... بل إن القطنمل أطعمني إيَّاه ... ما الذي يحدُث هنا بحق الجحيم؟

أصاب هذا الاكتشاف ريتشارد بالذهول (وأصابه التعب الشديد من الجري طوال الجولة) حتى إنه جلس أمام اللوحة التي يظهر فيها القطنمل الصغير. حاول أن يفهم

العلاقة بين القطنمل والمخلوقات الطائرة. ولكنه لم يستطع أن يستحضر أي علاقة تكافُل بيولوجي مُشابهة على الأرض، غير أنه كان على وعيٍ كامل بأن الأنواع المختلفة غالبًا ما تعمل معًا من أجل تحسين فُرَص بعضها في البقاء. ولكن كيف يظلُّ نوع ما صديقًا لنوعٍ آخر لا يتغذَّى على شيءٍ سوى بيضِه؟ استنتج ريتشارد من هذا أن ما كان يظنُّ أنه ثوابت بيولوجية راسخة لا تنطبق على المخلوقات الطائرة والقطنمل.

بينما كان ريتشارد يُفكر في المعلومات الجديدة الغريبة التي توصَّل إليها تجمعت مجموعة من القطنمل حوله. وأشارت إليه بأن يقف. بعد دقيقة كان ينزل وراءها على طريقٍ منحدِرٍ يقع على الجانب الآخر من الغرفة ويؤدي إلى سردابٍ خاص في أسفل الكاتدرائية.

ولأول مرة منذ أن دخل ريتشارد المسكن وجد أن الإضاءة مُعتمة. مشى القطنمل بجواره ببطء ووقار وهم يمضون في ممر مُتسع سقفه على شكل قُبة. وفي الطرف الآخر منه كان يُوجَد بابان يؤدِّيان إلى غرفةٍ كبيرة مملوءة بمادة بيضاء ناعمة. ومع أن تلك المادة، التي تحسبها قطنًا إن رأيتها من بعيد، كثيفةٌ فإن معظم خيوطها رفيعة جدًّا، إلا في الأماكن التي تجتمع فيها تلك الخيوط في كُتَل أو عُقَد، وكانت تلك التجمُّعات مبعثرةً على نمَطٍ عشوائي في جميع أنحاء الجسم الأبيض الكبير.

توقَّف ريتشارد والقطنمل في المدخل على بُعد نحوِ متر من تلك المادة. كانت تلك الشبكة القطنية تمتدُّ على مرمى بصر ريتشارد في كُل الاتجاهات. وبينما كان يفحص تركيبتها الشبكية المُعقَّدة إذ بأجزائها تبدأ التحرك ببطءٍ شديد مُبتعدةً عن بعضها، حتى كوَّنت ممرًّا يصِل الطريق من الممر إلى داخل شبكتها. قال ريتشارد لنفسه، ونبضُ قلبه يرتفع وهو يُشاهد ما يحدُث في انبهارٍ ورعب: إنها حية.

بعد خمس دقائق صار طول الممر الذي ظهر يكفي لأن يقطع ريتشارد عشرة أمتار في قلب تلك المادة. كان كل القطنمل المُحيطين به يُشيرون إلى الشبكة القطنية. فبدأ ريتشارد يهزُّ رأسه نفيًا. كان يريد أن يقول: آسِف يا رفاق لكنَّ ثمة شيئًا لا يُعجبني في هذا الموقف. لذا سأتخطَّى هذا الجزء من الجولة إن كان هذا لا يزعجكم.

ظلَّ القطنمل يُشيرون بأصابعهم. وعلم ريتشارد أنه لم يعُد أمامه خيار. فتساءل وهو يخطو أول خطوةٍ إلى الأمام: ما الذي سيفعلونه بي؟ هل سيأكلونني؟ ألهذا يقومون بكلِّ ما يقومون به؟ هذا ليس منطقيًّا على الإطلاق.

استدار. فوجد أن القطنمل لم يتحرَّكوا. فأخذ نفسًا عميقًا وسار عشرة أمتار في الممر حتى وصل إلى بقعةٍ يستطيع منها أن يمدَّ يدَه ويلمس إحدى العُقَد الغريبة في الشبكة الحية.

وبينما كان يفحصها بعناية، بدأت عناصر هذه المادة تتحرك ثانية. فاستدار ريتشارد، وإذا به يرى أن الممرَّ خلفَه ينغلق. فكاد عقله يطير، وحاول أن يجري باتجاه الممر، لكن لم تُجدِ المحاولة نفعًا. إذ أمسكت به الشبكة، فلم يعُد أمامه إلا أن يستسلِم لما سيحدُث بعد هذا.

وقف ريتشارد ساكنًا والشبكة تُحيط به. كان عرض الأجزاء الصغيرة التي تتكوَّن منها لا يزيد على ملليمتر واحد تمامًا كالخيوط. وبدأت تُغطي جسدَه ببطء ولكن بثبات. قال ريتشارد: حسبك، حسبك. سأختنق.»

لكنه اندهش حين لم يجِد أيَّ صعوبةٍ في التنفُّس، مع أن مئات الخيوط كانت تلتفُّ حول رأسه ووجهه بالفعل.

قبل أن تُشَلَّ حركة يدَيه حاول أن ينزع أحد الأجزاء الدقيقة عن ذراعه. غير أن هذا كاد أن يكون مُستحيلًا. فالخيوط كانت تدخُل أيضًا في جلده وهي تلتفُّ حوله. ومع هذا نجح في أن يُحرِّر جزءًا صغيرًا من ذراعِه من الخيوط البيضاء بعد أن أخذ ينزعها واحدةً تلوَ الأخرى، لكن المناطق التي حرَّرها كانت تنزف. ألقى ريتشارد نظرةً على جسده وقدَّر أن هناك نحو مليون جزء من الأجزاء التي تتكون منها الشبكة الحية تحت الطبقة الخارجية من جسده. فارتجف.

كان ريتشارد لا يزال مُندهشًا من أنه لم يختنق. وبينما كان عقله يتساءل كيف يدخل الهواء إليه عبر الشبكة، سمع صوتًا داخل رأسه. كان الصوت يقول: توقف عن محاولة تحليل كل شيء. فأنت لن تفهم مُطلقًا على أيِّ حال. فقط عِش هذه المغامرة المذهلة، وحاول أن تكفَّ عقلك عن التدخُّل مرةً واحدة في حياتك.

٥

فقدَ ريتشارد القدرة على معرفة الوقت مرة أخرى. في وقتٍ ما أثناء الأيام (أو ربما الأسابيع) التي عاشها داخل الشبكة الفضائية تغيَّر وضع جسده. وخلعت الشبكة ملابسه في إحدى فترات نومِه الأولى. وأصبح ريتشارد الآن راقدًا على ظهره مُستندًا إلى جزءٍ شديد الكثافة من الشبكة يُغلِّف جسدَه.

لم يعُد التساؤل عن كيفية نجاحِه في البقاء على قيد الحياة يُحيره. فعلى نحوٍ ما، كلما شعر بالجوع أو العطش كانت تُشبع حاجته على الفور. كما أنَّ فضلاته كانت تختفي

دائمًا بعد دقائق من إخراجها. ولم يجد أي صعوبةٍ في التنفُّس مع أن الشبكة الحية كانت تُحيط به إحاطةً كاملةً.

عندما يكون ريتشارد مُستيقظًا يقضي الكثير من الساعات في دراسة المخلوق الذي يُحيط به. وعندما يُنعم النظر فيه يرى أن الأجزاء الصغيرة التي تتكون منها الشبكة في حركة دائمة. وكانت الأشكال التي تتَّخِذها حوله تتغيَّر ببطءٍ شديد ولكنه مُتأكد من أنها تتغير. رسم ريتشارد في عقله مسارات العُقَد التي يراها. وفي لحظةٍ ما انتقلت ثلاث عقدٍ مختلفة إلى جواره واتخذت شكل مثلثٍ أمام رأسه.

كانت الشبكة تتعامَل مع ريتشارد وفقًا لدورةٍ منتظمة. فهي تُبقي الملايين من خيوطها ملتصقةً به من خمسة عشر إلى عشرين ساعة في المرة الواحدة، ثم تُحرِّره بالكامل عدة ساعات. ولاحظ ريتشارد أنه كلما نامَ دون أن يلتصق بالشبكة لا يرى أي حلم. ولكنه إذا استيقظ وهو لا يزال في هذا الوضع، شعر بالضعف والفتور. ثم كان يُعاوده الشعور بتجدُّد نشاطِه وقتما عادت الخيوط للالتفاف حوله.

عندما كان ينام مُلتصقًا بالشبكة تُصبح الأحلام التي يراها مُثيرة وواضحة. لم يكن يرى الكثير من الأحلام من قبل، وكان غالبًا ما يسخر من اهتمام نيكول بأحلامها. لكنه بدأ يتفهَّم سبب اهتمامها بأحلامها بعدما أصبحت الصور التي يراها أثناء نومه مُعقدة أكثر، بل غريبة في بعض الأحيان. ففي إحدى الليالي حلم بأنه عاد إلى مرحلة المُراهقة وأنه كان يُشاهد عرضًا لمسرحية «كما تشاء» في بلدته الأم ستراتفورد-أبون-أفون. وأثناء العرض نزلت الفتاة الشقراء الجميلة التي كانت تقوم بدور روزاليند من على خشبة المسرح وهمست في أُذنه.

سألته في الحلم: «هل أنت ريتشارد ويكفيلد؟»

فأجابها: «نعم.»

بدأت المُمثلة في تقبيله، في البداية ببطء، ثم بحماسٍ شديد مُداعِبةً فمَه بلسانها. شعر بشهوةٍ عارمة واستيقظ فجأة، شاعرًا بإحراجٍ غريب من تجرُّده من الملابس وشعوره بالإثارة. ثم تساءل بينه وبين نفسه مُردِّدًا العبارة التي غالبًا ما كان يسمعها من نيكول: والآن، ما الذي يعنيه كلُّ هذا؟

في مرحلةٍ ما في مدة الأسر أصبحت ذكرياته عن نيكول أشدَّ وضوحًا وأكثر تفصيلًا. واندهش عندما اكتشف أنه يستطيع أن يتذكَّر حواراتٍ كاملة دارت بينَه وبينها بكامل تفاصيلها وبتعبيرات الوجه التي صاحبت العبارات، وأن هذا يحدُث كلما ركَّز عقله على

نيكول في غياب أي بواعث أخرى. كان ألَم الوحدة كثيرًا ما يعتصِر قلبه أثناء العزلة الطويلة التي قضاها داخل الشبكة، وكانت هذه الذكريات الحية تزيد من افتقاده لزوجته الحبيبة.

كانت ذكرياته عن أطفاله في نفس وضوح ذكرياته عن زوجته. وكان يفتقِدهم جميعًا مثلما يفتقدها، وخاصةً كيتي. تذكَّر آخِر حوار دار بينَه وبين ابنته المُحببة عندما مرَّت بالبيت لتأخُذ بعض ملابسها قبل أيامٍ من الزفاف. كانت مُحبطة وفي حاجة إلى العون، لكنه لم يستطع أن يُساعدها. قال لنفسه: لقد ضاع الانسجام الذي كان بيننا. وبدأت صورة كيتي الشابة الفاتنة تخبو وتحلُّ محلها صورة طفلة متهوِّرة في العاشرة من عمرها تنطلِق في ميادين نيويورك. فأثار تقابُل الصورتَين شعورًا عميقًا بالضياع في ريتشارد. وقال في نفسه وهو يتنهَّد: لم أفرح قطُّ بكيتي التي رأيتُها بعد أن كبِرت. ظللتُ أريد طفلتي الصغيرة.

وضوح ذكرياته عن نيكول وكيتي أقنعَه بأنَّ هناك شيئًا غريبًا يحدُث لذاكرته. وزاد من قناعته أن اكتشف أنه يستطيع تذكُّر نتائج كلِّ المباريات ربع النهائية ونصف النهائية والنهائية لكلِّ دورةٍ من دورات كأس العالم لكرة القدَم فيما بين الأعوام من ٢١٧٤ و٢١٩٠. هذا مع أن هذه المعلومات العقيمة كان ريتشارد قد عرفَها وهو في مرحلة الشباب حين كان يُشجع كرة القدم بحماسٍ شديد. وما يزيد من غرابة هذا هو أنه في السنوات التي سبقت انطلاق نيوتن كان كثيرًا ما يفشل في تذكُّر أي شيءٍ مُتعلق بتلك المباريات، وفي ذلك أسماء الفرق التي شاركت فيها، وإن كان يتحدَّث حول كرة القدَم مع أصدقائه، وذلك لأن عقلَه كان منشغلًا بالكثير من الأمور الجديدة.

بينما كانت الصور التي تُولِّدها ذاكرة ريتشارد تزداد وضوحًا، وجد أنه يستطيع أيضًا أن يتذكَّر المشاعر التي ترتبط بهذه الصور. بدا الأمر وكأنه يخوض هذه التجارب مرةً أخرى. في إحدى نوبات التذكُّر الطويلة، تذكَّر ما شعر به من حُبٍّ جارف وهيام تجاه سارة تايدينجز عندما رآها تُمثل لأول مرة على خشبة المسرح، وكذلك المشاعر الجامحة التي صاحبت أول ليلةٍ قضياها معًا. هذا أثار شهوته، وهو ملفوف بمخلوق فضائي يُشبه الشبكات العصبية، مثلما أثارها قبل سنواتٍ عديدة.

سرعان ما بدا لريتشارد أنه فقد السيطرة على اختيار الذكريات التي تَنشَط في عقله. في البداية كان يتعمِد التفكير، أو هكذا بدا له، في نيكول أو الأطفال أو في علاقته بالشابَّة سارة تايدينجز حتى يفتح بابًا للسعادة تتسلَّل منه إلى قلبه. وقال في أحد الأيام في حوار خيالي مع الشبكة المُلتصقة به: الآن بعد أن أنعشتِ ذاكرتي — لسببٍ لا يعلمه إلا الله — يبدو أنك تقرئينها.

لساعاتٍ عديدة، ظلَّ ريتشارد مُستمتعًا بهذه القراءة لذاكرته التي لم يكُن له خيار فيها، وخاصة بالأجزاء التي تُغطي حياته في كامبريدج وأكاديمية الفضاء عندما كانت متعة تعلُّم الجديد تُحيي أيامه. وأدرك كيف أن قسمًا كبيرًا من سعادته كان ينبُع من الإثارة التي صاحبت عملية التعلُّم، وذلك حين كانت الشبكة تُذكِّره بالفيزياء الكمية، والانفجار الكامبري، ونظرية الاحتمال، والإحصاء، والكلمات التي تعلَّمَها في دروس الألمانية ونسِيَها من زمنٍ بعيد. في ذكرى أُخرى سبَّبت له سعادة خاصة، تنقل عقله بسرعةٍ من مسرحيةٍ إلى أخرى مُغطِّيًا كل عرضٍ حي لمسرحيات شكسبير كان قد حضره وهو فيما بين العاشرة والسابعة عشرة. دار بخلد ريتشارد بعد أن رأى سلسلة المشاهد هذه ما يلي: كلٌّ منَّا يحتاج إلى بطلٍ يُمثل دافعًا يُفجر أفضل طاقاته. وأنا بطلي هو ويليام شكسبير بالتأكيد.

بعض الذكريات كانت مؤلِمة، خاصة ذكريات طفولته. في إحدى هذه الذكريات رأى ريتشارد نفسه في الثامنة من عمره جالسًا على مقعدٍ عند المنضدة الصغيرة في غرفة الطعام في بيت أُسرته. كان الجوُّ حول المنضدة ملبدًا بغيوم التوتر. إذ كان والدُه يرميهم بنظراته الغاضبة وهم يتناولون الغداء في صمتٍ بعدما أسكرته الخمر وتملَّكه الغضب من العالَم. أراق ريتشارد عن غير قصدٍ بعضًا من حسائه، فصفعه والدُه بقوة بظهر يده، مُتسببًا في سقوطه من على المقعد ووقوعه في زاوية الغرفة؛ فارتعد خوفًا ودهشةً. لم يُفكر في هذه اللحظة منذ سنوات. ولم يستطع أن يمنع دموعه من الانهمار عندما تذكَّر كيف كان يُصبح بائسًا مذعورًا في حضرة والده العصبي القاسي.

في أحد الأيام بدأ ريتشارد فجأةً تذكُّر تفاصيل رحلته الطويلة في مركبة راما الثانية فكاد صداعٌ شديد أن يذهب بعقله. رأى نفسه في غرفةٍ غريبة مُلقًى على الأرض محاطًا بثلاثةٍ من كائنات الأوكتوسبايدر أو أربعة. لقد وضع هؤلاء عشرات المجسَّات والأدوات الأخرى، وكانوا يُجرون عليه اختبارًا ما.

صاح ريتشارد، قبل أن يتسبَّب اضطرابُه الشديد في تلاشي الصورة الذهنية: «كفى، كفى. الصداع يَقتلني.»

بدأ صداعه يخفُّ بمعجزة، وعادت ذاكرته به إلى مشهد وجوده بين الأوكتوسبايدر. وتذكر أيامًا طويلة قضاها والتجارب تُجرى عليه، وكائنات حية ضئيلة تدخل في جسده. كما تذكَّر مجموعة غريبة من التجارب الجنسية التي كان يتعرَّض فيها لشتَّى أنواع الاستثارة الخارجية ويُكافأ عندما يفرغ دفقته الشعورية.

أدهشته هذه الذكريات الجديدة التي لم يصل عقله إليها قطُّ منذ أن استيقظ من الغيبوبة التي وجدَتْه فيها أُسرته في نيويورك. قال لنفسه والإثارة تعتريه: الآن أتذكَّر أمورًا أخرى عن الأوكتوسبايدر. إنهم يتحدَّثون مع بعضهم عن طريق ألوانٍ تلتف حول رءوسهم. وهم ودودون بطبيعتهم ولكنهم كانوا يصرون على معرفة كل ما يمكنهم معرفته عني. إنهم …

تلاشت الصورة الذهنية وعاد الصداع. فقد كانت خيوط الشبكة قد انفصلت عنه منذ قليل. وصار يشعر بإرهاقٍ شديد فغطَّ في النوم بسرعة.

بعد الأيام الطويلة التي أخذت الذكريات فيها تجول في عقله واحدةً تلو الأخرى، توقفت عملية قراءة ذاكرته فجأة. ولم يعُد عقله خاضعًا لأي قوى خارجية. وظلت خيوط الشبكة منفصلة فترات طويلة.

مر أسبوع دون أن يحدث شيء. لكن في الأسبوع الذي تلاه بدأت عقدة مُستديرة غريبة أكبر من العُقَد العادية الأخرى في الشبكة الحية ومربوطة بإحكامٍ أكثر منها تنمو على بُعد نحو عشرين سنتيمترًا من رأس ريتشارد. ظلَّت العقدة تكبُر حتى صارت في حجم الكرة التي يلعب بها لاعبو كرة السلة. وعندها خرجت منها مئات من الخيوط التي أدخلت نفسها في جلد المنطقة المُحيطة بجمجمة ريتشارد. فقال لنفسه وهو يتجاهل الألَم الذي صاحب غزو الخيوط لعقله: أخيرًا سنعرف الغرض من كل هذا.

بدأ على الفور يرى صورًا ما ولكنها كانت مشوَّشة تشويشًا أعجزه عن التعرُّف على أي شيءٍ مُحدَّد مما يظهر فيها. غير أن جودة الصور العقلية التي يراها تحسَّنت بسرعة شديدة؛ ويرجع هذا إلى أنه ابتدع بمهارةٍ طريقة أولية للتواصل مع الشبكة. فما إن ظهرت أول صورة في عقله، حتى علم أن الشبكة التي ظلَّت تقرأ مُخرجات ذاكرته لأيامٍ كانت تحاول الآن أن تكتب في عقله.

لكن بدا له أن الشبكة لا تملك أيَّ وسيلةٍ لقياس جودة الصور التي يتلقَّاها. وظل يبحث عن حيلة للخروج من هذه المشكلة حتى تذكَّر رحلاته إلى طبيب العيون وهو طفلٌ صغير ونمَط التواصل الذي يبني على أساسه الطبيبُ المواصفات النهائية لعدسة النظارة، فلجأ إلى الإشارة بإبهامه إلى أعلى أو إلى أسفل ليُري الشبكة ما إذا كان التغيُّر الذي تُجريه على عملية البث يتسبَّب في تحسين الصورة أم في تدهورها. وبهذه الطريقة أصبح بوسع ريتشارد أن «يرى» ما يحاول الفضائيون أن يجعلوه يراه.

أول صورٍ رآها كانت صورًا التُقِطت لكوكبٍ من سفينة فضائية. ظهر فيها عالَم مُغطى بالسُّحب يظهر فيه قمران صغيران نسبيًّا ونجم واحد أصفر بعيد يُمدُّه بالحرارة والضوء، ورسخ في يقين ريتشارد أن هذه صور الكوكب الأم للشبكة اللاسويقية. سلسلة الصور التي تلت كشفت لريتشارد عن مشاهدَ مُتنوعة في هذا الكوكب.

الضباب كان يُغلف موطن الكائنات اللاسويقية. وكان يظهر أسفل منه في معظم الصور سطح بُني قاحِل لا صخور فيه. ولا تُوجَد أي إشارةٍ إلى وجود حياة إلَّا في المناطق الساحلية التي تلتقي فيها الأرض القاحلة بأمواج البحيرات والمُحيطات الخضراء. في إحدى هذه المناطق رأى ريتشارد العديد من المخلوقات الطائرة ومجموعةً مُبهرة من المخلوقات الحية الأخرى. لو أن ريتشارد يتحكَّم في الصور لقضى أيامًا في تأمُّل صورةٍ واحدة أو صورتَين. كان على يقينٍ من أن الشبكة تهدف إلى شيءٍ ما من هذا التواصل وأن المجموعة الأولى من الصور هي مجرد مقدمة.

كان يظهر في الصور الباقية كلها إما مخلوق طائر أو بطيخةُ مَنٍّ أو قطنمل أو شبكة لاسويقية أو مزيج من الأربعة. رأى ريتشارد أن هذه المشاهد تُمثل «الحياة الطبيعية» على كوكبهم الأم وأنها جميعًا تعكس صور التكافُل بين هذه الأنواع. في كثيرٍ من الصور كان الفضائيون يدافعون عن مستعمرات مَبنية تحت الأرض يسكن فيها القطنمل والشبكات اللاسويقية ضد كائناتٍ بدت أنها حيوانات ونباتات صغيرة. في صور أخرى يظهر القطنمل وهو يعتني بصغار المخلوقات الطائرة أو ينقل كميات كبيرة من بطيخ المنِّ إلى بيت للمخلوقات الطائرة.

تحيَّر ريتشارد عندما رأى صورًا كثيرة تظهر فيها بطيخاتُ مَنٍّ صغيرة بداخل المخلوقات اللاسويقية. وتساءل في نفسه: تُرى لماذا يضع القطنمل بيضَه هناك؟ أللحماية؟ أم لأن هذه الشبكات الغريبة مشيمة عاقلة من نوعٍ ما؟

الانطباع الواضح الذي تركته سلسلة الصور في ريتشارد هو أن نوعًا من التسلسل الهرمي يحكم العلاقة بين الأنواع الثلاثة، وأن الكائن اللاسويقي هو أعلاها منزلةً. فالصور كلها تُوحي بأن كلًّا من القطنمل والمخلوقات الطائرة يُبجلان المخلوق الشبكي. فتساءل ريتشارد في نفسه: إذن هل هذه الشبكات تقوم بعمليات التفكير المُهمة نيابةً عن المخلوقات الطائرة والقطنمل؟ يا لها من علاقات تكافُل رائعة ... تُرى كيف نشأت هذه العلاقات بحق الجحيم؟

بلغ عدد الصور في هذه السلسلة نحو عدة آلاف صورة. وبعد أن تكرَّر عرض سلسلة الصور مرتَين انفصلت الخيوط عن ريتشارد وعادت إلى العقدة العملاقة. وفي الأيام التي

تلت هذا كان ريتشارد غالبًا ما يُترَك بمُفرده، إذ لم يتصل بعائلِه إلا للحصول على ما يلزم لبقائه على قيد الحياة.

عندما تكوَّن ممر في الشبكة وأصبح بوسع ريتشارد أن يرى الباب الذي دخل منه قبل أسابيع عديدة، ظن أن الشبكة ستُطلِق سراحه. غير أن الإثارة التي انتابته قليلًا سرعان ما تلاشت. إذ إن الشبكة اللاسويقية أحكمت قبضتَها على جميع أجزاء جسده فور أن حاول أن يتحرك.

تساءل ريتشارد في نفسه: ما الغرض من الممر إذن؟ وبينما كان ريتشارد ينظر أمامه دخل ثلاثة من القطنمل من المدخل. وكانت اثنتان من أرجل القطنمل الذي في الوسط مكسورتَين والجزء الخلفي محطم، وكأن عربةً ضخمة أو شاحنة صدمته. حمل القطنملان الآخران القطنمل العاجز إلى داخل الشبكة ثم رحلا. وبعد ثوانٍ بدأت الشبكة تلفُّ نفسها حول الوافد الجديد.

كانت تبلغ المسافة التي تفصل ريتشارد عن القطنمل العاجز نحو مترَين. وكانت جميعها خالية من أي خيوطٍ أو عقد. ولم يسبق لريتشارد أن رأى مثل هذه الفجوة في المخلوق اللاسويقي. ففكر قائلًا في نفسه: إذن فعملية تعليمي مستمرة. ماذا يُفترَض أن أتعلم الآن؟ أن المخلوقات اللاسويقية تقوم بدور طبيب القطنمل مثلما يقوم القطنمل بدور طبيب المخلوقات الطائرة؟

لم تقصر الشبكة عنايتها على المناطق المصابة من القطنمل. بل إن ريتشارد رآها في إحدى النوبات التي ظلَّ مُستيقظًا فيها طويلًا تُطوق هذا المخلوق في شرنقة محكمة. وبينما هي تفعل هذا، انتقلت العقدة الكبيرة من جوار ريتشارد إلى الشرنقة.

بعد هذا نام ريتشارد قليلًا وعندما استيقظ لاحظ أن العقدة عادت إلى جواره. ورأى أن الشرنقة الموجودة على الجانب الآخر أوشكت على حلِّ نفسها. ثم حدث ما جعل دقات قلبه تتضاعف، فهو لم يرَ أي أثرٍ للقطنمل مع أن الشرنقة كادت تختفي تمامًا.

لم يُتَح لريتشارد مُتسع من الوقت يتساءل فيه عما حدث للقطنمل. ففي غضون دقائق عادت الخيوط التي تخرج من العقدة الكبيرة إلى الالتصاق بجمجمته، وأصبح يرى عرضًا آخر للصور داخل عقله. في أول صورةٍ رأى ريتشارد خمسة عساكر بشريين يُعسكرون على شاطئ الخندق داخل مسكن المخلوقات الطائرة. وكانوا يتناولون طعامًا. وكانت بجوارهم مجموعة ضخمة من الأسلحة من بينها مدفعان رشاشان.

الصور التي تلت هذا كان فيها بشر في وضع الهجوم في المنطقة السكنية الثانية. وكان أول مشهدَين بشعَين بصفة خاصة. ففي المشهد الأول يظهر مخلوق طائر صغير وهو يهوي إلى الأرض بعد أن قُطِع رأسه في الهواء. وفي أسفل الصورة من اليسار اثنان من البشر السعداء يتبادلان التهنئة. في الصورة الثانية، تظهر حفرة مُربعة ضخمة محفورة في أحد الأجزاء التي يُغطيها العشب من المنطقة الخضراء. ويبدو بداخلها رفات مخلوقاتٍ طائرة ميتة. وفي الجهة اليسرى يظهر بشري يقترب من المقبرة الجماعية وهو يدفع أمامه عربة يد عليها جثتا مخلوقَين طائرَين.

رؤية هذه الصور جعلت ريتشارد يترنح. وتساءل في نفسه: ما هذه الصور؟ ولماذا يُطلِعونني عليها الآن؟ راجع في ذهنه بسرعةٍ كل الأحداث التي وقعت أخيرًا في عالم المخلوق اللاسويقي واستنتج مصدومًا أن القطنمل المُصاب لا بد أن يكون قد رأى على أرض الواقع كلَّ ما رآه ريتشارد، وأن المخلوق الشبكي نقل الصور بطريقةٍ ما من عقل القطنمل إلى عقل ريتشارد.

وما إن فهم ما تُعبر عنه الصور حتى أعارها مزيدًا من الانتباه. وبدأت موجة الغضب تثور في نفسه من مرأى الغزو والذبح. ففي إحدى الصور الأخيرة يظهر ثلاثة من الجنود البشريين وهم يشنُّون غارةً على أحد التجمُّعات السكنية التي تقطنها المخلوقات الطائرة والتي تقع داخل الأسطوانة البُنية. ولم ينجُ منها أحد.

حدَّث ريتشارد نفسه قائلًا: هذه المخلوقات البائسة سائرة إلى الهلاك، ولا بد أنها تعرف هذا …

فجأة اغرورقت عينا ريتشارد بالدموع، وأدرك أن أناسًا من بني جلدته يُبيدون المخلوقات الطائرة إبادةً منظمةً، فاعتصر الحُزن قلبه، حزن أعمق من أي حزنٍ عرفَه من قبل. وصرخ في صمت: كلَّا، كلَّا! توقَّفوا، أرجوكم توقَّفوا. ألا ترَون ما تفعلون؟ هذه المخلوقات هي تجسيد لعظمة الحياة التي حولت مادةً غير حية إلى كائنٍ لديه وعي. إنهم مثلنا. إنهم إخواننا.

في الثواني العديدة التالية، فاضت في ذاكرة ريتشارد ذكرى كل تعامُل وقع بينه وبين المخلوقات التي تُشبه الطيور، وصرفت عن عقله الصور التي تزرعها الشبكة فيه. قال لنفسه وعقله يركز على رحلة الطيران عبر البحر الأسطواني التي حدثت منذ فترة طويلة: لقد أنقذوا حياتي. دون أن ينتظروا من وراء هذا أي نفع. ثم أضاف بأسًى: هل قدَّم إنسان لأي مخلوقٍ طائر مثل هذا الصنيع الخيِّر؟!

نادرًا ما بكى ريتشارد بحُرقة في حياته. لكن في هذه اللحظة تملَّكه الأسى على المخلوقات الطائرة. وبينما هو في بكائه، إذا بكل ما مرَّ به منذ أن دخل مسكن المخلوقات الطائرة يملأ عقله. وتذكر بصفةٍ خاصة التغير المفاجئ في تعاملهم معه، وما أعقبه من نقل إلى مملكة القطنمل. وقال لنفسه: تأتي بعد هذا الجولة التي قادوني فيها ثم وجودي هنا … من الواضح أنهم كانوا يُحاولون التواصُل معي. ولكن لماذا؟

في هذه اللحظة أدرك الحقيقة إدراكًا جعل الدموع تنهمِر من عينَيه مرةً أخرى. وأجاب عن سؤاله بنفسه قائلًا: لأنهم يائسون. ويرجونني أن أُساعدهم.

٦

مرة أخرى ظهر فراغ كبير في قلب المخلوق اللاسويقي. فأمعن ريتشارد النظر ورأى على الجانب المُقابل له من الفجوة ثلاثين عقدةً صغيرة تنضمُّ إلى بعضها متخذةً شكل كرة يبلغ قطرها نحو خمسين سنتيمترًا. وكان يصل بين كل عقدة ومركز الكرة خيطٌ شديد السُّمك. في البداية، لم يستطع أن يرى أي شيءٍ داخل الكرة. لكن بعد أن انتقلت العقد إلى موقِعٍ آخر رأى في المكان الذي كانت تحتلُّه الكرة شيئًا أخضر صغيرًا به مئات الخيوط المتناهية الصِّغَر التي تربطه بباقي الشبكة.

بدأ هذا الشيء ينمو ببطءٍ شديد. كانت العقد قد انتهت من الانتقال إلى ثلاثة مواقع جديدة، مكررةً نفس الشكل الكروي كل مرةٍ قبل أن يُدرك ريتشارد أن ما كان ينمو في المخلوق اللاسويقي هو بطيخةُ منٍّ. صُعِقَ ريتشارد. إذ لم يستطع أن يفهم كيف ترك القطنمل الذي اختفى خلفه بيضًا استغرق كل هذا الوقت لكي ينمو. وقال لنفسه: «إذن فلا بد أنَّ عدد الخلايا كان قليلًا جدًّا. أجنَّة مُتناهية الصغر تتغذَّى على نحوٍ ما هنا …»

قطع أفكارَه إدراكُه أن هذا البطيخ الجديد كان ينمو في منطقةٍ من المخلوق الشبكي تبعد نحو عشرين مترًا عن المكان الذي أحاطت فيه الشرنقة بالقطنمل. فقال في نفسه: إذن فهذا المخلوق الشبكي نقل البيض من مكانٍ إلى آخر؟ ثم احتفظ به أسابيع؟

بدأ الجانب المنطقي من عقل ريتشارد يرفض افتراض أن القطنمل الذي اختفى قد وضع بيضًا من الأساس. وبالتدريج بدأ يصل إلى تفسيرٍ بديل لما رآه يستند إلى وجود ظواهر بيولوجية أكثر تعقيدًا من أي شيءٍ رآه على الأرض. فسأل نفسه: ماذا لو كان بطيخ المنِّ والقطنمل وهذه الشبكة اللاسويقية جميعًا صورًا مختلفة لما نُطلق عليه نوعًا واحدًا؟

أذهلت الأفكار التي تولَّدت عن هذا الافتراض البسيط ريتشارد، فظلَّ يُعيد النظر في كلِّ ما رآه داخل المسكن الثاني طوال فترتي استيقاظٍ طويلتَين. وبينما هو يُنعم النظر في بطيخات المنِّ الأربع التي تنمو على الجانب المُقابل له من الفجوة، تخيَّل سلسلةً من التحولات يلد فيها بطيخُ المن القطنملَ الذي بدَوره يُضيف عند موته مادةً جديدة إلى الشبكة اللاسويقية، وحينئذٍ تضع هذه الشبكة بيضَ بطيخ المنِّ وتبدأ الدورة من جديد. ولاحظ ريتشارد أنه لم يرَ ما يُعارض هذا التفسير. لكن عقله كاد أن ينفجر من كثرة الأسئلة المُثارة حول «كيفية» حدوث هذه السلسلة المُعقدة من التحولات، و«سبب» تطور هذا النوع حتى أصبح بهذا التعقيد من الأساس.

معظم الدراسة الأكاديمية التي تلقَّاها ريتشارد كانت في المجالات التي يُطلِق عليها بفخر «العلوم البحتة». وكانت الرياضيات والفيزياء هما العنصران الأساسيان في تعليمه. ولكنه اندهش من مدى جهلِه وهو يُجاهد ليفهم دورة الحياة المحتمَلة لهذا المخلوق الذي يحيا فيه منذ عدة أسابيع. فتمنَّى لو تعلَّم المزيد عن علم الأحياء. وسأل نفسه: كيف يُمكنني أن أُساعدهم؟ إنني لا أعرف حتى من أين أبدأ.

بعد هذا بكثير، سيتساءل ريتشارد إن كان المخلوق اللاسويقي عرف كيف يقرأ ذاكرته وكيف يُفسِّر أفكاره بعد هذه المدة التي قضاها بداخله. بعد أيامٍ قليلة، وصل زائروه. ومرةً أخرى عاد الممرُّ يظهر في الكائن اللاسويقي بين المكان الذي يُوجَد فيه ريتشارد والمدخل الرئيسي. مشى أربعة من القطنمل المُتطابقَين في الممر وأشاروا إلى ريتشارد بأن يتبعهم. وكانوا يحملون ملابسه. وعندما حاول ريتشارد أن يتحرك لم يحاول مُضيفه الفضائي أن يمنعه. كانت قدماه ترتعِدان، لكن بعد أن ارتدى ملابسه استطاع أن يتبع القطنمل في الممر الواقع في أعماق الأسطوانة البنية.

من الواضح أن الغرفة الواسعة قد أُجرِي عليها بعض التعديلات مؤخرًا. ولكنهم لم ينهوا بعد اللوحة الضخمة التي يرسمونها على جدرانها. ففي نفس الوقت الذي كان مدرس ريتشارد القطنملي يُشير فيه إلى أشياء مُحددة في الرسم قد أتمُّوها من قبل، كان الفنانون القطنمليون لا يزالون يعملون في إنجاز ما بقي من اللوحة. وبينما كان ريتشارد يتلقى الدروس الأولى في الغرفة، كان هناك نحو اثني عشر مخلوقًا منهمكًا في رسم أو تلوين الأجزاء الأخرى.

لم يحتَجْ ريتشارد إلى أكثر من زيارة إلى غرفة الرسم الجداري ليعرف الغرض منها. فالغرفة كلها صُمِّمت لتُعطيه معلومات عن كيفية مساعدة النوع الفضائي على البقاء. كان من الواضح أن هذه المخلوقات الفضائية علِمَت أن البشر على وشك أن يغزوها ويبيدوها. فاللوحات المرسومة في الغرفة كانت تُمثل محاولةً منهم لتزويد ريتشارد بالمعلومات التي قد يحتاجها ليُنقذها. ولكن هل سيُمكنه أن يتعلَّم ما يكفي من الصور وحسب؟

كانت اللوحة مُبهرة. حتى إن ريتشارد كان يُجبر الفص الأيسر من عقله الذي يحاول فهم الرسائل التي تنقلها الرسوم على التوقُّف عن العمل من حينٍ إلى آخر؛ حتى يتسنَّى للفصِّ الأيمن من عقله الاستمتاع بموهبة هؤلاء الفنانين. كانت هذه المخلوقات تعمَل مُنتصبةً ورجلاها الخلفيتان واقفتان على الأرض، وأرجلها الأمامية الأربعة تعمل معًا لإنجاز عملية الرسم أو التلوين. كانت تتحدَّث فيما بينها، فيما بدا أنه طرح أسئلة، ولكنها لم تُصدر أصواتًا كثيرةً تُزعج ريتشارد وهو في الجانب الآخر من الغرفة.

يُعد النصف الأول من اللوحة الجدارية كتابًا عن بيولوجيا هذه المخلوقات الفضائية. وقد جعل ريتشارد يتأكد أن ما توصَّل إليه من فَهمٍ أولي لهذا المخلوق الغريب صحيح. تضمُّ سلسلة الصور الأساسية أكثر من مائة رسم، أربع وعشرون منها تُصور مراحل التطور المختلفة التي يمرُّ بها جنين القطنمل، وقد عمَّقت هذه الرسومات على نحوٍ كبير من المعرفة التي استشفها ريتشارد من المنحوتات الموجودة داخل كاتدرائية القطنمل. كانت الرسومات الأساسية التي تشرح تطور الأجنة مرسومة في خطٍّ مستقيم يدور على جميع حوائط الغرفة. وفوقها وتحتها تُوجَد صور إضافية توضحها أو تُضيف إلى معانيها، غير أن ريتشارد لم يفهم معظمها.

على سبيل المثال، كانت هناك أربع رسومات تُلقي بالضوء على صورة بطيخة مَنٍّ نقلت لتوِّها من شبكةٍ لاسويقية، ولم تبدأ عملية نمو القطنمل بداخلها بعد. كان ريتشارد متأكدًا من أن هذه الصور الإضافية تُحاول أن تمنحَه معلوماتٍ محددةً عن الظروف البيئية اللازمة لبدء عملية النمو. غير أنَّ الفنانين من القطنمل حاولوا توصيل المعلومات إلى ريتشارد عن طريق توظيف مشاهد من كوكبهم الأم؛ فشرحوا الظروف المطلوبة بتصوير مشاهد من بيئتهم النباتية والحيوانية الأصلية، ومشاهد يظهر فيها الضباب والبحيرات. فلم يعُد بوسعه سوى أن يهزَّ رأسه بالنفي كلما أشار مُعلمه إلى هذه اللوحات.

وظَّف رسمٌ موضوعٌ فوق السلسلة الرئيسية صورَ الشموس والأقمار ليُعرِّف ريتشارد بمقاييس الوقت. وفهم ريتشارد من ترتيبهم أن عمر طَوْر القطنمل من هذا النوع قصير

جدًّا إذا ما قُورن بعُمر الشبكة اللاسويقية. لكنه عجز عن استنتاج أي شيءٍ آخر من هذا الرسم.

كما كان فهم ريتشارد للعلاقات العددية التي تربط بين الأطوار المختلفة لهذا النوع مشوشًا بعض الشيء. كان من الواضح أن كلَّ بطيخةِ منٍّ تتمخَّض عن قطنمل واحد (لم يظهر في الرسم توءمان على الإطلاق)، وأن المخلوق اللاسويقي يُمكنه أن ينتج الكثير من بطيخ المن. ولكن ما هي نسبة المخلوقات اللاسويقية إلى القطنمل؟ في إحدى الصور يظهر مخلوق لاسويقي كبير مع عددٍ من القطنمل المُختلف بداخله، كلٌّ منها في مرحلةٍ مختلفة من مراحل الوجود داخل الشرنقة. ما الذي يُفترَض أن يفهمه ريتشارد من هذا؟

نام ريتشارد في غرفةٍ صغيرة قريبة من الغرفة التي تضمُّ اللوحات الجدارية. كان كل درسٍ من الدروس التي يتلقَّاها يستمر ثلاث ساعاتٍ أو أربع، بعدها يُقدمون له الطعام أو يسمحون له بالنوم. أحيانًا كان ريتشارد يختلِس النظر إلى اللوحات التي بعضها لم تكتمل بعدُ، والموجودة في النصف الثاني من الجدار عندما يدخل الغرفة. لكنه كلَّما فعل هذا كانت تنطفئ أنوار الغرفة على الفور. فالقطنمل يريدون أن يتأكَّدوا من أن ريتشارد فهِم نظامهم البيولوجي قبل أن ينتقلوا إلى أي مرحلةٍ أخرى.

بعد نحو عشرة أيام اكتمل النصف الآخر من اللوحة الجدارية. وذُهل ريتشارد عندما سمحوا له أخيرًا بدراسته. فقد كانت رسومات البشر والمخلوقات الطائرة بالِغة الدقة. ويظهر ريتشارد نفسه أكثر من مرةٍ في اللوحات. وكاد ألَّا يتعرَّف على نفسه إذ ظهر بشعرٍ ولحيةٍ طويلَين يشتعل فيهما الشيب. قال مازحًا وهو يتجول في الغرفة: أُشبِه المسيح في هذه الصور.

يظهر في جزءٍ من اللوحات الباقية موجز تاريخي لغزو البشر للمسكن الفضائي. وكانت فيه تفاصيل أكثر من التي رآها ريتشارد في الصور التي عرضت في ذهنِه وهو بداخل الشبكة اللاسويقية، لكنها لم تُطلِعه على حقائق جديدة. مع ذلك، فقد عاد الانزعاج ينتابُه من مرأى التفاصيل المُريعة التي وسمَت المذبحة المستمرة.

كما أن هذه الصور أثارت سؤالًا مُثيرًا في عقله. لماذا لم تنقل له الشبكة محتويات هذه اللوحة مباشرة، وبهذا تُوفِّر كل المجهود الذي بذلَه الفنانون؟ فكَّر ريتشارد قائلًا في نفسه: ربما تكون الشبكة مجرد أداةِ تسجيلٍ عاجزة عن التخيُّل. وبهذا لا تستطيع أن تُريني إلا ما رآه أحد القطنمل من قبل.

اللوحات الباقية تُحدِّد بوضوحٍ ما تُريده المخلوقات الفضائية من ريتشارد. ففي كل لوحةٍ من هذه اللوحات يظهر ريتشارد وهو يحمِل على كتفَيه حقيبةً زرقاء ضخمة. في الجزء الأمامي والخلفي منها جَيبان كبيران بكلٍّ منهما بطيخة منٍّ. هذا بالإضافةِ إلى جَيبَين أصغر منهما على جانبَي الحقيبة. أحدهما به أنبوب أسطواني فضِّي طوله نحو خمسة عشر سنتيمترًا، والآخر به بيضتان جلديتان صغيرتان من بيض المخلوقات الطائرة.

كما يظهر في اللوحة الترتيب الذي سيسير عليه العملُ الذي يطلبون من ريتشارد القيام به. عليه أن يرحل من الأسطوانة البُنية عن طريق مخرجٍ موجود تحت سطح الأرض يؤدي إلى المنطقة الخضراء الواقعة على الجانب المقابل للمباني البيضاء والقناة الضيقة. وهناك، سيقوده اثنان من المخلوقات الطائرة في رحلة النزول إلى شاطئ الخندق حيث سيستقلُّ غواصةً صغيرة. ستغوص الغواصة تحت حائط المبنى وتدخل في مسطحٍ مائي ضخم ثم تخرج من المياه عندما تصل إلى شاطئ جزيرةٍ بها عددٌ كبير من ناطحات السحاب.

ابتسم ريتشارد وهو يتأمَّل اللوحة. وقال في نفسه: إذن فالبحر الأسطواني ومدينة نيويورك لا يزالان في مكانهما. وتذكر ما قاله الرجل النَّسر عن عدم إدخال أي تغييرات غير ضرورية على راما. ثم قال في نفسه: هذا يعني أن ملجأنا قد يكون موجودًا أيضًا.

كانت هناك الكثير من الصور الإضافية حول سلسلة الصور التي تعكس هروب ريتشارد، بعضها يُعطي مزيدًا من التفاصيل حول النباتات والحيوانات الفضائية في المنطقة الخضراء، والبعض الآخر يُعطي تعليماتٍ واضحة عن كيفية تشغيل الغواصة. عندما حاول ريتشارد أن ينسخ ما رأى أنه أهم ما في هذه المعلومات على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به بدا فجأة أن صبر المُعلم قد نفد. فتساءل ريتشارد إن كان وضع الأزمة قد تدهور.

في اليوم التالي بعد أن استيقظ ريتشارد من نومٍ طويل، زوَّده مُضيفوه بحقيبته وقادوه إلى غرفة الشبكة. وأخرج القطنمل من الشبكة بطيخات المنِّ الأربع التي رآها تنمو قبل أسبوعَين ووضعوها في حقيبته. كان البطيخ ثقيلًا جدًّا. وقدَّر ريتشارد أن وزنه يبلغ عشرين كيلوجرامًا. وبعد هذا استخدم قطنمل آخر أداةً كالمقصِّ الضخم لينزع من الشبكة اللاسويقية كتلةً أسطوانيةً بها أربعُ عُقَدٍ والخيوطَ الملتصقة بها. ثم وُضِعت هذه المادة اللاسويقية في أنبوب فضي وأُدخلت في أحد الجيبَين الصغيرين الموجودَين في جانب حقيبة ريتشارد. وكان بيض المخلوقات الطائرة هو آخِر ما وُضِع في الحقيبة.

أخذ ريتشارد نفسًا عميقًا. وقال والقطنمل يشيرون إلى الممر: لا بد أن هذا هو الوداع. لسببٍ ما تذكَّر إصرار ناي واتانابي على أن التحية التايلاندية المُسمَّاة «واي»، التي تتمثل في انحناءةٍ طفيفة يصحبها ضمُّ اليدَين ورفعهما أمام الجزء الأعلى من الصدر، هي مظهر عالمي من مظاهر الاحترام. ابتسم ريتشارد لنفسه وألقى تحية الواي على القطنمل الستة المُحيطين به. ودُهش حين ضمَّ كلٌّ منهم كل يدَين من أيديه الأربعة أمام بطنه وانحنى انحناءة خفيفة تجاهه.

من الواضح أن القبو العميق في الأسطوانة البنية كان غير آهل بالسكان. فقد مر ريتشارد ومرشده بالكثير من القطنمل الآخرين بعد أن غادرا غرفة الشبكة وخاصة في المنطقة المجاورة للقاعة المركزية. ولكن فور أن دخلا الطريق المنحدر الذي يؤدي إلى القبو لم يقابلا أيًّا من القطنمل قط.

أرسل مرشد ريتشارد واحدًا من ذوات الأرجل أمامهما. فانطلق في النفق الضيق الأخير ثم في مخرج الطوارئ الذي يُشبه القنطرة والذي يؤدي إلى المنطقة الخضراء. وعندما عاد وقف على الجزء الخلفي من رأس القطنمل عدة ثوانٍ ثم نزل مسرعًا إلى الأرض. وبعدها أشار المُرشد إلى ريتشارد لينطلِق في النفق.

في المنطقة الخضراء بالخارج قابل ريتشارد اثنين من المخلوقات الطائرة اللذين انطلقا في رحلة طيرانٍ على الفور. كان في جناح أحدهما ندب قبيح كأنَّ وابلًا من الرصاص أصابه. كان ريتشارد في غابة كثيفة بعض الشيء، وكان ارتفاع النباتات من حوله يصل إلى ثلاثة أمتار أو أربعة. ومع أن الضوء كان خافتًا، لم يصعب على ريتشارد أن يجد مكانًا يمشي فيه، وأن يتبع المخلوقَين اللذَين يطيران فوقه. وكان من حين إلى آخر يسمع دويَّ رصاص متقطعًا صادرًا من بعيد.

مرت الخمس عشرة دقيقة الأولى دون أن تقع أي حوادث. وبدأت كثافة الغابة تقل. فقدَّر ريتشارد أنه سيصل إلى الخندق ليُقابل الغواصة بعد عشر دقائق، لكن عندها، وبدون سابق إنذار، بدأ مدفعٌ رشاش يُطلق رصاصه على مسافةٍ لا تبعُد عنه بأكثر من مائة متر. فهوى أحد الكائنَين الطائرَين إلى الأرض. واختفى الآخر. فلجأ ريتشارد إلى الاختباء بين مجموعةٍ كثيفة من الشجيرات، لكنه سمع جنديَّين قادمَين تجاهه.

قال أحدهما: «حلقتان بالتأكيد. بل ربما ثلاث. هذا يجعل مجموع الحلقات التي جمعتها في هذا الأسبوع وحدَه عشرين.»

«اللعنة يا رجل، لسنا في سباق. بل إننا يجب ألا نحسب ذلك. فالطائر لم يعلم بوجودك.»

«هذه مشكلته وليست مشكلتي. لا يزال عليَّ أن أعُدَّ حلقاته، آه، ها هو ذا ... لديه حلقتان فقط يا صاح.»

كان الرجلان على بُعد خمسة عشر مترًا فقط من ريتشارد. فتسمَّر في مكانه ولم يجرؤ على الحركة لما يزيد عن خمس دقائق. ظلَّ الجنديَّان أثناءها بجوار جثة المخلوق الطائر يُدخنان ويتحدثان عن الحرب.

بدأ ريتشارد يشعر بألَمٍ في قدَمه اليُمنى. فحاول أن يرتكز على القدم الأخرى برفق ظانًّا أنه سيريح بهذا العضلة المتعبة، غير أن حركته هذه لم تؤدِّ إلا إلى زيادة الألم. فنظر إلى أسفلَ وراعَهُ أن اكتشف أن أحد المخلوقات التي تُشبه القوارض والتي رآها في غرفة اللوحات الجدارية أكلت ما تبقَّى من حذائه وبدأت تعضُّ قدمَه. فحاول أن يهزَّ قدمَه بقوة دون أن يصدر صوتًا. ولكن نجاحه لم يكن مبهرًا. فمع أن المخلوق القارض ترك قدمَه فقد سمِع الجنديان الصوت وبدآ يسيران باتجاهه.

لم يستطع ريتشارد أن يجري. فحتى إن كان هناك سبيل للهرب فإن الوزن الزائد الذي يحمله كان سيجعله فريسةً سهلة للجندِيَّين. وفي غضون دقيقة واحدة صاح الرجل: «هناك يا بروس، أظن أنه يُوجد شيء بين الشجيرات.»

كان الرجل يُصوِّب بندقيته نحو ريتشارد. فقال: «لا تطلق النار. إنني إنسان.»

لحق الجندي الثاني بزميله. وقال: «ما الذي تفعله هنا بمفردك بحق الجحيم؟»

أجابه ريتشارد: «أتمشَّى.»

فقال الجندي الأول: «أجُنِنت يا رجل؟ اخرج من هناك. ودعنا نُلقي نظرة عليك.»

خرج ريتشارد ببطءٍ من بين الشجيرات. ولم يفلح خفوت الضوء في إخفاء غرابة منظره بالشعر واللحية الطويلَين والسترة الزرقاء المُنتفخة.

«يا إلهي! من أنت؟ وأين وضعت زيَّك؟»

قال الرجل الآخر وهو لا يزال يُحدق في ريتشارد: «إنه ليس جنديًّا. إن وجوده هنا جنون. لا بد أنه هرب من المنشأة في أفالون وجاء إلى هنا عن طريق الخطأ ... أيها الأحمق ألا تعرِف أن هذه المنطقة خطرة؟ يُمكن أن تُقتل ...»

قاطعَه الجندي الأول قائلًا: «انظر إلى جيوبه. إنه يحمل أربع بطيخاتٍ ضخمة ...»

على حين غرة، انقضَّت المخلوقات الطائرة من السماء. ولا بد أنها كانت بأعدادٍ كبيرة، وكان الغضب يتملَّكهم فأخذوا يصرخون وهم يشنُّون هجومهم. وقع الجنديَّان على الأرض. وبدأ ريتشارد يجري. هبط أحد المخلوقات الطائرة على وجه الجندي الأول وبدأ يُمزقه إرْبًا إرْبًا بمخالبه. انطلق وابل من الرصاص عندما هُرع الجنود الآخرون الذين كانوا في الجوار إلى تلك المنطقة ليُساعدوا فرقة الاستطلاع بعدما سمعوا ضجيج المعركة.

لم يكن ريتشارد يعرف كيف سيعثُر على الغواصة. ولكنه جرى أسفل التل بأكبر سرعةٍ تسمح له بها قدماه والحمل الذي على كتفَيه. وزاد إطلاق النار خلفه. ووصلت إلى أُذنَيه صرخات الألم التي يُطلقها العساكر وصرخات الاحتضار التي تُطلقها المخلوقات الطائرة.

وصل إلى الخندق، لكنه لم يعثُر على أي أثر للغواصة. وسمع أصوات البشر قادمة من خلفه على المنحدَر. لكن في اللحظة التي بدأ الذعر ينتابُه فيها، سمع صوت صرخةٍ منخفضة تصدر من شجيرة ضخمة على يمينه. وطار قائد المخلوقات الطائرة ذو الحلقات الأربعة الزرقاء المخضرة بجوار رأسه دون أن يرتفع كثيرًا عن الأرض ومضى متوغلًا في شاطئ الخندق متجهًا نحو اليسار.

عثرا على الغواصة الصغيرة بعد ثلاث دقائق. وقبل أن يندفع البشر إلى المنطقة المكشوفة من الأرض الخضراء كانت الغواصة قد غاصت بهما. في الداخل، خلع ريتشارد حقيبته ووضعها خلفه في غرفة التحكُّم الصغيرة. ثم نظر إلى رفيقه الطائر وحاول أن ينطق بعبارتَين بسيطتَين بلُغته. فأجابه الطائر القائد ببطءٍ ووضوح شديدَين قائلًا ما معناه: «إننا جميعًا نشكرك شكرًا جزيلًا.»

استغرقت الرحلة ما يزيد قليلًا عن ساعة. ولم يتحدَّث ريتشارد والمخلوق الطائر معًا كثيرًا خلالها. في بدايتها، راقب ريتشارد القائد عن كثبٍ وهو يقود الغواصة. وأدخل في جهاز الكمبيوتر الخاص به بعض الملاحظات، ثم تسلَّم القيادة لمدٍ قصيرة في النصف الثاني منها. وكلما خفَّ انشغال عقل ريتشارد، ثارت فيه الأسئلة عن كلِّ ما مرَّ به في المسكن الثاني. وكان أكثر ما يودُّ معرفته هو سبب اختياره هو للنزول في الغواصة مع البطيخ وبيض المخلوقات الطائرة وذلك الجزء من الشبكة اللاسويقية، بدلًا من اختيار واحدٍ من القطنمل ليقوم بهذه المهمة. قال لنفسه متفكرًا: لا بد أن شيئًا ما يفوتني.

بعد مرور القليل من الوقت ظهرت الغواصة على السطح وصار ريتشارد في بقعةٍ يألفها. إذ لاحت له ناطحات سحاب نيويورك في الأفق. وصاح بأعلى صوته وهو يحمل حقيبته المليئة إلى الجزيرة: «حمدًا للرب.»

جعل القائد الغواصة ترسو بمحاذاة الشاطئ وعلى عجل استأذن للرحيل. فقام بحركة مستديرة وانحنى انحناءة خفيفة لريتشارد ثم رحل باتجاه الشمال. بينما كان ريتشارد يُشاهد المخلوق الذي يُشبه الطيور وهو يطير مبتعدًا، أدرك أنه كان يقف في نفس المنطقة التي انتظر فيها هو ونيكول الكائنات الطائرة الثلاثة لتحمِله عبر البحر الأسطواني إلى الحرية منذ سنواتٍ في مركبة راما الثانية.

٧

في اللحظة التي وقف فيها ريتشارد على سطح نيويورك جمعت المجسَّات الرامية المتناهية الصغر المُتناثرة في جميع أنحاء السفينة الفضائية الأسطوانية العملاقة مائة مليار معلومة. وكانت هذه المعلومات تنتقِل في الحال إلى مراكز محلية مُتناهية الصغر تقوم بإدارة المعلومات، وهناك تُخزَّن هذه المعلومات إلى أن يحين الوقت المُحدَّد لإعادة بثِّها إلى الكمبيوتر المركزي المُختصِّ بالاتصالات عن بُعد والمدفون تحت نصف الأسطوانة الجنوبي.

في كل لحظةٍ من كل ساعةٍ من كل يوم تجمع المجسَّات الرامية هذا الكم من المعلومات الذي لا يُحصيه عقل بشري. ثم يتولَّى الكمبيوتر المُختص بالاتصالات تصنيف هذه البيانات وفرزها وتحليلها وضغطها وتخزينها في أجهزة تسجيلٍ يقلُّ حجم كل مُكون من مكوناتها عن حجم الذرة. بعد التخزين، يدخل على هذه البيانات عددٌ كبير من أجهزة الكمبيوتر الموزعة التي تتحكَّم معًا في سفينة راما الفضائية، والتي يتولَّى كلٌّ منها مهمة خاصة. ثم تقوم آلاف الخوارزميات الموزعة بين أجهزة الكمبيوتر بمعالجة هذه البيانات، فتستخرج منها معلومات مُركبة وأخرى عامة؛ تمهيدًا لإرسالها ضمن دفعات المعلومات التي ترسَل بسرعةٍ فائقة في مواعيد منتظمة إلى الذكاء النودي فتنقل إليه وضع البعثة.

تضم البيانات المرسلة خليطًا من البيانات الأولية والبيانات المضغوطة والبيانات المركبة، وهذا يتوقَّف على نوع التنسيق الذي تختاره أجهزة الكمبيوتر المختلفة. لكن أهم ما في البيانات المرسلة هو التقرير السردي الذي يقدم فيه الذكاء الذي يتحكَّم في راما — رغم اختلاف المهام التي تقوم بها أجزاؤه — مُلخصًا لتطور المهمة بعد ترتيبه حسب الأولوية. أما باقي البيانات فتُمثل، بصفةٍ أساسية، معلوماتٍ شارحةً للتقرير، تضم صورًا أو قياساتٍ أو معلومات أتت بها المجسات، التي تقوم إما بتوفير معلومات إضافية عن خلفية ما هو مُقدم أو تدعم مباشرةً النتائج المُتضمنة في الملخص.

واللغة المستخدمة في كتابة هذا التقرير حسابية في تركيبها، دقيقة في معانيها، ومشفرةً شفرةً معقدة. كما أنها غنية بالهوامش، إذ تضمُّ كل عبارةٍ أو جملة ضمن هيكل بثِّها مؤشرات تُشير إلى معلوماتٍ تدعم الرأي الذي تُعبر عنه. ولا يمكن بأيِّ حالٍ ترجمة هذا التقرير إلى أي لغةٍ في مثل بدائية اللغات التي يتحدَّث بها البشر. ومع هذا نُقدِّم فيما يلي صورةً أولية تقرب إلى الذهن شكلَ التقرير الذي تلقَّاه الذكاء النوديُّ من راما بعد وصول ريتشارد إلى نيويورك مباشرةً.

تقرير رقم ٢٩٨

وقت البث: ١٥٦ ٣٠٧ ٨٧٢ ٤٩١,٥١١٦

الوقت منذ إطلاق إنذار من الدرجة الأولى: ٢٩,٢٨٧٣

السند: النود ٤١٩–٢٣

سفينة الفضاء ٩٤٧

المخلوقات («أ» و«ب») ٤٧ ٢٤٩

٣٢ ٨٠٦

٢ ٦٦٦

في المدة الأخيرة واصل البشر (المخلوقات التي تجوب الفضاء رقم ٣٢ ٨٠٦) شن حرب ناجحة على الزوج التكافلي الذي يضمُّ المخلوقات الطائرة/الكائنات اللاسويقية (رقم ٤٧ ٢٤٩ – «أ» و«ب»). يُسيطر البشر الآن على كل المنطقة الواقعة بداخل مسكن المخلوقات الطائرة/الكائنات اللاسويقية تقريبًا، بما فيها الجزء العلوي من الأسطوانة البُنية حيث كانت تعيش المخلوقات الطائرة في السابق. واجهت المخلوقات الطائرة الغزو البشري بشجاعة، ولكن دون أن تأتي مواجهتها بأي ثمار، فقد قتلَهم البشر بلا رحمة، ولا يبقى منهم الآن سوى أقلَّ من مائة.

حتى الآن لم يَخترق البشر أرض الكائنات اللاسويقية. لكنهم وجدوا ممرات المصاعد التي تؤدي إلى الأجزاء السفلية من الأسطوانة البُنية. وهم الآن يضعون الخطط لمهاجمة ملجأ الكائنات اللاسويقية.

الكائنات اللاسويقية مخلوقات تعجز عن الدفاع عن نفسها. ولا تُوجَد أي أسلحة من أي نوعٍ في أرضها. بل إن النوع القادر على الحركة منها الذي يتمتَّع بقدرة جسدية على

استخدام السلاح مطبوعٌ على السُّلَّم. فلم يسعه أن يفعل شيئًا لحماية نفسه من الغزو البشري الحتمي الذي يخشاه سوى أن كلف القطنمل المتحرك ببناء حصون حول أكبر أربعةٍ من هذا النوع وأكثره تطورًا. وفي الوقت نفسه، كان لا يسمح لمزيدٍ من بطيخ المنِّ بالنمو، كما يُرسل القطنمل الذي لن يشارك في عملية البناء إلى الشرنقة في مرحلةٍ مبكرة. إذا أخَّر البشر هجومهم، وهذا يبدو محتملًا، فمن المُمكن ألا يُقابلوا إلا القليل من القطنمل أثناء الغزو.

يواصل الأشخاص الذين يتَّسمون بصفاتٍ شديدة التبايُن من العينة البشرية التي راقبناها في مركبة راما الثانية وفي النود السيطرةَ على مسكن البشر. والهمُّ الأكبر للقادة البشريين الحالِيِّين هو الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم دون أن يضعوا رفاهية المستعمرة في اعتبارهم. ورغم إرسال الرسالة التليفزيونية ورغم وجود مُستعمِرين أصلِيِّين مُعارضين بينهم؛ فإن القادة لا بد أنهم لا يعتقدون أنهم مُراقَبون بالفعل؛ لأن تصرُّفاتهم لا تعكس على الإطلاق احتمال وجود مجموعةٍ من القِيَم أو القوانين الأخلاقية التي تُسيطر على عالمهم.

يواصل البشر شنَّ حربهم على المخلوقات الطائرة/الكائنات اللاسويقية، وهدفهم الأساسي من هذا هو صرف انتباه الشعب عن المشاكل الأخرى التي تُواجِهها المستعمرة، وفيها التدهور البيئي الذي تسبَّبوا فيه، والتدهور السريع في مستوى المعيشة. ولم يظهر على قادة البشر، بل وعلى مُعظم المُستعمِرين، أي علامة من علامات الندم على قتل المخلوقات الطائرة واحتمال تعرُّضها للإبادة.

لم يعُد للأسرة التي عاشت في النود لأكثرِ من عامٍ أي تأثيرٍ مُهم على شئون المستعمرة. فالمرأة التي كانت المُستعمرة الأساسية لا تزال محبوسة، والسبب الرئيسي في هذا هو أنها تُعارِض أفعال القادة الحاليين، وهي تُواجِه الآن خطر الإعدام. أما زوجها فكان يعيش مع المخلوقات الطائرة والكائنات اللاسويقية وهو الآن ركن مُهم في محاولتهم للحفاظ على حياتهم بعد تعرُّضهم للهجوم البشري. والأطفال لم يبلغوا بعدُ حدًّا من النضج يكفي ليُمكنهم من أن يكونوا لاعبين رئيسيين في مُستعمرة البشر.

مؤخرًا، هرب الزوج من أرض الكائنات اللاسويقية إلى الجزيرة الواقعة في منتصف السفينة الفضائية. وحمل معه أجنة المخلوقات الطائرة والكائنات اللاسويقية. وهو الآن موجود في بيئةٍ مألوفة، ولذا يجِب أن يكون قادرًا على البقاء وعلى رعاية صغار النوع الآخر. ويرجع جزءٌ من نجاح هروبه إلى التدخُّل البسيط الذي بدأ وقت انطلاق إنذار الدرجة الأولى.

من المؤكَّد أن إشارات التدخُّل أثَّرت في القرار الذي اتَّخذته الكائنات اللاسويقية، والذي يقضي بائتمان بشري على أجنتها.

غير أنه لا يُوجَد دليل على أن رسالة التدخُّل قد أثرت في تصرُّف أيٍّ من البشر؛ فمعالجة المعلومات بالنسبة للكائنات اللاسويقية نشاط أوَّلي، ولهذا ليس من المُستغرَب أن تؤثر فيه الإشارات التدخُّلية. أما البشر، وخاصة القادة منهم، فحياتهم مليئة جدًّا بالنشاط، حتى إنه لا يتَّسِع لهم وقتٌ للتأمُّل إلا قليلًا.

كانت هناك مشكلة أخرى عند محاولة التأثير على البشر بالتدخُّل البسيط. وهي أن البشر نوع شديد التبايُن، فكل فردٍ يختلف عن الآخر اختلافًا ما يجعل من المُستحيل تصميم وحدة بثٍّ ذات نطاقٍ واسع من الاستخدام. إذ إن مجموعة الإشارات التي قد ينتج عنها تحسين سلوك شخصٍ ما قد لا تؤثر إطلاقًا على أي شخصٍ آخر. تُجرى الآن تجارب على الأنواع المختلفة لعمليات التدخل، ولكن من المُحتمَل أن يكون البشر ممَّن ينتمون إلى تلك المجموعة الصغيرة من المخلوقات التي لا تتأثر بالتدخُّل البسيط.

أما في جنوب المركبة الفضائية، فتستمرُّ كائنات الأوكتوسبايدر (رقم ٦٦٦ ٢) في النمو في مستعمرةٍ تكاد تُطابق المستعمرات الأخرى المعزولة في الفضاء.

غير أن النطاق الكامل للأشكال البيولوجية المُحتمَلة يظلُّ غير واضح، ويرجع هذا في الأساس إلى محدودية الموارد الإقليمية وغياب التنافُس الحقيقي. ولكنهم يتمتعون بقدرةٍ هائلة على التطوُّر ظهرت جليةً في نجاحهم أكثر من مرةٍ في التحوُّل من مجموعة نجومية إلى أخرى.

لم يكن الأوكتوسبايدر يُولون النوعَين الآخَرَين الموجودَين في السفينة الكثير من الاهتمام، إلى أن بدأ البشرُ الحفرَ في جدار مسكنهم واخترقوه. فمنذ أن بدأ البشر الاستكشاف، أخذ الأوكتوسبايدر يُراقبون ما يحدُث في الشمال باهتمامٍ متزايد. لكن البشر لا يعرفون شيئًا عن وجود الأوكتوسبايدر حتى الآن. وقد بدأ الأوكتوسبايدر بالفعل وضع خطة طوارئ تَحميهم إذا ما حدث تفاعُل بينهم وبين جيرانهم العدوانيين.

إن الفقد المُحتمَل لمجتمع المخلوقات الطائرة/الكائنات اللاسويقية يُقلل بشدة من قيمة البعثة. ومن المُحتمَل ألا ينجو من الكائنات اللاسويقية والمخلوقات الطائرة سوى هؤلاء الموجودين في حديقة حيوان الأوكتوسبايدر، وهؤلاء الذين يرعاهم البشري على الجزيرة. غير أن هذا لا يستدعي إطلاق إنذارٍ من الدرجة الثانية، وإن أدَّى إلى فقد نوعٍ واحدٍ فقدًا لا يُمكن تعويضه، ومع هذا فإن تصرفات قادة البشر الحاليين غير المُتوقَّعة والمُميتة

تُثير مخاوف شديدة من أن تتكبَّد البعثة خسائر أخرى فادحة. سيركز نشاط التدخُّل في المستقبل القريب على هؤلاء البشر الذين يُعارضون القادة الحاليين، والذين عكست تصرفاتهم سمُوَّهم على النزعة الإقليمية والعدوانية.

٨

«تُدعى بلدي تايلاند. وكان بها ملك يُسمَّى أيضًا راما، مثل سفينتنا. على الأرجح أن جدَّتُكما وجدَّكُما — اللذَين هما أمي وأبي — لا يزالان يعيشان هناك، في مدينة تُسمَّى لامبون ... ها هي ذي.»

أشارت ناي إلى بقعةٍ على الخريطة الباهتة الألوان. فبدأ انتباه الولدَين يتشتَّت. فقالت في نفسها: ما زلتما صغيرَين جدًّا. هذا يفوق ما يمكن توقُّعه من طفلَين في الرابعة وإن كانا ذكيَّين.

قالت وهي تطوي الخريطة: «حسنًا، يُمكنكما الآن أن تَخرُجا وتلعبا.»

ارتدى جاليليو وكيبلر سُترتيهما الثقيلتين وأخذا الكرة واستبقا الباب إلى الشارع. وفي غضون ثوانٍ كانا يلعبان الكرة وحدهما متناوبَين ركلَها. حدَّثت ناي نفسها وهي في المدخل تشاهد الطفلَين قائلةً: آه يا كينجي. كم يفتقدانك! لا يمكن أبدًا لأحد الأبوين أن يُعوض غياب الآخر.

كانت ناي قد بدأت درس الجغرافيا، مثلما تفعل دائمًا، بتذكير الولدَين بأن جميع مُستعمري عدن الجديدة أتوا من كوكب يُسمَّى الأرض. بعد هذا أطْلَعت الطفلين على خريطة العالم الأرضي بادئةً بشرح المفاهيم الأساسية مثل مفهوم القارات والمُحيطات، ثم تعريفهما باليابان، البلد الأم لأبيهما. وكان هذا يُثير فيها الحنين إلى بلدها والشعور بالوحدة.

بينما ناي تشاهد مباراة الكرة على ضوء شارع أفالون الخافت، قالت لنفسها: ربما لا أعني توجيه هذه الدروس إليكما. أخذ جاليليو يضرب الكرة بالأرض مرارًا حول كيبلر ثم ركلَها نحو مرمى خيالي. فأضافت في نفسها: ربما أعني توجيهها إلى نفسي.

كانت إيبونين تسير في الشارع مُتوجِّهةً إليهم. وعندما وصلت عند الولدين أمسكت بالكرة ثم قذفتها إليهما. ابتسمت ناي لصديقتها. وقالت: «كم تُسعِدني رؤيتك! إنني في أمسِّ الحاجة إلى رؤية مثل هذا الوجه البشوش اليوم.»

سألتها إيبونين: «ما الأمر يا ناي؟ هل تُسبِّب لك الحياة في أفالون الإحباط؟ ... على الأقل اليوم هو يوم الأحد. ولست تعمَلِين في مصنع البنادق، والولدان ليسا في المركز.»

دخلت المرأتان المنزل. فأشارت إيبونين بيدِها إلى الغرفة. وقالت: «بالتأكيد لا يمكن أن تكون أحوال معيشتك هي ما يُسبِّب لك الاكتئاب. فلديكم غرفة كبيرة تكفي ثلاثتكم، ومكان مُتواضع لقضاء حاجتكم، وحجرة للاستحمام تشترك معكم فيها خمس عائلات أخرى. هل تطمعين في أكثر من هذا؟!»

ضحكت ناي واحتضنت إيبونين. وقالت: «إنك مصدر عون لا ينضب.»

بعد دقيقة ظهر كيبلر في المدخل وقال: «أمي، أمي. تعالَي بسرعة. لقد عاد ... وإنه يتحدث مع جاليليو.»

عادت ناي وإيبونين إلى الباب. فوجدتا رجلًا ذا وجهٍ مُشوَّهٍ تشوُّهًا كبيرًا جاثيًّا على الأرض بجوار جاليليو. وكان الخوف باديًّا على الأخير. كان الرجل ممسكًا بورقة في يديه المُغطاة بقفاز. وكان مرسومًا عليها بدقة وجهٌ بشريٌّ كبيرٌ ذو شعر طويل ولحية كثة.

قال الرجل بإصرار: «تعرف صاحب هذا الوجه، أليس كذلك؟ إنه السيد ريتشارد ويكفيلد، أليس كذلك؟»

اقتربت ناي وإيبونين من الرجل بحذر. وقالت ناي بحزم: «أخبرناك المرة السابقة ألا تزعج الولدَين مرة أخرى. عُد إلى المستشفى الآن وإلا سنتَّصِل بالشرطة.»

كانت عينا الرجل تعكسان انفعالًا جارفًا. وقال: «رأيتُه ليلة أمس. كان يُشبِه المسيح ولكنه ريتشارد ويكفيلد قطعًا. وعندما بدأتُ أطلق عليه النار هاجموني. كانوا خمسة. مزقوا وجهي إربًا إربًا ...» بدأ الرجل ينتحِب.

جرى عامل بالمستشفى نحوَهم. وأمسك بالرجل. لكنه ظل يصرخ وهو يأخذه بعيدًا ويقول: «رأيته. أنا متأكد. أرجوكم صدقوني.»

كان جاليليو يبكي. فمالت ناي عليه لتُهدِّئه. فقال: «أمي هل تظنين أن هذا الرجل رأى السيد ويكفيلد حقًّا؟»

أجابته: «لا أعرف.» ثم نظرت إلى إيبونين. وقالت: «ولكن بعضنا يودُّ أن يصدقه.»

نام الولدان أخيرًا على سريريهما الواقعَين في زاوية الغرفة. وجلست ناي وإيبونين متجاورتَين على الكرسِيَّين. قالت إيبونين بصوتٍ خفيض: «تقول شائعة إن المرض اشتد عليها. إنهم لا يكادون يطعمونها. ولا يألون جهدًا في التأكُّد من أنها تُعاني.»

قالت ناي بفخر: «لن تستسلم نيكول أبدًا. أتمنَّى لو كنتُ أتمتع بنفس قوتها وشجاعتها.»

ردَّت إيبونين: «لم يُسمح لإيلي ولا لروبرت بزيارتها طوال ما يزيد على ستة أشهر ... بل إنها لا تعلم حتى أنها رُزِقت بحفيدة.»

قالت ناي: «أخبرَتْني إيلي الأسبوع الماضي أنها قدمت التماسًا آخَرَ لناكامورا تُطلب فيه زيارة والدتها. إنني قلقة عليها. فهي تضغط عليه ضغطًا شديدًا.»

ابتسمت إيبونين. وقالت: «إيلي رائعة جدًّا وإن كانت ساذجة للغاية. فهي تؤكد أن ناكامورا سيَدَعُها وشأنها إن أطاعت كل قوانين المستعمرة.»

قالت ناي: «هذا لا يُدهشني ... وخاصة إن أخذت في الاعتبار أنها لا تزال تعتقد أن والدها على قيد الحياة. وقد تحدَّثت مع كلِّ من ادَّعى رؤيته منذ أن اختفى.»

قالت إيبونين: «كل هذه القصص عن ريتشارد تبعث فيها الأمل. علينا أن نُصبِّر أنفسنا ببصيص أملٍ من حينٍ إلى آخر ...»

توقف الحوار للحظات. ثم سألت ناي إيبونين: «ماذا عنك يا إيبونين؟ هل تسمحين لنفسك ...»

فقاطعَتْها إيبونين قائلةً: «كلَّا. أنا دائمًا صادقة مع نفسي ... سأموت قريبًا، كل ما في الأمر هو أنني لا أعلم متى بالضبط. ولماذا أُحارب لأبقى على قيد الحياة؟ الأحوال هنا في أفالون أسوأ كثيرًا من أحوال مُعتقل بورج. ولو لم يكن في حياتي أطفالُ المدرسة ...»

سمِعَتا ضوضاء قادمة من الخارج في نفس الوقت. فتسمَّرَتا في مكانيهما. إذ لو أن أحد الآليين التابعين لناكامورا الذين يتجولون في أنحاء المكان سجَّل الحوار الذي دار بينهما، فإنهما ...

فجأة، دفع شخصٌ ما الباب ففُتِح. وكاد قلبا المرأتين يتوقَّفان ذُعرًا. دلف ماكس باكيت إلى الغرفة وهو يبتسم ابتسامةً عريضة. وقال: «أنتما رهن الاعتقال لأنكما تحدثتما حديثًا فيه تحريض على عصيان الحكومة.»

كان ماكس يحمِل صندوقًا خشبيًّا كبيرًا. فساعدَتْه المرأتان في وضعه في زاوية الغرفة. ثم خلع سترته الثقيلة. وقال: «آسِف على المجيء في هذا الوقت المتأخِّر، ولكن لم يكن أمامي خيار.»

سألته ناي بصوتٍ خفيض: «أهذه إمدادات غذائية أخرى للجيش؟» وأشارت إلى التوءمَين النائمين.

أومأ ماكس برأسه. وقال بصوت أكثر انخفاضًا: «الملك الياباني دائمًا ما يُذكِّرني بأن الطعام وقود الجيش.»

قالت إيبونين: «هذا أحد الأقوال المأثورة عن نابليون.» ثم نظرت إلى ماكس وهي تبتسِم ابتسامةً ساخرة. وأضافت: «لا أظن أنك سمعتِ عنه في آركنسو.»

رد ماكس: «آه. المُعلمة الجميلة تقوم بدور المتحذلق الليلة.» وأخرج علبة سجائر غير مفتوحة من جيب قميصه. وأضاف: «ربما عليَّ أن أحتفظ بهديتي إليها.»

ضحكت إيبونين وقفزت لتأخذ السجائر. فأعطاها لها ماكس بعد أن اصطنع مازحًا أنه يُقاومها. فقالت إيبونين بصدق: «أشكرك يا ماكس. إنهم لا يسمحون لأمثالنا بأن نستمتع ...»

قاطعها ماكس وهو محتفظ بابتسامته العريضة: «اسمعي. لم أقطع كل هذا الطريق إلى هنا لأسمعك تندبين حظك. لقد توقفتُ في أفالون حتى أستمدَّ الحياة من وجهك الجميل. فإذا ما ظللتِ مكتئبة فسآخُذ القمح والطماطم ...»

صاحت ناي وإيبونين معًا: «قمح وطماطم!» وأسرعتا نحو الصندوق. قالت ناي بانفعال وماكس يفتح الصندوق بقضيبٍ من الصلب: «لم يتناول الطفلان أي منتجات طازجة منذ أسابيع.»

قال ماكس بجدية: «كُونا حذِرَتَين للغاية. فأنتما تعلمان أن ما أفعله مخالف للقانون. إذ إن الطعام الطازج لا يكاد يكفي الجيش وقادة الحكومة. ولكنني رأيتُ أنكم تستحقون شيئًا أفضل من فضلات الأرز.»

احتضنت إيبونين ماكسَ. وقالت: «أشكرك.»

قالت ناي: «أنا والولدان مُمتنون لك بشدة. ولا أعرف كيف أشكرك.»

قال ماكس: «سأجد طريقةً تشكرينني بها.»

عادت المرأتان إلى كرسييهما وجلس ماكس على الأرض بينهما. قال: «قابلتُ باتريك أوتول مصادفةً في المنطقة السكنية الثانية. وطلب منِّي أن أبلغكما سلامه.»

سألته إيبونين: «كيف حاله؟»

أجابها ماكس: «أرى أنه يُعاني. عندما طُلب للتجنيد ترك نفسه لكيتي لتقنعه بأن يقبل الالتحاق بالجيش، وأنا على يقينٍ من أنه لم يكن ليفعل هذا إذا كان أيٌّ من نيكول أو ريتشارد قد تمكن من التحدُّث معه ولو مرة واحدة، وأعتقد أنه يُدرك الآن خطأه. إنه لم ينبس ببنت شفة ولكنني أشعر بمُعاناته. إن ناكامورا يُبقيه في الخطوط الأمامية بسبب صِلة القرابة التي تربطه بنيكول.»

سألت إيبونين: «هل أوشكَتِ الحرب على الانتهاء؟»

ردَّ ماكس: «أظن هذا. ولكن من الواضح أن الملك الياباني لا يُريدها أن تنتهي. فبناءً على ما يُخبرني به الجنود لم يعُد جيشنا يواجِهُ إلا القليل من المقاومة. والمهمة الأساسية التي يقوم بها الآن هي تصفية ما تبقَّى من جيش العدو بداخل الأسطوانة البُنية.»

مالت ناي إلى الأمام. وقالت: «سمِعنا شائعة تقول إن هناك نوعًا عاقلًا آخَر يعيش في الأسطوانة؛ نوعًا مُختلفًا عن المخلوقات الطائرة تمامًا.»

ضحك ماكس. وقال: «ماذا نصدق؟! فالتليفزيون والجرائد تُردِّد ما يُخبرهما به ناكامورا، وكلنا يعرف هذا. ودائمًا ما تُثار مئات الشائعات. ولكنَّني رأيت بنفسي بعض النباتات والحيوانات الفضائية الغريبة داخل المنطقة السكنية، ولهذا لن يُدهِشني شيء.»

قاومت ناي التثاؤب. فقال ماكس وهو يقف: «من الأفضل أن نرحل وندَع مُضيفتنا تخلد إلى النوم.» ثم نظر إلى إيبونين. وقال: «هل تُريدين أن يصطحبك أحد إلى البيت؟»

قالت إيبونين بابتسامة: «هذا يتوقَّف على من هو هذا الشخص.»

بعد دقائق قليلة وصل ماكس وإيبونين إلى منزلها الصغير المُتواضِع الذي يقع في أحد الشوارع الجانبية في أفالون. فرمى ماكس السيجارة التي كانا يُدخنانها ودهسها بقدمه. وبدأ يقول: «هل تودِّين أن يقوم شخص ...»

فردَّت عليه وهي تتنهَّد: «بالطبع يا ماكس. وإن كنتُ سأختار أحدًا، لم أكن لأختار غيرك.» ثم نظرت إلى عينَيه مباشرةً. وقالت: «ولكن إن قضينا الليل معًا مرةً فسأطمع في المزيد. وإذا حدث، لا قدَّر الله، وأُصبت، رغم أخذنا الحيطة، بفيروس «آر في ٤١» فلن أسامح نفسي أبدًا.»

دفنت إيبونين نفسها في حُضنه لتُداري دموعها. وقالت: «أشكرك على كلِّ ما تُقدمه لنا. أنت رجل رائع يا ماكس، بل ربما تكون الرجل الرائع الوحيد في هذا العالَم المجنون.»

كانت إيبونين داخل متحفٍ في باريس وحولها مئات من التُّحف. سارت مجموعة كبيرة من السائحين في المتحف. وشاهدوا خمسًا من اللوحات الرائعة التي رسمَها رينوار ومونيه في خمسٍ وأربعين ثانيةً فقط. فصاحت إيبونين في الحلم: «توقفوا. لا يُمكنكم أن تكونوا قد رأيتموها.»

جعلها صوت الدق على بابها تفيق من الحلم. وسمعت إيلي تقول: «نحن الطارقان يا إيبونين. لو كان الوقت مُبكرًا جدًّا يُمكننا أن نحاول العودة في وقتٍ لاحق قبل أن تذهبي

إلى المدرسة. ولكنَّ روبرت خشِيَ أن يَعُوقنا ضغط العمل في عنبر الأمراض النفسية عن المجيء.»

مدَّت إيبونين يدها وأخذت الرداء المعلق على الكرسي الوحيد بالغرفة. وقالت: «لحظة واحدة، أنا قادمة.»

فتحت الباب لأصدقائها. كانت إيلي ترتدي زيَّ المرضة، ونيكول الصغيرة في حمالة رُضع على ظهرها. وكانت الرضيعة النائمة ملفوفة بمهارةٍ في رداءٍ قطني ليحميها من البرد.

قالت إيلي: «أتسمحين لنا بالدخول؟»

ردَّت إيبونين: «بالطبع. آسِفة يبدو أنني لم أسمعكما ...»

قالت إيلي: «هذا وقت غير مُناسب للزيارة. ولكن نظرًا للكم الهائل من العمل الذي ينتظرنا في المُستشفى فلن نستطيع أن نأتي أبدًا إلا في الصباح الباكر.»

سألها الدكتور تيرنر بعد ثوانٍ قليلة: «كيف حال صحتك؟» كان يرفع أداة ماسحة أمام إيبونين، وبدأت البيانات تظهر على شاشة الكمبيوتر المحمول الخاص به.

قالت إيبونين: «أشعر ببعض الإرهاق. ولكن هذا قد يرجِع إلى عاملٍ نفسي وحسب. فمنذ أن أخبرتني منذ شهرَين أن بعض علامات التدهور بدأت تظهر على قلبي وأنا أتخيل أنني أصاب بأزمة قلبيةٍ مرة يوميًّا على الأقل.»

أثناء الفحص قامت إيلي بتشغيل لوحة المفاتيح المُلحقة بالشاشة. وتأكدت من أن البيانات المهمة التي جاء بها الفحص سُجِّلت على الكمبيوتر. أدارت إيبونين رقبتها لترى الشاشة. وسألت روبرت عن أداء النظام الجديد.

أجابها: «هناك بعض القصور في المسابير. ولكن إد ستافورد يقول إن هذا مُتوقَّع بسبب عدم قيامنا باختباره كما ينبغي. كما أننا لم نحصُل بعدُ على نظامٍ جيد لإدارة البيانات، ولكن بصفة عامة، أداؤه مُرضٍ.»

قالت إيلي دون أن ترفع عينَيها من على لوحة المفاتيح: «هذا النظام أنجدنا يا إيبونين. فلم نكن لنستطيع أن نُبقي على ملفات «آر في ٤١» عاملةً ونحن نعمل بهذا التمويل المحدود ونواجه أعباء كلِّ جرحى الحرب هؤلاء في غياب مثل هذا النوع من الأتمتة.»

قال روبرت تيرنر: «كل ما كنتُ أتمناه هو الانتفاع بمزيدٍ من خبرة نيكول في وضع التصميمات الأساسية. لم أكن أُدرك أنها تتمتع بكل هذه الخبرة في نظم المراقبة الداخلية.»

رأى الطبيب شيئًا غريبًا في الرسم الظاهر على الشاشة. فقال: «اطبعي نسخةً من هذا من فضلك يا حبيبتي. أريد أن أُطلِع إد عليها.»

عندما أوشك الفحص على الانتهاء سألت إيبونين إيلي: «هل سمعت شيئًا جديدًا عن والدتك؟»

أجابت إيلي ببطء شديد: «قابلنا كيتي منذ ليلتَين. كانت ليلة صعبة. لديها «صفقة» أخرى من ناكامورا وماكميلان وكانت تُريد أن نناقش ...» تهدَّج صوتها. ثم قالت: «على أي حال، تقول كيتي إنهم حتمًا سيُحاكمونها قبل ذكرى يوم الاستيطان.»

فسألت إيبونين: «هل رأت نيكول؟»

أجابت إيلي: «كلَّا. فعلى حدِّ عِلمنا، لم يرَها أحد. فطعامها يُحَضِّره لها آلية جارسيا، والفحص الشهري تقوم به آلية تياسو.»

تحرَّكت الرضيعة وأصدرت صوتًا خفيضًا وهي على ظهر أُمِّها. فمدَّت يدَيها ولمست الجزء الظاهر من خدها. وقالت: «إنهما ناعمان نعومة مدهشة.» في هذه اللحظة فتحت الفتاة الصغيرة عينَيها وبدأت تبكي.

سألت إيلي: «هل أمامي وقتٌ يكفي لإرضاعها يا روبرت؟»

نظر الدكتور تيرنر في ساعته. وقال: «حسنًا. لقد أنهينا عملَنا هنا تقريبًا. ولَمَّا كان كلٌّ من ويلما مارجولين وبيل تاكَر يقطنان المباني المجاورة فيُمكنني الذهاب إليهما وحدي ثم أعود إليك؟»

«هل ستستطيع أن تتعامل معهما بدون مُساعدتي؟»

قال بتجهُّم: «بصعوبة. وخاصة بيل المسكين.»

قالت إيلي موضحةً لإيبونين سبب قوله هذا: «إن بيل تاكر يحتضر ببطءٍ شديد. كما أنه وحيدٌ ويُعاني من ألَم عظيم. ولكن ليس بوسعنا أن نفعل له شيئًا؛ لأن الحكومة جرمت القتل الرحيم.»

قال الدكتور تيرنر لإيبونين بعد دقائق: «لا توجد في بياناتك إشارة إلى تدهور الضمور. أظن أنه علينا أن نحمد الله.»

لم تسمعه. إذ كانت تتخيَّل موتها البطيء المؤلِم. وقالت لنفسها: لن أدع هذا يحدُث أبدًا. فحالما أجد أنني أصبحتُ غير ذات نفع ... فسيحضر لي ماكس بندقية.

قالت: «آسفة يا روبرت. يبدو أنني لم أُفِق من النوم بعد. ماذا قلت؟»

أجابها: «لم تتدهوَر حالتك.» ثم طبع قبلةً على وجنتها وتوجَّه نحو الباب. ثم قال لإيلي: «سأعود في غضون نحو عشرين دقيقة.»

عندما رحل قالت إيبونين: «يبدو روبرت مُرهقًا للغاية.»

ردَّت إيلي: «إنه مُرهق بالفعل. فهو لا يزال يعمل طوال الوقت ... وعندما ينتهي من العمل ينتابه القلق.» كانت إيلي جالسة على الأرضية التُّرابية وهي تسند ظهرها إلى الحائط. وكانت تحمِل نيكول بين ذراعَيها، وكانت الصغيرة ترضع وتُصدر صوتًا من حينٍ لآخر.

قالت إيبونين: «يبدو هذا مُمتعًا.»

فردَّت إيلي: «لم أمر بأيِّ تجربةٍ تُداني الأمومة روعةً. فهي متعة يعجز اللسان عن وصفها.»

هتف صوت داخل إيبونين: أما أنا فلا أصلُح للأمومة. لا الآن. ولا فيما بعد. في لحظة عابرة تذكَّرت إيبونين ليلةَ هوًى كادت فيها ألَّا تقول لا لماكس باكيت.

وتصاعد بداخلها إحساس بالمرارة. فجاهدت لتُحاربه.

قالت مُغيِّرةً الموضوع: «أمضيتُ أمس وقتًا لطيفًا في التمشية مع بينجي.»

قالت إيلي: «أنا واثقة من أنه سيُحدِّثني عن هذا غدًا. فهو يُحب الأوقات التي يقضيها في التمشية معك في أيام الأحد. لم يبقَ له في هذه الدنيا إلا هذا والزيارات التي أقوم بها له من حينٍ إلى آخر ... تعرفين أنني مُمتنَّة لك للغاية.»

ردَّت إيبونين: «لا داعي لقول هذا. فأنا أُحب بينجي. كما أنني أحتاج أن أشعر بأنَّ هناك من يحتاج إليَّ، تعلَمين ما أقصد ... لقد تأقلم بينجي مع ما حدث تأقلُمًا مُدهشًا. فهو لا يشتكي كما يشتكي الآخرون البالِغ عددُهم واحدًا وأربعين، وبالتأكيد لا يتذمَّر مثل من أوكل إليهم العمل في مصنع البنادق.»

ردت إيلي: «إنه يُخفي ألَمَه. فهو أذكى مما يظنُّ الجميع. وهو يكره المستشفى، ولكنه يعرف أنه لا يستطيع أن يعتني بنفسه. ولا يريد أن يكون عبئًا على أحد ...»

فجأة، اغرورقت عينا إيلي بالدموع وارتجف جسدُها بعض الشيء. فكفَّت نيكول عن الرضاعة وحدَّقت في أُمِّها. سألتها إيبونين: «هل أنت بخير؟»

هزَّت إيلي رأسها إيجابًا ومسحت عينَيها بمنديل قُطني صغير كانت ترفعه بجوار ثديها لتمسح ما يسقط من لبنها. تابعت نيكول الرضاعة. وقالت إيلي: «إن رؤية المعاناة في حدِّ ذاتها أمر قاسٍ. أما رؤية المعاناة الزائدة عن الحدِّ فتُمزِّق القلب.»

أنعم الحارس النظر في بطاقتَيهما وناولَهما لرجلٍ آخر يرتدي الزِّيَّ الرسمي ويجلس خلفه على منضدةٍ موضوع عليها كمبيوتر. أدخل الرجل الثاني بياناتٍ على الكمبيوتر وأعاد الوثيقتَين إلى الحارس.

عندما أصبحا بعيدَين عن مسمعهما، سألت إيلي: «لماذا يُحدق هذا الرجل في صورتَينا كل يوم؟ فقد سمح لنا بنفسه بالمرور من نقطة التفتيش هذه عشرات المرات في هذا الشهر.»

كانا يمشيان في الممر الذي يصِل بين مخرج المسكن وبوسيتانو. ردَّ عليها روبرت قائلًا: «هذا عمله، وهو يُحب أن يشعر بأنه مُهم. وإذا لم يُضيِّق علينا الخناق في كل مرة ربما ننسى ما يتمتع به من سلطةٍ علينا.»

قالت: «كانت هذه العملية أسهل عندما كان الآليون يتولَّون أمر المدخل.»

«الآليون الذين لا يزالون في الخدمة لا غِنى عنهم في التعبئة للحرب. كما أن ناكامورا يخشى من أن يظهر شبح ريتشارد ويكفيلد ويفسد عليه، بطريقةٍ ما، الآليين.»

مَشَيا في صمتٍ عدة ثوانٍ. ثم سألته: «لا تعتقد أن أبي لا يزال حيًّا، أليس كذلك يا حبيبي؟»

أجابها بعدَ شيءٍ من التردُّد: «بلى يا حبيبتي.» كان قد تفاجأ من هذا السؤال المباشر. ثم أضاف: «ولكن مع أنني لا أعتقد أنه حي، آمُل أن يكون كذلك.»

وصل روبرت وإيلي أخيرًا إلى ضواحي بوسيتانو. هناك كانت تصطفُّ بضعة بيوت جديدة مشيَّدة على الطراز الأوروبي على الممر الذي ينحدِر انحدارًا بسيطًا حتى يصل إلى قلب المدينة. قال روبرت: «بالمناسبة يا إيلي، ذكرني الحديث عن والدك بشيءٍ أودُّ الحديث معك عنه … هل تتذكَّرين المشروع الذي كنتُ أخبرك عنه، ذلك المشروع الذي يقوم به إد ستافورد؟»

هزت إيلي رأسها.

فقال روبرت: «إنه يحاول أن يُصنف المستعمرة بأكملها إلى مجموعات جينية عامة. ومع أنه يرى أن هذا التصنيف تعسفيٌّ جدًّا، فإنه يعتقد أنه قد يوفر لنا معلومات عن الأمراض التي من المحتمل أن يُصاب بها كل شخص. أنا لا أتفق اتفاقًا مُطلقًا مع هذا التوجُّه — فهو لا يبدو طبيًّا بقدْر ما يبدو قهريًّا وقائمًا على التحليل العددي — غير أنَّ هناك دراساتٍ مشابهةً أقيمت على الأرض وكشفت عن أن الناس الذين يحملون جينات مماثلة عُرضة للإصابة بأمراض مماثلة.»

توقفت إيلي عن المشي ونظرت إلى زوجها متسائلةً: «لماذا تُريد أن تُناقش هذا معي؟»

ضحك روبرت. وقال: «حسنًا، حسنًا. سأقول لك … على أي حال، توصَّل إد إلى طريقة لتحديد أوجه الاختلاف، وهي طريقة عددية لقياس مدى الاختلاف بين أي شخصَين استنادًا إلى طريقة تسلسل الأحماض الأمينية الأربعة الأساسية في الجينوم، ثم قسَّم كل مواطني

عدن الجديدة إلى مجموعاتٍ كاختبارٍ لما توصَّل له. في الواقع، هذه الطريقة لا تعني أيَّ شيء ...»

قاطعته إيلي قائلةً: «روبرت تيرنر.» وضحكت. ثم أضافت: «هل من المُمكن أن تدخل في الموضوع؟ ما الذي تحاول أن تُخبرني به؟»

قال: «حسنًا، ما حدث كان غريبًا. ولسنا نعرف ما الذي نستنتِجه منه. فعندما وضع إد هيكل تصنيفه الأول وجد أن اثنَين ممن أجرى عليهم الاختبار لا ينتمِيان إلى أي مجموعة. فعدل السمات التي تُصنَّف على أساسها المجموعات بحيث تمكَّن أخيرًا من أن يصِل إلى الانتشار الكمي الذي ينطبق على أحدهما. أما الشخص الآخر فكان هيكل تسلسل الأحماض الأمينية عنده مختلفًا عن جميع مَن في عدن الجديدة اختلافًا جعل وضعه في أيٍّ من المجموعات مُستحيلًا ...»

كانت إيلي ترمق روبرت وكأنه فقد عقله.

فقال بحرج: «هذان الشخصان هما أخوك بينجي وأنت. أنتما خارج كل المجموعات.»

قالت إيلي بعد أن قطعا نحوَ ثلاثين مترًا في صمت: «هل يجب أن يُقلقني هذا؟»

ردَّ بسلاسة: «لا أظن هذا. من الأرجح أن هذا نتج عن خللٍ في طريقة القياس التي اختارها إد. أو أن خطأً ما صدر منَّا ... لكنَّ افتراض أن الأشعة الكونية قامت على نحوٍ ما بتغيير تكوينكِ الجيني وأنتِ لا تزالِين جنينًا ينمو، لَهُوَ افتراض مُبهر.»

في هذا الوقت كانا قد وصلا إلى ميدان بوسيتانو الرئيسي. فمالت إيلي على زوجها وقبَّلته. وقالت في محاولة لاستفزازه قليلًا: «هذا شيِّق للغاية يا حبيبي، ولكن عليَّ أن أعترف أنني ما زلتُ لا أفهم منه شيئًا.»

يحتل موقف دراجات كبير الجزءَ الأكبر من الميدان. إذ يشغل المنطقة التي تقع أمام محطة القطار السابقة أربعٌ وعشرون صفًّا طوليًّا وأربع وعشرون صفًّا عرضيًّا، بها أماكن لوقوف الدراجات. وهذا لأن كل المُستعمرين، فيما عدا قادة الحكومة، الذين كانوا يتنقلون بسياراتٍ كهربائية صاروا يتنقَّلون بالدراجات.

توقَّف عمل مرفق القطارات في عدن الجديدة بعد أن بدأت الحرب بقليل. فمصانع البشر في المُستعمرة لم تستطِع أن تنتج موادَّ مثل المواد التي صنع منها الفضائيون القطارات والتي تتميَّز بأنها خفيفة جدًّا وشديدة القوة. وفي نفس الوقت وجد البشر أن هذه المعادن المخلطة ذات قيمةٍ بالِغة في القيام بالكثير من الأعمال العسكرية المختلفة. وعلى هذا، عندما وصلت الحرب إلى المراحل الوسطى، صادرت وزارة الدفاع كافة عربات القطارات.

ركب روبرت وإيلي دراجتَيهما وسارا مُتجاورَين على ضفاف بحيرة شكسبير. استيقظت الرضيعة نيكول وكانت تُشاهد المنظر الطبيعي من حولها بهدوء.

قطع الزوجان المتنزَّه الذي يُحتفل فيه دائمًا بيوم الاستيطان وتوجَّها نحو الشمال.

قالت إيلي بجدية شديدة: «روبرت، هل عاودتَ التفكير في النقاش الطويل الذي دار بيننا الليلة الماضية؟»

فسألها: «تقصدين النقاش حول ناكامورا والسياسة؟»

أجابته: «نعم. ما زلتُ أظن أنه على كلينا أن نعارض القرار الذي أصدره والذي يقضي بتأجيل الانتخابات حتى انتهاء الحرب ... إن لك مكانة عظيمة في المُستعمرة. ومعظم مسئولي الصحة سيَحذون حذوَك. بل إن ناي ترى أن عمال مصنع أفالون قد يُضربون عن العمل.»

قال روبرت بعد صمتٍ طويل: «لا يُمكنني أن أقوم بهذا.»

سألته إيلي: «لماذا يا حبيبي؟»

فقال: «لأنني أعتقِد أن هذا لن يُجدي. وفقًا لنظرتك المثالية للعالم يا إيلي، يتصرف الناس بدافع الالتزام بمبادئ أو قِيَم. أما في الواقع، فلا يتصرفون على هذا النحو إطلاقًا. إن عارضَنا ناكامورا فإن الاحتمال الأكبر هو أنَّ هذا سيزجُّ بنا نحن الاثنين في السجن. وماذا سيحدُث لابنتنا عندئذٍ؟ أضيفي إلى هذا أن كلَّ الدعم الذي نحصل عليه لمتابعة العمل المُتعلق بفيروس «آر في ٤١» سيتوقف، مما سيترك المرضى المساكين في حالةٍ أسوأ من التي هُم عليها. كما أن عدد العامِلين بالمُستشفى سيستمر في الانخفاض ... وسيُعاني الكثير من الناس بسبب مثاليتنا. وبصفتي طبيبًا، لا أستطيع أن أقبل احتمال وقوع هذه العواقب.»

انحرفت إيلي بالدرَّاجة عن المسار المُخصَّص لها متجهةً إلى متنزَّه صغير على بُعد نحو خمسمائة مترٍ من المباني التي تقع على أطراف المدينة المركزية. فسألها روبرت: «لماذا توقفت هنا؟ إنهم ينتظروننا بالمستشفى.»

قالت: «أحتاج إلى خمس دقائق أرى فيها الأشجار وأشَمُّ الورود وأحتضن نيكول.»

بعد أن نزلت إيلي من على دراجتها ساعدها روبرت في خلع حمالة الطفلة من على ظهرها. ثم جلست على الحشائش واضعةً نيكول على حجرها. لم ينبس أيٌّ منهما ببنت شفة وهما يشاهدان نيكول تتأمَّل أوراق العشب الثلاث التي انتزعتها بيدَيها المكتنزتَين.

في النهاية، بسطت إيلي بطانيةً على الأرض ووضعت ابنتَها عليها برفق. ثم اقتربت من زوجها ولفَّت ذراعَيها حول رقبته. وقالت: «أُحبك حبًّا جمًّا يا روبرت. ولكن يجب أن أعترف أنني أحيانًا لا أتَّفِق معك على الإطلاق.»

٩

رسم الضوء الصادر من النافذة الوحيدة الموجودة في الزنزانة شكلًا على الحائط المبنيِّ من الطين المُقابل لسرير نيكول. إذ عكست قضبان النافذة على الحائط هيكلًا مُربعًا بداخله مربعات تُشبِه مربعات لعبة «إكس-أو» مقسمة إلى مجموعاتٍ ثلاثية تقريبًا. ضوء الزنزانة أعلَمَ نيكول بأن وقتَ الاستيقاظ حان. فسارت من السرير الخشبيِّ الذي كانت تنام عليه إلى الجانب الآخر من الغرفة، وغسلت وجهها في الحوض. ثم أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن تستجمِع قواها لتقضي يومًا جديدًا.

كانت نيكول متأكدةً من أن سجنها الحالي الذي نُقِلت إليه منذ نحو خمسة أشهُر يقع في المنطقة الزراعية من عدن الجديدة في مكانٍ ما بين هاكون وسان ميجيل. كانوا قد عصبوا عينَيها وهم ينقلونها إلى هنا. لكنها لم تستغرِقْ وقتًا طويلًا لتُدرك أنها في منطقةٍ ريفية. فمن حينٍ إلى آخر كانت تتسرَّب رائحة حيوانات نفَّاذة إلى زنزانتها عبر النافذة التي تبلُغ مساحتها أربعين سنتيمترًا مربعًا والتي تقع تحت السقف مباشرةً. كما أنها لا ترى أيَّ ضوءٍ خارج النافذة بعدما يُرخي الليل سدولَه على عدن الجديدة.

قالت نيكول لنفسها وهي تقِف على أطراف أصابعها لتدفع جراماتٍ قليلةً من الأرز المُتبَّل عبر النافذة: هذه الأشهُر الأخيرة كانت هي الأسوأ. لا كلام ولا قراءة ولا مُمارسة رياضة. وكل ما أحصُل عليه هو وجبَتَي أرزٍ ومياه يوميًّا. ظهر السنجاب الأحمر الصغير الذي يزورها كل صباحٍ في الخارج. وصار بوسعها أن تسمعه. فعادت إلى الجانب الآخر من الزنزانة حتى يتسنَّى لها رؤيته وهو يتناول الأرز.

قالت بصوت مرتفع: «أنت رفيقي الوحيد يا صديقي الجميل.» توقف السنجاب عن الأكل وأصغى السمع، فهو دائمًا ما يبقى حذرًا خشية الخطر. تابعت نيكول حديثها قائلةً: «لكنك لم تفهم قطُّ أي كلمةٍ نطقت بها.»

لم يبقَ السنجاب في مكانه طويلًا. فقد رحل عندما أنهى حصته من الأرز تاركًا نيكول وحدَها. فظلَّت لعدة دقائق تُحدق خارج النافذة في المكان الذي كان فيه السنجاب، وعقلها يتساءل عما يحدُث لأسرتها.

حتى ستة أشهر مضت، وهو الوقت الذي أُجِّلت فيه محاكمتها بتهمة العصيان في اللحظة الأخيرة «إلى أجلٍ غير مُسمًّى»، كان يُسمح لشخصٍ واحدٍ أن يزورها مدة ساعة أسبوعيًّا. ومع أنه كان هناك حارس يُراقب أي حوار يدور، ومع أن أيَّ نقاشٍ حول السياسة أو الأحداث الجارية كان ممنوعًا تمامًا، فإنها كانت تنتظِر اللقاءات الأسبوعية مع

إيلي وباتريك بفارغ الصبر. وعادةً كانت إيلي هي من يزورها. وقد استنتجت نيكول من عباراتٍ صاغها ابناها بحذَرٍ شديد أن باتريك مُنشغل في عملٍ حكومي ما، وأنه أصبح غير مُتاح إلا في أوقاتٍ محدودة.

وعندما علمت نيكول أن بينجي أُودِع مستشفى الأمراض النفسية وأنه لن يُسمح له بزيارتها استشاطت غضبًا، ثم تحوَّل غضبها إلى إحباطٍ بعد هذا. وحاولت إيلي أن تُطمئنها على أن بينجي في خير حالٍ يُمكن الوصول إليها في ظل الظروف الراهنة. ولم يتطرَّق الحديث كثيرًا إلى كيتي. إذ لم يعرف باتريك أو إيلي كيف يشرحان لنيكول أن أختهما الكبيرة لم تُبدِ اهتمامًا بزيارة أمها.

كان موضوع حمل إيلي دائمًا موضوعًا آمنًا للحديث في الزيارات الأولى هذه. وكانت نيكول تستمتع بلمس بطن ابنتها أو بالحديث عن المشاعر الخاصة التي تعتمِل في نفس هذه المرأة التي ستُصبح أمًّا. وإذا ما ذكرت إيلي أن الطفل مُفرط النشاط، كانت تحكي لها نيكول تجاربها الخاصة وتُقارنها بتجربتها (فقالت ذات مرة: «عندما كنتُ حاملًا في باتريك لم أشعر بتعب قط. أما أنتِ فكنتِ كابوسًا؛ إذ كنتِ دائمًا ما تضربين بطني في منتصف الليل وأنا أُريد أن أنام»)، وعندما تشكو إيلي من أنها ليست على ما يُرام، كانت تصِف لها نيكول بعض الأطعمة أو الأنشطة الرياضية التي ساعدتها كثيرًا عندما كانت تمرُّ بنفس الحالة.

كانت آخِر مرة زارت فيها إيلي أمَّها قبل شهرَين من الموعد الذي تتوقَّع فيه الولادة. وبعد هذا بأسبوعٍ انتقلت نيكول إلى زنزانتها الجديدة ولم تتكلَّم مع أي إنسانٍ منذ ذلك الحين. بل إن الآليَّيْن الأبكمَين اللذَين يرعيانها لم تَصدُر عنهما أيُّ إشارةٍ تُوحي بأنهما يسمعان ما تطرحه من أسئلة. وذات مرةٍ انتابتها نوبة استياء فصاحت في التياسو التي كانت تُحمِّمها أسبوعيًّا قائلةً: «ألا تفهمين؟ يُفترَض أن تكون ابنتي قد وُلِدت، أنجبت حفيدتي، في وقتٍ ما في الأسبوع الماضي. وأريد الاطمئنان عليهما.»

كانت نيكول دائمًا ما يُسمَح لها بالقراءة في الزنزانات السابقة. وكانوا يُحضرون لها من المكتبة أقراصًا مُسجَّلًا عليها كتُب كلما طلبت ذلك، وبهذا كانت تمرُّ الأيام التي تفصل بين زيارةٍ وأخرى بسرعةٍ نسبيًّا. أعادت نيكول قراءة كل الروايات التاريخية التي كتبَها والدُها تقريبًا وبعض القصائد والكتب التاريخية، إضافةً إلى بعض كتُب الطب الأكثر إثارة. وكان أكثر ما بهر نيكول هو أوجُه الشبَه بين حياتها وحياتَي بطلتَي طفولتها جان دارك وإليانور الأكويتينية. وكانت عندما تُريد أن تشحذ قوَّتها تُفكر كيف أنهما لم تدعا توجهاتهما الأساسية تتغير رغم قضاء مُدَدٍ طويلة وصعبة في السجن.

وبعد أن نُقِلت إلى تلك الزنزانة الجديدة ولم تُعِد الجارسيا التي تخدمها جهازَ القارئ الإلكتروني الخاص بها مع مُتعلقاتها الشخصية، ظنَّت في البداية أن خطأً بسيطًا قد وقع. لكنها أدركت أنها حُرِمت من حق القراءة بعدما طلبته عدة مراتٍ ولم تحصُل عليه.

كان الوقت يمر على نيكول ببطءٍ شديد في زنزانتها الجديدة. فكانت تتمشَّى ببطءٍ عدة ساعات يوميًّا في أنحاء الزنزانة محاولةً أن تحافظ على نشاط عقلها وجسدها. وحاولت أن تخطط لجلسات المشي هذه بحيث توجِّه عقلها فيها إلى التفكير في مفاهيم أو أفكار فلسفية عامة وتُبعده عن التفكير في أسرتها؛ إذ كانت لا تستطيع أن تمنع التفكير في أُسرتها من أن يزيد من حدَّة شعورها بالوحدة والاكتئاب. وفي نهاية هذه الجلسات، كانت غالبًا ما تُركز على حدثٍ وقع في حياتها في الماضي، وتُحاول أن تستخلِص منه فهمًا أو معنًى جديدًا.

وفي إحدى هذه الجلسات، تذكَّرت نيكول بوضوحٍ سلسلة أحداثٍ وقعت عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. في ذلك الوقت كانت هي ووالدها مُستقِرَّيْن في بوفوا، وكان أداؤها في المدرسة رائعًا. ثم قرَّرت أن تشترك في المسابقة القومية لاختيار ثلاث فتيات يلعبن دور جان دارك في مجموعةٍ من المهرجانات التي ستُقام لتُحيي ذكرى مرور سبعمائة وخمسين عامًا على استشهاد هذه العذراء في مدينة روان. انهمكت نيكول في المسابقة بحماسٍ وإصرار أثارا سعادة والدها وقلقَه. وبعد أن فازت نيكول في المسابقة الإقليمية التي أُقيمت في تور أوقف والدها العمل في رواياته ستة أسابيع ليُساعد ابنتَه الحبيبة في الاستعداد للمسابقات النهائية التي تُعقد على مستوى الدولة في روان.

حازت نيكول المكانة الأولى في الأجزاء المُتعلقة بشقَّي الذكاء والقدرات الرياضية من المسابقة. بل إنها أحرزت درجاتٍ عاليةً جدًّا في التقييمات المتعلقة بالتمثيل. وكانت متأكدة هي ووالدها من أنهم سيختارونها هي. لكن عندما أُعلنت أسماء الفائزات، كانت نيكول في المركز الثاني.

قالت نيكول لنفسها وهي تسير في زنزانتها في عدن الجديدة: ظللتُ سنواتٍ أعتقد أنني فشلت. ولم ألتفت إلى ما قالَه والدي عن أن فرنسا ليست مُستعدَّةً بعدُ لترى جان دارك سوداء. إذ كان راسخًا في ذهني أنني فاشلة. وتحطمتُ تمامًا. ولم أستعِدْ ثقتي بنفسي إلى أن جاءت الأولمبياد، لكن بعدها بأيامٍ قليلة تسبَّب هنري في أذيَّتي نفسيًّا ثانية.

وأضافت بينها وبين نفسها: كان الثمن باهظًا. فقد ظللتُ منغلقةً على نفسي سنواتٍ بسبب افتقاري إلى الثقة بالذات. ولم أرضَ عن نفسي إلَّا بعد ذلك بكثير. وعندها فقط أصبحت قادرةً على مدِّ يدِ العون للآخرين. توقفتْ لحظات. ثم عادت تتساءل: لماذا يمرُّ

الكثير منَّا بنفس التجارب؟ ولماذا يتَّسِم الشباب بكل هذه الأنانية، ولماذا يجِب علينا أن نُحقق ذاتنا أولًا لنُدرك أن معنى الحياة أكبر من هذا بكثير؟

شكَّت نيكول في أنَّ تغييرًا سيطرأ على روتين حياتها عندما أضافت الجارسيا، التي تُحضر لها الطعام دائمًا، إلى الغداء خبزًا طازجًا والقليل من ثمار الجزر. وبعد هذا بيومَين جاءت التياسو إلى زنزانتها بحوض استحمامٍ محمول وفرشاة شعر وبعض أدوات الزينة ومرآة وزجاجة عطر صغيرة. فأخذت نيكول حمَّامًا طويلًا فاخرًا وشعرت بالانتعاش لأول مرةٍ منذ شهور. وبينما كانت الآلية تأخُذ حوض الاستحمام الخشبي وتستعدُّ للرحيل، ناولتها رسالةً مكتوبًا فيها: «سيزورك شخص في صباح الغد.»

لم يغمض لنيكول جَفن. وفي الصباح تحدَّثت مثل الفتيات الصغيرات إلى صديقها السنجاب حول ما تُعلِّقه من آمالٍ على المقابلة القادمة وما يعتمل فيها من مخاوف منها. ظلَّت تُولِي وجهها وشعرها كثيرًا من العناية قبل أن تُقرِّر أخيرًا أنه لا أمَل فيهما. ومرَّ الوقت ببطء شديد.

أخيرًا، قبل الغداء مباشرةً سمعت صوتَ خُطى إنسان يسير في الممرِّ المؤدي إلى زنزانتها. فاندفعت إلى الأمام في ترقُّب. وصاحت: «كيتي»، عندما رأتها سائرة في الممر الأخير.

قالت كيتي وهي تفتح الباب وتدخل الزنزانة: «كيف حالُكِ يا أمي؟» تعانقتا لعدة ثوانٍ. ولم تُحاول نيكول منع دموعها من أن تنهمر.

جلستا على سرير نيكول، فهو قطعة الأثاث الوحيدة في الزنزانة، ودار بينهما حديث ودِّي حول أحوال الأسرة عدة دقائق. أخبرت كيتي نيكول أنها رُزِقت بحفيدة (قالت كيتي: «اسمها نيكول دي جاردان تيرنر. يجب أن يمنحك هذا سعادة غامرة.») وأخرجت من حقيبتِها نحو عشرين صورة. كان من بين تلك الصورِ صورٌ التُقِطت مؤخرًا للطفلة مع والدَيها، وصور لإيلي وبينجي معًا في حديقةٍ ما، وصورة لباتريك مرتديًا زيًّا رسميًّا، وصورتين لكيتي مُرتدية ملابس رسمية. تأمَّلتها نيكول واحدةً تلوَ الأخرى وعيناها تمتلئان بالدموع مرةً تلوَ الأخرى. وكثيرًا ما قالت: «آه يا كيتي.»

عندما انتهت، شكرت ابنتها كثيرًا على إحضار الصور. فردَّت عليها وهي تقف وتتَّجِه نحو النافذة: «يمكنكِ الاحتفاظُ بها يا أمي.» ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها سجائر وقداحة.

قالت نيكول بتردُّد: «حبيبتي، هل من المُمكن ألا تُدخِّني هنا؟ فالتهوية شديدة السوء. وسأظل أسابيع أشمُّ رائحة السجائر.»

ظلَّت كيتي تنظر إلى أُمِّها عدة ثوانٍ ثم أعادت سجائرها وقداحتها إلى حقيبتها. وفي هذه اللحظة، وصل اثنتان من الجارسيا إلى الزنزانة حامِلَين منضدةً وكرسيَّين.

سألت نيكول: «ما هذا؟»

ابتسمت كيتي. وقالت: «سنتناول الغداء معًا. طلبت إعداد وجبةٍ خاصة بهذه المناسبة؛ دجاج بحساء عيش الغراب والخمر.»

كانت رائحةُ الطعام رائعة، وسرعان ما حملته إلى الزنزانة جارسيا أخرى ووضعته بجوار أطباق صيني وأدوات طعام فضية على منضدةٍ مُغطاة بمفرش. بل إنه كانت هناك زجاجة من الخمر وكأسان من البلور.

كان صعبًا على نيكول أن تلتزم بآداب الطعام. فقد كان الدجاج لذيذًا للغاية، وعيش الغراب طريًّا جدًّا، فتناولت غداءها دون أن تنبس ببنت شفة. وأحيانًا عندما كانت تتناول رشفة من الخمر كانت تُطلِق صوتَ استحسان أو تقول «رائع»، لكن فيما عدا هذا ظلَّت صامتة حتى أتت على طبقها بالكامل.

أما كيتي التي أصبحت لا تتناول إلا ما يسدُّ رمقَها، فأكلت قليلًا من الطعام وأخذت تنظر إلى أمِّها. وعندما فرغت نيكول من طعامها نادت كيتي الجارسيا لتأخذ الأطباق وتُحضر قهوة. لم تتناول نيكول قدحًا جيدًا من القهوة منذ حوالي عامَين.

بعد أن شكرت نيكول كيتي على الطعام قالت بابتسامة ودودة: «وأنت يا كيتي، كيف حالك؟ كيف تعيشين حياتك؟»

أطلقت كيتي ضحكة بذيئة. ثم قالت: «أقوم بنفس العمل اللعين الذي كنتُ أقوم به. أصبحت الآن المديرة المسئولة عن الترفيه في منتجع فيجاس بأكمله ... إنني أضع الجداول لكل ما يحدث في النوادي الليلية ... والعمل على خير ما يرام رغم ...» استدركت كيتي بعد أن تذكَّرت أن أمَّها لا تعرف شيئًا عن الحرب الدائرة في المنطقة السكنية الثانية.

سألت نيكول بلباقة: «وهل وجدتِ رجلًا يُقدِّر جميع قدراتك؟»

ردَّت كيتي: «لم أجد من يُقدرها ويبقى معي.» شعرت كيتي بالحرج من إجابتها، وفجأةً ظهر عليها الانزعاج. وقالت وهي تَميل إلى الجانب الآخر من المنضدة: «اسمعي يا أمي، لم آتِ إلى هنا لأتحدَّث عن حياتي العاطفية ... لديَّ عرض لك، بل لنَقُل لدى الأسرة عرض لك نؤيده جميعًا.»

نظرت نيكول إلى ابنتها في عبوسٍ ينمُّ عن الحيرة.

وعندها، لاحظت لأول مرةٍ أن العمر تقدَّم بكيتي كثيرًا في هاتَين السنتَين اللتَين مرَّتا منذ آخِر مرة رأتها فيها. قالت نيكول: «لستُ أفهم. أي عرض؟»

«حسنًا، كما تعلَمِين، الحكومة كانت تُعِدُّ قضية ضدك منذ مدة. وهي الآن على استعدادٍ لرفعها للمحكمة. وبالطبع سيتهمونك بالعصيان، وهذه جريمة عقوبتها الإعدام دون أيِّ فرصةٍ لتخفيف العقوبة. وقد أخبرَنا النائب العام أن هناك أدلةً قوية ضدك، وأنك ستُدانين حتمًا. ومع هذا، ونظرًا إلى الخدمات التي سبق أن قدَّمتِها للمُستعمرة فإنك إنِ اعترفتِ بأنك مُذنبة بتهمةٍ أقلَّ هي العصيان غيرِ المُتعمَّد فإنه سيُسقِط ...»

قالت نيكول بحزم: «لكنني لم أرتكِب أيَّ جريمة.»

ردَّت كيتي وقد بدأ نفاد الصبر يظهر في نبرتها: «أعلم يا أمي. ولكننا، إيلي وباتريك وأنا، نتفق جميعًا على أنَّ هناك احتمالًا كبيرًا جدًّا بأن يصدُر بحقك حكم يُدينك. وقد وعدَنا النائب العام بأن ينقلك فورًا إلى مكانٍ أفضل، وبأن يسمح لك بقضاء بعض الأوقات مع أفراد أُسرتك، وفيهم حفيدتك، وللحصول على هذا ما عليك إلا الاعتراف بالتهمة المُخفَّفة ... بل إنه ألمح إلى أنه قد يتوسَّط لدى السلطات ليسمح لبينجي بأن يعيش مع روبرت وإيلي ...»

صارت نيكول في حيرةٍ من أمرها. وقالت: «وجميعكم تعتقدون أنه يجِب عليَّ أن أقبل هذه الصفقة وأعترف بالذنب، مع أنَّني ظللتُ أؤكد أنني بريئة منذُ أن اعتقلت؟»

أومأت كيتي برأسها مؤيدةً ما قالته نيكول. وقالت: «لا نريدك أن تموتي. وخاصةً أنه لا معنى لموتك.»

ردَّدت نيكول ما قالته كيتي: «لا معنى لموتي.» وفجأة برقت عيناها. وقالت: «تظنون أنه لا معنى لموتي!» دفعت الكرسي بعيدًا عن المنضدة ووقفت ثم أخذت تقطع زنزانتها جيئةً وذهابًا. وقالت مُوجِّهةً حديثها إلى نفسها أكثر مما تُوجِّهه إلى كيتي: «سأموت من أجل العدل، على الأقل أمام نفسي وإن لم تستطِع نفسٌ واحدة في الكون أن تفهم هذا.»

قاطعتها كيتي قائلةً: «ولكن يا أمي ما الذي ستَجنيه من هذا؟ سيُحرَم أولادك وحفيدتك من صُحبتك إلى الأبد، وسيظلُّ بينجي حبيسَ هذه المؤسسة البغيضة ...»

قاطعتها نيكول وقد بدأ صوتها يرتفع: «آه هذا هو لبُّ الصفقة، إنها صورة من العقد الذي أبرمَه فاوست مع الشيطان، غير أنها أكثر إغواءً ... تخلَّيْ عن مبادئك يا نيكول واعترفي بجُرمك مع أنك لم ترتكبي أي خطأ. ونحن لا نطلُب منك أن تبيعي روحك مقابل مكافأةٍ دنيوية شخصية. كلَّا فهذا يسهل رفضه ... وإنما نطلُب منك الموافقة على هذه الصفقة لأن أُسرتك ستستفيد منها. وأي إغراءٍ يمكن أن يُذهِل عقل أيِّ أمٍّ أكثر من هذا؟»

كانت عينا نيكول تنبض بالانفعال. أما كيتي فمدَّت يدَيها في حقيبتها وأخرجت سيجارة وأشعلتها بيد مرتعشة.

واصلت نيكول حديثها قائلة: «ومن هذا الذي أتى إليَّ بهذا الاقتراح؟» ارتفع صوتها إلى حدِّ الصياح وهي تقول: «من أحضر لي الطعام اللذيذ والخمر وصور أفراد أُسرتي حتى يُمهد لذبحي بسكينٍ أشحذها بنفسي، سكين ستقتلني بألَم أكثر من ألَم الكرسي الكهربائي؟ عجبًا، إنها ابنتي، فلذة كبدي.»

فجأة، اتجهت نيكول إلى الأمام وأمسكت بكيتي. وقالت وهي تهزُّ ابنتها المذعورة: «لا تلعبي دور يهوذا الخائن لمصلحتهم يا كيتي. فأنت أفضلُ من هذا. في المُستقبل، عندما يُدينونني استنادًا إلى هذه التُّهم المُلفقة ويُعدمونني ستُقدِّرين ما أفعله.»

حرَّرت كيتي نفسها من قبضة أمِّها ورجعت ببطءٍ إلى الوراء. وأخذت نفسًا من سيجارتها. ثم قالت بعد دقيقة: «هذا هراء يا أمي. مجرد هراء. وكعادتك تلعبين دور الملاك ... اسمعي، أتيتُ إلى هنا لأُساعدك، لأمنحك فرصة في الحياة. لماذا لا تستمعين إلى صوتٍ غير صوت نفسك مرةً واحدة في حياتك؟»

حدقت نيكول في كيتي عدة ثوان. وصار صوتها أهدأ عندما تحدثت ثانيةً. وقالت: «استمعت إليك يا كيتي، ولم يُعجبني ما سمعت. وكنتُ أراقبك بعيني ... لا أعتقد إطلاقًا أنك أتيتِ اليوم لتُساعديني. فهذا لا يتوافق مع ما لمستُه في شخصيتك في هذه السنوات الأخيرة. لا بدَّ أن في إتمام الصفقة نفعًا لك.

ولا أعتقد أنك تُمثِّلين إيلي وباتريك في أيِّ شيء. فلو كان هذا صحيحًا لأتيا معك. لا بد أن أعترِف أنَّني في بادئ الأمر كنتُ في حيرةٍ من أمري، وشعرتُ بأنني أجعل جميع أبنائي يتألَّمون ألمًا شديدًا. ولكن في هذه الدقائق الأخيرة كُشِفَ لي الغطاء عما يحدُث هنا ... كيتي، كيتي يا حبيبتي ...»

صاحت كيتي التي كانت عيناها تفيضان بالدموع عندما اقتربت منها نيكول: «لا تلمسيني ثانيةً.» وأضافت: «ووفري عليَّ شفقتك النابعة من إيمانك بأنك على حقٍّ والآخرين على باطل.»

ساد الهدوءُ الزنزانةَ قليلًا. فأنهت كيتي سيجارتها وحاولت أن تحتفظ بهدوئها. ثم قالت في النهاية: «اسمعي، لا آبَه برأيك فيَّ، فهذا ليس مُهمًّا، ولكن لماذا يا أمي، لماذا لا تفكرين في باتريك وإيلي وحتى نيكول الرضيعة؟ هل القيام بدور القديسة مُهم جدًّا لك حتى إنك لا تأبَهين إنْ كان مقابل قيامك به هو معاناتهم؟»

ردَّت عليها نيكول: «سيفهمون في المستقبل.»

فقالت كيتي بغضب: «ستموتين في المُستقبل، في المستقبل القريب ... هل تُدركين أنه في اللحظة التي أخرج فيها من هنا وأخبر ناكامورا بأنك لن تُبرمي معه الصفقة سيُحدَّد موعد محاكمتك؟ وهل تُدركين أنه لن يكون أمامك أي فرصة على الإطلاق، لن يكون أمامك أي فرصة نهائيًّا؟»

ردَّت نيكول: «لن يُمكنك أن تُخيفيني يا كيتي.»

فقالت كيتي: «لن يُمكنني أن أخيفك، ولن يُمكنني أن أُثير مشاعرك، ولن يُمكنني أن أخاطب عقلك. فأنت ككل القديسين الصالحين، لا تستمِعين إلا إلى نفسك!»

أخذت كيتي نفسًا عميقًا. وقالت: «قُضِيَ الأمر إذن ... الوداع يا أمي.» ورغمًا عنها تسللت الدموع إلى عينَيها، رغمًا عنها.

أما نيكول فأجهشت بالبكاء. وقالت: «الوداع يا كيتي. أُحبك.»

١٠

«يمكن للدفاع أن يتفضل بإلقاء المرافعة الختامية.»

قامت نيكول من كرسيها ودارت حول المنضدة. فأدهشها أنها تشعر بتعبٍ شديد. من الواضح أن السنتَين اللتَين قضتهُما في السجن أتيتا على عنفوانها.

سارت نيكول بخطواتٍ وئيدة متوجهةً نحو هيئة المُحلَّفين المكوَّنة من أربعة رجال وامرأتين. كانت المرأة التي تجلس في الصف الأمامي والتي تُدعى كارين ستولز من سويسرا. وكانت نيكول تعرفها جيدًا؛ إذ كانت تملك هي وزوجها مخبزًا على ناصية الشارع الذي يقع فيه منزل آل ويكفيلد في بوفوا ويديرانه.

وقفت نيكول أمام المُحلَّفين مباشرةً وقالت بهدوء: «مرحبًا مرة أخرى يا كارين. كيف حال جون وماري؟ لا بدَّ أنهما صارا في مرحلة المراهقة الآن.» كان المُحلَّفون يجلسون في صفَّين بكل منهما ثلاثة مقاعد.

تحركت كارين في مقعدها بارتباك. وأجابت نيكول بصوتٍ خفيض: «هما بخير يا نيكول.»

ابتسمت نيكول. وقالت: «أما زلتِ تخبزين فطائر القرفة الرائعة صباح أيام الأحد؟»

تردَّد صدى صوت المطرقة في أنحاء قاعة المحكمة. وقال القاضي ناكامورا: «يا سيدة نيكول، ليس هذا وقت الأحاديث التافهة. فالوقت المُخصَّص للمُرافعة الختامية لا يزيد على خمس دقائق، وقد بدأت تمرُّ من الآن.»

تجاهلت نيكول القاضي. ومالت فوق الحاجز الذي يفصل بينها وبين المُحلَّفين مُركِّزةً عينَيها على العقد الرائع الذي يُزين عنق كارين ستولز. وهمست قائلةً: «المجوهرات رائعة. ولكن كان يُمكنهم أن يدفعوا أكثر من هذا، أكثر بكثير.»

مرةً أخرى علا صوت المطرقة. وأسرع حارسان بالاقتراب من نيكول، لكنها كانت قد ابتعدت عن كارين قبل ذلك. ثم قالت: «السيدات والسادة أعضاء هيئة المُحلَّفين، طوال هذا الأسبوع وأنتم تستمِعون إلى المُدعي العام وهو يؤكد مرارًا وتكرارًا أنني حرضتُ على معارضة الحكومة الشرعية لعدن الجديدة. واتَّهموني بالتحريض على الفتنة استنادًا إلى أفعالٍ زعموا أنني قمت بها. وعليكم الآن أن تُقرروا ما إذا كنتُ مذنبة أم لا على ضوء الأدلة التي قُدِّمت في هذه المحاكمة. فأرجوكم تذكَّروا، وأنتم تتشاورون، أن التحريض على الفتنة من التُّهم التي يحكَم فيها بالإعدام، والحكم بالإدانة يحمِل معه عقوبة إعدام لا تحتمِل التخفيف.

وفي المرافعة الختامية أودُّ أن أتناول بالتحليل الدقيق العناصر التي بَنى عليها المُدعي العام القضيةَ. إن الشهادات التي أدلى بها الشهود في اليوم الأول والتي لا يمتُّ أيٌّ منها بصِلةٍ إلى التُّهم الموجهة إليَّ، والتي أعتقد أن القاضي ناكامورا هو من سمح بها في انتهاكٍ صارخٍ لَملاحق قانون المستعمرة التي تتناول قواعد الإدلاء بالشهادة أثناء عقد محاكمات الجرائم التي تُوجب الإعدام ...»

قاطعها القاضي ناكامورا بغضبٍ قائلًا: «أخبرتُك يا سيدة نيكول من قبل هذا الأسبوع أنني لن أسمح بهذه التعليقات المُهينة في قاعة المحكمة. وإذا ما تفوَّهتِ بتعليقٍ آخر كهذا فسأوجِّه إليك تهمة ازدراء المحكمة وسأُنهي المرافعة الختامية.»

واصلت نيكول حديثها دون أن ترمق القاضي ولو بنظرة. فقالت: «طوال ذلك اليوم حاول المُدعي العام أن يُثبت أن هناك شكوكًا مثارةً حول أخلاقياتي من الناحية الجنسية، وأن هذا قد يجعلني أشارك في مؤامرةٍ سياسية. أيها السيدات والسادة، سيُسعدني أن أناقش معكم في جلسةٍ سرية الظروفَ الخاصة التي حملتُ فيها بكلِّ ابنٍ من أبنائي الستة. ولكن حياتي الجنسية — في الماضي والحاضر بل وفي المستقبل — لا تمتُّ بأيِّ صلةٍ إلى سياق هذه المحاكمة. وبهذا فإن الشهادات التي أدلَوا بها في اليوم الأول لا أهمية لها على الإطلاق، إلا أنها قد تكون ذات قيمة ترفيهية.»

تعالت بعض الضحكات المكتومة في القاعة المزدحِمة، لكن الحراس سرعان ما أسكتوا الحشد. وواصلت نيكول حديثها قائلةً: «مجموعة شهود الادِّعاء التالية ظلَّت ساعاتٍ

طويلة تتهم زوجي بالقيام بأنشطةٍ تحريضية. وأنا أُقر، بلا أدنى حرج، بأنني متزوِّجة من ريتشارد ويكفيلد. لكن كونه مُذنبًا أم لا، غير ذي أهمية في سياق هذه المحاكمة. إذ لن ينبني الحكم الذي ستُصدرونه إلَّا على الأدلة التي تُثبت عليَّ أنا تهمة التحريض على الفتنة.

لقد قال المدعي العام إن تحريضي على الفتنة بدأ باشتراكي في الفيديو الذي نتج عنه تأسيس هذه المستعمرة. وأنا أعترف بأنني ساعدتُ بالفعل في إعداد ذلك الفيديو الذي بثَّته راما إلى الأرض، ولكنني أُنكر بشدة أنني تآمرتُ من البداية مع الفضائيين ضدَّ إخواني من البشر، أو أنني دبرتُ لهم المكائد بأي نحوٍ مع مَن بنوا هذه السفينة.

لقد شاركتُ في إعداد هذا الفيديو، كما قلتُ أمس عندما سمحتُ للمدعي العام باستجوابي، لأنني شعرتُ أنه لم يكن أمامي خيار. فقد كنتُ أنا وأُسرتي تحت رحمة ذكاءٍ وقوةٍ بلغا حدًّا فاق ما خطر على قلب أيٍّ منَّا. وقد خفنا خوفًا عظيمًا من أن يُوقعوا بنا العقاب إن لم نوافق على ما طلبوه من مساعدتهم في إعداد هذا الفيديو.»

عادت نيكول إلى منضدة الدفاع لحظاتٍ وشربت قليلًا من المياه. ثم عادت تُواجه هيئة المحلَّفين مرةً أخرى. وقالت: «بهذا لا يبقى من الأدلة القوية التي قد تستندون إليها لإدانتي بالتحريض على الفتنة سوى دليلَين مُحتملَين هما: شهادة ابنتي كيتي، وذلك التسجيل الغريب الذي يحتوي على مجموعةٍ غير مترابطة من تعليقات أدليتُ بها إلى أفرادٍ آخرين من أُسرتي وأنا في السجن، والذي استمعتم إليه صباح أمس.

إنكم جميعًا على علمٍ كبير بمدى سهولة التلاعُب في مثل هذه التسجيلات وتغييرها. وقد اعترف فنِّيَا الصوت الرئيسيَّان أمس على منصة الشهود أنهما استمعا إلى حوارات دارت بيني وبين أبنائي استغرقت مئات الساعات قبل أن يَخرجا بهذا «الدليل الدامغ» الذي لا يستغرق إلا ثلاثين دقيقة، وأنهما لم يأخُذا من كل حوارٍ سوى ما لا يزيد على «ثماني عشرة ثانية»، وعلى هذا فإنني إن قلتُ إن التعليقات الواردة على لساني في هذه التسجيلات قُدِّمت خارج سياقها فإن ما أقوله أقلُّ مما تقتضيه الحقيقة بكثير.

أما فيما يخصُّ شهادة ابنتي كيتي ويكفيلد فلا يسعني إلَّا أن أقول بأسفٍ شديد إنها كذبت أكثر من مرةٍ في ملاحظاتها الأصلية. إذ إنني ليس لي أيُّ علمٍ بالأنشطة التي يقوم بها زوجي ريتشارد والتي تزعمون أنها غير قانونية، وقطعًا، لم أدعمه في القيام بتلك الأنشطة.

ولعلَّكم تتذكَّرون أن ابنتي كيتي، لدى استجوابي لها، خلطت بين الوقائع، وفي النهاية نفت شهادتها السابقة قبل أن تنهار على منصة الشهود. وقد أخبركم القاضي أن صحة

ابنتي العقلية تدهورت في المدة الأخيرة وأنه عليكم أن تتجاهلوا ما قالتْه تحت وطأة الضغط العاطفي الذي صحب استجوابي لها. وأنا أرجوكم أن تتذكَّروا كل كلمةٍ تفوَّهَت بها كيتي، ليس فقط عندما كان المُدعي العام يسألها ولكن أيضًا عندما كنتُ أحاول أن أعرف منها بالتحديد التواريخ والأماكن التي وقع فيها ما نسبَتْه إليَّ من تحريضٍ على الفتنة.»

اقتربت نيكول من المُحلَّفين مرةً أخيرة وحرصت على التواصُل البصري مع كلٍّ منهم. ثم تابعت حديثها قائلةً: «في النهاية عليكم أن تحكموا أين هي الحقيقة في هذه القضية. وأنا أتوجَّه إليكم الآن بقلبٍ مكلوم لا يستطيع أن يُصدق، حتى وأنا في موقفي هذا، الأحداثَ التي أدت إلى اتهامي بهذه الجرائم الخطيرة. فقد خدمتُ المستعمرة والجنس البشري. ولم أرتكب أيًّا من الجرائم التي اتهموني بها. وإن القوة أو الذكاء الموجود في هذا الكون المُبهر ليُقِرَّنَّ بهذه الحقيقة بغضِّ النظر عما تُسفر عنه هذه المحاكمة.»

يخبو الضوء الموجود في الخارج بسرعة. استندت نيكول متفكرةً إلى حائط زنزانتها وهي تتساءل ما إذا كانت هذه آخر ليلةٍ في حياتها. فارتعد جسدُها رغمًا عنها. فمنذ أن أُعلِن الحُكم ونيكول تخلد إلى النوم كل ليلة منتظرةً أن تموت في اليوم الذي يليها.

أحضرت الجارسيا لها العشاء بعد أن حلَّ الظلام مباشرةً. صار الطعام أفضل كثيرًا في الأيام القليلة الأخيرة. وبينما كانت نيكول تأكل سمكةً مشوية ببطءٍ أخذت تتأمَّل السنوات الخمس التي مرت منذ أن قابلت هي وأسرتها أول مجموعة استكشاف من بيننا. وسألت نفسها: ما الخطأ الذي وقع؟ ما الأخطاء الأساسية التي ارتكبناها؟

وصار بوسعها أن تسمع صوت ريتشارد يملأ أذنَيها. فقد قال في نهاية السنة الأولى إن عدن الجديدة أفضل ممَّا يَستحقُّه البشر، مدفوعًا في قوله هذا بتشاؤمه وعدم ثقتِه في السلوك البشري. وأضاف: «في النهاية سنُخرِّبها كما خرَّبنا الأرض. فما نحمله من موروثات — جميع الموروثات، من نزعة إقليمية وعدوان وسلوك حيواني — أقوى من أن يهذبها أي تعليم أو حكمة. انظري إلى بطَلَي أوتول كليهما: المسيح وذلك الشاب الإيطالي المدعو القديس مايكل السييني. لقد قُتِلا لأنهما قالا إنه على البشر أن يُحاولوا أن يكونوا أكثر من مجرد قِردة ماهرة.»

حدثت نيكول نفسها قائلةً: ولكن هنا في عدن الجديدة كانت فرصة العيش في عالمٍ أفضل أكبرَ بكثير. فمُتطلبات الحياة الأساسية متوفرة. وتُوجَد حولنا في كل مكان أدلةٌ

قاطعة على أن في الكون ذكاءً يفوق ذكاءنا بمراحل. لذا، كان يجب أن تتمخَّض عن هذا بيئة …

أنهت سمَكَتها ومدَّت يدَها إلى حلوى بودينج الشوكولاتة الصغيرة واضعةً إياها أمامها. وذكرتها الحلوى بمدى حُب ريتشارد للشوكولاتة فابتسمت لنفسها، وقالت في نفسها: «أفتقده كثيرًا. وأكثر ما أفتقده فيه هو حواراته ونفاذ بصيرته.»

فزعت نيكول عندما سمعت وقع أقدامٍ متوجهة نحو زنزانتها. وسرت رعشة خوف في جسدها. كان القادمان شابَّين يحمل كلٌ منهما مصباحًا. وكانا يرتديان زيَّ الشرطة التابعة لناكامورا.

دخل الرجلان الزنزانة بطريقةٍ رسمية للغاية. ولم يُقدِّما لها نفسيهما. وإنما أسرع أكبرهما — وهو في منتصف الثلاثينيات على الأرجح — بإخراج وثيقةٍ وبدأ يقرأها. فقال: «نيكول دي جاردان ويكفيلد، صدر حُكم يدينك بجريمة التحريض على الفتنة وستوقَّع عقوبة الإعدام عليك غدًا في تمام الساعة الثامنة صباحًا. سنُقدِّم لك الإفطار في الساعة السادسة والنصف، أي بعد بزوغ الخيط الأول من الفجر بعشر دقائق، ثم سنأخُذك إلى حجرة الإعدام في السابعة والنصف. وفي تمام السابعة وثمانٍ وخمسين دقيقة سنربطك في الكرسي الكهربائي، وبعدها بدقيقتَين سيسري التيار الكهربائي … هل من أسئلة؟»

كان قلب نيكول يدقُّ بسرعةٍ كادت تجعلها عاجزةً عن التنفُّس. فجاهدت لتُهدئ من روعها. كرر الشرطي سؤاله: «هل من أسئلة؟»

سألته نيكول وصوتها يتهدَّج: «ما اسمُك أيها الشاب؟»

أجابها بعد تردُّد نابع من الحيرة: «فرانتس.»

قالت نيكول: «واسم والدك؟»

رد عليها: «فرانتس باور.»

قالت نيكول محاولةً أن ترسم ابتسامةً على وجهها: «حسنًا يا فرانتس باور. هل يمكنك أن تُخبرني كم سأستغرق من الوقت قبل أن أموت؟ أعني بعد أن يسري التيار الكهربائي بالطبع.»

قال بشيءٍ من الارتباك: «لا أعرف بالضبط. ستفقدِين الوعي تقريبًا على الفور، في ثانيتَين فقط. لكنني لا أعرف كم …»

قالت نيكول وقد بدأت تشعر بالوهن: «أشكرك. هل يُمكنكما أن تنصرفا الآن، رجاءً؟ أودُّ أن أختلي بنفسي.» فتح الرجلان باب الزنزانة. فتابعت نيكول حديثها قائلةً: «آه، بالمناسبة، هل يُمكنكما أن تتركا المصباح؟ وورقةً وقلمًا أو حتى كمبيوتر محمولًا؟»

هز فرانتس باور رأسه نفيًا. وقال: «آسِف. لا يمكننا هذا.»

أشارت إليه نيكول بأن ينصرف، ثم سارت إلى الجانب البعيد من زنزانتها. وقالت لنفسها وهي تتنفَّس ببطء لتستجمع قواها: خطابان. لا أريد سوى كتابة خطابَين. خطاب لكيتي وآخر لريتشارد. فقد سويتُ ما بيني وبين الجميع إلا هما.

بعد أن رحل الشرطيَّان تذكرت نيكول الساعات الطويلة التي قضتها في الحفرة في مركبة راما الثانية منذ سنوات عديدة، ذلك الوقت الذي كانت تتوقَّع فيه أن تموت جوعًا في كل لحظة. حينها، كانت تقضي ما كانت تظنُّ أنه أيامها الأخيرة في الإبحار في اللحظات السعيدة التي سبق أن عاشتها. فقالت لنفسها: هذا ليس ضروريًّا الآن. فلا يُوجَد شيء حدث لي في الماضي لم أستنزفه تأمُّلًا بالفعل. وهذا هو النفع الذي عاد به عليَّ قضاءُ عامَين في السجن.

اندهشت نيكول عندما اكتشفت أن عجزها عن كتابة هذين الخطابَين الأخيرين يثير غضبها، فقالت في نفسها: سأحدثهم في هذا مرة أخرى في الصباح. فهم سيسمحون لي بكتابة الخطابَين إن أحدثتُ جلبة كافية. ابتسمت نيكول رغمًا عنها. وظلَّت تُردد بصوت مرتفع (في إشارة إلى أشهر أبيات ديلان توماس عند وفاة والده): «إياك أن ترحل في هدوء ...»

فجأة، شعرت بنبضات قلبها ترتفع مرة أخرى. وسبحت في خيالها فرأت كرسيًّا كهربائيًّا في حجرة مظلمة. ورأت نفسها تجلس فيه ورأسها محاط بخوذة غريبة. ثم بدأت الخوذة تتوهج ورأت نيكول نفسها تميل إلى الأمام فجأة.

قالت في نفسها: يا إلهي الحبيب، أيًّا ما كنتُ وأينما كنت! أرجوك أن تمنحني بعض الشجاعة الآن. فأنا خائفة للغاية.

جلست نيكول على سريرها في ظلامِ غرفتها. ولم يمضِ عليها سوى دقائق حتى شعرت بتحسُّن، بل شعرت بشيءٍ من الهدوء. ووجدت نفسها تتساءل عن طبيعة لحظة الموت. فقالت في نفسها: «أهي تُشبه النوم الذي لا يتبعه شيء؟ أم أن هناك شيئًا خاصًّا يحدث في تلك اللحظة الأخيرة، شيئًا لا يمكن لأي إنسان حي أن يعرفه أبدًا؟»

كان هناك صوت يُنادي عليها من بعيد. تقلبت نيكول لكنها لم تستيقظ بالكامل. فناداها الصوت ثانيةً: «يا سيدة نيكول.»

جلست نيكول بسرعة في فراشها ظنًّا منها أن الفجر قد بزغ. وشعرت بالخوف يغزوها عندما أخبرها عقلها أنه لم يعُد أمامها في هذه الحياة سوى ساعتَين. قال الصوت: «يا سيدة نيكول، أنا هنا، خارج زنزانتك ... أنا أمادو ديابا.»

فركت نيكول عينَيها واشرأبَّت لترى الهيئة الظاهرة في الظلام بجوار الباب. ثم سألت وهي تمشي ببطءٍ إلى الجانب الآخر من الحجرة: «من؟»

«أنا أمادو ديابا. لقد عاونتِ د. تيرنر منذ عامَين في إجراء عملية زراعة قلب لي.»

«ما الذي تفعله هنا يا أمادو؟ وكيف دخلت إلى هنا؟»

«جئت لأُحضر لك شيئًا. ورشوتُ كل من تلزم رشوته لفعل هذا. كان عليَّ أن أراك.»

مع أن الرجل كان لا يبعد عن نيكول سوى خمسة أمتار فإنها لم تستطع أن ترى سوى هيئته غير الواضحة في الظلام. كما أن عينَيها المتعبتَين كانتا تُضللانها. وعندما حاولت بأقصى ما لدَيها من قوة أن تركز، ظنَّت لحظة أن الزائر هو جدها الأكبر أومه. وسرت قشعريرة في جسدها.

في النهاية قالت نيكول: «حسنًا يا أمادو. ماذا أحضرت لي؟»

قال: «يجب أن أوضِّح لك الأمر أولًا. بل إن الأمر قد يظلُّ غير معقول حتى بعد التوضيح ... أنا نفسي لا أستوعِبه تمامًا. كل ما أعرفه أنه كان عليَّ أن أُحضر ما لدي لك الليلة.»

صمتَ لحظة. وعندما لم تجد نيكول ما تُجيبه به، أخبرها بقصته بسرعة كبيرة. فقال: «في اليوم الذي تلا اختياري للانضمام إلى مستعمرة لوويل، عندما كنتُ لا أزال في لاجوس، تلقيتُ رسالة غريبة من جدَّتي السينوفوية قالت فيها إنها تُريدني أن أذهب إليها لأمر عاجل جدًّا. ذهبتُ إليها في أول فرصةٍ سنحت لي، وكان هذا بعد أسبوعين من تلقي الرسالة الأولى، وبعد أن تلقيتُ رسالة أخرى منها تؤكد أن زيارتي لها تُعَد مسألة حياة أو موت.

عندما وصلت إلى قريتها في ساحل العاج كنَّا في منتصف الليل. ورغم هذا فقد استيقظت وارتدت ملابسها على الفور. ثم قُمنا برحلة طويلة في غابات السافانا، وصحبنا في تلك الرحلة كاهن القرية. وعندما وصلنا إلى وجهتنا، وهي قرية تُسمى نيدوجو، كنت قد أرهقت.»

قاطعته نيكول مستوضحةً: «نيدوجو؟»

رد أمادو: «هذا صحيح. على أي حال، قابلنا هناك رجلًا عجوزًا غريبًا لا بد أنه كبير الكهنة أو شيء من هذا القبيل. ظلت جدتي وكاهن قريتها في نيدوجو، بينما قمت أنا وكبير الكهنة برحلة صعود شاقة إلى أعلى جبل قاحل قريب، ثم توجَّهنا إلى شاطئ بحيرة صغيرة. ووصلنا إلى هناك قُبَيل شروق الشمس. وعندما لامست أشعة الشمس الأولى سطح البحيرة، قال الرجل العجوز: «انظر. انظر في بحيرة الحكمة. ماذا ترى؟»»

«أخبرته أنني رأيتُ ثلاثين أو أربعين شيئًا يُشبه البطيخ في قاع البحيرة عند أحد جوانبها.» فقال مبتسمًا: «جيد. أنت من نبحث عنه.»

سألته: «ماذا تعني؟»

«لكنه لم يُجبني قط. سِرنا حول البحيرة بحيث اقتربنا من المكان الذي تغمر فيه المياهُ البطيخَ — الذي لم يعد بوسعنا أن نراه بعدما ارتفعت الشمس في السماء — ثم أخرج كبير الكهنة قارورة صغيرة. ووضعها في المياه ثم قام بتغطيتها وناولني إياها. ثم أعطاني حجرًا صغيرًا تُشبه هيئته وشكله الأشياء التي تُشبه البطيخ الموجود في قاع البحيرة.

قال لي: «هاتان هما أهم هديتَين ستحصل عليهما في حياتك.»

فقلت: «لماذا؟»

بعد هذا بثوانٍ قليلة نبضت عيناه بالانفعال واستغرقته نشوة، وأخذ يشدو بكلام سينوفوي موزون. وظل يرقص عدة دقائق، ثم فجأة قفز في مياه البحيرة الباردة ليسبح.

فصحت: «انتظر لحظة. ماذا أفعل بهديتيك؟»

قال: «خذهما معك أينما تذهب. ستعرف متى تستخدمهما.»»

شعرت نيكول أن صوت دقات قلبها مرتفع جدًّا حتى إن أمادو قادر على سماعها. مدت ذراعيها عبر قضبان الزنزانة ولمست كتفَه. وقالت: «وفي الليلة السابقة أخبرك صوت في حلم، أو لعلَّه لم يكن في النهاية حلمًا، أن تحضر لي القارورة والحجر الليلة.»

قال أمادو: «بالضبط.» وحل عليه الصمت. ثم قال: «كيف عرفت؟»

لم تُجبه نيكول. إذ لم تستطع أن تتحدث. فقد كان جسدها كله يرتعِد. وبعد دقيقة، عندما أحسَّت بالشيئين في يدَيها لم تستطع قدماها أن تحمِلاها، وظنَّت أنها ستسقط. شكرت أمادو مرتَين، وحثَّته على أن يرحل قبل أن يكتشفوا أمره.

مشت ببطءٍ إلى سريرها في الجانب المقابل من الزنزانة. وقالت في نفسها: هل هذا ممكن؟ وكيف يكون هذا ممكنًا؟ هل كان كل هذا معلومًا من البداية بطريقةٍ ما؟ أيُوجَد بطيخ منٍّ على الأرض؟ شعرت نيكول بأن جبلًا حطَّ على جسدها. وقالت لنفسها: لقد فقدتُ القدرة على السيطرة على نفسي، ولم أشرب من القارورة حتى الآن.

مجرد الإمساك بالقارورة والحجر جعل نيكول تتذكَّر بوضوح الرؤيا المبهرة التي رأتها وهي في قاع الحفرة في مركبة راما الثانية. ففتحت القارورة. وأخذت نفسَين عميقَين ثم ابتلعت محتوياتها بسرعة.

في البداية ظنَّت أن شيئًا لا يحدث. وبدا لها أن الظلام لا يزال يُغلفها. ولكن فجأة، تكونت كرة برتقالية هائلة في وسط الزنزانة. ثم انفجرت ناشرةً ألوانًا كثيرةً في الظلام.

وتبع هذا تشكُّل كرة حمراء ثم كرة أرجوانية. وبينما كانت نيكول ترجع إلى الوراء تأثرًا بالانفجار الأرجواني سمعت ضحكةً عالية صدرت من خارج الشباك. فنظرت باتجاهها. وإذا بالزنزانة تختفي. وتجد نيكول نفسها في حقلٍ في الخارج.

كان الظلام قد حلَّ ولكنها كانت لا يزال بوسعها رؤية الملامح الأساسية للأشياء. سمعت الضحكة مرةً أخرى قادمة من بعيد. فنادى صوت بداخلها: أمادو. جرت نيكول عبر الحقل بسرعة خارقة. وحاولت اللحاق بالرجل. وبينما كانت تقترب منه تغيَّر وجهه. لم يعد الرجل هو أمادو على الإطلاق. وإنما صار أومه.

ضحك ثانية، فتوقفت نيكول. وناداها: «روناتا.» ظل وجهه يكبُر ويكبُر حتى بلغ حجم سيارة ثم حجم منزل. وكانت ضحكته عالية إلى حدٍّ كاد يصيبها بالصمم. ثم صار وجهه بالونًا ضخمًا يرتفع ويرتفع في سماء الليل المظلم. وضحك مرةً أخرى، ثم انفجر وجهه البالوني ممطرًا نيكول بالمياه. غطتها المياه. وغمرتها حتى صارت تسبح تحت سطحها. وعندما صعدت إلى السطح وجدت نفسها في بحيرةٍ بواحةٍ في ساحل العاج، تلك الواحة التي واجهت فيها اللبؤة أثناء انعقاد جمعية بورو السرية وهي في السابعة من عمرها. كانت نفس اللبؤة تتجول في المكان المحيط بالبركة. ووجدت نيكول نفسها تعود طفلةً صغيرةً مذعورةً.

قالت نيكول لنفسها: أريد أمي. وأخذت تشدو بأغنيةٍ من أغاني الأطفال قالت فيها: «هيا نامي واستريحي، أرجو أن يُبارك الربُّ نومك.» بدأت نيكول تمشي خارجةً من المياه. ولم تُضايقها اللبؤة. نظرت نيكول إلى اللبؤة مرةً أخرى فوجدت أن وجهها يتحول ليُصبح وجه أمها. جرت نيكول نحو أمها لتُعانقها. ولكنها تحولت فأصبحت هي نفسها لبؤة تتجوَّل على شاطئ بحيرة الواحة في وسط غابات السافانا الأفريقية.

أصبح في البحيرة ستة أفراد يسبحون، كلهم أطفال. وبينما كانت اللبؤة نيكول تُواصِل الشدو بالأغاني التي كتبها الشاعر برامس للأطفال، بدأ الأطفال يخرجون من البحيرة واحدًا تلو الآخر. كانت جنيفياف أول من خرج وتبعتها سيمون ثم كيتي ثم بينجي ثم باتريك ثم إيلي. ومرُّوا جميعًا بها مُتَّجهين نحو غابة السافانا. فجرت خلفهم.

كانت نيكول تجري على أرضٍ يُحيط بها مضمار عدوٍ في استاد مزدحم. عادت نيكول إلى هيئتها البشرية وصارت شابةً رياضية. أُعلِن عن قفزتها الأخيرة. وبينما هي تتوجَّه نحو حافة مضمار القفزة الثلاثية، اقترب منها قاضٍ ياباني. كان القاضي هو توشيو ناكامورا. قال لها وهو عابس: «ستُخالفين قواعد اللعبة.»

ظنت نيكول أنها تطير وهي تنطلِق بسرعة في الممر. ولمست الرقعة التي تقفز عندها بمهارةٍ مرتفعة في الهواء، ثم قامت بقفزةٍ متوازنة، مكَّنتها من أن تنطلق بعيدًا إلى قلب حفرة الرمال. علمت أن قفزتها كانت رائعة. فأسرعت إلى حيث تركت ملابسها الرياضية. وجاء إليها أبوها وهنري يحتضنانها. وقالَا معًا: «أحسنت. أحسنت.»

أحضرت جان دارك الميدالية الذهبية إلى منصة الفائزين وعلقتها حول رقبة نيكول. كما أعطتها إليانور الأكويتينية عشرات الورود. ووقف كينجي واتانابي بجوارها هو والقاضي متشكِّين وهنآها. وقال المعلق إن قفزتها حققت رقمًا قياسيًّا جديدًا. فصفق لها الجمهور. نظرت نيكول إلى الوجوه الكثيرة فلاحظت أن الجمهور لا يقتصر على البشر. إذ كان الرجل النسر جالسًا في مقصورة خاصة بجوار مجموعة كاملة من كائنات الأوكتوسبايدر. وكان الجميع يحيونها ومن بينهم المخلوقات الطائرة والمخلوقات المستديرة ذات المجسات الرفيعة، وكذلك عشرات من المخلوقات التي تُشبه ثعبان البحر الذي يرتدي عباءة والتي لصقت أجسادها بنافذة حوض مغلق عملاق. فلوحت نيكول لهم جميعًا.

تحول ذراعاها إلى جناحَين وبدأت تطير. صارت نيكول صقرًا يحلق عاليًا فوق القطاع الزراعي في عدن الجديدة. نظرت إلى أسفل حيث المبنى الذي كانت محبوسة فيه. ثم استدارت غربًا ووجدت مزرعة ماكس باكيت. ومع أن الوقت كان منتصف الليل فقد كان ماكس بالخارج يعمل في مكانٍ بدا أنه ألحق بإحدى الحظائر الخاصة به.

واصلت نيكول الطيران نحو الغرب متجهةً إلى أضواء فيجاس الساطعة. وعندما وصلت إلى مجمع المباني بدأت رحلة الهبوط طائرةً خلف النوادي الليلية الكبيرة واحدًا تلوَ الآخر. كانت كيتي تجلس في الخارج على سلالم خلفية بمفردها. كانت تدفن وجهها في يدَيها وجسدها يرتعش. حاولت نيكول أن تُهدئها لكن لم يصدُر منها سوى صرخة صقر شقَّت سكون الليل. فرفعت كيتي بصرها إلى السماء متحيرةً.

طارت نيكول نحو بوسيتانو بالقُرب من مخرج المنطقة السكنية وانتظرت حتى يفتح الباب. لكن الصقر نيكول رحلت عن عدن الجديدة بعد أن أخافت الحارس. ووصلت إلى أفالون بعد أقل من دقيقة. فوجدت روبرت وإيلي ونيكول الصغيرة يجلسون في حجرة الانتظار مع بينجي في المستشفى، ومعهم عامل من عمَّالها. لم تعرف نيكول لِمَ كانوا مُستيقظين في منتصف الليل. فنادت عليهم. فمشى بينجي إلى النافذة وحدَّق في الظلام في الخارج.

سمعت نيكول صوتًا يُناديها. وكان الصوت ضعيفًا قادمًا من الجنوب. فطارت بسرعة نحو المنطقة السكنية الثانية ودخلت من الحفرة الواسعة التي حفرها البشر في الجدار

الخارجي. وبعد أن أسرعت بالمرور عبر الحلقة ووجدت مدخلًا يؤدي إلى المنطقة الداخلية من المسكن، حلقت فوق المنطقة الخضراء. وعندها لم يعد بوسعها أن تسمع الصوت. ولكنها رأت ابنها باتريك يُخيم مع جنود آخرين بالقُرب من قاعدة الأسطوانة البُنية.

قابلها مخلوق طائر ذو أربع حلقات زرقاء مخضرة وسط السماء. وقال لها: «لم يعُد هنا. ابحثي عنه في نيويورك.» خرجت نيكول بسرعة من المنطقة السكنية الثانية وعادت إلى السهل المركزي. وهناك سمعت الصوت ثانيةً. فأخذت ترتفع في الهواء. وكادت أن تعجز عن التنفُّس.

طارت نحو الجنوب فوق الحائط المُحيط بنصف الأسطوانة الشمالي. حتى صار البحر الأسطواني تحتها. وصار الصوت أكثر وضوحًا. فأدركت أن الصوت هو صوت ريتشارد. ودقَّ قلب الصقر فيها بسرعة شديدة.

كان ريتشارد يقف على الشاطئ أمام ناطحة سحاب ويلوِّح لها. وقال: «تعالي إليَّ يا نيكول.» رأت عينَيه رغم الظلام. وبدأت تهبط حتى حطَّت على كتفه.

عاد الظلام يُغلفها. وعادت إلى زنزانتها. هل كان هذا صوت طائر سمعته يطير خارج نافذتها؟ كان قلبها لا يزال يخفق.

مشت إلى الجانب الآخر من الغرفة الصغيرة. وقالت: «شكرًا لك يا أمادو. أو يا أومه.» وابتسمت. ثم قالت: «أو يا الله.»

تمدَّدت نيكول على سريرها. وبعد ثوانٍ قليلة غلبها النوم.


هنداوي